المهدي المنجرة

الحرب الحضارية الأولى

المركز الثقافي العربي

المهدي المنجرة

الحرب الحضارية الأولى

مستقبل الماضي وماضي المستقبل

المركز الثقافي العربي

الكتاب

الحرب الحضارية الأولى

تأليف

المهدي المنجرة

الطبعة

الثامنة، 2005

عدد الصفحات: 488

القياس: 17 × 24

جميع الحقوق محفوظة

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 ـ 2307651

فاكس: 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

الايـداع : 1991/558

سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد

الآية 52، سورة فصلت

الطبعة السابعة

في نقاش حول مستقبل العلاقات الدولية، ببرنامج بالمحطة التلفزية اليابانية K.H.N ، يوم 2 أكتوبر 1986، عبر الخبير المستقبلي "المهدي المنجرة عن يقينه أن الحروب القادمة ستكون حضارية. وأكد هذا المفهوم في حوار مع الألماني "دير سبيغل"، عام 1991 هادفا بذلك إبراز دور القيم الحضارية والثقافية في إذكاء الصراع الدولي وفي الفصل العاشر من كتابه "صدام الحضارات"، الصادر عام 1996، يعترف "صامويل هانتنغتون" بمرجعية مفهوم "الحروب الحضارية" للدكتور "المهدي المنجرة".

وقد بلور مفهومه هذا، بإماطة اللثام عن الماورائيات المضمرة في حرب الخليج الثانية، وعن طبيعة الصراع العربي الإسرائيلي المضمرة تحت لواء الحروب الحضارية، مؤكدا أن الانتفاضة الفلسطينية ليست مجرد حدث عرضي سينتهي بمجرد انطفاء فتيله، ما دامت مجمل مسبباته داخلية، منبعها الجسد العربي المنشطر، المنبطح، وهي الفكرة التي اختمرت في هذا الكتاب مطلع التسعينات من القرن المنصرم، لتنضج مطلع القرن الآتي، كتابه (انتفاضات في زمن الديمقراطية)، متجاوزا بذلك في رؤياه مفهوم الانتفاضة القطرية، إلى انتفاضات عربية وثالثية، في زمن طغت فيه الأقنعة حتى أسقطت نفسها.

وهذا ما تعبر عنه لوحة الغلاف التي لا تعدو أن تكون هي الأخرى انتفاضة فنية للمبدع " أحمد بن يسف" ، اصطحبها بكلمات تعكس المجسد باللوحة والكتاب. عندما انبجس مفهوم "الحرب الحضارية، لأول مرة، عد من قبل الكثيرين وقاحة ومبالغة إلا أن هذه الوقاحة جعلت المفهوم معتمدا في الدراسات والأبحاث المتعلقة بالعلوم السياسية والعلاقات الدولية، كما منحت الكتاب -الذي تكلم فضلا عن لغة الحقيقة الواقعة والمتوقعة، لغات عدة : العربية، الفرنسية، الإنجليزية واليابانية – سيرورة الصدور للمرة السابعة بالمغرب والطبع ببلدان عربية كالجزائر ، مصر ... وأخرى غير عربية كاليابان الذي تنتظر أسواقه الطبعة الثانية، بعد نفاذ الطبعة الأولى، بالإضافة إلى نشره على صفحات الانترنيت باللغتين، الإنجليزية والفرنسية.

ونجاح الكتاب دفع بالمؤلف إلى إنشاء جائزة التواصل الثقافي شمال، جنوب، إيمانا منه بأن الخطاب التواصلي لا الاستعلائي والتعاون الفعلي لا الإدعائي بين الشعوب آليتان لا مندوحة عنهما، لإستمرار التلاقح الحضاري والإنساني.

تتزامن هذه الطبعة ونشوب الحرب الحضارية الثانية، التي ستُوقع عمليا على بداية نهاية الهيمنة الأحادية. ويعد هذا نتيجة طبيعية لتبني منطق القوة بدل المنطق التحاوري مع الشعوب والأمم، التي عانت في ظل ما يسمى بالنظام الدولي الجديد من اختلال هذا الأخير، وكمنهجيته وسعيه للحفاظ على مآربه نظير امتصاص دماء الضعفاء. هؤلاء الذين أذيقوا ويلات الحروب العسكرية الدولية والأهلية والإقليمية، وكذا الحروب الاقتصادية والمحاصرة

لوحة الغلاف... مرة آخرى

أحمد بن يسف

اقول مرة أخرى . لأنها المرة الثانية التي اقوم بكتابة حول ما قدمته في لوحة لغلاف الكتاب ، خاضعا لموضوعه او بالاحرى انها قراءة تشكيليه في محتوياته تحت عنوان " الحرب الحضارية الاولى مستقبل الماضي وماضي المستقبل". فلا باس بان اذكر القراء الاعزاء لهذا الكتاب ان تجربتي الاولى من هذا النوع كانت على صفحات سلسلة شراع الشهرية في عددها الثاني و العشرين " المقاومة الريفية" للاستاذ و الباحث محمد خرشيش و التجربة الحالية تخضع لنفس المنهاج منهاج المقاومة و الدفاع عن القيم والكرامة الانسانية واحتجاجا على خلفيات و مخلفات حرب الخليج على الشعب العراقي بالاضافة الى العلاقة الحميمية التي تجمعني بالصديق المهدي المنجرة ووحدة الرؤية في شتى المواضيع و التقدير و الاحترام الذي أكنه لمواقفه و افكاره النيرة. ان مفكرا من طينة الدكتور المهدي المنجرة يصعب على فنان تشكيلي ترجمة اعماله وافكاره الى لغة التصوير او التشكيل ولكن مهما كانت مثل هذه الصعوبة داخل كل اللمسات التي تكون لوحة الغلاف فهي انفعالات باطنية تعكس جوهر الموضوع منبعثة من نفس المنبع و التجاوب رغم اختلاف لغة التعبير. إن لوحة غلاف الكتاب " الحرب الحضارية الاولى مستقبل الماضي وماضي المستقبل" ، مركبة وموزعة على قسمين: يفرقهما خط او فضاء افقي يفصل بين الارض و السماء ، بين الحياة و الموت. بين المعتدى و المعتدى علية . ففي القسم الاسفل " الارض" وما عليها من حياة. و اطلال و سلام ، و ثقافة مقصودة مستهدفة بضربات جوية بالقنابل و الغازات من القسم الاعلى بطائرة حربية على شكل حمامة مرسومة بكل حرية ، و التصرف في التقنية لخلق أنسجام بين القسم الأعلى و الأسفل بخطوط و أشكال و ألوان تربطهما بالحدث و المدلول الادبي و الفلسفي و الواقعي للموضوع .

وفي نفس الوقت تعطى للوحة الايقاع و الاتزان و الانسجام بين ما يحصل بين القسمين . إن هذه الخطوط و الاشكال و الالوان مطروحة بكل حرية مع اختيار النماذج المستعملة لبناء هذا العمل سواء من باب الفلسفة أو الموضوع أو التركيب. لا تخضع لقانون التقنية الكلاسيكية . ففي عالم الخلق و الابداع، لا بد من معرفة التقنية و تجاوزها أحيانا. فاهتمامي الاول في العمل الفني، هو النتيجة الايجابية للوحة قبل الخضوع لقوانين التقنية و الاكاديمية ، قد تكون في بعض الاحيان تجميد الحس و الفكر و التقييد بها وتكون لها مردودية سلبية على العمل، مع العلم ان معرفتها تمنح للمبدع حرية التعبير، وهذا سيكون في رأي بعض القراء تناقضا. نعم انه تناقض ايجابي في هذا الميدان و لا يوجد اي فن من الفنون بدون جدل حاد داخلي مشحون بكثير من الشك ، فعلى سبيل المثال إن هذه اللمسات و الأشكال المذكورة لها سيكولوجياتها ، و تنتهي بريشة حمامة طبيعية اصلية ملصقة على أجنحة الحمامة، هذه الحمامة التي يقول فيها و عليها الصديق و الاعلامي خالد مشبال " هذا الطائر الوديع

الذي يرمز للمحبة و السلام دواء بن يسف الناجع لكل الحالات المستعصية التي يشخصها في موضوعات رسمه". في موضوع لوحة غلاف هذا الكتاب ان الحمامة لها وظيفة و دلالات اخرى تختلف و تتناقض مع شعارها ورمزها المعروف و المألوف، فاللوحة لها عدة قراءات، الغاية ، الوسيلة و المادة المستعملة ، و الوظيفة، وربط هذا كله بالمكان و الزمان و الحدث المطروح. ان هذه اللوحة مرسومة بتقنية مختلطة، ألوان مائية شفافة و ثقيلة و كولاج collage متصرف في هذه التقنيات ، منطلق من الكتاب و الحدث الذي ما زال يعاني منه الشعب ... و الشعوب، إذا كان هذا المحرك الاساسي منبعثا من الانفعالات الباطنية التي تكسر كل المفاهيم التقنية الكلاسيكية ، و تحمل المبدع إلى عالم التقنية الطبيعية و الشخصية. إن لغة التشكيل هي في الحقيقة صعبة التحليل و التنظير و خصوصا لما يسند الأمر لصاحب العمل نفسه. فالألوان ودرجتها و الخطوط و الرسوم و التراكيب و التوازن بينهما يحمل تعابيرا ورموزا و أحاسيسا تحدث المغالطة الشعورية، و اختلاف الرؤية و الاحاسيس إلى نفس المنظور . مع العلم ان المتلقي ينطلق بفكرة ثابتة بأن الصورة أو اللوحة لا بد أن تروي قصة أو تطرح موضوعا ، و إذا كان هذا أحد محتويات اللوحة إلا أنه لم يكن وظيفة الفن الوحيد. ففلسفة اللوحة ومكوناتها الجمالية عديدة، ومركبة وينحصر أو يتسع أفقها حسب حاسية المتلقي أو المشاهد. وكم مرة يحس الفنان بعجز عن إعطاء شروحات على ما قدمه، ويبرر عمله و طريقته لرسم الأشياء بأنه " يحس أو يشعر بها هكذا" .مرة كتب لي صديقنا المفكر و الكاتب خوان كويتيسولو " أن الكلمات لا يمكن لها ان تعبر عما تعبره أنت بالألوان". وفي هذا الشأن قال الفنان الانطباعي الفرنسي كلود منط Claude Monet كل العالم يحب ان يفهم فن الرسم و المهم هو أن يحبه"

... و لا غالب إلا الله .

إهداء

أهدي هـذا الكتاب لأرواح ضحايا جميع الشعوب، من جميع الأجناس، ومن جميع الثقافات، ومن كل فصيلة وعمر، ومن جميع الأزمنة، الذين سقطوا أو عانوا ماديا أو معنويا من تحرشات وعنف المدنيين والعسكريين، الناتجة عن اللامبالاة والشطط في السلطة لإنتهاك الحريات المدنية، وفرض هيمنة ثقافية واجتماعية قطرية أو دولية، تهدف للحد من التعددية السياسية، وتحول دون التنوع الثقافي.

أهديه لذاكرة 350,000 قتيل، من بينهم ما بين 200.000 إلى 250.000 قتيل فعلي، وما بين 100.000 و 150.000 مهددون بالقتل خلال السنة المقبلة، و 700.000 جريح، وأهديه أيضا إلى أزيد من مليون طفل وبالغ، يشكون من معوقات شتى من جراء الإبادة الناتجة عن الحرب العالمية الأولى حقا، والتي واجه فيها بلد واحد يضم 17 مليون نسمة، كتلة مكونة من 37 دولة تضم قرابة 1500 مليون نسمة ومقادة من طرف جحافل الدمار المتجسدة في ثلاث قوى غربية أعضاء في مجلس «الأمن».

أهدي هذا الكتاب أيضا لمستقبل الذاكرة الجماعية للإنسانية التي لا يمكنها أن تنسى بتاتا، ولجميع المدافعين عن السلام.

المهدي المنجرة

يخصص المؤلف مدخوله من هذا الكتاب
لتشجيع البحث العلمي المستقبلي الخاص
بالمواجهة الحضارية بين الشمال و الجنوب

تقديـــم عـــام

يأتي هذا الكتاب مساهمة من الدكتور المهدي المنجرة لتسليط الأضواء على ما جرى ويجري داخل منطقة الخليج والعالم العربي والإسلامي والعالم الثالث خاصة. يتميز هذا الكتاب بتنوع الزوايا التي كتب فيها المؤلف عن هذه الحرب في أبعادها الأربعة: العسكرية والحضارية والسياسية الاقتصادية والاستراتيجية. غير أن الرابط الذي يجمع كل هذه الزوايا هو الرغبة الملحة في استشراف المستقبل استشرافا علميا يستند الى أدق مناهج وآليات البحث المستقبلي، وهو ما يبرر الربط الذي نجده في هذا الكتاب بين حرب الخليج وبين مستقبل العالم الثالث الذي تمثل هذه الحرب في تاريخه تحديا هيمنيا جديدا.

يتكون هذا المؤلف من أربعة فصول كبرى ومتتابعة: الفصل الأول الذي ينطلق من 2 غشت 1990 الى حدود 17 يناير 1991، تاريخ اندلاع العدوان على العراق؛ وهي المرحلة التي يسميها الدكتور المهدي المنجرة بمرحلة «عهد ما بعد الاستعمار»؛ وتتضمن مقالات وحوارات أنجزها المؤلف خلال مرحلة ماقبل الحرب، يحلل فيها أبعاء الأزمة وآثارها وأسبابها، ويتنبأ فيها منذ 12 أكتوبر 1990بحتمية التطور الى مستوى النزاع المسلح.

الفصل الثاني، ويؤرخ لمرحلة ما بعد ١٧ يناير، إثر اندلاع العدوان ضد العراق، كانطلاق لأول حرب عالمية أولى حقيقية، وكبداية لأول صراع حضاري واضح بين الشمال والجنوب. يحلل الدكتور المنجرة خلال هذا الفصل تطورات الحرب وما انكشف خلالها من ازدواجية لدى الغرب "المصنع / المتوحش"، تنم عن عطش استبدادي وهيمني. ويخصص خلال هذا الفصل جزءا هاما من تحليله لكشف تناقضات الغرب بين ما كان يحمله من شعارات وبين ما عبر عنه خلال الحرب، كما يركز هذا الفصل على تحليل أبعاد الحرب باعتبارها بداية لصراع دائم ستحتد درجته ما بين الشمال والجنوب. وفي نهاية هذا الفصل يتناول المؤلف الجانب المتعلق بآفاق هذه الحرب خلال المستقبل القريب والمتوسط على العالم الثالث عامة والعالم العربي والإسلامي خاصة، سواء في علاقته مع نفسه أو مع دول الشمال.

أما الفصل الثالث، فهو عبارة عن مجموعة من دراسات كتبت خلال فترات متباينة في الفترة ما بين 1957 و 1991، يكشف فيها المؤلف بوعي مستقبلي عن حجم الأخطار المسلطة على دول الجنوب، لتركيز مظاهر التخلف فيه، وكذلك عن مستقبل هذا الجنوب ـ والذي يظهر تحققه خلال هذه الحرب بالنسبة لجزء كبير من التوقعات التي طرحها الدكتور المنجرة منذ بداية الثمانينات، غير أن أهمية هذا الفصل تمكن في الآفاق التي يحللها لمستقبل العالم الثالث على عتبة عام 2000.

وينتهي هذا المؤلف بفصل خاص بالملحقات؛ ملحق خاص بالتاريخ العلمي للكاتب، معزز ببعض الأنشطة التي قام بها الدكتور المهدي المنجرة، وكذا الرسائل المفتوحة التي بعثها.

ويبقى الكتاب مرجعا لا غنى عنه لفهم الأبعاد العميقة لهذه الحرب، ومرجعا نظريا وتطبيقيا في نفس الآن للدراسات المستقبلية.

الحاضر ليس في واقع الأمر غير مستقبل لماض معطى مسبقا، ويحمل معه كل ما خلفه هذا الأخير، وبالقدر نفسه نجد للماضي مستقبله كما نجد للمستقبل ماضيه.

كلمة شكر

نشكر كل المنابر الفكرية والعلمية والإعلامية الوطنية والمغاربية والعربية، التي كانت مجالا حرا لمتابعة هذه المعركة التي خاضها العراق، نيابة عن العالم الثالث، ضد أطماع هيمنة الشمال، بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، وأخص هنا:

جريدة العلم، جريدة الاتحاد الاشتراكي، جريدة ليبراسيون، جريدة الخضراء، جريدة الخبر، المساء، السلام، الجزائر أكتوياليتي، الاذاعة الجزائرية، الاذاعة الجامعة بالجزائر، التلفزة التونسية، مجلة حقائق، الموقف، لابريس، البطل، مجلة فوتوريبل الدولية Futuribles، مجلة اليوم السابع، مجلة المستقبل العربي، مجلة تحولات اللبنانية، التلفزة الجزائرية، أوريزون (الجزائر)، لوجون انديبوندن (الجزائر)، إذاعة بغداد، مجلة المستقبل الاسلامي، مجلة العالم بلندن، وإذاعة هيلفرسن الهولندية.

وقد أشرفنا على إعداد فصول هذا الكتاب وترجمة بعض نصوصه بتشوار دائم فيما بيننا بعضنا البعض، وباتصال مستمر مع الدكتور المهدي المنجرة، ووجدنا المساعدة والعون عند عدد من الإخوة الزملاء الذين ساهموا بقسط وافر في اكتمال هذا العمل.

تجدر الإشارة هنا الى أننا كنا منشغلين بأعمال الدكتور المهدي المنجرة منذ أكثر من سنتين في إطار ما كنا نبحث فيه «سوسيولوجيا الشمال والجنوب عند الدكتور المنجرة»... غير أن تسارع أحداث أزمة الخليج دفعنا إلى التعجيل بالجزء الأول من مشروع أكبر لأعمال الدكتور المنجرة ولعدد من الدراسات السوسيولوجية حول فكره وارائه ونوعيته في البحث.

نشكر كل الاخوة الذين ساهموا في إعداد هذا الكتاب، ونخص هنا:

– المصطفى الرزرازي: منسق فريق البحث الإنساني التكاملي وصحفي.

– محمد بريش : مهندس وعضو الجمعية المغربية للمستقبليات - عضو فريق البحث.

– مصطفى عياد : أستاذ بجامعة محمد الخامس - عضو فريق البحث.

– عبد الفتاح الفاكهاني : صحفي.

– يوكو طامورا : عضو مراسلة من اليابان لفريق البحث الانساني التكاملي.

– عمر إيليم الشطي : باحث نفساني (تونس) - عضو فريق البحث.

– جملية بلوح : باحثة في الفكر الاسلامي - عضو فريق البحث.

– صادق حماد : أنثروبولوجي - عضو فريق البحث.

– حسن أحجيج : باحث في علم الاجتماع.

– العربي الصبان: كاريكاتوريست - (على مساهمته ببعض أعماله الفنية ضمن هذا الكتاب).

– بديعة السائغ : مراسلة مجلة «المسلم المعاصر».

– أحمد إفزارن – صحفي.

– وامنة المريني.

الفصل الأول

2 غشت 1990

أزمة الخليج:

بداية عهد ما بعد الاستعمار

- أسبابها وآفاقها المحتومة -

مستقبل الماضي

1- الحوار العربي الأوربي والانتفاضة الفلسطينية

2- أزمة الخليج: بداية لعهد ما بعد الاستعمار

3 - ستقوم الحرب

4- واقع ومستقبل التخلف العربي على ضوء التحولات العالمية

5- العالم الإسلامي والمستقبل

6- حوار حول أفق الأزمة.

7- في ندوة «النوفل أوبسيرفاتور»

8- عن أزمة الخليج وأزمة التخلف العربي

9- مستقبل الوطن العربي: ثلاث مشاهد

الحوار العربي الأوروبي والانتفاضة الفلسطينية (×)

التقينا الدكتور المهدي المنجرة للمرة الأولى في مطلع هذا العام في الطائرة التي كانت تقلنا من باريس إلى الدار البيضاء. كان يقضي وقت الرحلة برفقة كمبيوتر صغير، ومن خلاله بدأ يفسر لنا أراءه ومواقفه ونظرته إلى الشؤون العربية والإسلامية، ويعود كل مرة تعوزه الحجة أو الرقم أو الواقعة، إلى آلته الصغيرة باحثا عن نص أو اسم أو تاريخ. يومها حدثنا عن تجربته وعن أسفاره الممتدة على عشرات الآلاف من الكليومترات وعلى عشرات الدول، ناهيك عن مئات الندوات والمؤتمرات. وتقريبا على كل شركات الطيران أو القسم الأكبر منها ... بعد ذلك تواعدنا على اللقاء في باريس.

تجربة الرجل غنية يصعب حصر آفاقها، ومع ذلك فإن أحدا لم يناقش هذه التجربة ولم يوظف خبرة المنجرة في مشاريع تنموية أو ثقافية أو مستقبلية، والرجل لايسعى إلى شيء، فهو يكتفي بوظيفته كأستاذ في جامعة محمد الخامس في الرباط، وبمركزه في جمعية المستقبليين في فرنسا. «اليوم السابع» التقت المنجرة في باريس وحاولت أن تقرأ معه مستقبل القضايا التي تهم العالم العربي والإسلامي.

• كيف يمكن تحديد ميدان علم المستقبليات وما الفرق بين هذا العلم والتنجيم وبين هذا العلم والكمبيوتر؟ أين يقع هذا العلم بين الحدين المذكورين؟

هنالك خطأ شائع في استعمال عبارة علم. فالدراسات المستقبلية بدأت في الحقيقة بطريقة شبه علمية أو محاولة تبنى على أساس علمي بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. وأول دراسة نشأت في 45-46، وقام بها معهد مشهور في كاليفورنيا، هو «راند كوربوريشن» (NOTTAROPROC DNAR)، وبطلب من وزارة الدفاع الأمريكية، كانت تريد أن تعرف ما هي التوقعات في تطور العلوم البحتة خلال العشرين سنة المقبلة، وماذا سيجد في ميدان الكيمياء والفيزياء، وفي الرياضيات والبيولوجيا إلى غير ذلك. وقامت «الراند كوربوريشن» بهذه الدراسة. وبعد عشرين سنة تبين أن أكثر من مئة بالمئة من التوقعات قد تحققت، وهذا كان أول درس. أما في الدراسات المستقبلية فكل ما يمكن للإنسان أن يتوقعه هو أقل مما يحدث لسبب واحد وهو ما يسمى بالتسارع التاريخي. فالدراسات المستقبلية هي قبل كل شيء طريقة تفكير، والفرق بينها وبين

(×) 5 يوليوز 1990

التفكير اليومي هو أن هذا الأخير تفكير خطي، كأن نقول مثلا في الاقتصاد أن المعدل في السنوات العشر الماضية في الانتاج الزراعي كان كذا وكذا،ونبني توقعنا عما سيحدث في السنوات العشر المقبلة على أساس ما حدث في العشر سنوات الماضية، كأن التطور وكأن الحياة والمجتمع والاقتصاد شيء خطي يسير بطريقة معينة. والدراسات المستقبلية بالعكس تحاول أن تتوقع ما هي التغيرات الجذرية التي بدأت الآن والتي يمكن أن تتكون في المستقبل، وماذا سيكون تأثيرها على هذا التطور. ولهذا ليس هنالك حل واحد في الدراسات المستقبلية بل نوع من التعددية، ونقول في هذه الدراسات أنه من الممكن بعد عشر سنوات أن نصل إلى كذا، لكن هذا يتطلب أن ابتداء من اليوم يجب أن نعمل كذا إذا ما توفرت الشروط وعملنا كذا وكذا يمكن أن نصل إلى سيناريو به يمكن أن تساعد هذه الدراسات على اختيارات على الأمد الطويل، لكن بعلاقة مباشرة مع الواقع كما هو وحتى مع الماضي.

- يعني ذلك أن كل وزارة بحاجة لباحث في الدراسات المستقبلية.

أقول لك إن أول من اهتم بالدراسات المستقبلية هي وزارة الدفاع في أمريكا. بعد ذلك، وإلى حد رأينا أن الدراسات المستقبلية والدراسات الاستراتيجية جزء منها موجودة بنسبة 40-45 بالمئة في الميدان العسكري وخصوصا عند الدول الكبرى. و 30-40 في المئة هو عند الشركات المتعددة الجنسية. وليس صدفة أن جون كينيدي في أوائل الستينات وجد تفوقا في الاتحاد السوفياتي على امريكا في ميدان الفضاء، فأخذ قرارا سياسيا لا علاقة له بالواقع الحقيقي ولا بدارسة علمية، وقال إن أمريكا ستصل إلى القمر بعد عشر سنوات. وعندها صار هذا قرارا سياسيا، وهو يشكل أولوية لأمريكا. بعد ذلك تحدث إلى المختصين والتكنولوجيين وبحثوا الامكانيات وقالوا له إذا كنت تريد أن تصل إلى القمر بعد عشرين سنة فإن هذا ممكن بالميزانية الحالية أما في عشر سنوات فهذا يتطلب أن نعمل كذا وكذا. وهكذا تحقق مشروع «أبولو» في المدة المعينة والميزانية المعينة وبخطة معينة.

وإذا قلنا في العالم العربي نريد عربسات، فإننا نشتري آلة بدون بحث علمي وخطة سياسية لاستعمال واستغلال هذه الآلة، إلا أحيانا للبرامج المحدودة. أعتقد أن القمر يجب أن يكون ضمن خطة سياسية وإرادة معينة وهدف واضح وإلا فقد دوره الاستراتيجي.

وعلينا أن نعرف أن الوضع اليوم تغير بصورة جذرية، وكل إنتاج العشرة آلاف سنة الماضية يمكن أن ينتج مثله في السنوات السبع القادمة. وفي كل ٩٠ ثانية هناك مقال علمي ينشر في مكان في العالم. وأن كل سنة هناك تقريبا ٩٠٠ ألف كتاب جديد. هذا التراكم للمعرفة أدى إلى ديناميكية جديدة تسمى بالتسارع

التاريخي وأنك ملزم بأن تفكر مستقبلا في التغيرات قبل أن تحدث. وإذا انتظرتها كي تحدث فإنك أصبحت جزءا من العالم الذي حكم عليه أن يبقى في التبعية أي أن يظل تابعا لمن فكروا بالتغيرات قبله.

في كل شركة من الشركات المتعددة الجنسية إدارة خاصة بالدراسات المستقبلية، وأولها شركة سوني التي عينت سنة 1970 مديرا عاما يفكر فقط مع إدارته في التطورات التي ستشهدها السوق سنة 2000 يعني 30 سنة إلى الأمام.

- هل أنت مع قيام منتدى دراسات للتخطيط للعالم العربي؟

الدراسات المستقبلية محتاجة إلى تعددية ليس في التفكير المستقبلي فحسب، ولكن في المجالات التي يدرس فيها المستقبل. والحمد لله هناك اهتمام في العالم العربي منذ عشر سنوات بدراسات جدية لكن حتى الآن هذه المبادرات قاصرة على أشخاص وجماعات يشتغلون في جامعات في العالم العربي ومؤسسات مثل مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت الآن، وبالخصوص بالتعاون على المستوى الدولي مثلا : مشروع المستقبليات العربية البديلة الذي قام به منتدى العالم الثالث في القاهرة مع جامعة الأمم المتحدة. وهنالك على الأقل ثلاث دراسات تهم مستقبل العالم العربي كلها قام بها عرب، ومولت بطريقة غير حكومية بمعظمها. ولكن مع الأسف أن هذه الدراسات (30 ألف صفحة) لم تجد حتى الآن أي مسؤول في أي حكومة أو أي وزارة لديه فكرة عنها، وإذا أخذت مسؤولين في السوق المشتركة في بروكسيل وفي «الكي دورسيه» والكرملين واليابان ستجد أن هذه الدراسات حللت ودرست واستخلصت منها أهم الإحصائيات، ومن ناحية معرفية.

ولكن داخل بلادنا أنا أتحدى أن تكون هذه الدراسة في أي وزارة وأتحدى أي مسؤول أن يكون قد رآها، هذا هو الفرق. يوجد اهتمام من المفكرين وأحيانا لدى بعض المشتغلين في القطاع الخاص وإذا كان لهم اتصال بالشركات المتعددة الجنسية يتأثرون بذلك. لكن استقلال الدراسات المستقبلية فيما يخص العالم العربي غير موجود. ونجد شيئا أخطر من ذلك عند بعض الدول العربية فقد رأوا أن هذه الدراسسات المستقبلية صارت موضة وصاروا يشترون المصانع والطائرات يريدون شراء دراسات حول مستقبل بلادهم، وهناك 2-3 بلدان عربية عملت دراسات حول العام 2000 ومن خلال عقد تشتريها كما تشتري مصنعا كامل التجهيز. هكذا نرى أن مستقبلنا مرهون لمؤسسة معينة كالبنك الدولي مثلا. نقول للبنك والمؤسسات مشابهة تعالوا قولوا لنا كيف ستكون حالة بلادنا عام 2000.

مستقبلنا ليس بأيدينا وما ضينا ليس بأيدينا أيضا. فنحن يلزمنا حسب التقديرات 60 سنة لدراسة ماضينا. في هذا الوقت الغرب لا ينتظرنا، فقد درس مستقبلنا ولديه توقعات حولنا ويتصرف على هذا

الأساس. نحن بدون ماض وبدون حاضر ومستقبلنا مرهون، وهذه قضية خطرة للغاية.

الانتفاضة

•كيف يمكن النظر إلى الانتفاضة الفلسطينية من وجهة نظر مستقبلية؟

يصعب تحليل الانتفاضة الآن، وربما بعد عشرين سنة، أنا وجدت في الدراسات المستقبلية ما يسمى بمستقبل الماضي، فحتى الماضي له مستقبل يمكن تسييره حسب تطورات أخرى ومفاهيم أخرى. وأظن أنها من أهم البدايات للتغير الجذري الذي سيعيشه العالم العربي ونخطئ إذا حللنا الانتفاضة التي تعيشها فلسطين كحركة محلية خاصة بالظروف المحلية والفلسطينية، أظن أن في الانتفاضة الفلسطينية هنالك انتفاضات شابة في فلسطين والعالم العربي، خصوصا إذا عرفنا أن 50 بالمئة سكان العالم العربي هم شبان أعمارهم تبلغ 20 سنة وأقل. وهذا من العناصر التي يجب أن نبني عليها ليس مستقبل فلسطين فقط، وإنما مستقبل العالم العربي بل حتى العالم الثالث.

وأنا أركز منذ زمن على عاملين. الأول هو التغيرات في فلسطين والثاني في افريقيا الجنوبية، لأنه لايوجد في العالم مثل هاتين الدولتين اللتين خطط لهما من قبل آخرين وصاروا رمزين لمصالح معينة ولنوع من تحالف من طرف الغرب بالخصوص.

العلاقات العربية الإفريقية

• كيف تنظر إلى مستقبل العلاقات العربية – الافريقية من وجهة نظر مستقبلية؟

أحتج على تعبير «العلاقات العربية – الافريقية» لأن العرب بما فيهم الأفارقة ينسون أن 75 من العرب هم أفارقة، وأن افريقيا تبلغ مساحتها 30 مليون كلم 2. والمشروع الحضاري الغربي حاول دائما أن يفرق بين العرب والأفارقة وبين افريقيا السوداء وافريقيا البيضاء، وجنوب الصحراء وشمال الصحراء. وفي فرنسا هنالك وزارة خاصة تهتم بشؤون جنوب الصحراء. والبنك الدولي يتحدث بشكل مقصود عن هذا النوع. وعندما أذهب إلى جوهانسبورغ، وقد زرتها مرارا في طريقي إلى مناطق أخرى وكنت أبقى في المطار ولا أعتبر نفسي أنني أبيض، ونفس هؤلاء الذين يعتبرون الفرق العنصري يعتبرون أن الأفارقة من مصر ومن ليبيا من لون آخر. يجب أن نفهم جميعا أن ليس هنالك تناقض بين العروبة وبين ما هو افريقي. وأن نفهم أيضا أهمية العنصر البربري كجزء من الحضارة الإسلامية.

وهنالك خطة استراتيجية استعمارية لإثارة النزاعات بين الفريقين، ثم يجب ألا ننسى أن الحكام الموجودين في افريقيا هم حكام غير مرغوبين من طرف شعوبهم لذا يصعب علينا أن نفهم أو نحلل علاقات

مبنية على حكومات لا تمثل الشعوب.

والمشروع الافريقي الحقيقي كان مشروع تعاون عربي افريقي واحد، أما مشروع الفرنكفونية فقد قسم ما بين الأفارقة وفصل ما بين العرب الناطقين بالفرنسية وغير الفرنسية حتى وصلنا إلى مهزلة أن مصر التي تضم 55-56 مليون وليس فيها 5 آلاف ينطقون بالفرنسية صارت مصنفة فرنكفونية وفيهم بطرس غالي وهو صديق وأقول له من الأخطاء التاريخية هو وجود مصر في الفرانكفونية. وصارت هذه المجموعة العربية الإسلامية بين الناطقين باللغة الفرنسية الحقيقيين. إذا أخذنا فرنسا 55 مليون وكندا وبلجيكا ترى أن البقية هي الأكثرية والأكثرية هي مسلمة – عربية. أما العلاقات العربية – الإفريقية فأنا مقتنع بأنني لا يمكن أن أتحاور مع نفسي حولها.

وأنا أعتبر أنه لاتوجد سياسة افريقية للعالم العربي. وما دامت أوروبا موجودة في كل علاقة افريقية – عربية فلا مستقبل لهذه العلاقات وهو أمر عندي يقين فيه.

... ديون افريقيا

• ومشكلة ديون افريقيا؟

أقول من البداية أن هذه المشكلة ثانوية. ليست هنالك ديون. افريقيا من أغنى مناطق العالم بالنسبة لعدد سكانها. أقول لك نقلا عن تقرير قدم لميتران كتبه ايف برتوليه سنة ١٩٨١ عن المساعدات الفنية وعن التعاون مع افريقيا، وهذا التقرير موجود ومطبوع في Documentation française يؤكد أن كل فرنك تعطيه فرنسا مساعدة لافريقيا يأتيها منه 5-6 فرنك من ناحية التجارة. وإذا رأينا أن هذه الديون هي أكثر من 40 بالمئة منها كجزء من رشوة وأنها موجودة كحسابات في بنوك أوربا وأمريكا أن هذه الأموال التي أعطيت كديون دفعت لشراء مواد من الغرب وعندما نرى أن نيويورك تايمز تكتب في مقال افتتاحي وتقول أنه في أقل من سنة أن 80 بالمئة من كل الدولارات التي دفعها البنك الدولي إلى العالم الثالث رجعت إلى الاقتصاد الأمريكي ولما نفهم ونرى أن هذه الأموال ثمنها ثلاث أضعاف بالنسبة للحقيقة نرى إنه من ناحية اقتصادية عملية ليس هنالك ديون، بل نوع من الرشوة والفساد. هنالك أشياء شجعت أنظمة معينة. واستغلال الغرب لهذه الديون ليس لأسباب اقتصادية، أن وسيلة لأن تبقى فئة معينة في الحكم لأنها مديونة وتبقى المصالح مشتركة، لأن المديون يقول أنه من الضروري أن نرد الدين ولكن كلما رددنا الدين ادفع لحسابي الخاص خارج البلاد. هذه كوميديا على مستوى دولي.

وهنالك مثال أخير. فمنذ أسبوعين أوقفت كل أمريكا اللاتينية دفع ديونها وكان موقفها ناجح ولا

يمكن إلا أن ينجح مثل هذا الموقف في مكان آخر. لكن لكي تدافع عن نفسك وتكون لك مصداقية مع هذه الدول يجب أن تكون جديا. وكيف تكون جديا عندما تجلس معهم إلى طاولة واحدة مع أناس تتفاوض معهم حول القروض وهم يعرفونك وهم الذين شجعوك لتكون صاحب مليارات في الخارج لحسابك الخاص.

أوربا والعرب

- والعلاقات العربية – الأوروبية؟

لا أومن بها. فقد شاركت في عدة ندوات واتضح لي أنه لامستقبل لها إذا انطلقت من الأسس التي تخطط لها أوروبا. ومن بين هذه الأسس اعتبار العالم العربي مجرد سوق. وأنا لا ألوم الأوروبيين على ذلك، فهذا من حقهم كما من حقهم أن يبنوا اقتصادهم على منطق البحث عن أسواق وهم لديهم تحديات كبرى مع أمريكا الشمالية واليابان. ولو كنت أوروبيا لاتبعت نفس الخطة دفاعا عن مصالحي. ولبادرت لاستغلال كل نقطة ضعف في مواجهتي. فإذا كانت أمريكا واليابان تمثلان قوة عظمى في مواجهتي فإنني أذهب إلى الدول الضعيفة، ولا يوجد الآن أكثر ضعفا من العالم العربي وافريقيا. لذا فأنا أتوجه للعرب واعمل لديهم «معهد للعالم العربي» في باريس وأتكلم عنهم بطريقة إيجابية لكن أعاملهم داخل بلادي بطريقة سلبية وأحارب دينهم وأشترك في حرب صليبية ضدهم واستخدم الاعلام لتشويه صورتهم. أنا ما يهمني في الحوار هو المقاصد، والمقاصد معروفة من الطرف الأوروبي أما الطرف العربي فإن مفاوضيه لايتمتعون بأية مصداقية ويبحثون عن مساندة لدعم بقائهم في الحكم.

وهنا يصعب علينا أن نتهم أوروبا قبل أن نتهم أنفسنا ونقوم بنقد ذاتي. وعندما تتكلم أوروبا فإنها تفعل ذلك بصوت واحد، وعندما نتكلم نحن، نتكلم ب 120 صوت، بالرغم من أننا عشرون دولة، لكن في دولنا أصوات متعددة تأتي من كل مكان. وهذا غير معقول. ونحن نتفاوض «معهم على إيه». هم يحتاجون إلى سوق ونحن إلى ماذا؟ هل لنا سياسة تكنولوجية؟ هل لنا سياسة اقتصادية على مدى خمس سنوات؟ هل لنا أي شيء؟

الغزو الإعلامي الأجنبي

- والضخ الإعلامي الذي يتعرض له العالم العربي؟

أنا أخشى أن يوجد في ميدان الاعلام ضعف كبير في ما يخص مستقبل العالم العربي من جهتين : الجهة الأولى وهو أن أهم تحول صار في الحضارة الإنسانية هو أن هذه الحضارة تنتقل من مجتمع مبني على الانتاج والبضائع الصناعية إلى حضارة ومجتمع مبني على المعرفة وعلى الإعلام بمفهومه المعاصر

وليس على المواد الطبيعية واليد العاملة بل على الفكر والإنتاج الفكري الذي أصبح أكبر رأسمال. وفي هذه الظروف ماذا نرى؟ نرى أن في العالم العربي ليست هنالك في أي بلد خطة أو استراتيجية أو سياسة إعلامية معاصرة تعمل باهتمام بحثا عن هذه المعلومات. هناك بعض محاولات ومراكز توثيق وطنية بالخصوص في الخليج لكنها غير كافية.

أما الغزو الإعلامي فإنه من المفيد الحديث عنه انطلاقا من المثال الأوروبي. فقبل ستة أشهر ترأس فرانسوا ميتران اجتماعا لمسؤولين في الاعلام في أوروبا وتوصلوا إلى قرار بالتصدي للهيمنة الثقافية الأمريكية - اليابانية. وصدرت اقتراحات تقول بتشجيع الانتاج المحلي فاحتج الأمريكيون على ذلك. واحتجوا مرة أخرى عندما وضع الأوروبيون «نظاما» للبرامج المتلفزة غير المنتجة في أوروبا. واستخدم الأمريكيون في احتجاجهم ذريعة «حرية تنقل الأفكار».

إذا أوروبا القوية والتي تمثل ٤٠ في المئة من التجارة العالمية تبحث عن مواجهة الهيمنة الأمريكية - اليابانية فما بالك بنا نحن الضعفاء نتعرض لغزو اعلامي من كل طرف وناحية. لكن يجب ألا نخلط بين مواجهة الغزو الاعلامي وبين حرية الصحف وتعددية الآراء. فهذه مسألة ضرورية جدا في المواجهة نفسها.

حاوره في باريس فيصل جلول
(4 يوليوز 1990)
اليوم السابع ٢٦ نونبر 1990

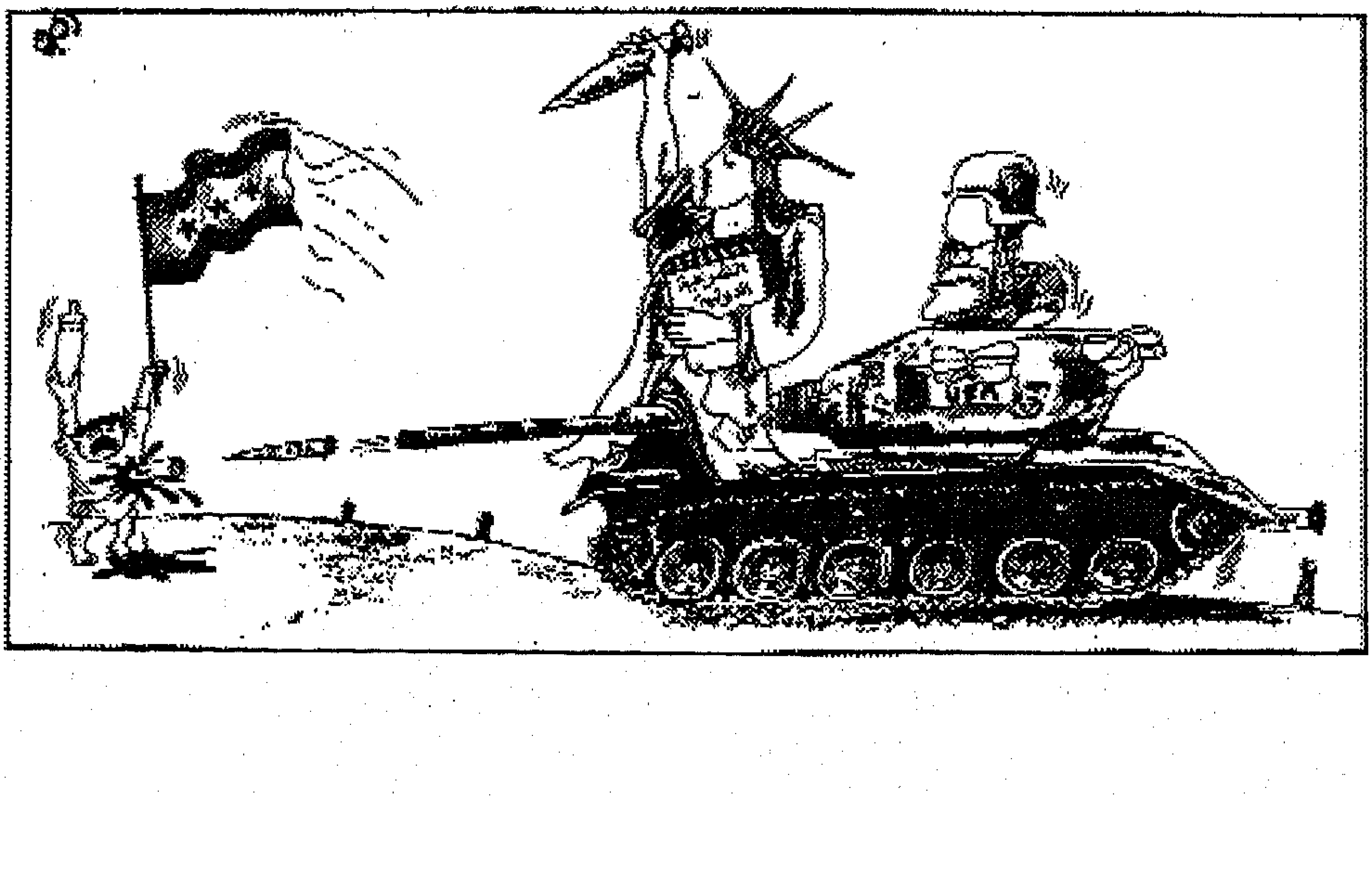

أزمة الخليج:
بداية لعهد مابعد الاستعمار(×)

شهر آب (أغسطس) 1990 سيدخل التاريخ كبداية لولادة عصر «ما بعد الكولونيالية». هذا العصر الذي هو نتاج تحرر مزيف من الاستعمار تعيه بعمق في يومنا الحاضر شعوب الجنوب من جهة، وهو عصر يخشى فيه الشمال من التحولات الجذرية التي لن يتأخر هذا الوعي عن فرزها من جهة أخرى.

هذا الخوف من «اللا استقرار» يُفَسِّر تدعيم التحالف الطبيعي بين المحررين المزيفين (بفتح الفاء) والمحررين المزيفين بكسر الراء). فبعد التشاؤم حيال العالم الثالث، وبعد التشاؤم حيال الإسلام وحول إفريقيا، جاء دور التشاؤم حول العرب والبترول.

إن نشر القوة العسكرية للولايات المتحدة وحلفائها القدماء والجدد الأوروبيين والغربيين لا سابق له في تاريخ الانسانية. فهو من بدايته وحتى الآن أكبر بكثير من انتشار هذه القوات في فيتنام، ولا يمكن مقارنته مع الحرب العالمية الثانية نظرا للتطور التكنولوجي ولدقة وتعقيد السلاح النووي.

إضافة الى ذلك، يتم هذا الانتشار في وقت يعيش فيه العالم في ظل هيمنة جديدة ناشئة. إن النظام العالمي يتجه نحو قطب واحد بعد تفتت الامبراطورية السوفياتية، وحيث ينصب بلد واحد نفسه شرطيا على المعمورة دون أن يكون هناك من يجرؤ، بمصداقية، على معارضته. فالقوة العظمى الثانية في العالم قبلت للتو بالدور الهامشي الذي اعطته إياها امريكا من أجل الحفاظ على بقائها.

وتترافق مع هذا الانتشار العسكري، حرب نفسية لا مثيل لها أيضا في مجلدات التاريخ. وهي مصحوبة بهجمة إعلامية هذيانية بالغة الدلالة. هنا يظهر غورينغ اليوم كأحد الهواة المبتدئين في مواجهة الاساتذة الكبار الجدد في علوم الاتصال والاعلام. وعلى باحثي العالم الثالث إعطاء الأولوية لتحليل هذه المادة (الاعلامية) الشديدة الغنى، والضرورية في فهم التطور المستقبلي في العلاقات ما بين الشمال والجنوب.

لماذا يتم كل ذلك الآن؟ أمن أجل نجدة بلد لا يتعدى سكانه الأصليون ٦٠٠ ألف نسمة، بلد انتهكت «سيادته» من قبل جاره الذي بولغ في تقدير قوته للإساءة إليه ولأجل خلق دهان يخدم أغراضا محددة سلفا؟ أو الدفاع عن المبادئ «الديمقراطية» لغرب لا يشكل احترامه لهذه المبادئ، خارج حدوده سوى تقليدا مضحكا - مبكيا. ممن يسخر هؤلاء والى متى سيواصلون ذلك؟ يكفي أن نقرأ التصريحات الرسمية

(×) 12 شتنبر 1990

للسلطات الامريكية والغربية وكذلك ما تقوله صحافتهم حتى نفهم بأن الأمر مختلف تماما عما (يروجون).

لقد جرى انتهاك القانون الدولي، وهذا الانتهاك لا لبس فيه ولا يمكن تبريره، لكنه انتهاك لا يختلف عن انتهاكات سابقة بما فيها انتهاكات إسرائيل التي أدانتها بشكل قاطع المجموعة الدولية، والتي بقيت دون تنفيذ عملي حتى يومنا هذا. إذا لماذا يعتمد رَدّ لا يتناسب مع حجم الخرق الحاصل؟

إن ما يحصل في الشرق لا يتعلق بالعرب وحدهم. إنه التعبير النموذجي لاستراتيجية دفاعية (غربية) ترفض التغيير. ويجب ألا ينخدع أحد (بما يجري). فالعرب الآن ليسوا إلا حقل الاختبار الأول (فئران مخبرية Cobayes في مخطط يستهدف إدامة الغلبة العسكرية والسياسية والاقتصادية للعالم الغربي، وهيمنة القيم الثقافية اليهودية - المسيحية خشية من «اللا استقرار» ومن تغيير «النظام القائم» في الشرق الأوسط وفي أمكنة أخرى. هنالك مصالح غربية يجب صيانتها، و الضمانة المؤكدة هي هيمنة السلام الأمريكي. ومهما قيل، وبالرغم من التنويع في الصياغات الدبلوماسية، فإن كل البلدان الغربية لا يمكنها إلا أن تلتحق بالولايات المتحدة مع الحفاظ على استقلال ذاتي شكلي لا يخدع أحدا.

ولا يمكن تحليل الأحداث الجارية الآن أمام أعيننا، في منطقة الخليج، إلا في إطار عريض لتصور علاقات القوة بين الشمال والجنوب، مع الأخذ بعين الاعتبار أهمية التاريخ والرهانات (المعقودة) على المستقبل.

لقد سمحت أزمة الخليج بأن يقذف الى الوراء باحتجاج عدد من الحركات الديمقراطية في افريقيا حيث قام البابا للتو بمباركة كاتدرالية وسط انتشار قوات أمنية كانت بالأمس تقاتل في الشارع المدافعين عن الحريات المدنية. هذه الكاتدرالية كلفت مبلغ 200 مليون دولار، وهي كلفة تتعدى الدخل الوطني الكامل لحوالي 300 الف مواطن في ساحل العاج، هذا البلد الذي يسكنه أقل من 700 الف كاثوليكي، وفي مدينة تسكنها أكثرية ساحقة إسلامية. كل ذلك تم بواسطة المال «الشخصي» لرئيس دولة يمثل «الاستقرار» العزيز على الغرب وبحضور شخصيات من بينها وزير الشؤون الخارجية لنظام جنوب إفريقيا.

ولقد سمحت أزمة الخليج للغرب بأن يصرف الأنظار عما يفعله دكتاتوريو باكستان ونيبال العسكريين، هذا إذا ما أردنا أن نتوقف عند هذين البلدين فقط في آسيا، لضرب الإرادة (الشعبية) السياسية التي تم التعبير عنها بواسطة الانتخابات. وقد أنجدت هذه الأزمة حكومات مهددة في أنحاء عدة من العالم الثالث، وتعيش على الفساد وتقاتل النهوض الديمقراطي لمئات الملايين من سكان جريمتهم الوحيدة هي تطلعهم إلى الحرية والتسامح واحترام القانون.

ولقد أصبح، منذ بداية هذا العقد، سيناريو القطيعة بين الشمال والجنوب لا محيد عنه، إذا انطلقنا من فكرة رفض الشمال لأدنى تصحيح في النظام الدولي الذي تسوده اللا عدالة والتوزيع اللا متكافئ (للثروة) بصورة فاضحة.

لا غنى عن العودة الى الاشكالية (القائمة) في علاقات الشمال ـ الجنوب قبل الذهاب بعيدا في محاولة فهم حرب الخليج، وهذه الاشكالية تختصر في خمس نقاط:

1 – أزمة تواصل ثقافي بسبب نزعة (الانغلاق الاثني) ethnocentrisme التي تميز الشمال وتمنعه من فهم أنساق أخرى من القيم المختلفة عن قيمه وأخذها بعين الاعتبار. وبكلمة واحدة، (بسبب): الغطرسة الثقافية.

2 – رفض الشمال لضرورة إعادة توزيع السلطة والمصادر (المادية) في العالم في خدمة عدالة اجتماعية وحد أدنى من الأخلاق، ولكي لا يواصل 20 بالمئة من سكان العالم الإستفادة بصورة غير صحيحة من ٨٠بالمئة من الممتلكات المادية للكرة الأرضية. ولعل ذلك ما يفسر الدفاع عن الوضع الراهن للنظام العالمي بأي ثمن.

3 – فشل أنماط التنمية في بلدان العالم الثالث المستندة الى تقليد أعمى. وما يسمى بـ«المساعدات» التي لم تؤد مفاعيلها الرئيسية إلا إلى تعميق الهوة بين الأغنياء والفقراء داخل وخارج هذه البلدان. وأنماط التنمية هذه ترفع الى السلطة في الجنوب، وبمساعدة شمالية «مستنيرة»، قيادات متسلطة وفاسدة وخدومة ومستلَبة ثقافيا واجتماعيا بالنسبة لشعوبها. وهذا ما يفسر «هناء» التخلف الذي طبع عصر النيوكولونيالية لأكثر من جيل.

4 – قلة اهتمام حكومات بلدان الجنوب بالمشاركة الديمقراطية واحترام حقوق الانسان، والطاقات الانسانية، والبحث العلمي كعناصر أساسية في كل سياسة تنموية.

5 – التواطؤ الواعي أو اللا واعي لقسم كبير من "أنتلجنسيا" العالم الثالث التي انضوت تحت لواء السلطات الوطنية في بلادها أو السلطات المتعددة الجنسيات، أو أخطأت بممارسة الرقابة الذاتية وقلة الشجاعة.

منذ سنوات، يدين رجال ونساء من العالم الثالث، لا عدالة النظام الدولي والنقص في المشاركة (في الحكم) والديمقراطية في بلدانهم. وكانت القوى العظمى تجابه كل ما من شأنه أن يعدل الوضع القائم، وتساند حكومات في الجنوب لا تحظى بدعم شعوبها.

وهذه القوى العظمى نفسها عرقلت في السبعينات القاعدة الديمقراطية لشرعية الأمم المتحدة: دولة عضو = صوت واحد. واعترضت على إنشاء «نظام اقتصادي عالمي جديد»، ورفضت اتخاذ الاجراءات اللازمة لتطبيق القرارات التي اتخذتها منظمات الأمم المتحدة والمتعلقة بفلسطين، والتمييز العنصري وإزالة الاستعمار.. الخ. وقد لجأت الولايات المتحدة الى الضغط على ميزانيات هذه المنظمات الدولية من خلال

رفضها دفع مخصصاتها الكافية لخنق الأمم المتحدة، أو انسحبت من منظمات دولية لا تستجيب لطلباتها كما وقع في حالة «اليونسكو».

من هي البلدان التي بدأت إرهاب الدولة والتي انتهكت أكثر من غيرها القانون الدولي، عبر تنظيم انقلاب عسكري ضد مصدق عام 1953، وخطف طائرة أحمد بن بله في تشرين الأول (أكتوبر) 1956، وإنزال قناة السويس بعد أسبوع من ذلك، واحتلال بلدان امريكية لاتينية وقصف منزل رئيس دولة، أو مراكز أبحاث، والقيام بعلميات كوماندوس خارج حدودها والقيام بعمليات تصفية جسدية ضد رجال سياسة ومثقفين في الجنوب؟ ومن استخدم باضطراد حق «الفيتو» ضد إرادة المجموعة الدولية كاملة؟ من هم أولئك الذين أعلنوا بافتخار وبصوت عال بأن قوانينهم الوطنية لا يمكن أن تتحدد بالقانون الدولي؟

هي نفسها الدول العظمى التي تبارك اليوم ولادة «نظام دولي جديد» وهي نفسها التي تبارك عمل الأمم المتحدة التي كانت حتى الأمس القريب بالنسبة اليها، مجرد شيء لا معنى له.

إننا نعيش اليوم في عالم يُثقف الذاكرة الجماعية ويحيد عنها عندما يتعلق الأمر بالغرب، ويعتمد فقدان الذاكرة والصمت عندما يتصل الأمر بما تبقى من الإنسانية. والشعوب غير الغربية عليها أن تنسى قرون الكولونيالية والاستغلال وسوء معاملة شعوب بكاملها باسم «مهمة التحضر» التي يحملها الرجل الأبيض. هذه الشعوب عليها أن تقبل حالة العالم كما هي وألا تمس أي شيء يمكن أن يؤثر على نمط حياة بلدان الغرب.

بأي حق يمكن لهذه القوى العظمى نفسها اليوم أن تعطي دروسا في حسن سلوك العالم؟ أية مصداقية تعطى لكلماتها عندما تتحدث عن القانون والتضامن العالمي وعن احترام الانسان؟

هذا النفاق هو في أساس انتقال الجنوب من الكولونيالية الى ما بعد الكولونيالية الذي عشناه خلال السنوات الثلاثين الماضية، وهو نفاق يتم بالتواطؤ مع قيادات العالم الثالث الذين مازالوا يُدَعَّمُون حتى هذه اللحظة، التي يبدو فيها أن غضب شعوبهم قد بلغ الذروة.

وبفضل حكومة الولايات المتحدة والتفهم الكبير لحلفائها المخلصين الأوروبيين تم تجاوز مرحلة جديدة اليوم. فنحن تركنا عصر الكولونيالية الجديدة، لندخل في عصر «ما بعد الكولونيالية». في هذا الأفق يجب فهم ما يجري في الخليج واستخلاص النتائج المقلقة التي لم تنحصر في المجال العربي وحده، ولكنها ستحدد نوع العلاقات الدولية في نهاية هذا القرن. لذا فإن التحدي الأول الذي يواجهه العالم الثالث في هذا السياق يتعلق بإدراكه لهذه الإشكالية الجديدة.

ومن أجل ذلك يجب أن يحصر التحليل (للأحداث) في مجال أو زمن ما، واختصاره الى مشكلة

منطقة أو رجل. لقد عشت فترة الكولونيالية الغربية ومازلت أذكر القصف النووي لليابان، وعشت الظلم الذي لحق بالشعب الفلسطيني، وكذلك شجاعة مصدق الذي أمم النفط في إيران في العام 1951. وجرى تنظيم انقلاب عسكري ضده في عام 1953. ثم تنحية محمد الخامس ملك المغرب في السنة نفسها والعدوان الفرنسي - البريطاني على السويس في العام 1956، والمؤامرة على الكونغو في عام 1960، والوحشية التي مورست ضد شعب الهند الصينية والجرائم والتعذيب ضد الشعب الجزائري، والنتائج الكارثية التي ترتبت عن التمييز العنصري في افريقيا الجنوبية، ووحشية القوات الاسرائيلية ضد أطفال الانتفاضة، والانتهاكات الدائمة لسيادة دول امريكا اللاتينية والتدخلات الاجنبية ضد حركات الاصلاح والديمقراطية فيها.

إن معايشتي الطويلة لهذه الأحداث، جعلتني أصل الى نتيجة مفادها أن أزمة العالم الثالث هي قبل أي شيء أزمة غياب الذاكرة الجماعية، ونتيجة لغياب الرؤية التي لا تعرف كيف تنطلق من الصفر. لذا أرى أن النضال من أجل الحرية وبناء المستقبل يمر باسترداد الماضي.

لقد جابهت طيلة حياتي الظلم وكل ما من شأنه أن يتعرض للكرامة الانسانية، وعليه فإن ضميري مرتاح. وإذا كنت أنتفض اليوم ضد ما يحصل في الشرق الأوسط فإنني أفعل ذلك بوصفي مهتما بمصير وبقاء الجنس البشري، وليس دفاعا عن عبادة الشخصية أو بحثا عن أبطال.

لقد راقبت الأحداث بتأن خلال ستة أسابيع قبل أن أتناول قلما وأكتب. وقد ساعدني سلوك الدول الغربية على تجاوز تحفظات ناتجة عن اختيار بين الدفاع عن مبادئ خلقية وإنسانية واحتمال أن يتماهى ذلك مع دعم شخص مثار احتجاج.

وأنا أعبر اليوم عن رأيي، ليس دفاعا عن رجل في السلطة، ولكن ضد انتهاك شعب بكامله - الشعب العربي - وضد تدنيس الأماكن المقدسة لأكثر من مليار مسلم في العالم ونسبة العرب بينهم لا تتعدى الـ ٢٠ بالمئة.

لقد هالني سكوت عدد كبير من «المثقفين» أو «المعارضين» في العالم الثالث عامة والعالم الإسلامي والعربي بصورة خاصة. أين هي الخطابات العظيمة لحركة عدم الانحياز؟ أين المدافعون عن التعاون في إطار جنوب - جنوب؟ الـ 77؟ أين هي مؤسسة المنظمات غير الحكومية المتصلة بالعالم الثالث؟ لماذا هذا الصمت؟

إنه لمن الطبيعي أن يتصرف الغرب «على ذوقه» في مواجهة مثل هذه الرقابة الذاتية لنخب شكلها هو نفسه استعدادا لمثل هذه الأيام.

لكن، كيف يمكن فهم موقف غالبية المفكرين والفنانين الغربيين الذين يكتبون ويوقعون عرائض ضد أقل تفريط عندهم (في الغرب). ولكنهم اليوم يقفون الى جانب الطرف الامريكي - الاسرائيلي أو يصمتون ببساطة؟ إنني أستنتج ذلك بحزن.

إن الكراهية للعرب وللإسلام تغذي الحرب النفسية والإعلامية التي تجري تحت أبصارنا، وهي لا سابقة لها في مجالات العلاقات بين الشعوب، وتعبر عن عداء ناتج عن عقد قديمة من بينها خسارة الجزائر وضرب الاتجاه الغربي في إيران، والمنحى التجديدي للإسلام.

وحملة التشويه الاعلامي تلك، برهنت عن تضامن كامل بين وسائل الاعلام الغربية وحكوماتها. والمفردات المستخدمة في هذه الحملة تستعيد كل مفاهيم القانون الكبرى، ومفاهيم العدالة والتضامن العالمي والوحدة الوطنية والشرف، لكن في سياق غطرسة ثقافية وانغلاق إثني - مركزي لا مثيل له حتى يومنا هذا. حتى جريدة «لوموند» التي تتجنب التبسيط عادة وتذكر الحقائق المضادة، لم تقاوم، والتحقت بهذه اللعبة الجديدة. فقد كتبت بدون أي تدقيق في افتتاحيتها المؤرخة في 7 آب (اغسطس) 1990 تقول: «إن عزلة العراق لم تكن يوما كبيرة كما هي اليوم خصوصا في العالم العربي».

ونحن نريد أن نعرف عن أي عالم عربي تتحدث الصحيفة؟ فالأخبار بوصفها سلاحا، لم تستعمل أبدا من قبل بمثل هذه الدعاية الوضيعة والديماغوجية والحرب.

إن اللعبة التي تدور الآن في الشرق الأوسط منظمة بمهارة، إنها سمفونية جنائزية يقودها قائد أوركسترا كبير هو الولايات المتحدة عازف الكمان الأول، وبريطانيا العظمى العازف الثاني وفرنسا ومجموعة من الموسيقيين في تحالف جديد، دون أن ننسى دور أطفال الكورس الذي تؤديه بعض الدول العربية.

إن تقويم الأدوار مدروس جيدا ويتمهل منذ الأيام الأولى لشهر آب (اغسطس)، وفق تدرج تصاعدي ابتداء من المقاطعة الى الحصار ووصولا الى الخاتمة، التي ستترجَم على الأرجح، بالتضحية بآلاف الأبرياء عندما يقرر قائد الأوركسترا اللحظة المناسبة، حينذاك تنسجم أوتار الاتحاد السوفياتي، وهو البلد ذو التقاليد الموسيقية العريقة، كلية مع المجموعة. ويبدو أن هذا الأمر لن يتأخر منذ أن قالت السيدة بربارة بوش للصحافين بأن الاتحاد السوفياتي يجب أن يعتبر كجزء من مجموعة أمم العالم الحر.

وتفيد المعلومات الرسمية المتداولة أن وزير الخارجية الامريكية قد حصل على تعهد من العربية السعودية والامارات العربية والحكومة الكويتية في المنفى، بدفع أكثر من 12 مليار دولار دون حساب الفواتير التي دفعت من قبل وخلال الأسابيع الماضية، وذلك لتغطية تكاليف الحضور الامريكي في الخليج. وحسب تأكيدات بيكر نفسه فإن عملية «درع الصحراء» ستكلف 6 مليارات دولار حتى نهاية السنة الجارية.

ويذكر أن جمهورية المانيا الاتحادية توصلت الى اتفاق مع الاتحاد السوفياتي يقضي بسحب 350 الف جندي من أراضيها مقابل ٨مليار دولار. وهذا يعني أن الدول العربية الخليجية تدفع فدية أكبر بمرتين لتغطية تكاليف 150 الف جندي أمريكي على أراضيها. وهي فدية تعادل ثلاث مرات مجموعة المساعدات

الاقتصادية التي قدمتها الولايات المتحدة الامريكية لدول العالم الثالث خلال السنة الضريبية 1990. هذا مظهر واحد وليس الأقل أهمية من مظاهر مرحلة ما بعد الكولونيالية.

إن الأجوبة التي تفرض نفسها ضد مرحلة ما بعد الكولونيالية تكمن في الدفاع عن الديمقراطية وحقوق الانسان والنضال ضد الجهل والفساد وتشجيع البحث العلمي والخلق الحر من كل استلاب ثقافي والثقة بالنفس والثقة بعدالة عليا تفرض على كل منا أن يساهم بنضال سيكون طويلا وقاسياً. لكن الفوز في المعركة الأخيرة ضد شكل متطور من الكولونيالية سيكون بمثابة تحرر أربعة أخماس الانسانية من قمع لن يدوم أكثر من العقد الحالي.

لقد شاءت الصدفة وحدها أن تكون بداية الاحتلال العسكري للخليج متوافقة مع يوم تقديم تقرير لجنة الجنوب التي يرأسها الرئيس نيريري حول تعاون الجنوب - الجنوب. وهذا التقرير دفنته حيا وسائل الاعلام الغربية وهو الآن دخل طي النسيان.

وبالمناسبة، نقول إن الوطن العربي هو تلك المنطقة من العالم التي يضعف فيها نموذج تعاون الجنوب - الجنوب، ويسودها سوء توزيع غير مقبول للثروات، إذ أن دول الخليج الستة تمثل 10 بالمئة من الشعب العربي، لكن إنتاجها الوطني من النفط يتجاوز 40 بالمئة من الإنتاج القومي لمجموع العالم العربي. وموجودات هذه الدول في الغرب ترتفع الى 700 مليار دولار وتفوق بـ 3 مرات عائدات 90 بالمئة من العرب. وتجدر الإشارة إلى أن الدين العام للعالم العربي هو 230 مليار دولار، أي ما يعادل ثلث ودائع دول الخليج. هذه المفارقة ليست سوى مشكلة جنوب - جنوب خلقها الشمال لكي يواصل استثماره للعالم الثالث.

عندما يدرك الجنوب بأن الشمال لا يرغب في فهمه، فحينذاك سيفهم الشمال بأن لا خيار له سوى العيش بسلام مع الأغلبية الواسعة من شعوب الانسانية. ولكي يتم ذلك يجب على الشمال أن يتحرر من الخوف الذي ولد فترة ما بعد الكولونيالية. وبانتظار ذلك يجب الا نبقى فاغري الأفواه.

(12 شتنبر 1990)

هوامش

- La crise du Golf, Prélude à l'affrontement Nord-Sud? Les débuts du "Post-colonialisme" FUTURIBLES, Paris, N° 147, Octobre(1990).
- "العلم"، الرباط، 1990/09/17
- " ALGERIE ACTUALITE", 20/09/1990.
- " REALITES", Tunis, 20/09/1990.
- "اليوم السابع" 1990/10/01
- " LIBERATION", Casablanca, 20/ 10 / 1990.

ستقوم الحرب (×)

• الإذاعة الدولية لفرنسا :

أريد أن أسألكم، أولا، عن كل من الجماهير العربية والرأي السياسي العام، إنهما يظهران لي كأنهما يؤيدان الى حد بعيد موقف العراق (من أزمة الخليج)، إلى أي عامل تردون هذا التأييد؟

– الدكتور المنجرة :

إن سؤالكم هذا وقع في الصميم. وأرى أنه، قبل النظر الى المعطيات الراهنة والى ما هو جار بالشرق الأوسط انطلاقا من تاريخ 2 غشت المنصرم، ينبغي للمرء، أولا، أن يتجشم قراءة شمولية لمجموع وضعية العالم العربي. إنها منطقة لا حرمة فيها لسيادة القانون. ليس هناك دولة عربية واحدة تحترم فيها هذه السيادة كامل الاحترام على المستوى الوطني... ويجب على المرء أن يأخذ بعين الاعتبار هذه الظاهرة قبل أن يخوض في الحديث عن : احترام سيادة القانون الدولي... إن جماهير العالم العربي، عانت وتعاني، الكثير في حياتها اليومية من: خروقات سافرة لحقوق الانسان الأساسية، ومن غياب للحريات المدنية... فماذا تختبر اليوم هذه الجماهير؟

إنها تعاين بالمكشوف كيف أن المعسكر الغربي يقدم كامل الدعم سياسيا واقتصاديا وعسكريا، لعدد من الحكومات العربية التي كانت ومازال من أكبر المعتدين على الحقوق المبدئية الأساسية، على المستوى الوطني... إن هذه الجماهير تلمس الآن قدرا كبيرا من المفارقة «والعهارة السياسية» بين:

السرعة التي انقذف بها الآن المعسكر الغربي إلى الدفاع عن الشرعية الدولية، والتلكؤ والتماطل والتبلد التي مارسها إزاء خروقات إسرائيل للشرعية الدولية في الأراضي العربية الفلسطينية المحتلة.

–• الإذاعة الدولية لفرنسا : عودا الى قضية الخليج الآنية، هل تتوقعون نشوب مواجهة عسكرية؟

– الدكتور المنجرة : نعم، ذلك انه لم يحدث، منذ الحرب العالمية الثانية، أن شاهدنا تمظهرات قوة وإطباق، وحضور انتشار جهد عسكري ـ منظمة من جانب الولايات المتحدة الامريكية خاصة ـ مثل ما نشاهد الآن بالمنطقة... إن تحولا كبيرا في نظام توزع القوى الدولي وقع الآن بعد أن تقوضت البنية ثنائية القطب

(×) 17 يوليوز 1990

(سوفييت - أمريكان)، وبعد أن ولد هذا التقوض نوعا من الفراغ القوي.

أرى أن الولايات المتحدة الأمريكية تسعى إلى استغلال هذه الفرصة، والى استغلال الأزمة الاقتصادية التي يجتازها حاليا الاتحاد السوفياتي، وأنها مقدمة على أن تحتل، سياسيا وعسكريا، جزءا استراتيجيا هاما من العالم يرقد تحته احتياطي نفط هائل الحجم. ولا ينبغي أن ننسى ونحن نتحدث عن أهمية النفط، أن الولايات المتحدة الأمريكية تستهلك من النفط نسبة 25٪ من مجموع حجم الانتاج العالمي، في حين أن حجم سكانها لا يتجاوز نسبة 5٪من حجم مجموع سكان العالم (أي أن :«الفرد الاحصائي» الامريكي يستهلك 5 أضعاف ما يستهلكه «الفرد الاحصائي» لبقية العالم). كما لا ينبغي أن ننسى أن امريكا تستورد نسبة 50٪ من مجموع النفط الذي تستهلكه.

... أعتقد أن القوات العسكرية المحتشدة بالخليج - بقطع النظر عما تقوم به العراق - لن يتم استخدامها في رقعة واحدة معينة... لا أعرف متى ستدور رحى الحرب، ولا الصورة التي ستلبسها هذه الرحى؛ ولا ما إذا كانت ستدور بطريق مباشر، أو بطريق غير مباشر - بذريعة ما، عبر إسرائيل مثلا -؛ ولكني لن أفاجأ أبدا إذا ما دارت هذه الرحى... وآمل أن أكون خاطئ التقدير.

إضافة الى ذلك نعلم جميعا أن الوضع الاقتصادي الراهن للولايات المتحدة الأمريكية ليس مما يبتهج له؛ وأن أحداث الخليج زادته سوء. ثمة انحسار وجزر بيّنان. ولا ريب أن مسألة تنشيط ودَيْنمة صناعة الأسلحة هو أمر من شأنه أن يخفف كثيرا من شدة وطأة ذلك الجزر والانحسار.

ويجب علينا أن نستظهر أيضا أن الولايات المتحدة الأمريكية صنعت، السنوات القليلة المنصرمة، أسلحة متطورة جديدة؛ وأن هذه الأسلحة الجديدة لم تتح لها بعد فرصة ميدانية تُختبر فيها بالملموس مزاياها وفعالياتها - وذلك مخافة للأمريكان من أن يطلع السوفييت على أسرار تكنولوجية كبيرة (في حال وقع الاختبار عندئذ).. أما الآن، وقد انطوى عهد الحرب الباردة بين العظميين، فقد زالت تلك المحاذير (وانفتح الميدان لاختبار الأسلحة المتطورة الجديدة).

ثم إن بلدان الخليج، والعربية السعودية بالخصوص، قامت خلال ال 15 سنة المنصرمة، باستثمار مآت ملايير الدولارات! في ميدان حيازة أسلحة... وهذا يعني أن هناك الآن حاجة (ملحة) إلى اشتعال نيران حرب كبيرة - مثلما حصل أخيرا بين العراق وإيران -؛ وذلك حتى تُستخدم هذه الكميات الضخمة من الأسلحة وتفسد وتتلف وتبيد، تاركة مكانا فارغا صالحا لاستقبال أجيال جديدة من أسلحة فائقة التطور التكنولوجي، قادمة في المستقبل القريب.

وإني لآسف لهذه الرؤية الشخصية، التي تفرض نفسها علي؛ ولكن لا حيلة لي معها؛ فهي نتيجة

التحليل الوحيد الذي يمكن للمرء أن يقوم به أمام طبيعة الوضعية الراهنة القائمة.

• الإذاعة الدولية لفرنسا : هل يعني هذا أن النزاع التنافسي «شرق / غرب» (الذي زال الآن) عوّضه، بصورة ما، نزاع طرفاه هما : الشمال، والجنوب؟

– الدكتور المنجرة : هذا هو بالضبط ما استخلصته من قريب، وهو ما عرضته في مقال نُشر هذا الشهر بباريس بمجلة «فوتوريبل» (التي تعنى بعلوم المستقبليات)... إنه شكل جديد من أشكال النزاع «شمال / جنوب» دخلنا معه في عصر دعوته بعصر «ما بعد الاستعمارية».

عايشنا عصر الاستعمار إلى حدود سنوات الستينات، ثم عايشنا عصر «الاستعمار الجديد» الذي قامت فيه القوات الاستعمارية بتنصيب وطنيين محليين على رؤوس السلطة (في البلدان «المحمية» السابقة) تابعين في تصرفاتهم لتعليمات تلك القوى... أما في عصر ما بعد الاستعمار (الذي دخلناه الآن) فإن الأمور صارت أكثر وضوحا وتفتحا ومباشرة: فالغرب، في هذه المرة يحتل أراض جنوبية، ليس بواسطة الحرب والاكراه (ولا بواسطة الخديعة والتجارة) بل يحتلها بمساعدة حكومات أهلها ذاتها و«بطلب» من هذه الحكومات؛ بل الأدهى من ذلك هو أنه يحتلها على نفقة أهلها أنفسهم.

إن الولايات المتحدة الامريكية «تدبرت أمرها» الآن، فحصلت في ظرف أسابيع قليلة، على مبلغ 20 مليار دولار، معظمها (80٪) من موجودات الدول العربية للخليج. إنه أمر (ربح) لم نشهد له مثيلا في تاريخ العلاقات الدولية... وعصر ما بعد الاستعمار هذا سيكون زمن شدة على دول الجنوب، وأتوقع أن يطول عمر هذا العصر إلى نهاية القرن الحالي على الأقل.

عندما يُمعن المرء النظر، على الأمد الطويل - كما يفعل العبد لله المتخصص في الدراسات المستقبلية - يجد أن ما يجري الآن يشكل نهاية لعهد وبداية لعهد جديد أقدر أنه لن يدوم طويلا، بحكم كونه يحمل بذور انهياره في ذاته.

لا يمكن للمرء أن يتصور نظام سلام يحقق لفائدة نسبة 20٪ من بني آدم تمثل أقلية تنتفع وحدها بنسبة 80٪ من مجموع خيرات وموارد العالم، على حساب رفاه وكرامة السواد الأعظم من سكان العالم... هذا هو بيت القصيد. إنه أمر أهم بكثير من أهمية الأحداث التي تجري حاليا بمنطقة الخليج؛ وهو يتعلق أكثر بضرورة إقامة نظام توزيع قوي وثروات مادية أكثر إنسية وإنصافا - في إطار دولي نزيه، ليس كالإطار الراهن الهش الذي لا يمكن لوجوده أن يستمر في ظل الأوضاع القائمة

• الإذاعة الدولية لفرنسا : لنعد إلى النظر على الأمد القصير... ما هي المضاعفات التي يمكن أن تلحق باقتصادات ومجتمعات بلدان الشرق الأوسط في حال نشوب مواجهة عسكرية؟

الدكتور المنجرة : إن اقتصادات ومجتمعات العالم العربي واقعة في نكبة من أمرها من زمان. فإذا

كانت نسبة 4٪ فقط من سكان هذا العالم تتمتع بعائدات نفط وفيرة، فإن النسبة الكبرى الباقية تعيش على مسك الرمق... ولا ينبغي أن ننسى أن مجموع الناتج القومي الخام لكتلة البلدان العربية لا يبلغ نصف الناتج القومي الخام لفرنسا... العالم العربي ساحة فقر بها رُقع فيها نخبة وافرة الغنى. ومعظم موجودات هؤلاء الأثرياء المعدودين مودعة في المؤسسات المالية للمعسكر الغربي (700 مليار دولار - أي ما يقارب حجم الناتج القومي الخام لفرنسا).

إن معدل الدخل السنوي الفردي، في العالم العربي، لا يتجاوز مبلغ 1.500 دولار. فلا ينبغي للمرء أن ينبهر بالأرقام الاحصائية لكل من: اتحاد الامارات العربية، والكويت، وقطر، والسعودية.

وبصورة إجمالية فإن الجماهير العربية ليس لديها ما يمكن أن تخسره من حيث موجوداتها الاقتصادية. أما الذين يمكن أن يخسروا شيئا فهم أولئك الذين انصبت الاموال عليهم كما تنصب الأمطار، فتعاملوا بها رشوة وإفسادا، وتحالفوا بها مع أطراف غربية ذات مصالح اقتصادية محضة... لهذا تجدني غير متخوف كثيرا من المضاعفات الاقتصادية التي قد تصيب الجماهير العربية جراء نشوب مواجهة عسكرية. بل إني أتوقع أن تسفر هذه المواجهة، في آخر مراحلها، عن «نظام عربي دولي» جديد يُعاد فيه توزيع القدرات والثروات، وتُحترم فيه كل من أساليب الحكم الدمقراطي، وحقوق الانسان الأساسية احتراما أكبر.

وبكل الإعتبارات فإن العالم العربي أصبح بعدُ على غير ما اعتاد أن يكون عليه... وعودا إلى سؤالكم الأول «يظهر أن الجماهير العربية تدعم العراق، إلى أي شيء تُرجِعون ذلك؟» - فبفضل احتلال الامريكان والقوات الغربية الحليفة للعربية السعودية وبلدان عربية خليجية أخرى نلمس اليوم قطيعة حقيقية تامة بين الحكومات العربية القابضة على السلطة، وجماهيرها. هذه الحكومات فقدت الآن مصداقيتها، والوسيلة الوحيدة لأن تستعيد هذه المصداقية هي وسيلة لا علاقة لها بمسألة الحرب.

وأرى أن العلاج لحالة اهتزاز الحكومات العربية هذه يكمن في ثلاثة أمور: أولها : بناء مسلسل دمقراطي أصيل؛ وثانيها: احترام سيادة القانون؛ وثالثها: احترام الحريات المدنية... إن إهمال هذا الثالوث هو السبب الأساسي لوجود الوضعية المأساوية الراهنة.

الحرب ضد الاقطاعية والاستبدادية هي الحرب التي ينبغي للعالم الغربي أن يخوضها إلى جانب الجماهير العربية، إن هو كان يريد، حقا، مساعدة العالم العربي - وبلدان الجنوب على العموم - . وأضعف الإيمان هو أن يترك الغربيون العالم الثالث يخوض وحده وغاه؛ وأن يمسكوا عن دعم الحكام المحليين البائسين مواطنيهم بالقهر والاضطهاد... أما الساعة فإن أزمة الخليج تُرينا، بالملموس - ويالِلأسف! - أن : الغربيين فضلوا كفة مصالحهم المادية العاجلة؛ وأنهم غير مكترثين بتاتا، لمسألة إحلال

الدمقراطية، هذا النظام السياسي العادل الذي تنشده جماهير العالم الثالث بكل قواها. في كل قارات الدنيا... إن الغربيين يغمضون أعينهم عن الذي يجري حاليا بكل من : كوت ديفوار، والغابون؛ والسنغال؛ وباكستان؛ وأمثالها...

– ● الإذاعة الدولية لفرنسا: متى ترون أن الحظر والحصار الاقتصادي سيوجعان العراق وشعبه؟ وما هي حظوظ ذلك في إرغام الرئيس صدام حسين على الانسحاب من تراب الكويت؟

– الدكتور المنجرة : أعتقد أن الحظر ألحق الضرر بالشعب العراقي من أول يوم له. ولكن هذا الأمر ليس هو المهم في مجموع القضية.

وينبغي لنا أن نفضح أبعاد الرهانات والأطماع القائمة. إن الأمر لا ينحصر في مسألة الدفاع عن رقعة تراب الكويت الصغيرة ذات النسمات المعدودة (مآت آلاف فقط). إننا نتتبع بالملاحظة وجود عدد من الخطط والحبكات تستهدف احتلال منطقة الخليج برمتها - إنها الخطط التي يتابع تحليلها وتفحصها منذ 15 سنة خلت دارسو استراتيجيا وعلوم مستقبليات - . لذلك، وبقطع النظر عما جرى، وما إذا كانت الكويت مستقلة أو محتلة (وأنا أرفض أية عملية احتلال)، فإن الوهانات القائمة هي من الضخامة في تقدير كل من الولايات المتحدة الامريكية والغربيين بحيث لا تمثل مسألة الحظر سوى خطوة أولى مهيأة لتبرير إجراءات أخرى هي جزء من عملية تصعيد جيدة الحبك تقود إلى تدخل عسكري سافر.

● الإذاعة الدولية لفرنسا : بلدان المغرب العربي شرعت في بناء مجموعة اقتصادية، أو هي حاولت بناء مثل هذه المجموعة. هل ترون احتمال نشوء مجموعة اقتصادية في الشرق الأوسط؟

– الدكتور المهدي المنجرة : إن مسلسل الدمج الراهن، على مستوى منطقة المغرب العربي، هو نفسه جد محدود - وأنا لا أظنه بالغا مداه، باعتبار الكيفية التي يتم بها إنجازه حاليا... فقبل أن يتأتى لأي طرف بناء مجموعة اقتصادية يجب على هذا الطرف أن يتوفر على أداة هامة - وهي أداة يفتقر إليها، للأسف!، العالم العربي بما فيه المنطقة المغاربية؛ ويمكن أن تصبح في المتناول خلال الفترة القادمة لما بعد أزمة الخليج... إنها: التوفر على تصور موحد لما يجب أن يكون عليه «المجتمع الجديد الصالح». إن هذا التصور مفقود لدينا... وعلم الاقتصاد الجديد يلقننا أن: لا تجمع جهويا يقل سكانه عن 150 مليون نسمة قادر علي ولوج القرن الواحد والعشرين ولوجا مشرفا.

في أثناء هذه المرحلة الفاصلة يظل العالم العربي مبلقنا في وقت يتحد فيه شطرا ألمانيا وتوشك فيه المجموعة الاقتصادية الأوروبية على تحقيق الاندماج الكامل... وفي هذا الوقت بالذات يتبين أن الأقطاب الغربيين البالغي التشدد فيما يخص مصالحهم العاجلة الضيقة يسعون لمنع أي شكل من أشكال تجمع

عربي يكون من شأنه تغيير صورة الوضع القائم.

ولا أتوقع أن يتم أي دمج اقتصادي - في الشق المغاربي، أو في الشق المشارقي من العالم العربي -، اللهم إلا إذا سبقه مسلسل دمقرطة خالص، وأعني بذلك أن يعطى للشعوب ذات العلاقة حق الكلام الحر الذي يعبر عن واقع الاحساس.

إن الثلاثين سنة الأخيرة المنصرمة - اللاحقة لفترة تصفية النظام الاستعماري - حُرِّفت عن مجراها الطبيعي؛ فبدل أن تستخدم لإقرار نظام دمقرطة، في بلدان العالم الثالث، استخدمت في تدعيم سلطة أنظمة وحكومات تسوس مواطنيها بعكس ما يقتضيه الشأن الدمقراطي.

تلك هي الأزمة الحقيقية المطبقة على علاقات الشمال والجنوب؛ والذي يجري الآن في الخليج ليس سوى حبة من سبحة جديدة ستليها حبات وحبات..

نص مقابلة صحفية أجرتها الاذاعة الدولية لفرنسا :
17 شتنبر 1990
العلم"، الرباط- 1 اكتوبر 1990

واقع ومستقبل التخلف العربي على ضوء التحولات العالمية (×)

إن أول دراسة مستقبلية شملت العالم العربي قامت بها منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية في باريس وكلفت أكثر من ستة ملايين دولار وقد خرجت هذه الدراسة بنماذج وسيناريوهات خاصة بالقرن الواحد والعشرين بما فيها ما يخص العالم العربي. وقد تمت هذه الدراسة بدون أية مشاركة عربية مما دعاني الى توجيه النقد لهذه الدراسة، سواء في نادي روما وعلى المستوى الدولي من الناحية السياسية، حيث أنهم أرادوا أن يرهنوا مستقبلنا بدون التشاور معنا وبدون أية مشاركة عربية. وهذا نظرا لأن الدراسات المستقبلية تعد بناء على رؤية.. وقد بدأنا في العالم العربي أجزاء بعض الدراسات المستقبلية منذ العقد الماضي وانتهينا الى أهميتها إلا أنها لم تصل الى ما نرجوه..وقد أدى غياب الدراسات المستقبلية في الفترة الماضية إلى تعاملنا مع الأحداث كرد فعل في حين أن العالم الغربي يعد الاحتمالات المختلفة لكيفية... التعرف تجاه الكوارث الطبيعية لتجنب آثارها المدمرة اقتصاديا وبشريا واجتماعيا... في حين أن العالم العربي يتغلب على المشاكل بتأجيلها الى المستقبل حيث لا تتوفر إلا أمنيات على الأداء الاقتصادي في المستقبل مثل توقع زيادة عدد السياح برقم معين أو تطور الخدمات الصحية بتوفير عدد محدد من الأسر بدون أن تكون هذه التوقعات مبنية على اختيارات ودراسات.

وفي المشاكل التي نواجهها في القطاع الاقتصادي وبصفة خاصة المديونية أصبح صندوق النقد الدولي هو المركز الرئيسي الذي يقرر حل مشكلاتنا.. إذ أن الصندوق عندما يتم التفاوض معه فإنه لا يطلب تنفيذ بعض الإجراءات خلال عام واحد... وإنما هو يطلب تنفيذ اختيارات استراتيجية من المفروض أن تناقش على مستوى شعبي وبرلماني ومن طرف الحكومات.. وأصبح الوضع يتمثل في هيمنة الصندوق حتى على مستقبل العالم العربي.

وما نراه أن مستقبلنا مرهون مع مؤسسات التمويل الدولية وحتى على مستوى المساعدات الثنائية تطلب الدول المانحة شروطا محدودة تمثل العناصر التي تؤثر على مستقبلنا... فلو كان لدينا دراسات للمستقبل وتوقعات كان يمكن أن يفيدنا ذلك في المفاوضات مع الصندوق وغيره.

(×) 25 يوليوز 1990

الصندوق.. والمستقبل

هل معنى ذلك أن قصور التعامل مع الصندوق الدولي يرجع الى عدم توفر دراسات مستقبلية ؟

قال : هناك عناصر داخلية وعناصر خارجية وفيما يتعلق بالأخيرة لا يمكنه أن ينسى الفجوة التي تتزايد بين الشمال والجنوب حيث أن أي حكومة من العالم الثالث تجد نفسها في مأزق لأن النظام الاقتصادي الدولي ليس فيه أية عدالة.. لكن لنا مسؤولية من الناحية الداخلية فعندما ننتقد صندوق النقد فإن النقد لا يوجه اليه فقط وإنما الخطأ من ناحيتنا أيضا... فليس هناك دراسات حكومية مستقبلية كما لا تتوافر ثقة بالنفس كافية لمواجهة الحاضر والمستقبل...

ويا ليت المشكلة تتبلور فقط في عدم الاهتمام بالمستقبل، حيث أن الحكومات العربية تذهب للتفاوض مع مؤسسات التمويل الدولية بدون ثقة كافية بالنفس بالاستمرار مما يمنعها من أي تصور مستقبلي.

وتجري السوق الأوروبية المشتركة حاليا دراسة مستقبلية هامة هي التنبؤ بالعلوم التكنولوجية الحديثة وقد أنفقت مبالغ طائلة بهدف التنبؤ بمستقبل الاسلاميات وغيرها من العلوم وقد وصلوا الى المراحل النهائية في هذه الدراسة وبدأوا في دراسة تصورات عالمية فيما يخص آسيا وإفريقيا والعالم وأمريكا اللاتينية.

القطري... والقومي

قاطعت الدكتور مهدي المنجرة وسألته : هل الدراسات المستقبلية في العالم العربي مقصورة على تلك الدراسات الثلاث الشهيرة على المستوى القومي العربي أم أن هناك ثمة اهتماما بتلك الدراسات على المستوى القطري ؟

قال الدكتور مهدي : في المغرب أسست عام 1979 الجمعية المغربية للدراسات المستقبلية ولها منشوراتها وتضم حوالي 400 عضو من المفكرين والمسؤولين في القطاع العام والقطاع الخاص.. وفي الأسبوع المقبل سوف أذهب الى الجزائر لتنظيم ندوة تدريبية لحوالي 200 من المديرين وقد تأسست في الجزائر منذ أربعة شهور جمعية مماثلة للدراسات المستقبلية...

وفي القريب سوف تنشأ جميعة مستقبلية في تونس وفي خلال زياراتي لمصر هناك تشاور بهذا الموضوع خاصة وأن مصر تمتلك خبرات عظيمة وطاقة بشرية كبيرة وأنا متفائل بناء على اتصالاتي بأنه سوف تؤسس جمعية مصرية للدراسات المستقبلية... وفي الكويت هناك محاولات... وليس هناك تناقض بين العمل على المستوى القطري والمستوى القومي بل هناك تكامل... وعندما يصبح على سبيل المثال هناك جمعية لكل دولة في المغرب العربي فسوف نكون اتحادا للدراسات المستقبلية على مستوى المغربي

العربي... ولا يمكن للحكومات أن تقوم بهذا العمل لأن لها دورا آخر.

وبمناسبة قيام مجالس التعاون على المستوى العربي أرى أن ذلك لا يشكل أي تناقض بل بالعكس.

فجوة الدراسات المستقبلية

قلت للدكتور المنجرة : ما هي حجم الفجوة التي تفصلنا عن العالم الغربي في مجال الدراسات المستقبلية ؟

قال : الفجوة قائمة منذ فترة، ولفهم ذلك يجب أن نذكر كيف بدأت الدراسات المستقبلية في العالم.

إن أول دراسة مستقبلية بدأت في عام 1946 قامت بها مؤسسة «راند كوربوريشن» الأمريكية حيث وقع البنتاجون عقدا مع هذه المؤسسة لوضع تصورات لمدة عشرين عاما قادمة حول التطورات في مجال الفيزياء والكيمياء فقدمت راند كوربوريشن سيناريوهات للمستقبل وحددت التوقعات.. والواقع أن هذه الدراسة كانت توقعاتها جيدة إلا أنها كانت أقل من الحقيقة فما تصورته الدراسة حدث في الواقع ولكن بشكل أكبر.

ويلزم أن نفهم أن ثلثي مجهود الدراسات المستقبلية يحتكره القطاع العسكري في الدول الكبرى وقطاع الشركات متعددة الجنسية.. وأتذكر في عام 1970 أن عينت شركة سوني اليابانية مديرا متفرغا للدرسات المستقبلية وكان ممنوعا عليه أن يساهم أو يشارك في أي أعمال تمس الحاضر وكان لديه فريق عمل.. والشركة الأخرى هي شركة شل التي أعدت سيناريوهات لعام 2000 وخططت لأعمالها بمفهوم مستقبلي وأيضا شركة «أكسون» في الولايات المتحدة.

وأقول أن ما بين 90-97٪ من الأبحاث والدراسات المستقبلية تتركز في الدول الصناعية وأكثر من ثلثي هذه الدراسات في الميدان العسكري.

... وفي منطقتنا تهتم إسرائيل بهذا المجال وقد اتضح ذلك في مشكلة أوغندا وفي واقعة الهجوم الإسرائيلي على المفاعل النووي العراقي من خلال دراسة الاحتمالات والبدائل المتعددة.

وأية دولة تصل الى مستوى علمي معين فهي ملزمة بالاهتمام بالدراسات المستقبلية وبالسيناريوهات.

وفي العالم العربي قطعنا مرحلة ويمكن أن نقول أننا وصلنا الى مرحلة اكتفاء ذاتي في الدراسات المستقبلية... لكن على أي مستوى؟ المستوى الفكري والجامعات والأشخاص ومراكز غير حكومية. ولكن للأسف على مستوى صناعة القرار ليس هناك أي اهتمام بهذا المجال حيث أن صناعة القرار في المنطقة

العربية تتم على المدى القصير... والخطير هي عدم إدراك أهمية قراءة المستقبل في المجال السياسي.

متغيرات دولية

س – من المعروف أن النظام الدولي أخذ في التغير ونحن على مشارف أوروبا 1992 هل تعتقد أن المنطقة العربية متنبهة لهذه المتغيرات الضخمة في العالم؟

إن أول استنتاج خرجت به الدراسات المستقبلية وهناك اتفاق في العالم عليه، أنه ليس هناك أي مستقبل أو إمكانية لأي مجموعة اقتصادية يقل عددها عما بين 150 الى 200 مليون نسمة، أن تدخل القرن الواحد والعشرين بأي أمل، لأن التطورات الدولية تشير الى أننا ننتقل من مجتمع مبني على الانتاجية الى حضارة أخرى تسمى مجتمع المعرفة. فالنموذج التنموي الذي عرفه العالم بعد الثورة الصناعية هو أن التنمية مبنية على عنصرين أساسيين هما المواد الخام ورأس المال.. وكان المهم هو الانتاج.

أما المجتمع المعرفي والذي يشكل لب الحضارة الجديدة التي تسمى مجتمع ما بعد الصناعة فهو مبني على المعرفة والإعلام... بمعنى أن الموارد البشرية أصبحت هي الأساس... ورأس المال له دور مهم إلا أن المعلومات والمعرفة أصبحت هي الأساس... فإذا توافرت الطاقة البشرية والمعرفة فإن القيمة المضافة للمال سوف تصبح أكبر.. أما إذا توافرت المواد الخام ورأس المال فقط، فليس من الممكن لمجتمع ما أن يصنع بهما شيئا في عالم اليوم... لهذا فإن التطور الذي تم أحدث انقلابا كبيرا في العالم الثالث... والعالم العربي طبعا جزء من العالم الثالث.

وهناك متغيرات ثلاثة ينبغي أن نضعها في الاعتبار ونحن ندخل القرن الواحد والعشرين الأول : ديموغرافي : وهو العنصر الذي يخشاه الشمال.. وغير ممكن محاربة الزيادة السكانية بدون محاربة الفقر.. فعندما ترتفع معدلات التنمية تنخفض نسب الزيادة السكانية وغير ممكن أن نقلب الآية كما أن الشمال يمثل حاليا حولي 20٪ من سكان العالم وهذا الرسم سوف ينخفض في عام 2015 الى 15٪ وفي عام 2050 فإن وزن الشمال على الكرة الأرضية سينخفض الى 12٪ ديموغرافيا.. والوضع الآن أن 20٪ من البشرية تستغل أكثر من 80٪ من الشؤون المادية والمصرفية والمالية في العالم... كما أن الشمال يحتكر الأن حوالي 90٪ من المصارف الدولية... وفي ميدان البحث العلمي 90٪ ومن غير الممكن أن تستمر 20٪ من سكان الكرة الأرضية في استغلال كل ذلك في المستقبل.. ومن المنتظر خلال العشرين سنة القادمة أن ينخفض الانتاج الصناعي لعالم الشمال. العنصر الثاني : ليس التغيير الديموغرافي الكمي بل الكيفي.. ففي بداية القرن الواحد والعشرين سيكون عدد سكان المدن أكبر من عدد سكان الريف لأول مرة في تاريخ البشرية... وهذا عنصر مهم لأن الوعي السياسي والتغييرات تتم بسرعة أكبر في المدن من القرى وهذا التغيير في العالم

مهم جدا من الناحية الكيفية الديموغرافية.. وسوف نجد أنه من بين العشرين مدينة التي يزيد عدد سكانها على 10 ملايين نسمة 16 مدينة من العالم الثالث... فمثلا القاهرة حاليا حوالي 12 مليون نسمة وفي سنة 2010 سوف تصل الى 25 نسمة، وميكسيكو وصلت الى 20 مليون نسمة.. وهذه لها وزن من ناحية دور التغير الاجتماعي بسبب تراكم السكان.

عنصر آخر : في بداية القرن الواحد والعشرين سوف يشكل عدد الحاصلين على درجات الدكتوراه في العالم الثالث 50٪ من العدد الاجمالي العالمي.. ولأول مرة بعد 300 أو 400 سنة سوف ينتهي الاحتكار المعرفي لأن 50٪ من الحاصلين على الدكتوراه سوف يكونون من العالم الثالث.

وفي العام الماضي كانت آخر التقارير التي وصلت الى الرئيس ريجان تفيد أن 55٪ من الداخلين في سوق العمل من الحاصلين على الدكتوراه من أصول غير أمريكية.

العنصر الثالث : من أكبر المشاكل التي سنواجهها هي ما يعرف بالاتصال الثقافي وأول نموذج منه هو الصراع الذي نراه الآن ما بين اليابان والولايات المتحدة الأميركية وما بين اليابان وأوروبا الغربية.. وما أقصد بالصراع الحضاري أن تخوفات الغرب هي تخوفات من العنصر الديموغرافي وعنصر القيم حيث نرى التخوف في أوروبا من الإسلام كحضارة واليابان وهو ما أصبح يعرف في فرنسا باسم نيوفوبيا " New- phobie ".. حيث نقرأ في جريدة فرنسية جادة هي «اللوموند» تحليلا مطولا لما يعرف بـ «نيوفوبيا» ولكي أبلور ذلك أكثر أقول أنه عندما أستقبل الرئيس الفرنسي ميتران رئيس وزراء اليابان منذ شهرين تحدث عن الشؤون الاقتصادية والسوق الأوروبية المشتركة والسيارات والفيديو، وعندما خرج ميتران للصحفين قال أن المشكلة ليست اقتصادية ولكنها مشكلة ثقافية..

وأهم دراسة مستقبلية في تاريخ البشرية هي الدراسة التي قام بها في اليابان ما يسمى بـ «نيرا» وهو المعهد الياباني للبحوث المتقدمة، وقد دامت الدراسة سبع سنوات تناولت دراسة التطورات المتوقعة في ميادين تكنولوجية : ماذا سيكون في الالكترونيات وماذا سيكون في المعلوماتية، وماذا سيكون في العلوم الخاصة بالفضاء.

وخرجوا بتقرير مهم تحت اسم، "أجنحة اليابان خلال عقد التسعينات". وقد شارك في هذه الدراسة جميع الشركات اليابانية الكبرى وجميع الجامعات. وقد جاء في الدراسة : أن الهيمنة الأمريكية الحضارية على العالم قد انتهت وأننا دخلنا في عالم آخر مبني على تعدد الحضارات ويزيد التقرير فيقول : إن الحضارة الغربية ماتزال لها منافعها، وهذا لا ينكر لكن لا يمكن أن نقول أن معاصرة اليابان تعني التغريب، فما حدث في اليابان ليس هو عملية تغريب وإنما هي عملية تطور ثقافي ياباني...

فليست اليابان حضارة تقليد وإنما سر اليابان يكمن في أنهم محوا الأمية قبل نهاية القرن الماضي كما أنهم اعتمدوا على حضارتهم وقيمهم وكانوا في بداية القرن يترجمون الى اليابانية كل ما يصدر في لغات أخرى.. إذن محافظتهم على قيمهم دفعتهم الى أنهم عندما يحصلون على تكنولوجيات أخرى كانوا يسيطرون عليها وعندما يتفهمونها يضيفون اليها قيمة مضافة هي اليابانية.. وهذا هو الابتكار الياباني..

وآخر كتاب صدر باليابانية في هذا الموضوع كان يحمل عنوان :

«اليابان يمكن أن تقول لا للولايات المتحدة» كتبه المدير العام ورئيس شركة سوني اليابانية ويبرهن فيه علميا أن بإمكان اليابان أن توقف الميدان الأمني في الولايات المتحدة جهازها للدفاع لأن الرادار الأمريكي يحتاج الى تكنولوجيا يابانية.

إذن المتغيرات الثلاث التي يلزم أن نراها في المستقبل في اتصال الشمال والجنوب هي العنصر الديموغرافي بعنصريه الكمي والكيفي.

ثانيا : التغير الذي سيحدث على صعيد النظام الدولي أن عدد المتخرجين والحاصلين على درجات الدكتوراه في العالم الثالث سيكون أكثر من الشمال.

وثالثا : العنصر الحضاري الثقافي القيمي. وهذه المتغيرات الثلاثة هي التي ستؤثر على كل التغيرات في العلاقات بين الشمال ـ الجنوب.

ما هو موقع العالم العربي من هذه المتغيرات ؟

– موقع العالم العربي خطير جدا لأن العالم العربي من الناحية الحضارية له حضارة وله قيم.. فهل سيلتزم بهده الحضارة. وهل سيبذل المجهود الكافي في البحث العلمي وفي استغلال لغته وفي محاربة الأمية وفي الاهتمام بالطاقة البشرية كعنصر أساسي هذا هو التحدي الأول.

أما التحدي الثاني فهو في ميدان العلم والتكنولوجيا بمفهومه المعاصر.. فهل سنظل دولا نستورد التكنولوجيا ونشتري المصانع بنظام تسليم المفتاح وهل سنغتنم بدرجة كافية فرصة وجود الطاقة البشرية مثل وجود 750 ألف مهندس في العالم العربي منهم 250 ألف خارج العالم العربي أم لا لكن مشكلتنا أيضا أنه لابد من أن نعلم وزننا الاقتصادي، إذ أن الدخل القومي بـ 22 دولة عربية لا يساوي مجموع الدخل القومي لكل من بلجيكا وهولنده.

والعالم العربي غني بعدة مواد ولكنه على المستوى الدولي له وزن ضعيف اقتصاديا في عالم اضطر فيه الأوربيون للدخول في اندماج اقتصادي من أجل البقاء وأقول أن التحدي في العالم العربي الذي به 200 مليون يتمثل في أنه لا أمل لدولة عربية أن تدخل القرن الواحد والعشرين إلا بنوع من الاندماج الاقتصادي

يضم مجموعة لا تقل عن 150 مليون نسمة أو 200 نسمة لأن هناك ما يسمى باقتصاديات الحجم، ومن غير الممكن الدخول في ميادين الفضاء والمعلوماتية أو الكمبيوتر إلا إذا كان هناك سوق كافية.. وينبغي على المسؤولين العرب أن يتفهموا أن الوحدة العربية ليست مشكلة عاطفية ولا استراتيجية ولا سياسية وإنما أصبحت أكثر من ذلك مسألة بقاء..

العام والخاص

س – ما هو موضوع الدراسات المستقبلية العربية تجاه القضايا الاقتصادية العربية المصيرية مثل عملية بيع العام والخاص !

قال : الدراسات المستقبلية لها الآن حوالي 40 سنة ولها قيم ومنهاجية واختيارات.. وعنصر أساسي في المنهاجية المستقبلية هي تحديد عناصر المقارنة.. وما نلاحظه مثلا أن الحوار حول تقنية القطاع العام والقطاع الخاص أننا ننقل الأفكار مباشرة بدون دراسة البيئة التي تتطور فيها هذه الأفكار. فالنقاش في فرنسا أو انجلترا أو الولايات المتحدة حول ماهية القطاع العام ومسؤولياته، والقطاع الخاص ومسؤولياته يختلف عما هو عليه في العالم العربي لأنه في العالم العربي هناك مشاكل تتعلق بكيفية تسيير وإدارة القطاع العام.. ولا ينبغي أن ننقل مفاهيم من بيئة تختلف عن بيئتنا وأنا لا أتحدث عن الناحية الحضارية وإنما عن الواقع الاقتصادي والمالي والسياسي.. ففي فرنسا مثلا عندما تغيرت الحكومة وانتقل بنك "سوسيته جنرال" من القطاع العام الى القطاع الخاص فقد تم ذلك وفق شروط محددة بعد مناقشة في البرلمان ودراسات.. استشارات.. الصحف تتحدث في الموضوع.. والتعرف على كيفية توزيع أسهم هذا البنك.. ومؤسسات تراقب العملية أنها مسؤولية تنجم عن العملية الديمقراطية.. بالإضافة الى توافر القدرة الشرائية لدى الشعب الفرنسي.. فإذا أخذنا تطبيق تلك التجربة في العالم العربي فمن لديه القدرة على الشراء.. الفئة الوحيدة التي لديها القدرة على شراء القطاع العام هي فئة محدودة بالإضافة الى المشترين من الخارج حيث ستأتي بعض رؤوس الأموال الخارجية لشراء هذه المؤسسات بالإضافة الى حل مقايضة المديونية الخارجية من خلال بيع شركات القطاع العام أنا أرفض التحدث عن بيع القطاع العام الى القطاع الخاص بمنظور دول أخرى تتوافر لديها شروط أساسية منها : الديمقراطية والتوزيع العادل للدخل القومي.. ولهذا ينبغي أن نناقش قضايا القطاع العام والقطاع الخاص بمنظورنا، حيث أن إدارة كل من القطاع العام والقطاع الخاص تواجههما مشاكل عديدة..

فمثلا القطاع الخاص في الغرب ينفق على البحث العلمي ما بين 6 و8 في المائة من أرباح هذه الشركات سنويا.. وتنفق نفس النسبة على تدريب وتأهيل موظفيها وعمالها.. من هنا نجد قيمة مضافة تأتي

من التدريب والتكوين والبحث..

والعالم كله يتبع أسلوب الابتكار، وحيث لا يمكن أن نفسر مفهوم النجاح الياباني إلا إذا فهمنا دور الابتكار ودور الطاقة البشرية ودور البحث العلمي.. وأنا أتساءل أين هي تلك الشركة العربية من القطاع الخاص التي تنفق 1٪ من أرباحها السنوية على البحث العلمي ؟..

إذن نريد أن نقلد أشياء ولكن نتجاهل الأساس القائم على البحث العلمي..

وأكثر من ذلك نجد أن القطاع العام والخاص العربي يمول البحث العلمي في دول أخرى بشراء الأسلحة بنسبة 30٪ فما ندفعه يذهب الى البحث العلمي في مجال الأسلحة.. هذا في الوقت الذي تتوفر لنا طاقات عملية كبيرة، إذ يتوافر في العالم العربي 500 ألف مهندس داخل العالم العربي و250 ألف مهندس خارج العالم العربي. والولايات المتحدة نفسها لا يتوفر بها رقم المليون مهندس؛ لكن كيف نستغلها.. أعتقد أن سبب ذلك وجود تبعية اقتصادية وتخلف فكري وانتشار الأمية حيث تصل الأمية الى 60٪ وفقا لإحصاءات اليونسكو في الوقت الذي بلغت النسبة في إفريقيا جنوب الصحراء 56٪ فكيف يمكن بهذا الوزن أن نتحدث عن أفكار ونماذج خارجية عن منطقتنا ؟

حوار أجراه
جمال زايدة
الأهرام الإقتصادية 25-06-1990

العالم الإسلامي والمستقبل (×)

• يهتم الدكتور المهدي المنجرة بالدراسات المستقبلية، ويدعو إلى ذلك بحماس كبير .. فهل يرى أن إحاطتنا تسمح لنا باستشراف المستقبل؟

– اسمح لي أن أبدأ بالهزل، والهزل هنا جدي. لما سئل اربر انسلاين هذا السؤال كان جوابه بسيطا جدا . قال إن أملي هو أن أقضي بقية حياتي هناك. الحاضر في الحقيقة لا وجود له. هو شيء ظرفي. الماضي موجود، الاهتمام بالدراسات المستقبلية يمس حتى الماضي وخصوصا في مناطقنا. نحن في ماضينا كنا مستعمرين، وما ضينا له مستقبل. ننحن ننادي اليوم بالبحث العلمي وإيجابياته، أن على يقين أن المسلمين بعد نحو عشرين أو ثلاثين سنة ستكون لهم مفاهيم أخرى لهذا التاريخ. حتى هذا التاريخ له مستقبل. فنظرا لظروف الاستعمار وتأثير المستشرقين و«المثقفين» المرتزقة في البلاد الإسلامية الذي يخدمون في إطار الحملة ضد العالم الإسلامي، حملنا كثيرا من الأخطاء والتقويمات غير السليمة. إن لهذا الماضي مستقبلا سوف نستفيد منه. وما دام للماضي مستقبل، فإن لدراسة المستقبل أولوية وفوائد جمة.

إن ما يسمى بالحاضر في أزمة اليوم هو نتيجة عدم اهتمامنا بالمستقبل في السنوات الماضية. فالحاضر ليس سوى نتيجة لما أعددنا في فترة محددة. وإذا أردنا أن نغير المستقبل فيجب أن نغير العمل اليوم بالذات. إن العناية بالمستقبل ليست أمرا جديدا. فقد حفلت اللغة العربية بلفظ يحمل هذا المعنى، كثيرا ما استعمله الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي كلمة «الاستبصار». كان النبي قبل أن يبدأ عمله كل يوم يتصور الأشياء ويخطط ويستبصر. وبعد هذا الاستبصار يتوكل على الله ويمد له الله يد المساعدة. فالتوكل على الله يأتي بعد الاستبصار. وبتعبير بسيط أقول إن أزمتنا في العالم الإسلامي اليوم سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو أخلاقية هي بالأساس أزمة استبصار. فليس هناك استبصار عند المسؤولين. ليست هناك رؤية. الرؤية الوحيدة الموجودة باليومية هي كيفية البقاءفي الحكم والمحافظة عليه بما فيه من وزراء ومسؤولين.

(×) اكتوبر 1990

أعطيك مثلا ثانيا. ما هو مفهوم من إصلاح تربوي. هل هناك ما هو أهم في أزمتنا من المسألة التربوية؟ لكن من هو الاختصاصي الحقيقي في التربية الذي يمكن أن يتوقع ما قد يجد على مدى السنوات المقبلة؟ كيف يمكن أن يقع إصلاح التعليم الابتدائي إذا لم يصاحبه إصلاح في التعليم الثانوي؟ وكيف يمكن أن يتم ذلك إذا لم نكون على مستوى الجامعة الأساتذة الأكفاء؟ نأخذ مثلا آخر في الصيدلة. فأي مشروع في دواء جديد تسبقه على الأقل خمس سنوات أو ست للبحث العلمي، وخمس سنوات للتجربة، وخمس سنوات أخرى يباع بطريقة أو بأخرى، وتصحبه تحاليل حول تأثيرته ومفعوله. فالعمل الصيدلي يحتاج إلى بحث يمتد لخمس عشرة سنة تقريبا.

نأخذ مثالا سياسيا. عندما تخوف الرئيس الأمريكي كيندي في بداية الستينات من تقدم بحوث الفضاء السوفياتية بعد سبوتنيك، أخذ قرارا سياسيا وقال للعالم: بعد عشر سنوات سنكون في القمر. وبعد أن اتخذ هذا القرار السياسي طلب من الخبراء والعلماء والإداريين والاقتصاديين أن يقدموا له تخطيطا لإنجاز هذه الفكرة خلال عشر سنوات، وبدأوا العمل منذ أن اتخذ القرار. وفعلا فقد وصلت الولايات المتحدة إلى القمر بعد عشر سنوات في مشروع أبولو. نحلل هذا. لقد صارت هناك إرادة سياسية. وبالنسبة للدراسات المستقبلية، فإن لنا من الوسائل المادية والبشرية والعلمية التي تسمح لنا بتصور المستقبل وبذل المجهودات الممكنة لتحقيقه. وإذا لم تتوفر لدينا كل الوسائل، فلنأخذ جزءا منها. لكن عدم الاستبصار وغياب الإعداد على أمد طويل للأشياء، يؤدي بنا إلى الأزمة.

وهناك الآن تسارع التاريخ. وما أقوله هو استنتاج علماء وباحثين وليسس استنتاجا شخصيا. فما بين هذا الظرف الذي اتحدث فيه إليك إلى آخر هذا القرن، فإن الانتاج العلمي الحضاري خلال العشر سنوات المقبلة فقط سيساوي ما حققته الانسانية منذ عشر آلاف سنة. وهو التاريخ الحضاري للإنسانية. فكيف يمكن في هذا المواقع المتحرك أن ينتظر الإنسان. إن الدراسات المستقبلية مسألة تسيير وليس هناك إلا نوعان من التسيير. التسيير بالأهداف. وإذا أردت مقارنة بالعلوم الإسلامية فهي المقاصد. فإذا فهمت مقاصد الدين الاسلامي مثلا، فإن ما تفعله يصبح مجرد وسائل. في ميدان الدراسات المستقبلية هناك تسيير الاقتصاد. فأما تسيير بناء على المقاصد وأهداف على مدى طويل، أو تسيير مبني على الكوارث، أي تنتظر حتى تحصل الكارثة لتحاول أن تواجهها. وكلما تأخر الانسان في الاستعداد لمواجهة المشاكل، صعب عليه حلها. أما إذا توقع الانسان حدوث المشكل واستعد له، فتسهل عليه معالجته. والتسيير في بلدان العالم الثالث كله تسيير كوارث. دائما ننتظر حصول الكارثة لنستنتج منها. لقد أعطانا الله الامكانيات.

أعطانا العقل والعلم والقدرة على التحليل.

• لكن هل نحن مستوعبون للحاضر حتى نحسن التخطيط للمستقبل؟

الدراسات المستقبلية تبنى على المستقبل أولا. لنأخذ مثال كينيدي والصعود إلى القمر. فلما قال أن بلاده ستصل إلى القمر بعد عشر سنوات كان متحديا. لم تكن له من المعلومات الكافية لتحليل الحاضر والامكانيات العلمية المتاحة. لقد اتخذ قرارا سياسيا. ولكن الحاضر كله أصبح يخدم هذا المستقبل. وهذا حل وسط. أولا نبدأ ونتمنى ونقول ما هو المستقبل الذي نريد؟ بكل حرية وبدون ضغط من الحاضر. وعندما يصير هذا القرار رؤية نرجع إلى الحاضر لنحلله بجدية ونحدد وضعنا فيه. فإذا كان تحليل الحاضر جديا فإننا نعرف نقطة الانطلاق. كيف يمكن أن تحقق هدفا قبل معرفة المسافة التي تفصلك عنه والعراقيل التي قد تعترضك في الطريق؟ لكن المهم في الدراسات المستقبلية والذي يجب أن نركز عليه هو أن هناك فرقا بين أن أتوقع مستقبلا أريده وأرجع إلى الواقع لأغيره ابتداء من اليوم، ويجب أن أغير البرنامج التعليمي، ويجب أن أدفع أكثر في البحث العلمي ويجب أن أكون أكثر مصداقية في التسيير، وأن تكون لنا سياسة ثقافية حضارية. ننظر ما هي الشروط التي يجب أن تتوفر لتحقيق هدف معين.

إن هناك فرقا كبيرا بين الغيب والمستقبل. الغيب شيء خاص بالقدرة الالهية. أما المستقبل، فقد أعطانا الله القدرة لتغير أمورنا بأيدينا (سنريهم آياتنا في الآفاق). أنا أفهم الآفاق نظرة مستقبلية. النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ينظر إلى الوراء. كان هدفه دائما إلى المستقبل. هناك غلط يقع فيه بعض الناس، وأنا أسميه جريمة، وهو استعمال المستقبل للتهرب من مسؤولية الحاضر. هناك بلدان إسلامية رأيت فيها مشاكل في الصحة، وعوض أن نواجه هذه المشاكل ونخطط للمستقبل، نسمع وزير صحة يقول إنه في سن ألفين سيكون لدينا وكذا. وهو لم يخطط لهذا ولم يفهم ما هي المشاكل التي يجب أن يتغلب عليها، لكنه يستغل هذا المستقبل لاغراض ديماغوجية وسياسية ليهدئ الناس. ليس هذا مفهوم الدراسات المستقبلية. هذه خيانة لعلوم المستقبل، وخيانة للشعوب. تتحدث عن السياحة وعدد المدارس والمستشفيات وغيرها سنة ألفين. طيب أعطني الوسائل والتخطيط، أعطيني المؤشرات التي بنيت عليها إحصاءك، أعطيني الميزانية التي خصصتها لذلك.

• لو ننتقل إلى موضوع آخر من اهتمامات د. مهدي المنجرة وهو موضوع حقوق الإنسان والمنظمات المهتمة بها، فقد برزت خلال السنوات الأخيرة عدة منظمات وجمعيات للعناية بحقوق الإنسان العربي. وبغض النظر عن الهدف المعلن ومشروعيته هل ترى بروز هذه المنظمات أمرا طبيعيا في حياتنا

العربية؟ أم هو نقل لشيء موجود في الغرب؟ كيف ترى علاقة هذه المنظمات بواقعنا العربي وكذلك بالجهات الغربية؟

إن مبادئ الإسلام قد جاءت بهذه الحقوق قبل غيرها بقرون. إن مفهوم الحرية وكرامة الإنسان وحقوقه وحقوق المرأة والحق في الإبداع والابتكار هي نقطة الانطلاق الحقيقية لمفاهيم الإسلام. فليس هناك شيء أخذناه من الخارج. فقد سادت هذه المفاهيم في عهود الإسلام الزاهرة. لكن تدهور المجتمع الإسلامي وطغيان روح الاستبداد في العالم الإسلامي لعدة قرون جعل كثيرين ينسون هذه المبادئ. والغرب عاش مشاكل أخرى في ظروف مخالفة ووجد لها حلولا ورأى أن الحرية وحقوق الإنسان أمر ضروري.

إن الله عندما خلق الإنسان خلق معه كرامة. وهي من أعز الأشياء عند الله، بغض النظر عن لون الإنسان ودينه وموطنه. فمفاهيم حقوق الإنسان عالمية، لكن تطبيقها له علاقة بالقيم. القالب الحضاري يستغل مفهوم حقوق الإنسان ليس للدفاع عن الإنسان، ولكن لاستغلال هذه المفاهيم، وهذه الفلسفة تدفع إلى أشياء لا علاقة لها بحقوق الإنسان. هناك «المنظمة العربية لحقوق الإنسان» وهي منظمة غير حكومية ولا توجد لها فروع إلا في عدد قليل من الدول العربية. لكن بعض هذه المنظمات سواء بطريقة مقصودة أو غير مقصودة، أصبح لديها مركب نقص أمام الغرب. وأصبح لديها تقليد أعمى. وأنا لا أقبل التقليد الأعمى في أي شيء. حتى القرد يقلد بسرعة، ونحن عندما نقلد، نقلد بتأخير كبير. لقد مارست هذا الموضوع ووجدت فيه صعوبات كثيرة. آخذ مثلا بلدي المغرب، حيث كنت رئيسا مؤسسا ل «المنظمة المغربية لحقوق الإنسان»، وهي منظمة لاتنتمي لحزب أو سلطة، لكننا نجد أحزابا سياسية معارضة تجد في حقوق الانسان مدخلا لأغراض سياسية وانتخابية.

والصعوبة في بلداننا أننا نجد دائما الأحزاب السياسية أو السلطات الحاكمة تحاول أن تستولي على هذا الميدان. وهذا هو الخطر الأول. ثانيا نجد ضغطا يمارس علينا من الغرب حتى في ميدان حقوق الإنسان. هذه الهيمنة الغربية تستغل كل وسيلة وتحدث الخلافات والتشتت. أنا منذ صغري مناضل في سبيل حقوق الإنسان. وفي سنة 1958 كنت ممثلا للمغرب لدى الأمم المتحدة ومن الذين وافقوا على الاتفاقية الدولية الخاصة بحقوق الإنسان. ولكني وجدت ضغوطا تمارس علي لدرجة أن الرابطة الفرنسية لحقوق الإنسان أو شيئا يسمى «الاتحاد العالمي لحقوق الإنسان»، وليس له في الحقيقة أي شيء عالمي ولا مصداقية، ولم يقو على إدانة الممارسات الصهيونية، يصل الأمر بهذا «الاتحاد العالمي» لأن يصدر تعليمات لمنظمة حقوق الإنسان في المغرب العربي ويقول : إذا أردتم أن أتعامل معكم فيجب أن يتخلى مهدي المنجرة

عن منصب كذا. ومعلوم أن مهدي المنجرة سبق له أن دافع عن هذه المؤسسة وتحمل من أجلها ضغوطات. ثم يتحقق هذا الأمر الصادر من باريس وتقبل به منظمة حقوق الانسان المغربية، والرابطة الجزائرية لحقوق الإنسان، والرابطة التونسية لحقوق الإنسان التي تجلس في هذا الاتحاد (الاتحاد العالمي) في نيابة الرئاسة مع نائب ثان هو رئيس الرابطة الإسرائيلية لحقوق الإنسان.

وهكذا ترى الهيمنة مع مرتزقة مثقفين، وبمساندة أحزاب تسمى معارضة. فماذا بقي من حقوق الإنسان، ومن مصداقية. وهذه أزمتنا في حقوق الإنسان. إنها ليست على مستوى المفاهيم، ولايجوز أن تجزأ كرامة الإنسان. فالله الذي خلق البشرية كلها لم يجزئها. لكنه مركب النقص لدى المثقفين عندنا، الذين لايشهدون بشيء إلا إذا شهد لهم به من مصادر أخرى خارجة عنا جميعا.

الرباط - حسن صالح
"العالم" (لندن) السبت ٦ تشرين الأول (أكتوبر) 1990

حــوار حــول أفــق الأزمــة(x)

• كيف تنظر إلى العرب غدا أو إلى مستقبلهم، خاصة بعد التغيرات العالمية وأزمة الخليج؟

هنالك أساس للتفاؤل على الأمد الطويل، أي بين ١٠ و ١٥ سنة حسب مفهوم الدراسات المستقبلية. لكن وفي الوقت نفسه هنالك عناصر موضوعية للتشاؤم على الأمد القصير، وأظن أن العالم العربي دخل في مرحلة تشمل على الأقل السنوات الخمس المقبلة، مرحلة صعبة جدا من كل النواحي. وستشهد تطورات هي نتيجة ما جرى في العالم العربي خلال العقد الأخير. إنها مرحلة صعبة جدا سنرى خلالها انقطاعات أساسية في ما يخص النموذج التنموي ومفهوم الدولة، وعلاقة المواطن مع حكومته، ومع المؤسسات الوطنية والأحزاب السياسية. وسنرى تحولات كبيرة جدا في ما يخص طموحات الشعوب العربية من أجل الوصول الى مجتمع مدني. بالإضافة إلى مسألة حقوق الإنسان ودولة القانون التي سيكون لها دور كبير.

ولعل أكبر أزمة في العالم العربي هي عدم وجود رؤية الأعمال التي قامت بها الدول العربية سواء داخل الجامعة العربية ومؤتمرات القمة أو من خلال برامج التعاون، أو حتى في بعض المؤسسات المختصة والمسؤولة عن التربية والصناعة والسياحة، كما تعاني من البيروقراطية، ومن تقليد أعمى لنماذج على المستوى العالمي وفي المنظمات الدولية.

• ما هي الرؤية التي تراها؟

الرؤية يصعب أن تراها العين، والرؤية الحقيقية في المجتمع هي في وجود مشاركة حقيقية. الرؤية ليست نتاج شخص، والوصول إليها يجب أن يكون نتيجة طموحات الشعوب العربية، وحتى الآن لم تتمكن هذه الشعوب من التعبير عن طموحاتها وأحلامها والحلول التي تتصورها لمواجهة التحديات الكبرى. بالطبع هنالك عنصر ذاتي داخلي، أسباب داخلية خاصة بالمنطقة وهنالك أيضا أسباب خارجية، وأظن أن الأسباب الداخلية أكثر أهمية من الأسباب الخارجية. إذ أنه من دون ديمقراطية لا يمكن أن نتطور أو أن نواجه مشكلاتنا الاقتصادية والاجتماعية. هنالك أيضا أزمة أخلاق، أي أزمة مصداقية في ما يخص المسؤولين وتعاملهم مع الاقتصاد الوطني، وتحويلهم مبالغ ضخمة إلى الخارج، وعدم الاهتمام برأي المواطنين

(x) 25 أكتوبر 1990

• ما هي الأسباب الفعلية التي تدعوك إلى التفاؤل؟

– تفاؤلي ينطلق من إيماني بالإنسان وبقدرة الأشخاص والمجتمع على تغيير أوضاعهم جديا. ونرى الآن ومنذ بداية أزمة الخليج تحركا أساسيا على مستوى الشعوب العربية، التي غالبا ما تتخذ مواقف مضادة لتلك التي تتخذها الحكومات العربية في هذه المنطقة.

• يستهل المثقف ورجل الفكر أوالباحث عملية إعطاء «وصفة» الديمقراطية لحل كل مشكلاتنا،

بالإضافة إلى انتقاد الغرب. لكن عندما نتكلم عن الديموقراطية نستخدمها بمفهومها الغربي. برأيك هل من خصوصية للديموقراطية العربية وما هي؟

– الديموقراطية الغربية هي نتاج تطورات داخل المجتمع الغربي. ونتاج قيم أساسية خاصة بما يسمى الحضارة اليهودية ـ المسيحية.

وأنا من المعجبين بالتجربة الديمقراطية الغربية، لكن علينا أن نفهم أولا أنه من غير الممكن نقلها بطريقة عمياء واصطناعية من دون توفر الأسس الضرورية لها. الديمقراطية بمفهومها العالمي، هي نوع من المشاركة، وإعطاء الفرد حق الدفاع عن حقوقه أمام ما يسمى بدولة القانون.

وأظن أننا نعيش الآن في العالم العربي بعض التحولات الأساسية. منها بالطبع ما يحدث في الجزائر. فلأول مرة في العالم الثالث وفي العالم العربي ـ باستثناء الانتخابات الأخيرة في الأردن ـ تجري انتخابات نزيهة.

فهل هذه الحرية ناتجة عن إرادة سياسية للحكومة، أم أنها، وهو الأقرب الى الحقيقة، نتيجة وجود نوع من الفراغ في الإرادة السياسية. إن الحكم في الجزائر ليس في إمكانه اليوم أن يعارض الحُرية في التعبير في الشارع وفي البرامج الإذاعية والجمعيات التي تنشأ يوما بعد يوم. إنني أرى في التجربة الجزائرية بداية تحرك عربي. وقد لا نكون بعيدين عن انطلاق حركات تحررية من قيم محلية لها علاقة بالحياة اليومية والأشياء التي يؤمن بها الناس داخل مجتمعهم، وأظن أن العنف الذي عشناه في العالم العربي كان نتيجة تكامل العوامل الخارجية والداخلية. فالخارج ساند هذا النموذج التنموي وبرامج المساعدة الفنية والقروض من المؤسسات المالية الدولية، ويمكن أن نقول أن ما بين 30 أو 40 في المائة مما يسمى بمساعدة الدول العربية خلال الـ 20 سنة الأخيرة، هو نوع من الرشوة وذهب إلى حسابات في الخارج. فأين التنمية التربوية في عالم عربي تصل نسبة الأمية فيه الى 57 في المائة. ونعرف الآية القرآنية «اقرأ باسم ربك». أنا أقول بكل صراحة أنه ليس من حاكم مسلم في المنطقة العربية كلها، لو كان مسلما لطبق أول آية في القرآن.

لكن هذا الجهل يستغل الآن داخليا ومن الخارج، وخصوصا الغرب، ومن ضمنه الاتحاد السوفياتي الذي هو جزء من الحضارة اليهودية ـ المسيحية. والمطلوب واحد: حدوث تغير داخل المنطقة.

• عندما نتكلم عن الغرب، نتكلم عن المسيحية ـ اليهودية، مع العلم أن الثقافة المسيحة هي جزء أساسي من التراث العربي؟

– عندما أتكلم عن الثقافة المسيحية ـ اليهودية أتكلم عنها بكل احترام، لأني كمسلم أولا أعرف أن الإسلام يعترف بالأديان التي جاءت من قبله. وهي اليهودية والمسيحية. إذن ليس هناك مشكلة. أنا أتكلم عن الحضارة اليهودية ـ المسيحية بما حركته. فما حصل في أوروبا الشرقية مؤخرا، جاء بخلفية القيم اليهودية ـ المسيحية. من جهة أخرى، ففي منطقة الشرق الأوسط نلاحظ أشياء كثيرة مشتركة بين المسيحية والحضارة اليهودية ـ المسيحية الغربية.

وهنالك مسيحيون عرب ليس لديهم أي صعوبة في التفاهم مع الحضارة العربية، بينما العنصر اليهودي يمكن أن يتكيف مع هذه القيم، وإذا أردنا التحليل الحقيقي لقضية فلسطين لوجدنا أنها ليست سياسية ولا عسكرية ولا اقتصادية. إنها قضية حضارية في الدرجة الأولى. ففي الوقت الذي تشكل الحضارة المسيحية المحلية في الشرق الأوسط جزءا لا يتجزأ من الذاتية الحضارية العربية، نرى في المقابل، أن العنصر الأوربي اليهودي جاء ليضغط على هذا العنصر اليهودي الشرق الأوسطي أو المغربي لكي يفرض نوعا آخر من القيم. وعندما أتكلم عن هذه القيم أقصد القيم الإسلامية واليهودية ـ المسيحية، لا أقصد المقدسات والأشياء التي تتصل بعلاقة الشخص مع الله، بل قصدت ترجمة هذه المفاهيم في المعاملة اليومية مع بيئة معينة.

تغيير في الأذهان

• هل تعتقد أن التغيير أو التحولات القادمة في المنطقة العربية هي نوع من الانقلاب السياسي، أن العامل الثقافي قد يسبق العامل السياسي هذه المرة؟

– إن جزءا من هذه الانقلابات التي بدأنا نعيشها وسنعيشها في المستقبل هو رد فعل على فشل بعض الحركات السياسية في الماضي. إن هذه الحركات كانت بفعل نخبة معينة وهذه النخبة نفسها كانت نفسها نتاج الحضارة الغربية. الآن التغيير أصبح في الأذهان أولا. ودور المثقفين ايوم لم يعد الدور الذي كانفي الماضي، لأن مصداقية جزء كبير منهم سقطت في التجربة، ومن المآخذ الأساسية على المثقفين الخوف، أي عدم شجاعة في الدفاع عن المبادئ الأساسية التي كانوا يكتبون عنها لم يطبقوها على أنفسهم.

الآن هناك أجيال تكونت داخل الجامعات العربية من عائلات فقيرة تحمل مفاهيم أخرى غير تلك التي كانت سائدة حتى وقت قريب، وهذا سيؤدي الى نوع من «الديمقراطية» المنطلقة من قيم محلية تجاوزت مركب النقص الذي كنا نعيشه ونراه عند الحكام وعند المثقفين إزاء بعض القيم الغربية.

الانقـلاب الكبيـر

– هل تتوقع حدوث انقلابات على مستوى السلطة، أم حصول تراكم ثقافي يؤدي إلى ضغط وتفجير مدني؟

– نحن على عتبة القرن الواحد والعشرين، الانقلاب الكبير في هذا القرن، سيتمثل في الانتقال من مجتمع مبني على الانتاجية والصناعة والمواد الخام والرأسمال، إلى مجتمع المعرفة وهو الذي تعيش فيه اليابان وجزء من الولايات المتحدة وإلى حد ما أوروبا الغربية. أهم شيء في هذا المجتمع ناحية الاقتصاد والتطور هي الموارد البشرية والمعلومات والمعرفة. أما رؤوس الأموال والمواد الخام فأصبح لها دور ثانوي؛ بقطع النظر عن الاهتمام مثلا بالنفط أو بعض المواد الخاصة. وأظن أن التطور الذي سيحصل في العالم العربي هو أولا جزء من تطورشمولي داخل العالم بأسره؛ وثانيا، ليس ضروريا أن يحدث الانقلاب الحقيقي في الشارع أو عبر انقلابات سياسية. وأظن أن أكبر تحول سيكون داخل الأذهان.

ومثلما تكلمت عن الأذهان الجديدة في الأجيال الصاعدة في العالم العربي، يمكن الكلام على تحول مماثل داخل الغرب وداخل الدول الشمالية وبروز قيم ومفاهيم جديدة للسلام والتعاون الدولي.

الشيء الآخر هو أن الفارق بين المرحلة التي دخلنا فيها في التسعينات، وبين المراحل الأخرى التاريخية في العالم هو أنه من غير الممكن أن يرجع الإنسان إلى الوراء، أي مرحلة L'irreversibilité وقد يكون سبب تفاؤلي هو أننا لأول مرة في التاريخ المعاصر، في العالم العربي كما في بقية دول العالم قد دخلنا في ما أسميه L'irreversibilité du changement وان السياسة الغربية كلها، وخصوصا في منطقة الخليج، ترتكز على نظرية «الستاتيكو» لا أكثر. الاستقرار مفيد لمجتمع متقدم من أجل تحصين مكتسباته خلال قرون. أما كلمة الاستقرار في مناطقنا فشيء خطير، في ظل واقع من الظلم والعنف والرشوة وعدم احترام حقوق الانسان والديمقراطية. إن ما يناسبنا هو عدم الاستقرار، أي تغيير الأوضاع التي تعيشها. الـ«ستاتيكو» هو الهدف الاستراتيجي الأول لدول الشمال في العالم الثالث كله، وما نراه في الخليج وفي المنطقة العربية هو درس من قبل هذا الغرب الى بقية العالم الثالث. لكن أظن كما يقول تشرشل في الحرب العالمية الثانية، إننا دخلنا في بداية النهاية.

3 سيناريوهات

- هل تعتقد أن الصراع بين الشمال والجنوب هو صراع حتمي، أم أن هناك إمكانية للتعايش؟

منذ أكثر من 15 سنة، أي منذ بدأ ما سمي بحوار الشمال والجنوب، وبالضبط في العام 1975، كنت أرى 3 سيناريوهات : السيناريو الأول ما يمكن أن نسميه السيناريو الإصلاحي، أي إدخال بعض التغييرات البسيطة في العلاقات ما بين الشمال والجنوب، لكن من دون تغيير جذري؛ والسيناريو الثاني هو سيناريو الـ Transformation أي التغيير، أي إحداث تغيرات وظيفية داخل الهياكل نفسها وفي العلاقات الدولية والنظام الدولي. وهذا هو المقصود من المحاولة التي جرت في الأمم المتحدة عام 1973 عندما تم اتفاق على ما سمي بـ «النظام العالمي الاقتصادي الجديد». لكن من حاول محاربة هذا السيناريو التغييري الوظيفي طبعا، الغرب وخصوصا الولايات المتحدة الامريكية والمانيا وانكلترا وفرنسا.

ويبقى السيناريو الثالث الذي يسمى «سيناريو المواجهة». وفي تحليلي لأزمة الغرب قلت أننا دخلنا في مرحلة تنفيذ سيناريو المواجهة. ولن يكون هناك رجوع إلى الوراء إلا إذا فهم الغرب أنه على المدى الطويل سينحسر بقطع النظر عن إمكانياته العسكرية والتكنولوجية وغير ذلك. فهناك العنصر الديموغرافي والحضاري، وخصوصا الإسلامي الذي يخشاه الغرب أكثر من كل شيء، لأن أعداد المسلمين في العالم تزداد بنسب كبيرة بينما المجتمعات الغربية تدخل مرحلة الشيخوخة.

والعنصر الأخير، وهو أنه عندما أتكلم عن الحضارة المبنية على المعرفة، فإنه في نهاية هذا القرن سيكون 55 في المئة من الأدمغة في العالم في مستوى الدكتوراه سيكون أصلهم من العالم الثالث، حتى وإن كان الجزء الكبير من هؤلاء العلماء يعمل في أمريكا وفي ألمانيا وغيرهما. وآخر تقرير وصل إلى مكتب ريغان قبل أن يترك البيت الأبيض، كان يتكلم عن خطورة التغييرات داخل مراكز البحث العلمي والكليات ومدارس الهندسة في الولايات المتحدة، وان غير الامريكيين أصبح بإمكانهم الآن السيطرة على العديد من هذه المراكز.

إذن يوما بعد يوم يتغير اللون الأوربي داخل أمريكا، اللغة الاسبانية ستكون خلال 30 أو 40 سنة اللغة الأولى وهي لغة رسمية معترف بها إداريا في أكثرية الولايات المتحدة. وهناك العنصر الأسيوي والاسباني من أمريكا اللاتينية وأمريكا الوسطى، والعنصر الشرق أوسطي من إيران ومصر ودول عربية عدة، هناك نوع من «دياسبورا» علمية إسبانية في هذه البلدان، وأظن أن الاسلحة الحقيقية في القرن الـ 21 ستكون أسلحة الأدمغة والعلم والتكنولوجيا والمعرفة.

لماذا الإسلام؟

- من هي المنطقة الثانية المرشحة للعب هذا الدور، الشمال أو الجنوب الذي هو إسلام

ومسيحية وبودية؟

- إن أول تهجم على الإسلام بدأ في الحقيقة في الصحف وغيرها بطريقة شديدة ابتداء من العام 1975. لماذا؟ لأن الفاتيكان الذي يمتلك أفضل المؤسسات لدراسة العالم الاسلامي نشر إحصائيات يبين فيها لأول مرة في التاريخ أن عدد المسلمين فاق عدد الكاثوليك. وحسب هذه الإحصائيات فإن عدد الكاثوليك بلغ 850 مليونا بينما بلغ عدد المسلمين 860 مليونا. هذا التغير تغيير أساسي. «بورجوابيث» الذي توفي قبل 3 أشهر، وهو رئيس الجمعية العالمية لدراسة الديمغرافية بيّن من خلال توقعاته أن عدد المسلمين كان يمثل تقريبا 12 الى 14 في المئة من سكان العالم في بداية القرن وفي نهايته سيكون ما بين 22.20 في المئة، وقبل منتصف القرن 21 سيصل الى ثلث العالم، وفي نهايته سيكون على الأقل نصف سكان الكرة الأرضية مسلمين. ويجب أن نفهم أن الحروب المقبلة ستكون قبل كل شيء حروبا حضارية. وعندما أتكلم عن الحضارة أعني قيم التسامح، ومن حق كل الحضارات أن تعيش وأن تتمتع بكل الحرية، ولهذا أقول أن أكبر تحديات المستقبل هو بناء نظام عالمي جديد حقيقي مبني على احترام الحضارات.

هناك فكرة سائدة في الغرب تدعي أن المسيحية تطورت إلى درجة أنها باتت قادرة على التعايش مع الحضارات الأخرى، بينما هناك نظرة معينة للإسلام وكأنه قائم على نفي الآخر؟

- أظن أن هذا الكلام غير صحيح. الأديان كان لها دور في احترام الانسان لأنه خليقة الله، سواء كان يهوديا أم مسيحيا أم مسلما. وأظن أن إي مسلم لا يحترم الدين الآخر لم يتفهم رسالة الإسلام الحقيقية، في الإسلام نقول ان الاختلافات أمر طبيعي وان الله لو أراد لجعل جميع سكان الأرض مسلمين، ولهذا فأي مسلم لا يعترف بوجود غير المسلمين هو كافر في نظري. لأن الله أراد أن يكون هناك مسلمون وغير مسلمين.

وأظن أن في أحد الجوانب الحقيقية لأزمة الخليج، وجود ما يسمى بالحركة الإسلامية في العالم العربي، وفئات معينة تبرهن أنها نوع من المرتزقة بتمويل من منطقة معينة، وهذه المنطقة برأيي لا تمثل الإسلام الحقيقي، أو إسلام الأفغاني والشيخ محمد عبده وحركة الإسلام المبني على التسامح. ويكفي أن نرى الطريقة التي يطبق فيها الإسلام داخل منطقة الخليج التي لم تحترم الإنسان ولا كرامته ولا أي شيء.

في المقابل هناك تيار آخر داخل هذه الحركة الإسلامية منفتح على العالم معاصر ومبني أيضا على اجتهاد جديد، أو قراءة جديدة للقرآن، وقراءة جديدة لهذه القيم من دون المساس بالقيم والأركان. ولكن لرؤية جديدة، لإسلام القرن العشرين. الفئة الرجعية لا يمكن أن يكون لها مستقبل في مجتمع مدني وحضارة مبنية على المعرفة والعلم والتفتح. وهي ستبقى كما في الأديان الآخرى لكنها ستفقد المزيد من أهميتها.

من جهة أخرى، هناك هيمنة عربية على الإسلام، وهذه الهيمنة لها أيضا حد وسنرى تغييرات مهمة

سيستفيد العالم العربي منها في مفهوم جديد شمولي للإسلام والتسامح والتعامل مع الآخر بغض النظر عن إنتمائه العرقي أو الديني. وهذا التفتح سنراه ليس في الإسلام فقط، وقد بدأنا نراه في المسيحية وحتى في اليهودية ولو جزئيا. وهنالك فئة دينية يهودية تتفهم أن لا مستقبل لبقاء اليهود إلا إذا تفهموا ضرورة التفاهم والتعاون والتسامح.

نحن جزء من الآخر

- نحن من؟ دينياً، قومياً، ثقافياً ؟

نحن جزء من الآخر. لكن يجب أن نعترف أن هنالك وجودا آخر لكي تبقى لي الذاتية الخاصة بي للتعامل مع هذا الآخر وكأنه جزء مني. هذه هي المشاكل الحقيقية التي نعيشها في العالم الآن. فكل شيء يبرهن أننا جزء لا يتجزأ من العالم، ومشكلة البقاء الآن ليست مشكلة شكلية فقط، بل حالة ويجب أن تعمل إلى تفاهم مع الآخر. وأظن أن من أهم الوثائق التي صدرت أخيرا هي دراسة يابانية علمية في سنة 1988، وعنوان جدول أعمال اليابان للقرن الـ 21، فيها مقدمة صغيرة لرئيس المؤسسة اليابانية لتقدم البحث العلمي، يقول فيها : إن العلمنة الحضارية - الأمريكية انتهت واننا دخلنا في عهد تعدد الحضارات. ودخلنا في نظام العالم الجديد. وأظن أن الرؤية اليابانية هي التي لها مستقبل، لأنه من دون التعددية الحضارية الدينية والعرقية لا مجال للتكامل الضروري للبقاء. وهذا في الحقيقة أساس تفاؤلي على الأمد الطويل. ليس بالنسبة للعالم الغربي الذي هوجزء صغير من البشر لا يتعدى 5 أو 4 ٪ من سكان الكرة الأرضية. وما تكلمنا عنه كله عنصر من عناصر دمج التحولات الحقيقية الكبرى.

(25 اكتوبر 1990)
"تحولات" اللبنانية - عدد فبراير 1991

في ندوة «النوفيل أوبسيرفاتور» (×)

انعقدت بباريس يوم الخميس 25 أكتوبر 1990 ندوة بعنوان : الخليج : الأزمة الأولى بعد الحرب الباردة، من تنظيم مجلة النوفل أوبسيرفاتورNowel observateur، وقد استدعي لهذه الندوة الى جانب المشاركين الأجانب عدد من الأسماء العربية : محمد عابد الجابري والمهدي المنجرة من المغرب، محمد أركون ومحمد يزيد وسامي النير من الجزائر، وحمادي الصيد من تونس.

كما تضمنت الندوة ثلاث جلسات :

جلسة الصباح والتي ترأسها السيد جان دانيل مدير المجلة المنظمة، حيث تمحورت حول أصول ومعطيات المشكل، وشارك في هذه الجلسة كل من محمد أركون، وميشيل فوشير، والجنرال كالوا، وبسمة قودماني درويش، وسامي النير، وجان فرانسوا ريفيل، وسميح صادق، ثم نيكولا سركيس.

أما الجلسة الثانية والتي كان موضوعها : النظام العالمي الجديد والقانون الدولي، والتي ترأسها السيد جورج عياش مدير التحرير لمجلة كوسمو بوليتيك (Cosmopolitique) فقد شارك فيها كل من أورسولا براون والجنيرال بويس وهيربي كاسان والمهدي المنجرة وجاك جوليار ثم أوليفي روسباش. أما الجلسة الأخيرة والمتمحورة حول أوربا والعالم العربي، فقد انسحب جل المشاركين فيها. وكان من المفروض أن يتدخل في هاته الجلسة المسيرة من طرف لوران جوفران، كل من حمادي الصيد ومحمد عابد الجابري وأندري مكايل وماكسيم رودنسون ومحمد يزيد ثم جان إلينستان.

ولقد كان في نيتنا حين استدعينا (جريدة الاتحاد الاشتراكي، وليبراسيون) الى هذه الندوة، أن نقوم بتغطية أشغالها وبنقل المداخلات المقدمة خلالها، إلا أننا ومنذ الجلسة الافتتاحية فوجئنا بأحداث وتصرفات وتعديلات على البرنامج المسطر في الندوة، توحي بما لا يدع مجالا للشك بأن الأمر يتعلق بعملية دعائية وبصفقة إعلامية تحركها جهات معينة. وهكذا لم تدم شكوكنا طويلا إذ ما فتئت الأشياء أن انكشفت؛ وإليكم مسلسل الأحداث.

في الجلسة الصباحية لوحظ إلى جانب المشاركين في هاته الجلسة، سفيرا دولتي الكويت والعربية

(×) 26 اكتوبر 1990

السعودية اللذان أقحما تعسفا في منصة الندوة، الشيء الذي أثار استغراب واستياء الحاضرين وخصوصا المثقفين العرب، مما دفع بالدكتور المهدي المنجرة أن يطلب الكلمة في إطار نقطة نظام حيث أوضح أن المشاركين العرب وأنه شخصيا مثقف وباحث استدعي إلى ندوة الى جانب مثقفين ومختصين وأنه فوجئ بوجود رسميين في المنصة، وبعد أن ندد الأستاذ المنجرة بهذا التصرف، اعتبره في الحقيقة دعاية إعلانية موجهة، هدد بانسحابه من أشغال الندوة إذا استمر تواجد ممثلين رسميين كيفما كان نوعهم، حيث قال على الخصوص، «في بلدي حين يحضر العلماء تفرض أصول اللياقة والاحترام أن يبقى رجل الأعمال أو الوزير أو الثري على مسافة محترمة، وأنه إذا كان هناك ديبلوماسيون تم استدعاؤهم كان عليهم أن يمكثوا في القاعة كباقي الحاضرين خاصة وأن وجهات نظر أخرى تم تغييبها».

وقد تميزت هذه الجلسة بمداخلتين هامتين لقيتا تجاوبا متميزا لكل من محمد أركون وسامي النير.

في جلسة ما بعد الظهيرة، كان أهم شيء ميز هذه الجلسة هو طبيعة المتدخلين الذين تحاملوا كلهم على الحق العربي باسم الشرعية الدولية والقانون الدولي وأعادوا اجترار أطروحة الاجماع الدولي، باستثناء السيد جاك جوليار الذي أكد بأنه لا حل إلا بالاعتراف بحق الشعب الفلسطيني وتطبيق القانون الدولي على الجميع بما في ذلك، وعلى الخصوص إسرائيل.

وهنا جاء دور الدكتور المهدي المنجرة الذي ألقى كلمة فند فيها أطروحة الاجماع الدولي حيث قال : «عن أي اجماع تتحدثون، عن الدمى القابلة للبيع والتي توجد في الآمم المتحدة والتي تشترونها كل صباح، إنني أقول لكم لو كنتم في مدرج الرباط أو الجزائر أو تونس دون الحديث عن عمان أو غيرها، أن أولائك الطلبة والشبان والباحثين في القانون سوف يقولون لكم حقا إن المستوى الفكري وطاقة التحليل الغربيين قد تدنيا، وهنا تكمن بداية تقهقركم.

... أما عن النظام الدولي الجديد «نظامكم الجديد» لو كان لي الوقت لأعطيتكم بعض عناصره، لكن الشيء الأكيد هو أنه أبدا، أبدا لن تكون الأشياء كما كانت عليه في السابق.

أي إجماع هذا الذي تتحدثون عنه، هناك في الخليج 300 الف جندي أجنبي 90٪ منهم أمريكيون وانجليز وفرنسيون. نعم، هناك قوات عربية لكنها تمثل أقل من 10٪. أين هو الإجماع هل قررت الجميعة العامة للأمم المتحدة شيئا في هذا الموضوع؟ هل تداولت مجموعة عدم الانحياز في الأمر؟».

ثم ختم المهدي المنجرة كلمته قائلا : «هناك نوع من التعالي والإزدراء لم يسبق لهما مثيل في تاريخ الانسانية، إن ثقافتكم المسيحية أصابها العياء ودخلت في مرحلة الخوف، إنكم تخافون من ثلاثة أشياء :

– من الديمغرافية.

- من الاســـلام.
- ومـن اليـابـان.

كما أشار في نهاية تدخله الى مسألة الديمقراطية في العالم العربي حيث قال : «إن أولئك الذين يناضلون صباح مساء مخاطرين بأرواحهم يقولون لكم بأن أكبر عرقلة أمام التغيير والديمقراطية وحقوق الانسان في بلداننا واجهناها خلال الثلاثين سنة الماضية هي الحكومات الغربية التي تُصِرّ على بقاء الدمى تحركها كما تشاء، حتى يتسنى لكم أن تقولوا لنا اليوم الاجماع الدولي والأسرة العالمية».

وقد كان تدخل الدكتور المهدي المنجرة بمثابة القنبلة التي فجرت الزيف والنفاق اللذين كان منظمو الندوة يريدون الحفاظ عليه.

وقد خلفت مداخلة الدكتور المهدي المنجرة أصداء جيدة ولاقت تجاوبا كبيرا من طرف أغلبية الحاضرين فرنسيين كانوا أو عرب و أفارقة لأنها اتسمت بالجرأة والدقة والمصارحة.

وفي الجلسة الأخيرة كان الحدث الذي كشف القناع عن خلفيات هذه الندوة، حيث فوجئ الجميع مرة أخرى بإقحام عضو الكنيست الإسرائيلي بشكل مباغث ووقح في المحور الأخير، وهنا تدخل السيد محمد يزيد وهو سفير سابق ليعبر عن استيائه واحتجاجه عن أسلوب التدليس والمناورة، هذا وتساءل عن غياب وجهة النظر الفلسطينية، وعن قراره بالانسحاب ومقاطعة الندوة، فبادر الدكتور محمد عابد الجابري الى الانسحاب هو بدوره احتجاجا وتضامنا، وهنا انسحب جزء كبير من الحاضرين والمتدخلين.

وعلى إثر هاته الأحداث بادرنا الى تسجيل بعض انطباعات وتعليقات عدد من المثقفين العرب المشاركين في الندوة، نوردها فيما يلي :

• تـصريـح الأخ محـمـد عـابـد الجـابـري

• الاتحاد الاشتراكي : الأخ الجابري، ما هو انطباعكم وتعليقكم حول ما حدث خلال هذه الندوة، وكيف تفسرون قراركم بالانسحاب؟

- محمد عابد الجابري : عندما دعينا الى هذه الندوة، أعطيت لنا أسماء عدة مثقفين فرنسيين معروفين، ولم تكن اللائحة تضم من السفراء إلا محمد يزيد الوزير السابق. وقد فوجئنا صباح اليوم بوجود سفراء، وبطبيعة الحال يمكن للإنسان أن يختار بين المشاركة في ندوة فيها رسميون أو عدم المشاركة، فكان هذا أول حادث وقد أشار إليه الدكتور المنجرة صباح اليوم، ثم جاء المشكل الأساسي وهو حضور ما سمي بأحد «المثقفين من إسرائيل»، وبطبيعة الحال هذا في غياب تام للفلسطينيين ليس فقط كسياسيين بل

كمثقفين، فقد كان لابد إذن من طرح المسألة وقد فعل ذلك الأستاذ محمد يزيد، فكان لابد من التضامن لأنه إذا كان من اللازم الانفتاح على جميع الأفكار وعلى جميع التيارات وعلى جميع الجهات، فالجهة الأساسية المعنية هي الجهة الفلسطينية، وهي لم تستدع، كذلك جهات عربية فليس هناك من يمثل وجهة النظر العراقية في حين أنه وجد من يمثل وجهة النظر المصرية مثلا، لكننا كنا سنستمر في النقاش لو لم يظهر الممثل الاسرائيلي كواحد يتكلم عن مستقبل العلاقات بين العالم العربي وأوربا، وكأن فلسطين لا تستحق أن يكون لها رأي في الموضوع. فكان لابد من الانسحاب وعدم الاستسلام لمنطق الحرب الباردة على مستوى اللقاءات والندوات والمؤتمرات، كان لا بد من وضع الأمور عند حدها.

الاتحاد الاشتراكي : لقد عشتم في الحقيقة إلى جانب باقي المشاركين العرب، جزءا من العدوان الإعلامي اليومي الذي يعانيه المواطنون العرب في الدول الغربية، وخصوصا فرنسا، بعد اندلاع أزمة الخليج، هل كنتم تقدرون درجة هذا الإرهاب الفكري قبل الآن؟ وماذا تودون قوله للجالية المغربية بفرنسا؟

– محمد عابد الجابري : في الحقيقة عندما قبلت المشاركة في هذه الندوة، واطلعت على الأسماء التي أعطيت لي لاحظت أن الغائب سيكون هو العرب أو الخطاب القومي العربي الوطني التقدمي، فقلت إنه من الواجب أن يحضر هذا الخطاب، وكان في نيتي أن أتكلم باسم هذا التيار. لكن عندما تطورت الأحداث كما شرحنا من قبل، أصبح هذا الخطاب يفرض علينا أن نقاطع ونحتج. بطبيعة الحال، الجالية المغربية من طلبة ومثقفين، هؤلاء الموجودون في فرنسا واقعون تحت حملة إعلامية رهيبة، وهي حملة تمتد حتى إلى العالم العربي نفسه عبر وسائل الإعلام العربية نفسها، التي تنقل بدون وعي أو بوعي، ما تنشره وكالات الأنباء الأوربية وما يذاع من الإذاعات الأوربية، فتعمم هذا الإرهاب الفكري الاعلامي، ومع ذلك يبقى المثقف، يبقى الطالب والعامل أيضا، إذا تسلح بالروح النقدية، يبقى هو الحكم المدبر لأمره وهو المنقذ لعقله من هذه الحملة المصطنعة.

- **تصريح الأخ أحمد المديني**

– الندوة على العموم جيدة، من زاوية المشاركين والخبرات الموجودة بها، حيث أن المداخلات التي قدمت تناولت موضوع أزمة الخليج سواء من وجهة النظر الأوربية الغربية التي تتحدث عن منطق معين للقانون الدولي والشرعية الدولية، أو من جانب عربي نضالي، إذا شئت، يطرح هذا الموضوع ذاته بالعلاقة من تكييف القانون الدولي وكيف تستخدمه القوى الغربية لمصالحها الاقتصادية بالدرجة الأولى. إذن، هناك واقع اختلال كشف في هذه الجلسات. وأقول أكثر من هذا، تم فضحه وتبلور أمام الحاضرين الفرنسيين أنه لا يمكن الاستمرار في هذا النوع من التحريف والتشويه للمفاهيم القانونية وللشرعية الدولية.

أما الموقف الثاني لبعد ظهيرة هذا اليوم، وهو الذي ترتب عن زرع عضو من الكنيست الاسرائيلي بطريقة مباغتة. فإن موقفنا كما لاحظت موقف العرب المشاركين، الأستاذ يزيد، الدكتور الجابري أو الدكتور المنجرة.. هو موقف سليم، ولا يمكن أن نقبل حوارا غير متكافئ، أو حوارا مبيتا ومقصودا. فلماذا لم يتم استدعاء ممثل عن منظمة التحرير الفلسطينية؟ وعلى أية حال فهذا مظهر من مظاهر الصراع والحرب الاعلامية التي يخوضها الغرب ضد حقوقنا.

- تصريح محمد يزيد

– لماذا استدعينا إلى هذا اللقاء؛ وما هي العلاقة بين أوربا والعالم العربي؟ أعطيت لنا لائحة بأسماء المشاركين، لكننا فوجئنا في آخر لحظة بإقحام عنصر إسرائيلي، بينما تم تغييب الجانب الفلسطيني. إنني أعتبر هذا التصرف مخلا بالاحترام، وتعبيرا عن موقف بعض المثقفين الفرنسيين الذين يعتبروننا كحمقى أو كقاصرين يجب أن لا تُعطى لهم الحقائق إلا بجرعات صغيرة. لقد سبق لي أن كنت في الجمعية العامة للأمم المتحدة وفي مجلس الأمن وفي لقاءات دولية، وكان هناك إسرائيليون يتحدثون ونجيبهم... الخ. ولكن هذا التصرف مخل بالاحترام وينم عن طبع جديد في موقف الغرب : عودة الاستعمار الثقافي والسياسي والعسكري.

- تصريح الدكتور المهدي المنجرة

– إن مفهومنا للقيم يمنع وجود أية تراتبية اتجاه رجال العلم والمعرفة. في بلادنا حين يجلس العالم يبقى الثري والوزير ورجل الأعمال على مسافة محترمة.

حين وصلت هذا الصباح واطلعت على لائحة المشاركين لاحظت وجود شخصين لم يكونا ضمن المشاركين، ولكنهما كانا في المنصة، وميزتهم الوحيدة كونهما سفيرين (الكويت والعربية السعودية، ملاحظة التحرير). بطبيعة الحال لا يتعلق الأمر بطبيعة هذين الشخصين أو إنتمائهما، فإن موقفي كان سيكون مماثلا لو تعلق الأمر بسفيري النيبال ونيكارغوا. في لقاء علمي، حتى إذا كان رجال السلك الديبلوماسي مدعوين، فما كان عليهم إلا أن يجلسوا في القاعة مثل جميع الحاضرين إلا إذا كان أحدهم مدعوا طبقا لاختصاصاته، وأن يعلن عن ذلك مسبقا، وهنا من المفروض أن تعطى الكلمة لجميع وجهات النظر، لقد كان هذا هو سبب رد فعلي هذا الصباح.

... في جلسة ما بعد الظهيرة وجدت نفسي وحيدا في مواجهة سبعة متدخلين يدافعون عن نفس وجهة النظر وهذا من حقهم، ولكن المسألة مسألة وقت، إنني أعتبر هذا عدم نزاهة فكرية ولذلك تخليت عن

مداخلتي المكتوبة التي كانت معتدلة وموزونة لأرد على أطروحاتهم، ذلك أنني لا أحب أن يُتلاعب بي، ولا أريد أن يستعملني هؤلاء ليقولوا لقد حضر معنا العالم الثالثي والعربي فلان، كما أنني لا أحب سياسة المقعد الشاغر، فأنا حاضر ولم يكن لي غير هذا الأسلوب لأدحض هذا الذي يسمونه النظام العالمي الجديد وغيره من الأكاذيب... وها أنتم ترون ما يحدث اللحظة مع محمد يزيد والجابري وآخرين انظروا كيف أقحموا العنصر الاسرائيلي، وهذا أكبر دليل على ما أقول.

- **تصريح سامي النير : رئيس تحرير مجلة الحدث الأوربي**

– إذا سمحتم سأعطيكم بعض ملاحظاتي : أنا لم أكن حاضرا في جلسة، ولكن لا يمكنني إلا أن أكون متضامنا مع السيد محمد يزيد والسيد الجابري والآخرين. ولو كنت حاضرا وحدث هذا الذي تخبرونني به لاتخذت نفس الموقف.

الاتحاد الاشتراكي -
30 أكتوبر 1990.

عن أزمة الخليج وأزمة التخلف العربي (x)

• بخصوص أزمة الخليج، تحدث البعض عن «الشرعية الدولية» و«حقوق الإنسان» كبعد رئيسي من أبعاد القضية، هل تشاطرون هذه القراءة؟

– أريد أن أبدأ بتحليل شامل للمسألة، قبل أن أعود الى «حقوق الإنسان» و«الشرعية الدولية».

أولا أعتبر أن يوم 2 غشت 1990 منعرج في تاريخ الانسانية، لأن هذا اليوم يشير الى تحول في العلاقات بين الشمال والجنوب.

إن المرحلة التي نعيشها هي مرحلة ما بعد الاستعمار، ولا أحد خرق حقوق الانسان واعتدى على كرامته وعبث بدولة القانون أكثر من الاستعمار. لقد كان الاستعمار إفرازا من إفرازات الحضارة اليهودية المسيحية في أوربا، ونتيجة من نتائج ما يسمى بالثورة الصناعية التي خلقت الحدود ودفعت إلى احتلال العديد من الدول، وأنا أذكر حين كنت في الولايات المتحدة في أواخر الخمسينات أن الدول الواقعة تحت الاستعمار كانت تطالب بحقوقها فيجيء الردّ بأن ميثاق الأمم المتحدة (الفصل 2، الفصل 7) يعتبر مشاكلهم من ضمن الشؤون الداخلية للدول الاستعمارية، ولا ينطبق عليها الميثاق. بعد ذلك وفي فترة الستينات، شاهدنا صعود موجة الاستقلال، لكن الاستعمار ركز في الكثير من الأقطار مسؤولين يحكمون بالنيابة عنه، ويدافعون عن مصالح المستعمر. فقد وصل بنا الأمر اليوم إلى الحد الذي صارت فيه الدولة بنفسها تطلب تدخلا عسكريا مثلما حصل بالنسبة للسعودية.

الآن نرجع الى حقوق الإنسان واحترام القانون الدولي. لا ننسى أن سنة 1973 شهدت اتخاذ مؤتمر الدول غير المنحازة قرارا وافقت عليه الجمعية العامة للأمم المتحدة، لوضع نظام اقتصادي جديد قائم على العدالة وتوزيع المداخيل الطبيعية الخ... وكانت الولايات المتحدة أول من وقف ضد هذا القرار. لذلك فإن أمريكا غير صادقة حين تتكلم اليوم عن حقوق الإنسان وعن القانون. ثم لماذا لم يتكلم أحد عن هذه الحقوق وهذا القانون، حين أوقف البرلمان الكويتي قبل دخول العراق، ووقع الزج بالعديد من الشخصيات الديمقراطية الكويتية في السجون. بل ان البعض، حتى في أمريكا، يتساءل كيف يدافع باسم مبادئ حقوق

(x) 15 نوفمبر 1990

الانسان، وباسم القانون، عن دول كالسعودية، لا دستور لها، ولا معنى لاحترام حقوق الانسان فيها، ولا قانون ولا شيء من ذلك.

إذن أقول، إنه حتى داخل البلدان الغربية، فهم الناس أن هذا التدخل الأجنبي في الخليج ليس احتراما للقانون الدولي، بقدر ما هو بسط لهيمنة جديدة.

- **ما هي حسب رأيك الأهداف الحقيقية من وراء هذا التحالف ضد العراق؟**

الهدف الحقيقي هو تحقيق مصالح الغرب، وعلى رأس هذه المصالح الاحتفاظ بمنابع النفط ووضع اليد عليها، ولا ننسى أن هذه المنطقة تتوفر على 70٪ من مجموع النفط الموجود، والولايات المتحدة تعتمد الآن بصفة كبيرة على الاحتياطي الخارجي، من جهة أخرى لابد من الإشارة إلى مسألة، كثيرا ما تخفيها وسائل الاعلام، وتتعلق بكون أمريكا عرفت في المدة الأخيرة أسوأ أزمة اقتصادية تعرضت إليها في القرن العشرين، وقد وجدت في أزمة الخليج مخرجا مناسبا لها، مديونية الولايات المتحدة الامريكية وصلت إلى أكثر من 430 مليار دولار. وبلغ عجز ميزانية 1989 أكثر من 150 مليار دولار. وكان تعويض هذا العجز يأتي مباشرة من اليابان وألمانيا ومنطقة الخليج. وقبل انطلاق أزمة الخليج كانت ودائعنا لدى الغرب قرابة 750 مليار دولار. وفي نفس الوقت بلغت مديونية المجموعة العربية 250 مليار دولار. أي أن مدخرات دول الخليج المودعة بالخارج كانت أكثر ثلاث مرات من حجم المديونية العربية. ومن المفارقات أن هذه الدول الغنية هي التي خفضت سعر النفط، وهي التي طالبت العراق، وهو مرهق بحرب طويلة، باسترداد ديونها لديه، وتسببت بذلك في اجتياح العراق للكويت، واندلاع الأزمة.

- **هل الولايات المتحدة الامريكية، هي المستفيد الوحيد من هذه الأزمة؟**

دول الخليج بادرت بالتنازل عن ديونها لفائدة مصر، وكانت هذه الديون تبلغ 7 مليارات. كذلك فعلت الولايات المتحدة الأمريكية التي تنازلت عن مبلغ مماثل. ونستطيع القول أن مصر حققت خلال مائة يوم من أزمة الخليج منافع مالية تقدر بثلاثين مليار دولار، وقد يتبادر إلى الذهن أنها مسألة مفرحة أن تحقق دولة عربية ذات 60 مليون ساكن هذه المكاسب، ولكن الفرح ينطفئ حين نرى أن الثمن الذي دفعته مصر مقابل هذه «الفائدة»، هو وجود 20 ألف جندي في السعودية، وهكذا فأن كل جندي مصري موجود في مواجهة العراق يدر على مصر مليون وخمسمائة ألف دولار

فلماذا لم نر هذا الكرم في حالة السلم ؟

• كيف ترى الأبعاد الحضارية للأزمة ؟

أعتقد أنها أزمة خلقية عالمية يعيشها الشمال والجنوب، وقد برهنت هذه الأزمة على كوننا دخلنا في مرحلة خطيرة وقد تطول، وهي مرحلة هيمنة بلاد معينة، هي الولايات المتحدة الأمريكية بمساعدة الدول الغربية، وستكون هذه الهيمنة اقتصادية وسياسية وعسكرية وثقافية وحضارية. كما أن هذه المرحلة هي مرحلة مواجهة بين الشمال والجنوب وهذا شيء إيجابي جدا.

وهذه المواجهة دليل على أن الشعوب في المنطقة العربية فهمت الأشياء، لقد فهمت أن الدول العربية حين لا تحترم القانون على المستوى الداخلي، لا يمكنها أن تطالب باحترامه على المستوى الدولي أو على مستوى النظام الدولي الجديد.

هذه هي التناقضات وهذا هو النفاق الذي نعيشه، هذه الأزمة العالمية الجديدة برهنت على أن إشكاليتنا هي داخل أنفسنا ويجب أن تأتي الحلول من داخل أنفسنا.

أي أن مبادئ حقوق الإنسان، والديمقراطية والعدالة، يجب أن نعيد بناءها انطلاقا من واقعنا وحضارتنا وحاجياتنا كمجتمعات نامية، وعلينا أن نكف عن استيرادها من الخارج، وعلى هذا الأساس اعتبر أن أزمة الخليج قد تقدمت بنا إلى الأمام بمسافة عشر سنوات على الأقل.

• ما هو تقديرك لاحتمال اللجوء إلى الخيار العسكري، وما هي الانعكاسات المتوقعة لهذا الاحتمال ؟

– قلت في حديث لإذاعة فرنسا الدولية يوم 27 سبتمبر الماضي أن الولايات المتحدة لا ترى خيارا غير الخيار العسكري، والتحركات الامريكية الآخيرة تبرهن على أن هذا التوقع حقيقي. وإن كنت أتمنى أن أكون خاطئا، وأن الأوضاع ستبرهن على العكس فيما يخص إمكانية اللجوء إلى التدخل العسكري، لأن كل من يدافع عن الحق وعن حقوق الانسان لا يمكن إلا أن يكون مدافعا عن السلم، فالسلم هي أساس احترام حقوق الانسان. لكن لا يمكن أن نقول الآن أن المجموعة الغربية التي تتعزز بزعامة أمريكا هي معسكر السلم، لأن هدفها الحقيقي ليس السيطرة على ثروات المنطقة في الخليج أي النفط و لا هو حتى أن تعود الكويت دولة مستقلة، وإنما هنالك دولة متوسطة في المنطقة - واسمها العراق - لها إمكانيات بسيطة لكن لأول مرة تبرز دولة عربية، دولة من العالم الثالث، ليس لها إمكانية لتحارب دولة كبرى، لكن يمكنها أن تلحق بها ضررا، وهذا هو الهدف في الحقيقة، أي هدم هذه الامكانيات وكسر هذه الطاقة العلمية التكنولوجية الموجودة في العراق لكي يكون درسا، وألا تكون في العالم الثالث أي إمكانية لأية دولة للنهوض في المستقبل.

• أزمة الخليج كان لها إنعكاسات على الطبقة المثقفة في العالم العربي، إذ نلحظ انقساما للمثقفين في شأنها، فكيف تفسر الظاهرة وما هو تحليلك لدورالمثقف العربي حيالها؟

– ليتني أستطيع أن أتفق معك أنه حدث انقسام، لأنه لما يكون هناك انقسام فذلك لا يعني أن هناك موقفا أو مواقف (مازحا) مثل عنوان جريدتكم، وأن هنالك مثقفين عربا تكلموا ضد التدخل الغربي وان هنالك فئة أخرى تكلمت لصالح التدخل الخارجي. أما ما ظهر عند المثقفين بالأساس فهو أبشع من ذلك، إنه السكوت. ولو عدنا لرصد المواقف من 2 أغسطس، وبالخصوص في الشهر الأول لرأينا أن عدد هؤلاء المثقفين الذين" ثقفوا" أنفسهم ولم يتكلموا، ولم يدلوا بأي رأي هو الغالبية الساحقة، وأظن أن هذا خطأ أكبر. أما أن تكون هناك اختلافات في الآراء في أي موضوع يخص المثقفين فهذا بالنسبة لي أمر إيجابي، لأن الاختلاف مثلما نقول هو سنة المجتمع، لكن ليس هو الاختلاف الذي همه قبل كل شيء الحذر أو الخوف الذي دخل على المثقفين أو هذه الرقابة الذاتية التي لا يمكن أن تأتي بأي شيء. ولا يجوز أن نلقي اللوم على الحكومات أو الأنظمة المحلية أو الدولية في هذه الوضعية، لأن هذه الفئة المثقفة في العالم العربي وفي العالم الثالث وجدت نفسها أمام إشكالية معينة، ولو كانت الشجاعة متوفرة عند كل مثقف عربي للتعبير عن آرائه سواء كانت مع أو ضد وجهة نظر معينة لما انتظر ليتغير قيد أنملة، حتى في إطار الخطوط الكبرى للإصلاح التربوي المعلن عنها أخيرا (إلا ما اتضح لنا من ملامح عقلانية في مادة التربية) الأمر الذي يدعو الى التأكيد أن الاغتراب الفكري والاستلاب الحضاري يزدادان تغلغلا وتجذرا في بلادنا، وأن التعلق بالفرنكوفونية تعمّق وتمتّن في شيء من التحدّي، سواء على مستوى الهياكل والندوات، أو على مستوى الممارسة العملية للحياة الثقافية والتربوية والإدارية...

ومن المنطقي أن يكون جوهر الخيار من قبل السلطة على هذا النحو، لأن القضية ليست قضية مشاعر وأحاسيس، بقدر ما هي قضية مرجعية وتصور، فما يزال أهل الحضارة الغازية القوة الفاعلة في استقطاب كل الخيارات والتوجهات الثقافية والتربوية والتكنولوجية لدى الشعوب التي كانوا يحكمونها مباشرة.

أما بالنسبة إلى بلادنا فلا ندري لماذا الإيهام بتقمّص العروبة تقمّصاً؟ ولماذا الغلو في الحديث عن خدمة الدين الحنيف؟

إن الجواب عن ذلك - في اعتقادنا - هو إدراك السلطة وهياكلها عن معرفة أو تجربة أو إحساس، بأن الشعب التونسي هو شعب عربي مسلم، وأن الوراثات الحضارية العربية الاسلامية بكل خاصياتها جزء لا يتجزأ من ذاته، وأن العمق الاسلامي من مكونات جوهره الباطني، فالعروبة والإسلام كيانه المميز

وشخصيته النوعية... لا تستطيع أية قوة غازية أو مغتربة أن تنزعهما منه، وقد جربت ذلك دهورا بدون طائل...

فالجماهير الشعبية الخالصة لا تتردد في العطاء السخي لكل من تتوسم فيه صدق الحماس لذلك الجوهر وحسن الاخلاص في الوفاء له... والذود عنه... وكان شعار «نصرة الدين والقومية» مركب جل الزعامات السابقة في تاريخ بلادنا الحديث، وكان توظيف الدين لأغراض سياسية سبيل معظم الحركات الدينية في الماضي والحاضر.. ولا يشذ عن ذلك مضمون الشعار القائل «رد الإعتبار للدين» أو «للزيتونة» أو «المصالحة مع الهوية». ومهما يكن من أمر فإن البعد الذي ينبغي أن نحيط به في إطار هذه القضية هو الاقرار الواعي أو غير الواعي من قبل السلطة بأن الدين والقومية في المجتمع التونسي محرك فاعل من محركات التاريخ، يكاد لا يختلف كثيرا عن جدلية المادة عند دين ماركس...

وذلك ما يفضي بنا إلى الاستنتاجات التالية :

1) إن ذلك الوضع الاستلابي الذي تجتهد القوى الفرنكوفونية لتأييده وتطبيعه في المجتمع التونسي لن يكون إلا وضعا انتقاليا، بل غزوا عدوانيا مستهدفا للمقاومة والزوال متى تسنى للقوى الشعبية الوطنية الخالصة قدرة الاجهاز عليه...

2) إن القوامين على ذلك الغزو والاستلاب من بني جلدتنا تتحدد مواقعهم في التاريخ، بقدر ما يكون لهم من الأثر في تعطيل حركية التصفية الهيكلية للاستعمار...

3) النظر بعين البساطة لأولئك الذين حاكموا بورقيبة تجاه تلك القضية فيما كتبوا من المقالات والتعاليق، وفيما ألقوه من المحاضرات والأحاديث... وكأن المسؤولية هي مسؤولية الرئيس وحده، وأن الأمر قد تغير! فالسلطة اليوم تقرّ ذلك العمق في الشعب وتوظفه، ولكنها عاجزة عن تمثله تمثلا يعكس الواقع الجماهيري، لأن الأجهزة التنفيذية والتقنية في سلطة القرار هي المستميتة في الابقاء على الفرنسية لاعتبارات عديدة... وعلى أساس هذه الفرضية يمكن أن تأخذ النظرة في فعالية التعليم الزيتوني تجاه ذلك الهدف الأسمى أي التصفية الهيكلية للاستعمار وطنيا وقوميا... ثم في الوتيرة التي تمت عليها تصفية تلك النوعية من التعليم وإنعكاساتها على الأجيال التي تخرجت من الزيتونة وعلاقتها بالتالي بالهدف الأسمى المشار إليه أولا وأخيرا.

بين تأصيل الكيان وكرامة الخريجين

إن ما أسدته الزيتونة من الخدمة والعطاء للمعرفة العربية والاسلامية، ومن إشعاع لتلك الحضارة في ربوع المغرب الكبير لا ينازع في عظمته أحد... ثم ما كان للزيتونة من دور في الحفاظ على الكيان الوطني والقومي لا ينازع في مكانته أحد كذلك... ثم ما كان لأبناء الزيتونة من الدور في كل الهياكل التي أطرت معارك التحرير الوطني سياسيا ونقابيا لا يستطيع أن يغض من قيمته أحد أيضا...

وليس لإصرار الحكم الاستعماري على تهميشهم وعلى الاعراض عما يطالبون به من إصلاح جذري للتعليم لديهم من سبب غير الجزم بأنهم نقيض فاعل لحضوره بأي شكل من الأشكال ـ حسب رأينا ـ.

حتى إذا جاء الاسقلال السياسي وتهيأت الأسباب لإصلاح تربوي شامل في إطار ما نادت به القوى النقابية (البرنامج الاقتصادي والاجتماعي الصادر عن المؤتمر السادس للاتحاد العام التونسي للشغل «الملحق» ـ سبتمبر 1956) الذي حواه قانون 4 نوفمبر 1958 في نطاق الخطة العشرية (1958-1968)، وانجزت تلك الخطة فعلا، وتم توحيد التعليم وتونسته، مع خطوات جبارة على درب التعميم. وكانت الشعبة القارة التي انطلق على أساسها توحيد التعليم هي الأنموذج الذي ناضل من أجل إنجازه أبناء الزيتونة أحقابا من التاريخ... ولكن بعد إنجاز تلك الخطة تبخرت تلك الشعبة القارة (أ)، وبقيت الشعبة التي أكدوا على أنها الانتقالية (ب) أي الشعبة التي تخرج من نوعيتها أهل القرار... (شعبة التعليم الصادقي سابقا) بكل ما تقمصته من مواصفات للفرنكوفونية...!

ولذا الوطن التونسي اليوم، وبعد مضي أكثر من ثلث القرن، على حظ كبير من الاغتراب الحضاري والاستلاب الثقافي...

لاحظنا هذه الحيرة وهذا القلق، فالذي يفسر حيرة الشباب وحيرة الشعوب داخل منطقتنا هو أن ما يسمى بالمثقف لم يلعب دوره الحقيقي، وإنما صار قسم كبير من المثقفين يشكلون عرقلة أمام التغير والتطور، لسبب واحد هو مركّب النقص وعدم ثقة في النفس. فالمرجع الأساسي لهؤلاء صار الغرب. لكن والحمد لله بهذه الأزمة بدأت الآن حركة أخرى وبدأ الناس، وبالخصوص الشاب ورجل الشارع، يدركون أنه لا يمكن لهم إذا أرادوا مجتمعا مدنيا يحترم حقوق الانسان أن يتركوا الهيمنة لطبقة مثقفة كاملة تحتل هذا المجال. وفي الواقع، مجال حقوق الإنسان هو مجال مشاركة واسعة، ويجب على كل مواطن ـ بقطع النظر عن مستوى شهاداته ـ أن يعتبر الآن أن عليه الاعتماد على نفسه كجزء من المجتمع لتغيير هذا المجتمع. ولعل من فضائل هذه الأزمة أننا دخلنا في مرحلة انتهى فيها اعتماد الشعوب على المثقفين، ولا أعنى بهذا أن دور المثقفين انتهى تماما، بل بالعكس دور المثقف صار أكثر أهمية، لكن ليس قبل الانطلاق بالأساس وإنما كمساندة للإنطلاقة الأساسية التي تكون من الشعوب.

• هل هناك مستقبل للعالم الثالث، وبالتخصيص للجنوب، في التحكم والسيطرة على التكنولوجيا ووسائل التقدم؟

ليس هناك مستقبل آخر إلا مستقبل العالم الثالث المرشح لأن يتحكم في المنتجات التقنية. وفي هذا المجال تؤكد التوقعات أن 55 بالمائة من المهندسين والعلماء في مستوى ما بعد الدكتوراه سيكونون

أصيلي العالم الثالث. وهناك أمر آخر يدفعني إلى التفاؤل بمستقبل العالم الثالث - وهو الذي يمثل 80 بالمائة من سكان الكرة الأرضية - وفي مجال السيطرة على التكنولوجيا ان عدد العلماء والمهندسين من العالم الثالث سنة 2000 سيبلغ 380 ألفا، وبعد 50 عاما سيشكل العالم الثالث 85 في المائة من سكان العالم، وأشير في هذا المجال إلى دراسة مهمة كانت موضوعة على مكتب ريغن قبل أن يترك البيت الأبيض - وهي دراسة رسمية حكومية - تحذر من الخطر الماثل على التكنولوجيا الأمريكية من كون 55 بالمائة من الاختصاصيين في التكنولوجيا في المعاهد العليا والادارات والقطاع الخاص هم ممن لم يولدوا في الولايات المتحدة. وهذا جزء من ظاهرة عامة، ففي مدينة كاليفورنيا، وهي المدينة الثانية، أكثرية السكان الحاليين لا علاقة لهم بالسكان الأصليين الذين جاؤوا من أوربا، بل هم يسمون «بالإسبانيين»، وبعضهم جاء من آسيا، إضافة إلى الزنوج طبعا. ويتوقع الخبراء أن ما يحصل في كاليفورنيا سيحصل أيضا في نيويورك المدينة الأولى قبل عام 2005، أي بعد 15 عاما، كما يتوقعون أن اللغة الأولى التي سيكون لها دور كبير في الولايات المتحدة قبل عام 2030، أي بعد أقل من 40 عاما، هي اللغة الاسبانية. ومنذ الآن، هناك 30 دولة أمريكية تعتبر فيها الاسبانية لغة إدارية رسمية تستخدم لقضاء شؤون المواطنين.

وفي المستقبل، ستكون الولايات المتحدة من أكبر الدول المتقدمة في العالم الثالث، لأن فيها إمكانيات كبيرة للتطور سيستفيد منها المهندسون والعلماء الآتون من العالم الثالث، ويكفي لإدراك ذلك أن نعلم أنه في العام الحالي سيبلغ عدد المهندسين العرب هناك 700 الف مهندس، وهذا الرقم هو أكبر من عدد المهندسين في انكلترا أو فرنسا.

- **لكن هذه الطاقات غير موظفة لخدمة التنمية في بلدانها الأصلية...**

– هذا الأمر ليس همنا الآن، لأن عدم توظيف هذه الطاقات يرجع أولا إلى انعدام الحريات في بلدانها، وثانيا إلى قلة الاهتمام بالبحث العلمي، والاعتماد على الخارج في التكنولوجيا، وكل العالم يعرف أنه لا وجود لشيء اسمه «نقل التكنولوجيا» لما تشتري دول العالم الثالث الآلات وتشتري معها المعرفة.

لكن مثلما يشير إلى ذلك رهان باسكال، سيكون للعالم الثالث - وهو الذي يشكل أكثرية سكان العالم - دور أساسي في المستقبل في الديمقراطية على الصعيد العالمي، خصوصا إذا أتيحت فرص المشاركة الحقيقية داخل هذا البلدان وفيما بينها.

ومن جهة أخرى، ستكون التحاليل والتصورات القائمة على وجود دول وحدود بين الدول في حكم المنتهية في القرن الـ 21، فحتى أوروبا التي اخترعت فكرة الدولة والحدود صارت مقتنعة الآن بأن هذه المقاييس - التي كان لها دور مهم في القرن 19 وبداية القرن الحالي - صارت اليوم، عرقلة لمستقبل أوروبا.

ولذلك فإن ضرورة التعاون جنوب-جنوب في العالم الثالث وفي إفريقيا والعالم العربي، لم تعد شعارا عاطفيا لمجموعة لها نفس اللغة والدين والتاريخ، وإنما هي غدت مسألة متصلة بأسباب البقاء والاستمرار. فلا مستقبل لأي مجموعة اقتصادية عدد سكانها يقل عن 100 أو 150 مليون نسمة، لأنها لن تستطيع دخول القرن الـ 21 بكرامة.

وضمن هذه التغييرات الأساسية التي نشاهدها في العالم، تبدو أزمة الخليج كمحاولة لتأجيل هذه التطورات ومحاربة التغيير ليس في العراق وحسب، وإنما في العالم الثالث كله، وخصوصا لمحاربة الديمقراطية والمجتمع المدني، لأنه منذ 2 عشت الماضي بدأ هذا التغيير الأساسي الذي يمنحنا التفاؤل بالمستقبل والذي كشف الصورة الحقيقية للنظام العالمي الجديد ومقاصده وآلياته، وهي منع العالم الثالث من فرض نمط ديمقراطي من العلاقات على الصعيد الدولي.

أجرت الحوار: سهام بن سدرين
الخميس 15 نوفمبر 1990
"الموقف" (تونس)- الخميس 22 نوفمبر 1990.

مستقبل الوطن العربي(×)

السناريوهات هي نتائج تطور ما يسمى بعلوم دراسة المستقبل، وبالرغم من كون هذه الدراسات حديثة العهد، باعتبارها لا تتجاوز 30 أو 40 سنة على الأكثر، فإننا اليوم بإمكاننا الحديث عن دراسة ماضي المستقبل، بالرجوع للسبعينات والثمانيات قصد تحليل التوقعات التي وضعت في ذلك الحين ومقارنتها مع الواقع الحالي. وأظن أن هذا التحليل يمكن أن يبرهن على أن هذه الدراسات أصبحت اليوم ذات مصداقية من خلال تحقق حوالي 70٪ مما كان متوقعا، سواء على مستوى التيارات أو التطورات التي كانت منتظرة في الميدان العلمي والتكنولوجي، ولعل ذلك يجعل للدراسات المستقبلية اليوم قوة تزداد يوما عن يوم، في إمكانيات التوقع والاستشراف أو الاستبصار.

وفيما يخصني شخصيا وخلال الوقت الذي كان يتحدث فيه الجميع عن حوار الشمال مع الجنوب تبين لي مع أواخر السبعينات أن هذا الطموح لا يمكن تحققه في ظل النظام الدولي الموجود في ذلك الوقت والذي لايزال مسيطرا الآن على الوضعية العامة، ففي أواخر السبعينات توقعت أنه من غير الممكن أن تبقى الأشياء كما هي، وتوقعت حدوث قطائع كما أنه مع بداية التسعينات ستكون هناك مرحلة تمهيدية لتحولات خطيرة وجذرية في العلاقات الدولية وحدوث نزاعات خطيرة داخل بلدان العالم الثالث، وبالخصوص في محاولات التحرر الجديد مما أسميه بشبه الاستعمار، وتوقعت أننا سنرى أزمات ما بين الغرب وبقية العالم تكون ذات أبعاد ثقافية أكثر منها اقتصادية، وأظن أن الأحداث التي نعيشها اليوم تعتبر تطورات ضمن التوقعات التي كنت أركز عليها دائما خاصة فيما يخص الأزمة الروحية والخلقية، وكنت أرى أن تحولا هاما سيجعل فئة الشباب تقفز عن النموذج المادي الغربي في اتجاه البحث عن بدائل روحية وغير مادية، هذا فيما يخص تاريخ الماضي، وهي طريقة يصعب على الانسان فيما أن يتكلم عن توقعاته ليقول : هذا ما حدث، ولكن الواقع أن هذه طريقة يمكن لأي شخص متابعتها إذا ما أراد دراسة مصداقية الدراسات المستقبلية.

لنتحدث الآن ونحن في العقد الأخير من القرن العشرين واستقبال القرن 21، عن الإشكاليات الكبرى وعن الأزمات التي نعيشها الآن والتي ستؤثر على المستقبل في مداه القريب والمتوسط والطويل.

يمكن أن أقول أن أكبر أزمة نعيشها الآن وتؤثر على باقي الأزمات هي أننا نعيش أزمة خلقية

(×) يناير 1990

Ethique تمس المقاصد والأهداف الإنسانية الجماعية والفردية، وهو أمر ناتج عن غياب رؤية واضحة وعن غياب مشروع مجتمعي، ونرى هذا في دول الجنوب كما نراه في الدول الغربية ولكن الأسباب مختلفة، ففي الغرب نجد غياب الرؤية ناتجا عن تدهور الحضارة الغربية المسيحية اليهودية، أما في الجنوب فهو ناتج عن فشل النموذج التنموي والذي تأكدت عدم صلاحيته للواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، فالأزمة الخلقية الحالية تأتي في وقت صعب يعرف تطورات سريعة في تاريخ البشرية خاصة إذا لاحظنا المنجزات التي تحققت في ميدان التكنولوجيا، فحسب إحصائيات سنة 1990، نجد تقديرا يفيد بأنه خلال كل دقيقة ينشر في العالم أربع مقالات علمية فنية، وهذا يعطي صورة لحجم الانتاج والتقدم التكنولوجي العلمي، لكننا نرى في نفس الوقت فيما يخص القيم والنموذج الاجتماعي والتقدم الحضاري أن هنالك تناقضا وفجوة بين التقدم التكنولوجي والتقدم الاجتماعي.

وإذا أردنا أن نتحدث عن الغرب فلابد من الوعي بشيء جديد يعرفه الغرب هو الخوف، وهي كلمة تتردد اليوم باستمرار في الكتب والمجلات والتقارير : تخوفات فرنسا، تخوفات الغرب، تخوفات السوق المشتركة.. وهي علامة نفسانية على أن الغرب دخل الى حالة من الاندفاع، مم يتخوف الغرب؟ يتخوف أولا من الديموغرافية لأن الغرب الذي يمثل اليوم 20٪ من سكان العالم يحتكر حوالي 80 ٪من المنافع المادية للكرة الأرضية وبعد 30 سنة فقط أي خلال 2030 ستنخفض هذه النسبة الى 15٪ من سكان العالم تستغل وتهيمن هيمنة شاملة على الاقتصاد العالمي والنظام المالي والتكنولوجي، والسبب الثاني لمصدر الخوف يرتبط بالمستوى الثقافي الحضاري وهو يمس بصفة عامة دول الجنوب وبخاصة الدول ذات الحضارة غير اليهودية أو المسيحية - بإفريقيا وآسيا إذ ليس الأمر متعلقا بالمنطقة الاسلامية فقط التي بلغ عدد سكانها 1200 مليون نسمة من المسلمين (حيث يؤكد كل الديموغرافيين أن عدد المسلمين سيعرف خلال القرن المقبل تزايدا هائلا يجعلهم يمثلون أكثر من 40٪ من سكان العالم). ولكن هنالك اليابان أيضا الذي هو مصدر تخوف ليس فقط لإمكاناته التكنولوجية والاقتصادية ولكن لأنه تطور وتقدم خارج القيم الغربية وبرهن على أن مسألة الحداثة لا علاقة لها مباشرة بالغربنة وبقيمها، وبالتالي برهنت على أن أي حضارة يمكن أن تتطور وتدخل العصر الحديث بقيمها ولغتها وتاريخها وحضارتها، ولذلك كانت تخوفات الغرب مصدر اندفاعه. ونجد اليوم داخل الغرب نفسه تحولات نابعة عن ظهور يأس وتشكك في الأنظمة الاقتصادية الليبرالية وقيمها التي خطط لها خلال العقد الأخير ريغن وتاتشر وأصبح ولي عهدها اليوم هو الرئيس الأمريكي بوش، وترتفع أصوات بكل دول الغرب الآن ضدا على القيم المادية والتجارب التنموية الفاشلة، ويكفي أن أشير هنا الى المظاهرات الأخيرة لعشرات آلاف الشباب الفرنسيين ومظاهرات أخرى ضد التلوث

أو ضد استعمال الطاقة الذرية وغيرها.

لنعد الآن الى منطقة العالم الثالث، ولنتسائل عن التحديات التي من خلال التعامل معها يمكن أن نتحدث عن السيناريوهات الممكنة خلال العقود المقبلة.

ولما نتحدث عن السيناريوهات نتوقع دائما ثلاث إمكانيات : الأولى هي إذا بقيت الأشياء على ما هي عليه، وهو سيناريو الاستمرار أو الاستقرار، ولا يمكن مثلا أن نفهم ما يحدث في الخليج اليوم من تدخل أمريكي إلا من خلال هدفه للمحافظة على الاستقرار وباستمرار الوضعية الحالية بما تحمله من خلفيات، وإذن فكلما سمعنا أننا ندافع عن الاستقرار بالأمم المتحدة أو داخل بلدان العالم الثالث علمنا أن سيناريو الاستقرار - الذي يعمل الغرب على حمايته بدول الجنوب - هو الذي يحرك هذه الرغبة، وتعتبر الولايات المتحدة والمؤسسات المالية أمثال البنك الدولي وصندوق النقد الدولي من الجهات المتزعمة لدعم هذا السيناريو، كنت أقول منذ الثمانينات أنه من غير الممكن تحقيق هذا السيناريو، لأن التغيير أمر طبيعي في الحضارة الإنسانية ولا يمكن تجميد حركة مجتمع بشري أيا كان، ونرى اليوم مجهودات جبارة للغرب بتعاون مع بعض المسؤولين بالعالم الثالث بإفريقيا وآسيا والعالم العربي تهدف الى تركيز هذا السيناريو. ولكن برغم كل المحاولات لا يمكن لهذا السيناريو أن يطول أكثر من خمس سنوات على الأكثر، ثم نرى بعد ذلك تغيرات أساسية في العالم الثالث، وكل من سيدافع عن هذا السيناريو نرى أنه يفشل إما خلال العام المقبل أو خلال العام الذي بعده.

وأتوقع أننا لا يمكن أن نصل سنة 1995 بسيناريو الاستقرار

والسيناريو الثاني يسمى عادة السيناريو الاصلاحي أي أنه سيناريو يحافظ على الاستقرار مع بعض الاصلاحات والتغييرات التدريجية، وأظن أن إمكانية هذا السيناريو قياسا للأول الذي لا أعطيه أكثر من 5٪ كنسبة لإمكانية تحققه خلال السنوات الخمس المقبلة، فإن سيناريو الإصلاح يمكنه أن ينجح بنسبة تقدر بـ 30٪ شريطة أن تكون الاصلاحات سريعة وبوعي بالمشاكل الكبرى المتمثلة في الديموقراطية وممارستها بشروطها الكاملة وبناء مجتمع مدني بما فيه احترام حقوق الانسان وحرية الصحافة والتعبير وروح المسامحة والتعددية ثم الاهتمام بمحاربة الأمية كأولوية ثانية، لأن عددا من مشاكلنا سببه الجهل الذي يعم حوالي 60٪ من سكان العالم الثالث، وغير ممكن الدخول للقرن 21 دون التجند ضد هذا العائق، ثم هناك ضرورات أخرى مثل تشجيع البحث العلمي والتكنولوجي، ومن ضرورات نجاح السيناريو الاصلاحي الاهتمام بنوع من التوزيع الجديد للثروات وللأمكانيات الموجودة بالعالم الثالث، ويجب أن نعترف أنه خلال 15 سنة الماضية أي منذ 1975 حيث كان الحديث يدور عن حوار الشمال مع الجنوب إذا أخذنا الفجوة التي

كانت آنذاك ما بين الشمال والجنوب من الناحية الاقتصادية، وقارناها بالفجوة التي كانت بالعالم الثالث ما بين الطبقة الغنية التي تمثل ما بين 10 ٪ و 15 ٪ والطبقة الفقيرة التي تمثل ما بين 40 و 50 ٪ من السكان، نرى أن الفرق ما بين الغني والفقير ازدادت اتساعا أكثر من الفرق الذي حصل بين الشمال والجنوب، وإذا كنا جديين ولنا مصداقية فقبل أن ننتقد النظام الدولي الموجود يجب أولا مواجهة التوزيع الحالي وإعادة توزيع الثروات داخل بلداننا، ومحاربة داء لا ندري مدى فعالية سيناريو الإصلاح ضده وهو داء الرشوة، ويجب داخل هذا السيناريو الإصلاحي الوعي بدور المثقفين، الذين أظن أنهم يمثلون جزءا من مشكلتنا، وهنا لا أعمم حين أتحدث عن حالة شبيهة بالاغتراب الحضاري والثقافي التي يعيشها عدد من مثقفينا - رغم الأسباب الموضوعية والتاريخية لهذه الظاهرة - فنجد طبقة مثقفين غيورين على وطنهم لكنهم في نفس الوقت تجدهم منفصلين عن أنفسهم حضاريا نظرا للتركيب العقلاني والتأثير الذي نتج عن قراءاتهم ودراستهم وهو الأمر الذي يجعل عددا من المثقفين يتبنون سيناريو الإصلاح.

ومن المشاكل التي نعيشها اليوم بالعالم الثالث مشكلات يتحمل مسؤولياتها بعض المثقفين الذي كانت لهم مسؤوليات واضحة وجدنا جزءا منهم يدافع ويتمسك بالحلول الإصلاحية ثم أننا نجد نوعا من المثقفين من العالم الثالث غيروا بسهولة مبادئهم وأفكارهم وأصبحوا في خدمة الأنظمة والحكام الى حد يمكنني أن أقول معه أن أكبر خبرة صارت لدى الحكومات في العالم الثالث علم جديد تستطيع عبره كسب عدد من المثقفين الشباب يصبحون من المؤسسة ومن السياسة التي كانوا يحاربونها.

وإذا عدنا الى المستوى العالمي أظن الأحداث الأخيرة بالخليج تبرهن على أن النظام العالمي يعيش تحولا كبيرا، ولا يمكن لأي محلل سواء كان من الغرب أو من الجنوب أن يأخذ بجدية ما يسمى الآن من طرف بوش وجماعته بالنظام العالمي الجديد والذي أسميه بمرحلة ما بعد الاستعمار والتي يمكنها أن تطول الى نهاية هذا القرن ما لم تتجمع ضدها كل الطاقة العربية الوطنية مادامت كل القوى الغربية قد تجمعت في مؤامرة ضد الجنوب، وحتى بعض المؤسسات التي كان لنا أمل أن نبني عليها ونستند عليها في هذا السيناريو الإصلاحي ضاعت في جزء كبير من مصداقيتها، وأنا متألم لأقول أن حياتي كلها كانت في سبيل التعاون الدولي ومنذ 1951 الى اليوم أحضر كل الاجتماعات السنوية لهيئة الأمم المتحدة، يؤسفني اليوم أن أقول بعد الدراسات والكتب التي نشرتها عن نظام الأمم المتحدة أن ما عمله الغرب الآن من هيمنة خاصة بعد كوميدية مجلس الأمن الأخير، نرى أنه ليس في العالم من الاختصاصيين من لا يعتقد أن مصداقية الأمم المتحدة، قد مست، وأنا أقول بكل مسؤولية أن من الأشياء التي تؤلمني هو أن منصب الأمين العام للأمم المتحدة الذي هو منصب له مسؤولية محددة في ميثاق الأمم المتحدة لم تظهر بشكل واضح وحاسم ولم

تحترم اختصاصاته أيضا، خاصة بعد القرار الأخير لمجلس الأمن 678 الذي ينطلق من البند 42 للميثاق الذي حرر بطريقة يمكن أن يفهم منها ـ كما تعطيه دول الغرب وحلفاء أمريكا هذا الفهم، أن يوم 15 يناير المقبل يمكن الولايات المتحدة من التدخل وإشهار الحرب، لأن هناك تفاصيل قانونية تتعلق بكون هذا البند الذي هو البند 42 في ميثاق الأمم المتحدة له علاقة وشروط يجب أن تتوفر كما يحددها البندان 46 و 47 وبالتاي لا يمكن للولايات المتحدة إشهار الحرب يوم 15 يناير بمنطقة الخليج دون قرار جديد من مجلس الأمن لأن مجلس الأمن هو الذي اتخذ القرار الأول، ويلزمه الاجتماع مرة أخرى ليتفق عن مدى احترام هذه الشروط، وحتى بعد ذلك لا يمكن لأي بلاد ولو كانت عضوا دائما في مجلس الأمن أن تتخذ بانفراد أي قرار دون تحقيق اتفاق بمسطرة مخططة في البند 46 و 47 والذي لم يطبق الى اليوم في تاريخ الأمم المتحدة، حيث هنالك في البند 47 التنصيص على تشكيل لجنة القيادة العليا حقطخ مخهظر زهضغقض التي لها دور في حالة الحرب بإشراف الأمم المتحدة باعتبار هذه اللجنة تكون كمؤسسة تابعة للأمم المتحدة، وأقول أنه من الناحية الشرعية لا يمكن لأي كان إشهار الحرب على أساس القرار الأخير الصادر عن مجلس الأمن، ولي أمل أن يتحرك الأمين العام للأمم المتحدة والذي برهن عن نزاهته وشجاعته في الماضي لحماية ميثاق الأمم المتحدة.

ويمكننا الآن أن نتسائل عن مدى مصداقية الأمم المتحدة ومجلس الأمن بعد الذي حدث ؟ وعلى مستوى القارة الإفريقية نجد منظمة الوحدة الإفريقية قد فشلت فشلا تاما والمسؤولية ترجع لرؤساء الدول الذين احتكروا هذه المنظمة واعتبروها كناد خاص بهم، دون معالجة المشاكل الكبرى المطروحة في القارة، كما أن هذه المنظمة انطلقت من مبدإ استعماري بخصوص الحفاظ على الحدود التي ورثناها عن الاستعمار ولا يمكن توقع دخول إفريقيا بشكل مشرف للقرن 21 بـ 700 مليون موزعة على 50 دولة، وسنرى إفلاس عدد من دولها وإن كنا في القانون الدولي لا نقول بإفلاس الدول.

أما الجامعة العربية فتعيش هي الأخرى نفس الشيء، إذ بمجرد التدخل الأميركي والهيمنة التي برز بها الرئيس المصري مبارك مع بعض الدول في المنطقة خلال القمة الأخيرة بالقاهرة والطريقة التي تعامل بها خلال نقل مقر الجامعة من تونس الى القاهرة ثم في تعامله مع بعض الدول العربية التي بدأت كاقتراح عام 1942 وكانت أول منظمة إقليمية دولية كل ذلك أصبح يدعو للقول بانتهاء هذه المنظمة، ثم هناك اتحاد المغرب العربي الذي أصبح مؤسسة فارغة لا تقوم إلا بالاجتماعات واللقاءات والتوقيعات دون العمل على الدفع بتعطش الشعوب للوحدة الحقيقية، وما أخشى منه هو أن يصبح هذا لاتحاد عرقلة لوحدة الشعوب الحقيقية، فبما نحلل كل هذه المعطيات نقول ما هي إمكانيات هذا السيناريو الاصلاحي؟ ولابد هنا من أن

أضيف أن لحوادث 1988 التي حدثت في الجزائر أهمية فائقة وذات تأثير جذري في الأذهان وفي التطور العام للمنطقة الافريقية وإن كان لها ارتباط بالأوضاع الداخلية بالجزائر بهيمنة الحزب الوحيد وبقوة الضغط وبالسياسة الخارجية لبعض المؤسسات مثل سياسة البنك الدولي الذي يعتبر مسؤولا عن مئات الضحايا الذين ماتوا بسبب الفتنة الناتجة عن اتباع سياسة المؤسسات المالية الأجنبية، وللأسف نجد عددا من المسؤولين يطبقون مقررات البنك الدولي بوفاء وإخلاص لا نجد مثيله عندما يتعلق الأمر ببعض الانجازات الوطنية، وقد أبرزت التجربة الجزائرية تعطش الشعوب للديموقراطية والى جانب ذلك هناك تحولات أخرى تشهدها القارة الأسيوية، وكما قلت في مناسبات سابقة أن مناخ التحولات التي حدثت بأوربا الشرقية كان لها دورها في الذي نراه اليوم. لكن هذا لا يجب أن يحجب عنا الدوافع الداخلية للشعوب في مقاومة سيناريو الاستقرار، وأظن أن تحولات متسارعة ستعرفها المنطقة الإفريقية خلال السنوات المقبلة القريبة.

أتأسف لما حدث خلال الأيام القليلة بالمغرب من أحداث عشناها ولازلنا نعيشها اليوم وما خلفته هذه الأحداث من ضحايا نتيجة سياسة مبنية على العنف وانعدام العدالة الاجتماعية وعدم احترام حقيقي للمؤسسات الديموقراطية وحقوق الإنسان، والمحاكمات التي نراها الآن بهذه السرعة وعدم احترام القوانين وروح القوانين، ليس في المغرب فحسب وإنما أيضا خلال المحاكمات التي تجري اليوم بتونس - ولو أنها تدعي التعددية - نجد أن الحزب الوحيد هو السائد لا في البرلمان ولا في المؤسسات وإلا لما كانت هذه المحاكمات الجارية الان لمجرد التعبير عن الرأي وحرية العقيدة، وكل هذا يجعلني لا أتوقع للسيناريو الاصلاحي إلا نجاحا لن يتجاوز سبع أوثمان سنوات.

ونصل الآن الى السيناريو الثالث، سيناريو التغيير الجذري أو التحولات الكبرى والعميقة، وأظن أن هنالك تكاملا بين السيناريوهات الثلاث، إذ سنعيش أربع أو ثلاث سنوات القادمة في العالم الثالث بسيناريو الاستقرار والاستمرار ولكن سيؤدي عليه الثمن غاليا جدا من الناحية الاجتماعية، وسنرى بعض الدول تتحرر الواحدة تلو الأخرى لتخرج من وضع الاستقرار ويمكن أن نرى في نفس الوقت بعض الاصلاحات التي تقوم بها بعض الدول كحل ليس استمراريا مطلقا ولكن بنوع من التغيير التدريجي وهو ما يتعلق بسيناريو الإصلاح، ولكن لن يمكننا الدخول الى القرن 21 بدون سيناريو التغيير الجذري، فعلى المدى المتوسط في الدراسات المستقبلية والذي لا يتجاوز عشر سنوات أقول مقتنعا أننا في بداية القرن 21 سندخل بسيناريو التغيير الجذري والحقيقي سواء فيما يتعلق بالأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية أو فيما يتعلق بعلاقة الشمال بالجنوب، وبالنسبة للذين سيعيشون بعد السنوات العشر الأولى من القرن 21 لتصورهم يعيشون تحت الهيمنة الثقافية والحضارية العربية (اليهودية أو

المسيحية)، وسيعرف هذا الجيل تحركا على مستوى تحقيق الحاجات الديموقراطية والعلمية والتكنولوجية والاقتصادية دون هيمنة الغرب، وبالتالي سيتحرر من الفترة الجديدة التي دخلنا فيها وهي فترة ما بعد الاستعمار، وستكون ضمن نتائج السيناريو الثالث الوصول الى حسم المشكلة الفلسطينية التي تعتبر شرط أي تغيير في العالم العربي، وكذا قضية الاستعمار العنصري بجنوب إفريقيا الذي يعتبر الخلاص منها شرطا لأي تغير في إفريقيا، وتجدر الإشارة هنا الى نهاية الحرب الباردة وبالخصوص بعد موافقة باريس الأخيرة التي صار فيها سلام ما بين الشيوعية والرأسمالية يتوقع الجميع أن الصراع الإيديولوجي الجديد سيكون ما بين المسيحية واليهودية من جهة والإسلام من جهة أخرى ، وللأسف هذا توقع ليس منا نحن المسلمين ولكنه توقع المفكرين الإخصائيين، فنحن نؤمن بتسامح الإسلام وروح التعاون والاعتراف بالعقائد الأخرى والمعتقدات الأخرى.

ويمكن أن أختم أني متشائم بخصوص السنوات الأربع أو الخمس القادمة وأتحفظ بخصوص السيناريو الإصلاحي الذي يمكن أن يمتد الى نهاية هذا العد لأني لا أثق في إمكانياته لحل المشاكل بفعل الأساليب والعقليات الموجودة في العالم الثالث والتي لا تحترم مفهوم الإنسان كإنسان بعد، ولكني متفائل جدا بخصوص بداية القرن القادم الذي سيحمل معه عبر سيناريو التغيير تحولات جذرية، وهو ليس حلما فقط ولكنه ثقة مبنية على البحث العميق في الواقع وفي التوقعات.

"العلم" ـ 2 يناير 1991

الفصـل الثـانـي

17 يـنـايـــر 1991

بدايـــة لأول حـرب عالمية حضاريـة

10 – حرب الخليج وسقوط أقنعة الديمقراطية الغربية
11 – السلام يمر عبر احترام ميثاق الأمم المتحدة
12 – حديث شامل عن أسباب الحرب ونتائجها
13 – الحرب التي بدأت ولن تنتهي
14 – الوجه البشع للنظام العالمي الجديد
15 – مسلمو فرنسا وحرب الخليج
16 – ماذا بعد أسبوعين من القتال؟
17 – سيناريو الكابوس : سيناريو السلام
18 – المظاهر الحضارية لحرب الخليج
19 – العلاقات المغاربية – الأوروبية
20 – تصريح لإذاعة بغداد (24 فبراير 1991)
21 – الاسباب الخمسة لحرب الخليج

22 – الأبعاد العلمية والتكنولوجية

23 – أول حرب عالمية حقيقية

24 – رفض أمريكا مبدئي

25 – تكلفة الحرب

26 – رقم زمني قياسي للثقافة الغربية

27 – تشيرنوبيل الخليجية

28 – انحرافنا قبل انحراف القانون

29 – حرب الخليج وآفاقها

30 – الفرنكوفونية والهيمنة الفرنسية ما بعد الحرب

31 – الذاكرة والنسيان

32 – عندما تهجرنا الكفاءات

حرب الخليج
وسقوط أقنعة الديمقراطية الغربية (×)

أصبح للدراسات المستقبلية أهمية قصوى في جميع الميادين والمجالات، نظرا لما أصبح يعرفه التاريخ من تسارع، وللتغيرات المتتابعة في مختلف مجتمعات دول العالم الثالث، خاصة بعد فترة الخمسينات والستينات. ولعل سرعة حركة التاريخ من شأنها أن تهدد النشاط الاقتصادي والفكري على حد سواء بوقوع تطورات غير متوقعة، لا تجعلهما قادران على مسايرتها والتكيف معها قبل حدوث الأزمات، والى اليوم نجد العالم الثالث لايزال يعيش على تسيير أزماته دون أن تكون له القدرة والوسائل على استبصار الأزمات قبل حدوثها لمواجهتها وإذا كان للدراسات المستقبلية فضل في رفع هذه الحواجز وتسهيل النظر العلمي الى المستقبل فإن لها أيضا فضل في رفع هذه الحواجز وتسهيل النظر العلمي الى المستقبل فإن لها أيضا فضل وعلاقة بمسألة الديموقراطية ليس بمعناها السطحي الذي يعني الذهاب للانتخابات قصد التصويت أو الترشيح وإنما التعبير الحقيقي والحر عن الرأي يجعل رؤية الشعب لوضع حالي أو مستقبلي في اتفاق شامل مع النموذج الاجتماعي الذي يطمح اليه هذا الشعب.

إن العالم العربي والاسلامي بصفة عامة يعيش أزمة كبرى تكمن في عدم وجود رؤيا للمتسقبل، مما يجعل مجتمعاته تسير وتنمو على الصدفة وعلى العفوية وبدون نموذج اجتماعي أو تنموي قادر على تغطية 15 أو 20 سنة مقبلة، وهو ما يؤدي عكسيا الى الاستسلام الى نماذج التنمية الأجنبية والغربية وبالتالي الى تقييد حرية الشعوب في تسيير ذاتها والحد من حقوقها الديموقراطية.

الديموقراطية منهاج تربوي ومسيرة طويلة يلزم لاكتمالها شروطا ذاتية وأخرى موضوعية إذ لا يمكننا أن ننسى تجربة الاستعمار وعلى امتداد مائة سنة منذ القرن 19 إن الغرب الذي يريد أن ينصب اليوم نفسه معلما في الديموقراطية وحقوق الانسان وفي شروط المجتمع المدني لم يكن قبل بضع سنين يؤمن بصلاحية تطبيقها داخل مجتمعاتنا. وداخل العلاقة التي كانت تربطنا به حين كنا نحن المستعمرين وهو المستعمر، هذا بالإضافة الى بعض القيم اليهودية المسيحية التي يحاول الغرب فرضها على دول الجنوب دون احترام منه لمبدإ الاختلاف والتعدد سواء تعلق الأمر بحضارات مثل الحضارة العربية الإسلامية أو بالحضارات الإفريقية الأسيوية اليابانية والصينية وغيرهما، أو بحضارات أمريكية لاتينية..

(×) 23 و 27 يناير 1991

دول الغرب التي تمثل اليوم 20٪ من سكان العالم تستغل أكثر من 80٪ من ثروات العالم و20٪ من سكان العالم يريديون فرض حضارتهم على حضارات 80٪ من سكان العالم. الغرب لا يمكنه أن يكون ديموقراطيا لهذه الأسباب، ولن يكون ديموقراطيا ما لم يؤمن بالاختلاف والتعدد الحضاريين والثقافيين بدل أن يمارس هيمنته اللغوية والفكرية ويفرضها داخل نماذجه ومساعداته المحملة بقيم الفرنكوفونية مثلا أو غيرها، ولا يمكنه أن يكون ديموقراطيا ما لم يتم بعد إعادة توزيع الثروات العالمية توزيعا عادلاوطبيعيا.

لكن الغرب صنع له حلفاء داخل بلداننا من أنظمة ومثقفين لهم مصالح خاصة مع الغرب ويدعمها هذا الغرب من جهته لتكون المنفذ لمخططاته والحامي لمصالحه وأطماعه، كذلك تعمل هذه الأنظمة داخل دول العالم الثالث على تركيز سياسة الجمود وعدم التغيير وقمع كل أصوات الرفض لهيمنة الغرب.

إن الديموقراطية مثل الهواء بالنسبة للإنسان ولذلك ليس الإنسان المحروم من حريته وحقه في التعبير عن الرأي والكرامة، في حاجة الى أن تأتيه فكرة الديموقراطية عبر وسطاء من الخارج حتى يستطيع حينها النهوض للمطالبة بحقه في الديموقراطية، وأتساءل هنا هل كانت حركات التحرر الوطني على اختلافها في الوطن العربي وإفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية في حاجة الى وسيط لتنتفض ضد المستعمر؟ هل كانت الحركة الوطنية بضاعة مستوردة هي الأخرى من الغرب أم أنها ولدت كرد فعل ضد حضارة غربية كانت تريد توسيع هيمنتها على حساب حضارات أخرى ودول أخرى. ولما كنا نطالب الغرب بتطبيق «ديموقراطية» المزعومة كان يرد قائلا : «هي غير صالحة لغير الغرب»؟ إنني أقسم التاريخ المعاصر الى ثلاث مراحل : المرحلة الاستعمارية والتي عشناها الى حدود الخمسينات أو الستينات وهي مرحلة واضحة في طبيعتها إذ يكفي أن تخرج للشارع لتعرف أعدائك.

المرحلة الثانية هي مرحلة شبه الاستعمار وتمتد من بدايات الستينات الى 2 غشت 1990 لأنه برحيل الاستعمار، ترك لنا قبل ذهابه هياكل غير قادرة على مسايرة التطورات المتسارعة مما أثر على تعطيل نمو مجتمعاتنا، وبالخصوص ترك لنا طبقة مثقفة بعيدة عن جدور المجتمع وقاعدته العريضة، تسببت في قطع الاتصال الطبيعي الذي كان ما بين الحركات التحريرية الشعبية وبين الشعب، وفي مقابل ذلك نجد عددا كبيرا من هؤلاء المثقفين مشدودين الى تقليد الغرب وترديد قيمه وترويجها بوعي أو بدونه، كما نجد جزءا آخر منهم يجتذب نحو مؤسسة السلطة ليصبح تقنيا لها وعاملا في إدارتها ومخططا لبرامجها ذات الاتجاهات المعاكسة لرغبة أغلبية السكان في التغيير. ولكن تجد رغم كل هذا تعاليا لا مثيل له عند هؤلاء المثقفين يعتبرون فيه أنفسهم النخبة العارفة والطريق المنير الذي بدونه لن تستطيع أغلبية السكان عمل أي شيء لتغيير أوضاعها السيئة وينسى عدد من هؤلاء المثقفين أنهم كانوا يتجولون داخل فنادق وصالونات

الغرب حين كان الشعب الى جانب وطنييه المخلصين يخاطرون بحياتهم داخل القرى والبوادي والمدن لمناهضة الاستعمار.

في مرحلة الاستعمار الجديد صرنا نطبق برامج مفكرة ومعدة بالخارج خاصة تلك التي تسمى «المساعدة الفنية» التي تأتينا من «منظمات دولية» أو من البنك الدولي وغيره من المؤسسات الإمبريالية التي عمقت هوة الفوارق الحاصلة داخل المجتمع كما ركزت مصالح وتحالفات مشتركة بينها وبين فئات قليلة معادية لمصالح الشعوب ولطموحاتها.

أما المرحلة الثالثة فتبتدأ بـ 2 غشت 1990 وهي مرحلة ما بعد الاستعمار فلا يمكن بعد اليوم الحديث عن شبه استعمار بعد 2 غشت رفع عنه كل الحجب ولابد هنا من أن أنبه الى عدم الانزلاق في أطروحات الإعلام الغربي الذي كلما حدثت مشكلة صنع لها اسما ليختزلها ويخفي أبعادها الحقيقية، فمشكلة الخليج ليست مشكلة صدام حسين وسواء كان صدام أو غيره كان سيحدث ما حدث والعراق كان مستهدفا لما حققه من «عصيان» ضد مبدإ الاستسلام للغرب، فبنى أسس استقلاله عن التبعية للغرب، ولذلك تحرك الغرب كله ضد العراق حتى لا يكون قدوة لدول العالم الثالث.

وأسمي هذه المرحلة ما بعد الاستعمار لأنها حرب انطلقت ولن تنتهي بغض النظر عن كل النتائج المادية، فالحرب القادمة هي حرب ثقافات وحضارات بين الشمال والجنوب ، وهي حرب بين فكرة التسلط والاستبداد الحضاري وبين فكرة الاختلاف والتعدد.

إن الغرب يكرس الان كل وسائله لينسينا ما حدث وليحدثنا عن «ما بعد الحرب» ويحاول أن يوهمنا أن ما حدث هو من صنع فلان أو فلان في حين أن التاريخ تصنعه أحداث متراكمة وتوجهه موجات وتيارات عميقة وكبيرة وشمولية. وخلال شهر غشت عشنا أول تجربة من هذا النوع في تاريخ العلاقات الدولية لما صار فيها من فراغ على مستوى هذه العلاقة على صعيد عالمي واسع.

لقد كان العالم يسير على توازن قوة اشتراكية شيوعية يقودها الاتحاد السوفياتي وقوة ثانية هي الولايات المتحدة الأمريكية وكان بين القوتين اتفاق سري للتحكم في توازن العالم والسيطرة عليه بينما كان العالم الثالث يظن نفسه محظوظا على أساس الانزياح لهذه القوة أو تلك كلما اعترضته مشكلة، لكن بمجرد حدوث تحولات كبرى في أوربا الشرقية نتيجة تحلل إيديولوجي واقتصادي أساسه إرادة في تحقيق تغيرات ديموقراطية. أما الولايات المتحدة الأمريكية فكانت تعاني أزمة تاريخية قيمية، اقتصادية مالية، وحضارية وكانت تبحث عن مشاكل داخلية تغطي الفراغ الدولي وتسحب أنظار رأيها العام عن الأزمات الداخلية الحقيقية - خاصة وأنها على مشارف انتخابات مقبلة - الى خارج أراضيها. ولم تكن الولايات المتحدة

تستهدف بتدخلها الهيمنة على النفط وحده، بل لدرء مخاطر الغليان الذي بدأت تحبل به دول الجنوب، والذي أصبح يهدد مكانة الولايات المتحدة ومصالحها السياسية والاقتصادية والحضارية. لقد كنا نقول منذ أكثر من ١٥سنة في دراسة للسيناريوهات المحتملة بالخليج أن هناك احتمال كبير لاحتلال الخليج الذي كان يظهر كمخطط معد قبل الإعلان عن مشروع النظام العالمي الجديد. وجاء النظام العالمي الجديد لحماية مصالح الولايات المتحدة وحلفائها بثلاثة خطط دقيقة هي : سياسة التجزئة ومحاربة الوحدة، سياسة الاستقرار ومحاربة التغيير وهو ما ظهر جليا خلال تدخل جيوش غربية الى جانب حكام الغابون وساحل العاج والسينغال ضد تمرد السكان ومطالبتهم بتحقيق الديموقراطية، أما الخطة الثالثة فهي سياسة التوسع الحضاري وتحقيق الهيمنة اللغوية والحضارية والفكرية للحضارة المسيحية اليهودية ضد كل الثقافات الأخرى. الغرب خائف، ويعيش رعبا عميقا بسبب أخطار يترقبها من الجنوب خلال السنوات المقبلة : خطر الانفجار الديموغرافي الناتج عن تزايد وثيرة النمو السكاني الشبابي داخل دول الجنوب مقابل تراجع مهول في الهرم السكاني لدول الشمال.

خطر التغيير الديموقراطي والذي من شأنه تحديد كل مواقع الهيمنة والاستغلال الغربي لدول الجنوب.

خطر حضاري من شأنه الحد من هيمنة الحضارة الغربية، خاصة الاسلام بالنسبة للمجتمع الاسلامي العربي. فمنذ 85-1986 بدأت الحملة ضد الإسلام بعد أن كشف معهد بالفاتيكان متخصص في دراسة الإسلام أن عدد الكاثوليكيين انخفض لأول مرة في التاريخ أقل من عدد المسلمين (850 مليون مسيحي مقابل 865 مسلم) مع احتمال في اتساع الهوة بانخفاض نسبة المسيحيين وارتفاع نسبة المسلمين.

(×) النص في أصله مأخوذ عن حديث مع إذاعة فرنسا الدولية)

(ومع الجزائر خلال الأسبوع الأخير من شهر يناير 1991 (23-27 يناير 1991). R.F.I

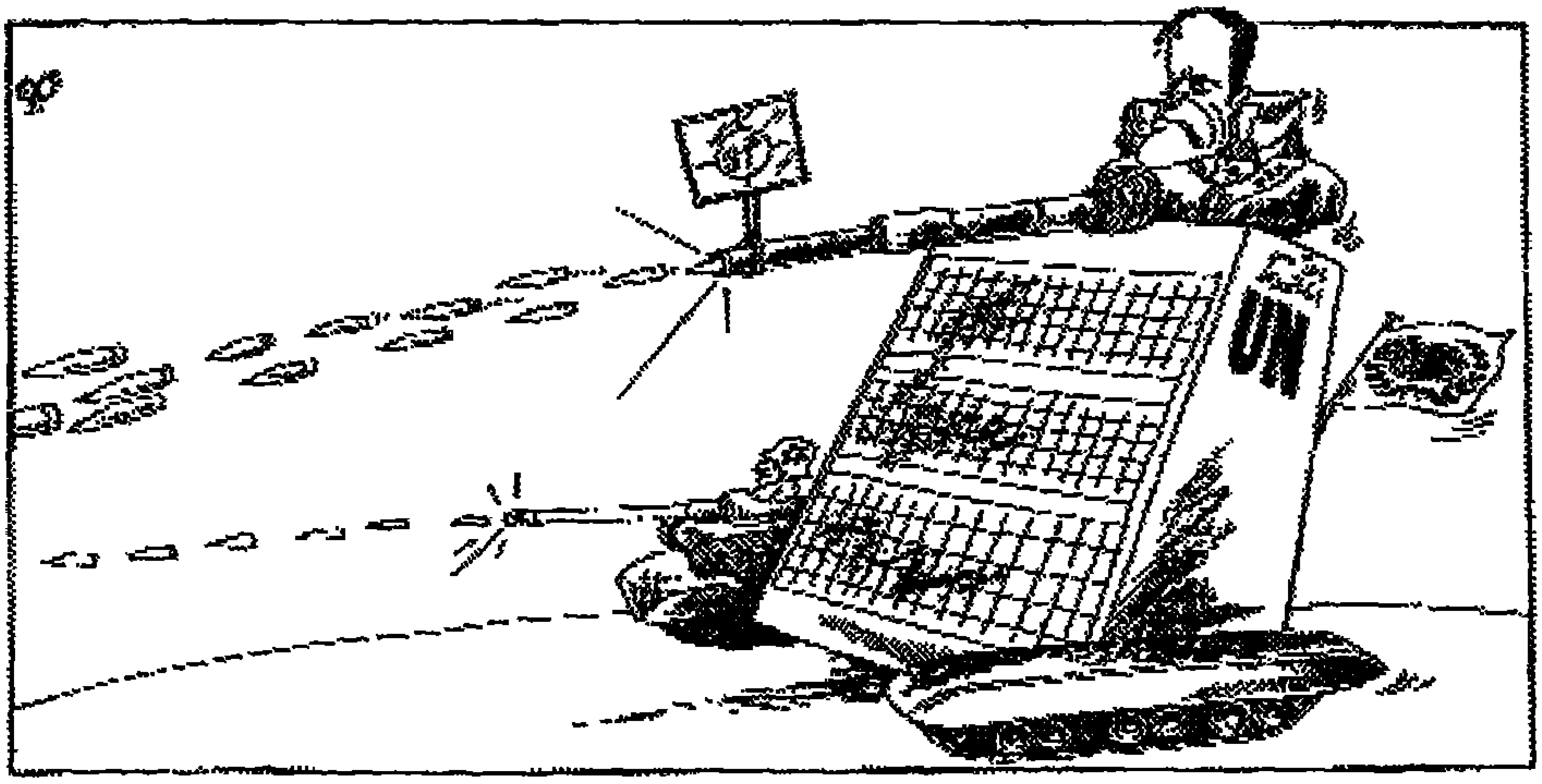

السلام يمر عبر احترام ميثاق الأمم المتحـــدة (*)

أجتياح الكويت من طرف العراق خرق لإحدى المبادئ المثبتة بميثاق الأمم المتحدة التي هي منظمة من أهم أهدافها حماية السلام. ولكن لا يمكن أن نجيب ونستجيب للميثاق بممارسة خرق آخر له، لأن القرار 678 الصادر عن مجلس الأمن والذي يستند على المادة 42 من ميثاق الأمم المتحدة ليس إشارة مرور لاندلاع النزاعات قبل 15 يناير عند منتصف الليل.

ولتطبيق هذا القرار يجب تطبيق المادتين : 43-46 و 47 من الميثاق والتي تحدد أوجه وشكليات التدخل العسكري للأمم المتحدة. وهي شروط لم تتحقق مما يجعل كل عملية عسكرية قبل 15 يناير تشكل خرقا سافرا للميثاق.

وقد عبر الأمين العام للأمم المتحدة عن ذلك بشكل ضمني يوم 3 يناير كما عبر عن ذلك أيضا رئيس الجمهورية الفرنسية بعد أيام، فلم تتم أية مقارنة ما بين حالة كوريا (1950) أو حالة الكونغو (الزايير 1960). والقوات التي توجد بالخليج لم تبعثها الأمم المتحدة وإنما بطلب أحادي من الدول التي توجد عليها هذه القوات.

ويبقى لمجلس الأمن أن يوضح نواياه في إنقاذ السلام وكذا مصداقية المنظمة الوحيدة والعالمية التي خلقت لحماية السلام، ولعل لأمينها العام سلطات كما هو مسطر في المادة 99 من ميثاق الأمم المتحدة تسمح له بالتدخل لأجل السلام وهناك مجال لتحديد كيف أننا حين نتحدث عن التحالف الدولي. لا نجد في الواقع سوى ثلاثة دول تشكل أغلب القوات المتحالفة هي الولايات المتحدة الأمريكية، انجلترا وفرنسا والتي تمثل ضمنها القوات أكثر من 80٪ ضمن القوات الأجنبية المستقرة بالخليج و 8،5٪ من القوات الإنجليزية و 2٪ من القوات الفرنسية أي ما يعادل أكثر من 90٪ من قوات الدول «المتحالفة»، وفيما يتعلق بالطائرات الحربية تصل مساهمة هذه الدول الثلاثة الى 100٪ تقدر بـ 1410 طائرة وحوالي 77٪ من مجموع المدافع وأكثر من 75٪ من البحرية الحربية التي هي في ملك هذه الدول الثلاثة.

ونستثني غيابا شاملا تقريبا للقوات الأمريكية اللاتينية (دولتان فقط) بمساهمة تقدر بـ 0.05٪ من

(x) 17 يناير 1991

البحرية الحربية، وآسيا (دولتان فقط) بـ 1.7٪ من القوات، وإفريقيا بأقل من 1000 جندي وأقل من 0.2٪ من المجموع.

مما يعني أن التحالف ليس دوليا كما يحمل من غطاء وما يشجع على استنتاج ذلك هو استطلاع أراء الرأي العام بعدد من الدول التي تدخل ضمن هذا التحالف والتي أبرزت معارضتها لهذه الحرب، لأن إقرار السلم هو الاتجاه العالمي الممكن لتضامن البشرية ولبقاء النوع البشري.

إن الدعوة للسلام المبنية على احترام ميثاق الأمم المتحدة ضرورة أخلاقية وقانونية ولعل مرجعيتنا في الماضي وبوجه خاص خلال الحرب العالمية الثانية لا يمكنها أن تتخلى عنها لا في الزمان ولا في المكان لأن الإنسانية كانت حينها قادرة على تدمير نفسها.

إن بناء نظام عالمي جديد يمر باحترام القواعد القانونية العالمية المثبتة في ميثاق الأمم المتحدة. وقد أصبح من المستعجل العمل على احترامها إذا ما كنا نطمح لسلام دائم.

مجلة حقائق، عدد 182
28 يناير 1991
جريدة لوموند، 17 يناير 1991، LE MONDE

مع «الخضراء» المغربية :
حديث شامل عن أسباب الحرب ونتائجها (*)

● الخضــراء : أستاذ المهدي المنجرة.. أنت رجل مستقبلي.. تدرس معطيات الماضي والحاضر لاستقراء ما سيأتي.. ومن هذه الزاوية نعرف أنك من دعاة التغيير على المستوى العالمي.. فأنت تدعو أقطار الشمال الصناعية إلى تغيير عقليتها في تعاملها مع العالم الثالث، ونحن أيضا نعتقد أن التغيير ممكن.. إلا أن الدول الكبرى تمنع الدول الصغرى من التنمية والتطور..

– المنجرة : معك الحق، لكن اسمح لي أن أستعمل عبارة بالدارجة : "حتى يد ما تصفق وحدها". إن مع الدول العظمى دولا صغيرة تتعاون معها، ونحن نعيش الآن ما أسميه بعصر الارتزاق، هناك مرتزقة نجدهم في حكوماتنا وفي جيوشنا وفي مثقفينا.. لقد صار الإنسان يشترى والحكومات تُشترى بتعويضات مادية.. وما نراه اليوم في الخليج نموذج لذلك، فحتى التمويل يأتي من مصدر تابع لنا.. فأمريكا، ويجب أن نسمي الأشياء بمسمياتها، لا تمثل سوى 5٪ من عدد سكان العالم، وتتصرف بشكل مباشر وغير مباشر في أكثر من 80٪ من الاحتياطيات النفطية العالمية، وهذا شيء مرهب لدرجة أنها تتصرف في الأمم المتحدة، ولي بهذا الخصوص تجربة لأكثر من 40 سنة، وشاركت في نيويورك في المؤتمر السنوي للجمعية العامة للأمم المتحدة.. وفي حياتي كلها ما رأيت كوميديا مثل التي عشتها في الأسبوع الذي كان فيه مشروع القرار 678، لما ترأس (بيكر)، رئيس الدبلوماسية الامريكية مجلس الامن، وكانت الاخبار تتحدث يوميا في الصحافة عن الضغط الذي مورس على جميع الدول.. وقد تكلمت عن الارتزاق، حتى أن دولة مثل الإتحاد السوفياتي، وكي لا تستعمل حق الفيتو، تسلمت خلال 28 ساعة قبل التصويت من المملكة العربية السعودية قرضا بقيمة خمسة ملايير دولار.. ولكي نفهم الأرقام : منذ نهاية الحرب الباردة، والتعاون الموجود بين موسكو وواشنطن والغرب، والمجاعة بالإتحاد السوفياتي، والتعاون الأوربي، المبني على نفس القيم اليهودية المسيحية، وإلى حد الآن وحتى بالضغط على ألمانيا واليابان، لم تجمع هذه الكتلة الجديدة لمصلحة الاتحاد السوفياتي ما يقرب من 2 إلى 3 ملايير دولار.. لكن في دقيقة واحدة الضغط الأمريكي على السعودية، لشراء صوت في مجلس الأمن الدولي، أدى إلى قرض بقيمة ٥ ملايير دولار.. ولكي نعطي أمثلة أخرى، فحتى المصاريف اليومية لـ 500 أو 600 ألف جندي، وهي مصاريف الأكل والشراب والسكن

(*) 4 و 11 يناير 1991

والكهرباء والتسلي، تأتي كلها من مدخول هذا النفط العربي.. هذا النفط الذي عوض أن يبقى للأجيال المقبلة يُستغل من طرف الولايات المتحدة والغرب، ويُتصرّف فيه كأنه ملك لأوربا وأمريكا.

• الخضـــراء : هذا تلوث...

– المنجرة (مقاطعا) : هذا تلوث في الأدمغة، ولكن بهذا التشاؤم أنا على يقين، والله هو الوحيد الذي عنده اليقين التام، أن هذه مرحلة انتقالية، وأن الوضعية التي أدت الى الظروف التي نعيشها اليوم، لا يمكن أن تستمر معنا أكثر من أربع أوخمس سنوات.. وأنا مقتنع أن الدخول في القرن ٢١، ولا تفصلنا عنه إلا ٩ سنوات، سنرى معه تغييرات أساسية..

• **الخضـــراء** : هذا عام آخر قد مضى.. وعام جديد قد بدأ.. ونريد أن نسمع منك : ماذا تتمنى لهذا العالم المتحرك؟ وما هو نوع النزاع الذي تتوقعه على المستوى الحضاري العـالمـي؟

– المنجرة : أمامي الآن مجلة محترمة The Economiste، وبها مقال طويل عن الإسلام والغرب، يقولون بكل صراحة : بما أن الحرب الباردة قد انتهت والحرب الباردة هي حرب إيديولوجية، ففي المستقبل ليس هناك إلا نزاع يمكن أن يتوقعه الإنسان، وقد بدأ فعلا، وهو النزاع بين الإسلام وما يمكن أن نسميه بالعالم اليهودي المسيحي.. وأظن أن التاريخ الرسمي لهذا هو العهد الأخير والاتفاق الذي تم في باريس بين رؤساء دول أوربا كلها بحضور الرئيس الامريكي.. وهذه الاتفاقية وضحت نهاية الحرب الباردة والحرب الإيديولوجية داخل واقع حضارة موحدة لأوربا الشرقية والغربية ذات نفس القيم، وهي قيم يهودية مسيحية.. عهد هذا النزاع له مؤشرات، وشخصيا أشير لها منذ سنين.. ومنذ 1976 وأنا أقول إن الحرب المقبلة ستكون قبل كل شيء حروبا حضارية ثقافية، فيها المصالح الحضارية أكثر مما هي اقتصادية وسياسية.. وها قد دخلنا في هذا العهد، ويجب على كل إنسان في العالم الثالث مسلما كان أو غير مسلم، أن يفهم أن الخطر الموجود الآن هو الهيمنة الحضارية.. والحمد لله هناك مؤشرات جديدة . ومن أحسن الأخبار التي سمعتها خلال الأيام الأخيرة، ولو أنه داخل بلدنا تهجم ضد هذا الخبر في ميدي ا، وهي إذاعة صهيونية غربية، وهو القرار الذي اتخذ في البرلمان الجزائري فيما يخص العربية كلغة وطنية، ومحاربة الهيمنة الفرنكوفونية التي ليست ثقافية فقط بل، تُحدث مثقفين في الدول المغاربية وتجعل منهم مرتزقة لهذا الغرب.. وأتمنى بمناسبة السنة الجديدة، كمغربي، بالمعنى الكبير والصغير، من جملة ما أتمنى لعام 1991 أن تقرر الحكومة المغربية رسميا ترك المؤتمر الفرنكوفوني، وأن تقدم تونس على نفس الإجراء، إذا أردنا أن تكون لنا خطة موحدة لكي نحارب المشاكل الكبرى، مثل مشاكل البيئة، وهذه من التمنيات.. وتمنياتي ألا تنتهي سنة 1991 حتى نرى أن المغرب قد تراجع عن إجراء، أرى أنه كان غلطا، فابتعد عن هذه المجموعة.

الخضـراء : مروع هذا الذي نسمع منك أستاذ المنجرة.. فبضع سنوات من الظلام ستكون ضريبة ثقيلة، خاصة وأن العالم جاثم على بركان نووي.. فممكن أن تستخدم الأسلحة النووية، ونريد أن نسمع رأيك.. فقل لنا بصراحة : هل أنت متفائل من أن الحرب في الخليج لن تقع؟ هل ستقع في نظرك أم لا.

المنجرة : يوم 27 سبتمبر المنصرم، وفي استجواب مع Radio france international وهو استجواب نشرته عدة صحف منها جريدة (العلم)، قلت : إنه غير ممكن ألا تقع الحرب، وألا تستعمل الأسلحة في منطقة الخليج.. الآن أقول إن هناك فرقا بين اليوم 27 سبتمبر، فقد ظهرت عناصر جديدة لم تكن تخطر ببالي، فلم أكن أتصور الخيانة الكبرى للمسؤولين العرب في تعاملهم مع الغرب، وبالخصوص مع أمريكا.. ما كنت أتصور أن يصل التعامل إلى الحد الذي وصل إليه، كما قرأنا في الصحف بعد المؤتمر الخليجي الذي انعقد في دولة قطر، والذي برهن عما أسميه بالخيانة للتاريخ، والخيانة أمام العالم العربي، وخيانة للإسلام، وأكثر من هذا : الخيانة الكبرى للعالم الثالث.

ما كنت أتصور أن يصل الحد إلى درجة القرارات التي اتخذت في الدوحة، عاصمة قطر.. وليس ضروريا أن أدخل في التفاصيل، هذا هو العنصر الأول.. العنصر الثاني : ما كنت أتصور، حسب المؤشرات والدراسات التي كانت موجودة أنه سيجيء يوم بعد ثلاثة أشهر فنجد في الخليج 600 ألف جندي أجنبي.. لا أظن أننا إذا جمعنا السكان الحقيقيين لمنطقة الخليج، وأقصد ما يسمى بالمواطن الحقيقي في الكويت وقطر والبحرين والإمارات، سنحصل في المجموع على عدد الجيوش الأجنبية الموجودة في المنطقة.

وعندما أتكلم عن المواطنين أقصد الذين لهم الحق في الإنتخابات في الدول التي بها نوع من الانتخابات مثل الكويت.. فهذا الوجود العسكري بهذه الدرجة لم يسبق له مثيل حتى خلال الحرب العالمية الثانية، وهذا هو العنصر الثاني.. العنصر الثالث : ما كنت أتصور كل هذا الانسجام الغربي، بقطع النظر عن بعض التصريحات التي نسمعها من الرئيس الفرنسي من هنا أو هناك.. فهناك اتفاق شامل بين الدول الغربية، وهناك أهداف معينة، وهم متفقون على اللقاء في المنطقة.. والآن المسألة ليست مسألة أن تكون حرب فقط، بل مسألة الدوام، مسألة أن تكون هناك اتفاقيات جديدة بحيث يبقى للغرب وجود في المنطقة، سواء تغيرت الأنظمة الموجودة هناك أو لم تتغير.. فهؤلاء "الناس" راحوا إلى الخليج ليس كسياح لشهرين أو لحرب، بل لنوع من البقاء، وهذا هو الشيء الخطير.. والسؤلا (هل ستكون هناك حرب أم لا؟) كان له أساس يوم 27 ديسمبر، واليوم أقول بكل صراحة إن ما نعيشه الآن هو أن وضعية الإنسان العربي، ليس فقط في الخليج بل في بقية أنحاء العالم، تمس كل إنسان في العالم الثالث.. وهناك مقال في جريدة)

Le monde (منشور يوم 26 ديسمبر، يتحدث عن ردود الفعل في بقية أنحاء العالم الثالث، ويعلن أن جل الناس، سواء في البلدان العربية أو الإسلامية أو غيرها، يحسون أن هذا النوع يمسهم شخصيا..

وأكرر إذن أننا في عصر ما بعد الاستعمار.. وإذا كانت الحرب طبعا ستُذهب ضحايا من الطرفين، لكن أهداف الغرب بسيطة، فقبل النفط هي أهداف حضارية وثقافية، وهي بعد ذلك أهداف اقتصادية، وللهيمنة العالمية يحتاجون طبعا للنفط.. ثالثا : الغرب لا يسمح لأية دولة من العالم الثالث، سواء كانت صغيرة أو متوسطة، أن تكون بإمكانيات علمية تكنولوجية عسكرية باستثناء إسرائيل.. إسرائيل هي الوحيدة التي لها "الحق" في أن تتطور علميا وتستعمل الأسلحة وتحصل على مساعدات ووسائل معاصرة من أحدث ما يوجد، وكذا ملايير الدولارات سنويا، لكن إذا كانت بلاد أخرى كيفما كانت في العالم الثالث، وخاصة إذا كانت عربية أو مسلمة. لن يسمح لها أن تصير بإمكانيات لأن تتجاوز على مستوى الدول الوسطى مثل ما نجد في أوربا.. فالهدف الثاني في الخليج هو أن تلك البلاد (العراق) التي ضحت وقامت بمجهود في البحث العلمي ووصلت إلى نوع من المستوى يجب أن تكسر، هذا هو الهدف الثاني.. والهدف الثالث هو استعمار جديد لمنطقة معينة. والآن على كل حال اتضحت الأمور بعد 2 غشت، ولا يمكن لهذا الغرب أن يعطي دروسا لأي أحد، لا في الديمقراطية ولا في حقوق الانسان ولا في أي شيء.. وفي هذا اليوم الذي أتكلم فيه مع (الخضراء)، وهو 27 ديسمبر، نشرت لائحة بعدد الدول التي أعطت الحكومة الأمريكية تعليمات لرعاياها أن يتركوها..

في الوقت الذي تتكلم فيه الولايات المتحدة عن الدفاع عن منطقة عربية وعن هذا النظام العالمي الجديد، نرى أن تعليمات قد أعطيت فيما يخص البلدان العربية فقط، وهذا يخص مواطنيها في موريتانيا والأردن والصومال واليمن والسودان وقطر والامارات والشط الشرقي من السعودية.. إذا كانت أخبار جريدة)زرفـوذـزم(حقيقية، فإن الرعايا الامريكيين في المغرب لهم تعليمات لترك البلاد قبل 15 يناير، وهذه علامات هذا التخوف، وهذا برهان من الأمريكان والغرب.. فما هي الاحساسات الحقيقية في العالم العربي وفي العالم الاسلامي وفي العالم الثالث؟ إن ما نعيشه اليوم مسألة مصيرية لها علاقة بالتلوث، والتلوث في أنفسنا وداخل بعض المسيرين في بلداننا، ولكن التلوث مشكلة لها علاقة بالأخلاق.. ولما تنتهي الأخلاق، سواء في الدول الكبرى أو الدول التي تساهم كدول مرتزقة، والتاريخ سيظهر يوما ما الدول التي اشتريت لتحارب أناسا لهم نفس الدين ونفس الحضارة، ومن نفس المنطقة الضعيفة التي هي العالم الثالث، ولكن بقطع النظر عن كل هذا، ممكن أن هذا التحليل هو سبب تفاؤلي لأن ما بقي الآن إلا الانفراج الحقيقي، وبهذا يُعرف المؤمن، وإن الله مع الذين صبروا.

• **الخضـراء** : وإذن، هنا لا بد أن نعود لكلامك.. فلا بد من نظام عالمي جديد.. ولا يتسنى تحقيق مسألة النظام الجديد إلا بإعادة النظر في هياكل منظمة الامم المتحدة..

– المنجرة : طبعا.. في سنة 1973، بالجزائر، كان مؤتمر قمة عدم الانحياز، وكان هناك قرار، القرار نُقِل إلى نيويورك وصادقت عليه الأمم المتحدة عام 1974، وهذا القرار اسمه (النظام الدولي الاقتصادي الجديد)، وفيه مطالب بسيطة، وهي مطالب إصلاحية لتغيير التوزيع الغير المتكافئ فيما يخص العلاقات بين الشمال والجنوب.. أما الدول التي حاربت هذا النظام الجديد بمساندة البنك العالمي، فهي الدول الغربية.. والآن،ونحن نتلكم عن نفس النظام الجديد الذي يتكلم عنه الامريكيون والغربيون، وهو في الحقيقة خرق للقانون.. وإني قد أمضيت حياتي في التعاون الدولي.. وأقول : إن مصداقية الأمم المتحدة ما وصلت يوما لأسفل مما وصلت إليه الآن، بقطع النظر عن التصويت، لأن التصويت مسألة شكلية، وهي مسألة ارتزاق ونتيجة رشوة داخل مؤسسة عالمية مثل مؤسسة الأمم المتحدة.. ولنأخذ القرار 678 الذي يحدد كأجل يوم15 يناير، فإذا رجعنا إلى ميثاق الأمم المتحدة نرى أن هذا القرار مبني على البند 42 من ميثاق الأمم المتحدة، لكن هذا البند لا يمكن تطبيق ما فيه إلا إذا رجع الانسان للبندين 46، 47.. ولكي نأخذ الوضعية الحالية، فغير ممكن لأية دولة، سواء أمريكا أو فرنسا أو غيرها أن تقرر يوم 15 يناير لنفسها أن الشروط متوفرة للهجوم.. فضروري أن يجتمع من جديد مجلس الأمن وأن يقرر ويحل الوضعية.. فإذا وجد أن الشروط متوفرة للتدخل، أي نوع من التدخل، لأن القرار يتكلم عن وسيلة لكن بدون تحديد ما إذا كانت وسائل عسكرية أو غير ذلك.. ومع ذلك فهذا لا يكفي، ضروري أن تطرح المسألة، كما هو منصوص في البند 47 أمام لجنة الأركان العامة، وهذا لم يطبق أبدا منذ بداية الأمم المتحدة إلى اليوم.. إذن، حتى الشروط الشرعية القانونية الأساسية لم يتكلم عنها أحد.. وهناك ما هو أكثر، وهذا أقوله بكل مسؤولية، وهو أنه حتى الأمين العام للأمم المتحدة لم يلعب دوره الحقيقي، وهو أن ينهي ويقرأ القانون ويوعي الناس بما هو احترام هذا الميثاق الذي هو مسؤول عن احترامه، لكن، الله أعلم بما حدث.. فالضغط الذي نجده على مؤسسة في حجم الأمم المتحدة، وعلى أمينها العام أدى إلى نوع من السكوت لم يسبق في تاريخ الأمم المتحدة.. وأمامنا في مشاكل الكونغو وغيرها مواقف (يوطانت) وحتى مواقف (فالدهايم).. وعندما كانت المشاكل في شكل جنوب / جنوب، كنزاع العراق وإيران، كان الأمين العام للأمم المتحدة يتحرك بسرعة ويُرسل مبعوثين، لكن حتى هذا المجال منعدم.. فقد قررت الأمم المتحدة ألا تسمح له كأمين عام أن يتصرف في مسؤوليته.. إلى هذه الدرجة وصل الضغط.. ولننتقل من الأمم المتحدة إلى جامعة الدول العربية، فللأسف كان هذا موضوع أطروحتي للدكتوراه.. هنا نرى التعامل والطريقة التي تعامل بها الرئيس المصري خلال مؤتمر القمة الأخير

بالقاهرة، وهذه الطريقة التي اتخذت بها القرارات تخرق جميع القوانين الموجودة في الجامعة العربية.. فانتقال مقر الجامعة من تونس إلى القاهرة نرى بأية طريقة وبأي تصرف كان، ما هو هذا النظام الجديد؟ وما هو احترام هذا القانون، ونحن نرى مستوى منظمات مثل الأمم المتحدة، وحتى جامعة الدول العربية التي هي أقدم منظمة دولية حكومية.. فتأسيسها سبق تأسيس الأمم المتحدة، هذه إذن مسألة مصداقية، ومسألة جدية، فدعهم يتكلمون عن النظام العالمي الجديد.. طبعا، هناك (نظام عالمي جديد) يتكون، وهو مبني على التعددية، ومبني على الديمقراطية، وعلى العدل، واحترام الحضارات، وعلى القيم والحريات، ومبني على محاربة الضغط كيفما كان ومن أي مكان أتى.

- **الخضـــراء** : في العدد الماضي حدثتنا عن قضايا تتمحور حول أزمة الخليج.. مازلنا متشوقين إلى المزيد من تحليلاتك الخليجية.. وأيضا نريد أن نعرف رأيك في إشكاليات البيئة.. وبرأينا ليست البيئة فقط هي الطبيعة، بل هي الانسان، فأينما يوجد الإنسان توجد البيئة.. وسؤالنا : هل للتلوث مستقبل؟ وهل للتنمية آفاق؟

- المنجرة : توصلتُ حديثا بلائحة 50 أهم كتب نشرت خلال 1990 حول المستقبل.. وأحسب أن 12 منها، أي تقريبا 25٪ لها علاقة بمشاكل البيئة.. ومشاكل البيئة لا يمكن أن تُحل أو توجد لها حلول سوى بنظرة مستقبلية، أي على أمد طويل. هذا من جهة..

من جهة أخرى، فإن هذا الرقم هو برهان على الاهتمام بمشاكل البيئة، بمفهومها الشامل في العالم.. وبإيجاز فإن هذا الاهتمام يمكن أن يُفهم إذا قلنا إنها قد أصبحت ليس فقط قضية تكنولوجية أو مسألة سياسات، بل هي قضية لها علاقة بالبقاء فوق هذه الكرة الأرضية.

لهذا، لما نتكلم عن البقاء نرى أن مشكلة البيئة من الأولويات المستقبلية.. وعندما نتكلم عن المستقبل نقصد المستقبل الذي يبدأ اليوم.

والتطورات التي حصلت في العلم ومفاهيم الكون تبرهن شيئا لم نكن نعرفه من قبل. هو أن الكرة الأرضية نفسها هي في الواقع حية.. فقد تبيّن علميا أن للكرة الأرضية ما يسمى Auto Régulation وهذا يعني أن هناك وسائل طبيعية تجعل الكرة الأرضية تتعامل مع التطورات، وأن حتى ما يخص الحرارة الموجودة في الجوّ أو عدد الحوامض في البحار أو كل التغييرات التي تحدث في الطقس... هنالك نوع من المراقبة الطبيعية، وهي ردود فعل من طرف "جهاز" الكرة الأرضية نفسها..

وإذن، فهذا التطور الحاصل في المعرفة يلزمنا أن نتعامل مع الكرة الأرضية ومع الكون نفسه من الناحية العلمية بأسلوب آخر، وضروري أن يكون الأسلوب ديناميكيا، وأن نرى بالخصوص العلاقة

الموجودة بين مشاكل البيئة وما يمكن أن نسميه بالقيم الحضارية أو الاجتماعية والثقافية... وهناك علاقة متينة بين مشاكل البيئة الخاصة بالبحار والغابات وانجراف التربة، والسكن والديمغرافية.. والمشكل الكبير أن أنواع من الحشرات والنباتات تموت يوميا وتضيع ولا تتجدد، وهذا شيء خطير لأن البقاء نفسه مبني على التعددية...

والتعددية في الطبيعة شيء أساسي..

والتعددية ليست في الطبيعة فقط، لكن أيضا في الميادين الثقافية والحضارية والسياسية، حيث تعتبر أمرا مهما...

ويجب أن نكون واعين بأن مشاكل البيئة ليست خاصة بالخبراء أو العلماء أو المهندسين أو المختصين في التلوث، بل تهم كل من يعيش فوق هذه الأرض.. ولهذا يمكن إن نقول إن المشكلة الأولى في ميدان البيئة هي نفس المشكلة التي تواجهها الحضارة المعاصرة وهي أزمة الأخلاق...

وهذه الأزمة الأخلاقية لها أيضا علاقة بالنموذج التنموي المبني على الحضارة الغربية، وهذه مبنية على أساس الصناعة، ومفهوم الصناعة، كأنه محاربة للطبيعة..

والآن بدأ الناس يفهمون خطر هذا النموذج التنموي.. وأظن أن هذه نقطة تحوّل سيكون لها أثر مهم فيما يخص تطورات نهاية هذا القرن وبداية القرن المقبل..

• **الخضــــراء** : عندما قلت إن المستقبل بدأ اليوم، فهمت أن المستقبل بدأ أمس، بمعنى أنه يجب علينا أن نستخلص التجارب ونستفيد منها لمواجهة الغد.. ومن خلال شرحك المستفيض، فهمت أن البيئة مشكل كوني. عالمي.. ولكن، هل يمكنك أن تحدث قراء (الخضراء) عن زاوية أخرى من هذا المشكل البيئوي.. وهي الزاوية الإقليمية، المحلية.. فكيف يمكننا نحن كعبقريين أن نواجه هذه المعضلة.. كيف نواجه نحن المغاربيين، نحن المغاربة، مشكل التلوث الآتي أساسا من الشمال، أي من البلدان المصنعة.

-المنجرة : السنة الماضية، برهنتُ عن إفلاسها.. وهذا أول درس يجب أن نستنتجه.. وغير ممكن أن نخطط في قضايا البيئة والتلوث وغيرها إذا لم نبادر أولا الى تغيير فلسفتنا التنموية ومقاصد هذه التنمية.. لماذا أعلن أن النموذج التنموي للعالم الثالث قد برهن عن فشله، لأنه نموذج تقنوقراطي، ليس مبنيا على الإنسان وعلى تحسين حياة الأشخاص، بل هو مبني على الانتاجية والتصنيع والمادة.. وهذا ما أدى الى أن الفرق بين الضعيف والقوي، وبين الفقير والغني يزداد اتساعا يوما بعد يوم أولا بين الشمال والجنوب، وثانيا بسرعة أكبر وأخطر داخل الجنوب نفسه، بحيث أن الفرق بين الفقير والغني قد ازداد استفحالا خلال العشر سنوات الى 15 سنة الماضية.. وهذا ما يبرر الانفجار الذي نعيشه منذ سنوات في العالم الثالث، من تونس الى الجزائر عام 1988، والى المغرب في الأيام الأخيرة، والى ما نعانيه من أزمات

في إفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية.. وهذا شيء طبيعي.. فعندما تقول تفسيرك فيما يخص المستقبل، معك الحق.. أنا أقول إن المستقبل يبدأ اليوم فيما يخص خطة سياسية أو عمل.. أما ما نعيشه اليوم أو ما سنعيشه خلال السنتين أو الثلاث سنوات القادمة، لهذا ناتج عما عملناه أمس.. فضروري إذن أن نواجه نتائج سياسات فاشلة في الماضي ونحاول تغييرها، وأيضا نخطط سياسة جديدة تبدأ أولا بمفهوم جديد للتنمية، بحيث يكون النموذج التنموي الجديد مبنيا على الإنسان وكرامة الإنسان ونوعية الحياة وحد أدنى من العدالة الاجتماعية والتوزيع.. وهذه أشياء لها علاقة بالخطة السياسية والتنموية والصناعية.. فمثلا : تجد عدة دول من العالم الثالث نوعا من التخطيط على أساس استقدام صناعات ملوثة.. فالدول الصناعية أدركت خطورة بعض الصناعات التي ينتج عنها التلوث..

هناك محاولات واعية من طرف بعض الحكومات في دول العالم الثالث تعتبر أن هذه فرصة لنقل هذه الصناعات - التي كلها تلوث - الى مناطقنا.. وهنا أتكلم بطريقة شمولية.. وعندنا في منطقة أسفي والجرف الأصفر بعض المشاريع أقول عنها من زمان يجب أن تكون لنا وسائل علمية لمتابعة ما يحدث عن هذه الصناعات.. ثانيا : التطور السريع في عدد سكان المدن، هذا أدى الى عدة مشاكل فيما يخص التلوث من الناحية الصحية داخل المدن وفي أعماق البحار.. فبخصوص البحر الأبيض المتوسط ومنطقة مهمة من المغرب هي بجانب هذا البحر.. هناك تأثر بما يحدث شمال المتوسط، حيث المجهود الصناعي كبير مع الصناعة السياحية بجنوب إسبانيا وإيطاليا وتركيا والشرق الأوسط، وأيضا الدور الاستراتيجي فيما يخص النقل البحري، وكذا من الناحية العسكرية.. وكل هذا يجعل الناس تتكلم الآن عن موت البحر الأبيض المتوسط..

وللأسف فإن الأحداث الراهنة مثل الوضع في الخليج، هذا الذي كان يسمى «الخليج العربي، ويمكن أن نسميه الآن «الخليج الأمريكي» لأن عدد العسكريين الموجودين هناك أكثر من سكان بعض الدول الخليجية نفسها.. هذا أدى لحركة غير عادية.. وأمامي الآن إحدى الأعداد الأخيرة للجريدة الأمريكية International Herald trubune ، وعدد آخر من New York times وفي مقال واحد عن «مختبر الأسلحة الأمريكية بالخليج، بحيث أن هناك عدة أسلحة جديدة، البعض منها شبه نووي.. وكنت قد كتبت قبل 3 أشهر مقالا توقعت فيه أنه سيحدث نزاع عسكري في الخليج.. ومن الأسباب الموضوعية التي كنت قد قدمت، أن النزاع سيكون مناسبة لاستخبار وتجربة أسلحة جديدة ما كان يمكن أن تجرب من قبل، نظرا للحروب الباردة التي كانت سائدة.. وأعطي هذه كأمثلة في ظل الوضعية الجديدة التي نحن فيها وعلاقتها من جديد بالأزمة الخلقية.. وأعني أن هذا التصرف الذي نجده لدى بعض المسؤولين في جميع أنحاء العالم، سواء كانوا في الشمال أو الجنوب، ليس فيه أي اعتبار للمستقبل والأجيال القادمة ولا لنوعية الحياة.. وها

نحن نعيش في هذا الزمن ما أسميه بالهمجية المعاصرة، والأمر يتعلق بعهد ما بعد الاستعمار، والمسؤولية ليست على الشمال فقط، المسؤولية أيضا على الجنوب، وعلى دول العالم الثالث التي لم نجد فيها أي نوع من الجدية فيما يخص ممارسة مشاكل مهمة مثل مشكل التنمية.. والتنمية ذات علاقة مباشرة بمشاكل البيئة..

• **الخضـــراء** : يظهر إذن أن للتلوث مستقبلا كبيرا إذا استمر الوضع الجنوبي على حاله.. فالتنمية تجرنا الى مبدإ أساسي هو تغيير النمط السياسي السائد.. فلا تغيير للفكر بدون مسار ديمقراطي بعقلية متطورة تواكب الواقع الجنوبي.. فكيف ترى مستقبل البيئة؟

– المنجـرة : إن الإنسان عندما يتجول في أية منطقة من مناطق العالم الثالث، ودعنا نتحدث عن منطقة المغرب الكبير، يرى أنه خلال العشر سنوات الماضية فقط حدث تغيير واضح بالنسبة للطبيعة، والفواكه والمذاق، بالنسبة للغابات، بالنسبة لشاطئ البحر، وبالنسبة للهواء نفسه.. وقد ظهرت دراسات في العالم كله، ومعها برزت مقاييس ومعايير دولية جديدة تخص المحافظة على البيئة ومحاربة التلوث.. ودول المغرب الكبير لم تتبع أية توصية من هذه التوصيات لأن فكرة التنمية الموجودة عندنا لم تأخذ بعين الاعتبار أن الانتاجية الحقيقية ليست من المصانع فقط، بل أيضا في ربط هذا الأسلوب الصناعي مع نوعية الحياة والمحافظة على الطبيعة والبيئة.. إذن، وحتى ولو كان عندنا مسؤولون أو شبه مسؤولين عن مشاكل البيئة في بلدان العالم الثالث، وعدد منهم يذهب الى اجتماعات دولية كالمؤتمر الكبير الذي يحضر من الآن.. وسينعقد في أمريكا اللاتينية (البرازيل 1992)..

لكنّ في الواقع ليست لنا متابعة، وليس لنا اهتمام كافي بهذا المشكل.. وأظن أن سؤالك حقيقي، وأنه لن يكون لنا أي اهتمام بهذا الموضوع إلا إذا اهتممنا بالشخص نفسه، فيصير الفرق بيننا وبين دول الشمال، بحيث أن الديمقراطية والحرية، وخصوصا حرية الرأي والنقد والتحليل والعلم والاجتهاد والتعددية والاختلاف في وجهات النظر، يؤدي بالمواطن كيفما كان ليصير نفسه جنديا يتجند للدفاع عن البيئة وعن بيئته الخاصة داخل نفسه وعن بيئته الأسروية، وعن قريته وبلاده، أو جوه وطقسه، فيصير له دور ليس للتعبير عن الرأي فقط ولكن أيضا بالمتابعة والانتخابات والأسئلة في البرلمان والمقالات في الصحف وحتى محاكمات أمام المحاكم.. لكن الانطلاق لكل هذا يرجع لحد أدنى ضروري من الديمقراطية باحترام التعددية وبناء ما يسمى بمجتمع مدني، وباحترام تام لحقوق الإنسان. ومشاكل البيئة أصبحت الآن من جملة الاهتمامات بحقوق الإنسان كما هي في ميدان التشريع على المستوى المدني والدولي..

• **الخضـــراء** : المغرب يقع بين بحرين.. إن المغرب بلد البحرين، والبحر الأبيض المتوسط ممر

دولي، وربما هو أكبر ممر دولي من حيث الملاحة البحرية.. وهذه الأيام تأتي الذكرى الأولى لانفجار الناقلة البترولية الإيرانية (خرج 5)، التي هددت الشواطئ المغربية.. نحن إذن في ممر دولي لبواخر عسكرية وسفن تحمل رؤوسا نووية.. فهل تستبعد أن يقع حادث من نوع (خرج 5)، لكن بشكل إشعاعي ذري؟ هل هذا مستبعد؟

المنجرة: ليس مستبعدا، وليس هناك أي شيء مستبعد في مجال الكوارث الطبيعية، وليس المقصود هنا المفهوم الطبيعي فقط، بل أيضا ما سينتج عن سلبيات تسيير وتخطيط وسياسة واستراتيجية.. ليس لنا حتى السلطة الحقيقية في بلدان العالم الثالث على بيئتنا حتى من الناحية الشرعية، سواء تعلق الأمر بالجو أو الشاطئ أو البحار.. وهذه المشاكل لا يمكن حلها بين دولة ودولة.. إنها من ميادين الاندماج الاقتصادي والاجتماعي.. فعندما نتكلم عن المغرب الكبير يجوز أن تكون هذه أول نقطة يجب أن نبحثها.. فبدون خطة وبدون استراتيجية وسياسة متكاملة بين مجموعة من الدول أو مجموعة اقتصادية كبيرة في العالم الثالث لا يمكن أن نواجه هذه المشاكل وخصوصا منها الجانب السياسي.. ففي العالم العربي، وباستثناء بلدان قليلة، لم نتصرف فقط في مشاكلنا حتى اليومية.. وهنا أظن أن ما يجري في دول الخليج برهان كبير على هذا وهناك نوع من النفاق التام، بحيث أن دولة مثل الولايات المتحدة، وبمساندة فرنسا وبريطانيا ودول أخرى، تتكلم عن أسلوب جديد ونظام عالمي جديد.. وفي الواقع هذا النظام الجديد ليس سوى هيمنة جديدة تامة كاملة أكبر مما عرفناه حتى في وقت الاستعمار، لأن مصيرنا نفسه أصبح في أيدي هذه الدول التي تتحكم يوميا بطريقة لا علاقة لها بمصالحنا..

- **الخضـــراء** : والنظام الجديد، سواء كان اقتصاديا أو سياسيا يشترط إنسانا جديدا.. وبصراحة هل أنت راض على الإنسان المعاصر؟ هل يشكل نموذجا للإنسان الذي كان يجب أن يكون؟

– المنجرة: كمؤمن، لي ثقة تامة في كل ما خلق الله على هذه الأرض من نبات وحيوان، وثقة في الكرة الأرضية نفسها، وفي الكون والأشخاص.. ولا يمكن إلا أن أتفاءل وأن أومن أن في وقت قريب سنرى تغييرات جذرية لكي يكون هذا الإيمان، بقطع النظر عن لون الإنسان ودينه وجنسه، بأن للإنسان مستقبلا.. ولكن، ولكي يتحقق هذا الأمل، هناك عراقيل في الطريقة.. فكيف يمكن أن يكون لي أمل بخصوص العالم الثالث في وقت نجد أن 60٪ من سكان العالم الثالث أميون.. هذا أول مشكل في ملف التلوث، وهو الجهل.. وليس الجهل فقط، بل استغلال هذا الجهل وممارسة هذا الجهل لأغراض سياسية من طرف مسؤولين حكوميين داخل بلدان العالم الثالث. لأن محو الأمية أصبح أمرا بسيطا يمكن تحقيقه خلال 6 سنوات.. وأظن هذه أول مرحلة يجب أن نتغلب عليها إذا أردنا نوعا جديدا من التنمية ونوعا جديدا من الإنسانية، وإذن : نوعا من الحد الأدنى للعدالة الاجتماعية..

فهذه الفوارق الشاسعة في العالم الثالث هي أكبر تلوث.. والتلوث الخلقي مبني عليه عدة أشياء من

ناحية القيم والمادة والمعاملة الإنسانية بين الناس ومدى احترام كرامة الأشخاص.. هذه كلها مشاكل مرتبطة ببعضها البعض، ولا يمكن أن نواجهها من زاوية واحدة دون أن نفهم ما هي علاقتها بالمشاكل الأخرى.. لكن، هذا الإيمان يجعلني أقول، إني راض بما سيكون عليه الإنسان في المستقبل.. فإذا لم يكن هناك مستقبل، لماذا يهتم الإنسان بالمستقبل..والدراسات المستقبلية جعلتني أعي كل الوعي المشاكل الراهنة، على الأمد القصير أي الأربع أو الخمس سنوات القادمة.. خلال هذه الفترة بالذات أنا متشائم، وهو تشاؤم كبير لا حد له، ولكن هذا التشاؤم في الواقع هو أساس التفاؤل بالتغييرات الكبيرة التي ستأتي.

السؤال الوحيد : ما هو الثمن الذي سوف نؤدي على هذا التغيير؟ إذا بدأنا من اليوم في تغييرات أساسية سيكون الثمن نسبيا ضعيفا.. لكن كلما تأخرنا يوما جديدا في طريق التغيير والتجديد وتحسين وضعية الإنسان واحترام كرامته، كان التأخر مثل الربا، الذي سنؤدي عليه ثمنا أكبر، وذلك حسب مدة التأخر، سواء على المستوى الإنساني بالمفهوم الضيق أو على مستوى الحياة بمفهومها الشامل حول الكون والكرة الأرضية.

• **الخضـــراء :**

الأهداف الحضارية للشمال مزعجة لأقصى الحدود، لأنها تخفي نوايا سيئة.. ونحن كبلد في منطقة استراتيجية عالميا، هدف لهذه الطموحات والأطماع.. وتحليلك ينقلني في هذه اللحظة الى حادث لا أنساه طول حياتي.. إنك تذكرني بأيام إذاعة ميدي 1.. فيوم 20 مارس المنصرم جمع المدير العام Pierre Casalta الصحافيين المغاربة، ثم قال: C'est moi qui fait la loi، وسكت الصحافيون المغاربة كلهم إلا عبد ربه هذا.. فقد رددت عليه : «إذا كنت تصنع القانون فاتركنا نخدم بلدنا " Permettez nous de servir notre pays وكان رده أن فصلني فورا من العمل.. وقع هذا منذ ما يقارب العام، وما زال الفرنسي «يصنع القانون»..

-المنجرة : معك الحق، لأن : C'est moi qui fait la loi وهذا المجال الإعلامي هو أكبر وسيلة في أيديهم ويستغلونها.. فهيا لنرى هل هي الصدفة أنه في الوقت الذي نعيش هذه الأزمة، نجد في بلاد مثل تونس، هذه المحاربة تتم ضد كل واحد على أساس دينه، وعلى أساس عقيدته.. ويقال إن حوالي 200 مواطن زج بهم في السجون.. وعندنا في المغرب، وحسب الصحف، نرى السرعة التي تعمل بها المحاكم بدون متابعة القانون الحقيقي، بدون ممارسة دولة القانون، بدون أبحاث، بدون حق الدفاع.. ونرى السرعة التي يتم بها الحكم على أناس بسبع سنين سجنا.. ونرى.. ونرى.. ونرى.. لكن الواقع أن كل هذا سيكون رد فعله ضد هذه الهيمنة الغربية..

ولنا أشياء جديدة.. فالعراق قد وصلت الى درجة التكنولوجية والعلمية، بحيث تواجه الغرب.. وأنا أقول إن ما تعيشه العراق مع الغرب هذه الأيام، هو مثلما عاشت اليابان مع روسيا في 1904.. ففي ذلك التاريخ ما كان يخطر بالبال أن شعبا من الشعوب غير «الشعب الأبيض»، وكانوا عند ذاك يتكلمون عن «الخطر الأصفر»، يمكن أن يخوض حربا، ولكن النتيجة أن اليابان انتصرت في هذه الحرب، ونحن اليوم نعيش نفس الفترة اليابانية، ولنا أرقام وإحصاءات.. فالغرب يخشى الديموقراطية، فهم لا يمثلون سوى 20٪ من سكان العالم ولهم هيمنة على أكثر من 80٪ من المنتوجات العالمية ومن الأموال وكل ما يباع فوق الكرة الأرضية.. وهذا لا يمكن أن يبقى مع الزمن.. وزيادة على ذلك عندهم مشاكل متعلقة بالبيئة، ومشاكل تتعلق بالديمغرافية، وهي الشيخوخة في سكانهم والانخفاض في الولادات.. فالمجموعة الغربية التي دخلت في مرحلة الدفاع عن نفسها وتحس بخطر وتخوف، إذا لم تغير سياستها بسرعة فستجد نفسها في ظروف تتغير تغيرا تاما..

وغير ممكن أن نتوقع أنه بعد سنين سيمكن لفئة قليلة صغيرة أن تبقى في هيمنتها على العالم.. وهناك عنصر ثان ومهم جدا وهو أن من بين التحولات الكبرى التي سيعيشها العالم في مدخل القرن 21، والدراسات موجودة بهذا الخصوص، هو أن عدد مستوى الحاصلين على درجة أكثر من الدكتوراه، والذين أصلهم من العالم الثالث، سيكون أكثر من 55٪.. وإذن، لأول مرة منذ قرون سنجد أن الهيمنة الحقيقية العلمية الناتجة عن الدراسة والبحث ستكون في أيدي أشخاص من العالم الثالث، ولو أن جزءا مهما منهم سيعيش وسيبقى في الدول الغربية، لأنه لا خيار له نظرا لعدم الاهتمام بالبحث العلمي، وعدم الاهتمام بالتكوين، وعدم الاهتمام بالتربية في بلدان العالم الثالث.. وإذن هناك تحولات أساسية.. وهناك عنصر آخر هو أن الشيء الجديد الذي نراه في العالم الثالث هو التغيرات التي بدأت وستتطور بسرعة كبيرة في إفريقيا وآسيا وغيرهما..

وقد كانت أكبر عرقلة في العالم الثالث هي : الخوف : والآن نرى يوميا في جميع أنحاء العالم الثالث أن الناس قد أخذت الأمور بيديها، وأنها قد صارت الآن تهاجم الخوف نفسه، ولا يمكن لهذه الهيمنة الحضارية أن تواجه هذا.. وزيادة على ذلك هنالك تيارات جديدة لها نجاح كبير في جميع الأوساط، لأن لها علاقة مباشرة بالقيم التي نعيش فيها.. وأظن أن مسألة القيم هي المحور الذي سنرى كل التطورات تحوم فيه خلال المستقبل القريب.. وطبعا أمامنا أيام صعبة جدا، وممكن أن تؤدي ثمنها.. فممكن أن يحدث التلوث الذري أو الكيماوي وغيرهما، لكن المسألة أصبحت مصيرية.. المهم هو أن نفهم أنه غير ممكن أن يكون القرن المقبل قرن الهيمنة الغربية.. أقول إن القرن 21 سيكون قرن التعددية، وليست التعددية السياسية فقط بل التعددية الحضارية وبالخصوص منها الثقافية.. وسنحرر أنفسنا من هذه الهيمنة التي تبدأ ـ كما قلت أنت بنفسك ـ من الهيمنة الإعلامية.

أجرى الحوار : أحمد إفزارن
جريدة الخضراء (طنجة)
الجمعة 4 يناير 1990 ـ العدد 32
الجمعة 11 يناير 1991 ـ العدد 33

الحرب التي بدأت ولن تنتهي (×)

في البداية لا بد لي من أن أحيي صمود شعب العراق ضد العدوان الامريكي والغربي الذي يقود هذه الحرب المدمرة وغير العادلة واللامتكافئة.

فهي حرب عسكرية وإعلامية ونفسية. فالعراق اليوم وحده يواجه 31 دولة (بما في ذلك إسرائيل وتركيا)، مجموع سكانها 1200 مليون نسمة مقابل 18 مليون نسمة من السكان في العراق، والمدخول القومي لمجموع هذه الدول حسب تقارير 1978 للبنك العالمي يقدر بـ 9300 مليار دولار مقابل 50 مليار دولار أمريكي كمجموع الدخل القومي العراقي، مما يعني أن نسبة الفارق بين عدد سكان العراق وعدد سكان الدول التي تتحالف ضده تصل إلى ما بين 1 و 75 مقابل نسبة ما بين 1 و 210 بالنسبة للفارق ما بين مدخول العراق القومي ومدخول الدول المتحالفة ضده في هذا العدوان. ولعل ذلك ما يجعلني أعتبر كل دقيقة تمر من صمود العراق في حرب الخليج معجزة لم تشهد الانسانية مثيلا لها، خاصة إذا قمنا بتقييم مجموع الطلعات التي قام بها طيران التحالف ضد العراق خلال الأسبوع الأول من الحرب والتي تقدر بـ 10 آلاف عملية، قذفت خلالها على أرض العراق حوالي 100 الف طن من المتفجرات، أي ما يماثل خمس مرات من حجم القنبلة النووية «هيروشيما»، وهو ما يعني قذف ما معدله خمس كيلوغرام من المتفجرات على كل مواطن عراقي، إنها كارثة حضارية وإنسانية وبيئية.

والواقع أني أسف لكون كل توقعاتي التي تحدثت عنها منذ بداية الأزمة حدثت. وربما لأول مرة أجدني أتمنى لو كنت مخطئا بدل أن تكون الكارثة، ولا أعتقد أن دولة عمرها قرنين مثل الولايات المتحدة الامريكية تقدر معنى العراق كمهد لأقدم الحضارات البشرية فيما بين الرافدين أو طيلة 14 قرنا ماضية. فبغداد عمرها يتجاوز 13 قرنا، يعني اسمها المشتق من الفارسية: «هداية الله»، كما أن البصرة التي هي أكثر قدما كانت تسمى «الخريبة» وهي المكان الذي اختاره الصحابي عتبة بن غزوان بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لتأسيس مركز عسكري... إنهم يجهلون تراث المنطقة أو هم يتنكرون لكل الممتلكات الحضارية الانسانية هناك.

(×) 25 يناير 1991

ونحن بصدد الحديث عن حرب الخليج لا يجب اعتبار هذه الحرب جهوية إقليمية أو هي حرب بين الغرب اليهودي - المسيحي وبين الأمة الإسلامية فقط، بل هو صراع أيضا بين الشمال والجنوب، وهو صراع حضاري بين رغبة هيمنية للحضارة المسيحية اليهودية ضد كل الحضارات الأخرى العربية والمسيحية والآسيوية والافريقية وكل الحضارة المغايرة لحضارة الغرب.

لقد سبق لي أن قلت أن 2 غشت 1990 تؤرخ لدخول العالم إلى مرحلة ما بعد الاستعمار، أما 17 يناير 1991 فستظل وشما على ذاكرة كل الشعوب، كبداية لأول حرب عالمية حقيقية تختلف عما كنا نسميه من قبل حربا عالمية أولى أو ثانية، لأنهما كانتا حربان بين الدول الغربية فيما بينها، باستثناء بعض الدول الآسيوية مثل اليابان التي دخلت الحرب العالمية الثانية، أما هذه الحرب ففتيلها أخطر ولايمكن إيقافه بحل لمجلس الأمن أوحل دولي أو مؤتمر عالمي، كما حدث من قبل، بل هي حرب ستطول 10 أو 15 سنة تحت أشكال مختلفة ليست بالضرورة عسكرية وبوجه خاص في مطلع القرن 21 الذي يؤشر بتحديات كبرى غير سياسية ولا اقتصادية بدرجة أولى، وإنما هي تحديات حضارية تجعل المعركة تنصب من أجل الكرامة الانسانية والوجود الكريم لأكثر من 80٪ من البشرية التي تصنف اليوم تحت عنوان العالم الثالث، ولذلك ستكون المعركة القادمة معركة من أجل الدفاع عن التعددية الثقافية والقيم الانسانية ومعركة ضد أسطورة الغرب التي تدعي أن قيم الغرب وحدها هي الكونية.

إني كمحب للسلام مثل ملايين سكان هذه الأرض أتابع كل مبادرة لإيجاد حل سلمي سواء تلك التي تقدم بها قادة المغرب العربي أو غيرها. ولكني أعتقد أن تصريحات من عدة جهات غربية أوروبية وأمريكية لا تؤشر بالأمل : فقد نشرت جريدة هيرالد تريبيون في صفحتها الأولى من يوم 19 غشت 1990 مقالا يفيد أن خبراء إسرائيليين ينصحون البنتاغون بالتدخل السريع ضد العراق مخافة حدوث اضطرابات في أنظمة البلاد العربية، واعتبر هؤلاء الخبراء الاسرائيليون خروج وانسحاب العراق من الكويت سلميا بمثابة كارثة وكابوس يهدد مصالح أمريكا وإسرائيل، وهو ما ادّعوه بسيناريو الكابوس Scenario du cauchmar كماأنهم عبروا عن رعبهم من كابوس الدعوة الى مؤتمر دولي لمعالجة القضية الفلسطينية.

وفي 26 دجنبر في افتتاحية «نيويورك تايمز» يتكرر سيناريو الكابوس المرعب للغرب بتأكيد كاتب الافتتاحية على رعب المسؤولين الامريكيين من حل سلمي يحول دون تدمير القدرات العسكرية والتكنولوجية للعراق؛ ثم نجد أيضا في مقال لوليام سافاراي في هيرالد تريبيون ليوم 14 دجنبر المنصرم يتحدث فيه على عدم أهمية انسحاب الجيش العراقي من الكويت بقدر ما هو مهم الآن تدمير القدرات العسكرية للعراق،

ويضيف نفس المقال ان الولايات المتحدة الامريكية قد صرفت منذ أزيد من عشر سنوات ملايير الدولارات للقيام بهذا العمل، ولو تطلب الأمر تدمير المنطقة بقدرة من المتفجرات تضاعف ما استعمل في الحرب العالمية الثانية مائة مرة. ويضيف وليام سارفاري بأن وجود الجيش العراقي في الكويت هو مناسبة لهجوم جوي لتدمير قدراته ولتدمير مصادر الماء ويمكن أن يلعب عطش العراقيين دورا حينها لصالح ما هو مخطط له، خاصة إذا غيرنا المياه نحو تركيا».

إذن كيف يمكن القبول بخرافة الشرعية الدولية وهم كانوا يخططون لضرب العراق، واذكر هنا أننا نبهنا منذ ست سنوات قمنا بها أنا ومجموعة باحثين عرب إلى أنه في حالة استمرار نمط النمو المشوه واستمرار الممارسات غير الديمقراطية فإن المنطقة ستشهد خلال التسعينات زيادة الاختراق الخارجي، وتحرك الدول العظمى نحو تشجيع النزاعات القطرية. ولكل هذه الأسباب أعتقد أنه ما لم تتغير أسباب الحرب لن نأمل في حل قريب خلال الأيام أو الأسابيع المقبلة.

إن الخوف الذي يهيمن اليوم على دول الغرب والولايات التحدة الامريكية هو الذي جعل كلفة الحرب ما بين 50 مليار دولار و 90 مليار دولار، وأظن أنها ستكلف الغرب أزيد من 100 مليار دولار، دون الحديث عن الخسائر البشرية والمادية للعراق.

وإذا كانت كلفة حرب غراندا قد كلفت 78 مليون دولار، وحرب بنما كلفت 153 مليون دولار، فإن التكلفة الأخيرة لا تتجاوز تكلفة ثلاث ساعات من كلفة حرب الخليج، هذا رغم الميزانية العسكرية الامريكية المحددة من طرف الكونغريس بـ 300 مليار دولار، وما نلاحظه اليوم هو بداية إفلاس بعض دول المجلس الخليجي الذين بدأوا يبيعون بعض ودائعهم المالية بالخارج لأجل تمويل الحرب، والغرب يعمل على امتصاصهم وتفقيرهم لأنه مؤمن بأن الأمور ستتغير في المستقبل غير البعيد. وسنرى كيف أن السوق الأوربية المشتركة ستغير من سيرها، لأن أوربا ستضطر إلى العمل على التخلص من الهيمنة الامريكية. وأخيرا نلاحظ أن الأزمة الاقتصادية للولايات المتحدة الامريكية تتفاقم بشكل لا سابق له في تاريخها.

أما بالنسبة للمعركة التي تنتظرنا نحن، فهي من أجل الديمقراطية وبناء المجتمع المدني والعدالة الاجتماعية ومحاربة الآمية وخلق استثمارات كبرى على مستوى الثروة البشرية والبحث العلمي والتكنولوجي.

إن النظام العالمي الجديد يعرف وسيعرف هزات كبيرة خاصة بعد افتقاد هيئة الأمم المتحدة من أكثر من 75٪ من مشروعيتها ومصداقيتها، ولم يعد للأمين العام من خيار اليوم، بعد أن شل من جراء الضغوطات التي مورست عليه، إلا أن يقدم استقالته لأنه برهن على أنه رهينة للولايات المتحدة الامريكية التي لم تؤد بعد مجموع ديونها الى ميزانية الأمم المتحدة. ويتبين اليوم ان مستقبل منظمة الامم المتحدة أصبح مثل ما حدث لرابطة الدول La ligne nations خاصة وأن الأمم المتحدة كانت قد انطلقت من إعلان المبادئ الأساسية للميثاق الأطلنطي ليوم 14 غشت 1941، وهو إعلان لرئيس الجمهورية الامريكية روزفلت والوزير الأول تشرلتشر. ثم بعد ذلك كان هنالك إعلان من الأمم المتحدة وقع يوم فاتح يناير 1942.

أما اليونسكو فهي مضطرة اليوم الى تطبيق المعاهدة الدولية لحماية الممتلكات الثقافية في حالة النزاع المسلح (1954) وهو محك لمدى حفاظها هي أيضا على مصداقيتها وشرعيتها.

أما الجامعة العربية فقد برهنت هي الأخرى أنها توفيت، لأنه بالرغم من أن انطلاقة الجامعة العربية سابقة لانطلاق هيئة الآمم المتحدة في خطاب 29 ماي 1941 المعروف بخطاب «بمانشنماوس» لأنطوني أيدن الذي دعى إلى ضرورة خلق جامعة عربية، وتبنى هذه الدعوة باشا نحاس والذي يعلم الجميع ارتباطاته مع الاستعمار الفرنسي، فنلاحظ كيف أن الجامعة العربية تعود إلى الإرادة التي حاول الغرب أن يرسمها لها ولذلك شلت وماتت.

قبل أن أنطلق الى متغيرات الوضع في المغرب العربي في ظل ما يجري اليوم على مستوى النظام العالمي الجديد، لابد من أن أشير الى بداية يقظة للوعي الاسلامي ليس بالأقطار العربية فحسب، ولكن أيضا لدى الأقليات كما هو الشأن اليوم في الاتحاد السوفياتي، بعد تحلل نظامه القديم، وتحرك الجمهوريات الاسلامية التي يتعدى عدد سكانها 90 مليون ساكن.

على الصعيد الجهوي بالمغرب العربي، عبرت عدة مرات وحتى خلال مقابلتي مع الرئيس الجزائري الشاذلي بنجديد عن تخوفاتي عن مستقبل المغرب العربي، نظرا للطريقة التي يمارس بها أعماله، وعن عدم وجود رؤيا منسجمة ما بين المسؤولين في البلدان الخمسة التي يعنيها أمر هذه الوحدة. وللأسف برهنت أحداث حرب الخليج، ولو بعد اتفاقهم عن مبادرة على مستوى مجلس الأمن، على أنه ليس هنالك موقف موحد بين الحكومات الخمس. وهنا أستغرب لانعدام الذاكرة وأستغرب لماذا لم تقم أية دولة بمبادرة لدى الآمم المتحدة تنطلق من قرار لهيئة الآمم المتحدة يتعلق بالحرب الكورية، حين كان مجلس الأمن غير قادر على اتخاذ قرارات خلال ذلك الوقت، فتقدم الوفد الامريكي بحركة دبلوماسية أدت إلى موافقة الجمع العام

المثقفين الشرفاء للقراءة أكثر والكتابة أكثر مساهمة منهم في التوعية؛ ويجب علينا جميعا حفظ حرب الخليج في الذاكرة حتى لا نخدع مرة أخرى، يجب أن نحفظ في الذاكرة ما يقوله اليوم الغرب في صحفه وكتبه عنا، ويجب أن نذكر عدد المثقفين الجبناء الذين يكتبون في صحف الغرب كلاما ضد أمتنا وهويتنا وقضايانا. وأظن أن النضال من أجل الديمقراطية رهان المستقبل العربي ولا أعتقد أنها صدفة أن تجتمع ثلاثة دول عربية تحمست أكثر ضد العدوان الغربي (الجزائر، الأردن، واليمن) لأنها هي الدول التي بدأت مسيرة ديمقراطية حقيقية، ولعل ذلك هو ما يرعب الغرب في المستقبل. أذكر أن «أوريليو بيتشي» الذي كان رئيسا لنادي روما، قال وهو على فراش الموت أن أهم ما يخشاه اليوم عن مستقبل العالم هو مشكل النظام العالمي المنحل الآن. وأظن أن ذلك حدث فعلا بعد 2 غشت، غير أن توقعاتي بخصوص ما بعد هذه الحرب تنطلق من الغايات الحقيقية لهذا الغزو اليهودي المسيحي على المنطقة العربية بهدف تدمير مقومات العراق، وأعتقد أن الحرب إذا طالت إلى أسبوعين آخرين، لا أظن أنه ممكن لدول عربية منحازة للغرب مثل حكومات سوريا ومصر مواجهة رأيها العام.

أما إذا انتشرت الحرب البرية فأظن أن كل المؤشرات تفيد بأن انقسامات واسعة ستحدث داخل جيوش البلدان الموجودة بالخليج الآن. وخلال هذه المدة لا أتوقع أن تبقى الأردن خارجة عن الحرب كما أن تدخل الجيش الايراني الآن أصبح متوقعا. وإذا تحركت إيران عسكريا ستتبعها باكستان، أفغانستان وحتى بعض الجمهوريات في الاتحاد السوفياتي.

وأود أن أختم بقوله تعالى «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكفي بريك أنه على كل شيء شهيد».

(الرباط في 25 يناير 1991)

- "العلم"، 28 يناير 1991

- "الخبر"، 29 يناير 1991

-"الشعب"، الجزائر، 21 يناير 1991.

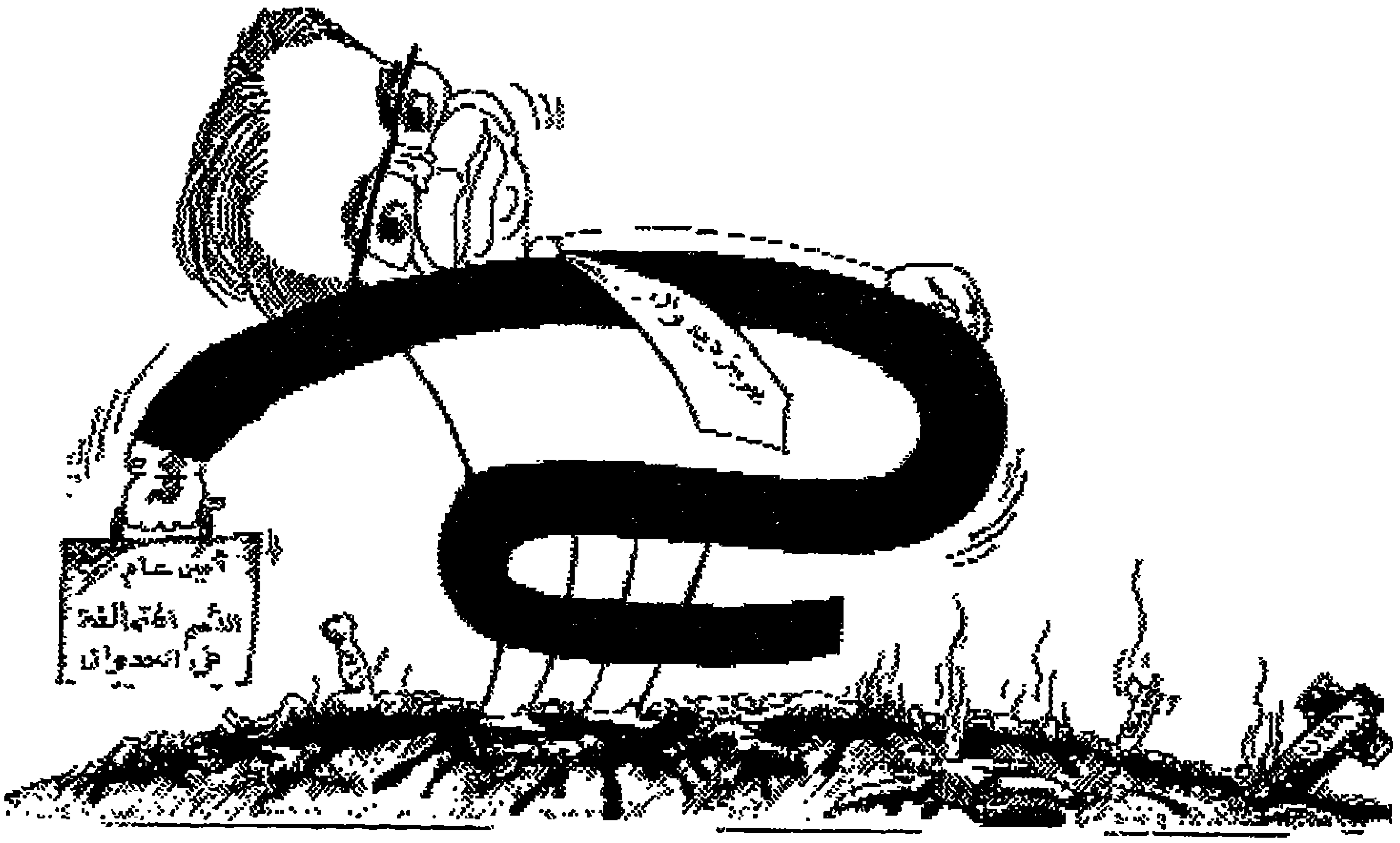
أمين عام
الأمم المتحدة

الوجه البشع للنظام العالمي الجديد

«النظام العالمي الجديد» بين للجميع أنه مسخرة ومهزلة.. وإن ما يؤلمني كإنسان اشتغل تقريبا 20 سنة كموظف دولي، له مسؤولية أن أقرأ مثل ما قرأت في مجلة إيطالية هي Pauorame أن الامين العام يتكلم عن أن هذه حرب شرعية..

وكون أمين عام الامم المتحدة، وهي منظمة أساسها ومقاصدها هي الدفاع عن السلام، يستعمل عبارة «شرعية» عن مفهوم الحرب، فهذا كلام ما كان يُتصوّر في بال أي واحد من الناس الذين وافقوا على ميثاق الأمم المتحدة بسان فرانسيسكو عام 1945.

لكن نفس هذا الأمين العام قال : إن هذه ليست حرب الآمم المتحدة..

وما كنت أترجى منه هذا لما كتبت إليه يوم فاتح يناير.. كنت اترجى أن يقول ما هو الواقع..

ولو نطق بهذه الألفاظ قبل 15 يناير وكانت له الشجاعة الخلقية المهنية، لتفهم الناس أن ليس هناك مشروعية حقيقية لانطلاق هذه الحرب..

لكن للأسف..

ومن تصريحه تفهم الضغوط التي يحس بها وتمارس عليه..

وهكذا ختم استجوابه وقال : «أنا ما بقي لي دور، وسآخذ تقاعدي في آخر السنة..»

وهذا ما دفعني في برامج إذاعية بالجزائر وتونس وغيرهما أن أقول له وأكررها : "لو كنت مكانه... ولو كانت له كرامة وكان له ضمير يجعله يحس بمسؤوليته عما حصل، نظرا لعدم تدخله وعدم استنكاره لعدم احترام ميثاق الأمم المتحدة لما رأينا عشرات الآلاف من القتلى.. وهذه مسؤولية كبيرة على الضمير.. فأقل شيء كان يمكن أن يفعل هو على الأقل أن يقدم استقالته..

أما هذا «النظام العالمي الجديد» فقد برهن أنه مسخرة وليس هناك أحد يؤمن به.. لكن هذا لا يمنع

(×) 30 يناير 1991

أن ما أخشاه هو ما بعد الحرب..

وأية حرب؟

هنالك مرحلة عسكرية بدأت يوم 17 يناير.. وهذا اندلاع حرب عالمية حقيقية.. وحرب ستدوم ما بين 15 الى 20 سنة بعدة وسائل، وليس بالوسائل العسكرية فقط، لأن الغرب لم تبق له أية مصداقية لدى الجنوب..

-وما نجحنا فيه والحمد لله هو أن حتى بعض المثقفين الذين كنت دائما أسميهم ليس فقط (حزب فرنسا)، بل (حزب الغرب)، منهم من كان بنية حسنة، يؤمن بهذا التعاون الدولي وهذه القيم العالمية الخاصة بحقوق الانسان والسلام والديمقراطية، يفهم الآن أن الغرب لم يقبل أن نفس المبادئ تطبق على منطقة أخرى غير منطقته..

والناس بدأت تدرك الهيمنة وتفهم الخطر الكبير الذي هو خطر الهيمنة الحضارية والاستعمار الحضاري..

لكن بعد كل هذا، أنا متخوف أن بعد المرحلة الأولى العسكرية، سواء دامت شهورا أو أكثر أو أقل، هناك مخطط موجود من الآن لتفتيت وتفكيك العالم العربي وأن حتى بعض الدول مثل فرنسا وغيرها التي دخلت في الحرب، وقد قالوها بصراحة.. قالوا إنهم دخلوا لكي يكونوا حاضرين عندما تكون مائدة النقاش حول السلام، وهي المائدة التي سيأخذ فيها كل واحد حقه.. فتركيا تأخذ طرفا من العراق، وسوريا لها طموح، وجميع الدول الغربية لها أنواع من الطموحات في هذه المنطقة..

لكن يجب أن تكون لنا رؤية مستقبلية.. فهناك الأمد القصير، وهناك بعض الأسباب ستتحقق، لكن هناك شيئا وهو أنه لايمكن أن نرجع للوراء وأن العالم الذي نعيش فيه اليوم ليس هو العالم الذي كان قبل 17 يناير.. وسوف نرى تطورات إيجابية داخل العالم الثالث، وخصوصا فيما يتعلق بالمسيرة الديمقراطية والاهتمام بالبحث العلمي والاهتمام ببناء مجتمع مدني..

وسنؤدي ثمنا عن كل هذا، ليس في العراق فقط، بل في بقية العالم الثالث، ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار أننا دخلنا في مرحلة ستدوم 15 إلى 20 سنة..

وفيما يخصني أنا مرتاح على الأجيال المقبلة، ولكن كل شيء له ثمن بالنسبة للمجهود الذي يجب أن ندفعه للمستقبل، وهو نوع من الصمود وأيضا أن تبقى لنا ذاكرة جماعية.. فلا ننسى المقالات المكتوبة في الصحافة الغربية، ولا ننسى ما يُنشر في الصحف الغربية يوميا.. وللأسف، البعض منها مثل Le Figaro و تطبع في الدار البيضاء، لدرجة أنني عندما قرأت أمس(*) في France soir (مقالا افتتاحيا أرسلت رسالة، وجددت اقتراحا سبق أن تقدمت به في مدريد يوم 19 ديسمبر 1989، يوم

كان اجتماع لاكاديمية المملكة المغربية.. وفي ذلك الوقت قلت إذا كانت هناك جدية في اتحاد المغرب العربي، أنا أنتظر شيئا هو إنشاء صندوق خاص بمساعدة العمال المهاجرين في أوربا حتى إذا أرادوا أن يرجعوا إلى بلدانهم يجدون مساعدة لهم..

وأخر الأرقام لهذا الاستفتاء الذي كان في Le Figaro يقول أن 73٪ من المسلمين في فرنسا متخوفون من أنهم لن يجدوا شغلا، وأن 57٪ منهم يخشون حتى على أمنهم ويفكرون في الرجوع إلى بلدانهم..

وهذا نوع من النداء الى المسؤولين في اتحاد المغرب العربي ليبرهنوا أنهم يهتمون بمواطنيهم الذين يواجهون نوعا من العنصرية لم يسبق لها مثيل، وخطرا حتى على أمنهم الحقيقي في هذه البلدان الأوربية خلال مدة الحرب..

نشرت بجريدة «الخضراء»
- طنجة - 8 فبراير 1991

مسلمو فرنسا وحرب الخليج

مهما تكن الاستنتاجات التي استخلصها محلل جريدة «الفيغارو» (FIGARO) من الاستبيان الذي نشرته الجريدة يوم الثلاثاء 29 جانفي 1991 بعنوان : «الهزيمة الأولى»، وتبدأ الافتتاحية بالجملة التالية : «هذا، دون شك، أول نبأ جديد وحيد فعلا... منذ بداية الحرب».. ويقدم هذا الاستبيان الرقمان التاليان :

1 ـ 73 ٪من المسلمين المهاجرين في فرنسا يشكون من كونهم سيتعرضون إلى مصاعب كثيرة في الحصول على شغل بسبب الحرب.

2 ـ 75٪ ينتظرون عملية طرد جماعي للمهاجرين (الفيغارو، الصفحة١، 29 جانفي 1991).

وباعتبار أن الوقت ليس مناسبا للانتصارية الفجة، فإني اعتقد أن حكومات البلدان الخمس الأعضاء في اتحاد المغرب العربي يجب أن ينسقوا فيما بينهم من أجل ضبط إحصاء دقيق للمغاربة الذين يعيشون في فرنسا وفي غيرها من البلدان المنخرطة في الحرب والخلاف العسكري، وتبعا لذلك يجب ضبط معايير موحدة من أجل تيسير عملية إدماج المهاجرين الذين يرغبون في العودة الى بلدانهم للاستقرار بها، ومن أجل هذه الغاية يجب بعث صندوق العودة الذي يمكن أن يمول من خلال قرض تضامني..

هذا المقترح كنت قد تقدمت به أثناء اجتماع الاكاديمية الملكية يوم 12 ديسمبر 1989.. ذلك أن الدراسات المستقبلية قبل مدة من اندلاع الحرب في الخليج تشير إلى تصاعد كبير للعنصرية والتمييز ضد المسلمين العرب والافارقة.

ويتضمن هذا المقترح الذي نشرته الاكاديمية الملكية للمغرب فقرتان أقول فيهما : «في اليوم الذي نتوصل فيه إلى إعطاء أهمية كبيرة لمواطنينا وذواتنا الانسانية. سيعرف اقتراحي البسيط جدا والذي يكتسب درجة كبيرة من الجدية، طريقة نحو الدراسة والتطبيق.. ومقترحي يتمثل في اتحاد المغرب العربي، وأهتم هنا أساسا بالمغرب، وسأقول لكم : «هل تعرفون أين أجد المغرب؟ المغرب أجده في مطار «أورلي ٌعجي» من حينما تصل الطائرة :)780 يعش(من الدار البيضاء وتصل الطائرة من الجزائر ومن تونس في نفس الساعة، وبالنسبة لعون الديوانة والشرطي الفرنسي فإنه لا يفرق بين «المغربي» والجزائري والتونسي. وحينما ننتقل بالمترو أو الحافلة في أي مكان بأوربا أجد أن اتحاد المغرب موجود فعلا مسبقا.. ولكنه عندنا

لم يوجد بعد.. واقتراحي هو أن اتحاد المغرب العربي يبادر ببعث صندوق العودة للمهاجرين المغاربيين بالخارج هنالك الآن مليون و 500 الف مغاربي مهاجر وحسب معدل العائلة يصلون الى 400.000 مسكن.. لنفترض أن 200.000 من بينهم يريدون البقاء في أوربا، إذ لا يجب الضغط من أجل العودة. ثم انه ليس على فرنسا أن تعطي منح العودة للمهاجرين، بل يجب على البلدان التي صدرتهم كثروات بشرية قد يشبهونها بالأغنام والطماطم واللفت السكري يجب على هذه البلدان أن تعرف قيمتهم الانسانية وتهبهم هي منحة العودة.. سيكون لنا بهذه الطريقة 200.000 عائلة للعودة... وعلى هذا العدد يمكن خلق مواطن شغل وتوفيرها لنصف هذا العدد على الأقل على امتداد البلدان المغربية، أي 100.000، ويبقى النصف الذين يجب أن نضمن لهم ما يقابل 5000 دولار في السنة. مما يعني 500 مليون دولار.. و 500 مليون دولار بالنسبة للمغرب العربي تعني 0.6 أو 5٪ من الانتاج القومي الخام.. ولا تمثل هذه سوى 1٪ من ديوننا..

وهذا يمكن تمويله بسهولة من خلال قرض تضامني.

"حقائق" - العدد 284 **من** 1 **الى** 7 **فيفري** 1991
و"لوماتان" (31 **يناير** 1991) Le Matin

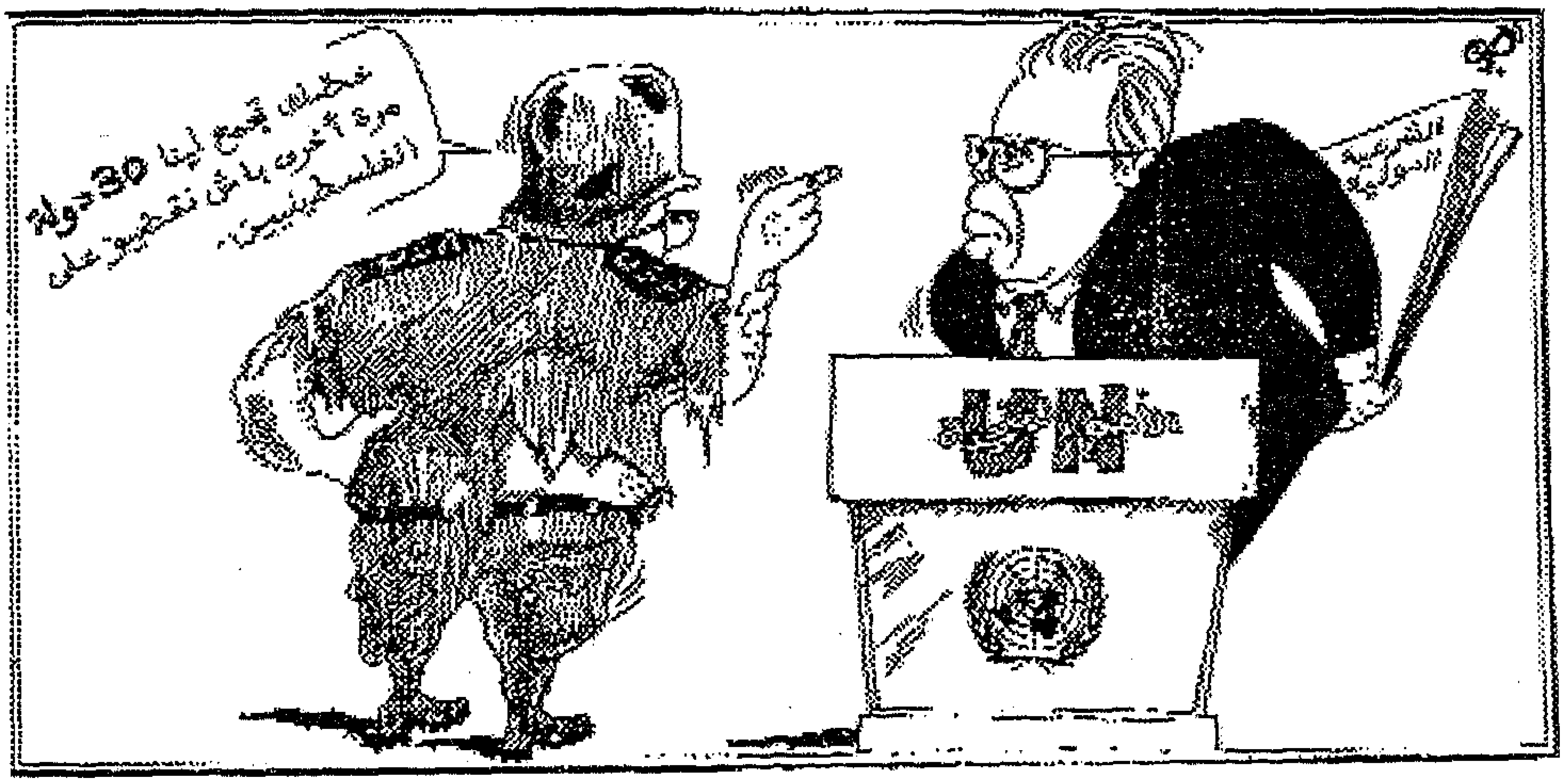

ماذا بعد أسبوعين من القتال؟ (*)

الآن، وبعد مرور أكثر من أسبوعين على هذه الحرب، لا يمكن للإنسان أن يقول أي شيء سوى أن يحيي صمود الشعب العراقي والتضحيات التي يبذلها. فرغم أن الارقام منعدمة، فإنه من غير الممكن أن الشعب الذي نزلت عليه أكثر مما يساوي خمسة عشر قنبلة هيروشيما الذرية اليابانية لا تكون فيه عشرات الآلاف من الضحايا خاصة مدنيين من أطفال ونساء وشيوخ.

وهذا شيء يؤلم كثيرا في أواخر القرن العشرين.

أما التحليل بعد مرور أكثرمن أسبوعين فيمكن القيام به على عدة مستويات. هناك معجزة.. فشعب متكون من 17 مليون نسمة، بمدخول قومي لا يساوي واحدا من ثلاثين دولة تحاربه في هذه الساعة بآخر تكنولوجيا موجودة وبتعاون مكثف من قبل جميع الأطراف الغربية، مازال مواجها لهذه القوة العظمى خلال هذه المدة فكل دقيقة تمر إلا وهي في حد ذاتها معجزة، بالنظر للتطورات التي تحصل في العالم، تزيد أكثر فأكثر سواء في العالم الثالث أو حتى في الغرب وفي الولايات المتحدة نفسها، وفي أوربا حيث نزل على الغرب خوف شديد.

والآن يمكن أن نقول إن المرحلة الأولى هي نصر كبير للشعب العراقي الذي يحارب سائر الغرب، وفي نفس الوقت دولا عربية ومسلمة، وهذا ما يؤلم، لكن المرحلة الأولى وبكل موضوعية، حققت لشعب العراق نجاحا لم يكن يتصوره الغرب وما كان يحلم به لا العالم العربي ولا العالم الاسلامي ولا العالم الثالث.

إذن هذا نجاح!!!

لكن مع هذا النجاح يجب أن لا ننسى أن هناك شعبا واحدا أدى الثمن الكبير..

وهناك أيضا الفلسطينيون الذين يواجهون هجوما داخليا ينفذه الجيش الاسرائيلي..

طبعا هناك عوامل استراتيجية وعسكرية وغيرها.. وأظن أننا سنرى أن العراق هي التي تفرض الآن استراتيجيتها، حيث أن الحرب البرية قد بدأت.. أيضا ستكون تضحيات العراق بشأنها تضحيات كبيرة، ولكن سيكون كذلك في الجانب الآخر أي في الجيوش المعادية، أموات كثيرون وسيحدث انفعال داخل الغرب وبالخصوص داخل الولايات المتحدة، وهذا سيكون أكثرمن حرب فيتنام بالنسبة للرأي العام الامريكي

(*) 1 فبراير 1991

والرأي العام الغربي..

وأعتقد أننا سنرى خلال العشرة أيام القادمة الحرب الحقيقية.. وسنرى الهجوم الغربي على هذه الدولة وعلى المنطقة العربية، وهو هجوم لم يسبقه مثيل في التاريخ الاسلامي..

وإنني لعلى يقين أننا سنرى تغيرات لم تكن تخطر على بال وما كان يمكن تصورها منذ 10 الى 15 سنة الماضية، التغيرات ستكون داخل البلدان العربية.

وفي مصر بدأ الرأي العام يتحرك وسمعت أن جامعة (عين شمس) طالب جميع طلبتها بانسحاب القوات المصرية.

وأتوقع نفس التغير في سوريا، وحتى في تركيا التي تعد عضوا من أعضاء "الناتو". ولا يمكن إذا تواصلت الحرب إلا تدخل إيران بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. وبالمناسبة أقترح أن يكون يوم 8 فبراير يوما للاحتفال.. ولماذا؟ إن هذا التاريخ كان بداية الحرب الروسية اليابانية عام 1904، عندها لم يكن يتصور أن دولة غيرغربية يمكن أن تنتصر؛ ومع ذلك كان النصر حليف اليابان. وإن مصير العالم الثالث سيكون الآن نفس المصير.. إن العالم الثالث سوف ينتصر على الهيمنة الغربية.. ولكن يجب ألا ننسى معايير الانتصار.. فالانتصار الحقيقي يكمن في الأهداف التي يتوخاها كل طرف.. فالغرب يسعى للهيمنة، والعالم الثالث يسعى للدفاع عن كرامة الانسان..

وكرامة الانسان هي المنتصرة، وهذه مرحلة أولى في طريق الانتصار حتى ولو وقعت هزيمة عسكرية.. مرحلة ليست هي امتحاننا الوحيد وعلى المدى البعيد سيتحقق النصر.. سينتصر العالم الثالث على الهيمنة الغربية.

إننا نقترب من شهر رمضان شهر المحبة والاخوة والسلام، فكيف لمسلم أن يحارب في الأرض المقدسة مؤمنين آخرين.

وأقولها وأنفجر.. فلا يسمح لجهاز إعلامي في هذه البلاد وفي الظروف التي عاشرت الآلاف من الناس عربا ومسلمين، أن يقوم بهذه الحملة بالنسبة للرأي العام المغربي الذي يبرهن عن مدى تعاطفه الانساني مع شعب يهتك من طرف قوات غربية..

لم يسبق لي أن تكلمت بهذه الطريقة لكنني أتبع الاعلام العالمي ولا أفهم إلى أي حد الآن ما هو هذا الموقف فعلى الأقل يمكن أن نساعد حتى بموقف فيه نوع من الحياد لابموقف يساعد إعلاميا الغرب في هذه الظروف.

وإنني أقولها اليوم...

وأقولها كمدير إذاعة سابقا: إن ألمي عظيم.. عظيم.. بالنسبة.. بالنسبة للإعلام الرسمي بما فيه إذاعة ميدي 1، التي يترأس مجلسها الإداري عضو من الحكومة؛ وأنا متخوف من رد فعل من نوع استخدام أسلحة شبه نووية من طرف الغرب أو إسرائيل وأنا متيقين أن العراق لن تكون الدولة الأولى التي ستستعمل مثل هذه الأسلحة؛ ولهذا يجب على الرأي العام العالمي وخاصة في العالم العربي أن يكون واعيا وكل واحد في موقعه ومكانه بأن هذا هو وقت الجهاد الحقيقي بمفهومه العلمي والحضاري والصحافي، ومن الآن بدأت السعودية تجلب الكيروزين لأن عدد خرجات المقاتلات أدى إلى استهلاك لايتصور من الطاقة وهناك عدة أشياء تتغير، وحتى الآن وبالنظر لما حصل ولو أن عدد الأموات في العراق لا شك أنه يقدر بأعداد كبيرة بالنسبة للقوات الغربية، ولكنها هي في الحقيقة هزيمة للغرب كقيم وكثقافة وكنفسية؛ وقد قدر الله أن في الخليج حصلت هذه الأزمة البيئية النفطية الخطيرة، وإذا عرفنا أن السعودية تستقي من البحر نسبة هامة من مياه الشرب، يمكن أن ينقلب الوضع بحيث قد نرى هذه الجيوش العربية الموجودة في السعودية وهي تعاني مشكل التزود بالماء، وهناك أيضا أمر آخر و"الخضراء" أسبوعية بيئية، وهو المتعلق بهذا الجانب البيئوي..

إن هناك كاتبا امريكيا اسمه "وليم صفير"، وهو البوق الصهيوني في افتتاحيات Herald tribune، ويوم 14 ديسمبر كان هو من اقترح أنه يلزم على الولايات المتحدة أن تدخل بقوتها الجوية وأن بإمكانها في ظرف شهر أن تحطم العراق برمته، وكذلك الكويت كله، كما تحطم بصفة أخص مخازن الماء وأن تحرف مجرى الماء من العراق الى تركيا. وقال بالحرف : أحسن معاون لنا ضد العراق سيكون هو العطش... العطش لدى الجيش العراقي.

«الخضـــــراء»، الجمعة 1 فبراير 1991

سيناريو الكابوس : سيناريو السلام (X)

س : لقد قيل الكثير عن حرب الخليج وطبيعتها، وقد وصفها البعض بالحرب الصليبية الجديدة، فما هو تصوركم لطبيعة هذه الحرب (شمال - جنوب؛ إسلام - مسيحية؛ أم هي بين رجلين صدام وبوش)؟

ج : منذ يوم 12 سبتمبر أي قبل الحرب قلت أنها بداية حقيقية لمواجهة بين الشمال والجنوب، حتى قبل أن نتكلم عن حرب صليبية.

إن حرب الخليج أكثر من حرب صليبية أنا في اعتقادي ومنذ بداية 17 جانفي دخلنا في أول حرب عالمية حقيقية وهي ستدوم على الأقل 15 أو 20 أو 25 سنة، لأن أهدافها الحقيقية ليست عسكرية أو سياسية أو اقتصادية بل هي حضارية، لأن تحديات القرن 21 ستكون كلها حضارية.

وإني أطلق على حرب الخليج الحرب العالمية الأولى، لأن الحرب الأولى لم يكن فيها شيء عالمي، وكان أساسها نزاع أوروبي - أوربي، وإن دخلت معهم امريكا. والحرب التي قالوا عنها إنها العالمية الثانية لم تكن كذلك لأن العالم الثالث الذي يمثل الآن 80٪ من سكان الكرة الأرضية كان مستعمرا.

لكن الحرب التي انطلقت يوم 17 جانفي بقرار من جورج بوش تمثل أول حرب عالمية حقيقية وبقطع النظر عن النتائج العسكرية فإننا قادمون على تغييرات جذرية سنعيشها يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر، وهذا هو المهم الذي يجب أن نفكر فيه.

وبالنسبة لنا في العالم الثالث فقد ربحنا بين 10 ، 15 سنة من التطورات الحقيقية.

س : هل تعتقدون أن امريكا كانت ستعدل عن مهاجمة العراق لو انسحب من الكويت؟

ج : لو انسحب لوجدوا حلا آخر، لأن الهدف واضح؛ وقد تحدثوا عن سيناريو الكابوس وهم يقصدون سيناريو السلم، أي أن تخرج العراق من الكويت وتبقى على قوتها وقدراتها العسكرية، وهذا ما لا يعجبهم، وهم يريدون تسليم هذه القدرة ولا يهمهم تحرير الكويت.

س : ما هو الدرس الذي يمكن للانسان العربي أن يستخلصه من صمود العراق بمفرده أمام امريكا وحلفائها وضربه للكيان الصهيوني في قلب تل أبيب؟

(x) 6 فبراير 1991

ج : أظن أن الدرس يتمثل أولا: في المصداقية، إذ أنه يجب على الانسان عندما يقول كلاما أن يحقق ما قاله.

ثانيا : هو القرار السياسي؛ وثالثا هي الإرادة الشعبية وصمودها.

أيضا لا ننسى أهمية العلم والبحث العلمي والتكنولوجي.

فيمكن أن نقول ماذا نريد من صدام حسين، لكن الواقع أن العراق هي البلاد العربية الوحيدة وحتى في العالم الثالث أيضا التي قامت بمجهود جبار في ميدان البحث العلمي منذ أكثر من 10 سنوات، وكانت تنفق سنويا بين 1،5 و 2٪ من مدخولها القومي في البحث العلمي، فيما أعتقد أن العديد من البلدان العربية، وأذكر هنا بلدان المغرب العربي، لم يتجاوز انفاقها في هذا الباب 0،3٪، لأن ثقتها انبنت على نموذج تنموي برهن على إفلاسه، يعتمد على الخارج والتقليد وما يسمى بالتعاون والفرنكوفونية التي أوصلتنا الى المصائب التي نحن فيها الآن.

لكن في العراق كانت هنالك سياسة تنموية قوامها الاعتماد على النفس، وهو الدرس الأساسي بقطع النظر عن المجال العسكري، فإذا ما فهمنا هذا الدرس من الآن وخلاصته أن ما من شيء أخرنا في العالم العربي والعالم الثالث مثل ما يسمى بالمساعدة الفنية والتعاون الدولي الذي كان مؤامرة حول مناهج تربوية وفنية وحول السياسة الفلاحية وسياسة ما يسمى الآن بالسياسة التي نرى الآن خطأ أن نمول بالمليارات السياسة لكي يأتي من الغرب أناس يتمتعون ببلداننا عوض أن نستثمر هذه الأموال في مجالات أساسية مثل محاربة الأمية والبحث العلمي والتنمية الحقيقية.

س : لكن كيف تفسرون الاختلاف الموجود بين الشارع والأنظمة العربية؟

ج : لقد توقعت هذا منذ سنين، فقد ترقبت منذ 17 جانفي الفجوة الكبيرة بين الحكومات والشعوب في العالم الثالث كله.

فالحرب الحالية هي مناسبة للشعوب لتبرهن عن أهدافها الحقيقية وهو ما يزعزع الغرب، لأنه بهذه الطريقة نربح 10 أو 15 سنة، وتكون الحكومات في بلداننا استيقظت من نومها وفهمت خطأها والمسافة التي تفصلها عن روح الشعوب، وأن أمامها اختيار واحد، إما الدخول في المسيرة الديمقراطية الحقيقية وليس بالكلام أو ان تؤدي هذه الفجوة الكبيرة الى تغيرات جذرية داخل العالم الثالث كله، وهذا لا ريب فيه.

س : ولكن كيف تفسرون هذا الشرخ الذي ظهر بين المشرق والمغرب العربي، أو بين البلدان العربية بصفة عامة، ثم نتائج هذا مستقبلا؟

ج : إنه مطلوب منا أن نعي بهذا الخطر وأن نعرف أنها حرب إبادة وأيضا أن نعرف موقف الأمم

المتحدة؛ أنا شخصيا كاتبت في أول جانفي الأمين العام للأمم المتحدة وأظن أن ضميره يجب أن يكون مسؤولا عن عشرات الآلاف من الأموات والضحايا في العراق، ولكنه لم ينطق بكلمة.. ويجب على حكوماتنا أن تستخلص من هذا عدة أشياء: أولا يجب على المغرب وتونس وموريتانيا أن تنسحب من مؤتمر القمة الافريقي الفرنسي، ومن المجموعة الفرنكوفونية، فرئيس فرنسا كان واضحا جدا والوزير الأول السابق بيار موروا صرح في إسرائيل بتصريحات تزعج العالم كله حول منظمة التحرير الفلسطينية.. فينبغي أن يبقى لنا على الأقل فيما يخص الشعوب العربية.

فأنا متوقع أنه في مصر، وهي أكبر بلاد سكانيا إذ تعد أكثر من 55 مليون نسمة أنه لو تتواصل الحرب لمدة أسبوعين فقط ونحن سندخل قريبا في شهر شعبان ولم يعد يفصلنا عن رمضان غير ٤٠ يوما فإنه لو لم تغير الحكومة المصرية موقفها سترى تغييرا جذريا كبيرا في مصر وفي سوريا أيضا.

فلا يمكن إذن أن نصدق ما يكتبه الاعلام الغربي لأن الشعوب العربية كانت دائما موحدة لأن الخلاف كان دائما موجودا على مستوى الحكومات فقط.

وأنا على يقين أنه لا يمكن أن تبقى خلال الأسبوعين القادمين بقية الدول العربية ولا الاسلامية ولا العالم الثالث خارجة عن هذا النزاع.

أولاأتصور أنه بقطع النظر عما يقال في الصحف أن إيران تدخل الحرب وأنه سنرى تغيرات في الجمهوريات الاسلامية التابعة للإتحاد السوفياتي وفي باكستان وفي العالم الثالث نفسه، ولكن ما يؤرقني الآن هو الخطر الفوري، أنا على يقين أن هنالك تهييء نوع من الكرامة...

وأنا أدعو بلدان الاتحاد المغاربي أن تطلب اجتماعا استثنائيا للجمعية العامة للأمم المتحدة.

فهذا مشكل شمال - جنوب، ويجب توضيح موقف العالم الثالث كله من هذا المشكل الذي هو مشكله وليس مشكل العالم العربي فقط، لكنه مشكل خاص بهيمنة عسكرية تهدد التعددية الحضارية على المستوى العالمي. وأتوقع أيضا أنه لا يمكن للولايات المتحدة أن تمارس الحرب البرية لأنها تدرك نتائجها وفي نفس الوقت بدأت التغيرات داخل السعودية نفسها وداخل الشعب السعودي العربي وأنا متوقع أنه في الاسبوعين المقبلين سنرى ضغطا من الولايات المتحدة الامريكية على السعودية لتطلب من الجيوش العربية الموجودة الآن بالسعودية أن تنسحب وتعود إلى بلادها لأنها أصبحت خطرا أكثر منها مساعدة للغرب.، فلم تعد هنالك حاجة لها، ذلك أن أمريكا وحدها لها أكثر من 500 الف جندي وجنود الغرب يصلون الى 700 الف، وهناك قدرة عسكرية لم يسبق لها مثيل في تاريخ الانسانية.

س : هناك من يقول أن النتائج العسكرية يمكن أن تكون لها انعكاسات على الشعور العربي اليوم خاصة إذا فشل العراق لا قدر الله؟

ج : أنا لا يمكن أن أقول فشل العراق، فلا ننسى أن المستشارين العسكرين في البنتاغون قالوا لبوش أن الحرب ستدوم يومين ومبارك قال لبوش في الهيرالد تريبيون (يوم الأحد 3 فيفري) أن الحرب ستدوم أسبوعين والملك فهد حسب مجلة النيويورك تايمز قال لبوش أن الحرب ستدوم ساعتين.

فلا يمكن أن نتكلم عن فشل لأن ذلك معجزة ولأنه لم نفهم أن قوة 31 دولة تمثل أكثر من مليار من سكان العالم ومدخولها القومي يقارب من 10 الاف مليار دولار تحارب شعبا واحدا فيه 17 مليون ساكن ومفروض عليه حصار اقتصادي منذ 4 أشهر، ومدخولها القومي لم يصل إلى 40 مليار دولار، فالعراق نجح عسكريا منذ اليومين الأولين، وصمد رغم الحرب الايكولوجية والبيئية التي يشنها الغرب الذي حطم البترول والمؤسسات الكيميائية.

فليس العراق هو الذي بدأ الحرب الكيميائية وليس هو الذي بدأ الحرب الحقيقية، ولا اعتقد أن العراق هو الذي سيبادر إلى استعمال الأسلحة النووية.

وهذا ما يجعلنا نعرف منذ ٢ أوت أنه أصبح هنالك قرار للدفاع عن الكيان الصهيوني اتخذه بوش وتاتشر بتحطيم العراق عسكريا واقتصاديا وعلميا.

وأعتقد أنه إلى الآن لا يوجد تنسيق بين البلدان العربية والاسلامية وبلدان العالم الثالث لمواجهة هذه الهيمنة.

فإذا ما تم تحطيم العراق فإنهم سيمرون إلى إيران ثم يواصلون طريقهم لمحاربة اليابان وأمريكا اللاتينية.

س : هل تعتقدون أن أمريكا ستدفع الى حل ديبلوماسي؟

ج : أمريكا ستدفع الى حل ديبلوماسي إذا تيقنت أنها حطمت العراق بنسبة 70 أو 80٪، إن العراق سيحتاج إلى 10 أو 15 سنة لتبني من جديد؛ لأنها تريد ألا تبقى الأشياء كما هي لأنها متخوفة (أمريكا) مما تسميه بعدم الاستقرار في بقية العالم العربي والاسلامي.

س : كيف ترى مصير الدول العربية بعد انتهاء الحرب وخاصة بالنسبة للبلدان المغاربية؟

ج : لما يريد الانسان القيام بدراسة مستقبلية عليه أولا بدراسة ماضي المستقبل.

إن كل ما نشهده الآن مكتوب أولا في دراسة عند الغرب في سيناريوهات لاحتلال الخليج.

ثانيا هناك دراسة عربية صادرة عن مركز الدراسات الوحدة العربية ومقره بيروت، ويرأسه الدكتور خير الدين حسيب؛ وهناك دراسة عن مستقبل العالم العربي وفيها سيناريو أسميناه سيناريو التشتيت، وهذه الدراسة نشرت سنة 1988، وكل ما يجرى الآن في الخليج مكتوب فيها.

أما فيما يخص المستقبل فأنا متشائم جدا بالنسبة للأمد القصير، الذي يمتد على خمس سنوات، وهي لا تمثل شيئا في تاريخ الشعوب، لكني متفائل جدا على الأمد المتوسط (10 سنوات) وعلى الأمد الطويل (20 سنة).

لأنه لا يمكن من الآن فصاعدا لأية حكومة في بلاد العالم الثالث أن تمارس نفس الخطة التي كانت تمارسها قبل 17 جانفي 1991.

وبالنسبة للمغرب العربي ونظرا للتغيرات التي حصلت ونظرا لتوحد موقف الجماهير المغربية أتمنى أن تستخلص الحكومات في المغرب العربي الدرس وتواجه مشكلة الوحدة المغاربية بأسلوب جديد، لا بأسلوب إداري تكنوقراطي لاجتماعات وزراء ولجان من بلاد الى بلاد، والواقع الآن أنه ليس هناك أي موقف موحد على مستوى الحكومات.

ملاحظة : أجري هذا الحوار صباح الاثنين

أجرى الحوار : نجم الدين العكاري

البطل (تونس) 6 / 02 / 1991

المظاهر الحضارية لحرب الخليج (x)

ليست هناك حضارة بدون ذاكرة جماعية. فقبل ثلاث وثلاثين سنة، وفي مثل هذا اليوم (8 فبراير) كانت القنابل الفرنسية تقصف المغرب العربي في ساقية سيدي يوسف، وفي نفس اليوم نسمع في الإذاعات ألوان النفاق من الممثل الخاص الذي قدم الى المغرب ليتكلم عن الصداقة المغربية الفرنسية.

ولكن التاريخ مهم، فمن ناحية حضارية، نشهد أنه في نفس اليوم (8 فبراير 1904) انطلقت الحرب الروسية اليابانية التي انتهت بعد 19 شهرا بانتصار اليابان على روسيا، وإقامة الحلف الذي يحمل اسم «بورتمود» يوم 5 شتنبر 1905. وكان تيودور روزفلت، الرئيس الامريكي، هو الذي تدخل لإيجاد هذا الحلف؛ لماذا أتكلم عن هذا؟

لأن اليابان في سنة 1904، كانت بدأت انطلاقة الثورة الحضارية باهتمامها بالعلم والتكنولوجيا، وبرهنت على أن لديها مقدرة تكنولوجية وعلمية. واستغرب الجميع آنذاك، لأنه كان في اعتقادهم أن ليس من الممكن لأي واحد من غير الغرب، والغرب هنا يعني الحضارة اليهودية - المسيحية، أن يصل إلى نتائج مثل هذه التي وصلت اليها اليابان، ويتضح من هذه المقارنة ما يجري الآن في الخليج.

وخلال الحرب الروسية اليابانية، كانت هنالك معركة مشهورة، وهي معركة «موكدن»، كان عدد الروسيين يتفوقون بكثير عن عدد الجيوش اليابانية، لا من الناحية البرية ولا من الناحية البحرية. ولكن مع ذلك، في هذه المعركة التي دامت 19 يوما، بدأت يوم 19 فبراير، وانتهت يوم 10 مارس 1905 بانهزام روسيا، لذا فلنفهم دور وفعالية التاريخ.

ونرجع إلى يابان 1988، وليس يابان 1904. ونحن هنا، أمام مقر خاص بالعلم وبالبحث، وأهم موسسة يابانية للبحث العلمي معروفة باسم المؤسسة اليابانية لتقدم البحث العلمي، قامت بدراسة دامت أكثر من خمس سنين بمشاركة آلاف الاختصاصيين اليابانيين. فماذا سيكون جدول أعمال اليابان في التسعينات؟ وبالخصوص في ميدان العلم والتكنولوجيات المتقدمة؟ فهذه الدراسة موجودة في 400 أو 500 صفحة، كلها علمية لكن فيها مقدمة صغيرة كتبها رئيس هذه المؤسسة يتطرق فيها الى النظام العالمي الجديد، لذا ففكرة النظام العالمي الجديد نفسها فكرة يابانية وليست للغرب، فيجب على الغرب تأدية الحقوق عليها.

(x) 2 و 4 مارس 1991

والمفهوم الياباني، هو أن الهيمنة الامريكية، من الآن لآخر القرن، تنتهي. أما اليابان فهي مؤسسة علمية ثقافية، وليست سياسية، وليس فيها أي نوع من الديماغوجية. وقال أنه يجب على اليابان أن يهيء للقرن الجديد وأن يبني برنامجا جديدا على شيء اسمه الحضارة الجديدة على أساس التعددية الحضارية. وهذا أهم شيء في الحضارة، فمسألة البقاء دائما مرتبطة ومبنية على التعددية. ففي علم البيولوجية، وعلم النبات أو علم الكون أو أي علم، نرى أن أساس البقاء هو التعددية، وبدون التعددية يكون الفناء، وخاصة في مجال الحضارة.

واليابان تفهم هذه النقطة حيث أن رئيس هذه المؤسسة أكد أن المعاصرة أو الحداثة ليست هي الغربية. والواضح هنا أن اليابان برهن أنه ليست له حضارة قلد فيها الغرب.

بل هناك إنتاج ذاتي ومحلي، مبني على حضارة آلاف السنين، مبني على المحافظة على اللغة اليابانية، مبني على محاربة الأمية ومحوها قبل بداية القرن، ومبني علىٰ القيم.

ولكن عددا كبيرا من المثقفين في المغرب العربي كانوا لا يمجدون ولا يحلمون إلا بهذا الغرب الذي يجهلونه.

لقد عشت كثيرا بالغرب، فدرست ثقافته وفنه وحضارته، وكل ما يمكنني أن أستنتجه هو أنه لا يمكن أن نقلد الغرب ونرمي بالحضارة العربية، وكان هذا محور جدالي مع عدد من المثقفين المغاربة الذين يدعون أن المغرب ملزم بأن يمر من نفس المراحل التي مر عليها الغرب خلال الثورة الصناعية، وليس هناك ممر دون التقليد.

أقول إن هذا جهل، هذا هو عدم الفهم لدور القيم ودور الحضارة والثقافة في عملية البناء، بناء الترتيب العقلاني، بناء أهم شيء وهو الابداع. وليس هناك إبداع بالتقليد. وليس هناك بحث علمي بالتقليد، إلا إذا كان هناك مركب نقص.

وأظن أن أهم شيء يمكننا أن نستنتجه مما حدث في الخليج، بقطع النظر عن آلاف الشهداء، أنه ربحنا ما بين 10 و 15 سنة. لأنه صارت الآية تنقلب، ويوميا أقرأ في الصحف المحلية والأجنبية هذا التغيير لبعض المثقفين، ولا داعي لذكر أسمائهم من المغرب والجزائر وتونس. وقبل هذا كانوا يشهدون بالاعلان الغربي لحقوق الإنسان، ولم يفهموا أن الغرب لا يرغب أن يطبق على غيره ما يطبق على نفسه، فتبين هذا النفاق، والحمد لله، بعد أن رجع جل الناس إلى الطريق.

أعطيت مثال اليابان كتجربة، وأعود الآن إلى الحضارة.

لا ننسى أن الولايات المتحدة الامريكية التي انطلقت منها هذه الحرب الخليجية.. ليس في 17 يناير

بل في ٢غشت 1990.: لقد اتخذ قرار بشأن الحرب منذ 2 أو 3 غشت، حيث كانت تتواجد السيدة (تاتشر) بالولايات المتحدة، وكان واضحا أنه ستكون هناك حرب ضد العراق، وهذا ما عبرْتُ عنه كتابة..

ولما كتبت هذا الرأي يوم 12 شتمبر ـ سميت (كما العادة) أنني متطرف وأحمق، وكل الأوصاف التي تتصور...

ويوم 27 شتنبر قلت في الاذاعة الانجليزية أنه ستكون الحرب قريبا.

وفي يوم 7 نونبر، قلت للإذاعة الجزائرية أنه ستندلع الحرب بعد أسابيع.

لا أدري بالغيب، لكن هنالك عناصر تتوفر في التحليل، في الدراسات المستقبلية : وفي يوم 15، في الولايات المتحدة الامريكية التي ليس لديها أكثر من 200 سنة في التاريخ، قال الرئيس بوش، ويجب أن يفهم كلامه بالعكس تماما : «إن عملنا في الخليج ليست له علاقة بالدين، ولا بالثراء، ولا بالفوارق الثقافية».

فأي إنسان يقوم بتحليل نفساني يتضح له أن ليس هناك مبرر ليقول الرئيس بوش أن أزمة الخليج ليست بحرب كذا أو كذا بدل أن يقول بأن الحرب هي حرب كذا. لأن من الناحية النفسانية، برهن لنا أن الأهداف الحقيقية للغرب بزعامة الولايات المتحدة هي عمل ديني، فهذا عمل ديني ومنذ خمس سنين وأنا أقول أننا دخلنا الحروب الصليبية المعاصرة.

بدأت الحملة ضد العرب، وبدأت الحملة ضد العمال المهاجرين بأوروبا، وفي فرنسا لم يصر لها مثيل، ويقول بوش : أن هذه الحرب ليست لها علاقة بالدين، بل بالدين. هذه حروب صليبية، بمعناها الديني، الحضاري والثقافي. وكل تحليل غير هذا، في نظري، هو باطل ومنافق.

ونعود للحضارة، فماذا قال الزعيم الفرنسي الكبير، الذي مع الأسف عرفته في صغري، وأعطاني جائزة العلوم الاقتصادية في عام 1981. لما وصل الى الحكم ميشال روكار، كتب يوم 8 يناير، هذا الذي كان يعرف بعطفه على العالم الثالث، كتب : «لأول مرة في تاريخ الانسانية من ست ألاف سنة، تقوم المجموعة الدولية لتقول (لا)، ولاتخاذ الوسائل والامكانيات». فكيف يمكن أن تبقى هناك مصداقية لأناس مثل روكار، رمز التقدمية، رمز الاشتراكية، رمز التعددية، رمز الحرية، رمز السماحة، رمز هذه القيم كلها التي ينادي بها الغرب صباح مساء. وكيف يمكننا بعد ذلك أن لا نفهم أن هذه أزمة وحرب حضارية ؟

لكن هناك والحمد لله تعددية حتى في الغرب، وهنالك أناس يفكرون حتى في الغرب. ان الأغلبية في هذا الغرب، والاحصائيات موجودة، هي ضد الحرب. الأكثرية في الغرب ضد الحرب؛ لكن الغرب برهن أن ليس له احترام لهذه الديمقراطية، هو أكثر من 70٪ ضد الحرب. فكيف يمكن لحكومات ورؤساء دول أن يشهروا حربا و70٪ من الرأي العام بدولهم هي ضد الحرب. فأين الديمقراطية؟ أين احترام الرأي العام؟

إذن هذه الأزمة بينت أنه ليست هناك ديمقراطية حتى في الغرب نفسه، وأقول : أن هناك أناسا في الغرب لازالوا يفكرون، فتهجمي هذا على الغرب ليس بنفس الطريقة العنصرية المتواجدة عند الغرب تجاه الجنوب لأننا كلنا تسامح ولا أريد أن أتعامل بهذه الطريقة.

قلت أن هناك أناسا لازالوا يفكرون في الغرب، وأعطي كمثال كلمة للأستاذ الجامعي أرتير شلزنكر، مستشار سابق للرئس كينيدي، حيث كتب يوم 17 دجنبر 1990 في (نيويورك تايمز) ما يلي:

«إذا كان الجهل الأمريكي للشرق الأوسط اليوم عظيما، فإن جهلنا للمستقبل هو تام، لكن جهلا بدرجة جهلنا غير مسموح به».

الهدف الآن هو تحطيم ذاكرة حضارية.. فحصيلة 6000 سنة التي ذكرها روكار، منذ بداية الكتابة والحضارة السومرية، وكل الحضارات السابقة، حتى الحضارة الإسلامية مجموعة في متحف كانت لي علاقة به لما كنت في اليونسكو، وأشرفت على بنائه وتنظيمه.. مجمع 6000 سنة من هذه الحضارة قد تحطم.. والمقصود الآن هو أن الهيمنة الغربية في الميدان الحضاري هو تحطيم هذه الذاكرة العالمية الحقيقية.

مدينة بغداد هي من أقدم المدن في تاريخ الإنسانية.. والمدن كعنصر حضاري بدأت في عهد سومر، وبغداد هي أول بلاد في العالم وصلت إلى مليون من السكان..وبغداد اسمها يأتي من اللغة الفرسية.. وبالفارسية بغداد معناها هداية من الإله..

أما البصرة، فهي أقدم من بغداد، وأصلها الحقيقي من قبل هو "الخريبة"، وهو المكان الذي كان عتبة بن غزوان، من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، اختاره سنة 636 بتعليمات من سيدنا عمر، بأن تكون المقر العسكري للجيش الإسلامي آنذاك.. فهذا المكان الذي ينزل فيه الآن الحرس الجمهوري العراقي، والذي أسقط عليه ما يعادل 5 أو 10 مرات قنبلة هيروشيما..

ملاحظة : كان هذا حتى يوم 8 فبراير.. أما الآن فيقارب ما سقط على العراق حوالي 40 قنبلة هيروشيما أو أكثر)..

وأقول إنها ليست فقط مشكلة عربية وإسلامية.. فالواقع، إنها إشكالية جنوب/ شمال..

في مايو 1978، في أول ندوة مهمة كبرى في روما، آنذاك، كانت تسمى بحوار جنوب/ شمال، ألقيت كلمة، وعرضت دراسة مطبوعة أقول فيها: إن أكبر عرقلة سياسية حقيقية بين الشمال والجنوب هي الحضارة، وهي بالخصوص الإتصال الحضاري.. لقد رفض الغرب أن يتفاهم باللغات الأخرى، وأعني باللغة الأخرى : القيم، فبرهن أن ليست له أية روح للمسامحة والتعاون والتفاهم على أساس أمكانياته حتى

الاتصال، ويبرز هذا في عدد الصحفين المتواجدين بالخليج. كم منهم يقرأ اللغة العربية، كم منهم يمكنه أن يتكلم في الشارع ويعرف آراء الناس؟ لكن هذا ليس ضروريا إذا تكلموا الفرنسية أو الانجليزية، هذا يكفي حسب اعتقاد الغربيين.. فعلى الجنوبيين أن يتكلموا لغة الشماليين. والناس من جيلي حاولوا أن يقرأوا لغة الغرب ويعرفوا موسيقاهم ومتاحفهم وأكلهم وكل شيء.. والآن نرى أن ليست هناك مبادلة بعد هذه الفترة كلها، وليست هناك أية محاولة من طرفهم أن يتفهموا الطرف الأخر، لأن أملهم في أن الآخر هو الذي سيكون جزءا منهم، فلا فائدة في مفاهمة الآخر..

لذا أقول إن هذه الأزمة هي نزاع شمال/ جنوب.. في ماي 1980، وفي البرنامج التلفزي الفرنسي ع Les dossiers de l'écran، وسميت آنذاك بالأحمق، حين قلت أن هناك ثلاث سيناريوهات أو مشاهد

– سيناريو الاستقرار، وهذا ممكن طيلة خمس سنوات.

– سيناريو إصلاحي، وهو ممكن إذا كان مواكبا لعمل جدي طيلة خمس سنوات، ما بين 80 و 1985.

وإذا فشل الأول والثاني فسندخل في السيناريو الثالث في بداية التسعينات، وهو سيناريو الانقطاع، وهو ما نعيشه اليوم، وهو صراع (شمال/جنوب)، صراع ما بين الشمال والجنوب..

طبعا، العالم الإسلامي حريّ بالمقارنة مع بقية أقطار العالم الثالث، والثلث من العالم الثالث إسلامي.. فعدد سكان العالم الثالث 4 ملايير و 200 مليون، وفي العالم الإسلامي على الأقل مليار و 200 مليون نسمة، والعالم العربي لا يتعدى 200 مليون من السكان.. لسنا هنا نقوم بوزن الديمغرافية الاسلامية مع ديمغرافية العالم الثالث، ولا داعي أن نبقى مرتكزين على مشاكلنا الداخلية.. فهناك برنامج أكبر وأوسع، وهو الصراع بين الشمال والجنوب، وخصوصا في الميدان الحضاري، لأن الغرب لم يقبل التعددية الحضارية..

في سنة 1984، وفي التلفزة اليابانية، قلت ـ ولكنه غلط نوعا ما ـ إن الحروب المقبلة ستكون حروبا ثقافية، وأن أولها ستكون بين اليابان والولايات المتحدة.. لازلت أومن، وأنا على يقين، أننا قبل آخر القرن، قبل 3 أو 5 سنوات، سنرى نزاعا كبيرا بين اليابان والولايات المتحدة.. ولقد بدأ، لأن الولايات المتحدة هي قوة عسكرية فقط، وليست قوة اقتصادية، ليست قوة خلقية، ليست قوة حضارية، ليست قوة اجتماعية، ليست قوة سياسية، لا تستند وتعتمد إلا على الجيوش والقنابل..

إذا رجعنا شيئا ما إلى التاريخ، نجد أن في يوم 14 يونيو 1921، في مناقشة في البرلمان الانجليزي، وهذا من وثائق البرلمان الانجليزي، كان تشورشيل يقول: «لنا سياستان يمكننا اتخاذهما حول الجنس العربي : الأولى أن نترك العرب منقسمين، ولا نشجع طموحاتهم الوطنية، ونخلق إدارات بالأعيان المحليين

في كل منطقة وكل مدينة، وأن نستغل هذه النخبة لإشعال الغيرة من بعضهم ومحاربة بعضهم بعضا.. والثانية، وهي التي أظنها تنسجم مع تحقيق الخالص طبقا للتعهدات التي أعطيت خلال الحرب للجنس العربي والزعماء العرب، وهو محاولة أن نبني، حول العاصمة القديمة لبغداد بطريقة صديقة لبريطانيا وحليفاتها، دولة عربية ليمكن أن تحيي من جديد وتجسد حضارة وانتصارات الجنس العربي.. وبين هاتين السياستين اخترنا بصفة نهائية الثانية» (المرجع: مناقشات البرلمان للمملكة المتحدة، الجزء 143، ص 174 ـ 175).

وأخيرا، ما بين التغيرات التي وقعت، عديد من الكتاب، وخاصة بالمغرب العربي، كانوا يكبرون بالغرب، والآن بعدما انقلبت الآية أصبحوا يكتبون لصالح العرب، وأذكر على سبيل المثال كمال الزيدي، الذي أعرفه وأعرف أنه ذو ثقافة مزدوجة، وأنه أول عربي نال جائزة أجنبية، وكانت جائزة الأكاديمية الفرنسية للشعر. وأظن أن الانطلاقة قد بدأت من الشعراء والملحنين والرياضيين، وبالخصوص من الباحثين، لأن هذه الحرب حرب علم وليست حرب كلام وتصفيق وأناشيد.. وكل واحد مدعو للعمل في ميدانه..

نظمت نقابة التعليم العالي يوم 8 فبراير ندوة بعنوان
«الأبعاد الثقافية لحرب الخليج»..
نشرت في مجلة "حقائق"، 8 مارس 1991.
و"الخضراء" 22 فبراير 1991 ، 1 مارس 1991.
و"الخبر" الجزائري، عدد 2 و 4 مارس 1991.

العلاقات المغاربية ـ الأوروبية (×)

حوالي أربعة ملايين من المواطنين المغاربيين من المغرب والجزائر وتونس يقيمون بفرنسا ومما لا شك فيه أن مواقف بلدانهم من أزمة الخليج الراهنة سيكون لها تأثير كبير على أوضاعهم المستقبلية سيما وأن العلاقات الفرنسية المغربية تمر بمرحلة دقيقة. ففرنسا تعتبر دول المغرب العربي امتدادا إن لم نقل عمقا استراتيجيا لها ولمصالحها التاريخية والاقتصادية والثقافية وتعتبرها معبرا لمستعمراتها الافريقية السوداء السابقة. فشعبية فرنسا تدهورت بشكل واضح في دول المغرب العربي خلال الأسابيع الماضية بسبب مشاركة فرنسا في حرب الخليج وفي قصف العراق، وأصبح الرئيس ميتيران الى جانب الرئيس بوش موضوعا للشعارات المناوئة التي يطلقها المتظاهرون.

الخوف الذي يسود مواطني دول المغرب العربي في حالة تصاعد الشعور المناوئ للعرب بفرنسا خلال عودة ضحايا حرب الخليج من قتلى وجرحى بات يدعو للقلق والتساؤل في صفوفهم. ومعنا على الخط الدكتور المهدي المنجرة ـ المفكر المغربي:

س : دكتور المهدي المنجرة، كيف يمكنكم تقويم العلاقات الفرنسية المغربية في المرحلة الراهنة؟

ج : فرنسا جزء مما يسمى الغرب حضاريا. وهي جزء مما يسمى الشمال، يعني الدول المتقدمة والصناعية، هذا الشمال الذي يمثل أقل من 20٪ من سكان العالم يستغل أكثر من 80٪ من الموارد الطبيعية والتجارة والاقتصاد العالمي.

ودول المغرب العربي هي في مقابل ذلك تدخل ضمن ما يسمى بدول العالم الثالث أو دول الجنوب، وبالتالي يلزم قبل أن نتحدث عن العلاقات ما بين فرنسا والمغرب العربي، أن نفكر في إشكالية شمال ـ جنوب. ،منذ زمن، أي منذ 1978 حيث كان أول حوار حول الشمال والجنوب في روما قلت انه ليس هناك حوار مع الجنوب. لان هنالك مشكلة الاتصال الثقافي الحضاري، وقد برهن الغرب أنه الآن غير مستعد لتفهم قيم غيرالقيم الغربية، ولذلك كنت أتوقع منذ زمن بوقوع قطيعة ما بين الشمال والجنوب، وما يحدث اليوم في الخليج هو بالأسف نتيجة لذلك، وهنالك دراسات أنجزتها أيضا منذ مدة وقبل بداية أزمة الخليج، كانت عبارة عن سيناريوهات أتوقع فيها من بين ما أتوقع وقوع اصطدام مثل الذي يحدث الآن. ولذلك يجب

(×) 10 فبراير 1991

قبل أن نتحدث عن العلاقات ما بين فرنسا والمغرب العربي أن تكون لدينا رؤية واضحة بأن ما يحدث اليوم هو أول حرب عالمية حقيقية عكس الحرب العالمية الأولى أو الثانية، لأن الأولى كانت ما بين الأوربيين ولو انضافت اليهم امريكا فيما بعد، اما الحرب الثانية فكانت أسبابها أوربية محضة، ولو أن أمريكا واليابان دخلتا أيضا ضمن هذه الحرب، لكن ما نراه في الخليج اليوم هو بداية لمسلسل طويل أتوقع أنه سيدوم ما بين 15 و 20 سنة وأن هدفه الاساسي هو حضاري، له علاقة بالقيم لأن الغرب قرر الاستمرار في سياسته الاستعمارية ليس على الطريقة العسكرية والاقتصادية والسياسية فقط ولكن أيضا عبر الهيمنة الحضارية والثقافية، وهناك تخوف لدى الغرب من القيم الحضارية في كل العالم غير الغربي.

وبالتالي فما يحدث وما يمكنه أن يحدث في العلاقات ما بين فرنسا ودول المغرب العربي هو يدخل ضمن هذه الاشكالية، وفرنسا اختارت أن تكون جزءا من هذا الغرب وساندت الولايات المتحدة الامريكية في سياستها العدوانية ضد ليس الدول العربية أو الاسلامية فقط ولكن ضد كل دول العالم الثالث، وقد كان تعليقكم التمهيدي لهذا الحوار كافيا لتوضيح هذه العلاقة وقد سمعت قبل قليل جاك بيرك في إذاعة فرنسا الدولية يعطي نفس التحليل وهو أمر طبيعي لما تختار دولة مثل فرنسا فيجب أن تقبل نتائج اختيارها.

س : هل تعتقدون أن القطيعة بين دول المغرب العربي ستكون دائمة أو هي قطيعة ظرفية؟

ج : القطيعة ليست ظرفية، بل هي قطيعة بدأت منذ أكثر من خمس أو ست سنوات لما بدأنا نرى الحملة العنصرية ضد العرب ثم جاءت حملة ضد الاسلام وكل الناس يتذكرون العنصرية التي عبرت عنها كل دول أوربا وفرنسا بوجه خاص وفي تحليلي القطيعة موجودة من زمن، وفي اجتماع لأكاديمية المملكة المغربية في دجنبر 1989 اقترحت على اتحاد المغرب العربي العمل على إعداد صندوق خاص للتضامن مع العمال المغاربيين المقيمين في أوربا في حالة رغبتهم في العودة لبلدانهم وكان تقديري هو إذا ما دفعت دول المغرب العربي 1٪ من مدخولها القومي يمكن لهؤلاء العمال إذا ما أرادوا العودة لبلدانهم وجود شروط لادماجهم وتشجيعهم داخل بلدانهم وهو أمر لايزال متوقعا، فالقطيعة بدأت منذ زمن وسيظهر لنا مع الوقت أن هذه الحرب هي حرب حضارية وأظن أن الحملة الاعلامية النفسانية التي عبر عنها الغرب خلال الفترة الاخيرة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الانسانية وهنالك حرب إبادة يموت فيها الاف المدنيين العراقين يوميا ولم نجد أي رد فعل ولو إنساني، فأين هي القيم الغربية (اليهودية/ المسيحية) في تقدير كرامة الانسان وحقه في الحياة، بل إننا لا نرى سوى آلاف الشهداء يتساقطون في هذه الحرب.

س : هل تستغربون من أن يكون الموقف الفرنسي الحالي هو من حكومة اشتراكية كانت تدعي أن لها موقفا معينا ومميزا مع دول الجنوب؟

ج : لا، والحكومات الاشتراكية في فرنسا تاريخها معروف، وكلما هي تتبع سياسة تقدمية على المستوى المحلي لفرنسا، نجد لها توازنا في سياستها الخارجية والتي كانت دائما الى جانب الاستعمار، ويكفي أن نتذكر سنة 1956 لما كانت أزمة قناة السويس مطروحة، نجد أن الحكومة الاشتراكية هي التي دخلت في الحرب ضد مصر، وهذا لا يفاجئنانظرا لوجود تأثير داخل الحزب الاشتراكي الفرنسي، ومن جهة أخرى نجد مسؤولين فرنسيين تحدثوا بصراحة سواء تعلق الأمر برئيس الجمهورية أو بالوزير الأول أو بوزير الخارجية كلهم يقولون أنهم ليس لهم اختيار في الدخول أو عدم الدخول لهذه الحرب، لأنهم يريدون أن نكون في طاولة ما بعد الحرب ويكون لهم نصيب في هذه الحرب وبالتالي لما توزع الغنائم يجب أن يكونوا موجودين من بين دول الحلفاء. إذن هذا اختيار وفرنسا دولة مستقلة لها حق أن تختار ولكن لا يمكن لها أن تختار موقفا عدوانيا ضد العالم العربي وضد دول البحر الأبيض المتوسط وضد العالم الإسلامي الذي يبلغ سكانه اليوم مليار و 200 مليون مسلم وضد العالم الثالث كله الذي يبلغ سكانه أربعة ملايير و200 ألف مواطن دون أن تتوقع نتائج عكسية لموقفها الذي اختارته بكل سيادة ضد كل دول الجنوب، والخطأ ليس من العرب ولا من المغاربة لأن هنالك علاقات تاريخية وحضارية متينة ولكن للأسف لم أتفهم بعد هذا العناد الذي برهنت به فرنسا، وإن كانت تدخلت يوم 14 يناير تدخلا إيجابيا كان على وشك إيجاد حل. لكن الضغط الأمريكي على فرنسا برهن أن فرنسا مثل باقي دول أوربا ستكون الضحية الأولى. هذا بقطع النظر الى الحرب العسكرية التي ستخلف ضحايا في البشر والعتاد، كما أن توحيد أوربا واندماجها خلال عام 1992 انتهى الآن لأن أوربا نفسها أصبحت مستعمرة سياسيا واقتصاديا وحضاريا من طرف أمريكا، والمغرب العربي جزء بسيط من العالم لا يتجاوز عدد سكانه 80 مليون نسمة ووزنه ضعيف، ولكن المهم هو علاقة أوربا بالعالم الثالث والعالم الإسلامي والعربي.

س : أعلن الرئيس صدام حسين عن قطع العلاقات الديبلوماسية مع دول الحلفاء واستثنى المغرب فهل لك تفسير لهذا الإستثناء؟

ج : ليس لي تفسير، لكن أظنه أمرا طبيعيا لأن الموقف المغربي سواء المعبر عنه رسميا، أو الشعبي أو موقف الأحزاب أو موقف البرلمان، المغرب كله موحد حول شيء واحد وهو الدفاع عن كرامة العراقيين ومناصرة الصمود العراقي، هذا أمر مفهوم من طرف المسؤولين العراقيين.

س : وجهتم دعوة إلى المدير العام لليونسكو للتدخل قصد وقف التدمير الذي طال الممتلكات الثقافية للعراق، فإلى أين وصلت هذه الدعوة ؟

ج : لقد كنت مسؤولا سابقا في اليونسكو كنائب للمدير العام لليونسكو مكلف بالقطاع الثقافي، وكنت قد بعثت أخيرا ببرقية الى المدير العام فيديركو مايور أطلب منه التدخل لوقف التدمير الذي يتعرض له التراث الإنساني في العراق طبقا لمعاهدة لاهاي 1954 المتعلقة بحماية التراث الثقافي في حالة النزاعات المسلحة، خاصة وأن ما تتضمنه العراق من تراث إنساني ليس عربيا أو إسلاميا فحسب ولكن كوني وإنساني، ولكن الى اليوم لم أتوصل بعد بأي أصداء عن تحرك ملموس للمدير العام حول الموضوع، وإن كان نائب المدير العام قد أبدى لي اهتمامه بالموضوع، وللأسف فقد تأكد اليوم أن متحف بغداد قد دمر، والذي كانت لي فيه مسؤولية في أواخر الستينات وبداية السبعينات.

وفي الوقت الذي يتحدث فيه الجميع عن الشرعية الدولية، لا نجد أحدا بما في ذلك المنظمات الدولية يهتم بهذه الجوانب، وهو أمر يكشف بكل أسف عن عنصرية جديدة وأصبح تطبيق القانون على حساب المصالح وليس انطلاقا من المشروعية الحقيقية ؟

س : ما هي توقعاتك عن آثار هذه الحرب ، عن الأوضاع الإقتصادية والسياسية في العالم العربي والمغرب العربي خاصة ؟

ج : بقطع النظر عن الخسارات الراهنة بالعراق على وجه الخصوص، سيربح العالم الثالث حوالي 10 سنوات الى 15 سنة كمرحلة خاصة بعد تبين مقاصد الغرب الحقيقية، مما سيجعل النموذج التنموي المتبع من طرف دول العالم الثالث يبدو مبنيا على يد الغرب وعلى التعاطف مع هذا الغرب وعلى مساعداته الفنية والتقنية وما يسمى بالتعاون التكنولوجي، أما اليوم فأظن أن وعي العالم الثالث أصبح واضحا بضرورة نهج سياسة جديدة أسميها بسياسة الإعتماد على النفس في كل الميادين تكنولوجيا وعلميا وحضاريا واقتصاديا بما في ذلك ميدان التغذية وأنا متفائل جدا على الأمد الطويل الذي يتحدد بحوالي 15 أو 20 سنة، لكني متشائم بخصوص أربع أو خمس سنوات المقبلة لأن حرب الخليج هي مجرد بداية لحرب حضارية ضارية ستستمر طويلا ما بين الشمال والجنوب.

وقد تبين أن الغرب غير مستعد للتعايش مع حضارات أو ثقافات غير الثقافة الغربية وما يهمه هو مصالحه التي يضطر كما يحدث اليوم حمايتها ولو بالتدمير والعنف، ويكفينا أن نعلم أن عدد المتفجرات التي استهدفت العراق الى اليوم تعادل 20 مرة تقريبا القنبلة الذرية هيروشيما.

إذاعة "هيلفرسن"، (هولندا)، 10 فبراير 1991
جريدة "العلم"، (14 فبراير 1991)

تصريح لإذاعة بغداد (×)

«إنه لشرف كبير لي كمناضل وكمثقف في العالم العربي والعالم الثالث، أن أتلقى هذه المكالمة التلفونية من إذاعة بغداد في مثل هذه الظروف التاريخية التي يعيشها العالم، وهي معركة بقاء للإنسانية، وبقطع النظر عن المشاكل التي تواجهها تقوم الإذاعة العراقية بالاتصال بي من بغداد الى الرباط. وهو إن دل على شيء إنما يبرهن على وجود شيء حقيقي اسمه الأمة العربية الاسلامية، وهو شرف عظيم أعيشه في حياتها، وأقول إننا جميعا في المغرب وفي المغرب العربي وفي افريقيا وفي العالم الثالث وراء الشعب العراقي في نضاله، والشعب العراقي وحده الآن هو الذي يؤدي بحياته عشرات آلاف من الشهداء في سبيل محاربة الهيمنة الحضارية، وقد سبق لي يوم 12 شتنبر أن كتبت ونشرت بأن ما نرى في الخليج ليست حربا عسكرية ولا حربا سياسية ولا حربا اقتصادية فحسب، بل هي حرب حضارية.

وكاختصاصي في الدراسات المستقبلية ومنذ أكثر من 15 سنة، وأنا أنبه الغرب من هيمنتهم الحضارية والخطر الذي سيواجهونه على عتبة القرن 21، والمعركة التي بدأت اليوم أو هي بدأت في الواقع قبل اليوم، هي أول حرب عالمية حقيقية، ولكن إنشاء الله ومن بغداد سينطلق تحرير العالم بأسره، وتحرير ٤ ملايير و 200 مليون من سكان العالم الثالث، بما فيهم مليار و 300 مليون مسلم. وستعترف كل الأجيال القادمة بالدور التاريخي لصالح الانسانية الذي تلعبه العراق اليوم. هذا البلد العريق في حضارته منذ الاف السنين - ضد دولة الولايات المتحدة التي لا يتجاوز عمرها 200 سنة، وقد برهنت هذه الأخيرة عن جهل حضاري باستعمال التكنولوجيا للهدم بدل البناء. وكل ما يمكنني قوله هو أن قلوبنا جميعها معكم، وأننا ندعو الله صباحا ومساءا لكم ومعكم، وإن شاء الله ومن الآن فإن العراق انتصرت انتصارا باهرا على قوات العدوان بقطع النظر عن النتائج العسكرية.

وأختم بقوله تعالى : «سنريهم آياتنا في الافاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم الحق، أو لم يكفي بربك أنه على كل شيء شهيد» صدق الله العظيم، ولعل ما بدأ اليوم مما يسمونه النهاية هو بداية فقط للنهاية، وما

(×) 42 فبراير 1991

يسمونه بما بعد الحرب هو الحرب الحقيقية القادمة، لأننا دخلنا حربا ليست عسكرية فحسب ستدوم من 15 الى 20 سنة على الأقل، وقد برهن الغرب عن استهدافه للعراق، هذه الدولة الوحيدة من العالم الثالث التي كانت لها الشجاعة الكافية لتقول لا للإستعمار وللصهيونية وللإستعمار..

إنها حروب صليبية معاصرة.

والله مع الصابرين، ووفق الله شعب العراق في معركته العادلة».

الأسباب الخمسة لحرب الخليج (×)

جاوزت حرب العدوان الصهيوني الامريكي شهرها بأيام، بعد أن كشفت عن وجهها العدواني والهمجي لا من حيث تحايلها على القانون الدولي واتخاذه ذريعة لإبادة شعب وأرض العراق ولا من حيث عدم تكافئها بتحامل قوات أكثر من 31 دولة ضد دولة واحدة، ولا من حيث كمية المتفجرات والقنابل المتساقطة على المدنيين من شعب العراق والتي تقارب اليوم 20 مرة حجم متفجرات القنبلة النووية على هيروشيما، وهي تعتبر بذلك لهذه الأسباب ولأسباب أخرى سبق لي أن أوضحتها، أول حرب عالمية حقيقية، يكاد يدخلها العالم الغربي كله ضد شعب واحد.

وقد تبين اليوم للعالم كله وللرأي العام الدولي أن الولايات المتحدة الأمريكية التي تقود هذه الحرب ومن خلفها الغرب كله لم تدخل هذه الحرب من أجل تحرير الكويت ولا من أجل تطبيق «مقررات مجلس الأمن» التي كانت بدورها بوحي من قادة واشنطن، ولكن هذه الحرب جاءت لخمسة أسباب أساسية :

أولها أن الولايات المتحدة الأمريكية وهي تحاول إعادة ترتيب النظام العالمي الجديد هي القطب الواحد بعد تحلل القطب السوفياتي كقوة للتوازن، لم تستسغ أن تكون بمنطقة الخليج العربي - بإمكانياته البترولية وبحيويته الجيوسياسية - دولة تنمو وتتجه نحو الاستقلال عن سلطتها، هذه الدولة التي هي العراق.

وثانيها أن العراق لما حاول أو استطاع تحقيق استقلال تكنولوجي عن الغرب بدأ يهدد أمن مصالح الغرب كله سواء لتأهله لتقليص وهم التفوق الغربي أو لتهديده أسواق الغرب لبيع التكنولوجيا الجاهزة.

وثالثها أن الآلة العسكرية للعراق حققت خبرة وقوة، أصبح من شأنها تهديد الكيان الصهيوني المزروع بالمنطقة كقاعدة للغرب الصليبي وللولايات المتحدة الأمريكية خاصة.

ورابع هذه الأسباب أن الغرب أدرك قوة العراق الحضارية كمهد للثقافات وكأرض للذاكرة العربية والإسلامية، الشيء الذي يهدد أطماعه في سيادة ثقافته وقيمه الغربية ضد كل الثقافات الأخرى العربية والإسلامية أو غيرها من الثقافات الأخرى.

وأخيرا فإن الغرب كما يرسم في سيناريوهاته هو مضطر لتجديد ربط خيوط التبعية إليه بعد تآكل الاستعمار

(×) 18 فبراير 1991

القديم، وسواء دخل العراق للكويت أو لم يدخل، فقد كان الغرب مستعدا للدخول في فترة ما بعد الاستعمار لتحقيق سيناريو التمزق من جديد وإن بصيغ مختلفة عن الماضي المهم بالنسبة اليه هو أن يقضي على أية قوة تنمو من الجنوب خاصة إذا كانت عربية وإسلامية وكان العراق هو الدولة العربية التي تبدو للغرب مصدر تهديد بالدرجة الأولى من جهة العالم الإسلامي، وبذلك اختيرت المشكلة العراقية الكويتية كمبرر للتدخل السريع والمكثف قصد تدمير العراق، بعد أن تحكمت الولايات المتحدة في سلطة القرار داخل هيئة الأمم المتحدة وداخل مجلس الأمن.

فماذا كانت النتيجة؟ النتيجة هي القيام بخمس جرائم لم يسبق للإنسانية أن عاشت مثيلا لها في مدة مثل هذه : فقد تم الاعتداء الوحشي على الإنسان العراقي طفلا كان أو امرأة أو شيخا أو مريضا، وتم قصف المخابئ المدنية والمساكن والمستشفيات ومنابع الشرب، سجل خلالها القصف ما يزيد عن 75 ألف طلعة، نقدر لكل طلعة ثلاثة شهداء على الأقل، وهو ما يفيد سقوط أكثر من 225 ألف شهيد. فهل قام الضمير العالمي بإدانة أمريكا وحلفائها؟ وهل تحركت الشرعية الدولية أمام خرق أهم مبدإ في حقوق الإنسان وهو حق الحياة؟ وهل صرح مسؤول بأن ما يحدث هو خرق للاتفاقيات الدولية الملزمة للجميع لحماية المدنية في حالة النزاعات المسلحة؟ لا أحد، أضف الى ذلك أن العدوان المسلط على العراق خلف جريمة ثانية نكراء وهي تدمير البيئة الطبيعية سواء تعلق الأمر بالمزروعات والنباتات أو بضرب ينابيع المياه أو بتلويث المياه البحرية الخليجية أوبتلويث الهواء مما تسبب أخيرا في تساقط أمطار سوداد داخل إيران، فهل تحركت المنظمات البيئية العالمية لحماية بيئة العراق وحماية أمنها الطبيعي، هل سمعنا أحدا من أصحاب «الخضر» يصرخ ضد هذه الجرائم المرتكبة في حق الطبيعة؟ لا أحد، ثم تأتي الجريمة الثالثة وهي تدمير التراث الإنساني الثقافي والحضاري بالعراق بدون مبرر سوى الرغبة في القضاء على الذاكرة، ولعل الذين قصفوا متحف بغداد وغيره من مراكز التراث الإنساني والعربي الإسلامي بالعراق لا يملكون عمقا حضاريا يرجع لآلاف السنين مثل العراق، أما الجريمة الرابعة فهي المس بمشاعر مئات الملايين من المسلمين بهتك حرمات الديار المقدسة وعدم احترام معتقداتهم ومقدساتهم وهي جريمة ستظل مرسومة داخل عقل كل مسلم مسلم يذكر فيها أن الغرب قد دنس أرضه المقدسة ولم يحترمه في دينه وعقائده،

وأخيرا تأتي الجريمة الخامسة في هتك القانون الدولي وضرب الشرعية الدولية والقضاء على مصداقية مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة وغيرهما من الهيئات الدولية بعد أن تحولت هذه المنظمات بضغط من دول الغرب من هيئات لحماية السلام الى قلاع للتخطيط للعدوان والسكوت عليه.

إن هذه الوضعية العامة أدت الى خمس نتائج ستجعلها الشعوب العربية دروسا لمسيرتها في المستقبل القريب والمتوسط والبعيد.

النتيجة الأولى : هي أكذوبة الغرب المتحضر، إذ لم يظهر من غرب القيم الحضارية والحداثة وحقوق الإنسان سوى وجهه العدواني الصليبي، وهو ما سيجعل دول الجنوب كله تدرك أكثر من أي وقت مضى خاصة الدول العربية الإسلامية أن مستقبلها رهين بما أسميه سياسة الاعتماد على الذات، النتيجة الثانية وهي ترتبط بما كشفه الغرب من عدوان وحقد ضد الحضارات الأخرى، وسيكون ذلك درسا للدول الإسلامية بأن تتمسك أكثر من ذي قبل بهويتها الحضارية الإسلامية، انطلاقا من الإسلام كنظرية تحررية ضد كل مظاهر الاستيلاب الثقافي واللغوي التي خلفها الإستعمار بكل ألوانه، النتيجة الثالثة : تظهر في انكشاف الانفصام الحاصل بين الحكام العرب وبين الشعوب العربية، حيث بدا واضحا أن طموحات الشعوب ونضالاتها ومشاعرها مغايرة لرغبات واختيارات ومصالح الأنظمة الحاكمة، وهو ما أوضح أن النضال من أجل الديموقراطية وإقرار حرية التعبير وحقوق الإنسان شرط أساسي لفعالية أي بلد، كما كشفت حرب الخليج في نفس الاتجاه عن تبعية وخنوع عدد من المثقفين الذين انكشف ولاؤهم للغرب إما بمساندة في حربه الصليبية ضد شعب العراق أو بصمتهم على ما يجري وتأتي النتيجة الرابعة كدرس للأمة العربية لتدرك أن التكنولوجيا والعلم وتحصين الذات بهما هما وحدهما السبيل لبناء المستقبل في غير حاجة الى دول الشمال والغرب، وتبين أن التعاون بين دول الجنوب فيما بينها قادر على إلغاء علاقات الهيمنة القائمة على استغلال الشمال للجنوب كما هو الحال اليوم في عدد من القارات بأمريكا الجنوبية وإفريقيا وآسيا. وأخيرا تأتي النتيجة الخامسة واضحة في أن المستقبل العربي لا يمكنه أن يبقى على الحال الذي كان عليه خلال فترة ما قبل 2 غشت 1990، لأنه كما كان الغرب يخطط لقانون دولي جديد، حملت حرب الخليج معها حتمية التغيير المقبل في كل مظاهر النظر والعمل العربي سواء في علاقته مع نفسه أو مع الغرب.

وأذكر هنا معركة موكدن بين روسيا واليابان التي انطلقت يوم 19 فبراير 1905، أي مثل هذا اليوم الذي أسجل لكم فيه هذا الرأي، أي 19 فبراير 1991 - حسب التوقيت المحلي - وانتهت يوم 10 مارس 1905 بعدأن سجلت انتصار اليابان على روسيا، وهي أول حرب نتهزم فيها دولة غربية في التاريخ المعاصر. فهل سيعيد التاريخ نفسه؟ خاصة إذا وضعها في الحسبان الاعتبارات الطقسية والمناخية والتي تفيد ببداية رياح الشمال عند نهاية شهر فبراير بمنطقة الخلية والتي ستزامن جهة أخرى بدايات شهر رمضان المعظم.

(المقال مقتطف من عدد من الأحاديث التي أجرتها معه
بعض الإذاعات والتلفزات الأجنبية).

العلم 21 فبراير 1991
الخبر 21 فبراير 1991
الشروق (التونسية) 7-3-1991

الأبعاد العلمية والتكنولوجية (×)

يتناول الموضوع الأبعاد العلمية والتكنولوجية لحرب الخليج وتأثيرها على وضعية العالم العربي والعالم الثالث بصفة عامة، أي 80 ٪ من سكان الكرة الأرضية. أسباب هذه الحرب بسيطة جدا، ويمكن أن نعدد منها خمسة :

1 - عدم وجود مجتمع مدني في البلدان العربية بصفة خاصة وفي بلدان العالم الثالث بصفة عامة. وأعني بعدم وجود مجتمع مدني عدم احترام حقوق الإنسان، وعدم ممارسة الديمقراطية. وهي أشياء نؤدي ثمنها حاضرا وسنؤدي ثمنها مستقبلا على الأقل لمدة خمس أو عشر سنوات.

2 - الجهل. إن نسبة الأمية في العالم العربي تفوق 56٪ من سكانه، وإذا سلمنا بأن هذه المنطقة العربية هي منطقة إسلامية، وأن أول آية نزلت في القرآن هي «اقرأ باسم ربك»، يمكننا أن نتساءل هل نحن نعيش حقا في مجتمع إسلامي أم لا؟ وهل المسؤولون على الحكومات العربية هم فعلا مسلمون؟ هؤلاء المسؤولون الذين يقررون الأولويات في ميدان التنمية.

3 - عدم وجود رؤيا موحدة، أي عدم وجود إجماع حول المجتمع الذي نريده مستقبلا، والافتقار الى هذه الرؤيا له علاقة بالسبب الأول، لأنه في غياب مجتمع مديني يمكن لكل فرد أن يعبر فيه عن طموحاته وأحلامه، فمن غير الممكن أن تكون هنالك رؤيا موحدة على الصعيد الوطني أو الإقليمي.

4 - بناء النموذج التنموي المعتمد في دول العالم الثالث خلال الثلاثين سنة الأخيرة وبالخصوص في العالم العربي على التقليد الأعمى وعلى التبعية، وبالتالي على عدم الثقة في النفس وعدم الجدية.

5 - عدم وجود سياسات أو استراتيجيات علمية أو تكنولوجية. وعدم الاستثمار في البحث العلمي.

إذن على ضوء هذه الأسباب يمكن للإنسان أن يفسر الوضعية الحالية التي يعيشها العالم العربي أو العالم الثالث بصفة عامة، هذه الوضعية التي يطبعها الضعف، وبالتالي فهي تفسح المجال على مصراعيه للدول الاستعمارية كي تتصرف كما يطيب لها.

فيما يخص التنمية، هنالك وصف أطلقه السيد روني ماهو، مدير عام سابق في اليونيسكو، الذي كان لي شرف الاشتغال معه كنائب مدير عام، كان يقول عن التنمية : إنها تتحقق حين يصير العلم جزءا من

(×) 19 فبراير 1991

الحضارة، أو بمعنى آخر تكون التنمية حين يكون للعلم مكان داخل القيم التي تسير المجتمع، وأظن أننا نسينا في بلداننا وفيما يخص التنمية، نسينا تماما أن نخصص للعلم والتكنولوجيا مكانتهما، خاصة وأن لنا حضارة، وأن لنا دينا، وليس هناك أي كتاب منزل يتطرق الى كلمة العلم مثل القرآن الذي لا يكتفي بالإشارة الى هذه الكلمة، بل يورد بشأنها تفاسير ومعاني لم نتوصل حتى الآن الى فهمها. مما يستوجب قراءة جديدة للقرآن. ولما أقول قراءة جديدة للقرآن، لا أعني أركان الإسلام أو الأشياء المسلم بها في الدين والتي يفهمها كل مسلم، إنما أعني قراءة جديدة للقرآن لكونه جاء لكل مكان ولكل زمان ولكونه يساير أي تقدم علمي أو تكنولوجي ولا يتنافى معه، فكلما ازددنا فهما لآياته الكريمة كلما ازددنا إلماما بالعلم وبالتكنولوجيا. هناك علماء مقتدرون، ومنهم محمد عبد السلام، كتبوا الكثير عن القرآن والعلم.

لذا فالتفتح شيء ضروري في الإسلام، وأعني التفتح الإيجابي، وحتى الاختلاف، ليس في الأركان والمسلمات، لكن الاختلاف الذي أعنيه هو سنة وفيه أجر، وبدون اختلاف ليس هناك تعددية، وليس هناك تقدم.

إن أول حقيقة تتعلق بالعلم والتي يجب فهمها أولا، هي أن حقيقة اليوم ليست هي حقيقة الغد. هناك أشياء في القرآن هي للدوام، لكن هناك أشياء لا يمكن أن نتوقعها أو نقرأها في كل قرن بنفس الطريقة، فغير ممكن أن نقرأ القرآن، ونحن على وشك القرن الواحد والعشرين، مثل ما كان يقرأ في القرن السابع أو الثامن. لأن المعرفة الإنسانية الآن لم تبق هي المعرفة الإنسانية للقرون الماضية، وأكبر خطإ وقع في تاريخ الإسلام وجر الى التدهور هو أن 95٪ ممن يسمون في بلداننا بعلماء الإسلام أو الذين يخطبون في المساجد يوم الجمعة هم جهلاء! لا أعني أنهم جاهلون بالدين، ولكن بما يدعو اليه الدين من الاجتهاد، ذلك أنه في القرن 11 قرر بعض الناس قفل باب الاجتهاد بدعوى أن الأشياء كلها واضحة وكل شيء واضح في القرآن وواضح في السنة وفي الأحكام التي صارت للمذاهب الشرعية، إن هذا في نظري هو أكبر غلط، لأنه لا يمكن فهم القرآن إلا بطريقة ديناميكية، وبمفهوم التغيير، فالقرآن جاء بالتغيير، والتغيير لا يهم وقتا معينا محدودا، لكنه تغيير مستمر، وفي نظري ليس هنالك مسلم يقبل أن قراءة القرآن اليوم هي قراءته غدا!

فلنعد قراءة هذا القرآن، ليس فيما يخص الأركان أو العبادات أو الأشياء المسلم بها في ديننا الحنيف، لكن في الأمور الخاصة بالتفتح، إن هناك جهلاء يجهلون جهلهم ولا يتركون الفرصة لأي أحد يريد أن يعري لهم جهلهم ويعطيهم البرهان على ذلك.

أعود الى حرب الخليج فأقول إنه من بين الأمور التي استفدنا منها بالنسبة لكل فرد هي أهمية العلم، فكل فرد الآن، سواء كان رجلا أو امرأة أو طفلا، فهم أن هذه حرب من نوع جديد، وأنها تتمحور حول العلم

والتكنولوجيا. فحينما نسمع بصواريخ الحسين أو العباس، فهذا برهان على أن في العراق وجد اهتمام بالعلم.

في سنة 1976، عقد أول اجتماع للعلم والتكنولوجيا في العالم العربي، وقد نظمته اليونيسكو، وكان لي دور في تنظيمه، وأخذت المبادرة أثناءه مع بعض الزملاء من بلدان عربية أخرى، تتعلق بتوصية لإنشاء صندوق عربي للبحث العلمي باعتماد قدره 500 مليون دولار، وهو مبلغ يصرف الآن في ست أو سبع أو ثماني ساعات يوميا في حرب الخليج. وقمنا بدراسات، في إطار فرقة اشتغلت معها للقيام بدراسة للجدوى، وتوصلنا الى توصية بإنشاء هذا الصندوق، وفي آخر لحظة تعطل هذا المشروع ولم ينشأ هذا الصندوق، لأن بعض الدول الخليجية، خاصة منها الكويت والسعودية رفضت أن يكون مركز هذا الصندوق الخاص بالبحث العلمي بالعراق، وقد تم ذلك بعد الاتصال بمجالس البحث العلمي الموجودة في كل البلدان العربية تقريبا، وهناك اتحاد لهذه المجالس العربية كان مقره موجودا بالعراق. وفي تلك الأثناء - أي في سنوات 1978- 1979- 1980- 1981 كانت العراق تصرف 2٪ من مدخولها القومي في البحث العلمي، وبقية الدول العربية كلها بما فيها الدول الخليجية التي كانت لها إمكانيات كبيرة لم تكن تصرف حتى 0،3٪ في هذا الميدان.

إذن أول ما يلفت الاهتمام هو أن البلد العراقي فهم قيمة العلم وأنفق في ميدان العلم ليس بالطريقة التي تنفق بها بقية دول العالم العربي أو دول العالم الثالث. يمكن أن نقول بأن العراق اتبعت الطريقة الهندية أو طريقة البرازيل أو حتى المكسيك، وهي طريقة مبنية على الاعتماد على النفس، وسنتكلم فيما بعد عن مشكل نقل التكنولوجيا، لأن الطريقة العراقية كانت ذاتية ومبنية على الكفاءات الوطنية وعلى مجهود داخلي.

حرب الخليج هامة أكدت ما قلته يوم 27 سبتمر 1990 - أي أسابيع وشهور قبل اندلاع الحرب - على أمواج الإذاعة الدولية الفرنسية من أن الحرب ستقع، وأعطيت من بين الأسباب أن الولايات المتحدة الأمريكية ومن يدور في فلكها، بمن فيهم إسرائيل وانكلترا وفرنسا، أنفقت الكثير في الميدان العسكري وأصبحت لديهم عدة أسلحة جديدة متطورة يجب أن يختبروها، وبما أنه كان هناك نزاع ما بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، فقد كانت هذه الأخيرة تخشى إذا ما قامت بتجربة هذه الأسلحة أن يكتشف الاتحاد السوفياتي بعض هذه الأسرار بفضل الطرق العلمية الموجودة الآن. لكن لما انتهت الحرب الباردة فتح المجال أمام أمريكا وأصبح بإمكانها أن تجرب تلك الأسلحة، إلا أنها لكي تجربها هي في حاجة الى مختبر، والخليج كان هو هذا المختبر!

نحن هنا بصدد الكلام عن حرب علمية تكنولوجية. في دراسة صدرت بمجلة طاميز مكازين قدر

مستوى إصابة الهدف فيما يخص الأسلحة المتطورة المستعملة خلال الحروب المعاصرة، قدر مستوى الضبط في إصابة الأهداف بالصواريخ وما شابه ذلك من أسلحة متطورة بما لا يتعدى 30٪ يعني حينما تطلق الصواريخ أو القنابل من الطائرات المتحكم فيها بأشعة الليزر أو بغير ذلك، يصيب الثلث منها فقط هدفه، أي أن 70٪ المتبقية كلها تذهب سدى. لكن يقال بأنه خلال الحرب العالمية الثاني كان تحقيق الأهداف بنسبة 3٪، إذن هناك تقدم بمستوى 10 مرات أكثر. لكن يجب أن لا ننسى أن جل هذه الأسلحة تستعمل للمرة الأولى والمقصود منها هو دراسة نتائجها. والدول التي تختبر هذه الأمور هي الولايات المتحدة وإسرائيل التي لها مشاريع كبرى في البحث العلمي. من جهة أخرى يجب أن نعرف العلاقة الموجودة ما بين العلم والتكنولوجيا والحرب ووسائل التخريب والتهديم، وهي أمور لها علاقة بالحضارة الغربية وبالقيم الغربية. هناك أكثر من 200 مليون شخص يشتغلون في الصناعة الحربية و60٪ من بين هؤلاء من الجالية العلمية العالمية، يعني أنه في الغرب إذا وجدت ثلاثة علماء، فكن على يقين بأن اثنين منهم يشتغلون في ميدان التخريب، لأنها هي الوسيلة التي يمول بها البحث العلمي في أكبر الكليات. إن مؤسسات كالمعهد التكنولوجي «بماشاسوسيتش» أو «هارفارد» أو «كالفورنيا» أو غيرها من المعاهد لها اتفاقيات مع وزارة الدفاع الأميركي ومع وزارة الأبحاث العلمية. طبعا البعض منها في البيولوجيا والبعض الآخر في الفيزياء والبعض الآخر في الميكانيك... لكن جزءا منها خاص بالأبحاث العلمية. ولا ننسى كذلك أن 40٪ من الإنتاج الصناعي في الولايات المتحدة هو في الميدان العسكري. إذن حين ننظر من الناحية الاقتصادية ونرى أن 200 مليون من الناس يشتغلون في هذا الميدان : أكثر من 60٪ من العلماء، يعني الجزء الأكبر من البحث العلمي، فهذه الأسلحة، التي يبذل بشأنها هذا المجهود الجبار، يجب أن تجرب، ويجب أن تباع، وإذا بيعت يجب أن تحطم لكي تباع من جديد فيما يخصنا نحن، إذا أخذنا دول الخليج أي السعودية والكويت والإمارات وقطر والبحرين وعمان فقط، نجد أن هذه البلدان صرفت ما يناهز 150 الى 200 مليار دولار في شراء الأسلحة خلال العشر سنوات الماضية. وقد دفعت في شراء هذه الإسلحة ثمنا مضاعفا وليس ثمنا حقيقيا، والمهم الذي يلاحظ أن هذه الدول لما اشترت هذه الأسلحة لم تقم بأي بحث علمي خاص بتحسينها، أو بالتعامل والتفاهم معها من الناحية التكنولوجية، بل اشتروا هذه الأسلحة كبضائع دون تفهم لقيمتها أو خباياها. وهذه المبالغ التي تدفعها الدول المذكورة (من 150 الى 200 مليار دولار) تذهب منها على الإقل 25٪ فأكثر، كتمويل للبحث العلمي في الولايات المتحدة والدول الغربية من طرف دول العالم الثالث.

ففي كل عشر دولارات مما تدفعه دول العالم الثالث في الأسلحة، هناك ثلاثة دولارات تذهب مباشرة لتشجيع البحث العلمي في البلدان الغربية، وكما تعلمون منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حصل ما يقرب

من 250 نزاعا مسلحا في العالم، ،كلها وقعت بالعالم الثالث وكل الأسلحة التي استخدمت فيها من الغرب. ومع ذلك يستمر نفس السيناريو أي أن هذه الدول تشتري الأسلحة لتستغلها في قتل بعضها البعض أو تستغلها لأهداف أمنية داخل بلدانها، ولم نر قط أسلحة اشتراها العالم الثالث واستعملت ضد الغرب باستثناء حرب كوريا وحرب ڤيتنام، وطبعا الآن في العراق.

إن المقصود من تحطيم العراق هو أن هذا البلد له نموذج تنموى وأعطى أولوية للبحث العلمي والتكنولوجيا، وهذا غير مقبول من قبل الدول القوية، فالقوى الكبرى لا تسمح، وبالخصوص في منطقة الشرق الأوسط لأي دولة كيفما كانت أن تسيطر على العلم والتكنولوجيا مثل ما عملت إسرائيل، لأن ذلك يشكل خطرا في نظرهم على الأمن في المنطقة وبالتالي خطرا على بقاء إسرائيل.

هذه بعض المعطيات المتعلقة بعلاقة العلم والتكنولوجيا، وتجدر الإشارة الى أنه يجب أن نكون متفائلين على الأقل في المدى المتوسط، لأن هنالك تقدما كبيرا في العالم العربي، فحسبما قمت به من إحصائيات خلال العشر سنوات الماضية، نشر ما بين 30 ألف أو 40 ألف صفحة في ميدان البحث العلمي المحض من طرف أشخاص عرب البلدان العربية. لكن من يقرأها ومن يعيرها ما تستحق من اهتمام؟ فهذه الأبحاث العلمية كل صفحة منها تستوجب أن يصرف في تطبيق ما كتب فيها، على الأقل ما بين 50 و 100 ألف دولار من قبل الدول في هذه المنطقة لكن، ويا للأسف، لنا ما ننفقه على الحفلات بسخاء، ولنا الأموال التي تصرف في أغراض ثانوية، وليست لنا أموال ننفقها في ميدان العلم والتقنولوجيا داخل بلداننا.

كتب أنطوان زحلان، وهو خبير عربي، عن العلم والتكنولوجيا في العالم العربي وقدر أن هناك على الأقل 500 ألف من المهندسين في البلدان العربية، بينما هنالك أكثر من 250 ألف مهندس عربي يشتغلون خارج العالم العربي. إذا ما أخذنا هذه النسبة وهي 750 ألف مهندس عربي، نجدها تفوق نسبة عدد المهندسين في فرنسا أو في ألمانيا. ولكن من كل ثلاثة مهندسين هنالك واحد يشتغل في الخارج ليس لأسباب مادية فقط أو لطمع، لكن لأنه لا يجد الوسائل الكافية لممارسة عمله أو بحثه العلمي، أو لم يجد المناخ الملائم للقيام بعمله. لأن العالم أو الباحث لا يمكن أن يقوم بعمله إذا لم يجد الحرية لكل مقوماتها، من حرية التعبير الى التعددية والاختلاف مع الآخر في الرأي وإمكانية نشر أي شيء دون تخوف من أن يجد الإنسان نفسه في السجن بسبب أنه قال كلمة لا تتماشى مع كذا، أو لا تعجب هذا، أو فيها مس بكذا، إن وضعا لا تسوده حرية البحث والتعبير يشكل عائقا وعرقلة للبحث العلمي. لهذه الأسباب نفهم لماذا هذا العدد من المهندسين العرب يوجدون بالخارج.

بالنسبة للمغرب، إذا ما أخذنا المركز الوطني للبحث العلمي بفرنسا الذي يقوم بإعداد تقارير سنوية

تضم جميع الإحصائيات، نلاحظ أن أكثر من 700 شخص مغاربة من الجنسين لهم مستوى الدكتوراه وأكثر يشتغلون في هذا المركز في إطار البحث العلمي. وإذا ما لاحظنا أن كل واحد من هؤلاء صرف عليه من الميزانية المغربية أكثر من 100 ألف دولار، يمكن القول عندما نتكلم عن المساعدة الفنية، من يساعد من؟ فرنسا ترسل لنا خبراء من الدرجة الثالثة أو الرابعة، والنصف من هؤلاء يشتغلون لصالح المخابرات، ونحن نعطيهم أكبر خبرة عندنا، إذن فمن يساعد من؟

هذه إذن نقطة لها علاقة بحرب الخليج، خاصة وهذا وقت للتأمل والتبصر لنتفهم المشاكل، خاصة بالنسبة للشباب الذين هم جيل الغد.

كنت في القاهرة يوما ما وأخذت سيارة أجرة للمطار في الساعة السابعة صباحا، فلاحظت أن سائق الطاكسي يبكي، ولم أكن أفهم السبب، وكان ذلك الصباح هو الذي وقع فيه أنور السادات على اتفاقية كامب ديفد، وغادرت القاهرة وواعدت نفسي ألا أرجع إليها حتى يطاح بالسادات، وراح السادات ورجعت الى القاهرة مرارا أقول انعقدت مؤخرا في القاهرة ندوة عن العلم والتكنولوجيا، نشرت مؤخرا في المستقبل العربي عدد 143 شهر يناير 1991 الصفحة 116، تقول هذه الندوة أنه علينا أن نتذكر أن 85٪ من البحث العلمي بمصر ممول من أربع هيئات أجنبية. انظروا الفرق بين مصر والعراق! البحث في مصر 85٪ منه ممول من الخارج، وحتى من الخارج هناك أربع هيئات ثلاثة منهم مؤسسات أمريكية معروفة. ويداخلني الشك بشأن دوافع هذا الإنفاق الأجنبي على البحث العلمي بمصر؟ فما سبب هذه المحبة وهذا السخاء؟ الشيء الذي لا يأخذني فيه الشك هو أن الباحثين في مصر يخدمون أجهزة المخابرات الأجنبية! يمكننا أن نقول لهم : مرحبا بكم، لو كانوا في خدمة المخابرات المصرية. أقول ذلك لأن مصر تهمنا جميعا وهذا موضوع استراتيجي، وقد أذهب الى حد القول بأنني أفضل أن لا يكون لدينا بحث علمي مادامت أجهزة دولنا لا تعطي الأسبقية والمصداقية له. ونفس المشاكل عندنا في المغرب وتونس والجزائر. إن البحث العلمي كله يعتمد على المساعدات الثنائية والدولية. هنالك مؤسسات، مثل معهد الحسن الثاني للزراعة، تمول فيها الأبحاث من قبل كندا وبلجيكا وغيرهما. وكذلك الشأن بالنسبة لكلية علوم التربية فهي تعتمد على كندا وفرنسا وبلجيكا الخ، فمن الأفضل أن لا يكون بحث علمي، لنرسل خبراءنا الى الخارج ليتكونوا، فمادام البحث العلمي لا تعطيه حكوماتنا الأولوية الكافية، فإننا نلاحظ أنهم بتمويلهم لنا يعطونا 10 دولار، وتعود عليهم ب 200 الى 300 دولار. زيادة على أنه وسيلة للاطلاع على أسرارنا، لفهم طبيعة الخبراء في بلداننا ورصد من سيكون لهم مستقبل لاستدراجهم الى التجارة، وسرقتهم بطريقة بسيطة. فالمسألة إذن لا تتعلق بأهمية البحث العلمي فحسب، بل بطريقة تمويله.

فإذا ما راجعنا تاريخ العلم والتكنولوجيا في العراق، وهذا شيء تتبعته منذ البداية وباهتمام، يمكن أن نقول أن أكثر من 90٪ من كل ما انفق على البحث العلمي والتكنولوجي في العراق جاء من ميزانية الدولة، ولكن في بقية العالم العربي ممول بمساعدة من الخارج، وكذلك الشأن فيما يتعلق بالجزائر وفي تونس، وفي مصر.

إذن يجب أن نكون على وعي بما يجري، وأن نستنتج من حرب الخليج أشياء للأجيال القادمة، ونركز على إعطاء الأولوية للبحث العلمي.

هناك قطاع لازلت أحاربه منذ عشرين سنة، كاقتصادي، نظرا للأولوية التي تعطى له، وهو قطاع السياحة، إن هذه الأولوية هي غلط فاحش، من الناحية الاقتصادية، لأنه ناتج عن نموذج اقتصادي تنموي مبني على الخارج. فلماذا نبني الفنادق من فئة خمسة نجوم، بينما هنالك حاجيات أكبر وأهم.

إن السياحة هي قطاع يتميز بالتغيير حسب الظروف النفسانية، فإذا سمع السائح الأجنبي بأن هناك إصابة بالكوليرا على بعد 500 كلم من المغرب فإنه لن يأتي الى المغرب. فعوضا عن ذلك ينبغي أن نبني فنادق من فئة 2 نجوم أو 3 تكون في متناول المواطنين، أو نعتمد سياحة مبنية على التعاون مع دولة مثلنا، فالحمد لله إذن على أن السياحة الآن في أزمة، ومن شأن ذلك أن يجعلنا نستخرج العبرة كي نخطط بشكل أفضل مستقبلا، ونركز على سياحة داخلية تكون ذات جدوى.

الكل يفهم الآن أن قطاع السياحة هو ميدان للرشوى والفساد بجميع أشكاله، فمن يستغل هذا القطاع لوحده؟ هناك فئة من الناس قليلة العدد يمارسون أبشع أنواع الاستغلال، فمنهم مسؤولون حكوميون وفي مؤسسات كبرى استغلوا نفوذهم، والأخطر من الرشوة التي تطبع هذا القطاع تشكل السياحة ميدانا للتلوث الفكري والخلقي...

هناك نقطة أخرى لها علاقة بالعلم والتكنولوجيا والأخلاق. إن العلم والتكنولوجيا في الحضارة الغربية مبنيان على المادة دون أي اهتمام بالجانب الإنساني أو الأخلاقي. ويبدو التركيز واضحا على ما يسمى بالتنمية الصناعية الوحشية، مما نتج عنه تلوث ليس فقط التلوث البيئي، وإنما التلوث الحضاري فيما يخص القيم، فقد أعطيت الأولوية للمادة على حساب القيم، وصارت هذه المادة هي التي تتحكم في العلم وفي المجتمع وفي التكنولوجيا .

في هذا الصدد نذكر علماء كبار ومنهم أنشتاين الذي حورب من طرف اليهود لأنه لم يكن صهيونيا، وقد كان افتخاري كبيرا بجائزة آنشتاين التي نلتها، وذلك لسبب واحد هو أنني أعرف دور آنشتاين في العلم. وأذكر أن هذا العالم الكبير قد أنشأ مع جماعة من العلماء، ومنهم برتراند راسل وآخرون، انشأوا حركة

(باكواش) على إثر إرسال القنبلة الذرية على هيروشيما، وقد اشتغلت مع هذه الحركة سنين، وهي ذات هدف علمي وأخلاقي، كما اهتمت بالعلم والسياسة، والعلم والمجتمع.

حقيقة إن هنالك منافع مادية على المستوى المدني في الغرب، لكن كنا نعرف من خلال استقراء لتاريخ العلم والتكنولوجيا أن التقدم الحاصل في الميدان الطبي أو الإعلامي أو في جميع الميادين نتج في جزء كبير منه عن الصناعات الحربية والعسكرية. فالأقمار الصناعية التي تدور في الفلك 80٪ منها كلها للتجسس. إذن كلها عسكرية، لكن بعض نتائج التكنولوجيات العسكرية ترجع من بعد الى الميدان المدني مثل الإعلاميات والبيوتكنولوجيا ومثل ما يسمى بالمواد الجديدة التي تستعمل في الفضاء.

إذن هناك علاقة مباشرة متينة بين العلم والتكنولوجيا من جهة، والتحطيم والتخريب من جهة أخرى، إلى حد أن بعض الناس بدأوا يتساءلون عن أهداف هذا التطور العلمي التكنولوجي.

إن ما نراه في الخليج، وبقطع النظر عن التحليلات السياسية والايديولوجية والعسكرية والدينية هو برهان قاطع يقدمه الغرب عما وصل اليه من همجية علمية تكنوقراطية، والتي لا أتردد في تسميتها بالوحشية التكنولوجية، خاصة في وقت يشهد فيه تحولات عظيمة في ميدان المعرفة.

وخير مثال أعطيه في هذا الصدد، أي على مستوى المعرفة، هو عندما نتكلم الآن عن الوجه غير المادي للاقتصاد، أو ما نسميه باللامادية الاقتصادية، قد يبدو لأول وهلة أن هناك تناقضا، إلا أن هناك حقيقة نلاحظها هي أن الاقتصاد الآن هو أقل مادية مما كان عليه من قبل. فماذا نعني بذلك؟ لنأخذ مثلا حاسوبا صغيرا من فئة 128 فقبل 25 أو 20 سنة لم تكن قاعة مثل هذه تتسع لمثل هذا الحاسوب، وقبل أربعين سنة فإن أول حاسوب استخدمه المعهد التكنولوجي بماشاسوسيش يشغل قاعة تكبر ثلاث مرات فصلا دراسيا وذاكرته أكبر بكثير من ذاكرة الحاسوب الموجود الآن.

ما أعنيه من أن الاقتصاد صار أقل مادية الآن، هو أن المواد المستعملة الآن هي أقل بكثير مما كانت تستعمل من قبل بالنسبة للآلات. فالمواد الموجودة في هذه القاعة من خشب وأشياء أخرى كانت تكلف كثيرا من المواد في صنعها. أما اليوم فهناك مواد جديدة تصنع في المختبرات ولكنها مركبة ولا تحتاج الى مواد منجمية. مواد أسهل وأرخص تكلفة من تلك التي نستخرجها من المناجم. وأعطيكم مثالا بالنحاس، ففي ميدان التلفون قبل عشر أو 15 سنة كنا نحتاج لـ 10000 مكالمة لأطنان من النحاس تستعمل في صنع أسلاك التلفون، أما الآن فعوض العشرات الآلاف من الأطنان نكتفي بكيلوميتر من النسيج البصري فقط. وعوض أن نذهب الى (روديسيا) أو (زيمبابوي) أو (زايير) ونبحث عن النحاس ونصنعه فإن النسيج البصري الآن يصنع داخل مختبر وبسهولة.

ومن هنا يمكننا القول ان المواد الباطنية المستخرجة من تحت الأرض لا مستقبل لها، وقد قلت هذا قبل سنة 1981 بالامارات في أبو ضبي، ونشر قولي في جريدة الاتحاد، وقد واخذوني كثيرا على قولي بأن الدول التي تملك المواد الطبيعية قد سخط الله عليها حين أعطاها ذلك، ونلاحظ في هذا الصدد بأن ولاية التيكساس بالولايات المتحدة الامريكية، التي تتوفر على أكبر الموارد الطبيعية هي مصدر الداء والسوء. وبوش وبيكر ينتميان الى هذه الولاية، أي ولاية التكساس، وكلاهما اشتغل في ميدان النفط، وبوش كان يملك شركة نفط.

إن الاهتمام بالمواد الطبيعية مهم الى حد ما، لكن الاهتمام بالعلم والمعرفة هو الأساس، وما ينتجه العقل هو أهم بكثير مما تعطيه المادة. إن الفرق بين هذا الحاسوب والحاسوب القديم ليس السر فيه هو المادة، بل هو الابتكار والاختراع وما ينتج عن العقل، لأن التطور الحاصل في الاقتصاد، وهو ميدان مادي، صار أقل مادية.

هناك شيء جديد في ميدان العلم وهو مهم جدا. ظهر منذ سنتين أو ثلاثة، وهو أن الأشياء غير المادية يتبين أن لها علاقة بالمادة، بالمفهوم العلمي للمادة، وهو أمر يصعب تفسيره من الناحية العلمية والفلسفية الميتافيزيقية.. لكن يكفي أن أقول بأن الجديد في ميدان الفيزياء أو ما يسمى بفيزياء الجزئيات قد أنهى مرحلة الفيزياء الميكانيكية كنظرية نيوتن وغير ذلك من النظريات التي تعتمد في تفسير الكون على النظرية الميكانيكية، أي أن الكرة الأرضية والكون مثل آلة تعمل بنظام قار الخ. كل هذا قد انتهى، فلا يمكن بتاتا أن نبحث علميا في الميادين المتقدمة جدا، مثل الفيزياء النووية أو ما شابه ذلك إذا لم يتغلب الانسان على الفكرة القائلة بأن هنالك عالم المادة وعالم غير المادة، فهذا الفرق انتهى.

ومن الناحية الفلسفية تعتبر هذه ثورة عظيمة لا تدرك حتى الآن ما هي نتائجها في المستقبل.

إن الجهاد الحقيقي في الاسلام هو أولا وقبل كل شيء جهاد المسلم مع نفسه، مع عقيدته، مع أخلاقه ومع نفسه قبل معاملته مع الناس.

إن المظاهرات والأناشيد، والشارع هي أشياء كلها معمولة في أوقات معينة لأنها رمزية، لكن الممارسة الحقيقية لمواجهة التحديات هو الجد والبحث والعلم والتكنولوجيا، وكلامي هذا لا علاقة له بحرب الخليج.

منذ سنة 1974، وأنا ضد نقل التكنولوجيا، فالتكنولوجيا لن تنقل لأنه شيء غير ممكن، ممكن أن أذهب وأشتري أشياء أو آلات تباع في الأسواق أو في الدكاكين، لكن كوني اشتريت آلة هل هذا كاف في حد ذاته؟ إذا لم يكن في إمكاني فهم ماهية هذه الآلة، أو في استطاعتي أن أفككها أطرافا ثم أركبها بطريقة ملائمة لما أريده منها، أو أزيد فيها أمورا أخرى أو أنقص منها، حسب الطريقة التي تتماشى مع حضارتي وظروفي.

هذا هو ما لم نفهمه بعد.

إن شراء آلة أو مصنع بطريقة المفتاح في اليد هو أمر غلط، وبالتالي فإن نقل التكنولوجيا هو أمر غلط.

فاليابان التي يقال عنها - خطأ - بأنها كانت تقلد، فهمت التكنولوجيا وتزيد عليها أشياء لها علاقة بحضارتها وبقيمها وبذوقها وحتى بالألوان التي تحبها. يعني تكييف التكنولوجيا مع المناخ الحضاري والثقافي الخاص بها.

وفي اعتقادي أنه لا يوجد مجال للرشوة مثل مجال التكنولوجيا، لأنه حينما نقوم بنقل حاسوب أو آلة ما بتعاون مع الخارج أو بقرض أو بكذا، فهذه ميادين خصبة لعملية الارتشاء. ويكمن الأمر كذلك في المساعدة الفنية سواء أكانت هذه المساعدة من البنك الدولي أو غيره، فهو مفهوم يختلف تقديري له عما يفهمه كثير من الناس، وتقديري هذا ليس خاصا بي لوحدي، فقد جاء هذا التقرير في مجلة أمريكية في شهر أبريل عام 1988، وهو أن ما يقرب من 40٪ من كل ما يسمى بالمساعدة الفنية، أو بالتعاون الدولي سواء أكان هذا التعاون ثنائيا أو عن طريق المنظمات الدولية، يرجع الى حسابات خاصة لبعض المسؤولين في العالم الثالث مفتوحة لهم بالأبناك الغربية.

وفي مقال افتتاحي لمجلة نيويورك تايمز قبل سنتين، أن من كل 1000 دولار يقرضها البنك الدولي لدول العالم الثالث، 780 منها ترجع الى الولايات المتحدة بطريقة من الطرق.

إذن نقل التكنولوجيا مو مفهوم غلط، ولهذا يلزم أن نعتمد على أنفسنا. فكيف نقاوم هذه المسائل، وهي التحديات التي يجب أن يقوم بها كل شخص ممن يسمون بالمثقفين أو أصحاب العلم؟ الحل بسيط:

أولا : الجدية؛ هذه الجدية التي يجب أن يتحلى بها كل شخص مع نفسه أولا. فإذا ما كان الانسان جديا وله أهداف شريفة، وله مقاصد بالمفهوم الاسلامي، فإنه ولا شك سيصل الى هذه الأهداف. فإذا كان الطالب الجالس على الكرسي من أجل أن ينجح في الامتحان، وبعد ذلك يحصل على منصب، ثم يرقى من سلم الى سلم، أو ليمكنه أن يحصل على سلف، أو ليمكنه أن يغير سيارته الصغيرة بسيارة أجمل منها.. فإذا كانت هذه هي المحركات والحوافز الحقيقية، فمن الأفضل أن يبقى في بيته ولا يشغل محلا في دار للعلم والمعرفة. حقيقة إن هذه حاجيات لابد منها، وأن كل إنسان يسعى إلى تحقيقها، وبالتالي أن يكون في وضعية لائقة، لكن هناك محركات أساسية يجب أن يتوخاها الانسان، وهي أعمق وأهم من هذه الأشياء البسيطة. فالانسان يجب أن يضم داخل نفسه محركا أساسيا، بحيث حينما يقرأ كتابا، يعرف لماذا يقرأ

هذا الكتاب، ولما يكتب شيئا يجب أن يكون واعيا ومؤمنا بما يكتب.

إن هذه الجدية هي نوع من الايمان، فالايمان ليس بالله وبالدين فقط، فهذه من المسلمات المفروغ منها، إنما الايمان الحق هو أن أومن بنفسي كمخلوق خلقه الله في هذا الكون ليقوم بواجب وليؤدي رسالته في الحياة على أتم وجه، ولا يكفي لأكون مؤمنا أن أقول لا إلا إلا الله، وأن أصلي وأصوم وأن أزكي وكفى لأقول انني مؤمن، إن المؤمن الحق هو زيادة على ما ذكر، المؤمن بنفسه كمخلوق حمله الله مسؤولية فوق هذه الأرض، وأن يؤدي الامانة الملقاة على عاتقه، وأن يعمل شيئا يذكر. إن الإيمان الشكلي هو أن يقوم الانسان بالفرائض والطقوس التي يحاسب على تركها من قبل ربه، وهو مسؤول عليها بينه وبين خالقه، لكن الايمان هو العمل الصالح، وهو النهي عن المنكر هو الأمر بالمعروف، وهذه هي الجدية التي يجب أن يتحلى بها المؤمن. فالجدية والجدوى هي شرط أولى وأساسي، وهو ما يتنافى مع الغش، وليس هناك أي شيء سلبي أكثر من غش الانسان لنفسه، وأن يكذب على نفسه.

إذن فالقيام بهذا النقد الذاتي واجب على كل فرد أو مسؤول أو حكومة أو مجتمع. إذا ما قمنا بهذا النقد فسنحرر أنفسنا وننظفها من الشوائب والأوساخ. فكل الأشياء عرضة للوسخ، فإذا تركنا آنية فسنجدها بعد ساعتين مكسوة بالغبار. فكذلك النفس البشرية هي عرضة للأوساخ سواء داخليا أو خارجيا. فكما يجب على الإنسان أن ينظف نفسه من الخارج فيجب عليه كذلك أن يقوم بتنظيفها من الداخل، وذلك يتم بالتفكير والاجتهاد اليومي والمراقبة الشخصية، وينتج عن ذلك الثقة بالنفس التي بدونها لن نتغلب على مركبات النقص، وخير مثال على ذلك هو المنموذج التنموي الذي تكلمت عنه، والمبني على التقليد والاعتماد على الخارج، ومن تم فهو برهان قاطع على عدم الثقة بالنفس.

إن الدور الحقيقي للاستعمار يظهر بعد سنين من الاستعمار السياسي. إن الاستقلال السياسي يتم بشيء بسيط، بالتوقيع على وثيقة، كما أن الاستقلال الاقتصادي بسيط هو الآخر، ففي ظرف سنتين أو ثلاثة يمكن أن تصدر قانونا للتأمين بحيث يتم إخراج الاجنبي... الخ، لكن كيف نحصل على الاستقلال الحضاري والثقافي، كيف نعمل مع تلك المرأة التي تخاطب ابنتها أمام الخضار باللغة الفرنسية، فهذا إما مركب نقص وعقدة نفسية تبرهن بها هذه المرأة أمام بائع النعناع على أنها هي وابنتها تعرفان اللغة الفرنسية وهو لا يعرف التكلم بها. فلنتعلم عشر لغات أو ثلاثين لغة، وهذا شيء محمود ومستحبٌ إن لم أقل واجب، لكن أن يفكر الانسان بهذه الطريقة، وهي إهانة لغته وبني قومه، فهذا غير مقبول، وأكبر سبة كان يوجهها الاستعمار بالنسبة لي أو لعدد من الناس من جيلي هو لما يقول لك الفرنسي، إبان الحماية، «إنك

لست كالآخرين»، أي أنه يرفع من شأني ويطيح بشأن خمسة عشر مليون من الناس.

المسؤولية الثالثة التي تقع على كاهل المثقف هي الحرية، ويمكنني أن أقول بأن 95٪ من أسباب عدم وجود حرية في بلدان العالم الثالث ليست مسؤولية الحكومات، أقول ذلك وأنا واع بما أقول، إن 95٪ من أسباب عدم وجود الحرية في هذه البلدان ناتج عن رقابة ذاتية وهو شيء غير مسموح به، بل هو حرام، إن الفرد في هذه المجتمعات هو أسير نفسه، يخاف، وعوض أن يقول ١٠ كلمات يكتفي بقول ثلاثة منها مفضلا الاحتفاظ بسبعة في نفسه، ومادام يعرفها هو فلا داعي أن يقولها! وهذا غلط المثقفين والمسؤولين، فبعض هؤلاء يطبقون على أنفسهم رقابة، فكم من مرة يقال لشخص حينما يتكلم بصدق : والله أنا متفق معك تماما فيما تقول، إلا أنني لا أستطيع أن أقول ذلك، بينما أنت تستطيع قول ذلك! فما الفرق بيني وبينك، وماذا أعطاني الله ولم يعطه لك، حتى أستطيع أنا أن أقول ولا تستطيع أنت قوله...

يكفي أن تتحمل مسؤوليتك وتكون مستعدا لتؤدي الثمن على كلامك بكل ما تحمله الكلمة من معنى! هذا هو الفرق، لكن نجد أن 95٪ من المسؤولين الذين تقع عليهم مسؤولية التغيير، ومسؤولية النهي عن المنكر يطبقون على أنفسهم مثل هذه الرقابة، لماذا؟ لأنهم ينشدون الهناء وليسوا في حاجة الى مشاكل، ولكي يحافظوا على الامتيازات والترقيات، ومخافة أن يفقدوا ذلك، فهم يفضلون الصمت.

للمثقف دور رابع وهو أساسي : لنطرح السؤال : ما هي بلاد متخلفة؟البلاد المتخلفة هي التي تفتقر الى عنصر أساسي، ألا وهو وجود مجتمع مدني، هي التي توجد فيها فجوة ما بين الشعب وأصحاب القرار. في البلاد المتخلفة رجل الشارع يفكر بشكل مخالف لما يفكر به من يتخذ القرار في بلده. دور المثقف إذن هو أن يحاول التقليص من هذه الفجوة، وذلك بمحاولة الرفع من مستوى تفكير رجل الشارع من جهة، ومن جهة أخرى يقوم بنقد بناء يواجه به المسؤولين ، وفي ذلك نهي عن المنكر وأمر بالمعروف كما جاء في الاسلام.

وقد يغلط هذا المثقف، والكمال لله، إلا أنه مادامت هناك جدية، وما دام هنالك إيمان واجتهاد، فالأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى. فهذه الفجوة لابد من أن تتقلص، ولا يمكن أن تتقلص لوحدها، وهذا دور المثقف، أما إذا اختار المثقف أن يقف في صف المسؤولين ويصبح جزءا من أولائك الذين يأخذون القرار، فمن ثم يصير متخليا عن دوره.

هناك دور خامس يتعلق بالقيم، وقد قلت ما فيه الكفاية حول هذه النقطة، إذن لن أعود إلى ذلك.

سادسا، هناك شيء أساسي في عملية التطور، وضروري لمواجهة التحديات، وعلى الخصوص ما نراه في الخليج اليوم، وهو افتقارنا الى ذاكرة جماعية، وهذا سبب أساسي في ضعفنا.

إننا نتمسك بمبدإ التسامح خاصة وان الاسلام جاء بهذا التسامح.وبذلك نكون قد محونا ذاكرتنا الجماعية. لم نعد نتذكر أن فلانا كان مناضلا، لم نعد نتذكر أن في سنة 1953 وضع فلان أو فلان قنبلة في السوق المركزي، هذا ماض، ونحن الآن في عصر التعاون ولنا علاقات مع أوربا، ولنا أم حنون هي فرنسا، يجب أن لا نفعل شيئا يزعجها، إلى غير ذلك من هذا الكلام.

فلننظر إلى قواد إسرائيل كيف استغلوا ذاكرتهم الجماعية، هذه الذاكرة التي تؤدي عليها الثمن يوميا الدول الأخرى، فماذا يمنعنا نحن من التشبث بذاكرتنا الجماعية.

إن الاستعمار الغربي باع واشترى فينا نحن كبشر، ملايين الأشخاص ماتوا منا هدرا، فلماذا لا نقوم بإحصائياتنا ونطالب بتعويض عن خسائرنا في المجازر التي وقعت خلال 200 سنة، بما فيها مدة الاستعمار ومدة الحماية؟ لم لا؟ فمن مات في ضاشو)اشفضشط(، يعد بشرا، ومن مات في السجون الفرنسية أيام الاستعمار لا يعد بشرا! الذين عذبوا في ألمانيا في الحرب العالمية الثانية هم بشر! والذين سقطت عليهم القنابل في الجزائر ليسوا بشرا! لست أنادي بروح الانتقام، وإنما أذكر بواجبنا كي لا نمحي ذاكرتنا الجماعية. فهي حاليا ممحية لأن التاريخ المعاصر ممنوع ومحارب أو مصطنع. وليست هناك نزعة كافية في ميدان البحث العلمي، بل هنالك ارتزاق. ومن غير المسموح لأي عالم في أي تخصص كان، سواء في الدين أو غيره أن يتلاعب بالمسؤولية الملقاة على عاتقه كباحث أو كعالم، كما لا يسمح له بتزوير الحقائق، لكن نلاحظ أن هناك ارتزاقا من طرف مثقفين في العالم الثالث يبيعون أنفسهم بثمن، كما يقع في البورصة، وقد قلت ذلك في إذاعة الجزائر قبل شهرين أو ثلاثة، انه من الممكن وضع لائحة فيما يخص المغرب العربي، بأسماء مفكرين مثقفين مرتزقة، طبعا هنالك استثناءات والحمد لله، والاستثناءات كثيرة.

وأخيرا أشير الى ما يسمى بالتعاون جنوب جنوب. منذ 1976 وأنا أقول لا يوجد حوار شمال / جنوب، لأنه لا يوجد اتصال حضاري وثقافي بين الشمال والجنوب، فالشمال يرفض أن يتكلم لغتنا وهو ينتظر أن نتكلم كلنا لغته، فليس هناك حوار أوربي / عربي، لم أومن بهذه الفكرة في كل ما كتبت وما قلت سواء في المغرب أو في دول أوربية، وقد أوقعني رأيي هذا في سوء تفاهم مع مفكرين كبار في المغرب.

لا أومن بهذه الفكرة لعدة أسباب، أذكر منها سببا واحدا، وهو أنني لو كنت أوروبيا لرفضت الحوار مع العرب، لأن الأوروبي جدي والعربي غير جدي، وهذا السبب وحده يكفي، وهذا ليس نقدا لأوروبا.

هنالك خطر جديد ظهر في السبعينات، وحاربته منذ البداية، وهو ما يسمى اكتشاف حوض البحر الأبيض المتوسط، شيء عظيم! ونحن نملك نفس الطبائع ونفس اللغة، ورائحة الزيت المقلية والفلفل والطماطم والبادنجال الخ، هذه فكرة استعمارية محضة ظهرت، ويجب أن نعي مراميها، لأن الغرب برهن على

موقفه، وقد استفدنا من حرب الخليج على إثر ما يكتب في الغرب، وكل واحد يسجل عليه ما قال وما كتب، وعدد من هؤلاء يقولون لنا بكل وضوح: لم تبق لنا علاقة معكم! عندما يكتب شخص مثل جيل مارتيني، سفير فرنسا، وكان رئيس وكالة فرانس بريس ظإإظؤآ ظضهشؤع خلال الحرب العالمية الثانية، وقد لعب دورا حضاريا وثقافيا في تحرير الجزائر، وقد قضى سنين ككاتب للحزب الاشتراكي، عندما يكتب هذا الشخص وبكل وضوح بجريدة لوموند «فقدنا المغارب» فماذا نلاحظ إذن؟

وقد يقال لنا : أنتم عندكم سياسة عربية، ونحن عندنا البحر الأبيض المتوسط، ومعنا إيطاليا واسبانيا، فمن يريد أن ينضم إلينا فمرحبا به.

هؤلاء الناس قالوا لنا بصراحة بأنهم لا يريدون التعامل معنا أو على الأقل في الإبقاء على علاقات حسنة.

نحن دول التسامح ودول الحب ودول الانسانية، ولنا قيمنا، لكن يجب أن نحافظ على كرامة الانسان، فلا يجب أن نعانق من يكرهنا .

هناك نقطة أخرى أظن أنها دفنت وأتمنى أن لا أسمعها بعد الآن، وهي فكرة الفرنكوفونية التي أبانت عما هي الطموحات الحقيقية لها، وهي الآن ضاجعة في قبرها، لكن رأسها مازال ظاهرا .

اختُرِع شيء آخر وهو ما سمي بالتنمية الجماعية ومفادها إيجاد وسائل مشتركة لتنميتي أنا وتنميتك أنت، وهي في الحقيقة تعني تنويمنا نحن وتنميتهم هم.

هذه كلها أفكار يجب أن نأخذ منها الحيطة والحذر، ولا أريد أن يفهم من كلامي هذا أنني أقصد الانكماش، لا، فأنا أومن بالحوار البناء، وأتحاور معهم في بلدانهم، وما يشجعني في ذلك هو أنني ألاحظ أن هناك إنسانية في ميدان العلم، لازال هناك علماء بغض النظر عن جوازات سفرهم أو دينهم أو لونهم، لازالوا يتعاطفون معنا، ونجد عندهم الآذان الصاغية، وهو ما أعيشه يوميا سواء في طوكيو أو تمبوكتو أو هلسنكي، مع هؤلاء الناس يشعر الانسان أن البشر يحترم مثيله البشر حين يواجه بالحقيقة، فيتعامل معه آنذاك على أساس الوضوح والحقيقة.

لكن حينما تريد مجاملته وتقول له: أريد أن أكون جزءا منك، أريد عطفك، حينما ترى مسؤولين كبار يقولون لنا : من حيث سياسة التصنيع، ان أوروبا تحارب الآن التلوث، وهناك بعض الصناعات تهمكم أنتم مثل الصناعات الكيماوية وغيرها، فبما أنه ليست لنا مشاكل بيئية مثل التي يعيشونها، نقول لهم : أعطونا صناعاتكم المتلوثة لنتلوث بها نحن.

حينما نسمع الآن الضجة الثائرة حول التكوين المهني ونسمعهم يقولون بأن مستقبلهم قادم، سيكون هناك توزيع في الصناعات لأن فرنسا تشهد أزمة ديموغرافية، وليست لها يد عاملة كافية! ماذا ستفعل إذن؟ ستقوم بنقل معاملها ذات الانتاجية الصغيرة، والتي تحتاج الى يد عاملة منخفضة الثمن، سترسلها لنا وسنقبلها، وسنبقى على تخلفنا في صناعات القرن 19 وبداية القرن العشرين. كل هذا يقع نتيجة الافتقار الى الثقة في النفس.

محاضرة ألقيت بالمدرسة الوطنية للصناعة المعدنية بالرباط
يوم 19 فبراير 1991

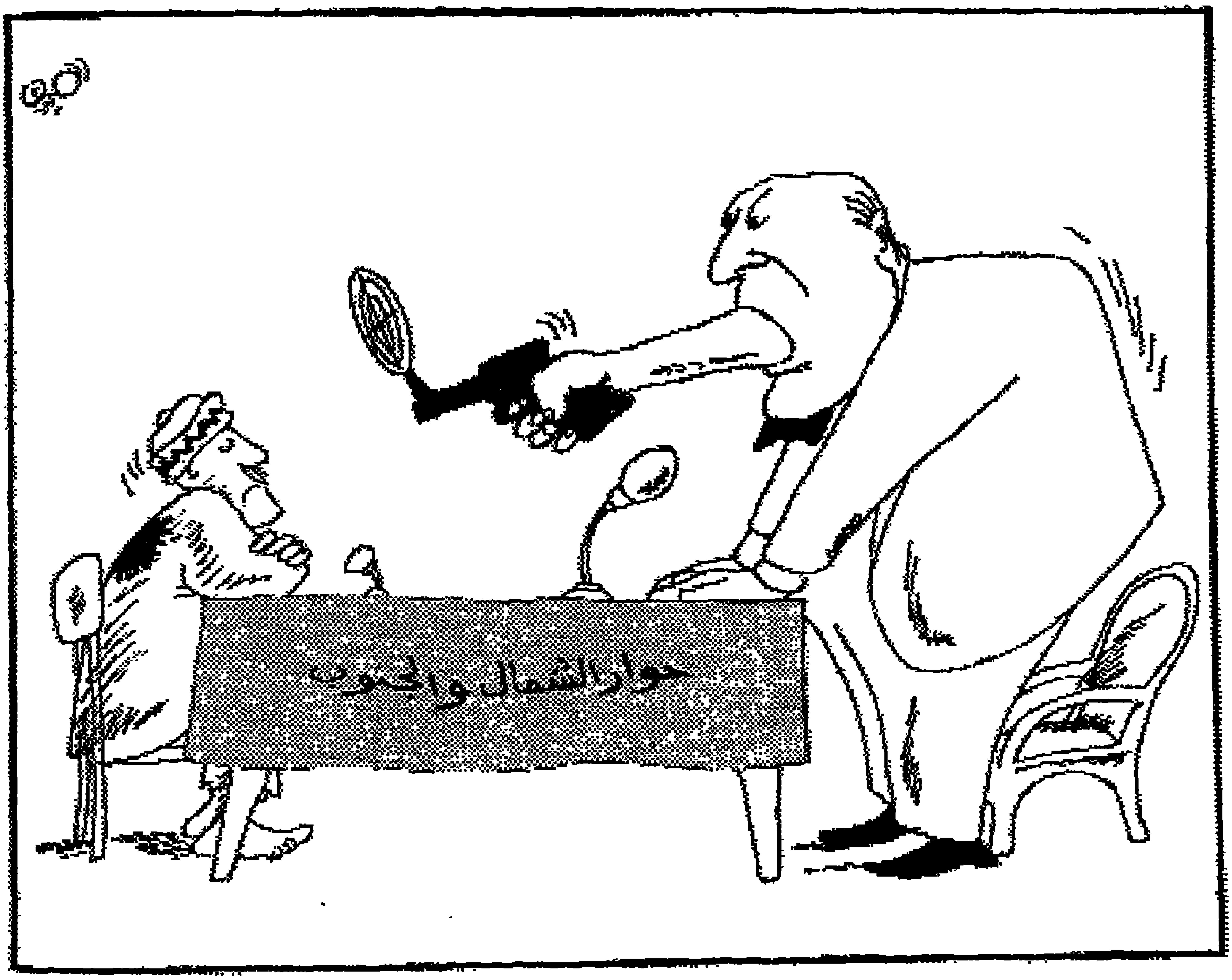

أول حرب عالمية حقيقية (*)

س : الأستاذ مهدي المنجرة، سبق وأن قلت بأن هذه الحرب هي الحرب العالمية الأولى والفعلية... هل يمكن أن تشرح لنا ذلك؟

ج : نعم هي حرب عالمية أولى، لأن الحروب السابقة مثل حرب 14-1917، وحرب 39-1945 كانت في الواقع حروبا غربية، لكن الحرب التي بدأت يوم 17 يناير 1991 هي في الحقيقة أولى حرب عالمية، لأن أهدافها ليست اقتصادية وسياسية وعسكرية، بل هي أهداف حضارية.

س : الأستاذ المنجرة ، العراق هو منبع الحضارة الانسانية، ما هو تقييمك لهذه الحضارة أولا، وما دمر منها اليوم ثانيا؟

ج : المنطقة التي يقع فيها العراق لها تاريخ في الحضارة الانسامية يمتد إلى أكثرمن 6000 سنة، منها حضارة سومر، وبابل، وآشور... وغيرها، ولكن هذا التدمير من طرف الدول العربية، أوقع للأسف مساسا بالمتحف الوطني ببغداد الذي هو جوهرة بالنسبة للذاكرة الحضارية للإنسانية ككل. وهناك حفريات مثل تلك التي في سامراء وحضرة والرافدين... على ما يظهر أن عدة قنابل سقطت فيها، وطبعا ليس لنا المعلومات الكافية عما يحصل حتى الآن. ولكن المؤلم أن هيئة اليونسكو، بالرغم من أنني كتبت للمدير العام يوم 23 يناير ونبهته لما يحدث، وقد نشرت هذه الرسالة في الكثير من الصحف العالمية، وكانت حولها ردود فعل إيجابية حتى في الغرب من طرف الاختصاصيين، ولكن اليونسكو لم تحرك ساكنا.

س : طيب، الأستاذ المنجرة، معظم هذه الآثار دمرت، فلماذا هيئة اليونسكو لم تطبق المعاهدات الدولية المتعلقة بحماية الملكيات الثقافية الانسانية؟

ج : لم تطبقها. فمعاهدة لاهاي لعام ٥٤ التي تعطي لهيئة اليونسكو ولمديرها مسؤولية خاصة، وإن كنت قد طلبت منه تطبيق البند ٢٧ منها بشكل خاص، والذي يسمح للمدير العام بالإتفاق مع المجلس التنفيذي لليونسكو أن يعقد اجتماعا للبلدان التي يهمها الأمر، خاصة إذا كان منهم 20٪ من هذه البلدان الأعضاء موقعين على الاتفاقية. وإلى حد الآن لم يقم المدير العام بأي عمل. أظن أنه كتب لبعض الدول، ولكن الشيء الوحيد الذي رأيته هو تصريح للصحافة مؤرخ يوم 7 فبراير وفيه خلط بين المشاكل المدنية في

(*) 23 فبراير 1991

العراق، وحتى إسرائيل، وحين نتكلم عن إسرائيل في اليونسكو علينا أن نعرف أنه لا يوجد بلد في اليونسكو وبخ مثلما إسرائيل فيما يخص عدم احترام هذه الاتفاقية، وهذا هو السبب الأصلي الذي دفع أمريكا أن تتخلى عن اليونسكو، كما تخلت عنها انكلترا، والواقع أن المدير العام الاسباني فيديريكو مايور نفسه انصب مجهوده كله على كيفية إرجاع الولايات المتحدة الى اليونسكو، طبعا لأنها تمول تقريبا ربع الميزانية، وذهب إلى درجة أنه قبل سنتين صرح في واشنطن قائلا بأن اليونسكو عليها أن تطبق القيم الحضارية الغربية، والآن يجتهد في إرضاء إسرائيل كي تطلب من الولايات المتحدة وانكلترا العودة لليونسكو، حقيقة هذه نكسة عالمية، حيث تتصرف اليونسكو التي مقرها في باريس، مثل الأمين العام الذي يتصرف تحت ضغط الدول الكبرى، بطريقة غير شرعية. فما يحدث في العراق لا يمس العرب والمسلمين فحسب، ولكن ذاكرة الحضارة الانسانية كلها.

وأنا آسف أن وزراء الثقافة في البلدان العربية، وبالخصوص في المغرب العربي. لم أر أي مبادرة من أي وزير مسؤول على القطاع الثقافي، على ما أعلم، أنه قام بأي مبادرة، لا مبادرة من المنظمة الاسلامية للعلم والثقافة والتعليم، ولم أر مبادرة من المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة (الألكسو)، ولم أر تحركا كافيا من طرف المثقفين داخل العالم العربي، إلا بعض الاختصاصيين القلة في تونس والجزائر كتبوا للمدير العام لليونسكو.

والصحافة الغربية نفسها لم تول هذه النقطة اهتماما. بالرغم من أنها همجية لا يمكن السكوت عنها. وإذن ما هي الثقة التي تبقى في مثل هذه المنظمات الدولية؟ أعتقد أن على الدول العربية مواجهة اليونسكو بطريقة أخرى إما بالإنسحاب أو تجميد علاقات العمل معها لأن هذه هي اللغة الوحيدة التي يمكن أن تفهمها.

س : فيما يتعلق بالمغرب العربي، ما هي متغيرات الوضع في ظل ما يجري اليوم في النظام العالمي الجديد؟

ج : لا يوجد هناك مغرب عربي، هناك مغرب عربي على مستوى الشعوب حيث الناس يعيشون يوميا بنفس الاحساس. منذ أيام عشنا الذكرى الثانية لهذا الاتحاد. وقد سبق لي في الجزائر في ماي من السنة الماضية، وكنت في لقاء مع الرئيس الشاذلي بن جديد، قلت بكل وضوح ان هناك حلما لدى أجيال بناء المغرب العربي، وقلت ان ما يجري اليوم هو اتحاد بين الحكومات ليس فيه رؤية ولا تعامل، هو نوع من التكنوقراطية، ويكفي أنني أتحدث مع إذاعة الجزائر من المغرب بصعوبة، أما التلفزيون فلا تشاهده إلا المناطق الشرقية من المغرب، والعكس صحيح. كما أن الصحف بعد سنتين من اتفاقية الوحدة لا يتم تبادلها بين أسواق هذه البلدان.

س : طيب، ما هي متغيرات الوضع في النظام الجديد؟

ج : لا يوجـد نظام عالمي جديد، فيما يتعلق بنا في المغرب ها أنتم ترون هذه المفاهيم الجديدة، مثل مفهوم المتوسطية Méditerranéen هو مفهوم استعماري جديد، وعلى المثقفين في المغرب العربي أن يفهموا خطر مثل هذه المفاهيم، بما فيها الفرنكوفونية وتعاون حوض المتوسط، والحوار العربي الأوربي، والعلاقة مع السوق الأوربية المشتركة، وعلى الأقل فيما يتعلق بالمثقفين أن يكونوا يقظين وأن يتعاملوا مع هذه المفاهيم بحذر وتحفظ، إن لم نقل بنوع من المقاطعة الفكرية، ريثما تتضح الأمور.

س : قلتم في السابق بأن على المثقف العربي أن يقرأ أكثر ويعرف أكثر؟

ج : طبعا، المطلوب من المثقف العربي الآن نوع من الجدية في أعماله في أبحاثه في معرفته، وعليه أن يتخلص من مركب النقص الذي ورثه من الفترة الاستعمارية، وتكون له ثقة كافية في نفسه وحضارته وميراثه. وعليه أن يضع حدا لما أسميه الرقابة الذاتية. نعم، لنا صعوبات في بلداننا فيما يتعلق بالحرية والديمقراطية، ولكن المثقف نفسه يفرض على نفسه نوعا من الرقابة الذاتية نظرا لمصالحه الشخصية أو علاقته مع الادارات والحكومات، وأيضا عليه أن يجتهد في وضع حد لهذه الفجوة الموجودة بين الشعوب والحكومات، وكذلك المثقف له دور فيما أسميه الذاكرة الجماعية.

هنا علي أن أنبه إلى ذلك النوع من الارتزاق الضمني من طرف بعض المثقفين. أنا لا أفهم أن لدينا اليوم بعض المثقفين يبعثون برسائل إلى رؤساء دول غربية، ومازالت لديهم آمال، وعلاقات فيهم ومعهم ومازالوا لم يفهموا أن لا فائدة في هذه العلاقات، وهم يرمون علينا القنابل ويقتلون الآلاف في بلداننا، فلماذا نحن متشبثون بهم، ونكتب لهم الرسائل والبرقيات ،... هذا المثقف يجب أن تكون لديه نوع من كرامة الإنسان، المثقف الذي لا يحترم نفسه ولا إحساس شعبه، هذا لا مستقبل له في بلداننا، فإذا كانوا في حلف الغرب عليهم أن يذهبوا إليه ويحرروا بلدانا من هذه المواقف.

س : الأستاذ المنجرة، كنت من المطالبين بضرورة النهوض بالتكنولوجيا في البلدان العربية.. كيف ترى هذا النهوض؟..

ج : طبعا لا مستقبل لنا دون النهوض بالبحث العلمي والتكنولوجيا، لكن الخطأ الذي وقعت فيه حكوماتنا في هذا الميدان هو أنها لم تعطه الأولوية، والبلد الوحيد الذي أعطاه الأولوية هو العراق الذي يحارَب اليوم ويحطم. لنا نموذج تنموي مبني على التقليد والمساعدة والرشوة. لكن العلم والتكنولوجيا لا يمكن أن يشتريها الإنسان. لابد من مشاريع مبنية على التنمية الذاتية، والاهتمام بهذه المشاريع داخليا، والتكنولوجيا المعاصرة تتطلب تعاونا على مستوى واسع. فمن غير الممكن للمغرب وحده أو الجزائر وحدها

أو... أن تقوم بأبحاث تكنولوجيا عالية، إلا إذا تعاونوا فيما بينهم في ميدان العلم والتكنولوجيا تعاونا قائما على الجدية، وليس على الارتزاق والرشوة، والحمد لله لنا اليوم الأطر الكافية من علماء وباحثين علينا أن نساعدهم، وأضعف الإيمان هو ابتداء من الآن أن ترفع الحكومات في المغرب العربي والدول العربية الميزانية المخصصة للبحث من 0,3٪ إلى 1,5٪ من المدخول القومي، بدل الاعتماد على التعاون الثقافي مع فرنسا وأمريكا. وهذا لا يمكن أن يؤدي إلى تنمية حقيقية لأننا نبقى نشتري بدلا من أن نطور الأشياء داخل بلداننا ونسطر برامج تنموية مبنية على الحاجات الحقيقية لشعوبنا، وهذه هي التحديات الحقيقية في المستقبل.

س : الأستاذ المنجرة، الآن بين يدي خبر يتحدث عن إنتاج سينمائي عربي مشترك حول حرب الخليج... هل تعتقدون أن مثل هذه المشاريع ضرورية؟

ج : مثل هذه الأعمال يجب أن تشجع، لأنه لا يمكن أن يقوم هناك علم أو تكنولوجيا بدون إبداع وخلق، وهذا يأتي أولا من مبدعين في ميادين مثل المسرح والسينما والشعر والرواية... وأظن أن أي مبادرة من هذا النوع علينا أن نركز عليها كي نوحد حلمنا، فلا يمكن قيام أي عمل بدون حلم، بدون رؤية مشتركة، وهذا يأتي من الإبداع، لكن الإبداع له شروط، وأول شرط هو الحرية، والديمقراطية، وبناء مجتمع مدني، لكن في العالم الثالث، والعربي بصفة خاصة، والمغرب العربي، نرى أن هناك محاربة لبناء هذا المجتمع المدني الذي هو السر الأساسي للتغلب على جميع المشاكل بما فيها علاقاتنا مع الغرب.

فلا يمكن أن تكون لنا علاقة دولية مفيدة إلا إذا كنا جديين مع أنفسنا، وإلا إذا برهنا أننا مستعدون للاعتماد على أنفسنا، وأنا أومن بالتعاون جنوب - جنوب، وخصوصا في العالم العربي الذي عليه أن يشجع مثل هذا العمل المشترك في كل الميادين، الابداعية والعلمية، غير أنني أرى أن هناك نوعا من التخطيط لمواجهة مثل هذه المشاريع التلقائية، إداريا وبيروقراطيا. ولكن المهم أن يكون المثقف المغاربي والعربي واعيا بمسؤوليته وبموعده مع التاريخ، لأننا ندخل عصرا لا يمكن أن يسمح له إذا لم يبرهن أنه في مستوى التحديات، فنحن دخلنا في إشكالية بقاء وبقاء حضارة بقاء تعددية حضارية، لأننا بدون بقاء تعددية حضارية ثقافية إنسانية، لا مستقبل للإنسان في العالم بأسره.

أجرى الحوار : **فاطمة بلحاج**
- الإذاعة الجزائرية - 23 فبراير 1991
- جريدة "الخبر" (الجزائر)، 26-27 فبراير 1991.

رفض أمريكا مبدئي (*)

إن كل ما يصدر عن أمريكا الآن أصبح متوقعا، وهدف الحرب هو الهيمنة، حتى أن تصرفات بوش أصبحت نوعا من الهستيريا يغذيها حقد شخصي على صدام وحقد شخصي على العراق... ورغم أني أستاذ علاقات دولية فإني لم أفهم بعض التعابير والتسميات التي أصبح جورج بوش يستعملها، رجال البيت الأبيض يسمون صدام حسين بالرجل الكذاب وابن..Son of abitch هذا الكلام البذيء قيل ويقال داخل البيت الأبيض، ونشرته صحيفة «الهرالد تريبيون» الامريكية يوم 18 فبراير؛ لما يتلفظ رئيس دولة بهذه الألفاظ وبهذه الطريقة تصبح التحاليل السياسية والاقتصادية للموقف صعبة جدا.. التحليل هنا يبدأ من اختصاص علماء النفس.

ثم هناك شيء آخر؛ منذ 2 أوت وأنا أسجل في تصريحات الحكومة الاسرائيلية، وكان آخرها موقفها من تحرك أو مبادرة غورباتشوف الأخيرة، قالوا إنهم يريدون من الولايات المتحدة دراسة المبادرة دراسة جيدة.. هكذا يصبح الموقف الأمريكي شيئا متوقعا، رغم أن أمريكا صرفت ما يعادل 100 مليار دولار، وقد طلب بوش من الكونغريس 56 مليار دولار إضافية.. وما يلاحظ من إفلاس للدول الخليجية الممولة.. إنهم مصممون على الحرب.

الموقف الأوروبي

هنا تبدو التفرقة ضرورية، فرنسا وبريطانيا لا يرجى منهما شيء. وإذا كانت بريطانيا في تبعيتها المطلقة لأمريكا تبدو حالة غير جديدة، فإن فرنسا هي التي تبدو مفاجئة، لأنها خاسرة في كل الحالات، ومع ذلك لم تخرج عن النطاق الامريكي، وتبقى المانيا، لأنها من أكثر الدول تضررا من الحرب، خصوصا بعد وحدتها وطموحها في لعب دور اقتصادي فعال ومؤثر على المستوى الأوروبي والعالمي، وأظن أن اتصال غورباتشوف بهلموت كول سيميل لصالح موقف ألماني إيجابي من مبادرة غورباتشوف (أكد هلموت كول ذلك فيما بعد، وقال ان المبادرة السوفياتية هي آخر فرصة للسلام، إذا سنتعامل معها باهتمام)، كما أن لألمانيا أهداف اقتصادية في أسواق الاتحاد السوفياتي لهذا يمكن أن ننتظر خيرا من المانيا بالنسبة للمبادرة السوفياتية.

(*) 20 فبراير 1991

الموقف العراقي

يبدو أن للعراق موقفا إيجابيا من المبادرة السوفياتية، ولكن المشكلة في الولايات المتحدة الامريكية. أنا لا أتصورها تقبل بحالة السلم، خاصة وأنها سوفياتية، في هذه الحالة يظهر شعور أمريكي بأن هناك محاولة للمشاركة في الدور، وهذا أمر مرفوض، ضف إلى ذلك الرأي العام الأمريكي الذي سيؤثر على بوش كرئيس للجمهورية، لكن ذلك أمر محسوم أيضا. بوش يركز الآن على قمة الهرم وزعامة الولايات المتحدة الامريكية في العالم، ولا يوجد أمريكي واحد يرفض ذلك.

رد الفعل السوفياتي المحتمل

هناك في التاريخ سوابق من هذا النوع، وإن كان الوضع يختلف بعض الشيء. في 1956 لما تدخلت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل عسكريا ضد مصر، تدخل الاتحاد السوفياتي بشدة عبر الانذار الشديد اللهجة الذي وجهه لهذه الدول، واستطاع بذلك إيقاف التدخل، ولكن رغم ذلك تبقى الاجابة عن السؤال الآتي مهمة جدا: هل غورباتشوف مستعد للدفاع عن مبادرته أو مشروعه؟ أم هل هو مجرد سيناريو ليبرهن على أنه مستقل عن أمريكا ثم يغير موقفه؟

أخشى أن يصدق ذلك ثم يسحب مبادرته كما فعل مع مبادرة فرنسا في جانفي الماضي، خصوصا وأن هناك احتمال وجود اتفاقات سرية بشأن الوضع في الخليج بين موسكو وواشنطن.

ولا يجب أن ننسى أن هناك منافسا كبيرا لغورباتشوف هو «إلتسين» الذي طلب من غورباتشوف الاستقالة، ولا يستبعد أن يكون هذ االطلب مرتبطا بحسابات غربية وأمريكية بالخصوص. حتى لا يلعب غورباتشوف دورا مهما مخالفا للإرادة الغربية.

(قبيل إعلان امريكا عن موقفها من مبادرة الاتحاد السوفياتي بـ ٤٨ ساعة)

– جريدة "الخبر" - 20 فبراير 1991
– جريدة "العلم" - 24 فبراير 199

من مؤشرات نظام الظلم العالمي الجديد

عدد الدول المعتدية على دولة العراق يبلغ 31 دولة، أي 1 على 31.

عدد سكان هذه الدول هو مليار و 200 مليون نسمة مقابل 17مليون عراقي، أي ١على 225.

الدخل القومي لهذه الدول 10 آلاف مليار دولار مقابل 45 مليار دولار للعراق، أي 1 على 75.

وفي مقابل ذلك يقود العدوان ضد العراق دولة رصيدها الحضاري 200 سنة فقط، مقابل حضارة العراق التي تبلغ 6000 سنة، أي 1 على 30.

والعراق بداية لطريق عسير، سينهض فيه كل المستضعفين في العالم ضد الشمال، والنصر للعراق آت بإذن الله اليوم أو غدا. ثم إن المعركة التي أخذت طريقها للمواجهة اليوم بين الشمال والجنوب ستمتد حضاريا وفكريا على امتداد عشر سنوات على الأقل.

- «الخبر»، 27 فبراير 1991.
- «الخضراء»، 2 مارس 1991
- «الاتحاد الاشتراكي»، 2 مارس 1991.
- «العلم» 2 مارس 1991

تكلفة الحرب(×)

حسب تقديرات المعلومات الواردة في الصحافة العالمية، بلغت التكلفة الإجمالية لحرب الخليج بالنسبة للاقتصاد العالمي حوالي 800 مليار دولار تتوزع حسب المصاريف والخسارات التالية:

- 100 مليار دولار مصاريف دول الخليج على الحرب ولمساعدة قوات التحالف.
- 150 مليار دولار كلفة تقديرية لإجمالي الخسارة التي لحقت بالكويت والعربية السعودية والبحرين بما في ذلك الخسارات التي أصابت البيئة.
- 170 مليار دولار كلفة الحرب بالنسبة للعراق بما في ذلك تقديرات إعادة البناء.
- 8 مليار دولار ككلفة للأضرار الاقتصارية التي لحقت باليمن والأردن وفلسطين المحتلة.
- 7 مليار دولار ككلفة للأضرار الاقتصادية التي لحقت بباقي دول العالم.

وهو ما يعني 435 مليار دولار كإجمالي لكلفة الحرب بالعالم العربي.

وإلى جانب ذلك تقدر المصاريف المباشرة للحرب بالنسبة للدول الغربية بحوالي 80 مليار دولار مقابل 175 مليار دولار ككلفة إجمالية للنتائج الاقتصادية للحرب على الدول الغربية وهو ما يعني كلفة إجمالية تقدر بحوالي 330 مليار دولار. يضاف إليها 60 مليار دولار كتقدير لإجمالي الآثار الاقتصادية للحرب على ما تبقى من دول العالم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن صاحب هذه التقديرات يضع هامشا للخطأ يقدر ما بين 10٪ كحد أدنى و15٪ كحد أقصى.

كما يدعو حكومات دول التحالف التي لاتزال بخيلة فيما يتعلق بالمعلومات أن تعمل على تلبية حاجة الرأي العام في معرفة الحقيقة بتأكيد هذه الأرقام أو تكذيبها وذلك لخدمة المعرفة والذاكرة الجماعية الانسانية.

ولتقديم ملاحظات أولية عن هذه الأرقام، أؤكد هنا أني كتبت منذ 12 أكتوبر 1991 بخصوص دخول العراق للكويت، أن ذلك يعتبر خرقا للقانون الدولي لا يستند الى أية حجة ولا يقبل التبرير.. وأكدت ذلك فيما

(×) 24 مارس 1991

بعد يوم 27 يناير 1991 قائلا بأن «دخول العراق للكويت يعتبر خرقا لمبادئ ميثاق الآمم المتحدة - المنظمة التي وجدت لأجل حماية السلام...» ولعل موقفي هذا لم يتغير، لكن تعاليقي الهزلية عن «تحرير الكويت» لا ترتبط بهذا الموقف السابق - بل بالاحتلال الجديد لهذا البلد من طرف الولايات المتحدة الامريكية وحلفائها، التي كشفت عن الأهداف الحقيقية «للدفاع عن القانون الدولي» وعن غايات إقرار «نظام عالمي جديد». هذا النظام العالمي الجديد الذي لا يستهدف سوى التمهيد لجو«ما بعد الاستعمار» يتوقع أن يستمر ما بين 10 ، 15 سنة على الأقل وكانت انطلاقة هذا النظام العالمي الجديد باندلاع أول حرب عالمية حقيقية تتحدد رهاناتها في الهيمنة الثقافية للغرب، الغرب الذي رفض تقبل التعدد الثقافي على الكون ورفض خلق نظام عالمي جديد يرتكز على إعادة توزيع عادل وعلى عدالة اجتماعية لمجموع سكان العالم.

إن هذا لا يرتبط بتحليل الأرقام السابقة الذكر، ولكن بنقد الحملة الاعلامية التعتيمية التي تلصق كل شيء بسبعة أشهر من الوجود العراقي في الكويت. وحتى نظام هيئة الأمم المتحدة حاول وضع أرقام هو الآخر عن الاثار الاقتصادية لهذه الحرب على العالم الثالث في هذه الحرب.

إن «تحرير» كل واحد من مجموع الكويتين يكلف 700 الف دولار وهو ما يقدر بالمدخول السنوى المتوسط لحوالي 500 عربي. وإذا اقتصرنا على 100 الف كويتي فقط من «الدرجة الأولى» فإن الكلفة ترتفع الى 4.200.000 دولار للفرد الواحد.

إن «تحرير» الكويت كلفت 2000 دولار لكل واحد من 220 مليون عربي وهو أكثر من متوسط المدخول السنوي (1500 دولار) لكل فرد. فمصاريف مجموع العالم العربي على هذا «التحرير» (435 مليار دولار) تمثل ضعف مجموع ديون الدول العربية لسنة 1990 (250 مليار دولار).

إن حماية القانون الدولي، وحماية الديمقراطية وحقوق الانسان وإقرار نظام عالمي جديد، كما تريد الولايات المتحدة والغرب، عادت على العالم العربي مكلفة بدون اعتبار لأكثر من 230 الف شهيد عربي وأقل من 500 الف جريح، وملايين الاطفال الذين عانوا من سوء التغذية والتي ستؤثر على صحتهم طول حياتهم.

إن هذه الأرقام لا تلمس كلفة الدمار الذي لحق بالتراث الثقافي الانساني الذي يعود لأكثر من 6000 سنة والتي لا تقدر كلفتها بالدولارات لأن قيمتها لانهائية.

كما أن تعذيب الفلسطينيين من طرف الكويت المحررة لا يدخل في الحسبان.

إن رغبات الرئيس بوش وأطماع إسرائيل ستعود مكلفة جدا على العالم (160 دولار لكل مواطن في العالم)، إن تحرير كل مواطن كويتي سيكلف أكثر من 1،3 مليون دولار أو حوالي 10 ملايين دولار لكل كويتي من الدرجة الأولى.

إن الدفاع عن النظام العالمي الجديد لا ثمن له خاصة بعد رياح «ما بعد الاستعمار»، حيث المستعمِر يجعل المستعمَر يؤدي الجزء الأكبر من عوامل استعماره.

- "الوطن" ـ 26 مارس 1991
- "العلم" ـ 28 مارس 1991
- "الخضراء" ـ 29 مارس 1991
- "حقائق" ـ 5 أبريل 1991.

رقم زمني قياسي للثقافة الغربية

شهدت مرحلة الحرب العالمية الثانية (1939-1945) قصفا جويا أمريكيا مكثفا على اليابان، وخلال 14 شهرا نفذ الطيارون الأمريكيون 27000 طلعة، أي بمعدل 65 طلعة يوميا في ظرف 425 يوما.

أما الغرب خلال حرب الخليج فإنه حقق أرقاما قياسية بسبب استعمال العلم والتكنولوجيا لتدمير الجنس البشري:

خلال الأربعين يوما من الإبادة ضد العراق، نفذ الطيران الامريكي بمساعدة قوات التحالف الغربي 110000 طلعة... ويمثل هذا الرقم 2750 طلعة كل يوم أي 114 كل ساعة وطلعتين اثنتين كل دقيقة، أي 42 مرة أكثر من الطلعات التي عرفتها اليابان.

وإذا افترضنا أن كل طلعة تخلف فقط 2,5 قتيل فإن العدوان الأمريكي ارتكب مجازر فاق عدد ضحاياها 300000 خلال 40 يوما، أي 313 ضحية كل ساعة و 5 قتلى كل دقيقة... وربما أن أمريكا تحقق مستقبلا أرقاما أحسن من هذه الأرقام المرتكبة ضد العراق.. وقد يكون البلد المستهدف بلدا غير غربي مرة أخرى، وعلى كل حال فإن الأرقام القياسية خلقت كي تحطم وكذلك سكان الجنوب.

هذا إذن رقم قياسي جديد، ولا تخشى من العثور عليه في الطبعة المقبلة لكتاب الأرقام القياسية «كنيس»... إنها عواقب انحراف آخر، أكثر كدرا لمنظومة القيم الغربية. وأي رقم قياسي محزن لهذا «اللانظام العالمي الجديد» الذي يقتل بلا هوادة ويتلذذ، باسم «القانون الدولي». ولن أخجل أن أكون سلميا غير عنيف وأصلي لأرواح أولئك الذين يذهبون بفخر من حرب الى حرب باسم «الحضارة».

- "الاتحاد الاشتراكي"، الدار البيضاء - 5 مارس 1991
- "الوطن" (El Watan) - 4 مارس 1991
- "الجزائر الجمهوري" (Alger Republicain) - 4 مارس 1991
- "المساء" الجزائر - 5 مارس 1991

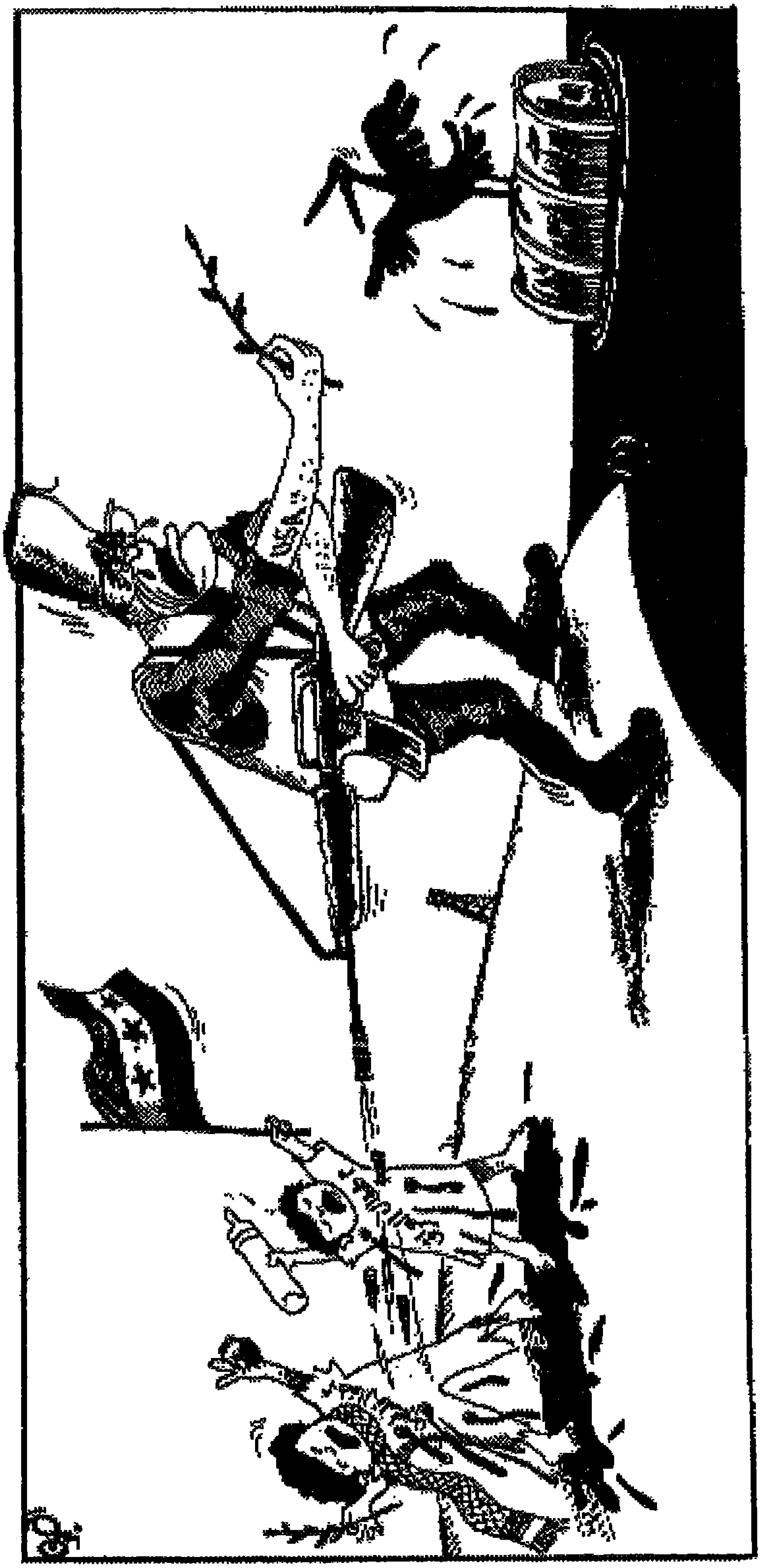

تشيرنوبيل الخليجية (*)

إن 600 بئر بترولي قد اشتعلت فيها النيران.. والنيران تنفث الى الأجواء سحابا من التلوث لم يسبق له مثيل بهذه الكثافة والتركيز..

ومؤخرا لم يتمكن الوزير الأول البريطاني (مايور) من النزول بمطار الكويت بسبب السحاب الأسود، وقال : شاهدت منظرا مفزعا.. فكأن الإنسان يعيش في ليل دائم.. ولاغرابة..

ففي الآبار الكويتية، وحسب (Herald Tribune) فإن ستة ملايين برميل تحرق كل يوم.. وهذا يعني خسارة يومية تقدر بحوالي 150 مليون دولار، أي أربعة ملايير دولار شهريا، وهذا يساوي المدخول القومي للمغرب مرتين وربع..

ونتيجة لذلك انخفضت الحرارة في الكويت بنسبة عشر درجات... وهذا لم يسبق له مثيل..

والسحاب الأسود الناتج عن حرائق الآبار يمتد لمساحة حوالي نصف الولايات المتحدة، حسب مقال (Time Magazine) بعنوان : «الكويت تحترق»...

وتقول منظمة السلام الأخضر (غرين بيس) : إن الحالة أدت الى أن عددا من السكان يعانون الاختناق وصعوبة التنفس حتى بالمناطق المجاورة، وخاصة (البحرين).. وتضيف على لسان أحد خبرائها أن المنطقة الخليجية ستكون عبارة عن حمام ينتج أمراضا قاتلة كالسرطان وأخرى تؤثر على تطور النسل...

ويلاحظ أن عددا كبيرا من الأثرياء الذين عادوا الى الكويت قد غادروها باتجاه التنفس وثلج الماء، وكون الحياة البيئية أصبحت تشكل خطرا على الصحة..

ويعلن بعض الخبراء الغربيين أن هذه «تشيرنوبيل الخليجية»، وهي أكثر بكثير من تشيرنوبيل السوفياتية.. ولابد من 50 الى 70 سنة قبل أن تزول آثار التلوث النفطي، حسب تعبير الجمعية البيئية الفرنسية (Les amis de la terre) والحاجة ماسة الآن الى الشروع في إطفاء الستمائة بئر المشتعلة، وكل بئر سيكلف إطفاؤه حوالي عشرة ملايين دولار.. ولن يتم الإطفاء بشكل شامل سوى بعد ثلاث سنوات على الأقل من العمل المتواصل...

وبداية الإطفاء ستكون بإحداث أنابيب طولها 160 كلم.. إنها أنابيب لجلب مياه البحر بهدف تبريد

(*) 15 مارس 1991

الرمال، قد بدأت تذوب في منطقة الآبار، حيث الحرارة ترتفع الى 200 درجة، أي أكثر من حالة الغليان بمائة درجة..

هذه هي «تشيرنوبيل الخليجية»..

وأوربا تسقط في البيئة الخليجية، التي حفرتها بتدخلها العدواني الصاروخي في قضية كان أجدى أن تحل في إطار عربي، وعلى مائدة الحوار..

تقول مصادر علمية من الغرب : «أن التأثر الحاصل على الطقس الخليجي سوف يشعر به في مناطق أوربية خلال العشر سنوات القادمة.. والمطر الأسود سوف يسقط على شرق أوربا.. وقريبا جدا سوف نرى الغبار الداكن، وهو يتهاطل على عدد من الأقطار، منها بلغاريا ورومانيا واليونان.. وبتعبير آخر فإن المطر الحامضي، نتيجة التلوث الخليجي، سيسقط بعيدا عن الكويت بألفي كيلومتر.. وإذا هبت الرياح الخليجية المعتادة بقوتها المعروفة خلال أواخر مارس، فإن أوربا ستعرف أمطارا سامة خلال الشهر القادم..

وهكذا ستحصد أوربا ما زرعته في الخليج..

ومنذ الآن تعرف تركيا هذا الشبح البيئي.. وهنا يقول عمدة (هاتاي) التركية : إن النهار في هذا الإقليم أصبح بلون قاتم، والأمطار التي هطلت كانت فيها نسبة الحامضية مرتفعة جدا، وستؤثر على مصادر المياه العمومية، وسوف تضر بالاقتصاد الفلاحي للمناطق شبه الصحراوية، في إيران والشرق الأوسط..

ويقول الخبير الألماني (كارل هاينس بال شنيتر) في محاولة لتقريب الوضع البيئي من فهم الإنسان الأوربي : إن التلوث الحاصل في الكويت يشبه 500 معمل لحرق الأزبال، لا تشتغل بكيفية نظيفة..

ويضيف : إن ما حصل في الخليج يشكل تجربة كيمارية لم تر الإنسانية مثيلا لها في التاريخ، ويجب أن نأخذ منها العبرة..

الخضراء- 15 مارس 1991

انحرافنا قبل انحراف القانون (*)

هذا الموقف الرافض الثائر، من رجل بوزن معرفي ونضالي كالمنجرة، جعلنا ـ عند لقائنا به يوم الثلاثاء 05-03-1991 بالجزائر ـ نحاول استجلاء حقيقة هذا الرفض!! فسألناه عن سبب رفضه حضور الندوة الدولية حول «حرب الخليج وانحراف القانون» فأجاب :

«لم أحضر لعدة أسباب.. (لا علاقة لها بالجزائر كبلد) فأنا الآن ومنذ 15 سنة، تخليت عن منصبي كموظف دولي، وقررت التركيز على العمل العلمي في العالم غير الحكومي، ولهذا لم أقبل من أي بلد كان أية دعوة لأية ندوة تنظم تحت إشراف وزارة أو رئاسة حكومة، لأن الجو الذي يجري فيه الحوار العلمي يجب أن يوفره الاختصاصيون أنفسهم، ورفضت أن أحضر لأعبر بوسيلة خاصة أنه في ميدان العلم والمعرفة، مسؤولية الحكومة تنحصر في تسهيل إنشاء جمعيات مختصة غير حكومية في جميع الميادين (التفكير، الاقتصاد...)

وتدعيم هذه الجمعيات بشرط الحرية الذي لا يقبل بالإشراف الحكومي، الذي يقود إلى الارتجال وعدم المصداقية العلمية، وتدخل عوامل سياسية، ومع الأسف أن ما حدث في الندوة الأخيرة «حرب الخليج وانحراف القانون الدولي» سواء على مستوى المشاركين الذين لا يمثل أغلبهم أي وزن ولا يحظى بالاحترام داخل بلدانهم ماعدا إمكانية استغلالهم في الصدى الإعلامي.. أو على مستوى القيمة العلمية التي كانت ضعيفة!!

وبجدية أقول : عندما نرى الدور السلبي الذي لعبه الأمين العام للأمم المتحدة ـ وأنا ورائي تجربة 20 سنة داخل نظام الأمم المتحدة ـ نتساءل أليس من الرداءة أن ترفع الندوة (إعلانا) الى هذا المسؤول لتمنحه مصداقية.. مع عدم الإشارة الى خيانته لهذا المنصب!! إنه مجرد رهينة، آلة في يد الولايات المتحدة والغرب.. والمحزن أن نرى في الجزائر أشياء من هذا النوع، والحمد لله أنني لم أستمع الى أشخاص جاؤوا على نفقة الجزائر لتلقيننا دورسا ملخصة عن ثورة الجزائر التي لم تنتزع الاستقلال بل تكرم به عليها «ديغول»!

إن الدرس الذي ينبغي استخلاصه هو أن تبقى الحكومات والوزراء مصدرا للتسهيلات المادية فقط

(*) 7 مارس 1991

لأن هناك في الجزائر وفي العالم الثالث كفاءات وطاقات علمية جامعية تستطيع أن تتكفل بتنظيم هذه الندوات العلمية، أقول هذا في الجزائر وفي المغرب ولا أعتبره تدخلا في شؤون الدول لأنني مقتنع بأن رجل العلم لا يدخل قاعدة يوجد فيها وزير بصفته السياسية».

حول الملتقى الذي تعتزم وزارة التعليم العالي عقده قريبا تحت عنوان «الاسلام والغرب» ومضمون الصراع المستقبلي يقول المنجرة :

أنا لا أتلاعب بالكلام، ففي هذه الظروف، يمكن القول عن مثل هذه الندوات (انها خيانة بدون وعي) خيانة فكرية، في هذه الظروف، لدينا 300 ألف شهيد على الأقل، ومنذ نهاية الحرب العالمية عدد الشهداء في العالم العربي يصل الى حوالي 3 ملايين، أكثر مما حدث لليهود خلال الحرب العالمية الثانية !!

ومع ذلك لا نريد أن نبني ذاكرة جماعية، ونتكلم عن الحوار في الوقت الذي يحاربنا هؤلاء الذين ندعوهم الى الحوار، وندعو أشخاصا يقذفوننا بالشتائم يوميا في صحفهم!! وأنا لا أفهم هذا الاستمرار في اختصاصنا بتسيير الأزمات، عندما نجمع صحافيين ومشاهير، ونغرق في الدعاية، وأعتقد أن أضعف الإيمان هو توجيه هذه الأموال التي تنفق في الندوات (الطائرات والفنادق و.. و..) الى تحليل وتفهم المشاكل لمواجهة المستقبل، أن الإسلام يعني مليار ومائتي مليون والعرب ليسوا إلا 20٪ من هذا العدد، والغرب.. ما هو الغرب؟ إن أغلبية المدعوين من فرنسا، والسؤال: ما هو وزن فرنسا في الغرب؟ فرنسا ٥٠ مليون نسمة من مليار في الغرب!! لذلك فنحن مازلنا نعيش على مركب النقص، لهم الحق - إذن - أن يفعلوا مثل ما فعلوا في الجزائر والخليج.. وأن يتهيأوا ليفعلوا أكثر في المستقبل..

أنا أخشى اليوم على ثلاث دول أخذت موقفا شجاعا : اليمن، الأردن، الجزائر. وهذه الدول هي الوحيدة في العالم العربي التي بدأت بها مسيرة ديمقراطية، وأكبر دليل أنني أكلمك هنا في الجزائر وأنتقد أوضاعا غير سليمة، إذن هذا الغرب الذي نريد أن نحاوره يشكل خطرا علينا، وأنا أخشى أولا على منظمة التحرير الفلسطينية، وأخشى من مؤامرة إسرائيلية- سورية على الأردن، وأخشى في مدة لا تتعدى سنة أو سنتين على هذا البلد (الجزائر) الذي انطلقت منه المسيرة الديمقراطية، ولهذا لا أسمح، ولي الحق في ذلك، بأن ننظم ندوات من هذا النوع بهذا الارتجال وبدون دراسة وتحقيق، وبين يدي الدعوة لحضور هذه الندوة «الإسلام والغرب»، نحن نتكلم عن الإسلاميات.

أطلب من المسؤولين عن التنظيم أن يفهمونا معنى «الاسلاموجي» وهل هنالك «جيديولوف» «كريستيولوف».. لمذا نبقى تحت تأثير هذه المدرسة الاتنوغرافية الاستعمارية الفرنسية، منذ سنة ١٩٨٥ بدأت الحرب الحضارية ضد الإسلام، والسبب معروف وبسيط في هذه السنة إحصائيات الفاتيكان تقول أن

عدد الكاثولكيين 850 مليون مقابل 865 مليون عدد المسلمين، وبدأت الحملة ضد الإسلام، والحديث عن التطرف الديني، وأنا أحمد الله على الحركة الإسلامية التحررية، الدفاع الوحيد أمام هذه الهيمنة، ولا أسمح بالمساس بالحضارة الإسلامية وأقدمها كحقل وموضوع للدراسة بين يدي أشخاص نسميهم «إسلامولوف»!! يجب أن نكون واعين، فندوة مثل هذه لا تحضر في 15 يوما بدون ورقة عمل، بدون تحديد أهداف!! وكون وزارة معينة تتبنى ندوة كهذه إنما تضفي عليها مفاهيم سياسية معينة على المستوى الدولي في هذه الظروف التي يعيشها الخليج والعراق، إنني أعتبر ذلك خطأ..

وأطلب عن طريقكم، كما طلبت عن طريق سفير الجزائر في الرباط، وعن طريق ديوان الوزير المسؤول، وعن طريق محمد سحنون، المستشار الديبلوماسي لرئيس الجمهورية على الأقل تأجيل هذه الندوة أو إلغاءها (الندوة لم تعقد بعد ذلك)، ففي هذا الوقت يجب أن نتحاور داخل أنفسنا، ولا يعقل أن نطلب (فتاوي) من فرنسا الاستعمارية، التي ستدافع عن الفرانكفونية، وتكون وسيلة للدفاع عن الصهيونية واليهودية، وأضيف أن 90٪ من المدعوين لهذه الندوة أرفض أن أجلس معهم نظرا لمواقفهم سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، وإني لأرجو أن لا يتكرر الخطأ، ولا أن يتكرر مستوى الندوة الأولى بعد أسبوع أو أسبوعين.

أجرى الحديث :
محمد هلوب

هوامش :

- جريدة «السلام» الجزائر 7 مارس 1991
- جريدة «العلم» 9 مارس 1991
- جريدة «الخضراء» 15 مارس 1991

حرب الخليج وآفاقها (*)

منذ انطلاق ما يسمى بأزمة الخليج الى الآن ووسائل الإعلام الغربي تعطينا يوميا أدلة جديدة عن الدرجة التي وصل اليها الغرب في استعمال الكذب كوسيلة جديدة لتحركه ولبناء هيمنته الاستعمارية والحضارية الجديدتين.

وهنالك أمثلة مثلما قرأنا في جريدة هيرالد تريبيون.. في عدد 19 مارس 1991 حيث نجد تحليلا موسعا ودقيقا للعملية العسكرية والاستراتيجية التي استعملها العدوان ضد العراق في الحرب البرية، ونقرأ في هذا المقال أنه، في شهر أكتوبر 1990، أي قبل اتفاق مجلس الأمن على القرارات 6-7-8 التي صدرت يوم 29 نونبر 1990، قام الجنرال نورمان شوارتسكوف في اجتماع مع جنرالات آخرين من الجيش الأمريكي، بتقديم وصف الخطوط الكبرى للاستراتيجية التي سيضعها في هجومه على العراق، والعبارات التي استعملها هي «إن الهدف هو تحطيم القوة العسكرية للعراق وضرورة الدخول الى عمقه لتدمير كل واجهات العراقيين، وخلال نفس الاجتماع كان الماجور جنرال تنفورد «والماجور جنرال تيري ماكفري» قد اتفقا معه وقالا «هذا هو الحل»، وفي نفس اليوم حسب هيرالد تريبون، تعززت هذه الاستراتيجية التي تعرف باسم «عملية اللكم باليد اليسرى» ومثلما قلت من قبل أن جميع الاختصاصيين في الدراسات المستقبلية والاستراتيجية كان لهم اطلاع على عدد من السيناريوهات المخططة منذ أزيد من 15 سنة، أي بعد أزمة النفط لسنة 1973، للمواجهة في الخليج بطرق عسكرية أو سياسية أو بانقلابات أو غيرها من السيناريوهات التي من شأنها تمكين الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها من دول الغرب من السيطرة على هذه المنطقة ليس لأجل النفط فقط ولكن أيضا للمحافظة على الوضعية القارة بالعالم العربي والدفاع عن حكومات تابعة للسياسة الغربية.

وإذن يجب أن نكون واعين بدور الكذب الغربي خلال الحرب، إذ بات من السهل على كل من تتبع الإعلام الغربي خلال هذه الحرب، وتابع تصريحات ثلاث شخصيات هم : الرئيس بوش، والرئيس ميتران، والأمين العام لهيئة الأمم المتحدة، يمكن من خلال التصريحات الرسمية وما أثير حول «أهداف» التدخل في

(*) 7 أبريل 1991

الخليج من «تحرير للكويت والدفاع عن ميثاق الأمم المتحدة» سيرى تدريجيا مجموعة من التناقضات الهائلة خلال فترة قصيرة لم تتجاوز سبعة أشهر.

ولا أظن أن التاريخ سجل من قبل حجما للتناقضات في التصريحات في فترة قصيرة مثل هذه لمسؤولين كبار، وبذلك فإن ما حدث في الخليج هو انتحار للمصداقية الغربية بما كشفت عنه تصريحات المسؤولين الغربيين وكذلك الشأن بالنسبة لتصريحات الأمين العام للأمم المتحدة الذي برهن عن عدم كفائته في مواجهة الأزمة وعن عدم قدرته على توظيف الإمكانيات المتوفرة له عبر الميثاق المعهود اليه، لأن الهدف الأساسي للأمم المتحدة هو بناء السلام ومنع النزاعات العسكرية من الاندلاع كيفما كانت وأينما كانت.

ومن تم نجد في إطار هذه «المصداقية الغربية المفقودة» أمثلة أخرى تحولت من شدة تكرارها الى هزل، كما هو الشأن بالنسبة للصحافة الأمريكية التي تتحدث عن نقد، من طرف عسكريين ومن طرف الكونغرس الأمريكي، للأغلاط التي ارتكبتها المخابرات الأمريكية «السي، أي، ي» ونقرأ في «الواشنطن بوست» ليوم 19 مارس 1991 «أنه من بين الأشياء التي قامت بها اللجنة المختصة بمخططات المخابرات لدى الكونغريس الأمريكي، أنها انتقدت المعلومات المتعلقة بحجم القوات العسكرية العراقية، الواردة عن «السي، أي، ي» وسجلت مبالغة في عدد الجيوش العراقية الموجودة بالكويت بنسبة 50٪ خاصة تلك التي كانت موجودة يوم 17 يناير يوم اندلاع الهجوم الجوي، حيث لم يكن عدد القوات العراقية يتجاوز 20 ألف جندي» ونرى هنا أن هذه الأخبار التي كانت مبالغا فيها كالقول إن العراق هو القوة الرابعة في العالم عسكريا، وما روج من تخوفات من إمكانيات العراق النووية.. استعمل كل ذلك عن قصد. وتجدر الإشارة هنا الى الفرق القائم بين التعتيم الإعلامي وبين الكذب، لأن التعتيم عملية محدودة تفيد استعمال أخبار منها ما هو مفتعل وآخر صحيح لتنظيم حملة إعلامية عكس الكذب الذي يروج كوسيلة للضغط على الرأي العام المحلي بالولايات المتحدة الأمريكية ولإثارة الخوف في النفوس، يستهدف تسهيل الهجوم الوحشي على العراق، والأمثلة متعددة لمظاهر الكذب كمظهر من مظاهر مرحلة ما بعد الاستعمار.

ويمكننا إذا ما قارنا بدون أي اندفاع أو دفاع بين ما جاء في البيانات العسكرية العراقية، تبين أن أغلب تصريحات البيانات العراقية كانت مطابقة لواقع الأمور كما هو الشأن بالنسبة لواقعة تدمير معمل الحليب العراقي أو تدمير ملجإ المدنيين والذين قدمتهما الصحافة الأجنبية كأهداف عسكرية، ولكن بعد أسابيع تبين من خلال زيارات قام بها صحفيون لعين المكان أن الأهداف كانت مدنية وتعرضت لعدوان عسكري وحشي، كما حدث بالضبط بالنسبة لمتحف بغداد وغيره من المآثر الثقافية.

لندع العراق ولندع الخليج ولندع العرب كلهم، لكن هل نستطيع نسيان مصداقيتنا مع أنفسنا على مستوى التحليل العلمي للواقع؟ وأتخوف اليوم من داخل العالم الإسلامي بعد هذه الحرب، على الباكستان وأندونيسيا لسببين اثنين : هما أن هذين البلدين في العالم الإسلامي يتوفران على إمكانيات علمية وقدرات لصنع القنبلة الذرية، وربما أن الغرب لن يسمح لأي بلد مسلم أن يصل الى مرحلة متطورة كهذه، أخشى على الباكستان من المؤامرات رغم الانتخابات الأخيرة المزورة التي استهدفت محاربة السيدة بنازير بوتو، خلال أزمة الخليج وقبيل اندلاع الحرب، والواضح أنه لمجرد صعود الحكومة الجديدة دخلت باكستان ضمن قوات التحالف ضد العراق، وهو ما يفسر أن الغرب أدرك أن هنالك ضرورة لإيجاد حكومة ونظام جديدين يمكن الاعتماد عليهما، في الباكستان ومع كل ذلك فإن باكستان الدولة التي تسعى لامتلاك السلاح النووي مستهدفة لمحاربة ضارية، وفي هذا الصدد أخشى أن تستعمل ضد النزاع الهندي الباكستاني حول كشمير - وهي قضية مسجلة بجدول أعمال الأمم المتحدة منذ أكثر من 40 سنة، والى الآن لم تعمل الأمم المتحدة على تطبيق التوصيات الصادرة منها ومن طرف الجمعية العامة ومجلس الأمن.

وأخشى على أندونيسيا، وهي أول بلد مسلم من حيث قوته الديمغرافية (160 مليون نسمة) ومن حيث توفره على طاقة علمية وتكنولوجية، فيما يخص الوسائل العلمية المتقدمة المرتبطة بعلم الفضاء، وبعض التكنولوجيات المتقدمة والطاقة النووية، وهناك سيناريوهات يمكن تصورها بهذا الشأن، حيث نجد على مقربة من أندونيسيا مجموعة جزر تتوفر على النفط مثل «بروناي»، وهي عبارة عن جزيرة صغيرة، رغم أن حاكمها أغنى رجل في العالم، ويمكن أن تتصور أن لأندونيسيا حقوقا تاريخية في المنطقة، وبالتالي يمكن أن يكون هناك سخط يضع أندونيسيا تدافع عن نفسها وعن وحدة ترابها، ويصبح التدخل مبررا.

ومن ثم لا يسعنا إلا التزام التحليل العلمي والعودة الى الوراء لإدراك ما انتهت إليه الدراسات المستقبلية والاستراتيجية في الغرب. وأيضا لإدراك التسلسل المتوقع في المستقبل، بعدما أصبح من الممكن اتباع الخطط السابقة التي كنت أسميها دائما بمخططات تسيير الأزمات وأتخوف اليوم في العالم العربي على الدول العربية التي اتخذت مواقف شجاعة وجريئة اتجاه المشروعية الدولية الحقيقية، والدفاع عن القانون الدولي كاليمن، ومنظمة التحرير والأردن والجزائر، والتي قد تتعرض لعمليات انتقامية.

ولنعد الآن الى أن الولايات المتحدة الأمريكية حققت أهدافها في هذه الحرب، بما في ذلك الهيمنة على المنطقة، وبتحليل مبادئ يمكننا التصدي لما صدر عن بعض المثقفين العرب من وصفهم لردود فعل الجماهير العربية بالعاطفية وعدم العقلانية والتسرع والانفعال، لقد تبين الآن أنهم كانوا مرتزقة للفكر تفصلهم مسافات عن واقعهم وشعبهم يحاولون تبرئة الغرب، ليس لعدم وعيهم لأخطار المؤامرة ولكن

لعجزهم عن فهمها والتصدي لها، وسترى في المستقبل القريب حملات ضد وعي الجماهير لكن في مقابل ذلك أتفاءل بوعي الشعوب ويقظتها، وبوعي جيل المثقفين الذين يقل عمرهم عن ثلاثين سنة.

وإذا أردنا تحليل ما حدث، أعود إلى مقال بدا لي من أهم ما نشر خلال الأزمة. وهو مقال صادر بـ «تايمز ماغازين» لجامعي أمريكي مشهور هو «تشارلز كروات هامر» كتب في عدد «تايمز ماغازين» لـ 18 يناير 1991 مقالا بعنوان «كيف يمكن للحرب أن يغير الولايات المتحدة الامريكية؟» يقول فيه : «إن الحرب نوع اختبار المفاجئات، رغم أن المفاجأة الحقيقية في هذه الحرب هي أنها ليست حربا من أجل الكويت ولا ضد العراق ولا من أجل مستقبل الشرق الأوسط.. وباستثناء الثورة ليست هنالك أساليب لتغيير بلاد غير الحرب.. وإذا ما انتهت حرب الخليج بالطريقة التي بدأت بها ببرهنة التفوق الامريكي التكنولوجي وليس بانهزام صدام، فإنه لا يمكن الحديث بعد ذلك ومن جديد عن هزيمة أمريكا في فييتنام.. وان امريكا جديدة ستنطلق ما بعد حرب الخليج، وأن صورتها لنفسها، ومفهومها للتاريخ ولأسلوبها السياسي سيتغير تغيرا كاملا». وينتهي هذا المقال بفكرة وازنة لفهم ما حدث : «إن هذه الحرب يمكنها أن تخلف وراءها أمريكا متجددة آمنة ولها ثقة بنفسها، ولعل ذلك هو إرث لأول حرب طيبة ـ الحرب العالمية الثانية ـ هذا الإرث الذي كان مفقودا بين غابات الفيتنام».

إننا حين نسمع كلاما عن الحرب والطيبوبة كأننا نسمع مفارقة عن الحرب والشرعية والحرب والعدالة وغيرهما من العبارات المتضادة، ويمكننا أن نفهم هذا المقال الصادر يوم 27 يناير 1991، بما جاء فيما بعد من تصريحات موالية لمسؤولين امريكيين تتحدث عن القضاء عن أعراض فيتنام المزمنة (SYNDROME.

وكما أشرت سابقا وقبل اندلاع الحرب إن الولايات المتحدة ستلجأ للحل العسكري لأنها وصلت الى أزمة اقتصادية بلغت معها المديونية إلى عجز بأكثر من 3000 مليون دولار. وهي وضعية ليست مالية فحسب، وإنما اقتصادية تجسدت في إفلاس عدد من الشركات خاصة شركات الطيران وغيرها. أما على مستوى المجتمع فإنه يعاني حالة فقدان الثقة في النفس، لأسباب اخلاقية وقيمية وسياسية، عمت أهم الأحزاب المهمة، وأزمة نقابية وأزمة صحية بسبب المخدرات وانتشار السيدا، وأزمة في التنشئة والاندماج الاجتماعيين بسبب تفشي الانحرافات والفضائح بما في ذلك ابن بوش نفسه وأبناء عدد من الشخصيات السياسية والفكرية الكبرى بأمريكا.

إذن فأمريكا أمام أزمتها وأمام عجزها عن استيعاب الصراع الاجتماعي والاقتصادي لما يسمى

بمجتمع ما بعد الصناعي، وليس بإمكانها أيضا مواجهة اليابان ماليا وتكنولوجيا، ولا يمكنها أيضا مواجهة السوق الأوروبية المشتركة في القطاع الفلاحي الذي يعتبر حيويا للولايات المتحدة الأمريكية، ليس فقط لتغطية نسبة المدخول القومي، وإنما أيضا للدور الذي يلعبه على مستوى الانتخابات فيما يتعلق بدورها الغذائي على المستوى العالمي.

ولعل هذه التخوفات الأمريكية تبرز ما حصل خلال المفاوضات المعروفة بالغات حول التجارة الدولية التي كان يتوقع أن تنتهي الى اتفاق مشترك في اجتماع انعقد خلال فترة أزمة الخليج، غير أن الولايات المتحدة الامريكية فرضت على اليابان ودول اوروبا نوعا من الفيتو لمنع هذا الاتفاق، ولم يكن للولايات المتحدة الامريكية من وسيلة للدفاع عن نفسها سوى وسيلة وحيدة، بعد أن وجدت نفسها انتهت كقوة عظمى في الميدان الاقتصادي والعلمي والسياسي والحضاري والايديولوجي، هذه الوسيلة هي التدخل العسكري كما أن القوة الوحيدة التي كانت لدى الولايات التحدة هي القوة العسكرية والتي تصرف من أجلها سنويا حوالي 300 مليار دولار حسب الاحصاءات الرسمية، أما الحقيقة، فالله وحده أعلم بها.

وقد زامن ذلك انتهاء ما يسمى بالحرب الباردة وبفعل الاتفاقيات الامريكية السوفياتية لنزع السلاح وتحقيقه، دعا الكونغريس الامريكي الى تخفيض هام في المجال العسكري، غير أن ذلك أصبح خطرا يهدد الصناعة العسكرية الامريكية والتي تمثل موردا مهما من المدخول القومي الامريكي، ولما انتهت الحرب الباردة بعد نجاح مبادرات ريغن وبعده بوش، لم يعد هنالك خطر يهدد التوازن، له نفس القوة، لكن كان لابد من البحث عن قوة غير قوة الاتحاد السوفياتي وذلك لتحقيق مصداقية سياسة «حرب النجوم»، ومن الضروري اندلاع حرب في أي منطقة من مناطق العالم، وبالخصوص في العالم الثالث.

وبالإضافة إلى ذلك هنالك ما يسمى بالمصداقية الاستراتيجية السياسية وهنالك المصداقية العلمية والتكنولوجية، وعلى ذكر ذلك نجد جزءا كبيرا من الأسلحة الجديدة لم تستعمل من قبل، وكان من غير المعقول بالنسبة للأمريكيين استعمال هذه الأسلحة في أية حرب كانت ستحدث ما بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، ما لم تخضع هذه الأسلحة للتجربة وكانت أزمة الخليج فرصة مواتية لاختبار هذه الأسلحة، وكذا لأسباب داخلية أمريكية ترتبط، بما يسميه أكبر عالم اقتصادي حاصل على جائزة نوبل، بالعقدة الصناعية العسكرية، ثم بسبب العلاقة ما بين الجانب العسكري والحرب، خاصة وأن منطقة الخليج هي أكثر المناطق التي صرفت أكبر قسط من مدخولها الداخلي في التسلح. الذي قدرت اعتماداته ما بين 100 و 150 مليار دولار، فكان من الضروري تدمير هذه الأسلحة حتى تجدد الدول الخليجية أسلحتها، كما

كان الأمريكيون يودّون البرهنة للعالم على مدى التطور الذي وصلت إليه التكنولوجيا بصنعهم لأسلحة فريدة تتجاوز الصناعة الانجليزية أو الفرنسية أو الروسية، وهم بهذا المعنى يكونون قد حصلوا على سوق تجاري للأسلحة وضغوط في نفس الآن احتكارها له، وهذا يوضح من زاوية إنسانية حجم الهيمنة التي وصلت إليها الولايات المتحدة الامريكية باستعمالها لأسلحة لأول مرة دون إدراك ما قد يترتب عنها من أخطار ونتائج.

ونتأسف أن يشارك في هذه الجريمة عدد كبير من الدول الغربية والمنظمات الدولية والانسانية، في حين نجد منظمات لحماية الحيوان والدفاع عنه ضد استعماله كحقل للتجارب، فبالأحرى الانسان.

ولنعد الآن الى مجموعة من التصريحات الصحفية الموازية لما كان يجري على ساحة الحرب.

ففي اليوم الأول بعد وقف إطلاق النار وانتهاء الحرب العسكرية كان هنالك تصريح لديك تشيني، وآخر لجيمس بيكر أشار فيه بوضوح الى أن حرب الخليج محل «هزيمة فيتنام» وبعد مرور يومين من هذين التصريحين، قال الرئيس بوش يوم فاتح مارس : «اتضرع أنه يوم فرحة أمريكا والحمد لله، دفنا الى الأبد، أعراض فيتنام القاتلة»، وكان هذا التصريح في أول ندوة صحفية بعد نهاية الحرب العسكرية، ونستنتج من هذا الكلام الصادر عن أول مسؤول عن هذه الحرب، أهم المقاصد التي دفعت الولايات المتحدة للدخول في حرب الخليج وإشعالها.

غير أن أمورا جديدة بدأت تظهر على الساحة، ذلك أن أكبر ضحية في هذه الحرب كما وكيفا هي أوربا، وبالخصوص دول السوق الأوروبية المشتركة، حيث بدأت تفهم أنها تلقت هزيمة عسكرية بدت آثارها في فقدانها للسوق الحربية للأسلحة أمام التفوق الذي ظهرت به أسلحة الولايات المتحدة الامريكية، وبالتالي أضاعت هذه الدول أسواقها ليس في منطقة الخليج فحسب، ولكن في العالم الثالث بأسره، كما كان من آثار الهزيمة، ان ما يسمى «ببناء الكويت» و«السعودية» وبعض دول الخليج المتضررة في الحرب، من جديد، والذي يقدر بحوالي 100 مليار دولار، أتضح أن هذه المهمة هي بنسبة 90٪ للولايات المتحدة الامريكية بل انه قبل اندلاع الحرب تأسست شركات أمريكية لإعادة بناء الكويت، ولذلك أقول إن أول ضحية كان خلال هذه الحرب هي أوربا.

وداخل أوربا كانت فرنسا الأكثر تضررا، لأن فرنسا أرادت أن تلعب دور المتزعم للحلف الأوروبي داخل هذه الحرب. وأعتقد أنه حتى لو كان على رئاسة الجمهورية الفرنسية رئيس غير السيد ميتران ما كان له اختيار سوى اتباع الولايات المتحدة الامريكية، لأن الولايات المتحدة مارست ضغطها بكل الوسائل على فرنسا، وقد اتضح ذلك جليا بالضبط يوم 14 يناير 1991، حيث كانت هنالك محاولة فرنسية سوفياتية داخل

مجلس الأمن تستهدف وقف اندلاع الحرب، لكن الولايات المتحدة الامريكية بدأت تهدد فرنسا لدرجة أصبحت فرنسا خائفة من فقدان مقعدها الدائم بمجلس الأمن، ولما أقول هذا عن فرنسا أفكر في الاستفتاء الذي نشر في مجلة «الاكسبرس» الفرنسية والذي اتضح فيه أن الرأي العام بعدد من الدول الأوروبية لم يعد يعتبر فرنسا دولة كبرى ذات وزن حقيقي لتسيير العلاقات الدولية، وأظن أن هذه هي الهزيمة الحقيقية لأوربا وفرنسا رغم ما حاولت من التنكر لهزيمتها باتباع الولايات المتحدة في الكذب والتعتيم والتضليل للحقيقة وقلب الحقائق. وقد نالت فرنسا مقابل ذلك الضوء الأخضر في حق التصرف داخل عدد من المناطق بما فيها افريقيا الفرنكوفونية أي «المستعمرات الفرنسية القديمة» وبما أننا دخلنا مرحلة ما بعد الاستعمار، فإنه طبيعي أن يظهر المستعمر القديم بنفس ما كان عليه يريد أن يصبح كما كان مستعمراً. كما منح لهم التفويض للتصرف في كل المناطق التي كان لهم سلطة فيها قبل استقلالها بما في ذلك المغرب العربي، والجديد هنا هو أن فرنسا تدخل في مخططها الهيمني ضد دول المغرب العربي بخطة جديدة واستراتيجية أخطر مما كانت عليه قبل حرب الخليج.

جريدة "العلم" ـ 7 أبريل 1991

الفرنكفونية تعد مرحلة جديدة لتمديد هيمنتها على المغرب العربي (×)

رغم الرجة التي أصابت فرنسا خلال حرب الخليج سياسيا وعسكريا، نجد أن دول التحالف قد قامت بتوزيع أدوارها الجديدة على العالم في إطار شبيه بيالطا جديدة، سمح فيه لفرنسا بالتصرف اللامشروط ببعض المناطق خاصة افريقيا الفرنكفونية ومنطقة المغرب العربي وتحديدا: المغرب، الجزائر، تونس، وأيضا موريطانيا باعتبارها تدخل ضمن مجموعة المغرب العربي وتقع على شمال افريقيا، رغم أني لا أميل إلى هذا التقسيم الاستعماري الذي يحاول وضع حواجز بين شمال وجنوب افريقيا.

لقد منحت لفرنسا «البطاقة البيضاء» للتصرف، وهو ما بدأت تترجمه بتحركاتها باسم التعاون وتعزيز العلاقات لأجل التنمية مع دول المغرب العربي وغيرها من الشعارات الجديدة، ويدخل هذا التحرك في إطار مخطط شامل ما بين السوق الأوروبية المشتركة والعالم العربي عامة والمغرب العربي خاصة، في إطار ما يسمى «بالسياسة المتوسطية» ذات الأبعاد الاستعمارية، ثم هناك مشروع جديد للفرنكوفونية أعد بحلة أخرى لتجديد هيمنة فرنسا على المغرب العربي ما بعد الحرب. - وكنت دعوت خلال الأزمة دول المغرب العربي إلى مغادرة المؤتمر الفرنكوفوني الذي لا مكان لهم فيه، بل هو يمس بكرامة وسيادة المغاربة - كما كنت توقعت خلال مؤتمر داكار أن المؤتمر الفرنكوفوني القادم لن يستطيع الانعقاد خلال بدايات 1991 وكتبت في هذا الإطار بنوع من الهزل أن المقر الذي كان قد اختير لعقد المؤتمر سنة 1991 هو زايير، وكانت فرنسا تحتفل خلال نفس الفترة بالذكرى المائوية الثانية لإعلان حقوق الانسان الفرنسي، وهو ما يتناقض مع أحوال الزايير - كمستعمرة فرنكوفونية - فيما يتعلق بالديمقراطية وحقوق الانسان، وهو ما جعل الاوروبيين يفهمون الآن أنه من غير الممكن عقد المؤتمر بالزايير، ويتوقع أن ينعقد في باريس، ولذلك تعمل فرنسا كل الجهود لإنجاح المؤتمر القادم، وقد طالتنا الاخبار عن اجتماع للمجلس الأعلى للفرنكوفونية ولوحظت التغييرات التي طرأت على أعضائه كما لوحظت التحركات الجديدة والغريبة لعدد من المفكرين الافارقة مثل الرئيس سنغور وأساتذة وكتاب من المغرب العربي لا يحتاجون لذكر أسمائهم بل هم معروفون بولائهم لكل قيم الفرنكوفونية. ويأتي بعد ذلك الخطر المتوسطي الذي يلوح بعقد مؤتمر آخر بين أوروبا

(×) 14 أبريل 1991

والدول المغاربية، وأتخوف هنا من حصول تلاعبات لدى بعض وزراء الخارجية بالمغرب العربي، قد تنتهي إلى الدخول في هذا الفخ دون وعي لما يحمله هذا المخطط، وأخيرا هنالك مخطط آخر خاص بين فرنسا والمغرب العربي، وأحيل هنا الى مرجع هام وهو مقال تحليلي في جريدة «هفـتـرفـزلـتزرفـض زفـوزك زم» الجزائرية. يكشف فيه أهم خيوط المخطط وما يحمله من هيمنة ثقافية فرنسية بعد الحرب، وقد كانت جريدة العلم سباقة الى ترجمته ونشره يوم الأربعاء 20 مارس 1991 بالصفحة 12 ونقرأ عبر هذا المقال أنه لم يكف فرنسا معهد العالم العربي بباريس والذي برهن عن عدم استقلاليته وعدم وجوده خلال حرب الخليج، فأنشئ خلال يناير الماضي معهد جديد بفرنسا يسمى «معهد المغرب العربي»، وبنفس الصدفة نقرأ في مجلة كانت تصدر في الماضي القريب تحت عنوان «أفريك بلوس» صادرة عن مجموعة صحفية عرفت بتغير موقفها حسب الأحوال والأوضاع، ثم أصبحت تحمل عنوان «مغرب بلوس» ونقرأ في افتتاحيتها أن هذا العدد تم تحضيره خلال يناير 1991، وهو نفس الشهر الذي تقرر فيه فتح معهد المغرب العربي، لكن أهم شيء في هذه المجلة هو المقال الرئيسي للعدد الذي يتحدث فيه صاحبه عن التوازن السياسي في دول المغرب العربي، ووضع لهذا المقال عنوان «تشخيص: ولادة رأي عام بالمغرب العربي»، ودون أن أشير إلى الأفكار الخطيرة التي يحملها هذا المقال، نجده موقعا باسم «بنجامين ستورا» وهو الشخص الذي أسندت له إدارة معهد المغرب العربي، وهنا لست أدري هل يكون من باب الصدفة أيضا أن يكون أهم مقال في هذه المجلة الصادرة خلال شهر يناير هو لمدير معهد المغرب العربي الذي أنشئ في نفس الشهر. وتجدر الإشارة أيضا الى أن بنجامين ستورا، هذا هو من مواليد وهران، ويبدو أنه وجه نحو الاهتمام بالمغرب العربي منذ فترة دراسته حين أعد أطروحته عن «المقاومة الجزائرية» وأمام هذا الخطر لا يسعني إلا أن أنبه مرة أخرى من هذه المؤامرة الفرنكوفونية الجديدة، ولا أحب أن يفهم من كلامي أني ضد الحوار ولكني أفهم من تجربتي وبحثي في العلوم الاتصالية أن الاتصال السليم لا يمكنه التحقق إلا إذا كان هنالك نوع من التوازن، وإذا كان هنالك أخذ وعطاء وإذا كانت المقاصد غير محدودة لأسباب معينة وأهداف معينة ومجالات معينة وفي ظروف معينة.

وأكرر تخوفي من أن يكون هذا المخطط يحمل في أحشائه إعدادات لمؤتمرات مقبلة متوسطية أو بين فرنسا ودول المغرب العربي خلال الأشهر القادمة القريبة، خاصة وأن وفودا تأتي بتتابع سواء عن الأحزاب الفرنسية أو عن البرلمان الفرنسي أو عن الحكومة الفرنسية كما تتحرك «الباترونا» في نفس الاتجاه بتدعيم وسائل جديدة للاستثمار داخل المغرب العربي، علاوة على الحملة الإعلامية الفرنسية الواسعة عن المغرب العربي لما بعد الحرب كما هو الشأن بالنسبة للعدد الأخير لمجلة «أفريك بلوس» في مقال لها بعنوان غريب

: «وفي النهاية المغرب العربي! Enfin ce Maghreb، أو بالنسبة لهذه المجلة الجديدة «مغرب بلوس» بما تحمله من مقالات تنم فعلا عن مخطط مدروس وتعبر عن مرحلة ما بعد الاستعمار، ولعل مقال «بنجامين ستورا» يعبر عن مرجعية هذه المجلة، خاصة حين نقرأ عن توجساته التي يمثلها خوفه من عالمية الحركة الإسلامية، ويضع تقابلات بالية بين الديمقراطيين والرجعيين مقابل أصحاب الحداثة وأصحاب التأخر والتخلف. ويعتبر حرب الخليج لعبت دورا في تدعيم قوات التخلف والرجعية..!؟ والحمد لله أن يكون هذا الكلام عن حرب الخليج التي برهنت وكشفت لا للمغرب العربي أن هناك رأيا عاما حقيقيا يعبِّر عن إرادته ويتحمل مسؤولية مصيره بقطع النظر عما يجري داخل الأجهزة البرلمانية، ولا يمكن لأية سلطة أن تقاوم وتقضي على نهضة الشعوب الحضارية والديمقراطية.

لكن ألا يثير الحديث عن الديمقراطية الاستغراب ويبدو غير ذي موضوع بعد العدوان المخطط من طرف الولايات المتحدة وحلفائها على العراق، صحيح أن دخول العراق للكويت، كما عبرت عن ذلك يوم 12 اكتوبر 1990 هو مخالف للقانون، لكن الفرق اليوم هو أن أي حديث عن الدكتاتوريات لا يعتبر إلا تمويها وتغطية لحجم العدوان ضد العراق، خاصة وأن مسألة الدكتاتوريات في العالم الثالث مشكلة شاملة ونسبية، انه في كل دول العالم الثالث، وبالخصوص بافريقيا والدول العربية نجد دكتاتوريات ذات أشكال مختلفة، فلا معنى إذن أن نوجه أصابعنا لدولة بعينها تعرضت لأشرس هجمة من الغرب. هذا الغرب الذي يتميز دائما بمنهجية الحفاظ على الاستقرار وعدم التغيير لتبقى الأشياء كما هي، وأعود إلى حرب الخليج لأقول أن ما حدث في الخليج ليس حربا محلية ولا حربا بين عرب، بل هو انطلاق لأول حرب عالمية حضارية، بدأت حلقته الأولى في الخليج، ويمكن للحلقة الثانية أن تكون في المغرب العربي أو في باكستان أو في أندونيسيا.. وقد أصبحنا نلاحظ من جديد تحركا شاملا في افريقيا بدأ في الطوغو ثم قد يأتي دور السينغال وساحل العاج وغيرهما من الدول الافريقية.

وعموما نجد أننا بعد «حرب الخليج» في مرحلتها العسكرية أصبحت معها شعوبنا أكثر وعيا لما يحاط بها، وأصبحت لها ذاكرة قادرة على الاختزان لأجل المستقبل في نضالها المقبل من أجل البقاء، كما فعل شعب العراق رغم سقوط أكثر من 300 ألف شهيد ولكن قافلة التاريخ تسير ولا يمكن تغييرها إلا من طرف الشعب الذي صنعها في الماضي.

وأذكر هنا أن الولايات المتحدة حققت جزءا من أهدافها لكن بصورة ستخلق لها متاعب كثيرة في المستقبل القريب، فقد اتضح مثلا عن طريق وكالة مختصة أن شوارزكوف الذي قاد حرب الخليج ضد

العراق، وقع على اتفاقية لالقاء 100 محاضرة تقدر أجرتها بخمسين ألف دولار للمحاضرة الواحدة، أي ما مجموعه 5 ملايين دولار، ولعلها بداية للسيد شوارزكوف لتمويل حملته الانتخابية لمواجهة الرئيس «جورج بوش» ليس في الميدان العسكري وإنما في انتخابات الرئاسة الامريكية.

ومن جهة أخرى ستواجه أوروبا واليابان أزمة في أضعف نقطة في اقتصادهما وهو اعتمادهما على النفط الخليجي الذي تحكمت فيه الولايات المتحدة الامريكية في جانبه الانتاجي وفي احتكار تسويقه، مما سيضطرهما إلى التنازل إليها في عدد من المواقع، كما أن ما حدث في الخليج عسكريا سيؤدي من طرف الغرب إلى سياسة شبه متناقضة حيث يريد من جهة بيع أسلحته لدول الخليج كأهداف تجارية، لكنه سيظل شديد التخوف بخصوص الالات العسكرية وغير العسكرية ذات صلة بالبحث العلمي أو التكنولوجيات المتطورة، وإذا فهمنا لماذا يوظف ثلثا ميزانية البحث العلمي في الولايات المتحدة والغرب في مجالات ذات علاقة بالمجال العسكري، نتفهم تشديد الغرب على منع دول العالم الثالث من الاستقلال التكنولوجي.

الرباط ـ 21 / 3 / 1991
جريدة "العلم" ـ 14 أبريل 1991.

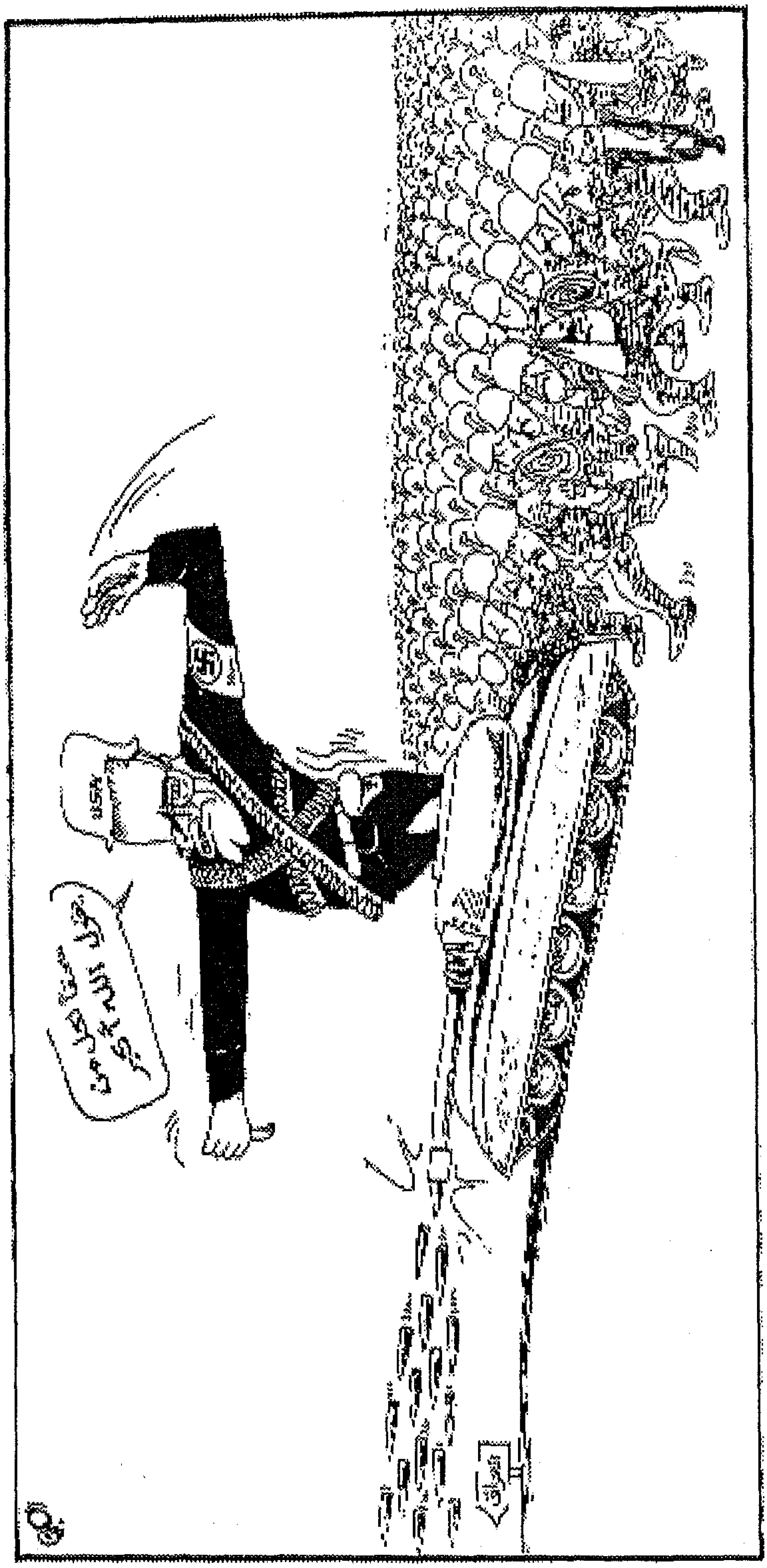

الـذاكـرة والنسـيـان (×)

لا يمكن أن نفهم التقدم الحضاري والعملي والتكنولوجي الذي حصل إلا إذا فهمنا ما يسمى بالثورة الإعلامية.

والثورة الإعلامية هي التي تعطي مكانة هامة للمعلومات وللمعرفة أكثر مما تعطيها للمواد الخام وللرأسمال.. وعندما نقول معلومات، فإن هذه الأخيرة لا قيمة لها إن لم يتم تسجيلها وإذا لم تصبح نوعا من الذاكرة،

التقدم كله مبني على الذاكرة.. والحياة نفسها ليست من الناحية العلمية (ولا أقصد هنا الجانب الروحي) سوى معلومات أو ذاكرة موجودة في الخلايا، وهي الآن أيضا التقدم الحاصل في العلم، أي في الشفرة الوراثية أو شفرة الوراثة Le code générique وهذا يبين أن الذاكرة حتى من جانب الحياة نفسها شيء أساسي. والتقدم الذي حصل في حرب الخليج، من حيث الأسلحة المتطورة بالمقارنة مع الأسلحة القديمة، يعكس أن الفرق هو أن للأسلحة الجديدة ذاكرة، ولها حاسوب، ولا يزال يستعمل هذه الذاكرة الموجودة في الأسلحة.

ويمكن أن نسترسل في إعطاء أمثلة من هذا النوع بدون حد، فيما يخص أهمية الذاكرة.. فبدون الذاكرة لا يمكن أن نتقدم. وحرب الخليج تمنحنا فرصة للتعرف بتدقيق عما وقع، ونحلل الأشياء بنوع من النقد الذاتي بمنهجية علمية.. فمسألة الذاكرة شيء أساسي.

وإذا أخذنا الكلمة باللغة العربية، فماذا نجد؟ نجد أن لفظ (الذاكرة) أصله من (ذكر). وإذا تأملنا القرآن الكريم نجد أنه نفسه (الذكر الحكيم).

ولفظ (ذكر) مذكور في القرآن الكريم 268 مرة.. وهذه الكلمة لها 63 مشتق، وليس من الممكن أن نتكلم هنا عن كل هذه المشتقات، لكن دعونا نتوقف مثلا عند قوله تعالى : واسألوا أهل الذكر (الآية 15، السورة 25).

والذكر له عدة معاني في الإسلام. وفي نفس الوقت نجد أن عكس الذاكرة هو النسيان. وإذا أخذنا فعل (نسي) وهو مبني على النسيان نجد أنه مذكور 45 مرة في القرآن الكريم، وله 28 مشتق.

(×) 10 أبريل 1991

ولو أخذنا كمثال : الآية 115 من السورة 20، نقرأ فنسي ولم نجد له عزما. وهناك بالنسبة للنسيان في القرآن (الآية 26، السورة 38) : «لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب».

وهكذا فليس ممكنا بالنسبة إلينا أن ننسى بسرعة، فننسى الماضي، وننسى ما حصل في المغرب الصغير (المغرب الأقصى والمغرب الكبير (المغرب العربي) والعالم الإسلامي والعالم الثالث، ولو على الأقل منذ الحرب العالمية الأخيرة، حيث وقع 275 نزاع عسكري ذهب فيه ضحايا يحسبون بعشرات الملايين.. والعالم العربي وحده فقد خلال هذه المدة أكثر من عدد اليهود الذين ماتوا خلال الحرب العالمية الثانية.

وبما أننا نتحدث عن الذاكرة، ونحن اليوم 10 أبريل 1991 نستحضر ذكرى الخطاب التاريخي لجلالة الملك محمد الخامس رحمه الله بطنجة يوم 9 أبريل 1947 فبرهن به برؤيا وبعزيمة الشعب المغربي كله على أن يتحرر من الاستعمار الفرنسي وأيضا أن يتحرر من الهيمنة الحضارية الفرنسية، لأنه في هذا الخطاب الذي أدى الى تغيير المقيم العام، وبعد ذلك أتى الجنرال (جوان)، ركز على شيء أساسي وهو أن المغرب جزء لا يتجزأ من العالم العربي ومن العالم الإسلامي.

هذه ذكرى أولى...وهناك ذكرى أخرى مرت منذ أيام، وهي ذكرى اتفاقية الحماية، وكانت يوم 31 مارس. وهناك أيضا ذكرى يجب ألا ننساها، لأن لها علاقة بالعلم والاستعمار والثقافة، وهي أن فرنسا دخلت الى المغرب، ليس بعد اتفاقية الجزيرة الخضراء لعام 1906 بطريقة قانونية حسب النظام الدولي الذي كان سائدا في ذلك التاريخ، بل إن اتفاقية الجزيرة الخضراء كانت نوعا من تأسيس نظام دولي استعماري جديد، تماما مثل النظام الدولي الجديد الذي بدأ في الأمم المتحدة، وهو الآن في خضم حرب الخليج نظام استعماري لمرحلة أسميها (ما بعد الاستعمار).

ولنرجع 88 سنة إلى الوراء.. و88 سنة هي ضعف 44 سنة التي تفصلنا عن خطاب طنجة التاريخي. لنرجع الى ما قبل معاهدة الجزيرة الخضراء، أي تسع سنوات قبل الحماية.. فماذا نجد؟ نجد أن فرنسا دخلت الى طنجة بطريقتها في أكتوبر عام 1903، وهذه الطريقة هي البعثة العلمية التي أسستها فرنسا في طنجة.. وهذا موضوع يستحق دراسة خاصة.. وهناك خبرة أجراها مثقف مغربي.. لقد أنجز ذ. الطيب بوتبقالت، وهو من أسرة تحرير (الخضراء)، دراسة دكتوراه في هذا الموضوع، وهي دراسة بها تقريبا ألف صفحة، وتسلط الأضواء على هذه البعثة الفرنسية، التي أسسها Le Chatelier Alfred ، وترأسها Georges Salmon .

ويجب أن نعرف أن الأشياء قد انطلقت من البحث العلمي الفرنسي، وانطلقت بدراسات ومجلات

مختصة في الإسلام، في المغرب العربي، وأن الفكرة نفسها جاءت من المندوب الفرنسي في الجزائر، الخ.. وهذا جزء من تاريخنا يجب ألا ننساه.. فيجب ألا نقول إن الحماية على المغرب بدأت عام 1912، هذا ممكن فقط من حيث الاتفاقيات الدولية، وهي كانت مفروضة علينا، لكن الواقع أن العلم له دور.. وفرنسا بدات احتلال المغرب بطريقة البحث العلمي، لمواجهة كل القيم الموجودة ولمحاربة الإسلام.

وهناك شيء آخر، ودائما من أجل الذكرى، وهو ـ بالنسبة الي ـ كون 5 أبريل 1991 سيكون تاريخا مهما في التاريخ المعاصر للمغرب، تاريخ ما أسميه بمرحلة ما بعد الاستعمار.. ففي ذلك اليوم، وفي الساعة الخامسة و45 دقيقة بالتوقيت المغربي، سمعنا في إذاعة ميدي ا برنامجا حول العقل La raison ، وقد دام ساعة، وتصرف فيه وزير خارجية فرنسا (رولان دوما)، وكأنه ليس في بلاده فقط، بل كأنه يتكلم في منطقة ليست منطقة مستقلة.

والجدير بالذكر أنه في هذا البرنامج كانت الأسئلة تأتي من باريس من عدة شخصيات مغاربية مغربية مختارة ودورها معروف، وهي التي كتبت في الصحف الفرنسية وبالخصوص في LIBERATION وهي التي ساهمت في البرامج التلفزية، وهي التي أعطيت لها جميع التسهيلات.

وهذه النخبة هي التي جاءت لتلقي أسئلة على (رولان دوما). وجزء كبير من وجوه هذه النخبة هي من المساهمين والمتعاونين مع هذه الإذاعة الاستعمارية الموجودة في طنجة، وتعتبر «إذاعة مغاربية».

في هذا اليوم، 5 أبريل، بدأ تاريخ جديد.. وعكس ما قاله رولان دوما من أننا «قلبنا الصفحة نهائيا»، أقول : «لقد بدأت صفحة جديدة لما بعد الاستعمار أو ما بعد الحماية..» فيوم 15 أبريل 1991جاء بالضبط خمسة أيام بعد ذكرى اتفاقية الاستعمار، وكان أيضا يومين بالضبط بعد ذكرى مذبحة الدار البيضاء لعام 1947.. وقد كانت مؤامرة لمنع جلالة محمد الخامس رحمه الله من السفر الى طنجة.. وفي هذه المجزرة مات أكثر من 100 مغربي، وكان هناك العديد من المجروحين.

وهذا لا يمكن أن ننساه..

وأيضا فإن 5 أبريل 1991 كان بعد مرور شهر كامل تقريبا بعد المسيرة التاريخية (3 فبراير) التي لم يكن لها مثيل منذ بداية الاستقلال إذا استثنينا المسيرة الخضراء. وهذا التاريخ (5 أبريل 1991) جاء تماما أربعة أيام قبل ذكرى خطاب جلالة محمد الخامس بمدينة طنجة. شيء مهم ولا يمكن أن ننساه، وليس من حقنا أن ننساه.. وهنا لا أتكلم من روح انتقامية.. لا.. ليس هذا.. فالانتقام ليس من طبعي ولا وجود له في فكري.. وهدفي هو أن نكون واعين بالأحداث وواعين بالواقع حتى لا ننسى، وحتى إذا نسينا نعرف لأي سبب سننسى.

هذه نقطة أولى كان ضروريا أن نتكلم والا ننسى.. وسأرجع بسرعة الى ما قاله (رولان دوما).. فالمهم هو أن نرى الى أية درجة، وهي نوع من الاستهتار والمهزلة، أنه قبل أن نسمع (رولان دوما) في إذاعة ميدي ١ بعدة ساعات، كان الفرنسيون يقرأون جريدة زرفـقـذ زمـ في باريس.. وفي هذا العدد الذي خرج الى الأكشاك الباريسية بعدة ساعات قبل ندوة (رولان دوما)، قرأ الفونسيون مضمون ما سيقوله (رولان دوما).. وهذا المضمون منشور في عدد 6 أبريل بالصفحة 30، علما بأن "le Monde" "يوزع يوما قبل وصوله الينا، بداية من الواحدة بعد الزوال بالتوقيت الباريسي، والواحدة الباريسية هي 11 صباحا عندنا.

وإذن كان القراء الفرنسيون على علم مسبق بما سيقوله (رولان دوما) في المغرب.. وأكثر من هذا فان المراسل الخاص الذي جاء مع (رولان دوما) عن جريدة "le Monde" ثم رافقه الى موريتانيا بعد المغرب، واسمه (فرانسيس كرونو)، يقول في أول جملة على صفحات "Le Monde" وأقرأ كما هي : "Une page difficile est tourné. Il faut regarder vers l'avenir" ويجب أن ننظر هنا الى المستقبل.. واختصاصي أنا هو المستقبل، ولا أفهم هذا المستقبل إذا كان بدون ماض.

ولكن المهم أن هذا المراسل بعد هذه الجملة يقول :

au cours d M. Dumas, avant m... Avait affirm,
organis un d me recontrer les dirigeants marocains,
di 1. par la Radion M bat .

انظر معي هذا «الاحترام» من قبل رجل قال هذا الكلام حتى قبل أن يلتقي بالمسؤولين المغاربة.. وهذا يعني أنه جاء وكأنه في بلاده، ويتصرف في إذاعة هي له، إذاعة "bilingue" ، وكأن ليست لنا إذاعات عربية ولسنا في بلاد عربية، بل نحن في بلاد "bilingue" .. وهذا يكفي ونحن نرى ما قاله من بعد فيما يخص العلاقات بين فرنسا والمغرب العربي بصفة عامة والمغرب الأقصى بصفة خاصة.

ماذا أقول عن هذا المقال المنشور في جريدة "Le Monde"

أنا أقول : إن هذا الخطاب تاريخي، وأنا لست رجلا سياسيا، بل إن حياتي بذلتها كلها في ميدان البحث العلمي والتحليل، وطبعا بذلت جزءا منها كمناضل، وليس هناك أي تناقض لأن مفهوم العلم والبحث نضال مستمر، وهو نوع من الجهاد، بل هو جهاد حقيقي، ولهذا، وكباحث، أتوجه هنا من خلال جريدة (الخضراء) الى بعض الاختصاصيين في الجامعات، بالسلك الثالث، ليختاروا كموضوع دراسات وأطروحات هذا الخطاب والتعمق فيما جاء من قبله وكيف تتهيأ هذه السياسة الجديدة التي هي نوع مما أسميته لدى بداية أزمة الخليج بحرب عالمية أولى، الحرب الحضارية العالمية الأولى.

وفي هذا الحديث، ونحن يومه 10 أبريل 1991، أزيد وأقول : هذا اليوم يوافق اليوم 83 من بداية الحرب

العالمية الحضارية الأولى. ولا يمكن أن نقول أن الحرب ليست مستمرة، وقد سمعنا في أخبار اليوم أنه منذ ما يسمى (ما بعد الحرب) تم تسجيل ما يقرب من 2.400 خرجة للطيران الأمريكي وغيره فوق التراب العراقي، وهي تحليقات تخرق سيادة هذه البلاد، وكل يوم نسمع من الأمم المتحدة ما يؤلم. والواقع أنها هذه حرب عالمية لم تنته لحد الآن، وان عدد الأموات، حسب تقديراتي، وقد نشرت (الخضراء) بعضا منها، يرتفع الى أكثر من 350 الف، وربما يقترب العدد من 400 ألف من الضحايا في العراق.

أمريكا والعرب والعراق

ولا ننسى أيضا أنهم يقولون أن العرب قد خسروا - وفي الواقع، هذه الحرب ليست كباقي الحروب الأخرى التي كانت في المنطقة العربية، لأن هذه الحرب واجهتها دولة واحدة، فهناك بلاد اسمها العراق.. واجهت 37 دولة، ولم يمت في سبيل الدفاع عن العراق اي عربي غير عراقي باستثناء الفلسطينيين الذين كانوا يموتون يوميا قبل وبعد اندلاع الحرب في الخليج، وستبقى الأمور على هذه الحال مادام هذا «النظام الدولي الجديد».

إذن علينا ألا ننسى أن هذه الحرب العسكرية مازالت مستمرة، وأن فرنسا تستعمل ما تسميه بحق التدخل Le droit d'ingerence.

كـذب

ونرى في نفس الوقت هذا الكذب الذي يأتي من الغرب، فنقرأ في الصحف أن مارلين فيتسواتر الناطق بلسان البيت الأبيض كان يقول أن الولايات المتحدة ليست لها اية نية في التدخل في الشؤون الداخلية للعراق. وهذا التصريح منشور في صحيفة LE FIGARO ليوم 12 مارس 1991. ونجد نفس الكلام لمسؤولين فرنسيين في وقت معين فيما يخص تبريراتهم للتدخل في هذه الحرب.

إذن، لا ننسى... ولا ننسى أن هناك الكذب.. ولا ننسى أيضا أن هذه العراق وحدها مواجهة، وان حتى بعض شبه الاحتجاجات التي كانت من طرف بعض البلدان بما فيها دول المغرب العربي قد انتهت، وليس هناك ناطق بلسان أية حكومة عربية في أي مكان ينطق بكلام ضد الظلم وضد المنكر، باستثناء ما يصدر أحيانا من (الدولة الفلسطينية) وكذا من اليمن التي هي عضو في مجلس الأمن وأدت الى حد الآن آلاف الملايين من الدولارات ثمنا لموقفها.

ويمكن ألا ننسى أيضا من يقولون : إن العالم العربي قد فعل كذا وكذا، والعالم العربي خسر الحرب.. هذا كذب.. كذب لأن العراق واجهت وحدها 37 دولة غربية طبعا بما فيها بعض الدول العربية،

والضحايا إذا كانوا عربا، فهم من جهة الحلفاء الغربيين، وهذا شيء أساسي في تحليلنا،، وتحليل الباحث يعني أن كل كلمة يقولها يقرأ من أجلها مائة ورقة، وكل ورقة يكتبها يقرأ من أجلها 50 أو 60 في صحفهم ومجلاتهم لكي يتفهم.. وكل يجاهد في ميدانه.

إذن، لن ننسى أيضا أن شعبا واحدا في تاريخ الإنسانية لم نجد مثله.. وحتى الدول الأخرى التي تقول أنها عربية، رأينا ما فعلت الجامعة العربية وأين - هي، ورأينا أين هذا الاتحاد المغربي وأين وجوده الذي كان يحاول أن يجد حلا دبلوماسيا. وقد قلت عند ذاك إن هذا لعب بالوقت، وأن ليست هناك إرادة سياسية.

والشعوب ؟

وهل يمكن أن ننسى هذا الواقع، ونجلس ونقول : جاء وقت الحوار والتسامح، وننسى شعوبنا التي كانت في الشوارع وعبرت عما يحس به كل عربي وكل مسلم وكل إنسان من العالم الثالث. وما نرى اليوم أن إسرائيل مازالت تفرض موقفها وآراءها عن طريق المجموعة الاقتصادية المتحدة وانجلترا والحلفاء وفرنسا.

بيئيون

وقد قرأنا في جريدة Le Monde المؤرخة يوم 9 أبريل خبرا مهما جدا عن الحزب الجديد في فرنسا (حزب البيئة) أن ناطقا بهذا الحزب الأخضر أدلى بتصريح مهم (انظر العدد الماضي من الخضراء) برهن به بشجاعة ما كان عليه دور إسرائيل ، وهو دور الصهاينة في فرنسا والولايات المتحدة وغيرهما بحيث يتصرفون كما يحلو لهم.

لكن ماذا حصل لهذه البلاد «الديمقراطية» التي تسمى فرنسا؟ حصل أنه انعقد اجتماع لحزب الخضر.. وفي الاجتماع تم اتخاذ موقف. ووقع تصويت. ولأول مرة كان التصويت بالاسم، أي علنيا وليس سريا، وهذا نوع من الضغط على أعضاء هذا الحزب في مؤتمرهم. ومع ذلك فإن 27 عضوا صوتوا ضد. وجاء التصويت بدون نقاش حول الموضوع..

ونرى هنا أنه قد بدأت مفاهيم جديدة حتى في الغرب والحمد لله، ونحن نعتبر أن الانسان كيفما كان وفي أي مكان كان له ضمير. وهذه الأحزاب الجديدة لها مفاهيم جديدة خاصة بالبيئة. مفاهيم جديدة تجعلها تعترف بالحق، ومن يعترف بالحق نرى ما يحصل له.

وأيضا نرى في فرنسا، التي جاءت لتعطينا دروسا في حقوق الإنسان والديمقراطية، ما حصل، ولو

لم تتكلم عنه الصحف، لرئيس اللجنة الفرنسية لمنظمة العفو الدولية، فقد تم توقيفه من عمله للموقف الذي اتخذه ضد الحرب في الخليج. ونرى أيضا ما حصل أخيرا في الحزب الاشتراكي. ونرى أن ثلاث أو أربع شخصيات منعت من أخذ الكلمة في أي منبر وأي موضوع الى يناير 1992. ونرى المواقف والتدابير التي اتخذت ضد 11 عضوا من هذا الحزب.

ثم نتكلم عن حرية الرأي والديمقراطية في هذه البلدان.

القيم

إذن يجب أن نفهم ما يحصل.. وأن نكون واعين أن الأشياء الموجودة الآن هي كلها لها علاقة بالحضارة وليس بشيء آخر، وأن هذه هيمنة حضارية لدرجة أن بوش نفسه كان يقول منذ أول يوم : «إننا ندافع عن قيمنا وعن نوعية حياتنا».

وهذا يكفينا..يكفينا أن نعرف ما هي أهمية وقيمة القيم فيما يحدث، ونكون واعين في علاقاتنا مع فرنسا ليس كشعب ولكن من الناحية السياسية ومن حيث الأهداف.

إنهم هناك.. لهم تخطيط.. ولهم سياسة.. ولهم استراتيجية.

واليوم نقرأ الكثير في الصحافة الفرنسية وفي الصحافة الانجليزية والصحافة الامريكية. ونقرأ كل ما يدعو للتخوف.

والبعثات إلينا متتالية، فهذه بعثة الحزب الاشتراكي، وهذه بعثة التجار، وهذه بعثة كذا، وهذه بعثة فلان..

الجزائر

يلزم أن نكون واعين.. ان Roland Dumas تكلم يوم 5 أبريل 1991 Andr Fontaine و كمسؤول عن (Le Monde) كتب في نفس اليوم من العام السابق أي 5 أبريل 1990، وهنا الذكرى تنفع، مقالا تحت عنوان : (L'Algerie entre le voile et le parabole) وقال فيه بكل صراحة أن هناك صراعا وسباقا بين الديمقراطية والاسلام : "Une course de vitesse entre la Démocratie et l'Islam".

والآن، كتبت عشرات وعشرات المقالات الأخرى، وآخر مجلة كنت أعتبرها جدية واسمها (Commentaire) كتبت في عددها الأخير 13 لعام 1991 مقالين : الأول عن الديمغرافية في العالم الاسلامي. ويتحدث عن السرعة التي يزداد بها الناس في العالم الاسلامي، ويعطي إحصائيات سبق لبعض منها أن نشرتها من زمان عن الاسلام والمستقبل، ثم يتحدث عن «خطر التعدد الاسلامي والهيمنة

الديمغرافية للعالم الاسلامي»، حسب تعبيره، وهذا المقال تحت عنـوان :

"mographie de l'Islam وهو بقلم Jean Marie Poursin.

وفي نفس العدد مقال آخر، وهو لـ Nicolas Baverez ويعتقد أن التجربة الجزائرية ستفشل، ثم يتحدث عما يسميه بخطر الاسلام في الجزائر، ويكتب في الصفحة 702 أن الديبلوماسية الفرنسية يجب أن تتعامل بمرونة مع اتحاد المغرب العربي بقطع النظر عن بعض الصعوبات الناتجة عن أزمة الخليج.

ويقول : ان هذا التعامل يجب أن يكون من فوق (par haut) عن طريق المجموعة الاقتصادية الأوروبية من جهة والاتحاد المغاربي من جهة أخرى، وأيضا من تحت بالتعاون بين الشركات الفرنسية والجزائرية. ويختم المقال، وهذا هو الأهم، بأن «هذه هي الشروط التي يمكن بها لفرنسا أن تساهم بفعالية في هذا الانتقال الخطير للجزائر الى الديمقراطية والى السوق وأن تشرك الجزائر مع فرنسا أحسن ما لديها من قيم. وهكذا سيتحقق حلم الجنرال ديغول عام 1958. وعندما قال ديغول : L'Algérie restera française, comme la france est restée romaine" أي أن الجزائر ستبقى فرنسية مثلما بقيت فرنسا رومانية».

والأمثلة من هذا النوع كثيرة.

وإذا تصفحنا جريدة مشهورة في فرنسا L'Expansion نجد أنها كتبت قبل اسبوع مقالا تحت عنوان : (Le Monde vu d'Alger) وتكلمت عن السيد أحمد غزالي، وزير خارجية الجزائر. ونلاحظ هنا جملة تعبر عن عدم رغبة الغربيين والفرنسيين في التعاون والحوار الحضاري الثقافي:

"Pas sa manière de s'exprimer par ses catégories intellectuelles, Sid Ahmed Ghozali est un français. Par ses origines ... ses responsabilités politiques, il est algérien".

غريب هذا المنطق...

إن الإعلام الغربي يسمح لنفسه بالتصرف في التحليل، وبالتصرف نيابة عن الناس، دون احترام دولة مثل الجزائر. وهكذا يأخذ مسؤولا، هو وزير الخارجية، فيكتب عنه وكأنه يمجده حيث يقول إنه ليس جزائريا سوى بأصله. فهو شخصيا له جذور جزائرية كما له مسؤوليته السياسية، وبهذا فقط هو جزائري، أما بوسائل تعبيره وبطريقة تفكيره فلا يمكن أن يكون إلا فرنسيا.

ونقول إن هذا هو الخطر.. ونجده في كل مكان..

الجـنـوب

ونجد في نفس المقال أيضا، لأن L'Expansion هي جريدة الأوساط التجارية والاقتصادية، نقرأ

ما يلي : «إن الرأي العام الفرنسي منشغل البال وقلق مما يحصل في أمنه بالجنوب»؛ والجنوب ليس هو المغرب العربي فقط، بل المقصود افريقيا كلها. ولهذا فالمخطط الموجود منذ سنين دشنه (رولان دوما) في إذاعة "مغاربية" ويجب ألا ننسى، لأن النسيان من الشيطان.

ويجب أيضا أن نفهم تفاصيل لهذا المخطط، فماذا نحن الآن نرى؟ نرى وزير خارجية فرنسا يقول ما قاله في ميدي 1، شهرا واحدا بعد تصريح (فوزيل) رئيس لجنة الخارجية في البرلمان الفرنسي، وكان يوم 7 فبراير 1991 حيث قال (فوزيل) في الجزائر :

"La France ne souhaite pas que l'Irak soit ecrasee

كان هذا التصريح في فبراير حيث أعلن (فوزيل أن «فرنسا لا تأمل أن يتم سحق العراق». وانظروا كيف تطور في أقل من شهر الموقف الفرنسي..

وكيف يمكن أن ننسى أن مسؤولا في فرنسا، هو المسؤول عن اللجنة الخارجية للبرلمان يقول كلاما من هذا النوع، وبعد أيام قليلة يعمل العكس.

فرنسا... مغاربيا

ثم يأتي وزير الخارجية (رولان دوما) ويتكلم عن الحوار، والتعاون، وما يسمى Co-dévelop-pement وعن المصالح المشتركة، وعن الأخوة، والبحر المتوسط، وليس المتوسط كله بل فقط أربعة من دول المغرب العربي وأربعة من أوروبا، لكي لا ندخل مشكل فلسطين. وهو أيضا يتكلم عن الصداقة العربية الفرنسية. وأين هذه الصداقة ونحن نعاين ألوانا من التصرف العنصري؟ ونرى عدم المسامحة تجاه المسلمين والعرب، وبصفة خاصة المغاربة، سواء قبل هذه الحرب أو خلالها أو حتى بعدها..

ولا ننسى..

فهذا هو سيناريو التشتيت والتفتيت.. وهو الذي أدى إلى ما وصلنا اليه بحيث أن دولة تواجه وحدها، وشعبا واحدا يواجه وحده العالم كله ولا أحد يتحرك.. هذا هو المخطط الجديد الغربي الفرنسي الذي ينبني على مصالح ذاتية.

فلا ننسى أن المغرب العربي سيبلغ سكانه خلال أقل من عشر سنوات مائة مليون نسمة. وأن هذه المنطقة تستورد من أوربا وبالخصوص من فرنسا 70٪ من حاجياتها، حيث أن التبادل التجاري بين بلدان المغرب العربي لم يصل بعد الى 4٪ أو 5٪ من التجارة الدولية. ثم إن هذه منطقة ضرورية بالنسبة لأوروبافي تعاملها مع بقية أقطار افريقيا، وإلى هذا فإن المغرب العربي مكان ومقر وتاريخ للإسلام، ولا

يمكن أن نفهم تاريخ الحركة الوطنية وتحرر هذه الدول المغاربية بدون الرجوع الى الحركة السلفية الاسلامية.

الفرنكوفونية

وهذه رحلة فيها هيمنة، وتستغل فيها الفرنكوفونية كوسيلة للبقاء الفرنسي على الخارطة الحضارية، رغم أن عدد الناطقين بالفرنسية في العالم لا يتجاوزون 4٪، وهذه الفرنكوفونية ليست فقط للدفاع عن الفرنسية بل أيضا لمحاربة اللغة العربية.. وهذا مصدر «حق التدخل» الذي كانت فرنسا وراءه وأدى إلى الموافقة في مجلس الأمن الدولي على القرار 688، وليس صدفة أن هذا القرار تم الاتفاق عليه يوم 5 أبريل، أي نفس اليوم الذي تكلم فيه رولان دوما على أمواج ميدي 1، وهو القرار الذي يسمح للأمم المتحدة بأن تتدخل في أمور داخلية لبعض البلدان فيما يخص الأقليات. إن فرنسا لم تنتظر هذا القرار 688، لأنها تصرفت في مرحلة ما بعد الاستقلال، وهذه مرحلة شبه استعمارية.

ولا ننسى التدخل من طرف الصحافة الفرنسية حتى فيما يخص القانون الأخير الذي وافقت عليه الجزائر حول استعمال اللغة العربية كحق داخلي..

وفرنسا مثل بقية دول اوروبا تخشى النمو الديمغرافي في المنطقة، ولها تخوف من التطور الكمي والكيفي للإسلام في المنطقة. وتماما كالولايات المتحدة التي لها ما يسمى Syndrome الفيتنام، فإن فرنسا لا يمكن أن تنسى هذا الـ Syndrome الجزائري، سواء تعلق الأمر بالثورة الجزائرية أو ما وقع في التاريخ الحديث، وبالتحديد في الانتخابات البلدية بالجزائر.

وأنا أخشى حتى على المسيرة الديمقراطية الحقيقية في الجزائر، لأن الفرنسين يهابون هذه الانتخابات، وقد لاحظنا أن بعض الأحزاب الشيوعية في الجزائر، وهي فرنكوفونية، أعلنت صراحة : لسنا بحاجة إلى الانتخابات لأن فيها خطرا» (راجع)Le Monde(عدد 7 أبريل 1991). وهذا يعني أن الديمقراطية والتعبير عن الرأي خطر، لأنه من الممكن أن يفوز في الانتخابات بعض المسلمين.

إن المخطط الفرنسي الغربي ذو عدة أوجه، وأنا لا أتصور بعد الذي قرأته في L'Expansion أن الفرنسيين يخشون على أمنهم، بل إن فرنسا تهيء نفسها لتكون لها جيوش مختصة للتدخل بسرعة في مناطق من العالم الثالث إذا وقع مساس بمصالحها، وهنالك سوابق، فستفعل تماما كما تصرفت أمريكا .

... وتـنـتـهـي فـرنـسـا

ولكن الخطر هنا من الناحية الحضارية هو أن فرنسا الآن قد انتهت كقوة سياسية، انتهت كقوة عسكرية، انتهت كقوة اقتصادية، انتهت كقوة علمية وحتى ثقافية. وهذا برهان ويشهد به الفرنسيون أنفسهم في كتبهم.

إن فرنسا نفسها، ومعها مجموع أوروبا، تعتبر الهيمنة الامريكية أو ما يسمى Pax Americana ، وهي منشغلة بالأمن الأوروبي وتعرف ما حصل لتأخذ تعويضا في المغرب العربي وافريقيا.. وهذا تعويض للمأساة التي انتهت إليها. و(رولان دوما) نفسه يشير الى هذا.. فيوم 11 مارس. أي قبل مجيئه الى المغرب قال :

v. “La crise du Golfe aura agi comme un révélateur sur l'europe et fait apparaitre ses limites et ses inssufisances

هذا كلامه وقد نشر في Le Figaro ليوم 12 مارس 1991، وهو يعلن فيه أن أزمة الخليج قد كشفت وأظهرت واقع أوروبا وما هي حدودها وما عجزها وما ينقصها.

إن فرنسا في أزمة حتى من الناحية العلمية، ففي مجال الاختراعات سجلت اليابان خلال العام المنصرم 200 ألف اختراع جديد، والولايات المتحدة 60 آلف، وألمانيا 30 آلف، وفرنسا 12 ألف.

والكل يعرف أن فرنسا في تخلف وأزمة من حيث البحث العلمي، وأن التكنولوجيا في فرنسا توجد في أزمة، وأن اللغة الفرنسية قد انتهت كلغة للعلم والتكنولوجيا.

ومرة أخرى يجب أن نكون واعين بأن هذه الشعوب لم تتعامل معنا بمصداقية.

الشارع العربي

ويحضرني هنا مقال للكاتب Charles Krauphammer في مجلة Time Magazine (ص68) من عدد 15 أبريل 1991. قال : «ما هو رجل الشارع العربي؟ رجل الشارع خلقه المثقفون الذين أرادوا أن يتخوف الغرب من مواقف الدول العربية ضد الغرب، وفي الواقع فإن الرأي العام العربي ورأي عام الشارع هو مراقب من قبل أنظمة لها بوليس سري وشبكات أمنية ولها هيمنة على الإعلام». تصوروا أننا عندهم حتى شخصيتنا غير موجودة، وشعوبنا غير موجودة، ورجل الشارع غير موجود.

وإلى هذا يتكلمون عن العالم العربي ويتكلمون عن الخليج.

الصحافة

وعن الخليج ألقي سؤالا واحدا : من آلاف الصحفيين الذين قاموا بتغطية حرب الخليج، من منهم كان يتكلم اللغة العربية؟ ومن كان في إمكانه أن يتصل برجل الشارع ويعرف منه كيف يفكر وما رأيه فيما يحدث؟

إننا نعيش أزمة كبيرة، ونحن مسؤولون داخل العالم العربي عن جزء مهم منها.

ويجب ألا ننسى... ويجب أن يكون عندنا نقد ذاتي ...

لكن هذه الظروف التي جاءت يوم 2 غشت 1990، فيها خير من جهة أخرى، لأنها مثل آلة (سكانير) بينت ووضحت كل شيء، وأظهرت الأشخاص والمخططات..

البترو دولار

ويجب أيضا أن نحلل، وألا نعتمد على العاطفة.. وألا نثق في هذا السلوك شبه العاطفي الجديد مع فرنسا ومع المساعدات الفرنسية والغربية. فكم يمكن لفرنسا أن تساعد المغرب العربي وهي نفسها تستنجد ملايير الدولارات من دول عربية أخرى؟ وكيف يمكن أن نعتمد على الاستجداء..

لكن من الناحية الحضارية ومن حيث العلم والتكنولوجيا، يجب أن نكون واعين وأن نفهم شيئا جديدا يا إنسان الجنوب، وهو أن هذا المخطط ليست فرنسا وحدها فيه... ففي مرحلة ما بعد الاستعمار، وهي مرحلتنا الحالية، أنت من يصرف على هذا الاستعمار.. وفرنسا تمول الآن جزءا كبيرا من هذه الهيمنة الحضارية بأموال عربية، بأموال خليجية..

وبدأنا نرى صحفا جديدة لا نعرف ماذا وراءها. إن عندنا صحفا لها تاريخ وماضيها معروف، ولكننا نرى كل يوم صحفا جديدة ومجلات جديدة، وسنرى قريبا أحزابا جديدة.. وكل هذا تخطيط لهيمنة حضارية. وللأسف فإن كل هذه الأموال الخليجية التي مولت من قبل التطرف، وأظهرت بعد أزمة الخليج من هم المرتزقة..

والآن نفس الأموال التي كانت تمول التطرف والتشدد هي التي تمول اليوم العلمانية واجتماعات في معاهد ومراكز ثقافية في بلداننا المغاربية، وهي مراكز نرى فيها أشخاصا جاؤوا ليحاربوا القيم المحلية العربية الاسلامية، وهم يأتون ضمن بعثات أجنبية كمرتزقة داخل بلداننا..

وعلينا ألا ننسى..

ومن أصعب ما أتوقعه هو الخطر المعشش داخل أنفسنا، وهو انعدام الكفاءة في التحليل، وعدم مواجهة الواقع، وعدم الدفاع عن الحرية الحقيقية وعدم بناء مجتمع مدني فيه جميع الحريات، وخاصة منها حرية التعبير، بدون مراقبة ذاتية وبدون تلاعب، وبالخصوص من طرف المثقفين لأن هذا وقت خطير..

ويجب أن نحافظ على الذاكرة.. لأننا بدون ذاكرة لا يمكن أن نتقدم..

وإن هذه الخطة الفرنسية الغربية، وبتعاون مع بعض الأوساط المالية الخليجية، وبعض المثقفين المغاربيين، وبدون وعي منهم، تهدف إلى أن تنشئ لدينا ذاكرة ممسوحة. وإذا مولوا صحفا جديدة فمرحبا بهم، فالتعدد والاختلاف سنة وأجر. ولست ضد أية فكرة كيفما كانت، لكن من الواجب أن تكون لنا ذاكرة حقيقية، ومن الواجب أن أقول عندما ألاحظ انحرافا، إن هناك الخطر..

وبهذا، فإن الذكر ينفع لمن أراد أن يتذكر..

وإذا كانت الحكومات والمسيرون السياسيون ينسون بسرعة من قبل التاريخ، إلا بعض الاستثناءات، ولكن الشعوب لا تنسى، وبالذاكرة الشعبية يُكتب التاريخ ويتمهد المستقبل.

هذا الحديث أدلى به د. المهدي المنجرة لجريدة «الخضراء»
يوم الأربعاء 10 أبريل 1991 على الساعة 11 والنصف ليلا.
«الخضراء» ـ 12 و 19 أبريل 1991.

عندما تهجرنا الكفاءات الهجرة إلى الخارج ..و هجرة إلى الداخل (×)

... الهجرة أنواع..

لنا هجرة إلى الخارج، ونحسبها بالجوازات والتأشيرات..

ولنا أيضا هجرة داخلية.. فحتى الأدمغة التي لم تذهب إلى الخارج، تهجر داخليا.. فهناك إذن هجرة الأدمغة، والهجرة داخل الأدمغة.. فعندنا عدد من المثقفين الذين بقوا في بلدانهم. لهم هجرة داخل أدمغتهم..

وكم مثقف يفتخر إذ يقول إن آخر كتاب قرأته كان منذ ثلاثة أو أربعة شهور..

هذا يؤسف له حقا.. فقد وصل لحد من العلم، بحيث أنه مدير عام أو وزير، وهو ليس محتاجا، وكان عليه أن يتتبع المعرفة..

وهذه هجرة للمعرفة..

وإذن، عندنا هجرة الى الخارج، وهجرة داخلية، وهي أن الكفاءة موجودة ويجب أن تبقى في بلدها وتحارب العراقيل الموجودة وهي مهمشة.. وهناك أشخاص لهم أدمغة أو كانت لهم أدمغة ومعرفة، وهم الآن في موقع المسؤولية، ولا يستغلون هذه المعرفة بل أكثر من ذلك يضيعون المعرفة.

والمهم أننا واعون بالإشكالية..

وأريد أن أركز على قضية (الأدمغة)، وهي أن العبارة قد استعملت لأول مرة بالانجليزية.. وأتذكر، لأن هناك قرارا للجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 2.320 (وتاريخه: عام 1967)، وكانت المبادرة من الهند ومصر وإيران والبرازيل ونيجريا، وكنت ممثلا لمنظمة اليونسكو آنذاك، وكان مطلوبا مني أن ألعب دورا في هذا المضمار.. وأول دراسة في الموضوع ظهرت عام 1968... وبعد ذلك ظهرت دراسات أخرى..

لكن العبارات مهمة..

فقد بدأنا بعبارة باللغة الانجليزية وهي (Brain Drain) ، وكان السؤال المطروح : كيف نترجم العبارة؟ وبعد أخذ ورد تم الاتفاق على أن الترجمة ليست (La fuite des cervaux) ، ولكن (L'exode des competen-ces) ، أي هجرة الكفاءات..

لماذا ؟

(×) 42 أبريل 1991

لأن الأدمغة لا تهجر الأدمغة.. لكن الكفاءة هي التي ترحل.. وبذلك يكون المقصود هو : هجرة الكفاءات..

هذا هو المهم.. المهم أن عندك كفاءة لكنك لا تستغلها..

وبقيت فكرة (Brain Drain) إلى عام 1974 إلى أن جاء قرار لمنظمة الأمم المتحدة للتجارة والتنمية، فبدأت فكرة أخرى صرنا نسميها (Reberve transfer of technology) ، ولم تعد المسألة مسألة الأدمغة أو الكفاءات، بل صارت بالصيغة التالية : ما هي نتيجة هذه الهجرة بالنسبة للإقتصاد؟

ولا داعي للخوض في التفاصيل..

وأعود إلى عام 1968.. إن تلك الدراسة التي أنجزناها، وهذا صلب موضوعنا وهو ليس منهجية التنمية ولكن : النموذج التنموي..

وأظن أن النموذج التنموي لدول العالم الثالث منذ الستينات تسبب ولايزال، في عدة مشاكل، لأنه مبني على التقليد الأعمى بدون دراسة كافية للمناخ والبيئة والقيم التي يتطور فيها، وبدون الاهتمام بأهداف الشعوب وانعدام رؤيا للمجتمع.. وانعدام الرؤيا هو أخطر من التخلف. ولا يمكن أن تكون لنا رؤيا مجتمعية اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا.. لماذا؟

الجواب : من له الحق في أن يحتكر تكوين هذه الرؤيا ؟

إن هذه الرؤيا لن تكون حقيقية إذا لم تكن رؤيا لكل المجتمع، رؤيا بمشاركة كل فئات المجتمع.. فكيف تكون رؤيا بدون تعددية؟ وبدون حرية الرأي التامة؟

وأقولها وأكررها : ليس في الإسلام حدود للتعبير عن الرأي.. وأتحدى أي عالم، كيفما كان، أن يعطي تفسيرا بأن الإسلام قد جاء بحدود في التعبير عن الرأي. التعبير عن الرأي مضمون ما دام الإنسان لم يمس حقا من حقوق إنسان آخر.. وهذا موجود في جميع القوانين.. إن من حق الإنسان أن يعبر عن رأيه.. وبدون ممارسة حرية التعبير لا يمكن أن نتقدم.

وإن حرية الرأي انتهت في المجتمع الإسلامي بقفل باب الاجتهاد.

وبدأ التدهور..

ومفهومي لباب الاجتهاد من الناحية المعاصرة هو : الحرية التامة الشاملة للرأي، لأن الإسلام لا رهبانية فيه، ولا حق لطبقة فيه، وهم العلماء، في أن يفرضوا حدا لحرية التعبير وحرية الرأي والتفكير.

وبهذا هو الاجتهاد الحقيقي..

الإسلام يضمن حرية الرأي..

وإذا جاء أحدهم وقال : أنا الشيخ الفلاني أو العالم الفلاني أفرض عليكم الحد من حرية الرأي، أرد عليه : أنت غير مسلم..

من حقك أن تنهى عن المنكر، لكن أن تحد من حرية الرأي، هذا غير مقبول..

وأكرر : هذا النموذج التنموي سبب المشاكل كلها..

فليست عندنا رؤيا.. رؤيا الطالب في المشاركة.. رؤيا حقوق الإنسان.. رؤيا التعددية..

وهناك مشاكل أخرى ناتجة عن تقليد النموذج التنموي للبلدان الصناعية.. وهي مشاكل ثلاث :

1 – الأمية : فعندنا أكثر من نصف مجتمعنا أمي. والعالم العربي والإسلامي له الرقم القياسي..

2 – البحث العلمي..

3 – القيم.. وأعني أن يكون للإنسان اعتبار في مجتمعه.. وهنا أواخذ بعض المثقفين الذين نسمع منهم اليوم لغة غريبة.. إنهم يقولون : إن شعوبنا متخلفة، ومجتمعنا ليس مستعدا للديمقراطية، والجمهور جاهل.. أية ديمقراطية هذه ؟ ألم يكن الجمهور جاهلا عندما كان يحارب في الجبال من أجل الاستقلال ؟ عندما كان يموت شهداء في سبيل تحرير البلاد التي أنت يا مثقف تتصرف فيها اليوم، سواء كنت في المغرب أو الجزائر أو تونس أو باكستان أو أندونيسيا.. عندها كان مجاهدا.. أما اليوم، وقد وصلت يا مثقف إلى الحكم، تقول : «لا.. المجتمع ليس ناضجا وليس مستعدا للديمقراطية»..

كيف يمكن أن نصل إلى عدالة ونؤسس رؤيا لمجتمع بدون هذه المشاركة وبدون معاملة شعوبنا معاملة أخرى غير هذه العجرفة الجديدة لبعض المثقفين التابعين الذين أصبحوا مهجرين داخل بلدانهم..

وهذا نوع آخر من هجرة الأدمغة.. وهو أن بعض المثقفين بقوا في بلادهم وأصبحوا كأنهم جاؤوا من بلاد أخرى.. هذا مواطن من بلادك ولكن كأنه جاء من الخارج ليشتغل معك..

هذا نوع من الهجرة..

لأن هذا قد هاجر قِيَمَهُ.. هاجر مناخه.. صار عنصرا لحضارة وثقافة أخرى وهو معك يقول لك : أنا منك..

في السابق، وأنا أعرف في الحركة الوطنية، كانت حرمة للمدرسة، سواء كانت هذه المدرسة هي (الزيتونة) أو (القرويين).. ففي المغرب، عندما يحاول شرطي فرنسي أن يدخل إلى حرم (القرويين) تهتز البلاد كلها. و 400 ألف عسكري فرنسي متمركز هنا وهناك.. البلاد تهتز لمجرد أن يحاول شرطي فرنسي

واحد أن يدخل إلى مبنى القرويين.. إلى مكان له حرمته.. إلى مكان علم..

والحُرم له شروط من جميع النواحي.. حُرم من جهة الشرطة.. حرم من جهة السلطة... حرم واحترام للعالم نفسه، وداخل نفسه.. فهذا مكان علم.. وهناك أشياء مباحة وما هو غير مباح.. هناك رقابة ذاتية لاحترام الغير..

هذا الحرم ليس موجودا.. ويوميا نقرأ في الصحف أن وزراء مسؤولين عن التعليم العالي يعطون تعليمات لتدخل الشرطة.

أما إذا تحدثنا عن البحث العلمي، فهذا موضوع فيه ما فيه..

ونأخذ مثلا من بلد كاليابان.. إذا أخذنا ميزانية البحث العلمي وميزانية وزارة الداخلية كلها، لأن اليابان أيضا فيها مشاكل أمنية، ولها شرطة خاصة والجيش الأحمر، نجد أن النسبة هي واحد على سبعين.. فكل دولار يذهب الى شرطي فإن سبعين تذهب في نفس الوقت الى البحث العلمي..

ولا داعي لأن أعطيكم مقارنة مع بلداننا..

ولكن دعونا نتكلم عن جانب آخر من الموضوع.. فبعضهم يقول لنا : لا بد من المساعدات الفنية.. أية مساعدات هذه ؟

تعالوا بنا إلى الأرقام.. وأقدم لكم أرقاما من فرنسا.. عن الأشخاص الذين وصل تكوينهم الى ما فوق الدكتوراه :

الرقم القياسي للمغرب وهو 650، ويأتي بعد الولايات المتحدة وألمانيا وبريطانيا.. بعد هذه الدول العظمى يأتي المغرب بعدد 650 إطار بمستوى ما فوق الدكتوراه.. وبعد إسبانيا وإيطاليا وكندا تأتي الجزائر بنسبة 500. وبعد بولونيا والبرازيل تأتي تونس بنسبة 450.

إن لنا 1.500 على الأقل، وهو عدد لا يحصي الأشخاص الموجودين في الجامعات.. ونحن ليست لنا حتى إحصائيات في هذا المضمار، ونذهب دائما إلى مكاتب الهجرة بالدول الأجنبية للحصول على أرقام..

إننا لا نعطي أية قيمة لمفكرينا وأدمغتنا ولا نتابعهم إلا من الناحية (الداخلية).. وها قد تسأل عن فلان، فيقال لك : «نعم، نعرفه، لقد وصلنا تقرير عن آخر محاضراته.. وقد قال في محاضرته ببروكسيل كذا وكذا»..

عندنا هذه القدرة لاستخدام العلوم والتكنولوجيا لمتابعة هؤلاء المفكرين..

ولكن إذا سألت كم عندنا من الفيزيائيين والكيماويين والمختصين في القانون الدولي. قيل لك : «لا ندري، وعليك الاتصال بالسفارة الفرنسية أو الانجليزية..».

العرض في أصله قدم خلال ندوة دولية حول
«هجرة العقول» (جمعية «النهضة»)
الجزائر - أبريل 1991

«المساء»، 26 أبريل 1991.
«الخبر»، 27 أبريل 1991.
«السلام»، 25 أبريل 1991.
«الخضراء»، 10 ماي 1991.

- HORIZONS, 25 - 04 - 1991.
- EL MOUDJAHID, 25 - 04 - 1991.

الفصل الثالث

مستقبلنا بعد الحرب

قراءة مستقبلية حول تحديات الواقع
وضرورات المستقبل

ماضي المستقبل

الجزائر وفرنسا والأمم المتحدة (×)

إن المقعد الذي يمثل به الوفد الفرنسي بهيئة الأمم المتحدة، يشغله الآن وزيرها في الشؤون الخارجية السيد بينو، في الوقت نفسه الذي تعرض فيه على منظمة الأمم المتحدة مناقشة قضية الجزائر، مما يمكنه أن يؤخذ كتحسن في الموقف الفرنسي، خاصة عندما نقارن ذلك بالطريقة التي انسحب فيها الوفد الفرنسي من الأمم المتحدة خلال شتنبر ١٩٥٥. وقد كان انسحابها رغم كل شيء أكثر شرفا بكثير من أن تبقى صامتة تجاه الاتهامات الموجهة إليها. في ذلك الوقت كانت فرنسا هي التي فتحت السجال قبل اللجنة السياسية لهذه الهيئة الدولية. وفي كلمة للسيد بينو استمرت خمس ساعات دافع خلالها عن الموقف الفرنسي قبل أن يكون أي اتهام قد وجه لفرنسا بعد.

إن الحل المناسب في مجموع المناقشات الخاصة بالقضية الجزائرية كان ممكنا فرضه دون الرجوع الى ضعف المبررات الفرنسية أو إلى الحقيقة الواضحة في التدخل الافرو أسيوي. إن ما عندنا هو في الواقع : ١٠ ملايين شخص قوي يطمحون الى الحرية والحكم الذاتي. وتمت مقاومتهم من طرف نصف مليون جندي فرنسي، إضافة إلى قوات الأمن المستقرة محليا هناك بأسلحة أوروبية متطورة..

وكانت هيئة الأمم المتحدة قد ساعدت آنذاك حركات التحرر الوطنية مثل ما هو الشأن بالنسبة للحركة الأندونيسية أو بتونس أو المغرب، وتم تفويت القرارات فقط بعد عدد من الصعوبات، بمساءلة فرنسا والأطراف المختصة التي جاءت باسم السلام... إن هذه السياسة السلبية في داخل الأمم المتحدة حالة متخلفة، يجب إصلاحها طبقا للمقاصد الأفضل، أي أن بلدا يناضل من أجل استقلاله من حقه أن لا يقدم داخل المنتظم الدولي كمقاومة مسلحة. ففرنسا وكل القوى الاستعمارية لم يسبق لها أبدا في تاريخها أن وهبت الاستقلال لإحدى مستعمراتها. وهو وحده شهادة عليها بدءا من سوريا الى لبنان الى الهند الصينية الى تونس والمغرب، كل هذه الدول نالت استقلالاتها بعد كفاح مسلح وانتصار عسكري أو تفاوض على الاستقلال بعد طول مدة التصارع العسكري.

إن مناقشات الأمم المتحدة رغم تقديرها واحترامها للحركات المعادية للإمبريالية، فإنها تحتفظ بممثلية وقيادة هذه الحركات خارج الأعضاء الممثلة داخل الأمم المتحدة، وهو ما يمكن نعته بسلوك ذي طبيعة

(×) فبراير 1957

نفاقية، ولعله درسهم الأول في الديبلوماسية والشؤون الخارجية.

وتجد هناك عددا من الدول تتخذ مواقف ضد حركات التحرر الوطني، وتتهم قياداتها بالإرهاب والعصابات، ولكن من هذه الدولة التي لم تبعث من هذه الدول ببرقيات إلى زعماء الحركات التحررية عند نيلها للإستقلال؟

إن مداخلة الوفد الأمريكي على لسان السيد لودج يوم 6 فبراير أثارت انتباهنا أكثر من غيرها بتحديد التناقضات الرئيسية للأمم المتحدة، خاصة فيما يتعلق بالطرف الإسرائيلي - الفرنسي - البريطاني في العدوان ضد مصر. وقد لقي السيد لودج ترحيب ورضى الفرنسيين خلال مناقشات القضية الجزائرية داخل الأمم المتحدة، وطرح بوضوح أن وفده يعترض على دخول أي طرف آخر مع الجهود الفرنسية لحل المشكلة الجزائرية. ولا يمكن تفسير الموقف الأمريكي إلا كدعم للإستعمار الفرنسي بالجزائر. ولكن المحزن أن لا أحد تحدث عن الشباب الجزائري الذي كان يقتل على مسمع ومرأى من الجميع، ومن طرف فرنسا القابعة بالأمم المتحدة، بل إن الوفد الفرنسي حينها تحدث عن هدف «العالم الحر» وتهجم على المساعدات المصرية بدعم الجنود الجزائريين بالأسلحة.

إن الخطأ الفادح الذي ترتكبه الأمم المتحدة هو أنها لم تفهم بعد قوة وحقيقة الروابط التي تجمع دول العالم العربي في نضالها من أجل الاستقلال والتحرر من الهيمنة الأجنبية. وفي اليوم الذي ستفهم فيه الأمم المتحدة هذه الحقيقة، من الممكن آنذاك أن تكون قادرة على أن تفهم أن لا فرق بين الوطنية العربية في هذا الطرف أو ذاك، لأن أهداف وطموحات الحركة التحررية العربية غير قابلة للتقسيم، وكل ما تبرهن عليه الولايات المتحدة بسياستها الحالية، يعكس عدم صدق عواطفها «المعلنة» تجاه العالم العربي وفي الشرق الأوسط...

إن الأمر لا يتعلق بمستقبل الجزائر وحدها، التي تبدو مهددة بالموقف الذي عبرت عنه الأمم المتحدة، لأن مستقبل الجزائر واضح للجميع مع قليل من الوعي وقليل من المعرفة للقوى الفاعلة خلال هذه المرحلة من القرن العشرين، ولكن الخطر الاحترام والثقة في تحول الأمم المتحدة إلى «عالم حر»، الأمر الذي بلغ الآن مستواه القانوني.

NEWSLETTER, ARAB STUDENTS UNION, IN THE UNITED KINGDOM,
- THE ARAB
February 1957, London.

مستقبليات العهود البائدة

يوجد اليوم عبر العالم ما يناهز 300 مؤسسة أو منظمة وطنية أو دولية تعبئ أكثر من 5000 باحث في ميدان علم المستقبليات. إن عدد الدوريات التي تعالج المستقبل يتعدى المائة، أما عدد الأفلام فإنه يتجاوز خمس مائة. لقد شرع في تدريس مناهج علم المستقبل وتقنياته (النماذج ، السيناريوهات، إلخ. إذ تم تقديم أكثر من 300 درس على المستوى الجامعي وحظيت الولايات المتحدة الأمريكية بثلاثة أرباع هذا العدد ويوجد في السوق أكثر من مائة لعبة تتعلق بالمستقبل.

أفق عام 2000

توضح هذه الأرقام إلى أي حد تطور علم المستقبل خلال السنوات الأخيرة نظرا لسلسلة الأسباب الموضوعية التي لا يتعين علينا أن نرجعها إلى الخوف المستشعر على مشارف قرن جديد، ولا إلى التأثير السحري الذي يمارسه رقم 2000، ولا إلى موضة مستقبلية عارضة: بل إن الأمر يتعلق حقيقة بطفرة فرضها إيقاع التطور العلمي والتكنولوجي ونتائجه السياسية والاقتصادية والسوسيو-ثقافية.

إن اكتساب عملية التنبؤ لدور رئيسي كطريقة وقائية ليس أمرا يثير الاستغراب خصوصا في عالم لا يتوصل فيه التكييف السوسيو - ثقافي إلى مجاراة إيقاع التطورات العلمية والتكنولوجية، ويكتفي فيه التعليم والتدريس بالنقل والصيانة المنظمة لمعارف متجاوزة ولقيم في قطيعة مع الواقع، ويعمق فيه التقدم الاقتصادي الهوة بين الأغنياء والفقراء وتشترك فيه المؤسسات السياسية في الخوف من التجديد. لقد كانت الشركات المتعددة الجنسيات وجيوش القوات العظمى من بين رواد أولائك الذين كرسوا جهودهم للدراسات المستقبلية ولتطبيقاتها من أجل غايات عملية جدا، كما أنها ما زالت تعتبر أكبر المستخدمين لهذه الدراسات. لقد تعهدت دول كثيرة لإجراء دراسات وطنية حول أفق عام 2000: وأنشأت مجمل البلدان الاشتراكية معاهد او مراكز للبحوث حول المستقبل (إن اللفظ المستعمل عموما هو Prognosis). وقبل بضع شهور أسست الصين جمعيتها المتخصصة في دراسة المستقبل في أحضان أكاديمية العلوم الاجتماعية.

(×) يناير 1979

بينما المذهل هو غياب الاهتمام بالمستقبل في بلدان العالم الثالث . تبدو الاستثناءات نادرة جدا أمام هذا التقصير الذي يعتبر إحدى سمات التخلف الاقتصادي واحتقار البحث. إن الخوف من الغد هو ما يثبط همة المخيلات الخلاقة ويغذي التخلف. فمن خلال مؤسسة باريلوش (الأرجنتين) والأعمال التي يديرها هيريرا، نجد أنفسنا نتوفر على نموذج عالمي أمريكي -لاتيني، ظهر سنة 1976 تحت عنوان عالم للجميع. لقد كانت المدة الأولى التي تقدم فيها مجموعة من الباحثين في العالم الثالث رؤية عن العالم المقبل مرتكزة على نسق القيم.

أية إفريقيا ؟

وبعد ثلاث سنوات ، وبفضل مبادرة من اللجنة الاقتصادية من أجل إفريقيا ومنظمة الوحدة الإفريقية وبرنامج الأمم المتحدة، اجتمع ثلاثون إفريقي بمونروفيا من أجل التفكير في نمط التنمية الذي سيلائم إفريقيا في أفق عام 2000. لكن سرعان ما نسي التقرير بعد اختتام المؤتمر. لقد تم فحص سؤال "أية إفريقيا في عام 2000؟" من قبل قادة دول منظمة الوحدة الإفريقية في يوليوز الاخير، وساهم هذا الفحص في إصدار القرار المتعلق بالدعوة إلى القمة الطارئة لمنظمة الوحدة الافريقية سنة 1980 من أجل تدارس المشاكل الاقتصادية الافريقية.

العالم الثالث

تتمثل المراكز الرئيسية للدراسات المستقبلية في العالم الثالث في مركز العالم الثالث بمكسيكو، جامعة كانديد ومونديس بالبرازيل وجامعة ميتان بالسنغال، أكاديمية العلوم بكينيا، مركز الدراسات للمجتمعات السائرة في طريق التنمية بدلهي الجديدة، معهد مارغا بسيرلانكا، الجمعية المغربية للمستقبليات بالرباط ومركز الدراسة المستقبلية والتقدير العلمي بأبيدجان... إن وزن العالم الثالث فيما يخص الدراسات حول المستقبل مازال أضعف من وزنه في ميدان البحث العلمي (4٪ من المجهود العالمي) . يتعين علينا أن نحتفظ بهذه الواقعة في أذهاننا قبل مباشرة أي تحليل للدراسات التي تتعلق بالمستقبل. ففي معظم الحالات يتعلق الأمر برؤى أقلية الدول التي تعسى عن وعي او عن غير وعي إلى فرض نفسها على سائر دول العالم.

ما هي المستقبلات التي قدمتها لنا القرارات الكبرى التي صيغت في الستينات حول أفق عام 2000؟ هناك أولا انشغال حتى لا نقول هوسا بما يسمى "الانفجار الديموغرافي" سيعرف عام 2000 ستة ملايين نسمة سيقيم أقل من 15٪ في البلدان النامية لقد تمت مجمل الاسقاطات على القطاعات الأخرى

انطلاقا من المعطى الديموغرافي أساسا.

سيتمثل مشكل المشكلات في مسألة التغذية. لقد كرس المؤتمر العام لمنظمة التغذية والزراعة جزءا من أعماله سنة 1979 لدراسة تقرير رائع يحمل عنوان الزراعة في أفق عام 2000.

إن النقص الغذائي سيزداد مبدئيا في البلدان السائرة في طريق النمو – إذ سيرتفع من ٤ مليار دولار إلى 25 مليار دولار في عام 2000. وسيستمر الإنتاج الغذائي لكل فرد في الانخفاض ولم يعد يحول دون الحديث عن المجاعة سوى خطوة اجتازتها كثير من البلدان، فاليوم يعاني أكثر من 400 مليون شخص في دول العالم الثالث من سوء التغذية – أي ما يعادل شخصا من أربعة. كم سيكون عددهم في عام 2000 إذا لم يتم التوصل إلى مضاعفة الإنتاج الزراعي خلال السنوات المتبقية؟ سيتراوح العدد بين 300 و 800 مليون حسب ما تقدمت به السيناريوهات. إن البعض يتهم المشاكل الديموغرافية ويتهم البعض الآخر سياسات توزيع المداخيل على المستوى الدولي والوطني.

السكان والانتاج:

يرى الكثيرون أن عدد السكان النشيطين سيرتفع في إفريقيا بنسبة 500 مليون شخص، وسينضافون إلى عدد مماثل من العاطلين. لذلك يتعين خلق مليار منصب شغل جديد. هل ستستطيع المناطق الحضرية استيعاب مليار إضافي من السكان خلال العشرين سنة القادمة.

إن لوحة الانتاج الصناعي في البلدان السائرة في طريق النمو ليست براقة ويعبر عن ذلك بوضوح التقرير الذي تقدمت به منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية حول الصناعة في أفق عام 2000 (انظر جون أفريك، ع 985) كما أن وضعية قطاع التربية مقلقة جدا، فعدد الأميين، الذي قدر بأكثر من 800 مليون سنة 1989، سيصل حسب تقديرات اليونيسكو إلى 900 مليون سنة 1900 ويمكن ان يتجاوز المليار سنة 2000 وإذا لم يتم في آسيا وإفريقيا بذل مجهودات تفوق تلك المبذولة اليوم خلال السنوات القادمة، فإن نسبة الأمية في العالم الثالث ستقترب من 40٪ في نهاية القرن ربما يكون هذا الارتسام هو ما يشغل الأذهان أكثر من غيره، ذلك أن الثروات البشرية تحدد تنمية كل القطاعات الصناعية والقطاعات الاجتماعية عموما.

الاغنياء والفقراء:

إن نسبة النمو السنوي المتوقع خلال التسع سنوات القادمة يتأرجح تبعا للسيناريوهات (انظر الجدول) بين 4.6٪ و 5.8٪ لبلدان العالم الثالث وبين 1.5٪ و 7.0٪ بالنسبة للبلدان المصنعة. وحتى السيناريوهات المتفائلة سوف لن تقلص بشكل ملموس الهوة الفاصلة بين الاغنياء والفقراء، وذلك أن الهوة

كبيرة جدا، فخلال العشرين سنة الأخيرة ، ارتفعت القدرة الانتاجيةوالاستهلاكية للفرد بنسبة 115 دولار سنويا في البلدان الغنية، بينما ارتفعت في العالم الثالث بنسبة 8 دولارات فقط يتراوح اليوم التفاوت بين الشمال والجنوب من الناحية الاقتصادية بين 1 و 15. وفي أفضل الحالات، ستتراوح سنة 2000 بين 1 و 12 هذا دون أن نتحدث عن ديون البلدان السائرة في طريق النمو، وهي ديون يرى البنك الدولي أنها ستنتقل من 180 مليار دولار سنة 1975 إلى 1300 مليار دولار سنة 1990 فإلى أين ستصل عام 2000؟ انطلاقا من مدخل معين لن يكون للأرقام أي معنى.

ليست مشاكل التعليم والتكوين ذات طبيعة كمية فقط، ذلك أن نماذج التربية المتبعة في البلدان السائرة في طريق النمو ليست سوى نسخ رديئة للأنظمة التعليمية المستوردة، غير المتكيفة مع الحاضر والعاجزة عن التحضير للمستقبل.

أما فيما يتعلق بالصحة، فإن المنظمة العالمية للصحة قد حددت هدفها منذ 1977 في توفير الصحة للجميع سنة 2000. و يتطلب تحقيق هذا الهدف تعميم الاسعافات الأولية ومراجعة جذرية للمناهج الطبية المتبعة اليوم في العالم الثالث وفي انتظار ذلك، مازال 70 إلى 80٪ من العدد الاجمالي لسكان هذه البلدان يستفيد بصعوبة، أو لا يستفيد البتة، من الخدمات الصحية.

إن التحليق السريع لأسقاطات المؤشرات السوسيو اقتصادية الاساسية للبلدان السائرة في طريق النمو في أفق عام 2000 تحليق محبط جدا. إن نفقات التسلح التي تبلغ نصف مليار دولار حاليا ستتضاعف خلال العشرين سنة القادمة إذا ما بقي منحنى نموها ثابتا وسينتقل عدد البلدان التي تتوفر على أسلحة نووية من 10 إلى 30 أو 40 دولة خلال عشرين سنة. وبالإضافة إلى هذا القطاع، ستتمثل الدعامات الأخرى للمجتمع ما بعد الصناعي في الاتصال والاعلام بما في ذلك الاعلاميات. الاتصال والتواصل الالكتروني، ثم في الحياة والعبقرية التكوينية. ويقدر منذ الآن عدد العاملين في قطاع الاتصال واستعمال تقنيات الاعلام بأكثر من نصف السكان النشيطين في الولايات المتحدة وإنجلترا.

إن الاعلام بمعناه الواسع محكوم عليه بأن يتحول إلى الرأسمال الأكثر مردودية لأن المنشورات العلمية تتكاثر بنسبة 12 إلى 13 ٪ سنويا.

يتعين ألا ننسى أن الأمر يتعلق، في كل هذه التمرينات، بإسقاطات خطية قائمة على إنجازات العشرين سنة الماضية . ما هي إذن وحدة المستقبليات ؟ إنها التوقع المسبق للصدمات المقبلة من أجل تحويل التيارات وتحويل المستقبل الممكن إلى مستقبل مرغوب فيه، على حد تعبير بيوناردو جوفينيل.

وتعتبر آخر الدراسات المستقبلية الكبرى خلال السبعينات من بين أنجع المخططات العلمية وأكثر

جدية على مستوى التحليل وهي مشروع تداخل المستقبل لسنة 1975 والتي أشرفت عليه فرقة برئاسة ج. لوسورن. نشرت نتائجه سنة 1979 تحت عنوان "في مواجهة المستقبلات". وكان هذا المشروع يعتني بتحليل متتابع للمشكلات الداخلية للدول المتطورة على المدى البعيد (على المستوى الوطني أو فيما بينها وبين الدول النامية).

أهم الدراسات العشرة المستقبلية خلال السبعينات؟	
1972	Halte à la Croissance, Rapport du club de rome, D. Meadows
1974	Stragtégie pour demain, Rapport du CLub de ROme. M. Mesavoric et E. Pestel.
1976	Un monde pour tous, Le modèle mondial Latino-américain. AMilcar Herrera.
1976	RIO, Reshaping the INternational Order, Rapport de club de Rome, Jean Tinbergen.
1977/1999	L'expertise de Vasili Leontieff, Leontieff, Carter et Petri, Nations- Unis.
1978	Les soins de santé primaires, Déclaration d'Alma Ata. OMS - UNICEF
1979	Quelle Afrique en l'an 2000? Organisation de l'unité africaine
1979	Face aux futurs. INterfuturs, OCDE
1979	Agriculture: Towards 2000, FAO
1979	Industry 2000 New Perspectives, ONUDI

ومن منظور مدير فرقة تداخل المستقبل فإن الفكرة الرئيسية للدراسة تتلخص في المقولة الكاريكاتورية لدانييل بيل، الحكومات أصبحت كبيرة جدا بالنسبة للمشكلات الصغيرة وصغيرة جدا بالنسبة للمشكلات الكبرى ومن تم فمشكلة المستقبل هي أساسا مؤسستية. وقد أخذ هذا المشروع أربعة سيناريوهات لتنامي الدول المتطورة كفرضية علمية.

ألإ. تنامي قوي

بلإ. تنامي بطيء

تلإ. قطيعة شمال – جنوب

ثلإ. تصاعد النزعة الحمائية

ومن حسن الحظ فهو السيناريو الذي يعطي ارتفاعا أكبر في الانتاج الداخلي الخام للفرد سنة 2000 ومن خلال هذا السيناريو فإن الانتاج الداخلي الخام للتعاون والتنمية سيصل إلى 8000 دولار خلال سنة 2000 مقابل 3000 دولار سنة 1975. أما بالنسبة للدول النامية فسينتقل من 290 دولار سنة 1975 إلى 860 دولار إلى نهاية القرن . والفارق بين مدخول المواطنين في الدول الغربية وبين سكان الدول الفقيرة يبقى إلى حد بعيد مستقرا في نفس النسب من 10 إلى 1.

صحيح أن دول التعاون والتنمية بسكانها الذين يمثلون 20٪ من سكان العالم لن يكون لها سوى 51٪ من الإنتاج الداخلي الخام للعالم مقابل 31٪ للدول النامية وبنفس الصدفة فإن السيناريو "القطيعة بين الشمال والجنوب" الغير المرضي لكل العالم. إن الإنتاج الداخلي الخام لكل فرد خلال سنة 2000 لن يكون سوى 4088 دولار لدى دول منظمة التعاون والتنمية و 656 دولار بالنسبة لدول العالم الثالث في حين لن تمثل دول منظمة التعاون والتنمية سوى 47٪ من الإنتاج الداخلي الخام العالمي بينما يصل في العالم الثالث إلى 33٪. وبالنسبة لدول النامية فإن بيان الفوارق بين السيناريوهات الأربعة هي نسبيا ضئيلة. وعلى كل حال فإن من غير الممكن أن يقارب سكان العالم الثالث 1000 دولار للفرد من الآن إلى سنة 2000 كما أنه يصعب تصور سيناريو مبني على إعادة توزيع عادل يسمح بالقضاء على الفقر قبل نهاية القرن أربعة سيناريوهات.

إن أحسن جزء في التقرير هو ذلك الذي يحمل عنوان " المجتمعات المصنعة المتطورة في مواجهة التغيير". حيث يبتعد عن النظرة الاقتصادية الصرفة في محاولة لرصد التطورات الممكنة للقيم السوسيوثقافية على العكس تماما من الجزء المخصص للمجتمعات المصنعة المتطورة والعالم الثالث. إننا سعداء حين نقرأ في الصفحة 214 بأن واحدا من المعوقات التي تستخلص مصدرها التمركز الغربي حول الذات الذي يستمر في رسم مجرى سيرورات التطور ولكن بمجرد تصفح الصفحة الموالية نجد واحدة من نوادر التمركز حول الذات في كل الأدبيات المستقبليات.

"العالم الثالث يعرف تبعا لروابطه بالدول المتطورة أكثر من روابطه بذاته. إنه مجموعة المجتمعات البشرية التي لم يمكن لها أم لم تعرف أم لم ترد الانضباط لصدمة إنجلترا الجيورجية ولذلك هي الآن تظهر بخصائص مشتركة نابعة من واقعها الحالي أكثر من ان تكون نابعة عن ديناميكيتها".

الاعتماد على الذات

تأتي بعد ذلك على فقرة أخرى من هذا النص تفسر كيف أنه بفضل الثورة الصناعية وبنجاح الحضارة الغربية اكتسب العالم غير الأوربي انسجاما معينا ويتعلق الأمر هنا بتقرير منشور سنة 1979 يعالج المستقبل لكنه يعالج مستقبل "العهود البائدة" فلماذا لم ير هذا المستقبل النور؟

لأن التغيرات السوسيوثقافية في العالم الثالث تسير بوثيرة لم يستشرف آفاقها أي سيناريو من سيناريوهات المستقبل المتداخل باستثناء "سيناريو القطيعة شمال -جنوب" لأن الأمر يتعلق بقطائع وموجهات تتجاوز المظاهر السياسية والاقتصادية وهو ما سيظهر أكثر فأكثر كرهان لإقرار أنساق قيمه الاجتماعية الثقافية ولرؤيته الذاتية للمستقبل.

إن المستقبلين في برنامج فاست ؤإشعـ للمجموعة الأوربية قاموا كما يبدو بعمل يظهر فيه وعيهم بهذا التحول، خاصة عندما يقولون لنا "في عالم غير عادل وتصارعي بطبيعته لن يكون المستقبل سوى نتاج لهذه المواجهة بين قوى غير متكافئة بشكل تحيطه الاتجاهات الثقيلة والتخوفات".

إن المستقبل هو أساس الدفاع عن البقاء للنوع البشري في كرامة وحد أدنى من المشاركة داخل النظم المتحكمة في القرار المحدد لهذا البقاء.

ولذلك يجب أن نتوقع تزايدا في قوة المواجهة وبصيغ جديدة في التصارع والانفجارات التي لن تكون ذات طبيعة سياسية و اقتصادية ولكن ثقافية.

إننا ندفع بأرقام ونصف بعد ذلك الاتجاهات في كل مجالات النشاط البشري لكن هل من دراسة مستقبلية تؤشر لنا متى سينتهي نظام "الأبارتيد العنصري" ومتى ستختفي الأنظمة العسكرية ومتى ستحظى حقوق الإنسان بالاحترام على المستوى العالمي؟ فأين هي المؤشرات والبيانات عن نوعية الحياة

أي مستقبل ؟

إن النقص في أغلب الدراسات التي اهتمت بآفاق عام 2000 والتي أنجزت خلال نهايات هذا القرن تميزت بضعف نظرها للعنصر الثقافي وتقصي بذلك الإنسان من المعادلة تلك النماذج والسيناريوهات والتوقعات والإحصاءات.

في تحليل لحالة " الحوار بين الشمال والجنوب" يؤكد محبوب الحق على أن الدول النامية جزء من المشكلة ولكن ليس هناك حل إن دمقرطة المستقبلات – جمع مستقبل – يجعل البنيات العقلية تكتسب هزات حقيقية ولا يكون ذلك إلا بتغيير أنماط التنميةس وأساليب التحليل وتقنيات التعلم والتي يمكن أن نعد بها مستقبل المستقبل وهي التي تمثل حلولا لمشكلات اليوم.

16 يناير 1980 " Afrique Jeune "

الدراسات المستقبلية ـ حبر المستقبل (*)

تستلزم الدراسات المستقبلية أن يتسم تحليل معطيات الواقع واتجاهات الأحداث من جهة، والطريقة المنهجية المتبعة من جهة أخرى، بطابع الدقة والموضوعية. إلا أن الغاية من هذه الأداة تكتسي صبغة معيارية في جوهرها إذ هي استجلاء للمرامي والأغراض.

وتتأتى الجدة في الدراسات المستقبلية من صياغة تلك الأغراض في إطار ابتكار وإبداع أنساق قيم اجتماعية ثقافية، وترجمة تلك الأغراض الى مخطط عملي في شكل اختيارات بديلة وسيناريوهات ممكنة.

هل كانت الدراسات المستقبلية دائما في مستوى مهمتها؟ سؤال في الصميم، إذا ما اعتبرنا أن نجاح الدراسات المستقبلية لم يعد موضعا لأدنى تشكك. لقد قمنا منذ عشرين سنة خلت بتجربة التحليل المستقبلي حول مسار الدراسات المستقبلية ذاتها، ولكن ظهر أنه من الصعب التكهن بدرجة نجاحها وأهميته، إنه نجاح يستحق أن نفحصه عن كثب حتى تنجلى لنا التطورات المقبلة.

إن تقدم المناهج والتقنيات في الدراسات المستقبلية أصبح أمرا غير منازع فيه، وإذا حدثت أحيانا مبالغات في استعمال بعضها، كالنمذجة الرياضية مثلا، فالخطأ لا يرجع الى المنهج، بل إلى كيفية استخدامه بدون مراعاة حدوده.

إن الانشغال الحثيث بالتحليل الكمي يبقى مرحلة ضرورية ليس فقط لضبط صلاحية المؤشرات بل أيضا لتجسيم الرؤى،

إن الدراسات المستقبلية كانت ومازالت تؤتي أكلها في بعض المجالات كالمجال العسكري عند الدول العظمى ـ ونشاط الشركات المتعددة الجنسية بدون أن تفشي أمرها. ويقل النجاح حينما يتعلق الأمر بأهداف تامة الضبط، موحدة الملامح، مع نظام لسلالم القرارات قوي الهيكلة، بالإضافة الى وفرة هائلة في الوسائل وتقليص بالغ للمراقبة السياسية.

لكن التحدي إنما يكمن في إثبات فائدة وصلاحية الدراسات المستقبلية بتأكيد أولوية مشاركة السكان، وتطوير مسؤولية الدوائر السياسية، وبإصلاح المؤسسات، وأخيرا بتطوير البنيات العقلية مع احترام تام لنظام القيم القائمة ولحرية اختيار الأشخاص المعنيين.

(×) مارس 1988

ذلك نموذج مازلنا بعيدين عنه. وكثيرا ما نلجأ حاليا الى الدراسات المستقبلية لكون «أزمات » معينة ترغمنا على ذلك - ويتعلق الأمر ذاك بـ «مستقبلية تفاعلية» تقاوم الحاضر بتبرير الماضي عوضا عن ابتكار المستقبل.

تطلب النجدة كذلك من الدراسات المستقبلية حينما يصبح الواقع لا يطاق، لتبرير هروب الى الأمام إخلاء للحاضر، تلك «مستقبلية تخديرية» قريبة من الديماغوجية في بعض الأحيان.

تستعمل الدراسات المستقبلية أيضا للتأثير على الحركات الفكرية، وذلك بحصر الأولوية لفائدة التصورات المسقبلية دون أخذ رأي المعنيين بالأمر. في هذه الحالة، نكون أمام «مستقبلية الانتهاز» على المستوى الوطني، أو «مستقبلية الاحتكار» على المستوى الدولي.

على الرغم من هذه السحب السوداء، قطعت الدراسات المستقبلية أشواطا كبيرة نحو الأمام بفضل إخلاص عدد متزايد من باحثين متحمسين للمشروع، ومن مسؤولين واعين بخطورة الرهان، ولو أن تلك الدراسات لم تزل بعيدة كل البعد عن التمكن من إيجاد حلول للتحديات التي ستواجهها إنسانية الغد.

إن السلطات العمومية وكذا الهيئات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، في كثير من البلدان، تبدي - في التفتح إزاء ضرورة اعتبار البعد الزمني في أنشطتها - ما يفوق بكثير ما كانت عليه قبل 20 سنة. إلا أن العقبات عديدة جدا.

إن المختصين في الدراسات المستقبلية لا يتوفقون دائما في استعمال خطاب في متناول الفهم، إذ غالبا ما يتسترون وراء منهجيات تفضي صعوبة تقنياتها الى حجب الغايات في نهاية المطاف، كما أنهم باستخدامهم مفاهيم مغلقة وعبارات غريبة ينفرون المنقبين عن المستقبليات.

لكي يقود التوقع، بمعنى سبق الأحداث، الى التجديد، لابد أن يمر عبر المشاركة. لقد تحسنت تقنيات الاستطلاع بقدر جلي وأسهمت في تزايد معرفتنا بتطلعات الجمهور، وإن كانت مزاولة هذه التقنيات مازالت محتكرة لفائدة انشغالات تجارية وسياسية قصيرة المدى. أما الاستطلاعات والدراسات التي تعالج التحولات السارية في النظم الثقافية الاجتماعية فمازال نادرة، ولابد أن نشير هنا الى الدراسة القيمة التي أنجزتها الجمعية الدولية المستقبلية سنة 1958حول «اتجاهات النمو الثقافي الاجتماعي في دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية - الى غاية 2000»، وكذا الدراسة الجارية حاليا حول تطور نظم القيم لدى الشباب الإفريقي.

على المستوى العالمي، يجب الاعتراف بأنه توجه الآن هيمنة فكرية ومنهجية على مستوى الدراسات المستقبلية، وأنه عندما تحاول أوربا ردعها وتتوفق أحيانا في محاولتها ببراعة، فإن تلك الهيمنة تزداد حدتها

من جراء الأنانية العرقية للبلدان الغربية، تلك الأنانية التي تشكل، ربما بكيفية غير واعية، نوعا جديدا من الاستغلال لا يسهل معه التعاون الدولي. إن البلدان المستعمرة سابقا تعاني صعوبة كبرى في إعادة اكتشاف ماضيها الذي انتابه تشويه فظيع، في الوقت الذي تكافح حاضرا وتصارع فيه عدم تكافؤ القوى في العلاقات السياسية والاقتصادية. فمن اللازم أساسا، إصدار مدونة للأحوال المستقبلية للعالم الثالث، لأن مصير الإنسانية مرهون بهذا الأمر. إن إزاحة بصمات الاستعمار عن المستقبل لأكبر عبئا وصعوبة من نزعه عن الماضي أو الحاضر.

إن هذا لا يعني البتة «تأميم» الدراسات المستقبلية، إذ سيؤدي الأمر الى عكس ما ترمي اليه، الى التناقض مع اتجاهات العصر التي تدل على تداخل متزايد لمشاكل ومصالح الشعوب. والهدنة المقترحة هنا إنما تهم استخدام الدراسات المستقبلية كمنهج عملي يعطي الأسبقية لاختيارات الشعوب فيما يتعلق بنموذج الحياة في المستقبل، فالأمر إذن لا يعني سوى نداء لصالح دمقرطة الدراسات المستقبلية داخل الدول وفيما بينها.

ولابد من التأكيد أيضا أن الخطأ متبادل، إذ من المؤسف أن من أخطر علامات التخلف الاستخفاف في تقدير الأهمية الاستراتيجية للمستقبل، وإنه دائما يصعب التفسير والإقناع بقاعدة بسيطة، تقضي أنه كلما ازداد خطر وحدة مشكل مصيري (الجوع، البؤس، الجهل، المرض، الصناعة، التجارة...) ازداد تعلق الحل الحقيقي المناسب للحاضر بنظرة شمولية للمستقبل.

إن الانطلاق الحقيقي نحو النمو يبدأ عندما ينهض المسؤولون والمواطنون لتخطيط نظم ومعاملات من شأنها أن تحدد، في حرية وتضامن، رؤية واضحة لمستقبل البلاد. في هذا الباب أيضا نلمح بعض بشارات الأمل في بعض بلدان العالم الثالث، ومن ثم أهمية ترك حرية اختيار الطريق وابتكار الحلول من داخل الواقع، وذلك مع احترام الكرامة والقيم الثقافية الاجتماعية لتلك البلدان. إنما الإيثار، في بعض الأحيان، يكمن بالضبط وقبل كل شيء في فسح مجال الإفصاح لإيثار الآخرين.

وهكذا، إذا تم احترام بعض القواعد البديهية، لا مندوحة من أن تتوفر لدينا جميع الأسباب للاقتناع بأن الدراسات المستقبلية ستصبح أحد المجالات المفضلة لتعاون الغد، تعاون سيتمحور حول الأفكار والابتكار، أكثر بكثير منه حول المنتوجات والضغوط.

«عالم الفكر» ـ (مارس 1988).

الدعم المالي للبحث العلمي، التنمية في بلدان العالم الثالث

أصبح يمثل البحث والتنمية إحدى الضروريات الجسيمة والمسلم بها في البلدان المتقدمة التي ترى فيه، وعلى صواب، شرطا لازما لقدرة اقتصاداتها على التنافس، بخلاف ذلك، ورغم تضمن مخطط لاغوس (1980) ملتمسات مبدئية وتوفر بلدان العالم الثالث على طاقات حقيقية) من الباحثين فإن نسبة الإنتاج الوطني الخام الممنوحة إلى البحث العلمي والتنمية لا تبلغ سوى 0.4٪ إلى ٠.٥٪.

لقد وضع المهدي المنجرة خلاصة دقيقة لمصاريف البحث والتنمية في البلدان النامية، حيث يعزي وضع ضعفها إلى غياب الإرادة السياسية بقدر صعوبات التمويل الذي تتكلف الدولة بالقسط الأوفر منه.

إن التعبئة العامة لدول العالم الثالث وتكثيف التعاون الجنوب جنوبي بشأن البحث كفيلان وحدهما بتجنب تعميق الهوة أكثر بين البلدان الغنية والبلدان الفقيرة.

تتجلى الحلقة المفرغة للتخلف بوضوح عند القيام بتحليل تمويل البحث والتنمية في بلدان العالم الثالث، ذلك أن دعمه المالي يستلزم سياسة علمية وتقنية لا يمكن إعدادها من غير استراتيجية علمية وتقنية أيضا. وتعد هذه الأخيرة نتاجا لنماذج تنموية تعبر عن رؤية للمجتمع وعن مجموعة من القيم الاجتماعية والثقافية. نحن إذن أمام نظام متماسك يستحيل فيه إلى أحد أنظمته الفرعية بصرف النظر عن الدينامية العامة.

لقد قامت جل بلدان العالم الثالث، إن لم نقل كلها بمحاولة التغلب على أجزاء منفردة من هذا النموذج ولم يركزوا اهتمامهم بما فيه الكفاية على الجانب الأكثر حيوية، ألا وهو اختيار نمط المجتمع المرغوب، في حين أن تبني بعض النماذج التنموية لا شعوريا، وكذا بذل الجهود بطريقة مرتجلة وغير مندمجة كانا يشكلان القاعدة.

لعل النقطة التي يجب الإلحاح عليها في هذه المقدمة هي أن تمويل البحث والتنمية لا يمكن استيعابه بمعزل عن البيئة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي يجب أن يندرج فيها، المقصود هنا هو البعد السياسي للبحث والتنمية الذي لم يحظ بالاهتمام الكافي في العالم الثالث، لا من طرف السياسة ولا من طرف

(١) ترجم هذا النص عن الفرنسية، وقام بنقله من الانجليزية إلى الفرنسية Guy Poquet (Futuribles)
(×) يونيو 1986

أصحاب القرار في الوقت الذي صار هذا القطاع يعد من أولى الأسبقيات في الدول المصنعة. يصعب جدا، بل قد يستحيل تكوين صورة ملموسة لما يفقده العالم الثالث من أجل البحث والتنمية. ذلك لأن معظم المعطيات الإحصائية إن كانت متوفرة، غير واف، ولا يصلح في الغالب للتحليل المقارن. ولم يتمكن الجمع العام لليونسكو من المصادقة على توصية حول التنميط العالمي للإحصائيات الخاصة بالعلوم والتكنولوجيا إلا سنة 1978.

إن اكتساب قابلية مقارنة نفقات البحث والتنمية لازال يحتاج إلى عدة سنوات أخرى كي يتحقق، في انتظار ذلك، يبدو أن كل ما يمكن اللجوء إليه هو الاكتفاء بالتقدير والتعميم. حسب دليل اليونسكو الإحصائي لسنة 1985، كانت تملك الدول النامية سنة 1980 في ميدان البحث العلمي والتنمية 125 باحث لكل مليون نسمة، بينما كانت تملك الدول المصنعة 3000 باحث لنفس عدد السكان. يتعلق الأمر هنا بمؤشر يبرز الفارق الكبير ليس بين الجنوب والشمال فحسب، بل كذلك بين إفريقيا وباقي دول العالم الثالث.

على الصعيد العالمي، كان يمثل وزن البلدان النامية سنة 1980 أكثر بقليل من 10٪ من الباحثين في مجال البحث والتنمية و6٪ من نفقات هذا القطاع، أي مليار دولار من مجموع ٢٠٨ مليار دولار (البيان ١ والبيان 2).

البيان رقم 1 : مصاريف البحث والتنمية (1980) مجموع : 208 مليار دولار

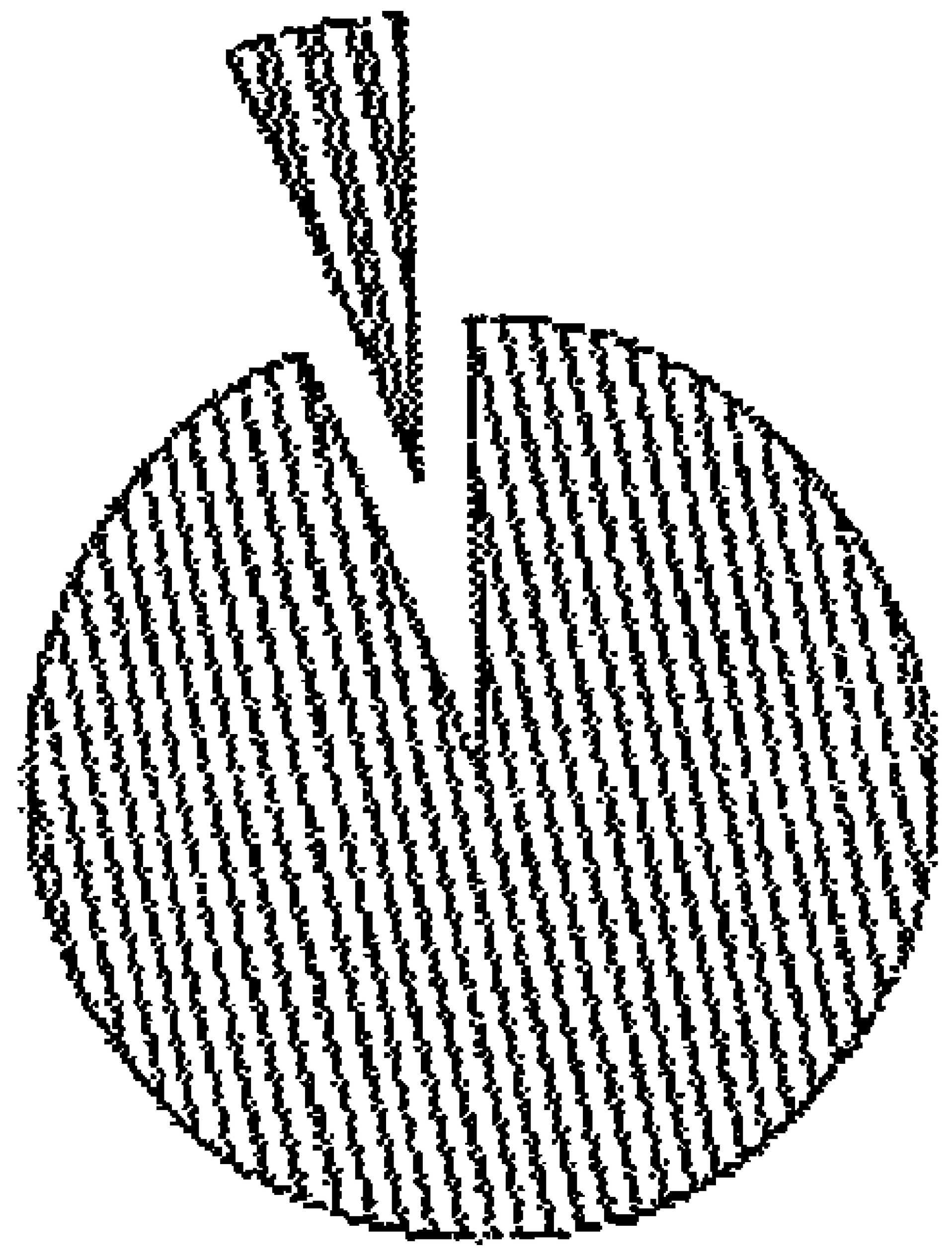

المصدر : اليونسكو

يصرف الشمال ما بين 2.5 و 3٪ من إنتاجه الوطني الخام على البحث والتنمية، أما هذه النسبة في الجنوب، فتتراوح بين 0.4 و 3٪ في إفريقيا). وما يجدر ذكره، لتقييم هذه الأرقام تقييما محكما، هو أن مصاريف العالم الثالث من الناحية العسكرية قد بلغت 150 مليار دولار سنة 1983 أو ما يعادل 5.5٪ من

إنتاجه الوطني الخام، أي 14 مرة قدر مصاريف البحث والتنمية. تدفع الدول النامية 10000 دولار لكل جندي و 32 دولار للفرد الواحد في ميدان التعليم، وتصرف أكثر من 20٪ من نفقاتها العسكرية في استيراد الأسلحة، بهذه الوسيلة يكون الجنوب مساهما أساسيا بالفعل في تمويل البحث والتنمية في الشمال.

البيان رقم 2 : الباحثون والمهندسون في البحث والتنمية : المجموع 3750000

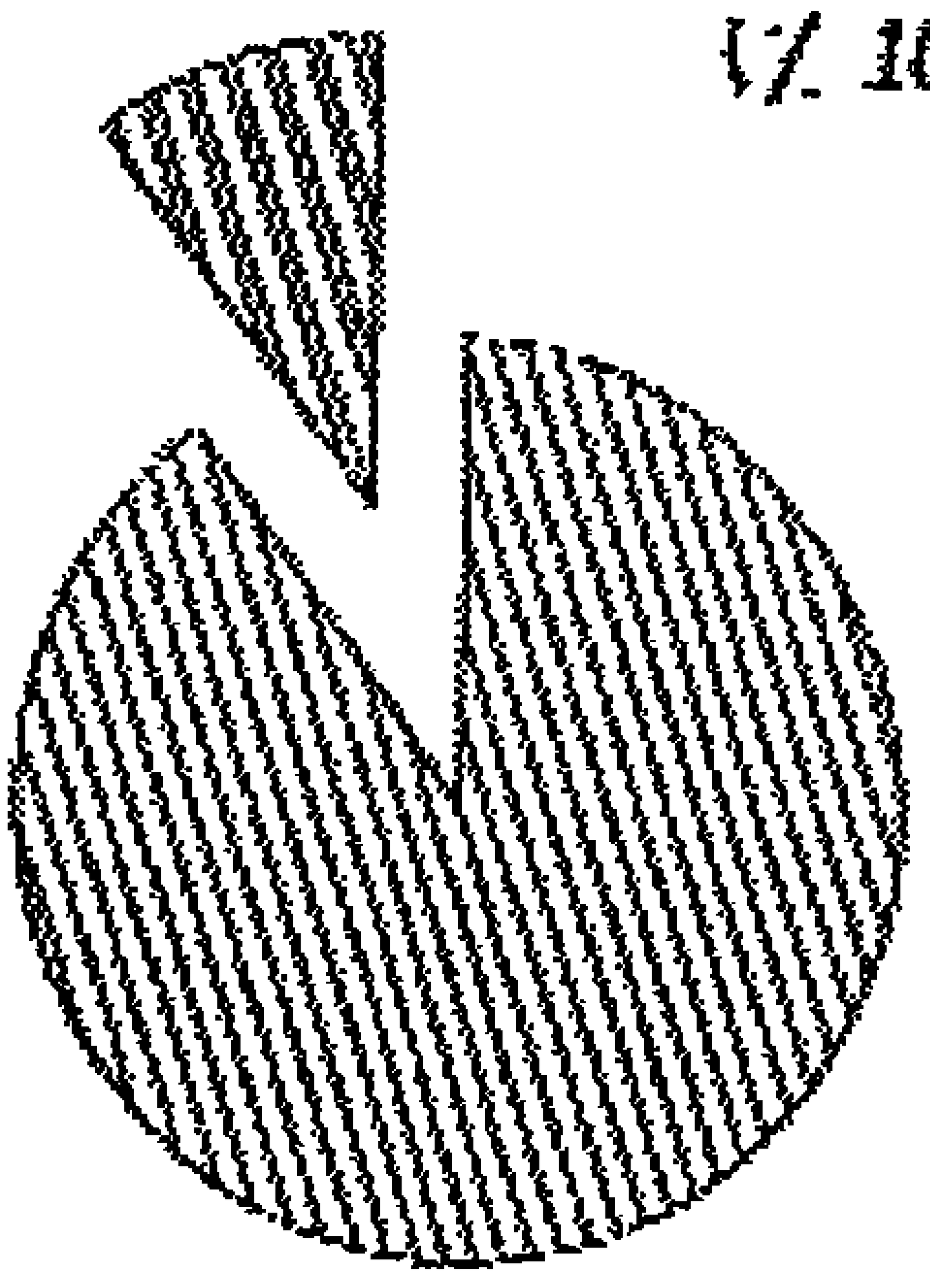

المصدر : اليونسكو (1980)

رغم نقصه ومحدوديته، فإن المجتمع العلمي في العالم الثالث نشيط نسبيا، إذ يصدر أكثر من 4500 مجلة علمية وتقنية، وينشر سنويا أكثر من 80000 مقال من المستوى الرفيع(2).

مصادر التمويل :

يمول البحث والتنمية في الجنوب باعتمادات عمومية تفوق نسبة مساهمتها 80٪، بينما تشارك المؤسسات الخاصة بنسبة 15٪ تقريبا والمصادر الخارجية بحوالي 5٪ على الأكثر. تبين هذه الأرقام، رغم الضعف الشديد لميزانية البحث والتنمية، أن مبدأ الاكتفاء الذاتي ممكن التطبيق على الأقل في هذا القطاع، من جراء انحصار المصادر العالمية للتمويل. وهذا يمثل عنصرا إيجابيا على المدى الطويل.

في الشمال، تقدر أنشطة البحث والتنمية الممولة بفضل مصادر عمومية بحوالي 30٪، يضاف إلى هذا أن بعض الأرقام تبدو جد مثيرة للاهتمام في فترة صار فيها التنويه بدور القطاع الخاص شائعا. مع ذلك يظل هذا القطاع مسيطرا على90 ٪ من المعرفة التكنولوجية العالمية.

يتأكد جليا بشأن العالم الثالث، ودون التقليل بأي حال من قيمة الدور الذي تلعبه صناعة القطاع

الخاص، أن على القطاع العام تحمل المسؤولية في تمويل البحث والتنمية لمدة سنوات عديدة أخرى. وقد تكمن إحدى الوسائل الأكثر ملاءمة في تكوين اعتمادات ذات مصادر مختلفة لفائدة برامج بحث معينة في ميدان البحث والتنمية. وهي مشاريع تستدعي مشاركة فعالة للجامعات وباقي المنظمات العليا للبحث والتدريس.

وزن الجنوب في العالم			
السكان	% 76	الصحة	% 9
المدخول القومي	% 23	التربية	% 9
الدفاع	% 22	البحث و التنمية	% 5.8

تمويل البحث و التنمية : نسبة الاعتمادات العمومية			
نيوزلاندة الجديدة	% 80	باكستان	% 100
استراليا	% 79	السودان	% 94
ارلندا	% 57	الهند	% 86
النرويج	% 54	الفلبين	% 77
اسبانيا	% 53	كولومبيا	% 72
فرنسا	% 51	البرازيل	% 67
إيطاليا	% 49		
المملكة المتحدة	% 48		
الولايات المتحدة	% 47		

المصدر : اليونسكو (الاحصاء السنوي 1985)

إن حجم البحث القائم في جامعات البلدان النامية محدود نسبيا بسبب نقص الاعتمادات. في حين أن هذه المؤسسات تتوفر على جهاز أكاديمي كفء للغاية وبإمكان إنتاجه العلمي أن يتضاعف بسهولة إذا توفرت لديه المبالغ الكافية وإذا ازدادت علاقاته متانة بعالم الصناعة والتجارة.

الوعي بأهمية البحث والتنمية :

هناك ارتباط شبه مباشر بين حجم البلدان ودرجة الشعور بأهمية البحث والتنمية. ذلك أن البلدان الآهلة بالسكان، أمثال الصين (1060 مليون) والهند (760 مليون) وأندونيسيا (165 مليون) والبرازيل (140 مليون) والباكستان (102 مليون) والمكسيك (80 مليون)، تولي اهتماما أكبر الى الاستثمارات في مجال البحث والتنمية من دول العالم الثالث الأقل تعميرا، فيما عدا بعض الاستثناءات.

يصل عدد سكان الدول الست المذكورة أعلاه إلى 2300 مليون نسمة، أي ما يعادل 75 ٪ من مجموع سكان الجنوب، و 50٪ من ساكنة العالم، أما البلدان النامية المتبقية (121 بلد) فلا تمثل سوى 25٪ من سكان الجنوب و 15٪ من مجموع سكان العالم.

فضلا عن ذلك، تتميز هذه البلدان الكبرى بكونها تبذل جهودا ضخمة بخصوص البحث والتنمية في ميدان التكنولوجيا الرفيعة (المعلوميات وتقنيات الاتصال والتكنولوجيا الإحيائية، الخ...). لقد وضعت كلها تصاميم للمدى المتوسط قصد التنمية التكنولوجية ومنحت للبحث والتنمية مبالغ عظيمة نسبيا لنفس الغرض. وهكذا تتوقع الهند مثلا إنتاج أجهزة الاتصال السلكي واللاسلكي في حدود 1990 بقيمة ثلاثة ملايين دولار. كما قامت الصين عند فشل «شالنجر» و«اريان» بإبرام عقود لإطلاق أقمار صناعية أمريكية.

إن الوعي بأهمية البحث والتنمية لا يكفي وحده لتبرير الاستثمارات في هذا المجال، اللهم إلا إذا كانت هناك قدرة فاصلة واقتصاديات الحجم. إذ قليل من بلدان العالم الثالث تتوفر على ذلك الحجم أو تكاد تصل إلى مستواه. وهنا تكمن الضرورة الملحة لأقامة تعاون جنوب ـ جنوبي على نطاقات إقليمية وجهوية وبيقارية. هذا هو الأمل الأخير للنجاة، فضلا عن تكثيف التعاون مع «الكبار الستة» المنتمين إلى العالم الثالث. ومن المحتمل خلق علاقات جديدة متفاوتة، على غرار تلك التي نعرفها مسبقا عن الشمال والجنوب، لكن عواقبها ستكون أقل خطورة جدا بالنظر إلى عوامل جيوسياسية واجتماعية ثقافية.

توضح حالة إفريقيا جيدا العلاقة بين درجة الوعي وأبعاد البلدان حيث ينزل عدد سكان الدول الإفريقية في معدله عن 10 ملايين نسمة، ويبلغ سكان نصف البلدان الافريقية أقل من خمسة ملاين نسمة. ثلاثة بلدان فقط تتجاوز الخمسين مليون (البيان 3)، كما أن تفتيت إفريقيا إلى عدد وافر من البلدان الصغيرة لا يتيح للقارة الإحساس الكافي بأهمية الاستثمارات في البحث العلمي والتنمية.

في الوثائق المسلمة إلى الدورة الخاصة للجمعية العامة للأمم المتحدة (والتي يفوق عددها ٢٥٠ صفحة) حول «الوضعية الاقتصادية المزرية في إفريقيا» (ماي 1986) لا تظهر عبارة البحث والتنمية ولا

البيان 3 : حجم الدول الافريقية

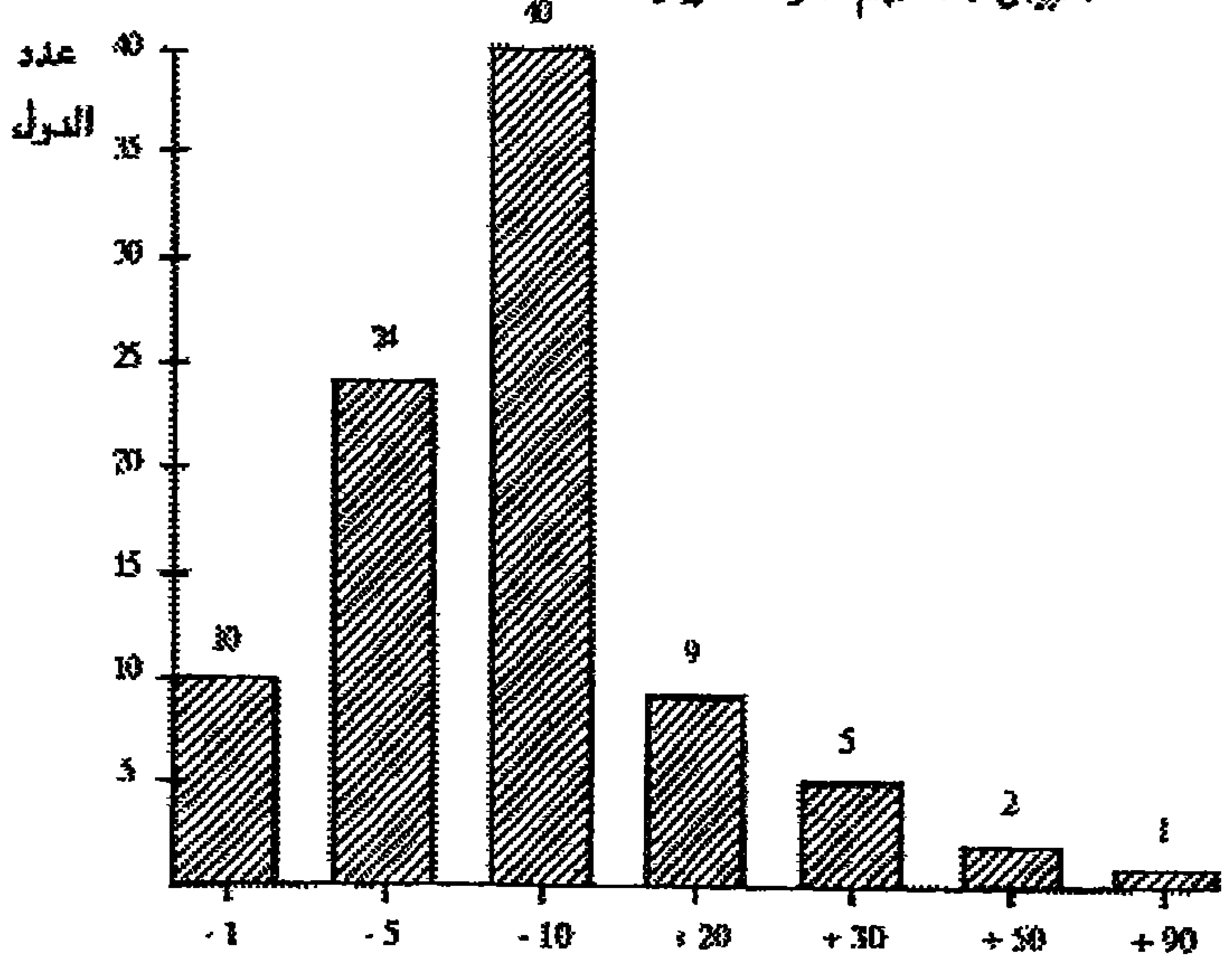

مرة واحدة ولم تذكر فيها لفظة «علم» إلا مرة واحدة، وكلمتي «تكنولوجيا» و«بحث» (في علاقة مع الفلاحة فقط) ثلاث مرات لا غير[3].

إذا استثنينا مداخلة الوزير الكاميروني للشؤون الخارجية، لم تجد هذه الاصطلاحات مكانها وسط خطب رؤساء الوفود الافريقية، رغم أنه كان من واجبهم الدفاع عن خطة العمل الموجهة «لعلاج اقتصادي» بإفريقيا وقدرها 128 مليار دولار. بل أحسن من ذلك، لقد تم منذ ست سنين فقط نعت البحث والتنمية من طرف رؤساء الدول الأفارقة «بالميدان الأولوي الذي يستدعي عملا عاجلا».يا له من تراجع بين لاغوس ونيويورك بفضل مشاورات الخبراء الدوليين.[4].

البحث والتنمية : مسألة سياسية

كيفما كانت الزاوية التي ينظر من خلالها إلى البحث والتنمية، فإن الأمر يتعلق أولا وقبل كل شيء بمسألة سياسية وعزيمة قوية من قبل المجتمع العالمي والقضايا الاقتصادية المنتجة، وكذا التزام أصحاب القرار، وحدا أدنى للتفهم من طرف الرأي العام. هذا النوع من الربط لا يمكن الحصول عليه بسهولة في العالم الثالث، بناء على تهميش المجتمع العلمي، بل والحذر منه، ونظرا للأنظمة السياسية التي لا تعطي الإبداع والتجديد الأولوية الكبرى، وللحكومات التي لا تعي كامل الوعي الدور الحيوي الذي يقوم به البحث والتنمية لمعالجة مشاكل التنمية ولقطاع خاص يفكر بعبارة الربح العاجل ولا يملك الحجم اللازم لتبرير أو

A/5 - 13/AC. 1/L3 (P. 9, P. 20); AS/S- 12/2 (P. 8, P. 13, P.22); A/S-13/AC. 1/ L3. (PP. 19-20) New York, Mai 1986.

Plan d'action de Lagos, paragraphe 167 - 1 (4)

(x) انظر وثائق الأمم المتحدة

تدعيم الاستشارات.

أثناء الجلسة الخاصة للأمم المتحدة المنعقدة في نونبر 1985 بإسلام أباد في الباكستان، حول تعبئة الموارد المالية قصد التنمية العلمية والتكنولوجية والتقنية في بلدان العالم الثالث، لوحظ أنه[5] : «رغم التزام جل البلدان النامية بتطبيق العلوم والتكنولوجيا في ميدان التنمية، لم يكن ذلك مكتسبا بجلاء لدى المستويات السياسية العليا. وهذا يقتضي التزاما سياسيا في مثل هذا المستوى، حتى يتسنى تجسيد مصالح العلوم والتكنولوجيا تجسيدا صحيحا، واستخدامها في تحديد الأسبقيات وتعيين الموارد».

من بين استنتاجات هذه الجلسة الخاصة الأكثر أهمية والتي تتضمن عواقب سياسية جسيمة، هناك غياب بدائل حقيقية للجهود المحلية الموجهة إلى تعبئة الموارد. والدروس المستخلصة من اجتماعي الأمم المتحدة حول العلوم والتكنولوجيا (جنيف 1963 وفيينا 1979)، وكذا حول تتبعهما، جد واضحة بخصوص محدودية التعاون الدولي : لا يمكن للبحث والتنمية أن يمول من قبل الصدقة!

التعاون الجنوب - جنوبي

لا يشكل تمويل البحث والتنمية هدفا في حد ذاته، حيث تطرح قضيتان بادئ ذي بدء : أولا تحديد الأهداف المتبعة في إطار اجتماعي - ثقافي معين، ثم القدرة على ضمان مستوى الموارد الحالية وعلى توفير اليد العاملة الكفأة الضرورية لتحقيق الأهداف.

يتطور عالم التكنولوجيا والعلوم بسرعة فائقة، تمشيا مع كافة البحث واستمرارية الاكتشافات في الشمال، حتى أن تحديد أهداف البحث والتنمية صار تحديا لا يمكن لبلدان الجنوب أن تتجاوزه من تلقاء نفسها إلا في حالات قليلة، وقس على ذلك، بل وأكثر، القضايا الأخرى المتعلقة بالموارد المالية والبشرية.

إذن، من البديهي تماما أن تظل الاتفاقيات الاقليمية والاندماج الجهوي والتعاون البيجهوي الجنوب جنوبي هي الحلول « الوحيدة» الممكنة، ليس من باب البواعث العاطفية، بل من أجل البقاء، وحتى البلدان المصنعة ذات الحجم المتوسط، أمثال التي تنتمي إلى أوربا الغربية (حيث يتوفر البعض منها على دخل وطني خام يفوق دخل كل بلدان افريقيا مجتمعة)، اكتشفت أنه يستحيل السير في البحث والتنمية من دون وضع مواردها رهن الجميع. من ثمة، فقد تبنت برامج بحث جماعية، أمثال ESPRIT و (EUREKA)، كلفت عدة ملايين الدولارات.

عندما نتطرق الى موضوع البحث والتنمية، لاسيما إذا استحضرنا التكنولوجيا المتقدمة، من المطلوب التأكيد أكثر من مرة أخرى على مفهوم الحجم. إذا اعتبرنا فقط قطاع المعلوميات، فسندرك أن شركة عالمية واحدة قد حققت سنة 1985 مبيعات مجموعها 55 مليار دولار. ونيجيريا هي البلد الإفريقي

(5) ملخص امانة اليونسكو a/cn. 11 aci: vi/E, New York, fevrier 1986

الوحيد الذي يتجاوز إنتاجه الخام الوطني هذا القدر. إن ما تنفقه تلك الشركة على البحث والتنمية خلال نفس السنة (3.15 ملايير دولار) تتعدى الإنتاج الوطني الخام لكل واحدة من 20 دولة إفريقية.

هذه الأرقام معبرة في حد ذاتها، وتدفع إلى الإعتراف بحق ونزاهة أن العالم الثالث لا يأخذ مسألة البحث والتنمية بجد، مادام لم يقم تعاونا بين الجنوب والجنوب، ولم ينمّ مشاريع مشتركة للبحث والتنمية وأساليب مشتركة لإعدادها وتقييمها. وفي الوضع المخالف وحده، يمكن لنا مباشرة تمويل البحث والتنمية من تلقاء أنفسنا بكيفية واقعية وفهمية.

اقتراحات عملية :

ما هي التدابير العملية التي يمكن تصورها حتى يتسنى لبلدان العالم الثالث تطوير هذه القدرة المالية؟ ها هي بعض المقترحات بطريقة موجزة ومتقطعة، التي ليست كلها ذات طابع مالي بالضرورة، بل بعضها شرط مسبق للتمويل، والتي تمت الإشارة إلى معظمها في مختلف الدراسات والمحاضرات، إضافة إلى ذلك يمكن اعتبار هذه اللائحة بمثابة قائمة غير مكتملة لكل الأشياء التي ندرك أن علينا تطبيقها، ولكننا لم ننجزها بعد.

1 – إعادة النظر في النماذج التنموية الحالية المنفتحة التي لا تفلح في توفير مستوى عيش لائق لغالبية السكان.

2 – التزام سياسي صريح على أعلى مستوى ممكن يقضي بالتدعيم المالي للبحث والتنمية على الصعيد الوطني وبالتعاون الجنوب ـ جنوبي في ميدان العلوم والتكنولوجيا.

3 – تقويم التوصيات السابقة [6].

4 – وضع استراتيجيات وتصاميم وطنية للعلوم والتكنولوجيا في الحسبان النقط التالية:

أ) افتقاد هذه الدراسات والتصاميم الوطنية لكل وقع يذكر إذا لم تكن مندمجة في خططها الإقليمية والجهوية البيجهوية جنوب ـ جنوب لتحقيق القدرة الفاصلة المطلوبة من قبل اقتصاديات الحجم، والتي يمكن أن تحسن مردوديتها.

ب) أهمية تعايش الطاقات البشرية والتجديد. هذان العاملان يشترطان حتما محيطات سياسية وثقافية تساعد على الإبداع وحرية التعبير.

ج) محدودية اللجوء إلى المهارات المحلية، وغياب الحاجة الى تقليص وطأة الخبراء الأجانب، مما يؤدي إلى إمكانية الحد من هجرة العقول [7].

(6) في حالة إفريقيا، يمكن أن نذكر على سبيل المثال، تقارير الاجتماعات
(7) هناك تردد في العالم الثالث لجلي المهارات المحلية، في حين أنها تمثل إحدى أنجع الوسائل لتشجيع و تمويل البحث و التنمية، في سنة 1983 تم إبرام عقود للهندسة بقيمة 3350 مليون دولار في العالم الثالث، و جزء قليل فقط من الشركات الوطنية قد استفاد من هذه العقود (المرجع: الكويت، ماي 1986). في حدود سنة 2000، ستتعدى نسبة الخبراء الدوليين (ذات المستوى ما بعد الجامعي) المنتمي إلى العالم الثالث 50٪، و السؤال هو: كم منهم سيختارون البقاء ؟

د) العلاقة الوثيقة بين السياسات العلمية والتكنولوجية والأنظمة التربوية.

هـ) الدور الأساسي للتكنولوجيا المتقدمة التي لم تعد تعتبر من الكماليات بقدر ما أصبحت تمثل العنصر الأكثر فعالية في أي عملية تنموية.

و) توصية مؤتمر منظمة الوحدة الإفريقية حول إفريقيا سنة 2000، المتعلق «بنقل» التكنولوجيا والمعبر عنها كما يلي: «الهدف المسطر إلى حدود سنة 2000 هو تحرير القارة من التفكير العام السائد حاليا، والذي يدفع بطريقة عمياء إلى تقبل والعمل بمفهوم «نقل التكنولوجيا»، وهي عبارة يقترح المؤتمر حذفها من القاموس الدولي(8).

ز) ضرورة تشجيع إتاحة تفاعل أكبر بين مؤسسات التعليم العالي والعالم الصناعي والتجاري.

ي) دور البحث في العلوم الاجتماعية، وكذا وزن القيم الاجتماعية الثقافية، باعتبار أن العلم ينتج الثقافة والعكس بالعكس.

5 – تحديد هدف لتمويل البحث والتنمية يطمح على صعيد مجموع العالم الثالث إلى تحقيق نمو الإنتاج الوطني الخام بمعدل 1٪ سنة 1990 وحوالي 2٪ سنة 2000.

6 – تخصيص رصيد وطني وجهوي للبحث والتنمية ممول من طرف الحكومات والقطاع الخاص وضريبة وطنية.

7 – أخيرا وليس بالأخير، تهييئ المرور بكل استقلالية من مجتمع ينتج المواد الأولية ومواد الاستهلاك إلى مجتمع ينتج المعرفة والخدمات.

في الختام يمكن فقط إثبات أن تمويل البحث والتنمية يعد اليوم أحد شروط تقدم العلوم والتكنولوجيا التي تشكل السبب الرئيسي للتفارقات المتزايدة بين الشمال والجنوب. لقد تعمقت الهوة، حتى أصبح من المتعذر تقليصها بواسطة إصلاحات خجولة وترقيعات هزيلة، فما هو التغيير الكلي لنهج دول العالم الثالث؟

لن يكون من باب المبالغة إذا قلنا أن الاستثمار في البحث والتنمية أصبح يمثل عاملا حاسما للسلم لأنه لا يمكن الانتظار من 3/4 البشرية أن تقبل باستمرار ودون تحريك أي ساكن لها تقبل العواقب الاقتصادية والاجتماعية ـ الثقافية لهذه التمايزات.

THE FINANCIAL SUPPORT OF RESEARCH AND DEVELOPMENT WITHIN THIRD WORLD COUNTRIES
Inaugural SYmposium of the African Academy of Sciences (AAS) Nairobi, Kenya, 06-1986
English, Français, Arabic
Proceedings african academy of Sciences, 1986, Nairobi, Kenya; futuribles, N° 104, 11/1986, Paris, France; ALMITHAQ 86/12/03, ALMAGHRIB, 86/12/11, Rabat, Maroc.

(8) What, Africa by the year 2000 ? OUA, 1979)

مظاهر سياسية للحوار بين الشمال والجنوب(×)

1 ـ غالبا ما يهتم الحوار بين الشمال والجنوب بمجموعة معينة من القضايا الاقتصادية الدولية الأساسية التي تتحكم في تنمية العالم الثالث المستقبلية وكذا معاش مئات الملايين من سكانه قد تكتسي تلك القضايا الاقتصادية أهمية بالغة، ومع ذلك ليس بوسعها التستر على أن ذلك الحوار يظل مدرجا سياسيا على الخصوص. يتعلق الأمر لا أقل ولا أكثر بضرورة سياسية لإعادة هيكلة النظام العالمي برمته وبما فيه الأهداف وأولويات توزيع المداخيل والتوازن الذي يراعي مختلف مصالح الأطراف المعنية.

2 ـ في هذا السياق، لا تفصم عرى الروابط ضمن النظام الدولي بين المظاهر الاقتصادية لحوار الشمال والجنوب وبين المدرج السياسي. أما التمسك بالطابع السياسي فما هو سوى محاولة «التسييس» بكل ما في الكلمة من معنى.

يتألف النظام العالمي بمجمله من ثلاثة أنظمة فرعية متداخلة :

النظام السياسي الذي يسهر على تحقيق أهدافه والنظام الاقتصادي الذي يوفر الموارد كي يكتمل إنجاز هذه الأهداف، والنظام الاجتماعي ـ الثقافي الذي يحدد سلاليم القيم التي تنطوي عليها الأهداف.

ملتقيان أساسيان للنظام العالمي :

3 ـ تعد عملية التحرير الشرعي «الجنوب» أمرا واقعا، غير أن مفعولها لم ينفذ بعد تماما الى النظام العالمي من حيث السير الاقتصادي والسياسي.

وهكذا تمت صياغة مشاريع «الدعم» في نهاية الخمسينات وبداية الستينات على أنها عمل توازني يدحض خطورة التحولات البنوية والوظيفية لنماذج العلاقات الدولية. وظهر جليا فشل هذا المقياس خلال الندوة الأولى التي نظمتها المنظمة العالمية للتجارة والتنمية (الكنوسيد) سنة 1964، كما أشار الى ذلك نائب كاتب الدولة السابق للولايات المتحدة السيد رايشرد كاردنا : «كان أول اجتماع مهم تم فيه تمديد الأحداثيات في اتجاه الشمال ـ الجنوب وليس الغرب –الشرق».

4 ـ في سنة 1974، وبعد عشر سنوات على انعقاد الاجتماع الأول لمنظمة الأمم المتحدة للتجارة

(×) مايو 1991

والتنمية، شرعت الجمعية العامة في الأمم المتحدة أثناء جمعها السادس غير العادي في تنظيم مناقشة تعتبر ملتقى ثانيا حول العلاقات بين الشمال والجنوب، على أن هذه المرة، لم يكن الجنوب على استعداد للاكتفاء بتكييف النظام العالمي تكيفا مجزأ، بل كان النداء لصالح نظام اقتصادي عالمي جديد موجه لإعادة النظر كليا في النظام القائم، بهذا كان الجدل ذا طابع سياسي بالأساس وأتت الحلول الدقيقة المقترحة ثانوية الشأن إذا أخذناها على حدة، بالمقارنة مع شمولية التأقلم الجديد. تتمثل أهمية الحوار بين الشمال والجنوب كذلك في إعادة اعتبار المفاهيم، ضمن بنية سليمة، وليس في التنازلات.

5 ـ عندما تكون معرضة لتيارات مضادة : لا تملك الأنظمة المادية والبيولوجية والاجتماعية كلها سوى ثلاثة أساليب للبقاء، التكيف وإعادة التوزيع والتحول في الستينات، لم تقو محاولة الشمال على التأقلم بما فيه الكفاية وحتى الآن أي منذ أواسط السبعينات، لازال التأقلم محدودا وغير قادر على مساندة النظام العالمي الحالي، وتبقى الطريقة الوحيدة القابلة لخلق حوار حقيقي مرهونة بتوفير حد أدنى من إعادة التوزيع التي تشكل قاعدة النظام الاقتصادي العالمي الجديد. أما في حالة الإخفاق، فتصبح آخر إمكانية، في وقتها المحدد هي التحول الجذري، وليس فقط التغيير البنيوي إنما مسألة وقت ليس إلا.

إن التأقلم إجراء مادي نسبيا، يدفع تدريجيا الى التحول المطلوب، شريطة إقامة تعاون. أما التحول الجذري فينتج عادة عن مواجهة تؤدي الى اندماج جديد للنظام أو الى تدميره. وكانت الحرب دائما في أصل هذا التدمير أثناء الفترة ما قبل النووية.

مستويان مختلفان : السلطة والقيمة :

6 ـ إن ما يلفت الانتباه أساسا في هذا الحوار هو الاختلاف الهائل بين مفهومي السلطة وسلم القيم. ذلك أن السلطة على الصعيد العالمي بيد الشمال، حيث يجمع ثلث السكان أكثر من 80٪ من الإنتاج الوطني الخام ومن النفقات العسكرية (مع شبه احتكار للترسنة النووية) ومن رواج التجارة ومن إنتاج ومخزون الذهب ومن المصاريف التعليمية، بل يمتلك أكثر من 90٪ من إنتاج الأسلحة والحاسوبات والكتب والإنتاج الصناعي والنفقات العلمية والتكنولوجية والصحية.

7 ـ إذا ألقينا نظرة على الجنوب، سيتضح مدى صعوبة التحليل المقارن للسلطة، نظرا للفرق الكبير بين العالمين الذي يمكننا من تمييز سوى السلطة الاحتياطية المتجسدة في الموارد الطبيعية والبشرية للجنوب، وفي إرثه الثقافي وسلم قيمه، وفي الإرادة الاحتياطية لحكامه وسكانه الذين يتطلعون إلى تغيير النظام القائم وهي نفس الإرادة التي أدت إلى القضاء على الاستعمار في القرن 20.

8 ـ لقد استفحل التفاوت في توزيع السلط بين الشمال والجنوب، بسبب التفتت الذي أفرزته سياسات

الجنوب المنتمية لمختلف أنواع أنظمة الحكم. هذا العائق يسترعي اهتمام مجموعة السبعة والسبعين لا من ناحية الوقت المستثمر ولا من حيث الطاقة المبذولة. زد على ذلك أنه، ولو أن الجنوب قد يتمكن من التوصل إلى اتفاق حول مبدإ حيوي، يمكن للشمال بسهولة تكسير الإجماع الحاصل في الجنوب ليس بواسطة التصويت حول قرار داخل اجتماع دولي، لكن عن طريق الضغوط والتعويضات الثنائية.

9 - إن ما يسمى «بالتشدد» في متطلبات بلدان العالم الثالث على الساحة الدولية كان متبوعا بتدهور في الوحدة السياسية لهذه المجموعات، وترجع هذه الظاهرة الى عدة بواعث منها تزايد عدد الدول وضعف الحماس السائد منذ الاستقلال وعجز المنظمات السياسية الجهوية عن اتخاذ مواقف مشتركة واضحة حول جل المشاكل والانقسامات السياسية العميقة بين البلدان المتجاورة التي قد تنتهي أحيانا بالحرب. في هذا الصدد تم تسجيل منذ نهاية الحرب العالمية الثانية أكثر من 120 نزاع مسلح وقعت كلها في العالم الثالث.

الأهمية الأساسية لسلم القيم في الحوار :

10 - عند ضرورة التطرق إلى سلم القيم بمنحى ميزان القوى بين الشمال والجنوب إذا أصبح الشمال مرتعا لأزمة شك بشأن قيمه الحالية وهي أزمة حضارية، مما دفع ألفريد سوفي الى القول : «مع تطلع أوربي وأمريكي الى عيش أحسن، صار العيش نفسه منسيا».

يجد الناس دائما صعوبة أكبر في تحقيق ذاتهم عبر القيم السارية للفعالية والإنتاجية والكسب، وعلى أنها تمثل هدفا في حد ذاته، فقد حطم الانشغال ببقاء الجنس البشري الثقة في الحضارة الغربية. إن التاريخ يزيح الستار شيئا فشيئا عن الاستغلال والآلام التي فرضت في الفترة الاستعمارية على ملايين الأشخاص، وعن الأرباح التي حققها المستعمرون.

11 - هو ذا المستوى الذي يأمل من خلاله فتح فجوة ينفذ منها الحوار بين الشمال والجنوب وأحد أهم العوائق التي تعرقل هذا الحوار هي مشكل التواصل، إذ أن الشمال بذل الى حد الآن قليلا من الجهود لاستيعاب لغة الجنوب. وبالأحرى للتحدث بها، صحيح أن الناطقين باسم الجنوب على دراية فائقة بسلم القيم الشمالية، إن لم يكن هؤلاء نفسهم نتاج هذه القيم، الى درجة أن نظرائهم في الشمال لم يحسوا أبدا بضرورة الحذو حذو أولئك.

12 - من المرجح أن يكون الحوار في موضوع سلم القيم من الوجهة السياسية أكثر جدوى واستعجالا من أي مشكل آخر، بما أن هذا السلم هو الذي يحدد مقاصد وأهداف النظام العالمي، وذلك بتقديم جواب على سؤال «لماذا»؟

ولا يعنى سكان الجنوب فقط بقضايا التغذية والصحة والسكن والتربية والشغل بقدر ما يهتمون كثيرا أيضا بهويتهم الثقافية ولا يسمحون بابتلاعهم في بوتقة بواسطة وصفة محضرة من طرف الآخرين.

13 ـ من الواجب منح الأسبقية الى سلم القيم لإثبات أنه لا يمكن تجاوز الأزمة الحالية بين الشمال والجنوب بمجرد إعادة التكيف الجزئي، لأن أزمة النظام شاملة ويستحيل تحقيق أي تسوية لها دون اللجوء الى إعادة ضبط الأهداف والوظائف والبنيات، ودون إعادة توزيع السلط والموارد وفق سلم قيم يختلف عن ذلك الذي سبب الأزمة وانهيار النظام السائد.

14 ـ كيف يجوز قبول قيم نظام دولي زادت نفقاته العسكرية على 350 مليار دولار، وهو مبلغ يفوق الدخل الإجمالي السنوي لنصف سكان العالم الأكثر فقرا؟ وكيف لنا أن نوافق على نظام يعمل على توفير مقدرات نووية تستطيع القضاء على البشرية جمعاء؟

لا يرتبط مشكل نزع السلاح فقط بإعادة توزيع الموارد. إذ قبل التفكير في توزيع جديد لهذه الموارد الملحة يلزم القيام أولا بفهم لماذا تصرف كل هذه الأموال في التسلح، بينما تهمل الضروريات الإجتماعية، سواء في الجنوب أو حتى في الشمال. من المحتمل إذن أن هنا تكمن النقطة السياسية الأكثر حساسية في الحوار بين الشمال والجنوب مادام الأمر متعلقا بمسألة السلطة.

15 ـ بدون إيجاد مقياس جديد لمشكل النفقات العسكرية، يتعذر الحديث عن نظام جديد، لأن النظام الجديد يتطلب إعادة التوزيع من جديد للسلط والموارد وتأخير هذه العملية يشكل أهم خطر يهدد السلم العالمي وبقاء البشرية .

16 ـ ستكون الجمعية العامة للأمم المتحدة في جلستها غير العادية التي ستنعقد يوم 23 ماي حول نزع الأسلحة أكثر وضوحا من ندوة باريس بين الشمال والجنوب المخصصة للتعاون الاقتصادي العالمي، ستكشف كذلك، عن مكانة الاتحاد السوفياتي ودوره في محاولة إعادة هيكلة النظام العالمي، كما ستكون فرصة ممتازة لإبراز عزم البلدان النامية على تطبيق مبدإ الاكتفاء الذاتي الفردي والجماعي.

(روما ـ مايو 1978).

" POLITICAL FACETS OF THE NORTH SOUTH DIALOGUE"
1st Session North South Round Table, SID, Rome, Italy, 78/05/18 -20, Society for International Development
Francais, English, Espanol, Arabic.
Document de base - 4, SID, Rome, 78/05/10; LE MATIN DU SAHARA, 78/05/24, CASABLANCA, MAROC;
DEVELOPMENT, Vol. XX, N° 2, 78/02/, SID, Italy.

تضامن البلدان الغربية مع البلدان النامية هو مجرد رياء (×)

كل هذا الكلام الكثير في أوروبا الغربية، عن التضامن مع البلدان التي في طريق النمو، لا يعدو أن يكون مجرد رياء. فالمساعدات المقدمة لهذه البلدان تسيء إليها أكثر مما تفيدها، كما أن البلدان المصنعة الغنية، ترفض بشكل مطلق، مساعدة البلدان التي في طريق النمو، في المجال الذي قد تظهر فعاليته في المستقبل وهو نقل التكنولوجيات الجديدة والبيوتكنولوجيات.

في سنة 1987، سقط في العالم الثالث من القتلى بسبب الحروب، أكثر مما فقده الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية، دون أن يثير ذلك أقل رد فعل من جانب الأوربيين الغربيين. بل إن هؤلاء يستفيدون على العكس من ذلك من هذه الحروب.

كانت تلك مجموعة من التأكيدات التي أثارت مجموعة من رجال السياسة الاجتماعيين ديمقراطيين والاشتراكيين في المجموعة الاقتصادية الأوربية والبلدان الشمالية، وهم يستمعون الى البروفيسور المغربي السيد المهدي المنجرة، خلال مؤتمر حول المجموعة الاقتصادية الأوروبية والبلدان التي في طريق النمو، عقد في مطلع هذا الشهر (يناير 1989) بكوبنهاجن.

لقد عمل الدكتور المهدي المنجرة منذ أكثر من عشرين عاما داخل مجموعة من المنظمات الدولية المهتمة بالوضعية في البلدان التي في طريق النمو، وبالرغم من تركيزه على إبراز المشاكل المطروحة، فقد كان يعزز تأكيداته بأرقام وأمثلة وقد اختتم عرضه بتحذير الشعوب الغربية قائلا : إن التطور سيكون سريعا جدا خلال السنوات المقبلة، وإذا لم تبد الولايات المتحدة وأوروبا الغربية إرادة في التكيف، فإنها ستنتكس بسبب تقدم اقتصاديات وثقافات العالم الثالث.»

نزعة مركزية أوروبية

إن أهم عرقلة تحول دون قيام حوار حقيقي بين الشمال والجنوب، ليست سياسية ولا اقتصادية أو اجتماعية، يقول الدكتور المهدي المنجرة، بل ثقافية، بالأحرى. إن مجموع الحوار تخترقه نزعة مركزية أوربية. إن السوق الأوربية المشتركة ـ يضيف الدكتور المهدي المنجرة ـ تمثل اليوم 6٪ من سكان العالم.

(×) يناير 1989

وإذا أضفنا إليها الولايات المتحدة، فإننا سنصل ربما الى 10٪. وسيمثل سكان المجموعة الاقتصادية الأوروبية، في سنة 2000 أقل من 5٪ من سكان العالم، وفي سنة 2025 سيكون الرقم هو 3٪. «إلى متى ستستمرون في الاعتقاد - يقول الدكتور المهدي المنجرة - بأن باقي العالم سيترك قيمه، خاضعة لهيمنة تقليد يهودي - مسيحي، وتقليد شرعي ميزهنضخش أوربي لا يرجع إلا لبعض مئات من السنين، في الوقت الذي توجد فيه بلدان في آسيا تستطيع أن ترجع تقاليدها الى 5000 سنة الى الوراء؟

«إلى متى ستستمرون في الاعتقاد بأن العالم قد بدأ مع الثورة الصناعية؟ إلى متى ستستمرون في وضع كمامات على أعينكم، أمام تاريخ بلدان أخرى؟ إلى متى سيظل 90٪ من سكان العالم مضطرين لتعلم لغتكم، وموسيقاكم، وأدبكم، وثقافتكم، في الوقت الذي لا تبدون فيه أي اهتمام بتعلم ومعرفة لغتهم، وموسيقاهم وأدبهم وثقافتهم؟».

ولأن موضوع المؤتمر كان هو «التبعية والتضامن المشتركين» فقد واصل الدكتور المنجرة عرضه بقوله : «إن أول فكرة ينبغي أن تتبادر إلى الذهن، عندما نتحدث عن التبعية والتضامن المشتركين، هي فكرة : «هذه بتلك». ينبغي أن نتعلم من الآخرين، وأن نستمع إليهم، لا أن نكتفي بمخاطبتهم بطريقة دوغمائية.

وقبل أن يتحقق ذلك، لا يمكن أن يكون هناك حوار بين الشمال والجنوب.

ليست هناك أية مساعدة في مجال البيو - تكنولوجيا..

وبخصوص التعاون الاقتصادي المستقبلي بين البلدان النامية والبلدان المصنعة، قال المهدي المنجرة : إننا في طور الدخول في مرحلة انتقالية بين مجتمع إنتاجي، بدأ مع الثورة الصناعية، ومجتمع علمي. فالرأسمال أصبح ثانويا، أكثر فأكثر، والكائنات البشرية وكذلك الموارد الطبيعية ستكون لهاأهمية أقل في التطور في المستقبل. فبعد أقل من 10 سنوات، ستتمكن الشركات المتعددة الجنسيات في بلدان الشمال، من وضع أبناك جنتيكية تمكنها من إنتاج عدة أنوا ع من كل ما يوجد، وتمكنها من تثوير كل حياتنا. ولكن لا يوجد بلد واحد في العالم الثالث يملك بنكا جنتيكيا. ونحن لا نتوفر حتى على ذاكرة حول كائناتنا الحية. وقد قررت المجموعة الاقتصادية الأوروبية والبلدان الغنية، أن لا تترك للعالم الثالث حق المشاركة في هذه التطورات التكنولوجية والبيولوجية. وهي ترفض بكل بساطة التعاون معنا في هذا المجال.

لقد كانت لي قبل مدة - يضيف الدكتور المنجرة - عدة مراسلات مع المندوب الأوروبي للتنمية، الاشتراكي إدغار بيزاني، حول هذا الموضوع، وبعد اجتماع مع مجموعة من البلدان الامريكية اللاتينية، رفضت المجموعة الاقتصادية الأوروبية، رسميا، التعاون مع البلدان النامية في هذا المجال، «إما لأنها لازالت غير مستعدة لذلك، وإما لأنها ستصبح منافسة قوية لنا». فكيف يمكنكم إذن أن تتحدثوا عن التضامن؟

المساعدة هي السيدا

ولا يبدي الدكتور المنجرة أي تعاطف مع المساعدة التقليدية. (AID IS AIDS)، المساعدة هي السيدا. ما الذي يميز السيدا، في الواقع؟ إنها تحطم دفاع جهاز المناعة، وتحطم قدرات الجسم البشري على الدفاع عن نفسه بنفسه. نفس الشيء تماما يحدث مع المساعدة للبلدان النامية.

هناك دراسات أجريت في العديد من مناطق العالم تبين وجود علاقة مباشرة بين المساعدات المقدمة للبلدان النامية والمجاعة، فكلما تزايد حجم المساعدة المقدمة، كلما أصبح الناس الذين نرغب في مساعدتهم عاجزين وتابعين. إن المساعدة المقدمة للبلدان النامية تكرس وتعزز نموذجا ما فتئ يؤكد فشله باستمرار. ومادامت هذه البلدان لم تأخذ بنمط تنمية مغاير، فإن هذه المساعدة لن يكون لها أي تأثير إيجابي، بل إنها لن تؤدي سوى إلى الفساد.

لقد قامت المجلة الأسبوعية الامريكية «تايم» في فترة معينة بدراسة في أمريكا اللاتينية، بينت أن 40٪ من المساعدة ومن القروض الممنوحة لهذه القارة كانت تعود إلى حسابات بنكية، سرية، في الأبناك الغربية. إن المساعدة المقدمة للبلدان النامية أصبحت قضية أعمال.

ضرورة تغيير النظام

وقد بينت دراسة فرنسية أجريت بمبادرة من الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران، بعد توليه منصب الرئاسة، أن كل فرنك فرنسي تقدمه فرنسا في شكل مساعدة للبلدان النامية، تحصل مقابله على خمسة فرنكات في شكل مبادلات. فمن يساعد من؟ وعندما يتحدث تقرير براندت عن تحويل الموارد وهو يقصد في الواقع المال، أقول: إنه لم يفهم أي شيء في المسألة.

وعندما يتحدث الاشتراكيون من ذوي النوايا الحسنة في بلدان المجموعة الاقتصادية الأوروبية عن الزيادة في المساعدة المقدمة للبلدان النامية، أجيبهم: ادرسوا أولا الأضرار الناجمة عن هذه المساعدة. هل تريدون الزيادة في هذه الأضرار؟ كفوا عن الحديث عن المبالغ المالية، إن الأمر يتعلق بنظام المساعدة. لماذا يوجد سكان فقراء؟ إن جوهر المشكل ذاته هو الذي يحتاج الى حل.

إن الأمر لا يتعلق بتقديم الصدقة، بل بتغيير مجموع النظام الدولي بشكل يؤدي الى تقليص الاختلالات والفوارق على المستوى العالمي، وبالتحديد، كما حدث في البلدان الأوروبية المتقدمة. وإذا كنتم، كاشتراكيين، تعطون معنى ولو محدودا للتضامن العالمي، فينبغي عليكم أن تعملوا لصالح مثل هذا التغيير الجوهري. هذا هو السبب الذي يدفعني إلى مطالبتكم بمراجعة موقفكم من المساعدة المقدمة للبلدان النامية.

الكـــرامة

إن التنمية يمكن أن تختزل في شيء واحد، هو: الكرامة، يقول الدكتور المنجرة، والكرامة هي، جزئيا، الى أي حد يملك الناس تأثيرا على حياتهم الخاصة، وعلى تطور مجتمعهم. ولكنها كذلك، إلى أي حد يمكن للناس أن يسيروا في الشارع، في بلدهم، دون أن يخافوا من الشرطة. وهي أيضا احترام حقوق الانسان، وحرية التعبير، الخ...

أين هو تضامن أوروبا الغربية في هذه القضية؟ في أوروبا الغربية، تنتهك حقوق الانسان في صفوف ما يسمى بالعمال الاجانب يوميا، دون أن يتدخل أي أحد. وخلال 18 شهرا تمكنت مجموعة، أنتمي إليها، من إنشاء منظمة للدفاع عن حقوق الانسان في المغرب، ولكن إقدام مجموعة من العمال الأجانب على اتخاذ خطوة مماثلة في بلد من بلدان أوربا الغربية، سيؤدي لا محالة إلى ارتفاع صيحات مرائية.

وإذا قارنا لائحة البلدان التي تقدم لها المجموعة الاقتصادية الأوربية المساعدة، بلائحة للبلدان التي تنتهك فيها حقوق الانسان بشكل خطير، فإننا سنجد نسبة عالية من التطابق. ولكن يقوم بشيء ما في هذا المجال؟ قد تتخذ مجموعة من القرارات داخل البرلمان الأوربي، ويعتبر أصحابها فيما يبدو أنهم قد غسلوا أيديهم من المشكلة، وأنهم فعلوا كل ما في استطاعتهم!

اللامبالاة إزاء الحـروب

في أوربا يجري الحديث كثيرا عن كون أننا في طريق الدخول في مرحلة سلمية، مع الانفراج الذي تشهده مختلف مناطق العالم. ولكن حاليا يوجد 22 نزاعا مسلحا تجري كلها، كما لو كان الأمر صدفة، في العالم الثالث، وقد أدت الى مقتل أكثر من 2,2 مليون شخص، في سنة 1987 وحدها. إنها خسائر تفوق بكثير خسائر الحلفاء الغربيين خلال الحرب العالمية الثانية - ولكن في تلك المرحلة كان الأشخاص الذين يموتون يتوفرون على لون آخر!..

والعديد من هذه الحروب تخاض بـ«الوكالة»، أي لحساب القوى العظمى أو لحساب دولة أوروبية كما أن الصناعات المنتجة للسلاح في هذه البلدان هي التي تكسب أموالا طائلة من خلال تزويد البلدان والحركات الثورية في الجنوب، بالأسلحة. وكل ذلك يتم في إطار الابقاء على التوزيع الحالي للقوى والنفوذ. فلو أغفلت الدولة الفرنسية على سبيل المثال إرسال شيكات الى العديد من مناطق العالم، في العشرين من كل شهر، فإن العديد من الدول الافريقية ستختفي من خريطة العالم.

أدمغة البلدان النامية

وقد حذر الدكتور المهدي المنجرة رجال السياسة الأوربيين الغربيين، من التحولات الكبرى التي سوف تحدث خلال السنوات المقبلة قائلا :

«بعد عشر سنوات، سوف لن يعود العالم الثالث في حاجة الى البلدان الغنية! ففي سنة 2000، سيوجد الممسكون الحقيقيون بزمام السلطة - أي الأدمغة - أساسا في رؤوس أشخاص يعيشون في العالم الثالث أو ينتمون إليه. وقد لفت المركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي الانتباه، في تقرير له، إلى كون ما لا يقل عن 650 شخصا من أصل مغربي يرتبطون بالمركز كباحثين. كما كشفت دراسات أمريكية أن «عدد الأجانب الذين يدرّسون في الجامعات الأمريكية، هو من القوة بحيث يمكن وصفه بالمثير للقلق». وهنا يمكن بل ينبغي بطبيعة الحال أن نوجه انتقادات للمغرب لكونه لم يحسن استغلال هؤلاء الأشخاص بعد أن أنفق دافعو الضرائب ما يقارب الـ 150.000 دولار، من أجل تكوين كل واحد منهم. ولكن في بلدان أخرى تحققت خطوات مهمة في هذا المجال : فالصين والهند، مثلا أجريا تجربتهما الأولى لشبه الموصلات (Semi-conducteurs).

إن جيلا جديدا يولد في العالم الثالث، وهو لن يستمر في التحدث بلغتكم. ولم يعد هناك سوى القليل من الوقت للتكيف، والرهان يتعلق بمستقبلكم أنتم في العالم الغني. أما نحن فليس لنا ما نخسره...

بهذه العبارات أنهى البروفيسور المهدي المنجرة خطابه...

- الاتحاد الاشتراكي"، 5 مارس 1989
- "INFORMATION", 31 - 01 1989, Copenhagen
- POLITIKEN, 14 - 1 - 1989, Copenhagen.
- "ALMAGHRIB", 22 - 02 - 1989, Rabat.

الفرنكفونية :
أداة للعلاقات الدولية ؟

يعود بروز فكرة «الفرنكفونية» الى نهاية القرن 19 عندما استعمل العبارة أونسيم ركلوس Reclus Onesime لكي يغطي «في الوقت ذاته فكرة لغوية وعلاقة جغرافية». وعندما أنشأت سنة 1899 بباريس، جمعية أطباء الأطفال الناطقين بالفرنسية، حين نجد لها صدى في خطاب الجنيرال دوغول سنة (1944) والمناقشات حول أنشاء الاتحاد الفرنسي، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، أو عند قيام «جمعية فرنسية مشتركة Communaute franCaise، خلال الخمسينات، عندما نرجع الى انطلاق مجلة «الثقافة الفرنسية» سنة 1962، عندما نعتمد على المؤتمر الأول لوزراء التربية لفرنسا والدول الافريقية والملغاش (1960) أو إنشاء جمعية الجامعات الناطقة كليا أو جزئيا باللغة الفرنسية، أو عندما تسند المبادرة الى الرئيس السينغالي سنغور أو الرئيس التونسي بورقيبة (1966)، أو عندما نقوم بجرد تاريخي منذ إنشاء الاتحاد الافريقي والملغاشي (1961) منذ إنشاء المنظمة المشتركة لافريقيا والملغاش (1965). ووكالة التعاون الثقافي والتقني (1970) وعند الاعتماد على اجتماعات المؤتمرات الفرنسية الافريقية منذ سنة 1973 أوفي نهاية الأمر، على المؤتمر الفرنكفوني الأول الذي تم الإعلان عن التحضير له في المؤتمر العام لوكالة التعاون الثقافي والتقني بدكار سنة 1985، والذي تم فعلا انعقاده بباريز في 17-19 من يبراير سنة 1987.

لا يمكن فصل مفهوم «الفرنكفونية» عن سيرورتها التاريخية المرتبطة وراثيا بالفترة الاستعمارية. كما أنها مرتبطة بفترة التخلص من الاستعمار التي لم تنته بعد، وبالتحولات الإيجابية التي تحملها هذه الفترة على المدى المتوسط أو البعيد. لن نتمكن من تطوير روح حقيقية للتعاون الانسانوي الكوني إذا لم نبدأ، من هذا الجانب أو ذاك، باحترام الآخر.

يتعلق الأمر، بعيدا عن كونها خلاصة دوغمائية، بنقطة انطلاق نحو حوار مفتوح من كل طرف مبتدئ في مجال الفرنكفونية. ولأول مرة في حياته المهنية، يشارك، وبحذر شديد، في نشاط يمس هذا المجال. إن ما أقوله بصراحة، يفكر فيه عدد من الناس باطنيا. في الشمال كما في الجنوب. لست مع ذلك لامباليا كليا. كهاو لمستقبلية. يدخل في اهتمامي مستقبل اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية، في ذاتها و كثقل في الهيمنة

(×) شتنبر 1987

الثقافية التي تترصد الانسانية. أعتقد أن التعدد مرتبط، قبل كل شيء، بالتفتح الداخلي لكل ثقافة، وبالتقوية المتبادلة لقنوات الاتصال التي تملكها.

في عالم يعيش في أوج التطور العلمي ووجود إشكالية ثقافية جديدة، فإن هدفا مماثلا لا يبدو ميسرا دائما باللجوء إلى المفاهيم السياسية السوسيوثقافية والقانونية، حيث تحليقات أدبية وشعرية، أمام ذاتية مصطبغة برومانسية وبروحانية أشبه ما تكون بالصوفية التي تحجب الواقع عن غير وعي، وتحافظ على «الوضع الراهن»، حيث تظل «المهمة الثقافية» مهمة «حضارة». وهذه بعض العينات :

«فكرة المثال المشترك، للتقسيم، هذه تقودنا الى فحص تطور روحي لكلمة فرنكفونية إذ نستطيع أن ننعتها بـ «الصوفية». هذا الموقف يتميز باحترام كبير للغتنا هذه التي تملك نوعا من التفوق بالنسبة لجميع اللغات الأخرى المستعملة في العالم. إن مميزات اللغة، أساليبها في التحليل والتركيب تفسر إذن نوعية الفكر الفرنسي والإشعاع الثقافي لفرنسا».[1]

«ليس لمفهوم الفرنكفونية أية قاعدة موضوعية جادة، ولكن التصور - الذاتي - لشبه المفهوم هذا هو واقع سياسي، اجتماعي، ثقافي»[2].

«الفرنسيون هم الأرغنات نزوشهي الضخمة الأكثر عذوبة، ذات الوميض العاطفي، ثم هنالك بالتتابع الناي الطبلة،،، بكلمات الفرنسية، إشعاع النار كالشهب التي تضيئ ليلنا»[3].

«اللغة رابطة قرابة متميزة لتجاوز الروابط الأيديولوجية، تشكل اللغة - الفرنسية بالنسبة إليكم، كما هو الأمر بالنسبة لنا، تتمة لتراثنا الثقافي، تغني فرنسيتنا وتجعل منا رجالا مكتملين بالإنتماء الى مجموعة الأمم الحرة.»[4]

مجموعة الأقوال هذه تمنح انطباعا شاملا حول انفعالات عدد من الشخصيات بخصوص فكرة الفرنكفونية. هذه الملاحظة لها قيمتها على المستوى السياسي، ولكنها على المستوى المنهجي Methodologique، ليست ذات فاعلية كبيرة. إذا كنا نتمنى الإجابة، بحد أدنى من الدقة والموضوعية، عن السؤال : هل تشكل الفرنكفونية «أداة للعلاقات الدولية» إذا كان الجواب بـ : نعم، فما «الجديد» فيها؟ يتطلب هذا جهدا متواضعا في البحث والتجرد من موضوع يدرك، بصفة خاصة على مستوى عاطفي، ولا يتم الاحتكام، بصفة عامة، إلى فحص بارد ودقيق ؟

لا تتحرك أداة للعلاقات الدولية بطريقة مجردة على أرض غير معينة، بدون غاية محددة، بدون أهداف متماسكة، بدون قواعد معترف بها صراحة، في غياب علاقات قوة قابلة للقياس. بعبارات أخرى، إن كل أداة للعلاقات الدولية هي نتيجة للتفاعل الذي يحصل داخل النظام الدولي وداخل الأنظمة التابعة التي يقننها

بطريقة منهجية.

إن تحليل الأنظمة باعتبارها تقنية العلوم الاجتماعية، تيسر إضاءة دواليب العلاقات الدولية، بالاعتماد على عدد من المعطيات الكمية وبتقديم عدد من اللوغرتمات Algorithmes التي تحاول تفسير العلاقات المتبادلة، مع الأخذ بعين الاعتبار نماذج التنمية (أو مشاريع» المجتمع) وكذلك القيم السوسيوثقافية التي تضمنها.

إن تصورا كهذا لمن شأنه أن يسهل تعيين الـ« الرهانات» والقوى المرتبطة بـ«الفاعلين».

هناك واقع لا نقاش فيه، يبدو أن الفرنكفونية لم تؤخذ بعد بعين الجد من طرف المجموعة العلمية أو من طرف الجامعات. بفضل المعلوميات يظل هذا الزعم قابلا للمراجعة، من خلال أبناك المعلومات والمصادر البيليوغرافية المدمجة في المعلوميات، صحيح أن 90٪ من هذه الأنظمة الاعلامية بالأنجليزية. ولكن هذا ليس عائقا كبيرا.

إن «خادما» جامعيا فرنسيا يعرف « SUNSIT قد يكون بنكا للمعلومات يتوصل إليه عن طريق TELETEL باستعمال الشفرة تلي تيزي TELETHESES, الذي يقدم مجموعة كاملة من المعلومات حول أطروحات دكتوراه السلك الثالث المقدمة في الجامعات الفرنسية ما بين 75 و 1986.

ولكن ماذا عن الأبحاث الجامعية في باقي الدول الفرنكفونية بما في ذلك كندا؟ إن مركز العلاقات الدولية بالكبيك يصدر منذ 1970 مجلة ممتازة تعرف ب «دراسات دولية» وعدد آخر من المنشورات ولكن كاتالوغ المركز لا يذكر غير عملين متعلقين بالفرنكفونية[5] لهذه «القضايا» علاقة ببقاء النوع البشري وبقاء الكون، لها علاقة أيضا بالفقر، بالجهل، بالمرض، بالعسف، بالظلم الاجتماعي وبالديكتاتورية في جميع أشكالها المختلفة، إن الفرنكفونية ككل سياسة أو«أداة» للعلاقات الدولية، لن يكون في مقدورها الهروب من امتحان كفاءتها ولا من «إشكاليات (ها) ذات الإمتياز» كتفتح الكائن البشري، والسلام ، ـ علاقات شمال ـ جنوب.

جرد تاريخي :

إن هدف هذه الدراسة هي محاولة المساهمة في جواب عن سؤال طرحته وثيقة مركز العلاقات الدولية بالكبيك على البديل التالي:

«إذا كانت المشروعية الدولية لهذه المؤتمرات، باعتبارها محفلا أصليا للتبادل ووسيلة للعمل، ثابتة تماما، فإن الفرانكفونية ذاتها ستخرج وقد كبرت، في حالة العكس سيكون مستقبلها مشبوها لأن بعض التوقعات ستستشعر لا محال.. وإذا ظلت هذه التوقعات فوق الإدراك، وإذا كانت التوجهات والقرارات لأجل

الإرضاء تشكل موضوعا لاستمرار حقيقي، فإن نوعا من الارتيابية سيبرز بشكل تدريجي تجاه الفرنكفونية ولن تستطيع غنائية تعويضية ما أن تصحح ذلك.»

تقول لنا الوثيقة نفسها بالإضافة الى الأعمال المتبعة من طرف الحكومات خلال هذا المؤتمر (الثاني)، فهناك مكان لتفكير مستقل، نقد ومستقبلية، وذلك هو هدف الموتمر، المشروعية التي يتحدث عنها المركز المذكور لا يمكن فهمها بدون الرجوع، ولو بسرعة، الى تاريخ وسلالة «مؤتمر الفرنكفونية، والى ذاكرة الشعوب : ذلك ما يشترط الرؤية نحو المستقبل والإرادة الجماعية في الوصول. ذلك ما يعطي لنظام اجتماعي حدا أدنى من التماسك على مستوى القيم والغايات. كتب جان مارك تيجيي Jean Marc Tigier, وهو أحد أكبر رواد الفرنكفونية في عدد غشت 88 من جريدة لومند ديبلوماتيك أنه؛ «منذ ثلاثة عقود تقريبا، اتخذت الفرنكفونية مظهر ورش عريض..» إنه إدراك مبرر تاريخيا لكندي فرنكفوني. وبدون معارضته، لا أعتقد أن أغلبية 290 مليون من رعايا الأعضاء 35 في «مؤتمر الفرنكفونية» ستوافقه على ذلك. لا يجب مزج النسيان الإرادي الذي يهدف الى محو حقد الماضي بصفة واعية، والذي أبدته أغلبية شعوب المستعمرات القديمة من جهة، والنسيان أو عدم الوعي بعواقب وامتداد هذا التاريخ، فحتى الذكاء الاصطناعي يحتاج الى ذاكرة ليشتغل.

إن التاريخ الراهن يبرهن لنا على ما كان عليه في إفريقيا، عمر وحياة المؤسسات ذات النزعة الفرنكفونية، ماذا كان سيحدث لو أن مقر وكالة التعاون الثقافي والتقني...» كان بإفريقيا؟ ان التصور الجيوسياسي - ثقافي لـ «الفرنكفونية»، كما برزت، قد سهل المحافظة على انقسام إفريقيا، وأخر بصفة، مباشرة أو غير مباشرة، التكتل الاقتصادي للجهات في إفريقيا. إنها تروج نموذجا لتنمية التخلف في إفريقيا، إنها تشجع الى التسول وتحفز على الصدقة ملفوفة داخل غطاء مساعدة.

المؤتمر الفرنكفوني والعالم الإسلامي العربي

إذا تحدثنا لغة الاحصائيات، هل يمكن أن نقول إن الفرنكفونية تتمتع بالأغلبية داخل «مؤتمر الفرنكفونية»؟ على 290 مليون من رعايا 35 عضوا في «مؤتمر الفرنكفونية، نجد 105 مليون مسلما (36٪)، 19 مليونا يتحدثون الفرنسية (31٪). ،80 مليون يتحدثون العربية (28٪) في المجموع، نجد في إفريقيا 100 مليون مسلم على مجموع 190 مليون من رعايا مؤتمر الفرنكفونية. (53٪ في المجموع)، ٨٠ مليون يتكلمون العربية (42٪) و19 مليون يتحدثون الفرنسية (10٪، ولو أن الجزائر (24 م.ن)، وهي البلد الأول الناطق بالفرنسية بعد فرنسا، كانت عضوا في «مؤتمر الفرنكفونية» لعرفت هذه الأرقام ارتفاعا كبيرا.

إن ثقل العالم الإسلامي لا يتمثل فقط في النمو الديموغرافي ولكن أيضا على مستوى المنظمات غير

الحكومية.

من جهة أخرى فإن تقسيم إفريقيا الى «شمال» و«جنوب الصحراء» مسألة مصطنعة. فليس هناك إلا لبنان، الدولة العربية العضو في «مؤتمر الفرنكفونية» التي ليست إفريقية.

ثلاث عرب على أربعة هم أفارقة،. وإفريقي واحد على ثلاثة أفارقة عرب. من جهتي، كمغربي، أرفض هذا التقسيم الثنائي الذي يعتدي على الوحدة الثقافية لهذه القارة.

مختصر موضوع للدكتور المهدي المنجرة شارك به في ندوة كيبك على هامش قمة الفرنكفونية (1987)

MAGHREB ET FRANCOPHONIE,

Le Premier Sommer Francophone: Instrument des Relations Internationales?

Colloque "Les Sommets Francophones" Centre Quebecois de Relations Internationales, Canada, 87/08/30.

Français, Arabic

EConomica, Paris, France, 1988, LES SOMMETS FRANCOPHONES, "CHoix" 88/111, CQEI, Quebec, Canada; LE MATIN, 87/09/15-21; 89/01/08, Casa; AL ALAM, 88/12/28, LONDON, UK. AL WAHDA AL KOUBRA, 90, Tetouan.

هوامش :

1) كزافييه دينيه دو Xavier Deniau ـ الفرنكفونية سلسلة ماذا أعرف؟ - ؟ PUF, Que sais-je - باريز 1983.

2) جاك صيلارد Jacques Cellard .

3) ليبولد سيدار سنغور.

4) الحبيب بوقيبة.

5) - Francophonie et commonwealth my the ou realite? choix CQRL, 78 - "La coopération internationale entre pays francophones", CQRL, 74.

الفرنكفونية والعلاقات الدولية(*)

الكتاب الذي أقدمه اليوم، والذي يحمل عنوان «المغرب العربي والفرنكفونية» يمكن - في اعتقادي - أن تتم قراءته بعدة طرائق، ولكن أعتقد أنه من الضروري أن أقدم توضيحا يتعلق بالسياق الذي ولد فيه.

فهو ليس كتابا يتناول اللغة الفرنسية، ولا الثقافة الفرنسية، في حد ذاتها، بل هو كتاب يتموضع في مستوى دراسة العلائق الدولية، فمنذ سنة 1986 ظهر نوع من اللقاء السنوي يطلق عليه اسم «القمة الفرنكفونية»، وقد عقد مؤتمر القمة الفرنكوفونية الأول في فرنسا، بباريس، في فبراير 1986. وهنا ينبغي التمييز بين مؤتمر القمة الفرنكفوني، والمؤتمر الفرنسي - الإفريقي، (مثل الذي عقد مؤخرا بالمغرب)، وهو مؤتمر سابق للمؤتمر الفرنكفوني. فالمؤتمر الفرنسي - الإفريقي هو مؤتمر تلتقي فيه فرنسا مع مسؤولي بلدان كانت تتحمل في الماضي مسؤولية علاقاتها الدولية، أي المستعمرات والمحميات السابقة. أما المؤتمر الفرنكوفوني فهو شيء آخر، لأنه يضم - بالإضافة الى المستعمرات السابقة - بلدانا فرانكوفونية أخرى،. أوربية، مثل بلجيكا واللوكسومبورغ كما يضم كذلك الكيبيك. وقد حدث مشكل كبير - على مستوى العلاقات الدولية - حول ما إذا كان من حق الكيبيك أن تمثل في مؤتمر دولي، وذلك منذ عهد الرئيس شارل دوغول.

- عمل جماعي :

إذن، أريد أن أموضع هذا الكتاب في إطار مؤتمر القمة الفرنكوفونية، لأن المؤتمر الفرنكفوني الثاني عقد في الكيبيك، وبمناسبة انعقاد هذا الموتمر نظم مركز العلاقات الدولية بالكيبيك مناظرة حول مستقبل هذا المؤتمر الفرنكوفوني. وكان من بين الحاضرين الذين تم استدعاؤهم لحضوره ثلاثة أشخاص من المغرب العربي، هم بكار التوازني، وهو وزير تونسي سابق للصناعة والتجارة، يتولى حاليا منصب الكاتب العام للغرفة التجارية الفرنسية - العربية (بباريس)، والسيد سليمان الشيخ، الذي كان يشغل منصب عميد جامعة الجزائر، وهو حاليا وزير للتعليم، بعد التغييرات الأخيرة، بالإضافة الي، أنا شخصيا، كأستاذ جامعي من المغرب.

وعلى إثر المناقشات التي جرت على هامش المناظرة المذكورة فكرنا في تجميع أفكارنا، حول

(×) 1989

المؤتمر الفرانكفوني أو الفرانكفونية، وتقديم وجهة نظر مغربية حولها، وسوف لن أتحدث هنا عن الأقسام الأخرى، لأنني واحد من المؤلفين، ولكنني أشير باختصار الى أن سليمان الشيخ يوضح الطريقة التي تمت بها محاربة اللغة العربية خلال سنوات طويلة في الجزائر، ويقول، بروح جد متفتحة، بأنه من غير الممكن أن نطلب من أناس أن ينسوا، بين عشية وضحاها، 130 سنة، تعرض خلالها شيء حميمي بالنسبة إليهم، وهو لغتهم الأم، لغتهم الوطنية، لحرب شرسة، الى الحد الذي جعلهم يعانون اليوم من شكل من الاستلاب الثقافي لا يرجع الى وجود اللغة الفرنسية في حد ذاتها. بقدر ما يرجع الى الطريقة التي حوربت بها اللغة الأم، أي اللغة العربية... وأطروحة سليمان الشيخ هي أنه لا يمكن الحديث عن الفرنكوفونية دون التفكير في هذه السنوات الطويلة التي تمت خلالها محاربة اللغة العربية.

الاشكالية التونسية أقل خطورة، لأن التونسيين احتفظوا دائما بنوع من الازدواجية اللغوية، التي تمكن الناس من الانتقال بسهولة من لغة الى أخرى، وهي ربما من خصوصيات بلدان المغرب العربي التي لا يعاني فيها الناس من اختلاف في التوازن، فهم مرتاحون تماما بلغتهم الأم، أما الفرنسية فهي بالنسبة اليهم لغة يستعملونها كأداة ثانية، كما يمكنهم أن يتعلموا لغة ثالثة أو رابعة...

فيما يخص الدراسة التي ساهمت بها في هذا الكتاب، فهي دراسة للعلاقات الدولية، وأكرر مرة أخرى، أنها لا تتهم إطلاقا اللغة الفرنسية - التي أستعملها الآن أمامكم - الشيء الوحيد الذي ألح عليه، كظاهرة من ظواهر العلاقات الدولية، هو أنه ليست الفرنسية، بل مفهوم الفرنكوفونية، - وهناك فرق كبير بين اللغة الفرنسية، والثقافة الفرنسية من جهة، والفرنكوفونية التي يفترض أنها تضم كل البلدان التي تستعمل فيها اللغة الفرنسية، والثقافة الفرنسية من جهة، والفرنكوفونية التي يفترض أنها تضم كل البلدان التي تستعمل فيها اللغة الفرنسية. إذا أقول، إن مفهوم الفرنكوفونية لا يمكن فصله عن سياقه التاريخي المرتبط وراثيا بالمرحلة الاستعمارية، وكذلك بمرحلة تصفية الاستعمار التي لازالت لم تكتمل بعد، وبالتحولات الإيجابية التي تحملها هذه الأخيرة (تصفية الاستعمار) على المستويين المتوسط أو البعيد.

وبالنسبة إلي، أقول كأحد هواة الدراسة المستقبلية، بأن مستقبل اللغة الفرنسية والثقافية الفرنسية، في حد ذاتها، في مواجهة الهيمنة الثقافية التي تتربص بالانسانية، يهمني كثيرا، أي أنه حتى بالنسبة لشخص يفكر في نوع من التوازن الثقافي العالمي، لا يمكن في لحظة تعرف فيها بعض اللغات مثل الانجليزية، اليوم، ومثل الاسبانية، نموا بعد أقل من 15 أو 20 أو 30 عاما - حيث ينتظر أن تصبح اللغة الأولى في الولايات المتحدة قبل سنة 2030، (قد يبدو ذلك بعيدا جدا، بالنسبة للبعض ولكن الحقيقة هي العكس تماما)، اللغة الأولى في الولايات المتحدة إذن ستكون هي الاسبانية. فإذا علمنا أن نصف الولايات الامريكية

الخمسين تستعمل منذ الآن الاسبانية كلغة رسمية في كل الادارات وفي كل الوثائق، وإذا أضفنا الى ذلك وزن أمريكا اللاتينية، ونسب النمو الديموغرافي في اواسط السكان من اصل إسباني، في الولايات المتحدة، فان الاسبانية ستصبح على الأقل من حيث عدد الذين يتكلمون بها، لغة قد تكون مرة أخرى عنصرا للهيمنة الثقافية.. إذن، ما أريد أن أقوله هنا هو ان ما سوف يحدث للغة الفرنسية او الثقافة الفرنسية، يكتسي أهمية كبرى ـ ليس بالنسبة للغة الفرنسية في حد ذاتها، بل بالنسبة اليها كعنصر توازن، حتى لا يجد العالم كله نفسه مؤطرا بتيار ثقافي واحد، كيفما كان نوعه، سواء كان انجليزيا أو يابانيا أو صينيا أو هنديا أو برتغاليا...

الفرنكوفونية .. واللغة الفرنسية

ما أقصده إذن هو انني أضع جانبا اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية.، لأنني أعتبر انهما يمثلان ـ في اطار العلاقات الدولية ـ عنصر توازن. إنهما يتيحان للناس امكانيات متعددة للانفتاح على الثقافة العالمية، وليس فقط على تيار واحد تتزايد هيمنته باستمرار وهو التيار الأنجلوساكسوني.

عندما نأخذ مفهوم الفرنكوفونية وانا لا اتحدث هنا مرة أخرى عن اللغة الفرنسية، بل عن الفرنكوفونية، عندما ناخذ هذا المفهوم كاساتذة جامعيين وباحثين، فاننا نتعامل معه ـ كما نتعامل مع اي موضوع كان ـ انطلاقا من مقياس معروف، وهو اننا لكي نأخذ اي موضوع بجدية، في العالم الاكاديمي، فان المؤشر الوحيد الذي نتوفر عليه هو عدد الاطروحات والأبحاث التي كتبت حوله. لان اي موضوع جدي على صعيد المعرفة، يشكل، عاجلا او أجلا موضوع بحث على المستوى الجامعي.

يوجد في فرنسا نظام اخبار اعلامية، يسمى تيليتين، يمكن استفساره بطريقة المنيتيل، ليعطيك مواضيع كل الأطروحات التي قدمت في كل الجامعات الفرنسية من 1972 الى سنة 1987، اي طوال الـ ١٥سنة الأخيرة... عندما استفسرت بنك المعطيات الفرنسي هذا، حول ما أنجز في الجامعات الفرنسية حول الفرنكوفونية، حصلت على بحث واحد، انجزه طالب جزائري يسمى محمد موكول، وكان موضوعه : «الفرنكوفونية والعربوفونية». وهو بحث تم إنجازه في سنة 1974 في جامعة باريز السابعة. كما وجدت رسالتي دكتوراه للسلك الثالث، الأولى من انجاز طالب ياباني ـ واليابانيون يفعلون كل شيء ـ يسمى أوديرا، عنوانها : «وجهة نظر يابانية حول العلاقات التجارية بين اليابان والدول الفرنكوفونية» كان يريد أن يفهم ماذا يحدث. وكيف تؤثر الفرنكوفونية على السوق. أما الأطروحة الثانية للسلك الثالث، فقد أعدها طالب إفريقي «امبوسو» حول موضوع «افريقيا الغربية الفرنكوفونية»، في جامعة باريس الأولى، سنة 1986، أما رسالة الطالب الياباني فقد قدمت في جامعة تولوز سنة 1984.

تعهير ثقافة و لغة

ما هـو الدرس الأول الذي ينبغي استخلاصه من هذه المعطيات : ليس هناك أي فرنسي، من أصل فرنسي، في مجموع عالم المعرفة وعالم البحث الفرنسي، وبكل الأموال التي يتوفر عليها المركز الوطني للبحث العلمي، وبكل الأموال التي يمنحها عالم الفرنكوفونية من أجل تشجيع اجتماعات النجارين الفرنكوفونيين، والرياضيين الفرنكوفونيين، ولاعبي الغولف الفرنكوفونيين، وكل ما شئتم من الفرنكوفونيين، (يكفيكم أن تضعوا وراء أي شيء كلمة فرنكوفونية لتحصلوا على المال الذي تريدون من أجل تنظيم اجتماعات وتظاهرات...).. إذن بالرغم من كل هذه الإمكانيات، فإننا لا نجد باحثا فرنسيا واحدا، تكرم وتفضل باعتبار مجال الفرنكوفونية جديا بما فيه الكفاية لكي يشكل موضوعا لبحث - هذه معطيات موضوعية، ولا دخل فيها لأي اعتبار ذاتي - والوحيدون الذين كلفوا أنفسهم عناء القيام بدراسات في هذا المجال كانوا أجانب، جزائري، وياباني، وإفريقي... إذن، المسألة لا تذهب بعيدا.

في مجال المعرفة، وانطلاقا من هذا المؤشر، يمكن القول بأنهم يوجعون أدمغتنا بهذه الفرنكوفونية، من الصباح الى المساء، مع برامج «إيرفي»، و«ميدي 1» و«القناة التلفزيونية المغربية الثانية» التي ستكون في أغلبيتها فرنسية، وكل هذا العالم... ومع ذلك فإن الحقيقة ماثلة أمامنا، صارخة، وهي أن الناس الجديين لا يأخذونها بجدية، بدءا من الفرنسيين أنفسهم. وهذا معطى. وهذا الكتاب، ليس نقدا للغة الفرنسية، بل هو في الواقع دفاع عنها، لأنه من المؤسف حقا أن يتم تعهير (Prostituer) هذه اللغة، الكونية، التي ساهمت في إغناء التراث الثقافي الانساني، وأعطت الشيء الكثير، سواء في مجال الأدب أو العلوم أو الطب أو الدين... من المؤسف حقا أن يتم تعهيرها، على المستوى الدولي، من أجل خلق أسواق، ومن أجل تكريس هيمنة سياسية، ومن أجل إبقاء أناس أو رؤساء دول، في حكم، ما كانوا ليستمروا فيه 24 ساعة لولا الفرنكوفونية... إنني أسمي هذا تعهيرا لثقافة، وأنا أزن كلماتي جيدا، وللغة، تستحق أفضل من ذلك.

وأقدم هنا مثالين. هناك أولا جورج شحادة الذي توفي في لبنان، وهناك أيضا ماجدة وهبي، وهي ربما من أكبر الاختصاصيين في اللغة الفرنسية، في مصر، والتي أرسلت إليها هذا الكتاب، فبعثت إلى برسالة تقول فيها: إنني قرأت هذا الكتاب ثلاث مرات، وقد بكيت تقريبا بعد قراءته. أين هي أيام زمان التي كان يمكن فيها للبعض منا، ممن يتقنون اللغة الفرنسية، أن يعتبروا أنفسهم جزءا من عالم واحد، فاليوم هناك «هُم»، وهناك «نحن». هُم، الفرنسيون من أصل فرنسي، الذين يكتبون بالفرنسية، ونحن الذين نتكلم الفرنسية، والذين أصبحنا فئة ثانية، نعتبر فرنكوفونيين لأننا نستعمل اللغة الفرنسية.

وأنا أتذكر كذلك نقاشا طويلا مع الطاهر بن جلون، في سنة 1981 بباريس، عبر فيه عن قلقه. وبالرغم

من أنه الآن عضو في المجلس الأعلى للفرنكوفونية، بعد استدعائه من طرف الرئيس ميتران، فإنه لم يغير وجهة نظره. لقد انتقد الطاهر بن جلون هذا التصنيف المرتبط بكلمة فرانكوفونية، حيث أن تسمية شخص ما بأنه كاتب فرانكوفوني، أو شاعر فرانكوفوني، لا يعني أنه كاتب فرنسي أو شاعر فرنسي. لا. هذه فئة خاصة، إنهم فرنسيون، أما الآخرون فإنهم كتاب فرانكوفونيون. وهو نفس ما حدث على مستوى الجامعات. ففي الماضي كان هناك تصنيف واحد. أما اليوم فهناك الفرنسيون، ثم الأجانب الذين يأتون في الدرجة الثانية. إنهم فئة أخرى.

هذه الحركة الفرنكوفونية، التي يُزعم أنها تستهدف - في جوهرها - تحقيق تقارب بين الناس، خلقت في الواقع حاجزا بين من يستعملون اللغة الفرنسية ويساهمون في الثقافة الفرنسية، وهم فرنسيون، يتوفرون على جواز سفر فرنسي، يحمل علامة الانتماء الى المجموعة الاقتصادية الأوربية اليوم، وبين الآخرين، كل الآخرين، الذين هم مجرد فرانكوفونيين، تمنح لهم تارة جائزة الغونكور، وتارة أخرى جائزة فيمينا... وهذا شيء رائع!.. انظروا الى هذا التسامح الفكري الذي يجعلنا نقبلهم بيننا. إنهم جديرون بالتكريم. ولكن حذار، إنهم ليسوا كتابا فرنسيين! فالكاتب الفرنسي هو كاتب فرنسي، وكل كاتب آخر غير فرنسي، هو كاتب فرانكوفوني...

إذن ما انتقده، ليس هو اللغة الفرنسية، لأنني استعمل هذه اللغة، وأكتب بها، كما أكتب بغيرها، وأنا شديد الاعتزاز بمعرفتها، ولن يخطر ببالي أن ننتقد لغة قدمت الشيء الكثير لتاريخ البشرية... لقد قضيت جزءا مهما من حياتي في التعاون الدولي، وأعرف ما هي مساهمة الثقافة الفرنسية.. ولكنني أنتقد مفهوما سياسيا، يكتسي طابعا استعماريا جديدا، لا يقبل واقع تطور الأشياء ويريد التعلق بشيء نبيل مثل اللغة الفرنسية من أجل استعمالها كوسيلة للتفاوض من أجل إبقاء الوضع القائم على ما هو عليه، ومنع التغيير في بعض البلدان، بل أكثر من ذلك، استعمالها كوسيلة لمحاربة اللغات الوطنية واللغات الأم...

لم يحدث أبدا، بالنسبة لأبناء جيلي، صراع في هذا المجال. كنا نذهب في الصباح الى «المسيد»، ثم نذهب إلى مدرسة أبناء الأعيان ثم إلى الثانوية، كنا نتابع دروسا للغة العربية بالثانوية، وكنا نتابع دروسا إضافية في أماكن أخرى، ولم يخطر ببالنا إطلاقا - على الأقل بالنسبة لزبناء جيلي - أن هناك تعارضا بين اللغتين. الشيء الوحيد الذي كنا نعرفه هو أن اللغة العربية، هي اللغة الأم، هي منبع جذورنا، والتجسيد الحي لهويتنا، أما اللغة الفرنسية أو الاسبانية (في المنطقة الشمالية) فهي تفتح لنا نوافذ على ثقافات أخرى.. لم يكن هناك تناقض أوتعارض على الإطلاق. هذا النقاش الذي نعيشه حاليا حول العربية والفرنسية، هو مشكل مصطنع، افتعله أناس يحرصون على الدفاع عن اللغة الفرنسية، بمنطق الذي لا يقبل شريكا... أنا أو لا

شيء. الفرنكوفونية أو لا شيء. هذا غير معقول!

في عالم الحرية هناك حد أدني للاختيار. بالعكس، إن معرفة لغة ثانية يمكن أن يكون أكثر إفادة، إذا كنا نسيطر على لغتنا الأم، إن أفضل علماء التربية في العالم، وهو بياجي، الذي توفي قبل بضع سنوات، يبين الى أي حد نسيء الى طفل، الى حدود سن السابعة، إذا عرضناه للغتين مختلفتين مع أمه في وسطه العائلي، وفي المدرسة. فالشخص الذي يتكلم العربية مع أبويه، ويذهب الى الثانوية حيث يتعلم كل شيء باللغة الفرنسية، يتعرض لسكيزوفرينيا (فصام) ثقافية تكتسي خطورة كبيرة. وبالمقابل فإن الشخص الذي يكتسي شخصيته أولا في المحيط الذي يعيش فيه، والذي يتوفر، سواء أردنا ذلك أم لم نرده، على نسق من القيم، والذي يتكلم لغة ثانية أو ثالثة أو رابعة - بعد تثبيت هذه الشخصية، يتوفر أولا على أكبر الحظوظ للسيطرة على اللغات الأخرى، ويصبح ثانيا، شخصا متوازنا.

استلاب ثقافي

ولكن في هذا العالم الفرنكوفوني، نعيش مع أشخاص مستلبين ثقافيا، سواء أرادوا ذلك أم لم يريدوا، والملجأ الوحيد أمامهم هو القول بأنهم مع اللغة الفرنسية أو مع اللغة العربية، وهو نقاش زائف. لأننا لا يمكن أن نكون ضد لغة يتكلمها 25 مليون نسمة... في هذه الحالة ما على خصوم هذه اللغة إلا أن يحملوا حقائبهم ويتوجهوا الى حيث لا يتحدث الناس سوى تلك اللغة التي يعشقونها.. فالأبواب مفتوحة، وهناك حرية تنقل، في هذا البلد، هناك طائرات،، وأسعار خاصة، ورحلات. فليذهبوا... ليس هناك مبرر بالنسبة لأشخاص لا يتملكون ثقافة بلدهم ولا يشعرون بالراحة فيه، لأن يتعلقوا بمفهوم ثقافي خاطئ ولا علاقة له بحب اللغة الفرنسية أو بالدفاع عنها، بل بالعكس، بهذه الوسيلة يتم تحديد مجموعة من المهمشين، الذين يوجدون خارج السياق العام لبلدهم، والذين لا يوجدون إلا في هذه الأوساط، ولا يمكنهم بالتالي أن يقدموا أو يساهموا بأي شيء. وبالخصوص للغة الفرنسية، لأنني أفضل أن أقرأ لشخص من أصل فرنسي، يعبر عن اللغة والثقافة الفرنسية، أكثر مما أفضل القراءة لفرنسي زائف، اختار هذا النهج كنوع من التعويض - كما يقال في علم النفس - لأنه لم يستطع أن يكون شيئا آخر. إنني أفضل الرجرع الى النبع. لماذا تريدون أن تفرضوا علي كتابا رديئين بالفرنسية، فقط لأنهم يعتبرون فرانكوفونيين، وثم تشجيعهم بمنح دراسية، ويذهبون الى المراكز الثقافية الفرنسية، وتفتح أمامهم كل الأبواب... وهم في الحقيقة، ليس فقط لا يتقنون لغتهم الوطنية، بل حتى اللغة الفرنسية، فنحن إذن أمام سياسة ثقافية تسيء إلى فرنسا، لأنها لا تهدف إلى تحقيق أهداف ثقافية، بل إنها تهدف إلى تحقيق أهداف سياسية.

وإذا أردتم أن تروا إلى أي حد يمكن أن يصل التخريف أو الهذيان، سأقدم لكم استشهادين مهمين،

في تطور ما يسمى بالفرنكوفونية، وهما استشهادان طريفان يمكن تأطيرهما وتعليقهما في مكان ما، وهما صادران عن شخصين محترمين، أولهما ليوبولد سانغور، الذي أعرفه منذ ثلاثين عاما وهو زميلي في الاكاديمية، وأحد رؤساء الدول الأكثر مثالية لأنه عرف كيف يترك الحكم في الوقت المناسب، وهو شاعر قبل كل شيء، لم يستغل السلطة من أجل مراكمة الثروة ولا من أجل أي شيء آخر.. وهذا شيء نادر، وهو رجل أحترمه كثيرا... ولكنه رجل حصل على التبريز في النحو الفرنسي، وفي اليونانية وفي اللاتينية، وعاش خلال عدة سنوات في سياق معين في الجمهورية الفرنسية الرابعة، ووجد نفسه يعين في قمة السلطة في بلاده من طرف قوى استعمارية ـ وهذا شيء أقوله أمامه ـ ووجد نفسه بالصدفة في قمة بلد يعتقد أنه لا يمكن إنقاذه إلا بواسطة اللغة الفرنسية! إنه لا يشعر بالإرتياح أمام لغة «الوولوف» ولا أمام لغة «البامبارا» ولا أمام لغة «البول» بل إنه حارب تطور اللغات الأم الافريقية.

لقد عملت باليونسكو خلال سنوات 1961-1962-1963، وكنت مضطرا للطواف على مجموع القارة الافريقية لكي أجد بلدا يقبل استضافة اجتماع حول اللغات الافريقية الأم...، قضية علمية!. كل الناس في الحكومات كانوا خائفين، وقد اضطررنا لعقد الاجتماع في الكاميرون، لأن هذا البلد كان في ذات الوقت بلدا فرانكوفونيا، وانكلوفونيا!..

ولكن أي مساس بفرنسا كان يمثله الذهاب عند سانغور لتنظيم مناظرة حول اللغات الافريقية الأم؟!

على كل حال، سانغور ـ وربما كان علينا أن نعزو ذلك إلى اندفاعاته الشعرية ـ عرف الفرنكوفوني بهذه الجملة، التي تستحق فعلا أن تحلل، ليس من طرفي، بل من طرف محللين نفسانيين... يقول سانغور معرفا الفرانكوفونية :«الفرنسية (ونحن هنا أمام أسلوب سنغوري صرف، وسوف ترون كيف ينتقل من المفرد الى الجمع) الفرنسية، هم الأرغونات الكبرى الأكثر عذوبة، مثل إبراقات العاصفة. مثل نوبات الناي في غابات الطام طام، إن الكلمات الفرنسية تشع من ألف نار، مثل شهب تضيء ليلنا».

من حق السيد سنغور أن تكون له آراؤه الخاصة، ومن حقه أن تكون له اندفاعاته الشعرية، ولكن عندما نتحدث عن لغة، وخصوصا إذا كان الأمر يتعلق بشخص حاصل على شهادة التبريز في النحو الفرنسي، وبالنسبة لشخص ليس غريبا عن السيميولوجيا واللسانيات، عندما نصل الى هذه المستويات في التعبير والتدقيق، نبدأ في التساؤل عن طبيعة الشخص المعني!..

هناك استشهاد آخر، وهو هذه المرة لشخص فرنسي، هو «كزافيي دونيو» الذي يتحدث عن الفرنكوفونية فيقول إنها مفهوم يمكن نعته بالصوفية (أوالروحانية) mystique ! ـ إنها الصوفية إذن، ولو تحدث شخص آخر عن نفس الشيء لاعتبر من الإخوان المسلمين أو من المتطرفين! ـ «هذاالموقف يتميز

بإجلال كبير للغتنا». وبعد ذلك يقول : إن اللغة الفرنسية تحظى بإجلال كبير في العالم، وهذه اللغة تتوفر على نوع من التفوق إزاء كل اللغات المستعملة في العالم»!.. هذا الكلام كتب سنة 1983، في سلسلة «ماذا أعرف؟» (التي تصدرها المنشورات الجامعية الفرنسية (PUF)، في كتاب يحمل عنوان «الفرنكوفونية» لـ «كزافيي دونيي»!

كيف يعقل أن يكتب شخص في سنة 1983،مثل هذا الكلام، الذي يكشف عقدة تفوق تعبر في الحقيقة عن مركب نقص، كيف يعقل أن يكتب أن اللغة الفرنسية متفوقة على كل اللغات الأخرى؟! هذا هو المرتكز الحقيقي للفرانكوفونية. إنها مفهوم أو تصور خاص بمرضى - وأنا أزن هنا كلماتي جيدا - وفي حالة هذا الفرنسي الذي يكتب هذا الكلام في سنة 1983، آخذ فقط المنشورات الصادرة فقط في نفس السنة، أنظر فقط الى منشورات المركز الوطني للبحث العلمي في فرنسا (CNRS)، زبدة فرنسا. ماذا أجد؟ أجد أن ثلثي منشورات المركز كانت بالأنجليزية خلال هذه السنة! فكيف حدث أن هذه اللغة «المتفوقة» لا يكتب بها باحثان من ثلاثة، في فرنسا؟! إن هؤلاء الباحثين مضطرون، أولا لكي يتم الاعتراف بهم في فرنسا، لأنهم إذا لم ينشروا في الفيزياء أوالكيمياء أو البيولوجيا أو علوم الفضاء أو المواصلات أو الروبوتيك... في مجلة انجليزية، فإن الفرنسيين أنفسهم لن يأخذوا أعمالهم مأخذ الجد!

إذن، فهؤلاء العلماء يجبرون على استعمال لغات أخرى أكثر تقدما. وكيف تريدون في عصر، تظهر فيه كل سنة 40 ألف كلمة جديدة في اللغة العلمية، 40 الف كلمة، أي أكثر من عدد الكلمات الموجودة في «لاروس»! أن نقبل مثل هذا الكلام. في الوقت الذي نعلم فيه أن الأكاديمة الفرنسية تقضي سنة كاملة في البحث عن تسع كلمات؟!

أنا لا أقول أن اللغة الفرنسية أقل قيمة من اللغات الأخرى.. فقد بدأت عرضي هذا بالدفاع عنها. ولكن أن يصل هذا لدفاع الى حد القول بأنه لا يوجد شيء آخر غيرها، إنها لغة تحظى بنوع من الإجلال، وأنها لغة صوفية أو روحانية! فمعنى ذلك أننا أمام أناس يمكن القول، بالرغم من أنني لست طبيبا نفسانيا، أنهم يستحقون علاجا نفسيا. فنحن نتحدث عن أشياء جدية. عن لغة، وثقافة، بل عن مستقبل هذه اللغة وهذه الثقافة... ولكن الأمر يتحول إلى نوع من الأبراتيد : ليس هناك إلا الفرنسية، ولا شيء آخر غيرها!

أكتفي بهذين الاستشهادين، مع أنه يمكنني أن أقدم لكم فقرات للسيد بورقيبة الذي أطلق الفرنكوفونية، أو السيد حماني الديوري... ولكن يكفي أن ننظر الى ما يحدث لكل الذين بفعلون ذلك... فهم يستمرون في مواقعهم طالما استمرت الفرنكوفونية، التي تدافع عنهم، وليس عن ثقافة، وسأقدم لكم الأرقام فيما بعد، لتعرفوا السبب. وتعرفوا الوسائل المتطورة - والعمياء في ذات الوقت - التي استعملت للدفاع عن

المواقع في هذه البلدان، بالخروج من الباب والدخول من النافذة، تحت شعار الفرنسية والفرنكوفونية. وعندما تفتح فمك بملاحظة تنعت بقصر النظر، وبالوطنية المتطرفة، وغيرها من النعوت... وهذا غير صحيح، إنني اعترض على ذلك، أنا مستعد للدفاع عن اللغة الفرنسية، في استعمالها، وفي اتقانها، وفي منشوراتها... ولكن مع أشخاص من أصل فرنسي، ولا يمكنني أن أهاجم لغة أعطتني - الى جانب لغات أخرى - الشيء الكثير. ونحن نقول هنا في المغرب : «اللي عندو باب واحد الله يشدها عليه». فلماذا تريدون الحكم على الناس باستعمال باب واحد؟ ولماذا تحددون هذا الباب بشكل قبلي، باعتباره فقط اللغة الفرنسية؟

لن أتحدث عن التأخر التكنولوجي في فرنسا، للغة الفرنسية. كل المهندسين، وكل رجال المعرفة في فرنساو في المواصلات وفي البيوجينيتيك وكل العلوم المتطورة، يعرفون ان فرنسا تعاني من تأخر يتراوح ما بين 10 و 12 سنة، كحد أدنى. وانها تحتاج الى خمس سنوات لنشر آخر المنشورات العلمية الانجليزية، ولذلك يتوجه الناس مباشرة الى الانجليزية ولا ينتظرون قراءة هذه الأبحاث مترجمة.

إذن ينبغي أن نعرف حقيقة الموضوع. ويكفي أن ننظر الى الأشخاص المجتمعين في إطار هذه الفرنكوفونية لكي ندرك كل شيء. إنهم كل الأشخاص الذين قاموا بالخدمة الاستعمارية، وكل قدماء ماوراء البحار...

ومادام المجلس الأعلى للفرنكوفونية، الذي ترأسه السيد فرانسوا ميتران قد عقد بالأمس أو أول أمس، هل تعرفون أن جميع الكتاب الكبار الذين يضمهم هذا المجلس ليسوا من أصل فرنسي؟ هناك كتاب بلجيكيون كبار وكتاب كنديون كبار وكتاب لوكسمبورغيون كبار وهناك كاتب مغربي كبير هو الطاهر بنجلون.. ولكن هل يتفضلون ويتكرمون باستدعاء كاتب حقيقي كبير، من أصل فرنسي، للمشاركة في المجلس الأعلى للفرنكوفونية؟ أبدا... فليستدعوا السيد موريس ذوريان، وليطلبوا منه المشاركة في المجلس الأعلى للفرنكوفونية!ك ليطلبوا ذلك من السيد جان دورمسيون، ليطلبوا ذلك من كل الأسماء التي تمر في «ابو ستروف».. ليطلبوا منهم المشاركة في المجلس الأعلى للفرنكوفونية؟! إنهم سيعتبرون ذلك إهانة لهم.. لأنها تعني تصنيفهم ضمن كتاب الدرجة الثانية. وهم أناس تعودوا على الدرجة الأولى! فاللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية، هم الفرنسيون أولا. صحيح أن هناك أجانب يفهمونها جزئيا، وينبغي أن نبحث لهم عن شيء يؤطرهم و«يحميهم» ولكن اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية تهم الفرنسيين أولا!..

سأنهي عرضي بملاحظة أساسية، نفس الرئيس ميتران - حسب صحيفة «لوموند» الصادرة امس (9 فبراير 1989) - نفس الرئيس الذي استدعى المغني «توري كوندا»، صرح قائلا «إنني اهيم بكل الفولكلور الذي يساير الفرانكوفونية»!.. إذن ينبغي أن يكون هناك رسام فرانكوفوني، ومغنية فرانكوفونية، ولم لا

راقصة بطن شرقية فرانكوفونية... رياضي فرانكوفوني!..

وأريد بالمناسبة شخصا يفسر لي، ونحن على أبواب احتضان ما يسمى بالألعاب الفرانكوفونية في بلادنا، الفرق بين سباق 400 متر حواجز فرانكوفوني، وآخر انكلوفوني، وثالث عربوفوني، ورابع ساكسوفوني، أريد أن أعرف الفرق.. ما هي العلاقة بين الرياضة والفرنكوفونية؟ منذ متى كانت هناك علاقة بين مفهوم الرياضة، الذي يرجع الى الألعاب الأولمبية، التي يعود تاريخها الى ما قبل ثلاثة الاف سنة، ومفهوم حديث مثل الفرنكوفونية؟!.

إنني أوكد لكم ـ وأنا لا أسخر هنا ـ أنه إذا قام شخص ما غدا بالدعوة الى عقد اجتماع لبائعي رافعات النهدين الفرانكوفونيين، أو حمالات البنطلونات، فإنه سيحتل مرتبة وسيحصل من الغرفة التجارية الفرنسية ومن المركز الثقافي الفرنسي، على مبلغ من المال مخصص لهذا الغرض! فسواء كنت نجارا أو حلاقا أو أي شيء آخر، يكفي أن تضيف كلمة فرانكوفونية الى التظاهرة التي تعتزم تنظيمها لكي تحصل على كل المال الذي تريده!..

لماذا نتطوع نحن لتنظيم هذه الألعاب الفرنكوفونية؟.. يمكنني أن أفهم «العاب البحر الأبيض المتوسط» لأن الأمر يتعلق هنا بجهة أو منطقة، يمكنني أن أفهم «الألعاب الأوربية» أو «الألعاب الآسيوية» أو «الألعاب اللاتينو ـ أمريكية» أو «الألعاب الافريقية» الخ... ففي ألعاب البحر الأبيض المتوسط يشارك رياضيون من الضفتين الشمالية والجنوبية للبحر المتوسط، وهذا شيء قائم، فالمغرب دولة متوسطية، شأنه في ذلك شأن فرنسا أو اليونان، وفرنسا دولة متوسطية، شأنها في ذلك شأن الجزائر أو تونس أو مصر.. فلماذا يريدون ـ فجأة ـ تعهير (Prostituer) (وأكرر الكلمة. وسأكررها مئة مرة) شيء في مثل جمال اللغة الفرنسية، وفي مثل جمال هذه الثقافة التي أعطت الشيء الكثير للإنسانية، ،إنزالها الى مستوى الحانوتي أو البقال أو الشخص الذي يعمل في سوق البراغيث (الذي تباع فيه السلع القديمة الرخيصة، التي تكثر فيها البارغيث مبدئيا)، والذي يحاول بكل الوسائل بيع البضاعة... إنه شيء محزن، فعلا. وأنا أكرر أن تحليلي هو تحليل باحث في العلوم السياسية وفي العلاقات الدولية.

إذن ماذا قال السيد ميتران، بعد أن غنى السيد توري بطبيعة الحال، في الإليزي؟ قال السيد ميتران : «إن الفرنكفونية ليست هي فقط اللغة الفرنسية». والذي يتكلم هنا هو الشعور الباطن. رئيس الجمهورية الفرنسية، ـ يقول ـ (انظر صحيفة لوموند الصادرة بتاريخ 9 فبراير 1989، الصفحة 3) «الفرنكوفونية ليست فقط اللغة الفرنسية». إذن فهي اللغة الفرنسية، زائد... ماذ؟ ويضيف: «لا يمكن ولا ينبغي فرض سياسة لغوية»، ،لكنه يضيف في ذات الوقت: «إذا لم نتوصل إلى الإقتناع بأن الانتماء الى العالم الفرانكوفوني،

سياسيا، واقتصاديا وثقافيا، يمثل إضافة، فإننا سنكون قد فشلنا في العمل الذي بدأناه منذ عدة سنوات».

إذن لكي تنجح الفرنكوفونية، ينبغي أولا أن لا تكون «هي اللغة الفرنسية وحدها»، وينبغي أن لا تكون فقط مجرد مشروع ثقافي، بل ينبغي أن تكون مشروعا سياسيا واقتصاديا.. الذي يقول هذا، ليس أنا، بل رئيس الجمهورية الفرنسية الذي صرح بذلك أثناء حفل الاستقبال الذي نظمه بالإيليزي، قبل 48 ساعة. وقبل أن آتي الى هنا تكلمت مع الطاهر بن جلون، بواسطة الهاتف، وسألته ـ باعتباره عضوا في المجلس الأعلى للفرنكوفونية ـ قائلا : لقد قرأت هذه الجمل في صحيفة «لوموند»، هل يمكنك أن تؤكدها لي، فقال: «نعم، لقد قال ذلك.. بل إنه قال أكثر من ذلك...»

لقد استعملت جهازي الآلي ، لجمع بعض الأرقام، التي لم تجمع من قبل، وسأقدم بعضا من هذه الأرقام، دون الدخول في التفاصيل، لكي أبين لكم إلى أي حد يمكن اعتبار الفرنكوفونية أكثر من كوميديا، وأنا، بالمناسبة، مولع بالكومديات، ومن منا لا تعجبه كوميديا لبيزانديللوا، أو دانتي، أو شكسبير، أو كوميديا البولفار.. ولكن الأمر هنا يتعلق بكوميديا، نستدعي الناس لمشاهدتها من أجل إضحاكهم، بل من أجل الضحك عليهم أو السخرية منهم!.. وفي الحقيقة عندما نسخر من الناس، ماذا يحدث؟ يحدث أننا في النهاية نسخر من أنفسنا.

إذن سأقدم لكم بعض الأرقام باختصار :

هذا العالم الفرنكوفوني، الذي يسمى القمة الفرنكوفونية التي انعقدت دورتها الأولى بباريس في سنة 1986، وانعقدت دورتها الثانية بالكيبيك في سنة 1987، توقعت في هذا الكتاب أن آخر قمة له ـ إذا قدر لها أن تنعقد ـ ستكون هي قمة دكار، التي يشرف السيد عبدو ضيوف، بكل «عظمته» الجسدية والسياسية، حاليا، على التحضير لها، بكل الاحتياطيات الأمنية التي ينبغي عليه اتخاذها. فبعد الانتخابات المزيفة التي أجراها، وبعدإطلاقه رصاص المدافع الرشاشة على أطفال المدارس، وبعد إضاعته لسنة بيضاء لطلبة الجامعات، يجرؤ على تنظيم قمة فرانكوفونية!..كل مأتمناه له هو التوفيق في مهمته الشاقة!..

وحتى لو انعقدت هذه القمة ـ بكل ما تتطلبه، بطبيعة الحال، من حضور ومن مساعدة أمنية ضخمة، للتأكد من حسن إقامة رؤساء الدول، ونحن نعلم أن هناك أناسا يتوفرون على تجربة مهمة في هذا الميدان ـ حتى لو انعقدت هذه القمة، فإنني أؤكد ـ وأنا مستعد للمراهنة على ذلك ـ أنها ستكون القمة الأخيرة. إنه مفهوم غير قابل للإستمرار. لماذا؟ ها هي الأرقام.. (هناك نيازك des etoiles filantes أو أشياء تستر لمدة سنة أو سنتين، أشياء عابرة.. وهذا يلائم العديد من الناس، إني لا أنتقد فرنسا، بقدر ما أنتقد مفهوما يساهم في تأخير التحولات في القارة التي أعيش فيها، فإذا كانت أفريقيا تعاني من التأخر، وتموت من

الجوع ومن الأوبئة فإنني أقول بأن السبب في ذلك هو الفرنكوفونية.. لأن هناك نخبة في الحكم، منفصلة تماما عن حاجيات السكان. هناك بلدان في القارة الافريقية، إذا لم يدفع فيها المكلفون أجور الموظفين، في نهاية الشهر، بدءا من الدرك، والعسكريين ورجال الجمارك، بل والوزراء أنفسهم الذين يأخذون مرتباتهم في نهاية الشهر، حتى وأن كانت خزائن الدولة فارغة لأن الأموال التي كانت موجودة فيها قد حولت الى حسابات بنكية خاصة في سويسرا! وإذا وقع أقل تحرك، فإن الجيش الفرنسي موجود، بكل قواعده العسكرية، على أهبة الاستعداد للتدخل...

هذا هو ما أرفضه... أن يتم استغلال لغة من أجل تكريس وضعية... وفي نهاية الأمر تكريس سوق. نعم، سوق. وهذا هو ـ بعد البعد السياسي ـ البعد الاقتصادي للمفهوم.

أحد الفرنسيين من الذين لا يمكن الشك في نزاهتهم الفكرية، وهو إيف بورتولو، استدعاه ميتران بعد وصوله الى قمة السلطة في فرنسا، وهو حاليا الرجل الثاني في مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة من أجل التنمية)ططضاهضـ(، في جنيف، كان مكلفا بمركز التوقعات والتخطيط في فرنسا، ووضع تقريرا يسمى «تقرير بورتولو» يبين فيه أن فرنسا تحصل مقابل كل فرنك من المساعدة العمومية التي تقدمها (لأولائك المساكين التعساء الموجودين هناك!..) على ستة فرنكات من التجارة!..هذه ليست أرقامي، بل هي أرقام تقرير بورتولو، المنشور من طرف مركز التوثيق الفرنسي التابع للجمهورية الفرنسية..

إذن. إلى متى يستمر الحديث عن المساعدات؟.. إن الأمر واضح، ومن المؤكد أن هناك طبقة معينة تضمن استمراريتها عن طريق الفرنكوفونية. إنها تستمر بفضل الفرنكوفونية لأنه يتم الإبقاء عليها في السلطة،وتقدم لها المساعدات الاقتصادية، بل يتم الاتفاق عليها.. ولا يهم ما تفعله هذه الطبقة.. فهو دائما جيد.. لم يحدث أبدا أن انتقدت الانتهاكات التي تتعرض لها حقوق الانسان في افريقيا! لا حديث دائما إلا عن إسبانيا في العهد الفرانكوي، أو الاتحاد السوفياتي.. أما ما يفعله رؤساء الدول في افريقيا، سواء في الغابون أو النيجير أو السينغال، أو غيرها، فهو ممتاز، وليس هناك ما يقال عنه.. انهم «أصدقاؤنا» اتركوهم وشأنهم!..

هذا غير معقول. عندما ندافع عن مفاهيم كونية، ينبغي أن ندافع عنها في كل مكان، وبنفس الطريقة، عندما تتخذ مبادرات للدفاع عن حقوق الانسان، ينبغي أن ندافع عن الانسان كإنسان، لا عن السيد «س» أو السيدة «ج» أو «د» تحت ستار الفرنكوفونية. إنها ليست مفهوما للتضامن الانساني.. ولا علاقة لها بالثقافة الفرنسية، التي هي أسمى من ذلك.

والآن سأختتم عرضي ببعض الأرقام :

كل هذا العالم، ما هو؟ إنه 35 دولة، تضم ما مجموعه 290 مليون نسمة. وعندما آخذ هذه البلدان الـ ٣٥ المشاركة في القمة الفرنكوفونية - وأنا أعتمد هنا على إحصائيات البنك الدولي، حول السكان - فأجد أن ناظمي الآلي يعطيني ما يلي : 35 بلدا، مجموع السكان 290 مليون نسمة.

وهذه البلدان الـ ٣٥ تمثل تقريبا خمس أعضاء الأمم المتحدة (أكثر من الربع على أية حال)، ولكنها على مستوى السكان تمثل نسبة أقل بكثير... لماذا؟ لأن هذا العالم الفرنكوفوني هو الأكثر بلقنة. فقد عملت القوى الاستعمارية على تجزئة هذه البلدان، الى كيانات لا يتجاوز مجموع سكان بعضها الستين ألف نسمة!.. في حين أن المجموعات الحقيقية أوالأصلية كانت أكبر من ذلك بكثير. لقد حرصت القوى الاستعمارية، قبل مغادرة هذه البلدان، على تجزيئها، حتى لا تتوفر على الكثافة الضرورية لتطورها، وحتى تبقى تابعة طوال ما تبقى من حياتها.

إذن، السمة الأولى للعالم الفرنكوفوني هي أنه عالم دويلات صغيرة (micro- tats)، فهناك باولو، وساموا، الى جانب أسماء أتحداكم أن تجدوها في أطلس للجغرافيا، اللهم إلا إذا استعملتم عدسة مكبرة! ولكنها موجودة هنا - كبلدان أعضاء تساهم في «إغناء» الفرنكوفونية، التي تتطور في الكاريبي!

هذه هي الملاحظة الأولى حول السكان.

الملاحظة الثانية، حسب المصادر الرسمية لهذا المجلس الأعلى للفرنكوفونية، هي أنه من بين هؤلاء الـ 290 مليون نسمة، فإن عدد الذين يتكلمون اللغة الفرنسية لا يتجاوز - حسب آخر تقرير صادر عن هذا المجلس في سنة 1988-91 مليون نسمة!.. هذا هو العدد الإجمالي للأشخاص الذين يتكلمون اللغة الفرنسية، في الكرة الأرضية.. لست أدري ان كان هناك من يتقن اللغة الفرنسية، في القمر أو في المريخ أو الزهرة، ولكن الذين يتكلمون الفرنسية في الكرة الأرضية لا يتجاوزون - حسب المصادر الفرنسية - 91 مليون نسمة!.. وهذا يمثل 1.9٪ من سكان العالم.

ولكن علينا أن ننتبه، لأن المجلس الأعلى للفرنكوفونية وضع معيارا، فهناك الفرنكوفونيون الذين يتمثلون في ماسحي الأحذية الذين يقولون لك «ميرسي» بعد حصولهم على «أجرة» «عملهم»... هؤلاء يعتبرون أشخاصا يتكلمون الفرنسية.

ولكن، هناك مفهوم آخر يخص الذين يتقنون اللغة الفرنسية، ودائما حسب نفس المصدر فإن 62 مليون فقط، (من مجموع الـ 290 مليون نسمة الذين يصنفون ضمن الفرنكوفونيين)، يتقنون اللغة الفرنسية!... أي 1.4٪ من سكان العالم.

ولكن علينا أن ننتبه! فضمن هؤلاء الـ 62 مليون،ماذا نجد" هناك فرنسا،حيث نجد الفرنسيين، 45

مليون شخص يتقنون اللغة الفرنسية (هناك 5 ملايين أجنبي لا يحسبون ضمن هذا العدد).. وهناك كندا.. وبلجيكا.. وعندما نجمع فرنسا، وكندا، وبلجيكا، نصل الى 53 مليون نسمة! فماذا يبقى للإنسانية من الأشخاص الذين يتقنون اللغة الفرنسية؟ - ودائما حسب المصادر الفرنسية - : 10 الى 12 مليون شخص!!..

- أليس من المضحك، بل من المثير للسخرية، أن تثار كل هذه الضجة في ٣٥ دولة، حيث يجد كل واحد اتباعه بفضل الفرنكوفونية، ويحصل على ما يريد لأنه من النخبة.. من أجل 10 أو 12 مليون نسمة، من مجموع 290 مليون ممن يسمون بالفرنكوفونيين ، وهو عدد لا يتجاوز 6٪ من السكان الاجماليين للعالم الفرنكوفوني!..

ومع ذلك يتم الحديث عن هذه الفرنكوفونية كما لو لم تكن أي شيء! وأنا أتحدث هنا بلغة الأرقام، ولا أقدم سوى الأرقام الرسمية.

والان وقد وجدنا أن هناك 10،8،7،6 ملايين من الفرنكوفونيين، لنرى شيئا آخر ضمن هؤلاء الـ 290 مليون نسمة.. قد يكون من المهم ربما أن تعرفوا أن من بين هؤلاء يوجد 110 مليون مسلم، يكفي أن تضع مجموع سكان مصر - 55 مليون نسمة - الى جانب سكان المغرب (أما الجزائر فإنها لا تحسب، لأنها لم تشارك في القمة الفرنكوفونية)، لتجد نفسك أمام عالم فرنكوفوني، يدافع عن اللغة الفرنسية، في الوقت الذي لا يوجد فيه سوى 12 مليون شخص يتقنون اللغة الفرنسية، في حين أننا نجد في نفس هذا العالم : أولا 110 مليون مسلم، أي 36٪ من مجموع العالم الفرنكوفوني، ونجد ثانيا، ٨٠ مليون من الناطقين بالعربية في هذا العالم الذي يسمى بالعالم الفرنكوفوني.

ويمكن أن أذكر أسماء هذه البلدان العربية، وأبدأ بمصر، التي دخلت في المجموعة الفرنكوفونية، ولست أدري لماذا؟ ربما لأنها طردت من الجامعة العربية. نفس الشيء بالنسبة للمغرب الذي دخل الى عالم الفرنكوفونية ربما لأنه انسحب من منظمة الوحدة الإفريقية!.. هذا هو السبب الوحيد في اعتقادي.. فعندما خرجت مصر من الجامعة العربية، كانت الوسيلة الوحيدة التي تمكنها من اللقاء مع الأفارقة هي الدخول الى الفرنكوفونية. والمغرب - وهذه عملية جد ذكية اهنئ المسؤولين عن السياسة الخارجية عليها - عندما غادر منظمة الوحدة الافريقية لأسباب تهمه، وهي أسباب احترمها كل الاحترام، بحث عن وسيلة تمكنه من اللقاء مع كل رؤساء الدول الافريقية - بالرغم من مغادرته لمنظمة الوحدة الافريقية - ولم تكن هذه الوسيلة شيئاً آخر سوى الفرنكوفونية.

هذه هي أسباب تواجد بلدان، مثل مصر والمغرب، في إطار القمة الفرنكوفونية، ولكن الواقع هو أن هناك 80 مليون شخص ناطق بالعربية، ومع ذلك يسمى هذا عالم الفرنكوفونية! ولو كنت فرنسيا لقلت :

حذار.. إنها أكثر من معجون أفيون. لو حملنا هؤلاء الناس على محمل الجد، فإننا سنسقط في شرك، لأننا نمثل أقلية ضمن هذا التجمع! وغدا أو بعد غد سيتفوقون علينا اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا.. وفي نفس الوقت، ما هو الموقف الذي نجده، في فرنسا إزاء أولئك العمال المهاجرين الموجودين هناك؟ أليس هؤلاء العمال إخوة لنا في الفرنكوفونية؟ ألسنا متضامنين معهم في الفرنكوفونية؟ حيث نقتل واحدا منهم كل ثلاثة أو أربعة أيام...!

لا يمكن أن يكون هناك تناقض الى هذا الحد،، تناقض في الأرقام، أن نكون أقلية وندعي بأن باقي العالم معنا، وأن اللغة الفرنسية هي الأكثر تطورا في العالم!.. في ذات الوقت الذي تواجه فيه مثل هذه الأرقام، وسأكتفي بالحديث عن بلد واحد، هو مصر،التي يمثل مجموع سكانها، لوحدهم، حوالي 20٪ من مجموع سكان العالم الفرنكوفوني، أي أن واحدا من خمسة من العالم الفرنكوفوني، مصري الجنسية!).. كم هو عدد الأشخاص الذين تعتبرهم الإحصائيات الرسمية (للمجلس الأعلى للفرنكوفونية)، فرنكوفونيين؟ أي الذين يستطيعون أن يبيعوا جريدة أو يمسحوا حذاء أو يسلموك مفتاح غرفة الفندق أو يقومون بمهمة الدليل السياحي، بفرنسية مكسرة.. حتى هؤلاء لا يمثلون سوى 0،4٪ من السكان المصريين! كم هو عدد المصريين الذين يتقنون اللغة الفرنسية - حسب الإحصائيات الفرنسية - من مجموع السكان المصريين الذين يصل عددهم الى 53 مليون نسمة؟ 0،2٪.. ومع ذلك فإن السيد بطرس غالي، وزير الدولة للشؤون الخارجية، يأتي لتمثيل مصر في مؤتمر القمة الفرنكوفوني - وينبغي الاعتراف هنا بأن مبارك لم يتجشم أبدا عناء التنقل لحضور هذه المؤتمرات - ولا شك أن للسيد بطرس أسبابا أخرى للقيام بذلك، وأنا لا أريد هنا أن أهاجمه، ولكنني أعرفه، كباحث، منذ سنوات.. وقد «بحث» ونجح في الحصول على منصب وزير للخارجية، وهذا شيء جميل جدا! ولكنه يحاول الآن إنشاء جامعة فرنكوفونية مع موريس دروبان وغيره.. في بلد لا يتعدى عدد الأشخاص الذين يتقنون فيه اللغة الفرنسية 0،2٪ من مجموع السكان!... ومع ذلك لا يخجلون من إظهار العلم المصري ضمن أعلام البلدان الفرنكوفونية، وسوف ترون ذلك في المؤتمر المقبل - إذا انعقد، وأتمنى أن لا يحصل ذلك - في دكار، حيث سيرفع العلم المصري، باعتبار هذا البلد جزءا من العالم الفرنكوفوني بالرغم من أن 0،2٪ فقط من سكانه يتقنون اللغة الفرنسية!

عندما نصل الى هذا المستوى من التفاهة - وهذا المستوى من التفاهة لا يرجع إلي - لأن الجزء الخاص بي في الكتاب لا يتضمن سوى الأرقام، وأنا أنصحكم بعدم قراءته، لأنه متعب جدا، وستجدون فيه أحصائيات وأرقاما فقط... ولكنني أحب أن أتكلم انطلاقا من الأرقام، وعندما تكون الأرقام الى جانبي فإنني أسمح لنفسي، على غير العادة، باستعمال اللغة التي أريد، ويمكنكم أن تنسوا لغتي، أو تفسروها بطريقتكم

الخاصة، ولكن عودوا الى هذه الأرقام..

إن الرهان الذي تواجهه اللغة الفرنسية هو رهان جدي، وهذا يهمني، وأنا أؤكد أنه إذا استمرت فرنسا في هذه السياسة، فإنها ستعمل فعلا على تهييء مستقبل، ليس هو المستقبل الذي تستحقه اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية.. وصدقوني إذا قلت لكم بأنها صرخة حب من أجل هذه اللغة وهذه الثقافة.. ولكن ينبغي أولا أن نعرفها بما فيه الكفاية، لكي ندرك أنهما غير قابلين للتقليد، وأننا مهما حاولنا، كمغاربة، لا يمكننا أبدا، أن نتقن اللغة الفرنسية، مثل الفرنسيين، كل شخص غير فرنسي يوهم نفسه بأنه يستطيع أن يتقن اللغة الفرنسية مثل الفرنسيين - وعندما أقول يتقن اللغة، فإنني لا أقصد امتلاكها بواسطة الذاكرة، لأننا نتكلم لغة بواسطة المعدة، والهيئة، والبشرة، والعينين، والشعر، والرئتين - فإنه سيكتشف لا محالة أن ذلك مستحيل، اللهم إلا إذا أراد ان يسقط في نوع من المحاكاة المطلقة، التي لا تجعله ولو مجرد كوميدي، أو مجرد شخص يمارس المحاكاة الإيمائية . ونحن نعلم أنه من الصعب أن يتقن المرء المحاكاة الإيمائية.

الاتحاد الاشتراكي - 19 و 26 فبراير 1989.

مؤتمر قمة الناطقين بالفرنسية
(1989)

تتخذ العلاقات الدولية أحيانا شكلا من أشكال الفنون الشعبية (الفولكلور) ومثال جيد على ذلك «قمة الناطقين الفرنسية». كان المؤتمر الأول قد عقد في باريس عام 1986 والثاني في كيبيك عام 1987، أما الثالث فكان يراد له أول الأمر أن يعقد في داكار عاصمة السنغال في الأسبوع الاخير من مايو عام 1989 فعقد على مبعدة بضعة اميال من العاصمة السنغالية في بلدة اسمها «الماضي» وهي كلمة تعني الماضي باللغة العربية، وذلك في مقر «نادي البحر المتوسط» (كلوب ميديترانيه) المنتجع الخاص لتمضية العطلات وتديره مجموعة من رجال الأعمال الفرنسيين ويقع عند أعتاب الميناء الجوي «يوف». انه كان فريدا للغاية لأنه أزاح كل المشاكل الأمنية وأبعد السكان المحليين عن «الحدث التاريخي» وقد حملت الصحيفة الفرنسية «لوفيجارو» نبأ انعقاده بالخط العريض على نحو كاشف اذ قالت «المشاركون في المؤتمر على شاطئ البحر».

كان مؤتمر قمة داكار المسمى «مؤتمر التدعيم» في الحقيقة حفلة على الشاطئ كلفتها 15 مليون دولار دفعت كندا 25 في المائة منها ودفعت فرنسا 75 في المائة في بلد اشار، حسب قول مجلة «جون افريك» الى أنه ربما لن يستطيع استقبال مؤتمر القمة الاسلامي عام 1990، كما اريد في الأصل، بسبب الاضطرابات السائدة في البلاد، ولكنه رغم عدم قدرته على ضمان أمن المشاركين الناطقين بالفرنسية في داكار، استطاع ان ينظم «قمة» في «غيهب سياحي» بعيدا عن المدينة التي كان حظر التجول مفروضا فيها بين نهاية ابريل 1989 حتى عشية «مؤتمر قمة الناطقين بالفرنسية».

ووفقا لصحيفة «لوموند» الصادرة في 25 مايو دعا المؤتمر الى تغيير اماكن الف شخص بمن فيهم مائتا فرنسي اضافة الى اربعمائة صحفي، وكانت قاعدة النادي من السعة بحيث استوعبت المشاركين.

يمثل مبلغ ال 15 مليون دولار أكثر من المعدل السنوي من نفقات المشاريع التي شرع فيها مؤتمر قمة الناطقين بالفرنسية منذ عام 1986. وحين ياخذ المرء في الحسبان نسبة الاموال التي انفقت على اعمال المتابعة الباهظة واجتماعات لجان الخبراء ونفقات السكرتارية والاموال غير القليلة التي انفقت على النشر والاعلان من

كل نوع، يدرك ان الفعاليات والاجراءات الملموسة لقمة الناطقين بالفرنسية هي مجرد جعجعة بلا طحين.

وكما أشارت لذلك صحيفة فرنسية كبرى بحق : كيف لنا أن ندير نزاعا سياسيا ثقافيا، يدعو الي تحقيق نتائج ملموسة وامكانيات مالية ملائمة بينما عالم الناطقين بالفرنسية «لا يملك سوى قميصه»؟

لم يقترب رؤساء الدول السبعة عشر الذين شاركوا في مؤتمر «الماضي» في اي وقت من داكار ولا وصلوا الى مشارفها كما افادت الصحيفة اليومية الفرنسية «ليبراسيون» في 24 مايو حتى الصحفيون لم يستطيعوا الوصول اليهم؛ ولذلك اتخذ مؤتمر القمة هذا لأول مرة في حياته القصيرة شكل اجتماع مغلق استطاع بالكاد ان يدرك المناخ العسير الذي يسود البلد المضيف.

اوردت الصحيفة الفرنسية المحافظة «لوكوتيديان» مقالا نقديا حادا يوم افتتاح المؤتمر (في 24 مايو) كتبه واحد من افضل الخبراء الفرنسيين في الشؤون الافريقية، جان كالفليش، في الصفحة التاسعة من ذلك العدد جاء بالخط العريض «مؤتمر قمة الناطقين بالفرنسية : فرنسا تقدم المال.. مؤتمر قمة الناطقين بالفرنسية الثالث يفتتح في ظروف سيئة».

إن نظرة خاطفة للصحافة العالمية تبين لنا بيسر كيف ان هذه «القمة» كانت «حدثا لم يحدث فيه شيء» اما الصحافة الامريكية فلم تلتفت اليه حتى بكلمة واحدة في يوم افتتاحه ولم تتجاوزها في ذلك الصحافة اليومية الأوروبية والاسيوية وصحافة امريكا اللاتينية، وتبدو مصداقية اهمية هذا الحدث في التناسب المفقود بين ما اثار من تغطية صحفية تلقائية من جهة وبين المساحة الصحفية التي اشتريت للاعلان عنه من جهة اخرى.

اشترى القائمون على شؤون المؤتمر ومنظموه ما لا يقل عن 16 صفحة من المساحة الاعلانية في المجلة الأسبوعية الشهيرة «جون افريك» التي تصدر في باريس في عددها يوم 24 مايو فظهر ذلك تحت العنوان الطريف «قمة البلدان الناطقة بالفرنسية : جهد مثمر؟» وللمرء ان يتساءل عما اذا كان الذين دفعوا مالا لقاء هذا الاعلام الباهظ الكلفة ادرجوا علامة الاستفهام هذه ضمن التكاليف.

إذ للمرء ان يثني على المدير العام لمجلة «جون افريك» ورئيس تحريرها الصحفي الافريق المخضرم من غينيا سيراديو ديالو الذي هاجم في افتتاحية ظهرت في العدد نفسه الدولة المضيفة لقمة داكار وموريتانيا معا بسبب الاحداث الاخيرة وفي هذا اشارة تبعث على الأمل بان الانسان قادر على شراء صفحات في مجلة ما دون ان يشتري بالضرورة ضمير الذين يشرفون عليها.

حملت المجلة الفرنسية الاسبوعية الواسعة الانتشار «باري ماتش» بتاريخ 24 مايو اعلانا خاصا حول السنغال «زهرة افريقيا الناطقة بالفرنسية» وانه ليكون امرا قاسيا ان نتساءل عمن الذي دفع قائمة هذا الاعلان الباهظ او كلفة الصفحات الست عشرة في «جون افريك» ومن أية ميزانية جرى ذلك.

صحيح ان رئيس الجمهورية الفرنسية اعلن خلال هذه القمة ان بلاده ستشطب الدين المستحق على ٢٥ دولة من الدول الاشد تخلفا وهو دين يزيد قليلا على بليون دولار من القروض العامة وهذا يشكل «خسارة» لفرنسا تبلغ مائة مليون دولار سنويا كان هذا أشد الأحداث إثارة في قمة عام 1989 يدانيه إعلان كَنَدي في مؤتمر قمة الناطقين بالفرنسية عام 1987 اذ شطب ربع بليون دولار من الديون المستحقة على أقل البلدان تطورا.

تحول مؤتمر قمة 1989 الى منافسة مكشوفة بين فرنسا وكندا، فكندا اعلنت عن مساهمة تبلغ حوالي 42 مليون دولار لتمويل متابعة مؤتمر قمة السنغال بينما اشارت فرنسا الى مساهمة منها تقرب من ٣٥ مليون دولار.

وعندما يعرف المرء ان الدول السبع والثلاثين في المجموعة الناطقة بالفرنسية تشكل سوقا اجمالية تقرب من ثلاثمائة مليون نسمة؛ فان مجموع هذين المبلغين يمثل استثمارا سوقيا يصل الى 25 سنتا للشخص الواحد او 22 سنتا اذا استبعدنا سكان كندا وفرنسا.

تمثل فعاليات برنامج مؤتمر قمة الناطقين بالفرنسية كمية شحيحة جدا، وليس سرا أن يقال أن هناك الكثير من الاضطراب والارتباك الاداري يخيم على ادارة هذه الفعاليات وعلى تنفيذها ان فرنسا تنفق انفاقا مباشرا للدفاع عن اللغة الفرنسية (خمسة بلايين فرنك سنويا) وهو اكثر عشرين مرة من مساهمتها في مشاريع البلدان الناطقة بالفرنسية.

ولإيضاح هذه النقطة ايضاحا كاملا كما فعلت الصحيفة الفرنسية اليومية «ليبراسيون» فان هذه البلايين الخمسة من الفرنكات تمثل اقل من نصف كلفة مفاعل نووي «الذي لا يمكن صنعه باللغة الفرنسية لأنه يحتاج الى ثمانين الف كلمة بينما لا يوجد بنك فرنسي للمعلومات يتجاوز خمسين الف كلمة تكنولوجية. ومع ذلك يوجد عدد قليل من المثقفين ذوي مسؤوليات حكومية في العالم العربي لايزالون تداعبهم فكرة انشاء جامعة تدرس باللغة الفرنسية في مدينة الاسكندرية وتركز على العلوم والتكنولوجيات المتقدمة بينما نجد اشهر صحيفة علمية فرنسية - وهي التي يصدرها معهد باستور - قد قررت الآن ان تصدر باللغة

الانجليزية ـ بدلا من الفرنسية، وفي وقت نجد ان ثلثي العلماء الفرنسيين ينشرون اعمالهم باللغة الانجليزية. ان الحنين الى الماضي لابد ان يكون له حدود حتى في العالم العربي.

ماذا تمثل البلدان الناطقة بالفرنسية حقا؟ لقد كانت اختراعا قام به بعض الزعماء الافارقة الذين لم يكن في مقدورهم ان يتصوروا امكانية للبقاء دون الابقاء على الحبل السري مع القوة الاستعمارية السابقة. ان رواد «البلدان الناطقة بالفرنسية» هم اما ماتوا مثل هاماني ديوري اول رئيس لجمهورية النيجر، واما ازيحوا عن السلطة مثلما حدث للحبيب بورقيبة رئيس جمهورية تونس السابق، واما كانوا من الذكاء بحيث غادروا السلطة بكرامة مثلما فعل ليوبولد سنجور.

لا يتجاوز عمر الاستقلال الافريقي ثلاثين عاما. وهو عمر جيل واحد. اما الجيل الجديد فهو متحرر من العقد الثقافية بحيث لا يرى نفسه حبيسا في بنيان سياسي ثقافي عفى عليه الزمن وصار عديم الصلة بمشاغل تتطلب بناء مجتمع ديموقراطي قادر على فهم التحديات الحديثة ومنسجم مع امال الجيل الحاضر في انتصار القيم الجديرة بالدفاع عن هويته وحمايته من الانتهاك المنتظم لحقوق الانسان.

يستطيع تحليل احصائي فعلي ان يبين بسهولة مقدار الضحالة في مفهوم التجمع الناطق بالفرنسية، يجتمع في قمة الناطقين بالفرنسية سبعة وثلاثون بلدا يمثلون سكانا لا يقل مجموعهم عن ثلاثمائة مليون نسمة. وهم لملمة من البلدان المبلقنة (اي على شكل دول البلقان) وكثير منهم لا يستطيعون البقاء لو لم تقدم لهم الحكومة الفرنسية مساعدات شهرية، ووفقا للارقام الرسمية التي قدمها المجلس الاعلى للبلدان الناطقة بالفرنسية لايزيد عدد الذي يحسنون اللغة الفرنسية على خمس هذه الملايين الثلاثمائة، اي أقل من 65 مليون نسمة، واذا استبعدنا فرنسا فان عدد الذين يتحدثون الفرنسية فعلا في العالم لا يزيد عن عشرين مليون واذا وجب علينا ان نطرح ايضا كندا وبلجيكا فسوف نجد بين ايدينا اقل عشرة ملايين يجيدون اللغة الفرنسية وهم متوزعون في 34 بلدا، اي اقل من 0،4٪ من سكان العالم! هذه هي الحقائق الرسمية الصلدة التي لا تقبل الشك حول جماعة الناطقين بالفرنسية.

وما هو طريف ايضا بدون فرنسا وكندا وبلجيكا فان البلدان الاربعة والثلاثين الباقية ذات سكان يبلغون مائتي مليون نسمة فيها اقل من عشرة في المائة من ذوي الاقتدار الفعلي على اللغة الفرنسية ولكن بينهم 43 في المائة (اي 85 مليون نسمة) تشكل اللغة العربية عندهم لغة الأم (جيبوتي، مصر، لبنان، تونس، المغرب، موريتانيا)، وحوالي نصف هذه البلدان الاربعة والثلاثين اعضاء في المؤتمر الاسلامي (بنين، بوركينو، مالي، جيبوتي، مصر، الجابون، غينيا بيساو، لبنان، المغرب، موريتانيا، النيجر، السنغال، تشاد،

تونس)، والنتيجة المدهشة التي نتوصل اليها هي ان العالم الناطق بالفرنسية هو عالم اسلامي وعربي بالدرجة الأولى، وهذه هي المفارقة الحقيقية لهذه الظاهرة الفولكلورية في العلاقات الدولية والتي لا يمكنها البقاء الى أمد طويل.

والآن بعد أن خرج بورقيبة من المسرح، وهو واحد من أوائل ابطال العالم الناطق بالفرنسية، وبعد ان عادت مصر الى الجامعة العربية، بالاضافة الى ان المغرب سينضم عاجلا ام آجلا الى منظمة الوحدة الافريقية وموريتانيا عضو مؤسس لاتحاد المغرب العربي، فاننا نستطيع ان نتكهن بسهولة ان هذه الاقطار العربية الأربعة ستترك مؤتمر قمة الناطقين بالفرنسية في المستقبل القريب جدا.

لعل رئيس جمهورية السنغال يمتلك حدسا بهذا المعنى لانه في «جولته العالمية حول البلدان الناطقة بالفرنسية» حسب قول صحيفة «لوموند» في 26 مايو، اهمل ان يذكر ايا من هذه البلدان الاربعة، مع ان هذه الاقطار العربية الاربعة تمثل ما لا يقل عن ثلث مجموع السكان الاعضاء في مؤتمر قمة الناطقين بالفرنسية وهي تمثل ايضا الحدود الجغرافية بين فرنسا والبلدان الافريقية.

ما الذي سيبقى من العالم الناطق بالفرنسية سواء من الناحية الاستراتيجية ام السياسية؟ ماذا يبقى اذا استبعدنا البلدان الافريقية الاخرى التي لا مندوحة لها من تدعيم استقلالها الثقافي، واذا لم نذكر حتى فرنسا التي لعلها تتذكر التحفظات الجدية التي كانت لدى الجنرال ديجول حول مشروع «البلدان الناطقة بالفرنسية» واذا جردنا نتائج هذه القمم وهي نتائج ليست بالاخاذة.

ولد مؤتمر قمة الناطقين بالفرنسية في فرنسا عام 1986 . وعقد المؤتمر الثاني في كيبيك عام 1987 ولم يكن له سوى دور رمزي في تأكيد الجانب الثقافي الفرنسي في كندا. اما المؤتمر الثالث فهو في الماضي في السنغال وقد عقد في جو متوتر جدا وجاء بقرارات غير مقنعة على الرغم من الاعلان الفرنسي المذهل حول شطب جانب صغير من الديون العامة للبلدان الاقل تقدما.

وكان أكثر القرارات طرافة في اجتماع «الماضي» هو عقد مؤتمر القمة لعام 1991 في زائير. والأمر ليس هو أن مؤتمر القمة هذا تناول الأبجدية من حرفها الأول حتى حرفها الأخير، أي من الألف في «الماضي» الى «الزاي» في «زائير»، ولكنه إضافة لذلك احتفل بطريقة غريبة جدا بمرور قرنين على الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان، باتخاذ قرار الانعقاد في بلد لا يعرف عنه احترامه لهذه الحقوق.

اذا اجتمع مؤتمر القمة في عام 1991 فانني اشك جديا اذا كان سيظل متسما بالجدوى او الحماسة

كي يعقد في فرنسا عام 1993 اي التاريخ الذي سيحدث فيه تغيير جوهري والذي حددته السوق الاوروبية المشتركة لاعضائها، فاغلب الظن ان فرنسا ستعنى بشن حملة حتى قبل ذلك التاريخ، لافتتاح عهد من التعاون الثقافي مستند الى روحية شاملة اكثر اثمارا بالنسبة لنوعية العلاقات الدولية وطرازها اللذين سيكونان ضروريين بتسهيل الدخول السليم الى القرن الحادي والعشرين.

ان جوابي الجدي عن علامة الاستفهام الموجودة في عنوان هذا المقال جواب سلبي، ذلك ان مؤتمر قمة الناطقين بالفرنسية، بتسويفاته الحالية، ليس له مستقبل كما لا تمتلك مستقبلا عديد من الحكومات التي تتحدث باسم الدول الأعضاء فيه.

- «الشرق الأوسط»، 1 و 2 يونيو 1989.
- «العلم»، 8و 9 يوليوز 1989.

THE FRANCOPHONE SUMMIT : DOES IT HAVE A FUTURE ? -
3e Sommet Francophone, Senegal, 89/05.
English, Arabic.

إفريقيا على عتبة القرن 21(x)

إن حصيلة النمو الاقتصادي والاجتماعي لإفريقيا خلال القرن العشرين سنة الماضية هزيلة إن لم نقل فضيعة. فلم تتحقق آمل الستينات وتفاقم تأخر القارة الافريقية بالنسبة للقارات الأخرى على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والعلمي والثقافي. وإذا كان لابد من عزو هذا التأخير لسبب واحد، فهو عدم القدرة على قطع الأواصر مع الدول المستعمرة (بالكسر) سابقا، والاعتماد على قواها الخاصة،فالاتكال على الخارج أصبح قاعدة والاستلاب المعتمد على التقليد لم يكن ثقافيا فحسب.

قبل أن نلقي نظرة تطليعية على العشرين سنة القادمة، لابأس من تذكير عبارات إيديم كودجو، الأمين العام السابق لمنظمة الوحدة الإفريقية، بمناسبة انعقاد أول مؤتمر اقتصادي افريقي (ليغوس، أبريل1980):

«أجل، إن إفريقيا فقدت بوصلتها وتتحمل أكثر من كل شيء التبعات الوخيمة للأزمة الآتية من الخارج، ويرجع ذلك أنها لم تكف عن النظر إلى الخارج، ونظمت أمورها في اتجاه الخارج وللخارج، وتقبلت كل شيء من الخارج، مفاهيم ومنتوجات. وبالنسبة إلينا اليوم. يبدو لنا المستقبل دون مستقبل، وها هي التوقعات تنبهنا بأنه، في حالة استمرار الأمور على ما هي عليه، لت يتمكن، من بين الخمسين دولة إفريقية، من النجاة خلال السنوات المقبلة إلا ما بين خمس رتسع دول. من أجل، إنها آفاق مظلمة، لكنها تبرز، أكثر من الخطب، ما يخفيه لنا الغد المرتقب، نعم، إن الأمر يتعلق بإنقاد افريقيا من الهلاك».

هناك طريقتان لتصور التطورات الممكنة لإفريقيا خلال العقدين المقبلين. الطريقة الأولى تعتمد على الانطلاق من نتائج العشرين سنة الماضية للوصول إلى توقعات المستقبل. وهذه هي الطريقة المستعملة في غالب الأحيان من طرف المنظمات الدولية ومختلف المعاهد المستقبلية العربية في دراستها حول العالم الثالث. إن هذه التقنية البسيطة، والتي تبدو «علمية» تبقى مع ذلك قاصرة، لأنها متحجرة وتغفل الآثار المستقبلية للتحولات والتغيرات المقبلة. مع العلم بأن تحولا واحدا من هذا القبيل من شأنه أن يخطى جميع التوقعات المسبقة.

(x) 1981

أما الطريقة الثانية، على عكس ذلك، فتعتمد على المحيط الاجتماعي والسياسي المتحرك، وتراعي المتغيرات السوسيو - ثقافية وحركيتها، وتحاول إدماج هذه التحولات المحتملة ضمن التوقعات المستقبلية، وتفترض هذه المقاربة وجود عدد من المؤشرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لا تتوفر عليها إفريقيا بعد كما أنها تعتمد على نوع من الذاتية. إلا أن هذه الذاتية يمكن أن تصحح جزئيا بواسطة تخمين عدة سيناريوهات تخضع التوقعات لمختلف التطورات الاجتماعية والسياسية.

وبغض النظر عن الطريقة المستعملة فإن السنوات العشر المقبلة ستكشف بدون شك عن مخلفات السياسات المتبعة خلال العشرين سنة الأخيرة، وسيكون الثمن باهضا جدا. 1989-1990 ستشهد قطيعات، وصراعات ومواجهات على الصعيد الوطني الجهوي والدولي، وستستمر مسلسلات الارتجال السياسي والفوارق الاقتصادية والمظالم الاجتماعية وخروقات حقوق الانسان والاستلاب الثقافي على الأقل إلى حدود سنة 1985 ، في انتظار ترعرع البذور الجديدة التي من شأنها أن توقف هذا المسلسل.

مالم تحتفظ به التوقعات

من بين أولى هذه البذور، لابد من التعرض لتصريح مانروفيا التي صادق عليها الأقطاب الأفارقة في يوليوز 1979. هذا التصريح التاريخي، رغم أنه لازال وثيقة، يمثل مع ذلك خطوة حقيقية إلى الأمام نحو تحديد استراتيجية جديدة لتنمية داخلية مركزية، تولي أهمية كبيرة لمسألة الاستقلال الذاتي الجماعي. ولقد ترجم أول مؤتمر اقتصادي بليغوس سنة 1980 هذه الاستراتيجية إلى برنامج عمل من شأنه أن يتيح لإفريقيا، إذا هي انكبت بالفعال على تجسيده من الآن، أن تتطلع إلى آفاق أكثر إشراقا ابتداء من نهاية العقد الحالي. إن التوقعات الآلية الصادرة عن مختلف الدراسات الدولية في شأن سنة 2000، لم تراع عددا من الاتجاهات المؤكدة، ومن بينها ما يلي :

استقلال ناميبيا وافريقيا الجنوبية.

وصول جيل جديد إلى السلطة، تختلف نظم قيمه بشكل جذري عن نظم الجيل السابق.

الدور المتنامي للعمل الثقافي في مجال السياسات الوطنية والعلاقات الدولية.

المد الروحي.

«قرونة» المناطق الحضرية الكبرى.

تطور سريع للغات الإفريقية.

السرعة في تنويع الأصول الاجتماعية للبورجوازية الجديدة، وللنخبة المثقفة ورجال الإدارة.

– فتور محسوس في حدة الانقسامات العرقية.

– جمود البنيات الاقتصادية والاجتماعية الذي سيحول خلال بعض السنوات دون إدماج العديد من حاملي الشهادات ومن العمال.

– تحسن بطيء في وضعية المرأة، سيعرف تزايدا منذ نهاية العقد.

– الخرق المستمر لحقوق الإنسان والذي سيستمر خلال السنوات الخمس أو العشر المقبلة، في العديد من البلدان.

– المجاعة المزمنة التي لايمكن أن تمحى ولو بعد خمس أو عشر سنوات.

– تفاقم الديون التي ستبلغ حدها الأقصى حوالي 1990.

– والوضعية الاقتصادية المزرية لعدد من البلدان التي لاتتوفر على الرواج الكافي الذي يمكنها من الاستمرار بدون مساعدات أجنبية.

– تقدم على صعيد الاندماج الاقتصادي خصوصا على المستوى الجهوي.

– اتفاقية على إقامة سوق إفريقية مشتركة، ومباشرة مرحلتها الأولية.

– نمو الشركات الافريقية المتعددة الأجناس.

– اكتشاف مناجم مهمة للبترول والأورنيوم في مختلف مناطق القارة.

– تقوية العلاقات الافريقية – العربية.

– الدور المتزايد للقارة الإفريقية في مجموعة السبع والسبعين.

– تقوية اختصاصات وسائل العمل للأمانة العامة لمنظمة الوحدة الإفريقية ومراجعة ميثاقها، وإجلاء جميع القوى العسكرية الأجنبية.

– تقلص عدد الأنظمة العسكرية.

– تجلي إرادة سياسية للقضاء على الأمية.

– نهج سياسات علمية مشتركة بين دول إفريقيا.

– احتمال قيام حرب بإفريقيا الجنوبية.

– إنتاج أسلحة نووية من لدن دولتان إفريقيتان أو ثلاث خلال العشر سنوات المقبلة.

– الاتفاقية حول نظام قاري للأمن.

انفجار أو منعرج هادئ؟

بالإضافة إلى هذا، لابد من التذكير بأن افريقيا لا تعيش بمعزل عن باقي العالم. فهي ستتأثر من

التحولات التي تطرأ على أية منطقة من العالم، لأنها الطرف الأضعف، من هزات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية. إن وتيرة التاريخ، وانفجار المعرفة يجعل كل محاولة لضبط مقاييس الزمن جد عسيرة. فالفترة 1980-2000 تمثل عشرين سنة، لكن إذا قورنت بفترة 1940-1960 فإن العشرين سنة المقبلة ستعادل على الأقل أربعين سنة (قيمة 1940-1960) من كان يمكنه أن يتوقع سنة 1940 استقلال الدول الإفرقية بعد عشرين سنة؟

هل سيكون غير معقول أن نتوقع في سنة 1980، تحرر افريقيا الجنوبية قبل العقد الأخير من هذا القرن؟ كيف يمكن أن نتصور أن سكان افريقيا سيستمرون هادئين ساكنين في الوقت الذي ترزأ تحت عبء المجاعة (20 مليون جائع)، والفقر، والأمية (75 من الأميين) وانعدام أبسط وسائل العلاج وأبسط ظروف السكنى الملائمة، والبطالة (10 ملايين) والغزو الثقافي والاجهاز على كرامتهم كبشر؟

إن نماذج التنمية المتبعة إلى يومنا لاتتوفر على أدنى حظ في إمكانية تقويم هذه الوضعية التي تتفاقم يوما بعد يوم. لا يمكن لأية قوة عسكرية، ولا لأي مساعدة أجنبية أو مساندة خارجية أو تؤخر التحولات البنيوية التي ستمكن افريقيا من أبسط وسائل العيش الرغد. كل حاجز أو تأخير لن يفيد إلا في الرفع من قوة الانفجار.

والسؤال المطروح هو هل المسؤولون الأفارقة، والمصالح الأجنبية التي لازالت تتحكم في مصير القارة، ستعرف كيف تسبق هذه لتطورات المستقبلية، وتعمل في الوقت المناسب للحد من مخلفاتها وذلك في صالح السكان الأفارقة، وصالحهم أنفسهم، وحفاظا على السلام العالمي. إن بعض الشركات المتعددة الأجناس واعية كل الوعي بالعواصف التي تتهيأ. لذا فقد أدرجت تحليل «المخاطر السياسية» و «البعد الاجتماعي في التخطيط لأنشطتها» فهلا استخلصت العبرة الضرورية، وعدم التعنت في الوقوف في وجه تيار التاريخ؟

أبدا، مهما ادعى أولئك الذين لايؤمنون بقدرة الإنسان على الثورة في وجه الظلم وتقويم الاعوجاجات، لن يكون لإفريقيا سنة 2000، 50 مليون من الجياع، و 200 مليون من الأميين، و 175 مليونا من العاطلين، 100 مليون من الأطفال غير الممدرسين، وتبعية غذائية بنسبة 40٪ ونسبة وفيات قدرها 15 بالألف، وحظوظ الحياة في حدود 56 سنة.

إن الاسقاطات «الواقعية» مفيدة لأنها تتيح توقع ما يمكن أن يقع إذا لم تتغير الاتجاهات الحالية. هنا تنحصر فائدتها. لكن الانسان يتوفر اليوم على الطاقات البشرية والمادية التي تمكنه من صوغ مستقبله

على ضوء الأهداف المختارة بكل حرية لتغيير الاتجاهات الفاسدة وتطوير البنيات العميقة وتحريك الجمود. إن افريقيا ستتوصل إلى دمقرطة وتأسيس تنميتها قبل سنة 2000، لأن سكانها سيسهرون على ذلك. لاتوجد أية نظرية اقتصادية، ولا أي جهاز إحصائي ولا أية معطيات «علمية» داحضة لقول كهذا يبدو دوغمائيا وذاتيا ولا معقول، لكنه يعتمد على حجة تاريخية، هي تلك التي تفسر المراحل الكبرى لتطور الإنسانية. إن هذا التأكيد ضروري لتوضيح الفرضية التي ينبني عليها التحليل التالي، وكذا الإسقاطات الإحصائية التي ترافقها.

نهاية الأقطار الصغرى

في سنة 2000، سيبلغ سكان افريقيا أكثر من 750 مليون نسمة. لكن هل سسيكون ما قرابة 60 «دولة»، أي بمعدل 12 مليون نسمة لكل دولة؟ إن فرضية من هذا القبيل جد مستبعدة. فالنظام السياسي والاقتصادي الدولي لن يترك أي حظ للدول الصغرى، إنه سيدعو، قصدا أو بالرغم منه، إلى التجمعات الاقتصادية الجهوية. والمجموعة القابلة للاستمرار هي تلك التي تضم حوالي 100 مليون نسمة.

قطر إفريقي وحيد هو الذي سيتجاوز وحده هذا العدد، ألا وهو نيجيريا ب 135 مليون نسمة. وتليه من بعد مصر] (65 مليون نسمة)، ولن يبلغ مجموع سكان بلدان المغرب الكبير الثلاثة إلا 90 ميلون نسمة. فلا بد من إقامة ست أو سبع مناطق اقتصادية كبيرة : المغرب الكبير، افريقيا الغربية، افريقيا الوسطى، مصر، السودان، افريقيا الشرقية وافريقيا الجنوبية. ومما سيزكي هذه التجمعات، ليس فقط ضروريات الاقتصاد والبقاء، لكن أيضا التطورات التي ستطرأ على اختصاصات، بل على مفهوم «الدولة – الأمة» نفسه.

إن مشكلة نسبة النمو الديمغرافي لإفريقيا، والذي يبدو كشبح رهيب للعديد من الخبراء الدوليين، ثانوي نسبيا : فتحسين ظروف العيش التي ستتولى تقليصها وليس العكس. ثم، بالمقارنة مع مواردها الطبيعية وثراوتها المعدنية، تعتبر افريقيا هي القارة الأقل سكانا. حقا من المتوقع أن يتضاعف عدد سكانها في ظرف25 سنة، مقابل 100 بالولايات المتحدة، و 200 بفرنسا و1400 سنة بالسويد.

سيتم إيجاد الحلول لمشاكل الطاقة

شبح آخر يتراءى للوصاة على إفريقيا، وهو مشكل الطاقة، الذي ستخفت حدته قبل 1985، ويحل حوالي سنة 1990. وبالفعل، فإن افريقيا تتوفر على فائض في إنتاجها من البترول وستزايد هذا الفائض بنسبة محسوسة خلال العقد المقبل. هذا بالإضافة إلى أنه على المدى القريب، وبفضل اتفاقيات الدول

الإفريقية بينها وبين الدول العربية، ستوضع سياسة طاقية ونظام تعويضات أكثر عدلا. إذا كانت اتفاقيات من هذا القبيل تبدو طوباوية في الوقت الراهن. فإن حظوظ تحقيقه يتتوفر قبل 1985. وعلى المدى البعيد سيصبح المشكل سياسي محضا، لأن افريقيا ستضطر آجلا أو عاجلا لتخفيض إنتاجها من البترول، وسيؤدي هذا القرار لا محالة إلى اعتراضات وتدخلات عنيفة من قبل الدول المصنعة.

ومن بين المشاكل الأكثر حدة والأكثر تعقيدا، مشكل ضياع الطاقات البشرية الإفريقية. ثلاثة أرباع سكان القارة أميون وحوالي 75 مليون طفل ليسوا ممدرسين، بغض النظر عن الضياع المدرسي ونوعية التعليم، خصوصا في المناطق القروية، حيث لا يتكيف مع واقع وحاجيات البلدان (ويصدق هذا على أغلبية الجامعات الافريقية).

مدارس مختلفة

إن التربية والتكوين تقتضيان سياسات تتوفر على رؤى على المدى البعيد ولا تتجلى نتائجها إلا بعد عشر سنوات على الأقل. إلا أننا نستثني من هذه القاعدة مسألة محاربة الأمية التي تخضع لشرط أساسي هو الإرادة السياسية، سبع دول تمكنت من بلوغ أو تجاوز معدل نسبة العالمية في العالم الثالث (50٪)، ليبيا (50٪)، مدغشقر (50٪)، لوسوتو (55٪)، تونس (55٪)، الصومال (60٪) وطانزانيا (65٪).

وستمكن افريقيا في الثمانينات من تخفيض نسبة الأمية إلى أقل من (50٪)، ومراجعة نظام لتربية والتكوين موراجعة جذرية، وذلك عن طريق تحريره، ووضعه في خدمة تحسين ظروف العيش لأفارقة وكذا تطوير المعراف والتجديد والإبداع، إن جزءا كبيرا من الأزمات التي ستشهدها افريقيا خلال العشر سنوات المقبلة، سيرتبط بشدة بقضايا النعليم، ولن نتمكن من تقييم التقدم الحاصل بعد الاصلاحات المحدثة خلال الثمانينات،إلا خلال التسعينات، وستكون مؤشرات هذا التطور هي نسبة التعليم، ونوعية التعليم القروي، ونسبة الفتيات الممدرسة بالمقارنة مع عدد الفتيان، والأصل الاجتماعي لطلبة التعليم العالي، ومستوى استعمال اللغات الافريقية في التعليم، ومحتوى الكتب المدرسية، وتكوين وضعية المدرسين، والعلاقات بين مؤسسات التعليم والمجتمع وأخيرا الأهمية المولاة للبحث.

وتشير كل التوقعات إلى أن المدارس والجامعات الافريقية في التسعينات ستختلف تماما عن مؤسسات الثمانينات التي تشبه كثيرا مؤسسات الستينات، بل حتى الخمسينات إن وجدت. ليس هناك تبريرا «علميا» لافتراض كهذا، ولكنه يعتمد على تأويل القلق والثورة اللذان يطبعان القارة حاليا. إن التغيير لا بد منه، سواء بانفجار أو بدونه، لأن هذا التغيير هوالذي سيؤدي إلى التجديدات الاجتماعية والتحولات

السياسية والاقتصادية التي بدونها لن تتمكن افريقيا من بلوغ الأهداف المتواضعة المتوقعة لسنة 2000 في هذه الدراسة.

إن ضياع الطاقات البشرية لا تتمثل فقط في القطاع التربوي، إنه أكثر فداحة في ميدان التغذية والصحة. إن المجاعة تهلك ملايين الأطفال والمسنين في افريقيا كل سنة. ملايين أخرى من الأطفال يصابون بالعاهات لبقية حياتهم من جراء سوء التغذية التي يعاني منها أكثر من افريقي من بين اثنين.

وجهت لمنظمة العالمية للصحة انتقادا شديدا للسياسات الصحية المتبعة من طرف البلدان النامية التي قلدت البلدان المصنعة دون مراعاة الحاجيات الفورية للسكان.

إن استراتيجية التطبيب الأولي للجميع قبل سنة 2000، التي أوصى بها تصريح ألماألطا (1978) وتبناها وزراء الصحة الأفارقة وكذا الجمعية العامة للمنظمة العالمية للصحة، تمثل خطوة أولى في مجال قطاع البشرية. إن هذا الاتجاه الجديد يتطلب الكثير من الوقت.

هناك امتناع قوي لدى إداريي الصحة وأساتذة كليات الطب في افريقيا الذين لايحيدون عنه النماذج المستوردة، أما الجيل الجديد فلا يعاني بنفس الدرجة من هذه العقدة، وسنلاحظ خلال السنوات الخمس المقبلة، تحولات كبيرة في السياسات الصحية الافريقية، وستعطى الأسبقية شيئا فشيئا للعلاج الدولي لسكان المناطق القروية ومدن القصدير.

تقوية الهوية الثقافية

إن الرفع من مستوى الطاقات البشرية سيعزز كرامة الأشخاص ويقوي هويتهم الثقافية، وهكذا فإن اللغات الإفريقية مدعاة لازدهار كبير في سنة 2000 ستصبح حوالي عشر لغات افريقية مستعملة في المدرسة ويتكلم بها حوالي نصف مليار نسمة (انظر الجدول) أي ثلثا مجموع سكان افريقيا، يجري الحديث كثيرا، عن الألف لغة ولهجة افريقية، لكن ليس بعيدا عن اليوم الذي ستطور فيه افريقيا سياسة لغوية تركز مجهوداتها على 12 أو 15 لغة على الأكثر، ثلاثة أو أربعة منها من بينها ستصبح لغات التواصل بين الدول الافريقية، وحينذاك سيتوقف الحديث عن الدول الناطقة بالفرنسية وبالإنجليزية وبالبرتغالية دون إهمال، مع هذا، تعلم واستعمال اللغات الدولية الكبرى في التعليم والبحث.

توزيع أهم اللغات الإفريقية		
(بالمليون نسمة)	1980	2000
العربية	110	190
السواحلي	53	65
الجوسا	30	52
البانتو (إفريقيا الاسترالية)	25	40
البربرية	15	25
اليرروبا	15	25
لينغالا	13	22
غالا	12	20
بول	10	17
أمهاريك	10	17
كيكونغو	10	17
المجموع	260	490

الموعد المقبل سنة 1985

إن تطور اللغات الافريقية ستكون لها عواقب حميدة على التعليم، والهوية الثقافية والتواصل والإبدا ع الفني. إن الاستلاب الثقافي الذي تعاني منه هذه الأنشة يرجع جزئيا إلى الاستلاب اللغوي. كل هذا سيؤثر على نظام القيم الاجتماعية الثقافية، مما سيوجه مسار افريقيا هذه، رغم المؤشرات الاجتماعية الاقتصادية الضعيفة نسبيا بالمقارنة مع باقي العالم، ستتمكن من إرضاء حاجياتها الأساسية، وتستغني عن الصدقة التي ستختفي من بين مفاهيم التعاون الدولي. إن الاتفاقيات من قبيل اتفاقية لومي التي لايكف البعض عن امتداحها، والتبريرات التي تحيط بالحوار الثلاثي الأروبي - الافريقي - العربي، وحتى المناقشات اللامنتهية حول إقامة «نظام» اقتصادي دولي، كل هذه المحاولات ستدخل حينئذ فيما يمكن أن يعتبر أرشيفا للعلاقات الافريقية.

إن لإفريقيا موعدا أول مع التاريخ في سنة 1985، وهي الذكرى المائوية لاتفاقية برلين التي قررت

بلقنتها. ستحييها بوضع أسس لاندماجها الاقتصادي ولوحدتها السياسية. لعل افريقيا سنة 2000 لن تكون محررة كلها، لكنها قد فتحت العديد من الأبواب التي لن تتمكن أية قوة من إغلاقها.

لاشيء أكثر اعتباطا من التوقعات والافتراضات، ولو كانت الفترة المعينة لا تتجاوز عشرين سنة، إلا أن التاريخ يؤكد لنا أن جميع التخمينات المتوقعة في الماضي لم تصل في الغالب إلى مستوى ما حققه

توقعات إفريقيا لفترة 1980 – 2000			إسقاطات تراعي المتغيرات الاحتماعية الاقتصادية الجذرية (2000)
مؤشرات	1980	إسقاطات آلية (2000)	
السكان (مليون)	460	810	750
السكان القرويون	75%	%65	% 55
النسبة السنوية لنمو الانتاج الداخلي الاجمالي	4.5% (1980-1960)	%4 - %5	%6 - %7
النسبة السنوية لنمو الدخل الوطني الاجمالي (معدل كل فرد)	2%	%1.5- %2	%3.5 - %4
الانتاج الداخلي الاجمالي لكل فرد (دولارات 1978)	455 %	625 - 700	1000
نسبة الوفيات	20 %	% 12	%8
حظوظ الحياة	45 سنة	56 سنة	63 سنة
سوء التغذية	60	% 35	%15
الاكتفاء الذاتي الغذائي	75	% 60	%90
الأمية الأطفال الغير ممدرسين سن: 6 - 11 سنة سن: 12- 17 سنة المجموع:	75% (1978) 33 مليون 40 مليون 73 مليون	%55 40 مليون 50 مليون 90 مليون	%20 10 مليون 35 مليون 45 مليون

الأطفال المتمدرسون الابتدائ الثانوي العالي المجموع	(1978) 57 مليون 11.5 مليون 1.5 مليون 70 مليون	 127 مليون 33 مليون 4 مليون 164 مليون	 160 مليون 50 مليون 7 مليون 217 مليون
نسبة الفتيات بالمقارنة مع مجموع المتمدرسين	% 40	% 44	%48
نسبة السكان العاطلين أو أشباه العاطلين	% 30	% 40	%15
مساهمة القطاع الفلاحي في الانتاج الداخلي الاجمالي	% 27	% 13	%15
نسبة نمو الانتاج الزراعي الاجمالي (2000 - 1980)	% 1.5	% 3	%4
الاستهلاك الغذائي لكل ساكن (عدد الكالوريات)	2200	2500	3000
مساهمة القطاع الصناعي في الانتاج الداخلي الاجمالي	%18	%25	%30
الصناعة : نسبة الانتاج العالمي	%0.6	%1.5 (أهداف ليما: % 2)	%2.5
حصة أفريقيا من صادرات المنتوجات الصناعية لدول العالم الثالث	4.2	% 10	%20
حصة اليد العاملة المستخدمة في القطاع الصناعي	% 12	%18	%25
التجارة داخل افريقيا حصة من بين مجموع التجارة الخارجية للدول الافريقية	% 3	%10	%25
صادرات افريقيا في اتجاه البلدان المصنعة	% 90	%75	%50
البحث و النمو: نسبة النفقات العالمية: نسبة الانتاج الداخلي الاجمالي	 % 1 % 0.15	 %1.50 %0.30	 %3 %1

الانسان. وإني لسعيد لكوني أعرف مسبقا أن هذه الدراسة المتورضعة لن تخرج عن هذه القاعدة.

ملحوظة :الأرقام الموجودة في قائمة 1980، إما تقديرات أو نتائج إحصائيات سابقة (1976 أو 1977) نشرت في وثائق ومطبوعات المنظمات الدولية المختصة، كما أن التقديرات الآلية مستمدة من نفس المصادر.

إما إسقاطات العمود الأخير، فهي على العكس،،تقديرات للمؤلف تعتمد على فرضية التحولات الاجتماعية الاقتصادية الجذرية خلال الثمانينات، والتي ستصبح محسوسة أكثر خلال العقد المقبل. تمثل أرقام العمودين الأولين إما مجموع إو معدل الدول الخمسين الأعضاء في منظمة الوحدة الإفريقية (باستثناء عدد السكان الذي يشمل افريقيا الجنوبية). وتدمج أرقام العمود الثالث افريقيا الجنوبية التي يمثل تحررها إحدى فرضيات هذا العمل المستقبلي.

إن الأرقام التي ستفاجئ البعض هي تلك المتعلقة بتوقعات الانتاج الوطني الاجمالي. يكفي التذكير بأنه في سنة 1978، ستة عشر بلدا افريقيا، يبلغ عدد سكانها 160 مليون نسمة (أي 40٪ الأعضاء في منظمة الوحدة الافريقية) كان معدل إنتاجها الداخلي لكل فرد يفوق 500 دولار. إن المشكل يتعلق أكثر بتوزيع

ET DANS VINGT ANS ? L'AFFRIQUE EN L'AN 2000
Français , English, Arabic.
ANNUAIRE DE L'AFRIQUE ET DU MOYEN ORIENT 81/01, JEUNE AFRIQUE, PARIS, FRANCE;
FUTURIBLES, #42, 81/02; FUTURES, LONDON, UK, 86 / 04.

عدالة داخل البلدان الافريقية وبينها.

- «العلم السياسي» 1982/08/02 - الرباط.

المغرب الكبير عام 2000

مقدمة

ليس موضوع «المغرب الكبير عام 2000» بالموضوع السهل. ذلك أن الدراسات المستقبلية الخاصة ببلدان المغرب الكبير جد قليلة. بل حتى المعطيات ذات العلاقة بالحاضر لا يمكن الاعتماد عليها كثيرا أو أنها غير تامة.. هذا بالإضافة الى غياب كل المؤشرات السوسيو- اقتصادية التي تتعلق بالقطاعات الاجتماعية والعلمية والثقافية. ومن ثم فإن هذا التقديم وكذا المعطيات الرقمية المصاحبة له تعاني بالضرورة من هذه التحديدات.

ومفهوم «المغرب الكبير» في هذه الدراسة يشمل : موريتانيا، المغرب، الجزائر. تونس وليبيا. حيث تمثل مساحته الكلية 6 ملايين كلم^2 ويرتفع عدد سكانه حاليا لأكثر من خمسين مليون نسمة (اي اقل بقليل من سكان فرنسا). وإذا كان هناك نوع من التكامل بين المغرب والجزائر وتونس خاصة من حيث الماضي الاستعماري والكفاح المشترك من أجل الاستقلال، فان ذلك لا يكفي لتبرير فكرة مغرب من ثلاثة بلدان. فقد كان عدد سكان المغرب الكبير يمثل 1.25 بالمائة من سكان العالم سنة 1980، وسيصبح هذا العدد 1.40 بالمائة سنة 2000.

وتعتبر سنة 2000 مدخلا للقرن الواحد والعشرين اكثر منها تاريخيا حتميا، كما يتعلق الأمر بمعرفة كيفية دخول العالم الثالث لهذا القرن، وهل سيتوصل حتى ذلك الحين الى قلب الهياكل المتفاوتة للنظام العالمي الحالي، والتخلص من أنماط التنمية التي منعته من القضاء على الفقر، ومحاربة المرض والجهل، والتقليل من تبعيته الاقتصادية وضمان حد أدنى من مستوى العيش والكرامة لدى مواطنيه.

إن اشكالية المغرب لا يجب فصلها عن إشكالية العالم الثالث، لذا فلا يجب التقليل من اهمية الدور الذي تلعبه البيئة المحيطة بالنظام العالمي في صنع مستقبل البلدان، من حيث التنمية. فلنر من خلال بعض المؤشرات السوسيو- اقتصادية وضعية بلدان المغرب اليوم. ذلك قبل فحص إسقاطات عام 2000 إذ لم

(*) 1982

يتجاوز متوسط معدل الزيادة السنوية للانتاج الوطني الاجمالي حسب الفرد الواحد ٣ بالمائة بين سنتي 1960 و1979.

- يبلغ متوسط دخل الفرد الواحد 1750 دولارا أمريكيا، مع وجود تفاوتات كبيرة بين البلدان الخمسة (320 دولارا في موريتانيا و8600 دولارا في ليبيا) وكذلك في التوزيع الداخلي بهذه البلدان (20 بالمائة من السكان يستفيدون من حوالي 55 بالمائة من المداخيل الوطنية).

- يبلغ معدل وفيات الأطفال حوالي 100 طفل لكل ألف مولود.

- هناك انخفاض ثابت في الاكتفاء الذاتي الغذائي (يبلغ حاليا اقل من 60 بالمائة) وإهمال واضح للتنمية القروية؛

- تبلغ نسبة البطالة حوالي 35 بالمائة من القوى العاملة؛

- تتوجه السياسات الصناعية نحو التصدير الذي يهمل الحاجيات المحلية؛

- لا تصل نسبة التبادل التجاري بين بلدان المغرب ولو ١ بالمائة من مجموع التجارة العالمية للبلدان الخمسة، في حين ان نسبتها مع دول المجموعة الأوروبية تفوق 50 بالمائة؛

- هناك سبات عميق في ميدان البحث العلمي الذي لا يكاد يبلغ 0،3 بالمائة من مجموع الإنتاج الوطني الإجمالي بالمنطقة؛

- ايلاء أسبقية غير مبررة لتنمية السياحة؛

- غياب شبه كلي لأي تشجيع للإبداعية الثقافية؛

- وجود تقليد أعمى للنمط الغربي؛

- وجود صراعات جهوية جد مكلفة؛

- تبلغ النفقات العسكرية السنوية حوالي ثلاثة مليارات من الدولارات أي أكثر من 3 بالمائة من الإنتاج الوطني الاجمالي في المنطقة؛

- عدم المساهمة الفعلية للسكان باتخاذ القرارات رغم مظاهر الديموقراطية الصورية هنا وهناك؛

- عدم وجود احترام لحقوق الانسان حيث لازالت تعتبر هبات تعطى أو تمنع حسب الظروف؛

- وجود اطار قانوني للمرأة جد ضعيف على مستوى التعلم والشغل والحقوق؛

- وجود أزمة عميقة في هيكل القيم.

فكيف إذا لا يصاب الانسان أمام لوحة كهذه بخيبة من النتائج التي وصلتها بلدان المغرب منذ استقلالها ويتخوف على مستقبلها إلا إذا حدثت تحولات فعالة في فترات وجيزة؟!

وما هي الحالة التي سيكون عليها المغرب في عام 2000؟ إن دور المستقبلية لا يكمن في إصدار نبوءات. اذ يتجلى هدفها في تحديد الاتجاهات وتخيل مستقبل مرغوب فيه واقتراح استراتيجيات لتحويله إلى مستقبل ممكن، وهكذا فإن الامر يتعلق بتسليط الاضواء على الاختيارات قصد مساعدة صانعي القرارات للتوجه نحو الاهداف البعيدة المدى، مع اطلاعهم على التدابير الواجب اتخاذها في الحين قصد الوصول اليها.

وتحذرنا المستقبلية من أنه ليس بإمكان أي مجموعة جيو - سوسيو - اقتصادية تبلغ أقل من 100 إلى 150 مليون ساكن ان تعيش في بداية القرن الحادي والعشرين. فما هو مصير موريتانيا مثلا بثلاثة ملايين ساكن وليبيا بخمسة ملايين ونصف من السكان في العام 2000؟ ان المغرب الكبير بأجمعه سيبلغ عدد سكانه اقل من 100 مليون ولن يستطيع إلا بجهد أن يكون اقتصادا مجزيا. ولن يستقر سكان هذا المغرب الكبير الا حوالي عام 2090 حيث سيبلغ في ذلك الحين قرابة 200 مليون.

لقد كان مجموع الإنتاج الوطني الإجمالي لبلدان المغرب يمثل سنة 1980 أقل من تسعين مليار دولار. وهو ما يعادل الانتاج الوطني الاجمالي لبلد مثل تشيكوسلوفاكيا التي ليس فيها إلا خمسة عشر مليون نسمة، بل ان الانتاج الوطني الاجمالي لفرنسا التي لها نفس عدد سكان المغرب يبلغ سبعة أضعاف نظيره في المغرب.

إن أحد العناصر الرئيسية بالنسبة لمستقبلية المغرب هو توزيع سكانه من حيث العمر، حيث المغرب أرض المستقبل بالمعنى الكامل إذ أن ثلثي سكانه يبلغون أقل من 25 سنة في حين يمثل من لهم أقل من 15 سنة وحدهم حوالي نصف السكان اجمعين. ان المغاربة الذين كانوا يبلغون 15 سنة أو أكثر خلال اجتماع طنجة التاريخي سنة 1953 يبلغون اليوم 39 سنة أو أكثر حيث يمثلون أقل من 25 بالمائة من السكان. وهكذا فان واحدا من أربعة مغاربة كحد أقصى لازال باستطاعته أن يتذكر نوعا ما، نسيم الوحدة التي كانت سارية آنئذ. غير أن الآباء والمعلمين والكتب المدرسية والإذاعة والتلفزة والصحافة والخطب السياسية لم ترع هذه الشعلة.

على أنه لا يجب الخلط مطلقا بين بيداغوجية الوحدة والحنين. فالحنين يدعو الشباب الى النفور لأنه متعلق بالماضي، ومنغلق على نفسه بدل ان يكون رؤية خصبة مبدعة منفتحة على آفاق المستقبل. ان تطور نظم القيم السوسيو - ثقافية وتحول الهياكل الاجتماعية امر لابد منه، لذا يجب الانصات اليه، اي الانصات

للشباب الذي يصنع هذه القيم الجديدة، اذ الأمر يتعلق بمستقبله، ذلك ان الابتكار والتغيير لا يعنيان انكارا للثوابت التي يفرضها التاريخ والجغرافية والثقافة والدين.

إن الجزء الكبير من المغرب في عام 2000 قد تحدد بما تم انجازه او انجز بطريقة سيئة او بما لم ينجز قط خلال العقدين الأخيرين. لذا يجب النظر إلى ما يمكن انجازه خلال هذا العقد لتصحيح المسار وايجاد مسلك جديد باستطاعته تسهيل بناء الوحدة.

وسأعرض بكل ايجاز المنهجية التي ستستعمل في هذا التقديم «للمغرب عام 2000» حيث سأحاول اولا وصف الخطوط العريضة لمقتضيات سيناريوهات ثلاثة :

أولا : السيناريو الاتجاهي (Tendantiel) : ويتعلق باستمرارية انطلاقة السنوات العشرين الاخيرة مع اسقاط خطي (Linaire).

ثانيا : السيناريو الاصلاحي (Reformiste): ويتعلق بتكييف وادخال الاصلاحات قصد الوصول بالاتجاهات الحالية نحو انسجام اكثر من اجل انجاز حد ادنى من الاهداف.

ثالثا : سيناريو التحولات (Transformations) : حيث يتم اعتبار الملاءمة التدريجية بواسطة التغييرات المتزنة غير كافية لتقويم مجرى الاشياء، لذا فانه يتم الاخذ بتحولات عميقة وببعض التمزق (ruptures) .

وبعد اجراء تحليل سريع لكل من هذه السيناريوهات، وهو شيء لم يكن من الممكن التعبير عنه كميا بطريقة منتظمة، سأحاول وضع جدول بما قد تكون عليه بلدان المغرب الكبير سنة 2000. وسيكون هذا الجدول في شكل مؤشرات سوسيو- اقتصادية اثرت في حسابها اعتبارات معيارية واحيانا محددة ومن هنا فانني اشدد على احد عناصر الذاتية. وهو ان المستقبلية تعتبر تمرينا منهجيا ومسيرة تستدعي التبصر والاقتناع.

ان المستقبلية لا تدعي عصمة في توقعاتها ونجاحها، بل على العكس من ذلك اذ الشيء الوحيد المؤكد هو أن أيّا من هذه التوقعات لا يبدو صحيحا على الاطلاق.

أولا: السيناريو الاتجاهي

ستؤدي الاستمرارية المرتكزة على اتجاهات السنوات العشرين الاخيرة، وخاصة العشر الأخيرة منها، بالمغرب الكبير في مجموعه، وهكذا الامر بالنسبة للبلدان الخمسة المكونة له، الى تفقير، والى تفاوتات اجتماعية خطيرة، وتبعية اقتصادية كبيرة وخاصة في الميدان الغذائي والعلمي والثقافي. وهكذا ودون

اعتماد مكثف على الخارج فان بلدا او اثنين سيعانيان من صعوبات جمة في معركة البقاء، واذا ما علمنا ان عقد السبعينيات كان عقد تناقص التعاون المغربي الكبير، الذي وصل اليوم الى اضعف مستوياته، ادركنا من الصعوبة بمكان التفكير على اساس الاتجاهات واي هوة سيتم الوصول اليها؟ اننا جد بعيدين عن حمى عام 1958 في مدينة طنجة، وعن حماس عام 1964 اثناء انشاء اللجنة الاستشارية الدائمة للمغرب الكبير (C.P.C.M)، وعن الجدية التي تمت بها دراسة مشاريع الاندماج الاقتصادي بين عامي 1967 و1970، فوزراء اقتصاد بلدان المغرب لم يجتمعوا منذ عام 1975، والأخطر من ذلك، ان المغرب والجزائر وتونس قد وقعوا عام 1976، كل على انفراد اتفاقات التعاون مع المجوعة الاقتصادية الأوربية.

ومن جهة اخرى فان سيناريو التوجهات لا يستبعد النمو الاقتصادي الذي يمكن ان يتراوح من ٤ الى ٥ بالمائة في المتوسط، غير انه ليس بامكانه ان يتضمن نموا ذاتيا مع توزيع اكثر عدالة. كما انه لا يساهم في تحسين ملموس لمستوى حياة السكان القرويين او سكان احياء الصفيح. وليس من شأن السيناريو ان يسمح لبلدان المغرب بالوصول الى الاكتفاء الذاتي في مجال التغذية، او القضاء على الفقر، او تحسين الحالة الصحية لسكانه، او تسهيل محو الأمية او اقرار ديمقراطية المسار السياسي. ان مديونية المنطقة ستستمر في الارتفاع ذلك انه ما لم تقم بلدان المغرب بقطع الاواصر مع المتروبول القديم، وما لم تصل الى درجة كافية من الاستقلال الذاتي وعدم الانحياز فانها ستظل محط اهتمام المقدمين للأموال وبالتالي مرتعا للشركات المتعددة الجنسيات والسواح.

وفي رأيي ان السيناريو «أولا» لن يمكنه الاستمرار لأكثر من السنوات الخمس القادمة. فليس هو بالسيناريو الذي يرفع من حظوظ وحدة بلدان المغرب إذ آنه ليس الا افرازا للتبعية الاقتصادية التي تشجع الانفتاح والتقسيم.

بالاضافة الى ذلك فإن السيناريو «أولا» ناجم عن الابقاء على علاقات الشمال والجنوب في حالتها الراهنة من الآن حتى نهاية القرن. وهذا بدوره ليس بالأمر المعقول، ان عدد القوى الراغبة في التغيير من الكثرة لدرجة ان كل استمرار يتطلب الكثير من الجهد والالزام بل وحتى القمع للحفاظ على الاشياء في وضعها الراهن. وحتى مع المساعدات الاقتصادية والمالية الخارجية المكثفة فلن يتم التمكن من الحفاظ على الوضع الراهن خلال السبع عشرة سنة التي تفصلنا عن عام 2000. وهكذا فان السيناريو «أولا» ورغم المقاومة السلبية الشديدة سيظل السيناريو الذي له أقل الحظوظ الموصلة، حيث ستنتهي الانتقالات الاجتماعية وخاصة الثقافية منها الجارية الى فرض نفسها.

ثانيا : السيناريو الاصلاحي

يتميز هذا السيناريو بما يلي :

- انخفاض تدريجي للتبعية الخارجية،

- نمط تنموي اقل انفتاحا على الخارج، يهتم اكثر بالقطاع الزراعي، بالتنمية الفلاحية وبالقطاعات السوسيو - ثقافية (الصحة، العمل، الضمان الاجتماعي، والثقافة).

- مزيد من مشاركة السكان في الحياة السياسية واحترام أدنى للحريات العامة.

- زيادة في فعالية الجهاز الإداري مع انخفاض سريع للرشوة في المصالح العامة.

لن يعيد السيناريو الاصلاحي البحث في أمر النظم السوسيو - اقتصادية الموجودة غير أنه سيساهم في الحد من تزايد الفوارق في الدخل لمختلف طبقات المجتمع دون توزيع جديد حقيقي للدخول القومية.

وعلى صعيد المغرب الكبير، سيشجع استئناف التعاون الاقتصادي والثقافي والرجوع لنظام قانوني اكثر منهجية لهذا التعاون بواسطة اجهزة جهوية وظيفية، وبهذا ستتوطد العلاقات الاقتصادية «جنوب - جنوب». وستتغير العلاقات مع الدول الصناعية عامة ومع الدول العظمى خاصة كنتيجة لتشاور أحسن بين بلدان «المغرب الكبير» فيما يتعلق بالسياسة الخارجية ويتطلب هذا السيناريو ضميرا سياسيا، ومسعى نفعيا وتأطيرا يضم مساهمة واسعة من التقنيين الاكفاء ودرجة أعلى من الثقافة، ومساندة ضمنية للسكان وانخفاض تدخل بعض الدول المتقدمة.

لا يمكن تصور هذا السيناريو قبل النصف الثاني من العقد الحالي، ولن يتأتى هذا إلا بصفاء الجو وإزالة الحواجز التي تحول دون تحقيق تعاون على صعيد المغرب وذلك بحل مشكل الصحراء.

وفي حالة ما اذا تم تسطير الخطوط الكبرى لهذا السيناريو قبل نهاية العقد الجاري فما هي انعكاسات هذه الحالة على المغرب الكبير في مطلع القرن الواحد والعشرين؟

هذه بعض المؤشرات التي تمثل تقديرات تقريبية :

- معدل النمو السنوي للانتاج الداخلي الاجمالي يتراوح من 4 الى 5 بالمائة.

- معدل النمو الديموغرافي من 2،4 الى 2،6 بالمائة.

- السكان الحضريون (55 بالمائة من المجموع)

- معدل أمل الحياة ستون سنة.

- معدل وفيات الاطفال 75 لكل 1000 ولادة.

- نسبة الأمية 40 بالمائة.

- معدل التعليم المدرسي (مجموع التعليم الابتدائي والثانوي) 75 بالمائة.

- الاكتفاء الذاتي الغذائي 80 بالمائة.

- نصيب التجارة الداخلية بين بلدان المغرب العربي الكبير في التجارة الخارجية 7 بالمائة.

ثالثا : سيناريو التحولات

وتتعلق هذه التحولات بادئ ذي بدئ بالتقليد الذي يطبع نماذج التنمية الحالية والانفتاح على الاقتصاد الخارجي وكذا الاستلاب الثقافي الناتج عن هذه الوضعية. وفي هذه الحالة ينبغي الانتقال الى نموذج ذاتي للتنمية يتخذ مركزه من بلد يرعاه بالصناعة الذاتية ويأخذ بعين الاعتبار الاستغلال العقلاني لموارده البشرية والطبيعية بدل الاحسان الدولي.

ونركز هنا على البعد السوسيو - ثقافي للتنمية وتقريب الفوارق بين مستويات المعيشة داخل المجتمعات عن طريق إعادة للتوزيع.

إن هذا النموذج يتطلب التزاما سياسيا لاعادة توجيه وتحويل نماذج الفكر والممارسة. ويحتاج الى كفاءة ناتجة عن معرفة هوية ثقافية مع نظام للقيم يكسب ملاءمة لهذه المعرفة وان هذا السيناريو هو الذي يعطي مكانة كبرى للبحث العلمي والتكنولوجي وليست التكنوقراطية التي غالبا ما تنشغل «بماذا»؟ بدل «الكيف»؟

وستكون أهداف هذا السيناريو بالنسبة لعام 2000 كما يلي :

- تطوير المؤسسات السياسية وجعلها ملائمة للشروط الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تسمح لمجموع السكان بالمشاركة الفعلية والحرة في آليات اتخاذ القرار مع احترام حقيقي للحقوق العامة وحقوق الانسان والمرأة.

- تحقيق معدل سنوى للنمو الاقتصادي يتراوح بين 4 إلى 5 بالمائة مع نقص بديل في المساعدة الدولية وتوزيع عادل للمداخيل الوطنية.

- الاكتفاء الذاتي الغذائي بما قدره 85 بالمائة.

- تقليص عدد وفيات الاطفال الى 50 بالألف مع ضمان العلاجات الأولية لجميع السكان.

- التنسيق الفعال للسياسات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للبلدان الخمسة قبل سنة 1990 مع الادماج الاقتصادي بخلق سوق مشتركة وعملة موحدة عام 2000.

- تقليص معدل الأمية إلى 20 بالمائة والتعليم الشامل على مستوى التعليم الابتدائي وتحقيق معدل التعليم المدرسي بـ 50 بالمائة في التعليم الثانوي و10 بالمائة في التعليم العالي.

- استثمار 1 الى 1،5 بالمائة من الدخل الوطني الاجمالي في البحث العلمي.

- جعل تعاون «جنوب - جنوب» احد اعمدة العلاقات الاقتصادية الدولية للمغرب الكبير.

- تحويل السياسات الصناعية مع الاخذ بعين الاعتبار تحقيق اقتصاد مجز للمغرب الكبير وإعادة توجيه هذه الصناعة نحو الحاجيات المحلية وخاصة في ميادين الفلاحة الصناعية والالكترونيك والاعلاميات.

- تكوين ما يقرب من 40000 طبيب و180000 ممرض وتوفير 250000 سرير في المستشفيات وذلك قبل عام 2000.

- سياسة سكنية تسمح ببناء 12000000 وحدة سكن سيحتاج اليها المغرب من الآن حتى عام 2000.

- معدل تضخم يقدر بـ 7 بالمائة في أقصاه.

- انتهاج سياسة عدم الانحياز على الصعيد الدولي. وتعزيز التعاون بين البلدان العربية والافريقية بالمشاركة الحيوية في كل المبادرات التي يمكن ان تساعد على الادماج الاقتصادي لهاتين الجهتين والتي هي جزء مندمج فيها باعتبار ان مصير مستقبلها شديد الارتباط بها.

ان هذا السيناريو يبدو اليوم طوباويا. ومع ذلك يبقى الوحيد الذي يسمح لبلدان المغرب الكبير بولوج القرن الحادي والعشرين، يراودها امل العيش الشريف الحر، بعيدا عن الوصاية الاجنبية وعبودية الفقر والبؤس والجهل.

السنة	1980						2000 المستقبل الممكن
المؤشر	تونس	الجزائر	ليبيا	المغرب	موريتانيا	المجموع	المجموع
المساحة (بآلاف كلم²)	165	2380	1760	710	1030	6045	6045
السكان (بالمليون)	6.2	19	3.25	20	1.65	50.1	90
الكثافة السكانية (نسمة/كلم²)	38	8	1.8	28	1.6	8.3	15
المعدل السنوي لنسبة النمو الديموغرافي (1980-1979)(٪)	2.1	3.3	4.1	2.9	2.7	3	2.5
السكان القرويون (٪ من المجموع)	50	40	50	60	75	50	45
المعدل السنوي لنمو السكان الحضريين (٪)	4.0	6.0	8.0	4.5	8.5	4.5	5.5
نسبة السكان الاقل من 15 سنة (٪)	42	47	42	46	46	46	42
نسبة القوة النشطة (15-24 سنة) من مجموع السكان (1979)(٪)	55	49	51	50	52	51	55
توزيع القوة النشطة (٪)							
الفلاحة	35	32	20	53	85	40	30
الصناعة	32	24	27	21	5	25	30
الخدمات (1979)	33	44	53	26	10	35	40
التعليم (بالالف)	1050	3225	680	220	93	7248	16000
الابتدائي	290	1000	330	800	15	2435	8000
العالي	34	100	21	101	1	257	1000
المجموع	1374	4325	1031	3101	109	9940	25000
نسبة البنات من السكان المتعلمين (٪)							
الابتدائي	42	42	48	38	30	21	49
الثانوي	37	39	42	38	20	39	45
العالي	33	25	36	24	10	26	40
النفقات العمومية على التعليم (٪ من الانتاج الوطني الاجمالي 1979).	6.5	3.8	4.2	6.5	6	5	7.5
النفقات على البحث والتنمية (٪)	-	-	-	-	-	0.3	1.5 - 1
نسبة الأمية (٪)	40	60	40	65	75	57	20
الانتاج الوطني الاجمالي (دولار 1980)	8500	3600	26000	7500	500	88500	240000
الانتاج الوطني الاجمالي حسب الفرد (دولار 1980)	1300	1900	8600	860	320	1750	4000

نسبة معدل النمو السنويللانتاج الوطني							
الاجمالي حسب الفرد (المعدل السنوي ٪)							
1979-1960	4.8	2.4	5.8	2.6	1.9	3.0	5
1979-1970	7.5	2.8	-1.6	3.5	0.7	3.2	(1999-1990)
نسبة التضخم 1980 بالنسبة لـ 1979 (٪)	10	9.5	-	9.5	11	10	7 - 6
المعدل السنوي لنسبة نمو							
الانتاج الفلاحي (1970-1979) (٪)	5.1	0.6	11.8	-0.3	-1.4	2	5
الاكتفاء الذاتي الغذائي (1980) (٪)	55	50	-	75	-	65	85
الديون الخارجية (٪)							
(مليون دولار 1980)	3100	15300	0	6300	600	23500	50000
نسبة المبلغ من الانتاج الداخلي الاجمالي	43.5	44	0	40	121	33	20
المبلغ الصافي للاقتراضي بعد التسديد							
من رأس المال (1979)							
(مليون دولار 1979)	591	2647	-	1046	28	4319	7500
نصيب التجارة مع البلدان المصنعة (٪)	85	95	95	84	90	90	65
نصيب التجارة الداخلية بين بلدان المغرب							
المغربي من مجموع التجارة الخارجية (٪)	2	0.5	0.5	1	-	0.6	10
الفلاحة في الانتاج الداخلي الاجمالي (٪)	16	7	2	20	27	9	15
الصناعة في الانتاج الداخلي الاجمالي (٪)	33	58	73	32	33	55	50
الخدمات في الانتاج الداخلي الاجمالي (٪)	51	35	25	48	40	36	35
عدد السكان بالنسبة لكل طبيب (1977)	4500	5000	900	10000	1500	5000	2500
السكان الزودون بالماء العذب (٪)	77	70	100	55	0	65	90
وفيات الأطفال (بالنسبة لـ1000مولود قبل السنة الأولى)	80	110	50	120	30	110	50
معدل أمل الحياة (سنة)	85	56	58	56	-	56	62
رواج الجرائد (بالنسبة لـ 1000 ساكن)	44	22	20	21	43	25	60
المقاعد في السينما (بالنسبة لـ 1000 ساكن)	9	11	8	9	0.2	9	20
عدد أجهزة الراديو (بالنسبة لـ 1000 ساكن)	155	46	170	110	6	130	300
عدد أجهزة التلفزيون (بالنسبة لـ 1000 ساكن)	48	56	45	40	70	45	120
السواح (بالألف)	1600	300	-	100	-	3000+	10000

(أ) ثلثهم من المغرب العربي. (ب) تقديرات.

ملاحظة عامة : تشير العلامة « ـ » الى أن البيانات غير متوفرة.

ونظرا لكثير من الأسباب الداخلية والخارجية فان الشروط التي يتطلبها تحقيق مثل هذا السيناريو لها حظوظ قليلة خلال هذا العقد.

ان السيناريو الاتجاهي (السيناريو الخطي) لن ينجح في المحافظة على نفسه لمدة طويلة. وبالمقابل فهناك حظوظ كبرى لكي يتدخل المخطط الاصلاحي قبل نهاية العقد الجاري. وفي ما يتعلق بسيناريو التحولات فمن المحتمل ان لا يدخل حيز التطبيق الا مع التسعينات.

فما هو الأثر التراكمي لهذه السيناريوهات على المغرب الكبير في العام 2000؟ إن محاولة الجواب عن هذا السؤال تكون الجزء الأخير من هذا التحليل.

رابعا : أحد المستقبلات الممكنة

سنحاول في هذا القسم الأخير ان نكشف عن احد المستقبلات الممكنة للمغرب الكبير في العام 2000. ان النظرة المستقبلية متعددة بطبيعة الحال، اذ بالامكان تصور عدة اوجه ممكنة للمستقبل وذلك لكون الانسان البشري يتوفر على وسائل لصنع مستقبله، غير اننا سنبقي على احد هذه المستقبلات الذي سيكون ثمرة تفاعل السيناريوهات الثلاثة خلال السنوات السبع عشرة التي قمنا بتحليلها. إنها نظرة متفائلة الى حد ما فيما يتعلق بنقطة الوصول والتي ستعرف صعوبات جدية وعراقيل ضخمة خلال المسار.

فالمؤشرات الرقمية تأخذ بعين الاعتبار توجهات الحقائق الحالية وكذلك طاقات الجهة انها الرغبة الواعية جدا بما هو ممكن كما انها تعبير عن نضج سياسي، لجيلين بعد الاستقلال، استنبط العبر من الاخطاء الماضية ليعترف بالرغبات العميقة لسكان البلدان الخمسة التي تطمح في بناء المغرب الكبير ووحدته.

وسيكون هذا البناء اساسيا وإن لم يكن حيويا ليس فقط لأسباب عاطفية ثقافية وروحية : وانما ليسمح للبلدان الخمسة بالعيش معا. اي وكما قلنا ذلك اعلاه انه لن يكون هناك اماكن بل حتى مقاعد اضافية في عالم القرن الحادي والعشرين للمجموعات الاقتصادية التي تضم اقل من 100 مليون نسمة. وسيكون للمغرب العربي حظ وافر بعدد سكانه الذي سيبلغ 90 مليون نسمة عام 2000 لمواجهة تحدي عهد جديد. ان الاندماج الاقتصادي للمغرب الكبير هو حصيلة معطيات مسيطرة على هذا المستقبل الممكن المشدود الذي يضطلع بالماضي لالمشترك لبلدان المغرب الكبير الخمسة. ان المستقبلية لا تبرز من العدم الظرفي بل ان مقاربتها مع التاريخ امر حيوي جدا، فكثير ما اتجهت بلدان العالم الثالث الى جعل التاريخ غاية في

حد ذاته او الرجوع اليه لتبرير الجهود وخيبات الحاضر بدل ان تواكبه وتتوقع مآله.

ولقد كنت اعود بكيفية ملحة الى اهمية البعد الثقافي وانظمة القيم في تنمية المنطقة وبديهي ان الاسلام كقوة للتغيير والابداع سيلعب دورا طليعيا في هذا التطور. واذ هناك عودة الى الروحانيات خاصة عند الشباب الذي اصابه اليأس من جراء سلوك من هم اكبر منه سنا والذين لم يكونوا في مستوى اعطاء نموذج او على الاقل قدوة ملائمة في السلوك منسجمة ومحترمة، وطبيعي ان يرجع الشباب الى الينابيع للعثور على الانماط التي تقود خطواته.

ان المستقبل الممكن والمنشود والذي نحن بصدده يرتكز اساسا على تجديد الاسلام؛ اسلام الاجتهاد وليس اسلام التقليد الذي كان وراء سقوط حضارة ابتعدت تدريجيا عن مهمة الخلق والابداع اللذين واصلهما المسلمون الى يوم اعلن فيه بعض الفقهاء جزافا اغلاق باب الاجتهاد. ان الاسلام دين متفتح يترك للفرد مبادرة كبرى وحرية في التكييف والتغيير وتوقع التحولات فلو ان الرسول (ص) وصحابته لم يتوقعوا المستقبلية في فجر الاسلام، ما كان هناك اليوم مليار من المسلمين.

إن هذا المستقبل المغربي الممكن والمنشود هو اسلامي ايضا مضافا اليه العرب والأفارقة وكل متضامني العالم الثالث عموما. ولنر بعد هذه التحديدات المقتضيات الكمية لهذا المستقبل، وسوف لن نرجع الى الانعكاسات الكيفية والبنيوية لأنها تقريبا نفس الانعكاسات بالنسبة لسيناريو التحولات.

إن 90 مليونا من السكان في المغرب الكبير سيجعل معدل النمو الديموغرافي يصل الى 2،5 بالمائة يمثل فيه السكان الحضريون 55 بالمائة من مجموع السكان وسيبلغ الانتاج الوطني الإجمالي 240 مليار دولار سنة (1981) بينما الانتاج الوطني الاجمالي حسب الفرد 4000 دولار سنة (1980) مع توزيع اكثر عدالة عن ما هو عليه الحال اليوم.

وستنخفض نسبة وفيات الأطفال إلى 50 بالألف بينما يصل امل الحياة الى ٢٦ سنة. كما ان نسبة الأمية ستصل الى 20 بالمائة وسيمثل الأشخاص المتعلمون 25.000.000، (16.000.000 منهم في الابتدائي،8.000.000 في الثانوي و1.000.000 في التعليم العالي). كما سيسجل تحسن ملموس في نسبة البنات للمتعلمين (45 بالمائة من المجموع)، وسيمتص التعليم 7 بالمائة من الانتاج الوطني الاجمالي.

وستضمن الأهمية المتزايدة المولاة للقطاع الزراعي 58 بالمائة من الاكتفاء الذاتي الغذائي لهذه الجهة. كما ان التطوير الزراعي سيقلص من نسبة البطالة الى 15 بالمائة، وسيكون هناك طبيب لكل 2500 نسمة، كما سيتوفر الماء العذب لـ 90 بالمائة من السكان، وستضم 15 مدينة أزيد من 500.000 نسمة من

بينها 7 مدن سيفوق عدد سكانها المليون. حيث سيزيد سكان الدار البيضاء على 5 ملايين والجزائر على أربعة ملايين.

هذا، وستمثل التجارة مع البلدان المصنعة 60 بالمائة من التجارة الخارجية و٤٠ بالمائة مع العالم الثالث منها 15 بالمائة على صعيد التجارة الداخلية بين بلدان المغرب الكبير.

وعندما سيكتشف كل من المغرب وموريتانيا آبارا نفطية لسد حاجاتهما من الطاقة فإن مجموع اقتصاد بلدان المغرب سيشهد اعادة ضبط قصد تنويع موارد الدخل، وينطبق هذا خصوصا على الجزائر وليبيا وبدل ان تكون مجرد أنظمة بسيطة للتفريغ نحو اوروبا ستعطي انظمة النقل اسبقية اولى للاتصالات الافقية ونحو الجنوب.

وعلاوة على المكانة الرفيعة التي سيحظى بها تطوير الموارد البشرية فان من بين المعالم التي ستطبع هذا المستقبل الممكن، الأهمية التي ستولى للبحث العلمي والتكنولوجي حيث سيخصص له ما بين 1.5 الى 2 بالمائة من الانتاج الوطني الاجمالي.

إن القرن الحادي والعشرين سيصنف بالانتقال من حضارة الانتاج الى حضارة المعرفة التي تعتمد في تقدير رأس مالها الحقيقي على الاعلام وبنوك المعطيات عوض الذهب والسيولة المالية.

وسيسمح الاقتصاد المجزي لبلدان المغرب الكبير بأن تكون لها استراتيجية تنمية علمية حيث ستحتل الالكترونيات والمعلوماتية والآلات المبرمجة والبيولوجية الوراثية والهندسة الوراثية مكانة مرموقة. كما انه سيشرع في استعمال الطاقة النووية.

كما سيتم تجاوز مرحلة الاستلاب الثقافي وسيشق التعريب طريقه بالنسبة للأنظمة التربوية والانتاج العلمي والأدبي والوعي بالغنى الذي يمثله التنوع الثقافي للجهة، وإعطاء الأهمية للمحافظة على التراث البربري وتطويره الذي طبع ولا زال يطبع ثقافة المغرب الكبير.

وأما على الصعيد السوسيو- روحي فان الجدل حول التحجر ومعارضته للحداثة سيتم تجاوزه في شطره الأكبر مادام هذا الجدال لا يعدو كونه للاستلاب الثقافي، إن تعميم التعليم وتفتق روح الاجتهاد المشفوعين بالمجهود الجدي في ميدان البحث العلمي والمشاركة الكبرى للسكان وباحترام كبير للحريات العامة يسمحان بالتوصل الى الاجماع حول دور الاسلام في القرن الحادي والعشرين.

إن المشكل يبقى في أساسه مشكل سلوك المسلمين أكثر منه مضمون الاسلام.

هذا، وسيصاب المسؤولون عن السياحة بالخيبة اذا علموا بان توقعاتهم الخاصة بارتفاع عدد السواح الى 20 مليون سنة 2000 سوف تكون لها حظوظ قليلة لكي تتحقق. فالسياحة ستطل في تطور حيث يمكن ان يقارب عدد الزائرين 10 ملايين من بينهم حوالي الربع من بلدان المغرب.

إن تحقيق هذا المستقبل الممكن والمنشود يرتبط قبل كل شيء بقدرة المغاربة على تبديل هياكلهم الفكرية أولا ثم الهياكل الاجتماعية والاقتصادية.

إن التغيير لابد منه، فالمغرب الكبير لسنة 2000 سيكون مخالفا لمغرب اليوم، الا ان التغيير لا يكون ذا دلالة الا اذا كان يستجيب للحاجات الماسة الواضحة ويقود نحو اتجاه مقبول بترحاب فالتوقع هو عبارة عن تضامن في الزمان يرتكز على المشاركة او التعاون في المجال.

خاتمة :

وأخيرا، نعتقد بأنه من المفيد الإشارة إلى عدد من المؤشرات التي س تكون ذات تأثير على المغرب الكبير قبل نهاية القرن.

- انشاء دولة فلسطينية تغير اشكالية الوطن العربي.
- افرقة افريقيا الجنوبية التي ستغير علاقات افريقيا مع البلدان المصنعة.
- ارتقاء جيل لم يعش فترة الاستعمار الى السلطة في مجموع بلدان العالم الثالث التي تحررت من عدد كبير من العقد.
- الدور المتعاظم للبعد الروحي في انظمة القيم.
- ثورة الاعلام والمعرفة والدور الحاسم الذي سيعود للثقافة كعامل في التنمية.
- تحرير المرأة في البلدان المتنامية التي ستعبئ موارد بشرية جديدة تثري الابداعية والابتكار.
- الصعوبة المتزايدة امام بقاء الدويلات.
- اعداد برامج عمل ملموسة قصد اندماج اقتصاد افريقيا مع اقتصاد الوطن العربي.
- تعاون تقني اكبر (جنوب - جنوب).

إن هذا التقديم غير كامل ولكنه تقريبي اكثر، فلم اطرح بعض القضايا التي لا تقل اهمية كقضية بناء مؤسسات وحدة المغرب الكبير والسلطات الواجب توقعها كمجلس اقتصادي واجتماعي وبرلماني مغربي مثلا. ان هدفنا بسيط جدا، انه هدف كل باحث في ميادين المستقبلية اذيتمثل في فتح النقاش واثارة ردود

فعل يمكنها تشجيع باحثين آخرين على متابعة التأمل حول مصير الانسان وإشعار الرأي العام والرجال السياسيين بأهمية المستقبل، مستقبل يصنعونه يوميا بأفعالهم اليومية دون ان ينشغلوا بانعكاسات هذه الافعال على الامد البعيد.

إن النظرة للأمد البعيد لازالت لم تسجل في خطوات الرجال السياسيين الذين غالبا ما يشغل بالهم الأمد القصير.

ولا يبقى علينا ان نحرر حاضرنا فقط، بل وتحرير مستقبلنا أيضا، لأن غيرنا منهمك الآن على دراسة مستقبلنا والتفكير فيه من أجلنا. كما يجب تجنب استغلال هذا المستقبل لأغراض سياسية، اي استعماله كهروب ديماغوجي للأمام لتغطية خسائر الحاضر.

ولنبتعد عن مستقبل التقليد الذي لا يكون فيه «مستقبلنا الا ماضي الاخرين» كما عبر عن ذلك «كي زربو» مؤرخ فولتا العليا.

ويبقى علينا صنع مستقبلنا، فلنخلقه بأنفسنا بترك الكلمة للشباب الذين سيعيشونه حيث يتوفر على حظوظ عظمى لأن يكون مستقبلا مغربيا، عربيا وإفريقيا يسجل ضمن تطلعات انسانية مفتوحة على باقي العالم، يعطي فيها بقدر ما يأخذ.

Maghreb 2000 :

Conférence Association Rencontres Tunisiennes,
Tunis, 82/04/11 & Sfax 82/04/12, Tunisie
Françlais, Arabic
- AMP, Rabat 82/06
- Démocratie, Tunis, 07/1982
- Lamalif, Casablanca, N° 138, 09/0982
- Futuribles, 58, 82/09, France;
- Le Matin, Casablanca, 83/01/20
- The Arab Alternative futures dossier,
United Nations University, 8 & 9 , 83/04, Cairo Egypt
- Maroc Business, Casablanca, N° 23; 83/06
- INterdisciplinarite, Revue de la Société de Philosophie du Maroc, N° 7-8, Rabat 88/08, Casablanca
- Joussour, revue de l'Association des Polytechniciens Marocains de Lausanne, Suisse, 198

- «المستقبل»، باريس، 1983/01/15.

- «المغرب»، الرباط، 1980/01/21.

- «الاتحاد الإشتراكي»، الدار البيضاء، 1983/07/03 و 1983/08/09.

- «الرأي»، تونس - 1982/06/21.

- «المستقبل العربي»، بيروت، عدد 53، 1983/07.

- «حياة»، المغرب، 1982/08.

- «نصوص مختارة،» مقرر السنة السابعة من التعليم الثانوي شعبة العلوم والتقنية، وزارة التربية الوطنية، سومكرام، الدار البيضاء 1984، ص. 124-129.

الجزائر لم تعد كما كانت (×)

قبل كل شيء - يتعلق الأمر بانتصار الديمقراطية التعددية - إنها أول انتخابات حرة فعلا في تاريخ مجموع افريقيا والعالم العربي، ولا يتعلق الأمر بالانتخابات في السينغال أو تونس ولا بانتخابات كوت ديفوار والغابون، واجهات ونماذج «التعاون» الفرنسي - الافريقي. إن الأمر لا يتعلق بديمقراطية جاهزة ترافقها الاعانات الاقتصادية والعسكرية والأبوية المتعالية للمركز.

يجب أن نعترف للحكومة الجزائرية بالاستحقاق لكونها ضمنت لهذه الانتخابات سيرا نزيها لا تدخل فيه ولا تهديد. إن الرئيس الشاذلي بنجديد كان في مستوى طموح الشعب الجزائري، وعشية الانتخابات البلدية في تونس، يوم 10 يونيو 1990، أي ثلاثة أيام قبل الانتخابات الجزائرية، طلب الوزير الأول من الناخبين أن يصوتوا لصالح 228 لائحة وحيدة (من مجموع 246) «كي يكونوا في مستوى ثقة الرئيس بن علي». إن المفارقة صارخة.

إنها نهاية الحزب الوحيد وتأميم تضحيات الثورة الجزائرية التي أصبحت ملكا مشتركا لمجموع السكان بغض النظر عن بطاقة حزب جبهة التحرير الوطني. إنهم قدموا البرهان على نضجهم السياسي وإصرارهم على حرية توفروا عليها لقاء ثمن غال وتم تثبيتها بانتخابات غير مزورة.

إن جيلا جديدا يستعد لتسيير البلاد، 70٪ من الجزائريين اليوم لم يكونوا قد ازدادوا بعد سنة 1962، سنة الاستقلال. وكان 80٪ يبلغون من العمر، ذلك الوقت، أقل من 10 سنوات. وإليكم، قبل ثماني سنوات بالضبط (11 يونيو 1982) ما كتبته في دراسة بعنوان «المغرب العربي لعام 2000».

«إنني أشير دائما الى أهمية البعد الثقافي والأنظمة القيمية في تطور المنطقة. وغني عن القول أن الاسلام كقوة تجديد سيلعب دورا متميزا في هذه السيرورة. لقد حصل جزر روحي وبالخصوص لدى الشباب. فقد خيب آمالهم تصرف أشقائهم الكبار الذين لم يكونوا في مستوى تقديم مثل أعلى وأكثر من ذلك لم يكونوا في مستوى تقديم نمط سلوك ملائم ومنسجم ومحترم. من الطبيعي إذن أن يرجعوا الى المنابع ليجدوا إلهاما وقواعد تنير لهم الطريق. هذا المستقبل المغاربي الممكن والمرغوب فيه هو أيضا بالتالي مستقبل إسلامي. ويجب أن نضيف

(×) يونيو 1990

أنه عربي وإفريقي ومتضامن كلية مع العالم الثالث» (مجلة Futuribles. عدد 58، سبتمبر 1982).

لقد جرى الحديث عن «ضعف» المشاركة في الانتخابات الجزائرية. النسبة بلغت 65٪، ونسبة المشاركة في الانتخابات البلدية الفرنسية الأخيرة كانت الـ 73٪، من جهة أخرى، يغيب عن البال أن الحكومة قررت تنظيم الانتخابات في يوم ليس يوم عطلة على عكس ما يقع في العالم كله وما وقع في الانتخابات السابقة في الجزائر، ولو لم يكن الآمر كذلك لبلغت نسبة المشاركة بسهولة 85٪، زد على ذلك أن الديمقراطية تتضمن حق عدم المشاركة كموقف سياسي، وهذا كان حال 16٪ من السكان.

ومع أخذ هذه الأرقام بعين الاعتبار، فلا يجب أن نضخم بإفراط من نجاح المناداة بمقاطعة الانتخابات. فنسبة المقاطعة ضعيفة جدا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الوزن «التاريخي» للشخصيات التي وجهت ذلك النداء بدل أن تجابه واقع الإرادة الشعبية.

الديمقراطية هي أيضا غياب «التيار الجارف»، لأن الجبهة الإسلامية للإنقاذ لم تحصل إلا على 55٪ من الأصوات. إننا بعيدون عن نسبة 95٪ إلى 99٪ في الأنظمة التسلطية. إن هذه الـ 55٪ تمثل ليس فقط تصويت أعضاء الجبهة الاسلامية بل أيضا تصويت العاطفين على «الدعوة الإسلامية» التي يقودها محمود نحناح وبالخصوص تصويت مؤمنين عاديين في بلد مسلم بنسبة 99٪، وفي الإسلام ما توفر لأحد أن يحتكر الإسلام، فبالأحرى أن يحتكره حزب سياسي.

إن اختزال كل شيء في «الأصولية» ليس أكثر من نزعة اختزالية وأيضا نزعة عقلانية مبسطة لدى أولئك الذين يتجاهلون قوة القيم الروحية. أولئك أنفسهم الذين يقبلون بها في حالة أوروبا الشرقية التي انطلقت بها الحركات الاحتجاجية من الكنائس كما وقع في بولونيا وألمانيا الشرقية وهنغاريا. لذلك فرق في الوزن، فرق في القياس أضف إلى ذلك قسطا من سوء النية كثيرا.

إلى أين ستتجه الجزائر ؟ نحو تقوية أفضل للديمقراطية، وعدالة اجتماعية أكبر، ونحو إزاحة الانفصام الثقافي بعد 142 سنة من الاستعمار و 28 سنة من التردد والمجاولات فيما يخص الاختيارات الأساسية التي تنسجم مع أغلبية السكان، لا مع حفنة من المثقفين الذين استأصل الاستعمار جذورهم. وبعدما تمت تصفية الاستعمار على الصعيدين السياسي والاقتصادي، فقد تمت تصفية الاستعمار على الصعيد الثقافي في الجزائر. ونتائج هذه الهزات ليست بسيطة بالنسبة لباقي المغربي العربي والعالم وافريقيا برمتها.

أ- لم تبق الجزائر كما كانت، فلا يمكن إذن أن نتصور أن اتحاد المغرب العربي سيظل كما كان. وسنلمس ذلك بعد بضعة أيام لما ستتحمل الجزائر مسؤولية الرئاسة في اتحاد المغرب العربي. إن حدا

أدنى من الانسجام سيكون مطلوبا وبالخصوص تجاه الحريات العامة (على مستوى الأفعال وليس فقط على مستوى النصوص) والاندماج الاقتصادي والسياسة الخارجية لبلدان المغرب العربي.

2 - إني أعتقد أن ساعة «الفرنكوفونية» التجارية في المغرب العربي وفي باقي افريقيا قد دقت في آخر المطاف، إن حفلة لابول في الأسبوع المقبل، ستكون حفلة الوداع. يجب أن نهنىء أنفسنا بتصريح الرئيس ميتران بصدد الانتخابات الجزائرية وهو تصريح ينم عن كثير من الحكمة والاحترام لإرادة الشعوب. وأنا متأكد من أنه سيستخلص من هذه التجربة على المدى القصير والمتوسط، النتائج التي تفرض نفسها وذلك من أجل مصلحة فرنسا على المدى البعيد. إن ردود أفعال الصحافة الفرنسية في فرنسا وفي البلدان الغربية تتناقض مع رد فعل الرئيس الفرنسي تناقضا حادا.

3- سيتعين على المسؤولين المغاربيين والعرب والأفارقة أ ن يولوا مزيدا من الاهتمام بالحقائق الروحية والثقافية لبلدانهم وأن يعملوا بهدف الحصول على مصداقية أكبر على صعيد التدبير السياسي والاقتصادي وذلك بمحاربة الارتشاء المعنوي والمادي.

4 - إن الغرب يتوفر على وقت قليل لتجاوز عقدة الخوف تجاه دين يمثل أكبر من ربع سكان الكرة الأرضية، وهو تخوف يولد شكلا من العنصرية مؤذ جدا. فلن يتم تدبير شؤون المستقبل بواسطة الخوف والهلع. وفي هذا المستقبل، سيضطرد نمو الاسلام ليصل إلى ما يناهز 40٪ من مجموع سكان العالم في بضعة عقود. وإذا كان بناء «أوروبا الروحية» التي ينادي بها البابا والسيد جاك دولور وقادة أوربيون آخرون، إذا كانت أمرا حسنا بالنسبة لإحدى القارات فلماذا لا يكون الأمر كذلك بالنسبة للمغرب العربي ولبقية العالم؟

5- إن أكبر مشكل تعرفه العلاقات بين الشمال والجنوب هو مشكل الاتصال الثقافي الذي يتطلب إرساء علاقات في كلا الاتجاهين وكذلك الاعتراف بالحق في الاختلاف والتنوع الثقافي داخل البلدان وفيما بينها. ليست عقدة الخوف تجاه الاسلام والعرب هي الوحيدة. فتوجد مثيلتها تجاه اليابان وهي تنهل من نفس الأسباب.

6 - إن الانتخابات الجزائرية والأحداث التي تعيشها افريقيا برمتها تؤكد إفلاس نموذج تنموي حاولت البلدان الغربية والمؤسسات الدولية، ومهما كان الثمن، أن تبيعه للعالم الثالث. إن المغرب العربي سيتجه نحو تنمية داخلية ومندمجة، نحو تعاون أكبر جنوب ـ جنوب، كما سيحد من سياسته الحالية المبنية على تبعية شبه شاملة لأوروبا، وسينتهي عهد المساعدة النفعية التي يتم استعادة خمسة أضعافها بأشكال أخرى. وربما يبدأ تلمس وسائل أخرى للتعاون المبني على احترام الآخر، وهي وسائل تفرض حتما إعادة

هيكلة عميقة للنظام الاقتصادي الدولي.

7 - سياسة كهاته ستعطي للموارد البشرية قيمتها وستكون أكثر صرامة تجاه التصرفات التي يعاني منها المغاربيون المقيمون بأوروبا، وأعتقد أنه لا يوجد أي احتمال للنزوح «في القوارب» انطلاقا من المغرب العربي. على العكس من ذلك أعتقد أنه سيتم التفكير في استقبال العمال المقيمين في إوروبا الراغبين في العودة.

8- ومهما يقع، فإن احترام الحريات العامة وحقوق الانسان وبالخصوص حقوق المرأة سينتصر لا محالة، فلا يوجد هناك مشكل «إسلامي» بل فقط مشكل الجهل في منطقة 55٪ من سكانها أميون. إن بلدا إسلاميا يحترم نفسه لابد أن يحاول تطبيق أولى التعاليم في القرآن «اقرأ باسم ربك».

وفيا يخص الأبعاد الأعم، فلا يسعني هنا إلا أن أعرض ما كتبته سنة 1981 في مقال بعنوان «أفْرَقَة إفريقيا».

«... إفريقيا لا تعيش في عالم مغلق. إنها ستتأثر من أية منطقة أخرى في العالم، لكونها الأكثر هشاشة بالهزات السياسية والاقتصادية والثقافية التي ستشمل بقية العالم. ليس للنماذج التنموية المتبعة إلى الآن أي حظ في أن تجابه وضعية تصبح كل يوم أكثر سوءا. ليس بمقدور أية قوة عسكرية أو دعم أجنبي أو أية مساعدة أجنبية أن تؤجل التحولات الهيكلية التي ستسمح لإفريقيا بأن تتوفر على حد أدنى من العيش الكريم. كل عرقلة، وكل تعطل لن يفعلا سوى تقوية كثافة الانفجار» (انظر Futuribles عدد 41. فبراير 1981 - باريس).

كلمة أخرى رائجة ضمن ردود الأفعال الغربية : «عدوى» الظاهرة الجزائرية بالنسبة لبلدان المغرب العربي الأخرى، والعالم العربي وإفريقيا. هل يوجد ما هو أفضل من عدوى الديمقراطية واحترام إرادة الشعوب؟ إن العدوى ستنتشر لأن قطار التاريخ يفرضها، أولئك الذين يلم بهم الشك أو الهلع بسبب جهلهم أمام تجدد الاسلام، أنصحهم بقراءة تصريح الجزائر المصادق عليه يوم 7 مايو 1990 في نهاية مناظرة دولية هامة حول الإسلام والمستقبل. فربما يفهمون ما جرى في الجزائر يوم 13 يونيو 1990.

نعم، إن الجزائر لم تبق كما كانت، والمغرب العربي والعالم العربي وإفريقيا لن يظلوا كما هم اليوم لأنهم بعد قليل سيكتشفون من جديد حقيقتهم ليقرروا في حرية ما يريدون أن يصبحوا عليه.

الرباط 14 يونيو 1990

عن : «سيد - ويست»

- "العلم"، 17 يونيو 1990

- "SUD-OUEST", Bordeaux, 16 - 06 - 1990
- "ALGERIE ACTUALITE", 21 - 06 - 1990
- "REALITES", Tunis, 22 - 06 - 1990

لا وحدة مغاربية
بدون حقوق الإنسانية (×)

بصفتكم الرئيس المؤسس للمنظمة المغربية لحقوق الإنسان، ما هي نظرتكم لهذه الحقوق؟

- ينطلق تصوري لحقوق الانسان من الاستعمار الذي فرض سابقا على بلادنا ومن الحركات التحررية التي جاءت كرد فعل عن هذا الاستعمار، ثم أيضا من كوني ناضلت في تلك الحركات ضد الاستعمار بالمغرب وفي تونس والجزائر، وتصوري ناتج أيضا عن قيم اجتماعية وإنسانية. لذلك فإن حقوق الانسان هي احترام كرامة الفرد؛ فبدون هذه الكرامة تنعدم التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتنعدم دولة القانون والمشاركة الديمقراطية والابداع العلمي والثقافي. وقد أصبحت حقوق الانسان من أهم العناصر الاستراتيجية في العلاقات الدولية، وهي نقطة انطلاق لأي مشروع مجتمعي أو نموذج تنموي.

وبصفتي مختصا في اقتصاد التنمية، أرى أن هذه التنمية لن تقوم لها قائمة إلا باحترام حقوق الانسان ورفع القمع وجميع المضايقات عنه. وتصوري لعالمية حقوق الانسان مطابق لما عبر عنه الراحل ادغار فور قبل وفاته عندما أكد أن هذه الحقوق ليست محددة بصفة نهائية كما ذهب إلى ذلك واضعو ميثاق حقوق الانسان، بل يجب ألا تؤخذ التحولات فقط بعين الاعتبار، بل كذلك ظاهرة انبثاق حقوق جديدة.

حقائق : وما هو تصوركم لتطور حقوق الانسان في المغرب العربي بالخصوص؟

المنجرة : لحد الآن هناك عناصر تدفع للتفاؤل؛ أولا لما حدث في تونس منذ ٧ نوفمبر قبل سنتين، حيث قطعت خطوات مهمة سواء على صعيد العفو العام أو الميثاق الوطني، كما صادق البرلمان التونسي على نصوص اعتبرها مهمة، وهذا لا يعني أنه لن توجد مشاكل أتمنى أن تكون عابرة خصوصا في نظرة الحكومة التونسية للتعددية.

وفيما يخص الجزائر، نرى أن أحداث اكتوبر قد عجلت بتطور الأوضاع والاعتقاد أن المكاسب التي سجلت في حقوق الانسان لن يتم التراجع عنها. أما المغرب فكانت له سوابق في التعددية، ومع ذلك يوجد فيه خرق لحقوق الانسان مثلما يحدث في بلدان العالم الثالث، وأحيانا في الدولة المتقدمة. ولو تم احترام الدستور في المغرب لحدث تحسن في حقوق الانسان. ويمكن للإنسان أن يتفاعل باحترام وتطبيق القوانين

(×) يناير 14990

التي وضعتها الدولة في المغرب لوضع حد لخرق حقوق الانسان.

وعلى العموم فإن هناك تقدما نسبيا في حقوق الانسان بالبلدان الثلاثة بالمغرب العربي. لكن يجب التأكيد أنه لا يمكن القيام بأية خطوة حقيقية لوحدة المغرب العربي إلا باحترام حقوق الانسان باعتبارها شرطا أساسيا ولازما للتنمية ولأية حركة وحدوية.

- تتحدثون إذن عن ضرورة إصدار وثيقة مغاربية لحقوق الانسان ؟

- توجد هذه الوثيقة التي كان لي شرف المساهمة في تحريرها في الجزائر خلال اجتماع منظمات حقوق الانسان في تونس والمغرب والجزائر وموريتانيا، وقد سميت تلك الوثيقة بإعلان الجزائر، وصدرت قبل القمة التأسيسية لاتحاد المغرب العربي بمراكش.

بصفتكم متخصصا في علوم المستقبليات، كيف ترون مستقبل المغرب العربي في القرن المقبل؟

- على مستوى العالم، ننتقل الآن من المجتمع الانتاجي الى حضارة المعرفة؛ وعوض الموارد الطبيعية أصبح الاهتمام الآن منصبا على الموارد البشرية. فلم تعد الرساميل والموارد الطبيعية كافية لدخول القرن الواحد والعشرين. ويتأكد أن الموارد البشرية هي التأشيرة الأساسية لدخول ذلك القرن.

ونتيجة دراسات قمنا بها في نادي روما، تبين أنه لا أمل في أية تنمية حقيقية بمجموعة من المجموعات إلا إذا كان عدد سكانها يتجاوز 100 مليون نسمة على الأقل، تؤمن وجود سوق. فعناصر التنمية الجديدة كالاعلاميات وعلوم الفضاء وغيرها من التقنيات لن تكون ذات أهمية في بلد صغير. فالمجموعة الاقتصادية الأوروبية مثلا بسكانها 300 مليون نسمة لا يمكنها أن تنافس اليابان أو الولايات المتحدة الامريكية في عناصر التنمية الجديدة، فكيف سيكون الحال مع بلدان صغيرة؛ المؤكد أنه لن يكون لهذه البلدان أية مساهمة في المستقبل إذا ما ظلت مبلقنة.

وإذا كنت سعيدا بمعاهدة اتحاد المغرب العربي، فإنها ليست كافية لمواجهة التحديات، وعلينا أن نكوّن رؤية موحدة فيما يخص المجتمع المغاربي في نهاية هذا القرن وبداية القرن المقبل. وما هو قائم بين بلدان المغرب حاليا هو بداية ضعيفة جدا بالمقارنة مع ما يواجهنا من تحديات وضغوط الاستعمار الجديد الثقافية والاقتصادية والسياسية.

والملاحظ أنه في الوقت الذي قررت المجموعة الاقتصادية الأوروبية إيجاد تصور جديد لعلاقاتها مع البلدان الواقعة جنوب حوض البحر الأبيض المتوسط، مازالت البلدان المغاربية المعنية بهذا التصور لم تتخذ أي موقف لمواجهة خطة أو سياسة أو رؤية خارجية قد لا تستجيب لمصالحها. إن المغرب العربي لم

يعد مسألة عاطفية ترتكز على عوامل اللغة والدين والعديد من القواسم المشتركة، بل إنه أصبح مسألة بقاء؛ لذلك لابد من العمل بجدية والدخول في سباق مع الزمن لتدارك الوضع بما يجنب المنطقة عوامل التشرذم، ويوفر لها مقومات تنمية حقيقية.

- كيف ستكون علاقة بلدان المغرب العربي مع أوروبا الموحدة في المستقبل؟

- هذا السؤال نظري، لأن هناك أوروبا الموحدة وما قطعت من أشواط في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والتنسيق السياسي والمالي وفي البحث العلمي. في أوروبا يوجد نشاط ثقافي وإبداعي كبير وتقدم في مختلف الميادين، بينما في المغرب العربي لا شيء لنا مماثل لذلك إلا على الورق. لذلك لا وجه للمقارنة بين الجانبين. لذلك لا يمكن أن تصل بلدان المغرب العربي إلى علاقات متوازنة مع المجموعة الأوروبية، قبل التنسيق فيما بينها. والواقع يدعو الى التشاؤم بخصوص مستقبل العلاقات بين الطرفين في المدى القصير، لكن يمكن أن نتفاءل في ما يخص المدى البعيد. فأوروبا لن تمثل في نهاية القرن سوى ٥ في المائة من مجموع سكان العالم وبعد 35 سنة لن تمثل سوى 3 في المائة من مجموع سكان العالم، مما يعني أن هذه القارة لن تستمر في مواصلة نشاطها الاقتصادي إلا بالاعتماد على القوة البشرية من الجنوب.

والآن لدينا أكثر من 800 خبير مغربي مستواهم أعلى من الدكتوراه يشتغلون في المركز الوطني للبحث العلمي بفرنسا وإذا أضفنا الى ذلك خبراء من تونس والجزائر سنصل الى حوالي 1500 خبير من المغرب العربي يعملون في فرنسا. ومن المؤسف أن أحسن الأدمغة المغاربية توجد في الغرب؛ والسبب في ذلك هو عدم تشجيع البحث العلمي في بلدانها وتوفير المقومات الضرورية لبلورة كفاءات تلك الأدمغة في بلدانها الأصلية.

- تكتبون كثيرا باللغة الفرنسية ومع ذلك تشنون حملة مستمرة على الفرنكفونية، لماذا هذا العداء للفرنكفونية؟

- الواقع أن أكثر من خمسين في المائة من كتاباتي هي باللغة الانجليزية، وبعدها أكتب باللغة الفرنسية ثم بالعربية، وهذه المسألة ليس لها ارتباط بالعاطفة، لأن الباحث يهدف الى تبليغ ونشر أفكاره. اكتب باللغة الانجليزية لما لها من صدى كبير، ثم لأن كل ما كتبته بهذه اللغة ترجم الى الفرنسية وأحيانا الى العربية، ويجب أن نفرق هنا بين اللغة كأداة عمل واللغة كمنهج خلق وإبداع. فإنا لا اقرض الشعر أو أكتب الخواطر، بل استخدم اللغة الانجليزية لتبليغ أفكاري وآرائي في البحث العلمي الى فئة عريبة.

ولا يمكن لأي كان أن يحارب أية لغة، لأن جميع اللغات من الحضارة الانسانية، والشيء الذي أحاربه لا علاقة له باللغة إلا من حيث استخدامها لأغراض أخرى، وأقصد هنا الفرنكفونية التي أحاربها لعدة أسباب.

وقبل التطرق لهذه الأسباب أذكر أن المجموعة الفرنكوفونية التي تتكون من ٣٤ دولة لها الحق في التسجيل في كتاب «جينز» للأرقام القياسية من حيث الفقر والتشتت والبلقنة نتيجة الاستعمار، نحو ما في إفريقيا جنوب الصحراء، ثم الجهل حيث يرتفع معدل الأمية. كما يوجد أكبر خرق لحقوق الانسان في هذه المجموعة التي ليس هناك أي مبرر منطقي لإنشائها. ومن الأشياء الغريبة في هذه المجموعة الفرنكفونية أن الأغلبية فيها ناطقة باللغة العربية، وتدين بالإسلام. وإنشاء هذه المجموعة يماثل الاستعمار الجديد، ومن المؤسف أن ١٥ دولة افريقية في النادي الفرنكفوني تعيش على الصدقات، حيث تدفع فرنسا قسطا من أجور موظفيها وجيشها وكبار مسؤوليها، مما ينتج تبعية سياسية واقتصادية شاملة. والشيء الذي أحاربه هو أن تخطط فرنسا التي لها وزن عالمي لكي تستخدم لغتها كواجهة لأغراض سياسية واقتصادية ضد دول أخرى فقيرة.

ولا أتوقع للمجموعة الفرنكفونية بقاء أطول، لأن اندماج فرنسا في أوروبا الموحدة لن يتركها طليقة اليدين في تحديد سياستها بعد خمس سنوات على الأكثر؛ كما ستنسحب منها تونس في ضوء التغيير منذ 7 نوفمبر، إذ لا ننسى ان الحبيب بورقيبة والرئيس السينغالي السابق ليوبولد سيدار سنغور والرئيس النيجيري الراحل حماني ديوري كانوا من المدافعين الأفارقة عن الفرنكفونية، ومن آباء هذه الفكرة.

والمؤكد أن الفرنكفونية الى زوال لأنها ليست قائمة على أي أساس منطقي؛ وتشاطرني في هذا الرأي الكثير من الأوساط الاقتصادية والسياسية الفرنسية!

"حقائق" ـ عدد 224 ـ من 1 الى 1989/12/7

لحسن عبد الخالق

عن العلاقة بين السوق الأوروبية والمغرب العربي (×)

إني أشارك ضمن هذه الندوة بصفة شخصية دون أن أتبادل قط قبل استئنافها أية وجهة نظر مع أي زميل لي قادم من المغرب بصفة جامعية أو كمسؤول رسمي. وبالتالي فصفتي للحضور بينكم هي صفة الباحث الذي يتمنى أن يجد من الحاضرين مما يقدمونه جديدا.

على مستوى الاشكالية المطروحة خلال هذا اللقاء، كنت أطرح دائما اختبارا، أتخيل فيه نفسي في عالم عام 2000 أو 2010، وآخذ ورقة مثل هذه التي بين يدي أقدمها للطلبة ثم أطرح عليهم السؤال : هل يمكنكم تأريخ هذه الورقة" ؟

سيدي الرئيس : إن برنامج اجتماعنا هذا والإشكالية التي تطرح علينا خلاله كان يمكنها أن تطرح خلال سنوات الخمسينات. كما يوجد ذلك في تقارير الأمم المتحدة لسنوات 1950 و 1960، ومن الصعب إذن أن نعتقد أنه لم يعد يفصلنا عن الألف الثالثة سوى 11 سنة فقط.

إذ كيف يحدث أن يجتمع رئيس الجمهورية الفرنسية مع رؤساء دول غربية للحديث عن التكنولوجيات المتقدمة للقرن 21، والتي تربطها السوق المشتركة بأسبقيات مستعجلة لبرامج «فاست 1» و«فاست 2» و«أوريكا»، هذه البرامج التي تتناول التكنولوجيات المتقدمة، في حين نجد المحادثات مع دول الجنوب تتأخر في قضايا شبه وهمية.

إن نموذج مجتمع الإنتاج قد انتهى، وسيتم دفنه بصورة نهائية مع نهاية هذا القرن، أو خلال السنوات العشر المقبلة التي لن ترى فيها إلا حالة من الانهيار والتغير الشامل الذي سيعم الدول المصنعة، حيث تجد نموذجا جديدا في طريق التشكل على مستوى المعلومات والمعرفة، وهو نموذج يعوض فيه الاعلام المادة الخام ويصبح له بذلك ثقل أكبر كرأسمال جديد.

وإذا ما عدنا الى الوثيقة التي أعدها وزير الخارجية الفرنسي خلال قمة الفرنكو إفريقية الأخيرة المنعقدة سنة 1987، نجد كيف يعرض المستقبل الذي يحدد مسبقا في المواد الأولية. أعتقد أن لا شيء سيخرج عن المناقشات المتعلقة بشمال - جنوب، مادمنا نهمل الهياكل والبنيات وكذلك الممارسات الاقتصادية التي لا تعترف بالجنوب ولا بقدرته على إحداث التنمية واستعمال التكنولوجيا المتقدمة، وما دمنا

(×) فبراير 1988

نتعامل مع الجنوب كأسواق نقوم بتصدير التكنولوجيات المتخلفة إليها؟

كيف يحدث هنا وهناك حين لا نجد حتى إمكانية التعبير عن أنفسنا مع الآخر حول مفاهيم أخرى وبنيات أخرى ستهيمن على العالم؟ أي وزن لأوربا الإثني عشرية على مستوى التكنولوجيات المتقدمة داخل النظام العالمي ؟ إنها ضعيفة جدا. ومن تم حين تريد الحديث عن تملك رؤية للمستقبل يجب أن تتحدث عن شيء في طريق التشكل، ولن نعود الى بنيات هي مجرد إعادة إنتاج مطابقة لنفس نمط العلاقات الاستعمارية القديمة.

سواء أردتم أو لم تريدوا وربما هذه ليست نواياكم، فإن النموذج الذي عرض علينا هو نموذج استعماري جديد، نموذج للبنك الدولي وصندوق النقد العالمي اللذان يحاولان بيع نماذجهما التنموية. وهو نموذج لتنمية أبانت عن فشلها في كل دول العالم الثالث كانت هذه الدول اشتراكية أو ثورية أو عسكرية أو إصلاحية أو ليبرالية أو رجعية، لا نجد واحدة منها طبقت نموذجا تنمويا ولم يفشل، لأنها كلها نماذج فرضت علينا لاتباع منظومة «المساعدة».

كل العالم اليوم، يكتشف أن «المساعدة» فعل من أفعال ومعوقات التنمية، وهناك طبعا حكومات هي في حاجة عند آخر كل شهر لسلفات أو مساعدات قصد تسديد أجور موظفيها، وهي غير قادرة على الاستمرار دون تصعيد ذلك لأنها دول أفلست كما تفلس الشركات، وليتكم تدعوها تفلس لأنها على الأقل تقلص من واقع البلقنة.

لأنتهي هنا إلى نتيجة أولى هي أنه إما أن تبرهنوا على أنكم قادورن على ترك مركزيتكم حول الذات الأوروبية وتتواصلوا في إطار نظام مفتوح ثقافيا يسهم ببناء تضامن جديد، أو أنكم لن تكونوا قادرين على فهم الأجيال الجديدة التي تختلف عن الأجيال السابقة جذريا، والتي تشكلت نخبها داخل مدارسكم. إن الجيل الجديد غير الجيل الذي كانت لكم معه مشاريع والذي هو جيل من صنعكم وله نفس قيمكم ولم تعد له أية مصداقية في عيون الشباب.

تعلموا بكل تواضع وخجل وتقدير كيف تتواصلون مع الجيل الجديد وتكونوا على استعداد لسماع الآخرين، ولا تنتظروا تواصلا أو مجهودا للتواصل من جانب واحد، ليس هناك أيضا تواصل بين الشمال والجنوب، وقد كنا مضطرين لتعلم أدبكم ومسرحكم واشعاركم وموسيقاكم لأجل فهم قيمكم السوسيو ثقافية، فاي مجهود قمتم به أنتم بالمثل ؟ باستثناء بعض استشراقكم الجيد والذي هو في جزء كبير منه لم يكن اطلاقا لخدمة المعرفة اطلاقا، ولكن في خدمة المصلحة الوطنية العمومية لبعض الشيء.

ساسمح لنفسي أن افتح هذه النقط وأختم بواحدة فقط. لن أقول لكم : حاولوا التفكير في تغيير

البنيات الاقتصادية العالمية التي تخرج عن اطار برنامج هذا اللقاء وعن أوراق العمل خلاله. إنكم تضيعون وقتكم بالنموذج الحالي لأنه ليس نموذج المستقبل، وهو ليس نموذج روابطكم مع اليابان، فتخيلوا معي وحدة أوروبية يابانية أو وحدة أوروبية أمريكية. ثم قدموا نموذجا مماثلا؟ هل ستناقشون معهم نفس النقط التي كانت تناقش قبل دقائق وفي الوقت الذي نجد فيه مجرى التكنولوجيات في تغيير جذري للمشهد الاقتصادي وتتركز حوالي 60٪ من مناصب الشغل بالدول المصنعة في قطاع المعلوميات والتواصل؟

هل نحن هنا لتحدثوننا فقط عن المواد الأولية التي في أهميتها الاقتصادية تسير في اتجاه الانخفاض، أو عن التصنيع المتدرج أو عن تجارة الطماطم وزيت الزيتون لشراء مفاتيح اليد من صنع مصانعكم المتخلفة في تكنولوجيتها بمعدل عشرين سنة.

أين هي التغيرات التي هي بصدد تحويل العالم إلى قرية كونية، لا تمثل أوربا والغرب داخله سوى مفهوم جيوثقافي هو في تراجع دائم سواء على المستوى الديموغرافي أو الاقتصادي. فأوربا وأمريكا الشمالية لا يمثلان سوى 30٪ من سكان العالم سنة 1950 أصبحت اليوم 20٪ وستتقلص عام 2000 الى 17٪ والى أقل من 15٪ عام 2025، فهل تعتقدون أنه يمكن بـ 15٪ الاستمرار في استغلال 80٪من الثروات العالمية.

مع بداية عام 2000 ستصبح المادة النسبية للكون أي الأشخاص من مستوى الدكتوراه وما قاربها سيكونون من دول العالم الثالث، ولن يكونوا جميعا في العالم الثالث لأن من بينهم من سيكون بالولايات المتحدة الأمريكية وآخرين بألمانيا وبفرنسا لكن وزنهم الثقافي ورؤيتهم للإنسانية ومفاهيمهم وقيمهم الروحية ستظل من العالم الثالث.

فهل يمكننا سيدي إنكار قوة التغيير وبالتالي الاستمرار في معالجة إشكاليات كان أولى لها أن تكون في متحف، إنها إشكاليات ستقاوم من أجل الحياة لبضع سنوات أخرى لأنها تساعد أنظمة إعادة الانتاج والتملك في الوضع الراهن، ولأنه ليس هنالك أفضل من الاستمرار في اللامساواة بين الشمال والجنوب وداخل الجنوب نفسه.

ولكن هذه الفترة الجميلة لن تتجاوز حدود السنوات الخمس القادمة. ورغم أن هنالك داخل هذه القاعة أشخاص قادرون على رؤية أبعد من ذلك وتجاوز النظرة الى أبعد من حدود الأنف والى أبعد من عين الجوار، ويفكرون بكل شرف أن برنامجنا في العمل في حاجة الى إعادة النظر؟!

على مستوى نقطة اكثر مادية أطلب منكم سيدي الرئيس بعد استشارة القاعة تعديل النقطة رقم ٦ من جدول اليوم حتى نقرأ علاقات المستقبليات بين المغرب العربي والسوق الأوروبية المشتركة، بدل

وضعية وآفاق العلاقات الاقتصادية بين دول المغرب العربي. وليكن لكم بعض الاحترام والحياد والتقدير ودعوا المغاربيين عنكم يتناقشون فيما بينهم عن روابطهم، ليكن الحديث عن مناقشات لمستقبل علاقات السوق الأوروبية مع الدول المغاربية ليكون ذلك مقبولا.

شخصيا، لن أتحدث إلا لنفسي، وأخبركم منذ البداية أن النقطة السادسة ما لم تحذف سأكون مضطرا لمغادرة القاعة، وإني لم اقاوم منذ سنوات الا ضد الهيمنة، بأشكال متعددة مثل الأبوية، ولن أسمح أن أجد نفسي في مناقشة لمترويول قديم عن مستقبل العلاقات بين الدول المغاربية، فدعوا هذه العلاقات عنكم لأنها لا تعنيكم.

إنه خلال المدى المتوسط والطويل لن أحمل هم مثل هذه المحادثات عن قضايا مسماة «مشاكل دول المغرب العربي الداخلية» لأنها ستحل فيما بينهم، فرجاء أن يتم إعادة صياغة النقطة السادسة حول مستقبل العلاقات بين السوق الأوروبية ودول المغرب العربي حتى تنسجم مع كرامتنا وكرامتكم.

ندوة منتدى المتوسط - مارسيليا – فبراير 1988

جريدة "ليبراسيون" (LIBERATION) - الدار البيضاء - 1989/6/16

حق الاختلاف وواقع الهيمنة : عن التعددية والاختلاف الثقافيين (×)

الهوية الثقافية واحترامها

الهوية الثقافية مشكلة يتوقف حلها أولا وقبل كل شيء على التعلم. وقد أصبحت اليوم مشكلة عالمية ذات شقين. فهناك من ناحية تهديد بالتجانس الثقافي أو بأن يصبح العالم وقد اتخذ ثقافة متشاكلة متجانسة، ومن ناحية أخرى خطر قريب الوقوع، وهو التفكك الثقافي والسيكولوجي للأفراد وللجماعات معا، وهذان الجانبان بطبيعة الحال غير مترابطين.

الهوية الثقافية مشكلة عالمية ذات شقين : التجنيس العالمي، والتفكك المحلي.

ويمكن التعبير عن هذا الخطر المزدوج بطريقة أقوى وأكثر استثارة. فهناك نوع من السلوك في الغالب يكون لا شعوريا، ويبدو للآخرين على أنه عدوان ذو جذور أو أصول ثقافية، ولكن هناك له تسمية أخرى، إذ يمكن أن يسمى «عرقية أسيء توجيهها»، وهذا السلوك يتميز به أهل الشمال، وبه تهديد للتفاهم الدولي، والأمر في حاجة الى نسيانه أو محوه من الذهن، وفي الوقت نفسه نجد في كل الدول النامية تقريبا - وحتى في بعض الدول المتقدمة الصغيرة - نوعا من الفصام الثقافي، كما نجد أن هذه الدول تتخلى عن بعض تقاليدها الثقافية القيمة، وتستبدل بها تعلما أجنبيا ونماذج ثقافية غريبة على أسلوب حياتها، وهذا يشكل مصدرا هاما للانحلال الثقافي وسوء التوجيه.

ونظام عالمي هذا شأنه مهيأ للعدوان الثقافي من جانب بعض الدول، وللانحلال الثقافي عند الدول الأخرى لا يمكن اعتباره أساسا للتفاهم المتبادل أو للحوار، أو للتعاون والتصافر، أو للقيام بجهود مشتركة، أو للتماسك والتعاضد. ثم إنه واضح أن جذور هذه الحالة ترجع الى الاستعمار، ويمكن هنا الاستشهاد بمسودة المرسوم الثقافي الافريقي[1] (1976) حيث تقول إن كل الدول الإفريقية واجهت تحت السيطرة الاستعمارية ظروفا سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية أدت الى انحلال شخصية بعض المجتمعات الإفريقية، كما أدت الى تزييف تاريخها وإهدار قيمها والى استبعاد لغتها وإحلال لغة المستعمر في الأوساط الحيوية والدوائر الرسمية. ولكننا الآن أمام الاستقلال كحقيقة قانونية. وإذا كان الاستقلال الاقتصادي

(×) 1979

(١) مسودة المرسوم الثقافي كما تبناها وزراء الثقافة الأفريقيون في أديس أبابا (24 - 27) مايو 1976

ممكنا في متناول اليد، فأين نحن من الاستقلال الثقافي ومن الهوية الثقافية[2]؟

وتشكل الهوية الثقافية على المستويين الوطني والدولي واحدة من أهم الحاجات النفسية غير المادية، ويمكن أن تكون مصدرا من مصادر الصراع المتزايد في داخل المجتمعات وبين مجتمع وآخر، وتأتي خطورة التمزق من الآثار الجانبية للفجوة الزمنية في مجال التعلم عندما يكون الشعور بها في أوله. مثال ذلك أن الكثيرين من صانعي القرارات في الدول النامية كانوا ولايزال الكثيرون منهم من المحملين بالقيم والمفاهيم مما أوجده المستعمرون السابقون في نظم التعليم[3].

وحيث إنهم بدأوا يتركون المجال فإن يقظة جديدة نحو الهوية الثقافية بدأت في الظهور والنمو وهي النداء الوحيد الذي يجتذب من تعلموا ومن لم يتعلموا في المدارس، ويجعلهم يسعون اليه بطريقة تلقائية، ما تثيره الهوية الثقافية من تحركات وتساؤلات واتجاهات أهم وأخطر بكثير مما تثيره المسائل الاقتصادية والمالية في الحوار بين الشمال والجنوب.

الهوية الثقافية مصدر للتصارع المتزايد في المجالين الدولي والاجتماعي.

فنحن نواجه صراعا جديا في مجال القيم. وقد أصبح في دخول «نادي الدول» نوع من المقاومة من جانب الأعضاء القدامى. فهم يقيمون الحواجز حتى لا يعترفوا بالهوية الثقافية للأعضاء الجدد. ويوجد نوع من التحمل ولكن لا يوجد تقبل صاف أو ترحيب مخلص بقيم الجنوب، ذلك لأنه لا يوجد جهد جاد لمحاولة فهمها. وهذا هو لب مشكلة الخيبة التي تصيب الحوار بين الشمال والجنوب. وأما السبب في كون الصراع القيمي أساسيا لهذا الحد، وفي كون التغير يقتضي عملية ضخمة في مجالات التعلم الفردي والجماعي ، فإنه يمكن إرجاعه الى مشكلتين : إحداهما مشكلة الاستقطاب، وثانيتهما مشكلة إعادة التوزيع.

أما مشكلة الاستقطاب فنقصد بها ذلك الاتجاه العقلي الناتج عن التدريب والذي جعلنا نرى التعدد على حساب الوحدة، والوحدة على حساب التعدد. فالهوية الثقافية أو الوحدة الثقافية يمكن أن يراها البعض

---

(2) للاطلاع على إجابة عن هذه الاسئلة يمكن الرجوع الى تقرير الندوة التي عقدت تحت إسم "Future Developpement Prospects of Africa Towards The year 2000", op.cit و من بين المقترحات تنفيذ بعض البرامج العملية في مجال التربية المهيأ لإقامة الوحدة الافريقية A New pedagogy geared to African unity وهي تؤكد الحاجة إلى قيم عملية و ثقافية واجتماعية لتكون أساسا لمنهج جديد في التنمية و التقدم.

(3) و يرجع إلى القرن الرابع عشر ما أشار إليه المؤرخ العربي ابن خلدون (واضع أسس علم الاجتماع) حيث شرح بكل وضع ظاهرة التقليد في مجال القيم بين المستعمر و المستعمر، أو بين الغالب و المغلوب، و كان ذلك في مقدمته (حوار في التاريخ العالمي ١٣٧٧). ويمكن الاطلاع على ما كتبه باولو فريير عند مناقشته كيف أن المغلوب يسعى لتقليد الغالب في كتاب: Pedagogy of the Oppressed, op.cit

منافية للترابط أو العاضد الدولي، ويرى البعض الاستقلال على أنه يتعارض مع التكامل، والبعض الآخر يرى التماسك والتعاون على أنهما يتنافيان مع الاعتماد على الذات، وهناك أناس يرون الشعور العالمي والانتماء العالمي متعارضين مع الاستقلال الوطني. ومعنى هذا أن مفهوم التشارك ينهار عندما يصل الى المستوى العالمي. ويرجع هذا الانهيار إلى قيم متعلمة أو قيم أسيء تعلمها. ونحن نحتاج في المنظور التعلمي الجديد إلى مجموعة من القيم المتعددة التي نرى بواسطتها الهوية الثقافية على طبيعتها منافية للعزلة والانكماشية والانطوائية. فهي الأساس اللازم لتفاعل عالمي له معناه. المشكلة أن علينا أن نتعلم أن الإنسان من حقه أن يكون مختلفا عن غيره، وأن الحق في الاختلاف يتضمن ضرورة السعي لتماسك عالمي. ومن شأن الهوية الثقافية أن تعطي الناس شعورا بالكرامة والعزة ولا تعطيهم الاتجاه نحو الخضوع لمجرد تأمين البقاء.

ويوجد تراث ثقافي إنساني مشترك، وتقع علينا مسؤولية كبرى في دفعه وتقدمه. والحفاظ عليه. ويكون لهذا الميراث مغزى أكبر في نفوس الناس إذا اتجه الانتباه الى دور الإنسان المستمر في الإبداع والابتكار[4] بدلا من أن يكون متجها الى المتحف وما يحويه من صناعات وأعمال مضى وقتها. وتلك النظرة التي تبرز دور الأشخاص المختلفين في ابتكار الثقافة يمكن أن تكون هي العمود الفقري لمفهوم الترابط البشري العالمي، وهو ترابط لا يحتاج بالضرورة الى حكومة عالمية، وإنما يتضمن التفاهم العالمي والتعاون الدولي مما ينبني على مجموع من المعايير الأخلاقية التي تمنع تحقيق السيادة عن طريق العدوان الثقافي.

والمسائل الكبيرة التي تثيرها الهوية الثقافية على درجة كبيرة من التعقيد لأنها تختلف عن المسائل المادية الدولية في كونها لا تحل بإعادة التوزيع. فالاستقلال الثقافي ليس شيئا يؤخذ أو يعطى بقرار عن طريق الاتفاق الدولي بإعادة توزيع الموارد. ولو أن فكرة توزيع الموارد لا غنى عنها في أحوال ومجالات أخرى. فالهوية الثقافية نوع من الإدراك، وهي كذلك نوع من الحس المعنوي أو نوع من السياق الكلي المتكامل أو مجموعة من العلاقات الإنسانية والقيم البشرية.

الهوية الثقافية إحدى مشكلات التعلم مما لا يخضع لعمليات إعادة التوزيع على النطاق الدولي :

وكل هذه من تصميم تجالات التعلم. وفي هذا نحتاج الى منظور بعيد المدى ليجعل هذه المدركات وتلك المفاهيم متآزرة متشاركة متلازمة متفاعلة ومتبادلة، وهذا نمط من أنماط الاستقلالية تحكمه وتوجهه

(4) ليست القيم أمرا ثابتا استاتيكيا وهي مصادر العمل و التغير، ويحسن الاطلاع على:
P. Kirpal, "The Crisis of Culture and Developement", in Cultures III,4, UNESCO, Paris (1976)

عمليات التعلم ودوراته. فإذا أردنا أن نعهد للقرن الواحد والعشرين عهدا يتصف بالحيوية الثقافية، فمن الضروري أن نبدأ من الآن بالعمليات التعلمية للآباء ولأبنائهم ممن سيبلغون مرحلة النضج وسن اكتمال النمو عند بزوغ فجر القرن الواحد والعشرين. ولكن كيف يكون هذا وما الذي تتطلبه الهوية الثقافية ويتطلبه التهجين الثقافي والإخصاب الثقافي المتبادل من مجالات التعلم؟ هناك اعتباران يمكن أن يشار اليهما باختصار : أولهما أن مفاهيم الترابط العالمي عن طريق ازدهار تنوع الثقافات يستبعد فكرة النموذج التعلمي العالمي الموحد ويستبعد إمكان فاعليته وحيويته. والناس جميعا من نوع واحد، ولهم عالمهم من الصفات المشتركة. ثم إن عمليات التعلم عندهم قريبة إحداها من الأخرى. غير أن لكل فرد خصائصه، ولكل مجموعة خصائصها مما يبرز الفروق بين فرد وآخر وبين مجموعة وأخرى. وفي هذا يكمن الأمل المنشود لمنظور تعلمي جديد، هذا إذا أخذه بصورة جادة أولئك الذي يملكون القدرة والوظيفة ويحتلون الوضع الذي يتمكنون به أن يقودوا الطريق الى تفاهم عالمي ثقافي متين.

وثانيهما أن الأمر الحيوي والهام في دفع فكرة الهوية الثقافية ودعمها هو إدراك المسائل العالمية وإدراك تعقدها. فعلى كل شخص أن يرى هذه المسائل على الأقل من زاويتين : إحداهما الزاوية العالمية، وثانيتهما الزاوية الثقافية الخاصة، وطنية كانت أو محلية. ويقتضي هذا الاحترام الكامل لثقافات الآخرين، كما يقتضي الإجماع على مجموعة تحتوى الحد الأدنى المشترك للقيم الثقافية العالمية. يضاف الى هذا ضرورة القيام بدور أكبر في التبادلات الدولية مما يجرى على أساس العلاقات المتعددة الجوانب والأوجه، والتي تأخذ في اعتبارها جميع المراحل والأعمار حتى يتمكن كل واحد من رؤية عالمية التراث البشري، ويتمكن من أن يراه من خارج ثقافته. ويكون في تنمية هذا الإدراك وتنمية التوعية به تحقيق الأهداف السياسية لمنظور جديد للتعلم...

هـوامـش :

فقرات من التقرير لنادي روما الدولي.

«من المهد إلى اللحد الرباط، دار الستوكي للنشر، 1981.

«التعلم وتحديات المستقبل»، المكتب المصري الحديث»، القاهرة، 1981.

NO LIMITS TO LEARNING, BRIDGING THE HUMAN GAP
Report to the Club of Rome, Co-authors : James Bothin & Mircea Malitza
London, UK & New York, USA ; Reprinted in 1980, 1981, 1982, 1983, 1984, 1988.

Pergamon Press, 1979,
DILLEMA, Verlag Fritz Molden, Vienna, Austria & Munich, FR Germany, (1979).$
DAS MENSCHLICHE
APPENDER, HORIZONTE SIN LIMITES, Santillana, Madrid, Spain, 1979.$
IMPARARE IL FUTURO, Mondadori, Milano, Italy 1979$
ON NE FINIT PAS D'APRENDRE, Pergamon Press, Paris, France, 1980.$
LERNEN, Holdmann Verlag, Munich, FR Germany, 1980, Pocket Book Edition$
ZUKUNFTSCHA,GE
DIAMOND INC., Tokyo, Japan, 1980, Japanese edition.$
OPPIMISEN UUDET HAASTEET WEILLIN AND GOOS, 1981, Helsinki, Finland.$
UL FARA LIMITE AL INVATRII, EDITURA POLITICA, Bucarest, Rumania, 1981.$
ORIZON
GRANIC, PANSTWOWE WY DAWNICTWO NAUKOM, Warsaw, Poland, 1982.$
UCZYC SIEBEZ
Chinese edition of NO LIMITS TO LEARNING, Beijing, China, 1984.$

قضايا المستقبل الاسلامي
الدراسات المستقبلية : الضرورة والواقع والآفاق (×)

إنه لشرف عظيم بالنسبة لي أن أجد نفسي بين رجال ونساء هذا الجمع الكريم، المتميزين بعطائهم الفكري، وسعيهم لتوضيح وحل المشاكل التي يواجهها العالم الإسلامي. نعم، موضوعنا ذو استراتيجية بالغة بالنسبة لمستقبل العالم الإسلامي، خاصة في هذا الظرف الحرج الذي تهتز فيه البسيطة بأجمعها بفعل القطيعات والتحولات التي بشر بها منذ بضع سنين أولئك العاملون بمجال المستقبلية. لذا فأنا على علم بصعوبة مهمتنا في مواجهة تعقيدات الموضوع الذي نحن بصدده.

فمنذ أزيد من خمس وعشرين سنة وأنا أزاول البحث في ميدان المستقبلية، وأحسب أني شاركت في ما يربو على مائتي ندوة وملتقى دولي حول المستقبل. لكنها المرة الأولى، فيما أذكر، والتي يعقد فيها ملتقى دولي مخصص كلية لمستقبل قضايا العالم الإسلامي. إنها لعلامة نضج، نتمنى أن تتلوها مبادرات علمية على نفس الدرب، وبرامج بحوث عملية مصحوبة بوسائل ناجعة وإمكانيات كافية.

كما أتمنى أن تتسع الرقعة الجغرافية التي يمثلها المشاركون في الحلقات القادمة من برنامج المركز، لتتجاوز حدود العالم العربي الذي يضم ديموغرافيا أقل من 20 في المائة من مجموعصالمسلمين. فعلينا حاضرا ومستقبلا تجنب أي شكل من أشكال العرقية التي تتنافى وروح الإسلام، ذلك الدين القويم الذي لا ينفي التعددية، ولكن يرحب بها ويدعو لها في إطار من الوحدة والتكافل. «**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعاوفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم**» (الحجرات : 13).

إن هذا الملتقى في نظري نموذج سيتكرر في لقاءات أخرى أكثر تمثيلا لواقع وطاقات العالم الإسلامي. فلنتجنب أن نعمم في غياب هذا التمثيل، الخصوصيات المتعلقة بالعالم العربي على العالم الإسلامي كما يفعل بعض الباحثين الغربيين عن عمد وقصد. ليس هذا بنقد،ولكنه مجرد تحفظ على الصلاحية الشمولية لأقوالنا ونتائج لقائنا.

تتطرق ورقتنا لثلاثة مواضيع:

(×) قضايا المستقبل العربي" ندوة الجزائر:

1- أهمية الدراسات المستقبلية

2- واقع العالم من جهة، وواقع العالم الإسلامي من جهة أخرى

3- الآفاق المستقبلية للعالم الإسلامي

1- أهمية الدراسات المستقبلية

اسمحوا لي بداية، ما دام الموضوع يتعلق بمستقبل الإسلام، أن أوضح بعض المفاهيم الإسلامية. ففي الإسلام، هناك فرق شاسع بين "الغيب" والذي هو من علام الغيوب سبحانه وحده، بين مفهوم "المستقبل" كما يوظفه الخبراء في مجال الدراسات المستقبلية. فمفهوم المستقبل حسب هؤلاء انعكاس على الزمن لآثار ونتائج أعمالنا أو عدم عملنا اليوم . وواضح من مضمونه ودلالته أن الأمر لا يتعلق لا بنبوءة ولا بكهانة.

ونشير بداية إلى أن مصطلح " مستقبل" لم يرد في القرآن إلا في صيغة "مستقبل" بكسر الباء،وذلك في قوله تعالى: "فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا، بل هو ما استعجلتم به، ريح فيها عذاب أليم". (الأحقاف : 24) ، والقرآن الكريم مليئ بالمصطلحات والألفاظ الداعية لإمعان النظر والإعداد للمستقبل. من ذلك قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله، ولتنظر نفس ما قدمت لغد" (الحشر: ١٨)، وقوله سبحانه وتعالى " أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم، فبأيّ حديث بعده يؤمنون" (الأعراف: 185)، وقوله كذلك : " ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا، إن في ذلك لآيات لقوم يوقنون، ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، وكل آتوه داخرين" (النمل: 86). ففي هذه الآيات كلها وغيرها دعوة للإستفادة من الحاضر،والعمل فيه مع إمعان النظر في المستقبل والاستعداد له، المستقبل الذي هو الآخرة من جهة، والعمر المقبل من الحياة الدنيا من جهة أخرى :

أما بخصوص كلمة "الغذ" ، فقد وردت خمس مرات في القرآن الكريم:

- " ولتنظر نفس ما قدمت لغذ" (الحشر : 18)
- " أرسله معنا غدا يرتع ويلعب، وإنا له لحافظون" (يوسف : 12)
- " ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا " (الكهف: 23)
- " وما تدري نفس ماذا تكسب غدا" (لقمان : 34)
- " سيعلمون غدا من الكذاب الأشر" (القمر : 26)

ونلاحظ أنه بقدر ما تدعو الآيتان الثالثة والرابعة جمهور المومنين إلى رفض الكهانة التي تريد أن تقدم تاريخا مفصلا للغد، بقدر ما نجد دعوة صريحة في الآية الأولى إلى استشراف الغد حتى يتزود الإنسان بالتقوى اللازمة، ويتجنب المفاجئات الداهمة.

وإذا تمعنا في مفهوم الآيات التي ذكرناها، أدركنا أن المنهي عنه تكهن صورة واحدة للمستقبل، يدعي متزعمها معرفتها سلفا. أما تصور تجلي ذلك الغد في صور متعددة، فهذا نحن مطالبون به، حتى نحشد القوى لدفع الشر الذي نتوقعه، ونكثف الجهد لجلب الخير الذي نستبشره.

هذا إضافة إلى ورود عديد من الآيات تجسد الترابط المتين بين عمل الفرد والأمة في الحاضر، ونتيجة ذلك العمل المحتملة في المستقبل، إن خيرا خيرا، وإن شرا شرا، لا نرى ضرورة لعرضها في هذه الورقة .

ومعلوم أن الإسلام في حد ذاته بشكل نظرة شاملة للعالم الدنيوي الحاضر والعالم الأخروي المقبل، وهو يحمل في طياته، بالصلة التي يقيمها بين العالمين، ديناميكية أساسها التغيير وحوافزه، وذلك في جميع المجالات سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، ديناميكية تجعل الإنسان مسؤولا عن مستقبله، مفجرة طاقات التغيير والسعي نحو الأفضل لدى المجتمع بين حاضره الآني ومستقبله القريب، سواء حين التفكير في إصلاح واقعه الذي يحياه، او حين البرمجة لغده الذي يتمناه.

فالتغيير ضرورة، ولزوم القيام به لمستقبل أفضل يتجلى بوضوح في قوله تعالى : "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" (الرعد 13). والتغيير الصائب قوامه الإبداع والإبتكار، والإبداع بمعنى مخالفة للبدعة التي تعني التبديل والاضافة في دين الله فلا يختلف مؤمنان في أن الإبداع وفق السنن الكونية والتشريعية الراسخة للأصول الإسلامية هو أساس التغيير، وهو الدافع للحركة، وكل مادة حية فاقدة للحركة والتغير هي معرضة للموت، وهي سنة عامة يجرى مفعولها على الفرد والمجتمع .

أما الذين يخافون من التغيير، خوفا على امتيازاتهم وحرصا على مصالحهم، فهم يعمدون دوما إلى الخلط بين الإبداع والبدعة، رغبة في منع كل تغيير يصب فيما لا يرضونه ولا يطمئنون إليه وعليه.

بل لا غرابة في أن يعزى التخلف والأمراض الاجتماعية المصاحبة له في البلدان الاسلامية إلى مثل تلك العقلية المتحجرة، الرافضة للإبداع والابتكار، والمغلقة لباب الاجتهاد. فبطرحنا للسؤال التالي: " كيف نلحق بالركب الحضاري الإسلامي ونستدرك ما فاتنا من الوقت الضائع؟" يمكن ان ندرك مغزى ومدى أهمية دراسة المستقبل الذي يمكننا من القراءة والتطلع في الآفاق، تلك الآفاق المجلية للحق والمعرفة للنفس، تمشيا مع الآية الكريمة "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه

على كل شيء شهيد" (فصلت: 53).

لقد كان رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يمضي على نور الوحي نحو المستقبل ، غير ملتفت للوراء ، ولا مكترث بما يحدثه من ضوضاء الراغبون في منعه من بناء المستقبل. ذلك أن الإسلام دينا ومجتمعا يهتم أساسا بالروية نحو الآفاق، بغية التحفيز على العمل في الدنيا والآخرة، وينهى عن الكر إلى الماضي والتقوقع في دوامة قضايا الواقع المجرد من دوافعه الماضية، ونتائجه المقبلة.

كان النبي لا يلتفت إلى الوراء متقدما نحو الغد لقوله صلى الله عليه وسلم " الإسلام يجب ما قبله"، أي أن دخول المرء في الإسلام يضفي عليه خاصيتين: الأولى جب ما قام به الفرد من ذنوب أو معاصي قبل اعتناقه، فلا حاجة إلى الالتفات إليها إلا بقدر ما يحفز على استغلال الغد، والثانية المسؤولية عن ما بقي، أي ضرورة عنايته بمستقبله والتطلع لا فاق غده.

وضرورة النظر للغد، والمتجلية بوضوح في الآية التي ذكرناها " ولتنظر نفس ما قدمت لغد" هي التي تتوقف عليها وبها أعمالنا التي نحن مسؤولون عنها أمام مجتمعنا وأمام الله. فكل عمل يقوم به الإنسان أو المجتمع هو موجه بذلك النظر ونتائجه سواء بالنسبة للدنيا أو الآخرة.

هذه المقدمات التمهيدية التي أبديتها تهدف إلى رفع كل التباس ودحض كل تأويل يفضي إلى الجبرية أو الحتمية، التي تجعل الفرد والمجتمع غير متحكمين في مستقبلهما. فحتى نستطيع مواجهة تحديات المستقبل، علينا قبل ذلك القيام بتطهير عقولنا من رواسب التواكل والجبرية كما صرح بذلك شيخنا الفاضل، محمد بلعربي العلوي منذ أربعين سنة خلت :

" إن رؤوسنا شبيهة بمزبلة كبيرة، ونحن في الحاجة إلى الكثير من المساحين والشاحنات لتنظيفها وتطهيرها مما فيها من نفيات".

إن ظاهرة الدراسات المستقبلية تعد حدثا معاصرا انطلق مع نهاية الحرب العالمية الثانية، وكانت الدراسات الأولى من هذا النوع قد تمت على يد شركة "راند" الأمريكية لحساب "البنتاغون" . لذلك يجد الباحث في هذا المجال والمتتبع له علاقة وطيدة بين الدراسات الاستراتيجية والدراسات المستقبلية.

ولم تزدهر دراسات المستقبل ازدهارا ملموسا إلا في الستينات، حيث شهدت توسعا وانطلاقا حقيقيين. لكن يبقى أنه وحتى اليوم، قرابة الثلثين من الأبحاث حول المستقبل يقوم بها إما القطاع العسكري، وإما الشركات المتعددة الجنسية. فلا غرابة في أن نجد الشيء نفسه بخصوص ميدان تمويل البحث العلمي.

لقد عرفت هذه الدراسات ازدهارا واسعا في البلدان الصناعية، سواء على صعيد التكوين، أو على صعيد إصدار المراجع والمستندات، أو على صعيد البحث والتطبيقات العملية. فحوالي 97 في المائة من

مجموع النفقات بخصوص البحث في ميدان المستقبلية يتم من طرف هذه الدول، أما العالم الثالث فهو يشارك بأقل من 3 في المائة في هذا المجال، علما أنه يضم 80 بالمائة من مجموع سكان العالم !

فالتهوين من الأهمية الاستراتيجية للدراسات المستقبلية سمة حادة من سمات التخلف. وإنه لصعب باستمرار ان تفهم قاعدة هي في غاية البساطة مفادها أن المشكل بقدر ما يكون خطيرا وعويصا وملحا ومستعجلا، بقدر ما يتطلب حله نظرة بعيدة الأمد، لذلك كان التطور لا يسري في شعب إلا إذا مكن نفسه من وسائل التفكير في المستقبل ، باحثا عن الاتفاق وسبله حول مشاريع الغد التي تهم المجتمع.

والمستقبلية ليست علما قائما بذاته، وإناستعانت مناهجها بالعلوم الحقة والعلوم الاجتماعية، أما موضوعها فهو الدراسة لوضع معين بشكل مفتوح على البدائل والخيارات لتفحص جميع التطورات، واستقراء النتائج الممكنة المترتبة عن هذا القرار أوذاك على هذه التطورات، لهذا يتكلم عن "مستقبلات" بصيغة الجمع في ميدان الدراسات المستقبلية، وليس عن المستقبل بصيغة الفرد. والغاية الاساسية من هذه الدراسات هي تحديد الأهداف المتوخاة، وإمعان النظر في جعلها ممكنة في المدى المتوسط أو البعيد من خلال التأثير على الحاضر ومجراه.

تحضرني هنا قولة للخبير الألماني ألبير أنشتاين، لما سئل عن ماهية تعلقه بدراسة المستقبل فأجابه: " ذلك أني أنوي أن أقضي به بقية عمري".

والمستقبلية هي مجموعة من الأبحاث حول التطور المستقبلي للإنسانية تمكن من استخلاص عناصر التوقع. ولا يتعلق الأمر هنا بتقمص نبوة زائفة، أو إصدار تكهنات أو أحلام حول المصير المقبل للإنسانية. كما أنه لا يتعلق الأمر كذلك بعلم حقيقي، ومن هنا جاء الرفض لمصطلح "Futurologie" عند خبراء المستقبلية. فالمستقبلية منهج يسمح بدراسة التطورات المختلفة المحتملة لوضع معين، في وقت محدد، وتطويق نتائج هذا القرار أو ذاك على هذه التطورات.

ويتميز منهجها بالشمولية ، وتعدد التخصص، والسلوك الدائم لسبيل مفتوح يعتمد التفكير فيه على دراسة خيارات وبدائل.

أما الكلمة المفتاح فيها فهي "الاشكالية" ، تلك التي تنتج عن الروابط بين مختلف أنواع المشاكل. فمثلا من السهل تصور العلاقة الآنية الموجودة بين المشاكل، مثل مشكل السكان او الصحة أو التربية او الغذاء او الطاقة او التلوث وهكذا. لكن هذه العلاقة ستبرز بشكل أكثر ديناميكية عندما نقوم بإسقاطها ودراسة توقعاتها على مدى العشرين او الثلاثين سنة المقبلة.

مهمة الدراسات المستقبلية هي قبل كل شيء مهمة بيداغوجية، تسعى لتحميس الجمهور

والمسؤولين لموضوع اختيارات المستقبل، ويتعلق الأمر أولا بدراسة المشاكل البارزة حينما نكون عاجزين عن مواجهة التغيير والتأقلم مع عالم الغد .

وتخطيط مندفع في مرحلة زمنية محدودة (من ثلاث إلى خمس سنوات) دون تبصر بالاتجاهات التطورية الكبيرة والخيارات المستقبلية يوشك أن يزيف تحليل المشاكل. ولهذا وجب أن يرتكز التخطيط على توقعات طويلة المدى (من 15 إلى 30 سنة). وللمجتمع الإنساني نظام لدق ناقوس الخطر، يندلع كلما باشر الخوض في منعطف صعب، لكن قلما ينتبه لتحذيراته !

ثم إن دور المستقبلية لا يكمن في إصدار نبوءات، إذ يتجلى هدفها في تحديد الاتجاهات، وتخيل مستقبل مرغوب فيه، واقتراح استراتيجيات لتحويله إلى مستقبل ممكن. فالأمر يتعلق بتسليط الأضواء على الاختيارت قصد مساعدة صانعي القرارات للتوجه نحو الأهداف الطويلة المدى، مع إطلاعهم على التدابير الواجب اتخاذها في الحين قصد الوصول إليها.

والمستقبلية لا تدعي عصمة في توقعاتها ونجاحها، بل على العكس من ذلك، الشيء الوحيد المؤكد، هو أن أيا من هذه التوقعات لا يبدو صحيحا على الإطلاق. والنظرة المستقبلية متعددة بطبيعة الحال إذ بالإمكان تصور عدة أوجه ممكنة للمستقبل، وذلك لكون الإنسان البشري يتوفر على وسائل لصنع مستقبله.

ثم إن المستقبلية تبرز من العدم الظرفي، بل إن مقاربتها مع التاريخ أمر حيوي جدا، فكثيرا ما اتجهت بلدان العالم الثالث إلى جعل التاريخ غاية في حد ذاته، بدل أن تواكبه وتتوقع ماله. وما أكثر ما عمدت هذه البلدان الى الرجوع إلى التاريخ لتبرير الجهود الضائعة، وخيبات الحاضر الحاصلة.

ولطالما اشرت بكيفية ملحة إلى أهمية البعد الثقافي وأنظمة القيم في التنمية، وبديهي أن الإسلام كقوة للتغيير والإبداع سيلعب دورا طليعيا في هذا التطور، إذ هناك عودة ملحة إلى الروحانيات اليوم. خاصة عند الشباب الذي أصابه اليأس من جراء سلوك من هم أكبر منه سنا، والذين لم يكونوا في مستوى إعطاء نموذج سليم للحياة ، أو على الأقل قدوة ملائمة في السلوك منسجمة ومحترمة.

وطبيعي أن يرجع الشباب المسلم إلى الأصول للعثور على الأنماط المثالية التي تقود خطواته، لأن المستقبل الممكن والمنشود للعالم العربي والإسلامي يتركز أساسا على تجديد الإسلام، وإسلام الاجتهاد وليس إسلام التقليد، ذلك الداء الذي كان وراء سقوط حضارة ابتعدت تدريجيا عن مهمة الخلق والإبداع اللذين واصلهما المسلمون إلى يوم أعلن فيه بعض الفقهاء جزافا إغلاق باب الاجتهاد. إن الاسلام دين متفتح يترك للفرد مبادرة كبرى وحرية في التكييف والتغير وتوقع التحولات. فلو أن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته لم يتوقعوا المستقبل في فجر الإسلام، ما كان هناك اليوم مليار و 200 مليون من المسلمين.

2- الواقع المعاصر:

2-أ- الواقع العالمي:

هناك ظواهر عديدة تميز العالم اليوم نعرض لأهمها فيما يلي:

ألا- سرعة حركة التاريخ، فالمعرفة الإجمالية العالمية تتضاعف اليوم كل سبع او ثمان سنوات. وفي كل دقيقتين يصدر مقال علمي في جهة ما من العالم. ويمكننا القول بأن الإنفجار المعرفي يعد من الظواهر الأساسية والبارزة المميزة للواقع العالمي المعاصر.

بلا- التعقيد المتصاعد لعديد من القضايا بفعل هذا الإنفجار، فبقدر ما تتسع المعرفة في ميدان ما، بقدر ما تتسع شجرة المعارف والتخصصات في هذا الميدان، مستلزمة تأطيرا مضاعفا واستثمارا مكثفا، وبقدر ما تكون نتائج ذلك وانعكاساته على الواقع متعددة المسالك، مستعصية في حجمها وتعقيدها على المدارك.

جلا- تضايق المكان والزمان، فالإنفجار المعرفي في مجال المواصلات والإتصالات ساهم من جهة في تقارب الامكنة وتقليص المسافات بشكل يوحي بتضايق وتقلص المكان، ودفع من جهة اخرى إلى تضخم برامج الأعمال ومصارعة الوقت بشكل يوحي بتضايق وتقلص الزمان.

د- الإنتقال من مجتمع إنتاج إلى مجتمع معرفة أضحت فيه الموارد البشرية أهم من الموارد الأولية (نقصت هذه الموارد ب25 في المائة سنة 1989)، وأصبح فيه رأس المال غير مجد دون موارد بشرية وأدمغة مبدعة. وحتى نجلي بوضوح مبدأ سرعة حركة التاريخ وسرعة التغيير وانعكاساتهما على مستوى الموارد البشرية مثلا، يمكن أن نكتفي بالرجوع إلى الدراسة التي قامت بها وزارة التعليم الإسبانية، والتي يستفاد منها أنه لا وجود لتكوين في مراحل ما بعد الثانوي يستجيب لنصف المناصب المحتاج لها سنة 2000.

هـ- الدور المتنامي للثقافة، فمنذ 12 سنة، حين انعقاد المائة المستديرة الأولى حول الشمال والجنوب المنظمة بروما من طرف الشركة الدولية للتنمية في ماي 1978، كنت أكدت على أن الجانب الأكثر سياسية وأبلغ أثرا في العلاقات بين الشمال والجنوب هو النظام الثقافي، لأنه يعنى بالقيم وقلت:

وعلينا أن نولي الأسبقية لمنظومة القيم للتدليل على أن الأزمة المعاصرة بين الشمال والجنوب يستحيل تجاوزها بمجرد التكيف، فالأزمة نظام بكامله. وكل حل للأزمة يشترط في حقه الأخذ بتحديد جديد للأهداف والوظائف والبنيات، ويلزمه إعادة توزيع السلطة والموارد حسب سلم للقيم مخالف لسابقه، الذي كان السبب في اندلاع الازمة وانهيار النظام الحالي".

و- النمو الديمغرافي وشباب سكان الجنوب واستقرار او انخفاض السكان مع كهولة واضحة في

الشمال. ففي العالم الإسلامي خمسون في المائة من السكان يقل عمرهم عن 16 سنة، و أكثر من الثلثين يقل عمرهم عن 30 سنة.

ز- الدور الفاعل للتكنولوجيات المتقدمة، وخاصة في ميادين تقانة الاعلاميات وعلوم الاتصال، وعلوم الآلية، والذكاء الصناعي، وعلوم الفضاء، والبيوتكنولوجيات، والمواد الجديدة.

إن أصحاب الصناعة في هذه الميادين ينفقون ما بين 8 في المائة و 12 في المائة من مداخيلها في البحث العلمي ، وقرابة ذلك لتكوين العاملين.

ولطالما نبهنا إلى أنه لا جدوى من الأمل فيما يسمى "نقل التكنولوجية"، فما يتم نقله تحت غشاء هذا المصطلح هو مجرد ماد عفا عليها الزمن وبائمنة لا مبرر لها . أما التمكن من التكنولوجيات فهو نتيجة عمل وبحث ذاتي، وذلك مسار يستحيل بيعه أو شراؤه، ولا سبيل للوصول إليه إلا باكتساب المعرفة وتنشيط الابتكار.

حلا- الدور الجديد المهيمن للإعلام والاتصال، هذا القطاع الجديد الذي يمثل اليوم ٤٠ في المائة من الإنتاج الصناعي العالمي،ويضم أزيد من 60 في المائة من اليد العاملة في العالم الصناعي.

فمازلنا نعاني من التفاوت الصارخ بين الشمال والجنوب في هذا الميدان. فالشمال يتحكم في حوالي 85 في المائة من نشاطات هذا القطاع مع ما يترتب عنها من انعكاسات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، والتي بدأنا بمعاناة ندرك وقعها.

ط- الاندماج الاقتصادي وانبثاق التكتلات الكبرى، ويرجع ذلك لاستحالة ولوج مشرف للقرن الحادي والعشرين لمجموعة اقتصادية تضم أقل من 150 مليون من السكان. من هذه التكتلات مثلا: أوروبا الكبرى: 350 مليون، أمريكا الشمالية : ما يقارب 300 مليون، الجنوب الشرقي من آسيا : 350 مليون.

ي- الثقافة بمفهومها الواسع، وهي عامل أضحى اليوم الأهم استراتيجيا فيما يخص العلاقات بين الدول. فالمشاكل المترتبة عن الاتصال الثقافي قد تتوالد عنها دوافع الصراع و أسبابه في المستقبل أكثر مما قد ينتج من صراعات عن المشاكل الاقتصادية والاجتماعية.

ص- بطلان المعادلة المدعية أن الحداثة يراد فها التغريب، وتجربة اليابان هي خير دليل على هذا البطلان. فلقد نشر المعهد الياباني لتقدم البحث تقريرا هاما سنة 1989 بعنوان: "جدول أعمال اليابان للتسعينات" جاء فيه:

" من اليوم، علينا أن نرى العالم بشكل مغاير، وأن نضع جانبا ذلك الحكم المبتذل القاضي بإرساء نظام عالمي تحت نفوذ الإمبراطورية الأمريكية. ذلك أن النظام العالمي الجديد، الذي يمكن أن ننعته بعصر

تعدد الحضارات، يرتكز على تعايش عديد من الحضارات... فإذا كان للغرب فضل في تقدم العالم على الصعيد المادي، فإن حداثة اليابان تشهد على ضرورة التمييز بين الحداثة والتغريب".

ع- لا مادية المادة ومادية اللامادية، فالمواد الصناعية أصبحت تتطلب أقل فأقل من المواد الأولية، وأكثر فأكثر من القيمة المضافة في شكل ذكاء وفطنه. ومن الأمثلة التي يمكن أن نسوقها على هذه اللامادية لجوء العالم الصناعي المعاصر إلى الألياف البصرية، والتي قلصت بحجم كبير المواد المستعملة من النحاس، وإلى التصغير المستمر للآلات والأدوات المصنعة، وإلى الجزيئات الإلكترونية الدقيقة. من هنا أصبح استعمال مصطلح "لا مادية الاقتصاد" شائعا.

من جهة أخرى وبفضل التقدم الحاصل في العلوم الجديدة مثل فيزياء الهتامات ززعوذضهمخآ ، وبيولوجية الجزيئات، وفيزيولوجية الجهاز العصبي... أضحت فيزياء نيوطون الكلاسيكية محل إعادة نظر لأنها ميكانيكية أساسا ولا تتجاوز في شرحها الظواهر المنظورة على مستوى الكون. وعلى نفس السياق. أضحت عقلانية ديكارت عائقا للفهم العلمي للعديد من الظواهر التي لا تخضع لصلابة المنهج العقلاني. هكذا انعدمت تدريجيا الحدود الفاصلة بين المادي واللامادي الذي ترسم معالم إدراكه في المستقبل البعيد.

ولمزيد من التوضيح لهذه الإتجاهات للجديدة يمكننا الرجوع إلى"بيان فانكوفر" الصادر عن ندوة "العلم و الثقافة في القرن الحادي و العشرين .برنامج من أجل البقاء" .المنظمة من طرف ا ليونسكو في فا نكوفر بكندا ما بين 10و15 سبتمبر 1989.و ا لدى جاء فيه ..

"ضمن هده النظرة العلمية الجديدة تزداد القيم الإنسانية اتساعا ... ففي إطار الصور المتقاربة الإنسان الناتجة عن تطور العلم والثقافة،أصبحنا نبحث عن نماذج لمستقبل يمكننا من ضمان بقاء الإنسانية كريما منسجما مع محيطه... هذه الآراء تغير المنظور و المكانة الإنسان في الطبيعة وتدعو إلى تغيير جذري في نماذج التنمية..."

ض) التراجع الروحي، والدي كان متوقعا -بل ضروريا - في جميع أنحاء العالم نظرا لتجاوزات المادية الفلسفية الشيوعية و الماد يه الملموسة الرأسمالية. هذا التراجع كان في صميم التقلبات التي شهدتها أوروبا الشرقية ،كما كان مصدر هزات عنيفة في المجتمعات الإسلامية، و التي بحكم الأمية السائدة فيها ، وضعف مستواها العلمية والثقافي لم تستطع أن تستغل هذه الانطلاقة العالمية نحو غايات أبعد .فكل ذلك لن يكون له أثر في الأمد البعيد على عطش المجتمعات للقيم الروحية في وقت يجتاز فيه العالم أجمع أزمة أخلاقية و أدبية.

2-2- واقع العالم الإسلامي

2-2-1- وضع متردى و مجتمع متخلف

لنتحدث الآن عن الدول الثلاث و الأربعين المكونة للعالم الإسلامي، فالمقياس الموضوعي المتوفر لدينا في هذا الشأن يتمثل في انخراطها التلقائي في"الأسيسكو" و الموجود من الإحصائيات يشير إلى أن عدد سكان الإجمالي 1000مليون نسمة بمعدل 22 مليون لكل بلد ، وأن عدد سكان 22 بلدا يقل عن 5 ملايين نسمة . في حين أن معدل البلدان الأعضاء في الأمم المتحدة يفوق 30مليونا ،و بهذا تتجلى لنا بوضوح بلقنة العالم الإسلامي. و تضيف هذه الإحصائيات أن أكثر من 300مليون مسلم يقيمون في بلدان لا تنتمي لا إلى"الأسيسكو" ولا إلى"منظمة المؤتمر الإسلامي" ،و إن العالم الإسلامي يمثل أكثر من خمس سكان المعمورة ،و ثلث سكان العالم الثالث .

أما على الصعيد العالمي ،فيعتبر العالم الإسلامي أفقر أمة ، وأقلها تعليما ، وأكثرها تبعية في ميدان التغذية . كما أن متوسط أمل الحياة فيه منخفض جدا . إضافة إلى أن المسلمين لا يستثمرون إلا الشيء القليل في حقل البحث العلمي، و لا ينتجون إلا نسبة ضئيلة من الكتب.و لا يقرأون إلا قليلا .وحصة الابتكار عندهم جد ضعيفة ،أما الإبداع فشبه معندم. يضاف إلى هذا الوضع المزري الحياة الاجتماعية، فمشاركة أفراد المجتمع في الدفع بعجلة التقدم قليلة ،و الاعتداء على الحريات العمومية و على حقوق الانسان فادحة ، و الرشوة متفشية، و المرأة مهضومة الحرية ، و الشباب مهمش لا تخطيط لمستقبلة ،و هلم جرا ...

و من جهة أخرى ،فأن العالم الإسلامي يشكو أضرارا بشرية و اجتماعية من جراء الصراعات الداخلية الناتجة عن تقسيمه ، كما أنه أكثر تضررا من اختلال العلاقات بين الشمال و الجنوب. فالعالم الإسلامي يواجه أكثر حملة تشنها وسائل الإعلام الغربية ضد قيمه الثقافية و الروحية ، كما أنه يعتبر أكبر مستورد للأسلحة بالنسبة للفرد الواحد . وفى الوقت نفسه ، تفوق ودائعه المالية الموجودة في الخارج مديونيته الدولية . هذه حقائق مرة لابد من التفكير فيها و أخذها بعين

الاعتبار في المستقبل .

فكيف يمكن أن نعتبر أن أنفسنا مسلمين على وجه الأرض ، إذا لم نكن قادرين على الامتثال لأمر الله عز و جل الأول الذي جاء به القرآن الكريم في قوله تعالى "اقرأ باسم ربك الذي خلق" , العلق , ١ ؟ هل يمكن القول بوجود مجتمع إسلامي إذا لم تكن أغلبية أعضائه قادرة على فهم و تفهم القرآن الكريم بشكل تلقائي وبدون واسطة ؟ ألم تكمن قوة الإسلام في كونه ألغى كل وساطة بين الإنسان وربه ، جاعلا الإنسان

العابد في صلة مباشرة و مستمر مع الله ؟ ثم لنا أن نتساءل ، هل الأمية ناتجة عن قلة الإمكانات اللازمة للقضاء عليها ، أم أن استفحالها انعكاس لغياب أي أرادة سياسية في هذا الاتجاه ؟ أم هو تخوف مما يمكن أن يأتي به المجتمع المسلم المتعلم من تغييرات في تسيير دفة الحكم وإنجاز الحضارة ؟

ومما يدل على تخلفنا العلمي و قصورنا أن من بين 540 جائزة نوبل الممنوحة منذ 1901لم يحصل عليها . رغم تحفظها على طرق منحها واختيار مرشحيها – إلا ثلاثة من المسلمين (محمد عبد السلام ، وأنور السادات ، و نجيب محفوظ) ، أي بنسبة 5في الألف ، بينما نسبة المسلمين في سكان العالم تفوق 20بالمائة.

2-2-2- ظواهر التردي و التخلف .

تطغى على الوقع الإسلامي ظواهر دالة على التخلف ، نورد أغلبها فيها يلي:

أ- انعدام المعطيات الاقتصادية و الاجتماعية. –الثقافية حول العالم الإسلامي .

والأدهى في هذا الباب ، هو أن أحسن مراكز التوثيق و المعطيات حول العالم الإسلامي توجد في البلدان المصنعة ، وعدد منها بتمويل من بلداننا . و غريب سباتنا عن حقيقة مرة تدل على ضخامة غفلتنا و مدى اهتمام غيرنا الذي يعلم و يعي قدراتنا و قواتنا لواستيقظنا ، هي أن الفاتيكان هو أول من قدر عدد المسلمين في العالم ، أول من أقدم على نشر بحوثه الإحصائية في أوائل الثمانينات إثر جهد جهيد قام به 600 خبير في 200بلد طوال 10سنوات.

ب) خضوع تاريخنا و حاضرنا للاستعمار ، فلا يزال تاريخ ماضينا القريب كابحا تحت نير الاستعمار ،وقسط كبير من حاضرنا منفلت من أيدينا ، بل حتى مستقبلنا أصبح مرهونا بدراسة الآخرين ، وبسسيناريوهاتهم التي تعودنا الثقة في صحتها .هذا لو سمح لنا بالإطلاع عليها –دون أدنى شك أو تردد في صحتها .و في مثل هذه الحالة ، يوشك مستقبلنا أن يكون نسخة مشوهة وغير صالحة الماضي الآخرين. و الحقيقة المرة الوحيدة التي تفرض نفسها في الوقت الحالي هي أن العالم الإسلامي لا يتحكم في مصيره ، وأن استقلاله مازال شكليا على عدة مستويات . فالتخلص الحقيقي من الاستعمار ما يزال موضوعا واردا ضمن برامج عملنا التي ينبغي أن تحصى بالأولوية ، وقد يستغرق إنجازه عشرات السنين.

ويكفي أن نشير الدلالة على غيابنا في مجال صناعة رؤانا المستقبلية ، الذي هو نتيجة طبيعية لغياب أي دور مستقبل لنا في الحاضر، أنه قبل 108 سنة، نشر المستشرق الإنكليزي و. ك. بلونت بلندن كتابا عنوانه " مستقبل الإسلام"، و كان علينا أن ننتظر 103سنة بالتمام و الكمال ليقوم عالم مسلم من باكستان هو ضياء الدين سار دار بإصدار كتاب حول نفس الموضوع في 1985.

ج) انعدام بعد النظر، فلعل أكبر أزمة يعاني من ويلاتها العالم الإسلامي المعاصر هي غياب وجود رؤيا واضحة لما تريد أن تقدم عليه القيادات الحاكمة ، وانعدام بعد النظر كلية عندها لجهلها المطبق بالواقع و مجراه و تياراته السائدة من جهة، و لخوفها و تحفظها من كل إقدام تقوم به فئات من المجتمع خشية الإضرار أو التقليص من سلطتها و نفوذها من جهة أخرى.

فهناك التقليد الأعمى لما تمليه الجهات الغربية صاحبة النفوذ ، و هناك الامتثال لما تنصح به المخابرات الأجنبية ،و ما يدعو له أو الشرقية الدولة الغربية مستشارو الحامية ، و هناك الغياب التام لكل استشارة شعبية أو تعبير جماعي عن طموحات ورغبات المجتمع ،ولا أدنى مشاركة فعلية وشريفة لصياغة برامج العمل ورسم الخطى لمواجهة التحديات و تحقيق المستطاع من الطموحات ، وبناء مجتمع مدني صالح. فالنخب الحاكمة منشغلة بمعارضيها و حركاتهم ، ضانة أن غفلتها عنهم ستؤدى بحياتها على أيديهم ، وقضايا المجتمع تعالج بشكل مركزي مستبد بالقرار حسب ما بقي من الوقت و ما فضل من الإمكانيات، و النظر ببعد شاسع لما يحمله المستقبل لا داعي له، لأن المالكين زمام الأمور ببلدانها يتوهمون أنهم لا تخفى عليهم خافية ، فمتى حصل تغيير كانوا أول الشاعرين به ، وسيعالجونه في حينه .

د) انتشار الأمية ، فمعدلات الأمية بالعالم الإسلامي هي الأعلى في العالم ، وتتجاوز 80 بالمائة في بعض البلدان الإسلامية ، كما أن القليل جدا منها هو الذي يتوفر على معدل للأمية أقل من 50 في المائة ، إذا أضفنا إلى هذا الوضع الخطير غياب أي برنامج فعلي لمحو الأمية ، وانتشار نوع جديد من الأمية في صفوف غير الأميين يتمثل في محو ذاكرتهم وجلهم التام بما يجري في بلدانهم و محيطهم أدركنا مكمن الداء في العالم الإسلامي، و لا مستقبل لهذا العالم بدون المبادرة بمحو الأمية التي لن تستلزم أكثر من 5 سنوات لو صدقت النيات وشمرت سواعد الجد لمحوها وأزالتها .

وطبيعي في وضع مثل هذا أن تكون معدلات التمدرس، ووجود المدارس و الجامعات ، و توفر الأطباء و الصيادلة ، و بناء مرافق التطبيب و الصيدلية ، و العناية بالمكتبات ونشر الكتب ، وغير ذلك من العوامل الدالة على وجود الاهتمام بالعلم و فوائده ، جد ضعيفة وفي مستوى نسبة التعلم إن لم يكن أفضع من ذلك.

ه) غياب البحث العلمي ، و هذا أمر طبيعي لدى الشعوب الأمية ، لأن البحث العلمي يحتاج إلى جانب حرية الرأي و تمتع المواطنين بالحقوق ، إلى مناخ علمي، و أسس تربوية ، تحفز على الإبداع، و تشجع على الابتكار. فالبحث العلمي لا يحضى بالاهتمام في بلدان العالم الإسلامي ، ولا يستثمر فيه نظرا لانعدام مناخه و الرغبة في التشجيع عليه مثل بقية العالم المتخلف . وينتج عن ذاك نزيف مستمر للعقول المبدعة التي

تجلبها العناية و الإمكانيات بالخارج ، ويرهقها تفسخ المجتمع و سيادة الرأي المستبد فيه ، المانع لكل جو علمي .

وأشير هنا إلى أنه لا مجال للبحث العلمي ،وبالتالي للتقدم و دون فتح لباب الاجتهاد على مصراعيه و تبني مفاهيم معاصرة الاجتهاد و الجهاد ، تحافظ على لب الإسلام، وترمي جانبا بالمعوقات و المستحدثات التي كبلت الأمية ورمت بها في براثين التخلف والانحطاط ، مع ما يصاحب ذلك من ضرورة وجود تعددية سياسية حقيقية ، و حقوق مكتسبة للاختلاف و تعدد الرأي و حريته التامة .

و) استفحال أزمة القيم الاجتماعية و الثقافية ، فمصداقية المسؤولين مهزوزة ، و تعاملهم مع قضايا الاقتصاد الوطني مخترق بالعديد من التهور و المحسوبية و الامبالاة ، واستفحال الرشوة بينهم و بين أعوانهم أصبح ظاهرة يعترفون هم أنفسهم بها، و تحويل المبالغ الضخمة إلى الخارج أضحى أمرا " مشروعا "يضمن به المختلسون إمكانية استمرار النفوذ عن بعد ، ويرونه حماية لهم و لمستقبلهم من كل تقلبات يفاجئهم الدهر .هذا إلى جانب المحسوبية و الظلم الاجتماعي و انهيار نظام الأخلاق و القيم المجتمعات الإسلامية.

ز) عدم ملاءمة الأنماط التنموية المستوردة ، وذلك أمر طبيعي حين يكون النمو موجها من و نحو الخارج ، فالمخططات التنموية عندنا تنطلق من التقليد الأعمى للمغرب ، وتقوم على التبعية له فيما يخص المساعدات و الإعانات. ، من المؤسف له أن تجد لدى صائغي المخططات التنموية في عالمنا الإسلامي مفاهيم للتنمية مهمشة لدور كل من العلم و التكنولوجية . فالتنمية ليست برنامجا لتوزيع الدخل و تأمن الخدمات ، بل هي العلم حين يصبح ثقافة كما قال " ما هو" المدير السابق لليونسكو.

ح) غياب دولة القانونية وضمان الحريات العامة ، فبلداننا الإسلامية تتميز بالاستبداد و الانفراد بالقرار مع ما يصاحب ذلك من مصادرة الرأي وخنق الأنفاس. فكيف يمكنك في مثل هذا الجو المشحون بالقمع، والاعتداء على الحريات، وإلغاء كينونة الإنسان ، والدوس على كرامته، إن يتوفر لديك مناخ البحث العلمي الضروري لكل نهوض تنموي وبناء حضاري؟ فحرية التعبير، وحرية الإبداع، وحرية الابتكار، وحرية الاختلاف، وحرية النشر لا سبيل لتوفيرها إلا من خلال احترام حقوق الانسان وسيادة دولة القانون. ولقد ساهم غياب ذلك في بلداننا من هجرة واسعة للعقول والطاقات التي حيل دونها ودون التعبير الحر عن أفكارها وآرائها، ومنعت من المشاركة في بناء مجتمعها والدفاع علما وعدلا وتقانة عن أوطانها.

ط- هشاشة مكانة المرأة ، وعدم الاعتراف بدورها الاساسي وإلهام في بناء المجتمع، فنحن لم نقتصر فقط على عدم تطوير إمكانياتها البشرية، بل علاوة على ذلك، نسمح لأنفسنا بتعطيل تحرر نصف

المجتمع، أي نقوم بجريمة تعطيل طاقات وعقول ما يفوق 500 مليون نسمة.

فالتخلف والانحراف السائدان اليوم في المجتمع يرجعان في جزء كبير منهما إلى تهميش دور المرأة وإلغاء كينونتها. ومادمنا نتكلم عن الإسلام ومستقبله فإنه ضروري أن نشير أنه من العار علينا ان نجتر على اليوم أكاذيب قرون الضعف وتراهات أزمنة الفوضى وصراعات السلاطين والخلفاء على كرسي الحكم، القائلة بأن المرأة أحبولة الشيطان وطريق إبليس، ولا دور لها إلا الأنس في الفراش والانغلاق بالبيت

فلقد رجعت إلى أهل الاختصاص، وتعرفون أنني لست براو للحديث ولا بمتخصص في فنونه، فاستفدت منهم أن عديدا من واضعي الحديث ومختلقيه قد صاغوا نصوصا مازال يرددها زمرة من "الشيوخ" إلى اليوم، يفسدون بها صورة الإسلام، ويمنعون من خلال ترسيخ مفاهيمها ومضامينها المستقبل الزاهر لمجتمعاته، من ذلك مثلا الأكذوبة القائلة: "شاوروهن وخالفوهن"، فأهل الاختصاص يشهدون أن هذا الحديث لا أصل له، ومكذوب على رسول الله صلى اله عليه وسلم، ومنه كذلك حديث مكذوب روج له الراغبون في تعطيل طاقات هذه الامة من مستبدي الحكام وجهلة "العلماء"، مفاده أن بنت النبي سألت أباها عليه الصلاة والسلام عن أي شيء أصلح للمرأة فقال: " ألا ترى رجلا ولا يراها رجل"، وهو حديث مكذوب موضوع كما يقول أهل الفن لا يمكن أن ينسب للرسول قطعا، هذا إلى جانب مخالفته الصريحة والواضحة لنصوص القرآن.

فلو رجعنا إلى كتب الحديث ورجاله، لوجدنا أن عديدا من النساء كن فقيهات وراويات للحديث، ومجاهدات مشاركات في الحروب، وغير ذلك من المهام إلى جانب إخوانهن من الرجال، منهن مثلا لا حصرا "كريمة بنت احمد المروزية" إحدى راويات صحيح البخاري بأكمله، والتي نوه بحفظها شارح وخادم صحيح البخاري الحافظ بن حجر العسقلاني في كتابه " الفتح الباري".

لا أريد المزيد من البسط في الموضوع بقدر ما أريد من العلماء الأجلاء الحاضرين تنوير ندوتنا بالعديد من التوجيهات النبوية الداعية إلى تكريم وتعزيز المرأة ، و اعتبارا شقيقة الرجل في العبادات والمعاملات، والدلالة على تهميشها غيابها بشكل ملموس في هذه الندوة، ولكم ألحث على منظميها أن تكون المرأة مشاركة بنسبة معادلة، لان الامر يتعلق بالمستقبل، ويتعلق بمستقبل الاسلام الذي استشرف رسوله مستقبله قبيل موته فقال في حجة الوداع وهو يوصي أمته: " أوصيكم بالنساء خيرا"، فهل من الخير تكبيلها وتجهيلها والتنقيص من دورها، وبل إلغاؤها والحكم بطلان عملها؟

وأنبه إلى أنه لا مستقبل للإسلام بدون مشاركة فعالة للمرأة، ولا مستقبل للمجتمعات الإسلامية التي تتبنا سياسة معادية للمرأة التي منحها الدين كل حقوقها، ونحن نرى أن هذا المشكل الاجتماعي الذي يلزم

أن يحضى بالأولوية القصوى إذا كنا بالفعل جادين في التفكير في مستقبل المجتمع الاسلامي، وأردنا تفجير جميع طاقاتنا البشرية وتشجيع ابتكارها لفهم وحل الاشكاليات المعاصرة والمستقبلية.

وتجدر الاشارة إلى أن وضعية المرأة هي وضعية عالمية فالمرأة مهانة شرقا وغربا، مع تفاوت بين الدول، وحالها بالبلاد المتخلفة خير دليل على العلاقة المتينة بين النمو الثقافي والاجتماعي والاقتصادي وبين وضعية الإنسان والدفاع عن كرامته وحقوقه، والعالم الاسلامي كما أشرت يمثل الجهة الأكثر تخلفا في ميدان التربية والتعليم والثقافة والاقتصاد، وخاصة منه الجزء العربي.

فيجب علينا ان نعلم أن مشكل المرأة يواجهنا بتحديات، ويتطلب منا تحليلات اجتماعية ونقدا ذاتيا صارما ، واجتهادا حاسما، وأن نعيد الرجوع إلى القرآن دراية وقراءة لنفهم ونعي بصدق ووضوح المقاصد والغايات والأولويات، ونتمكن من إيجاد الحلول في الأمد القصير والمتوسط لما يترتب عن وضعية المرأة من مشاكل، وما تمليه من التحديات المتفاقمة بفعل الحركة السريعة للتاريخ.

وفي اعتقادي، أن مشكل المرأة في العالم الإسلامي هو من أعظم المشاكل التي نواجهها، نحتاج عاجلا إلى إيجاد الحلول الناجعة لها بأنفسنا، وانطلاقا من ذاتنا، وبمساهمة جميع الفاعليات في مجتمعاتنا، بدون قيد ولا شرط على المرأة، شأنها في ذلك شأن أخيها الرجل.

3-2-2- مشكلات تستعجل الحل:

ألإ) مشكلات الأقليات الإسلامية: فهناك أقليات تصارع داخل مجتمعات مهيمنة من أجل البقاء، فهي إما استمرار لتلقيح حضاري إسلامي لم يتوسع، وإما بقية صادمة بعد أفول الحضارة الإسلامية وغياب الدعم الإسلامي، أو مجموعات بشرية هاجرت من أجل لقمة العيش بعد أن أصبحت الغربة خارج الأوطان أهون وقعا على الأفراد من الغربة داخلها، نجد ضمن هذه الأقليات العمال المهاجرين في أوروبا الغربية، وسكان الجمهوريات الأسيوية في الاتحاد السوفياتي، وعشرات الملايين من المسلمين الموجودين بالهند والصين والفلبين، وعلينا إذا كنا نرغب في مستقبل راق للعالم الاسلامي أن نفكر جديا في مصير هذه الأقليات ومستقبلها، وأن نعمل على حمايتها من الذوبان والإندماج المشوه.

بإ) القضية الفلسطينية: وهي قضية استراتيجية داخل العالم الاسلامي، فتحرير فلسطين من الصهاينة واجب أكثر من ضروري ولازم ، وإعداد القوة بمختلف أشكالها أمر لا مفر لنا منه، إذا كنا راغبين في التحرير، والذين يضنون أن الطريقة الدبلوماسية على شاكلة "كامب ديفد" ستفضي إلى جلاء المغتصب واهمون، فإسرائيل تثير الرعب والقمع داخل صفوف الفلسطينيين في جميع التراب الفلسطيني، وخاصة

داخل القدس، وما يريدوننا أن نسميه بالاراضي المحتلة حتى يضمنوا اعترافنا التلقائي باحتلالهم لباقي أجزاء فلسطين العربية الاسلامية، والمتتبع لبرامج وخطط العدو الصهيوني يدرك أن إسرائيل يتملكها الفزع من المستقبل، وأنها لا يهدأ لها بال إلا بإزالة أنياب كل دول المنطقة من خلال عمليات التطبيع وإبادة الفلسطينيين أصحاب الارض، ولا تتطمأن على حال إلا من خلال المساندة الغربية لعملياتها، والنصرة الامريكية لحركاتها واستجماع أكبر قوة في المنطقة ، يدل على ذلك تحكم الاسرائيليين في علوم الذرة والفضاء، إلى جانب غفلتنا عنها رغم ان العالم الاسلامي يحتوي على ٤٥ في المائة من احتياط الاورانيوم في العالم.

3- الآفاق:

لعل ما يميز النظام الدولي الحالي هو اختلال توازنه بين شمال وجنوب، فأقل من ٢٠ في المائة من سكان المعمورة يمتلكون أكثر من 80 في المائة من الثروات المادية، وهذا إجحاف في حق الضعفاء لا يمكنه أن يدون إلى الأبد، وبالتالي فإن هذه النسبة ستنخفض في العشرين سنة المقبلة لتعادل 10 في المائة أو أقل منها بعد 30 سنة.

ثم إن نمط التنمية الصناعية المعاصر لا يمكنه بدوره ان يستمر حتى ولو دام العالم الثالث على وضعه المتردى الحالي، كما أن الشمال مجبور بأن يقلص من استعمال الطاقة بنسبة 20 في المائة في العشر سنوات المقبلة، لان استعماله المبدد للمحيط الحيوي يبلغ حاليا 40 في المائة، والأمر هنا يتعلق بوجود البشرية وبمصير الكرة الأرضية، وبالرغم من أن الجمعية العامة الطارئة للأمم المتحدة حول التنمية قد تبنت قرارا حول المساعدة من أجل التنمية مؤخرا، فإن هذه السياسة سبق لها وأن برهنت على آثارها السلبية وعدم جدواها، بعد تجربة دامت 30 سنة.

كنت اود في دراستي هذه أن أشير إلى ما أسميه بالنفاق الدولي، والذي يشترك فيه كل من الشمال والجنوب لتحقيق المصالح الخاصة، وإلى التعاون جنوب- جنوب والتبعية الذاتية الجماعية، وإلى دور المسلمين في الدراسات المستقبلية، لكن أراني قد أوجزت في عرضي أهم تحديات المستقبل التي تواجهها الامة الاسلامية، مقدما في آخر هذه الدراسة (انظر الملحق) معطيات إحصائية حول العالم الاسلامي توحي قراءتها بالكثير، وتفرز للمتمعن فيها نوع التحديات حجم التطورات في المستقبل إذا لم نبادر بالعمل فورا.

فعدد السكان بالعالم الإسلامي يتراوح اليوم بين 950 ومليار و 100 مليون نسمة، وقد يصل هذا العدد سنة 2020 إلى ما بين مليار و 635 مليون ومليار و 850 مليون نسمة، نستنتج من ذلك أن سكان العالم الإسلامي الذين يمثلون حاليا 19 بالمائة من سكان العالم سيمثلون 5.20 منهم بحلول سنة 2020.

إضافة إلى هذه المعطيات الديموغرافية التي ترعب الغرب على وجه الخصوص، أريد أن أشير إلى نقطتين هامتين:

الاولى: أن عدد المسلمين في تزايد مستمر مقلق للغرب والراصدين لتطور العالم الاسلامي بالفاتيكان، إذ فاق عددهم ابتداء من 1985 عدد الكاثوليك، وحتى ندرك أهمية هذا العامل الديموغرافي ونفهم لماذا يثير الرعب في قلوب المتربصين الدوائر بالأمة الإسلامية، نشير إلى مقارنات ثلاث:

- إن عدد المسلمين اليوم يفوق عدد سكان العالم حين بداية الاجتياح المكثف لديار الإسلام من طرف القوات الإستعمارية سنة 1830.

- بعد 30 سنة من الآن سيعادل عدد المسلمين عدد سكان العالم في مطلع القرن الميلادي الحالي.

- فحسب إسقاطات من مصادر غربية، كان حجم التيار اليهودي المسيحي يمثل 31 في المائة، والتيار الاسلامي 17 في المائة، وفي سنة 2025 ستنخفض نسبة التيار اليهودي - المسيحي إلى 25 في المائة، وسترتفع نسبة التيار الاسلامي إلى 33 في المائة، وعلى هذه الوثيرة يمكن أن نؤكد أنه بعد أربعة أو خمسة أجيال من الآن، ستكون نسبة المسلمين أكثر من 50 بالمائة من سكان العالم.

الثانية: النسب الكبيرة للمسنين بالغرب، مما سيضطره في السنوات العشر القادمة لمكافحة هذه الشيخوخة الديمغرافية إلى استقدام المهاجرين وتبني مزيد من الأجانب، خاصة من ذوي العقول والمبدعين الأذكياء، حتى يحافظ على نموه الاقتصادي، ومما يزيد من تخوفه شباب سكان العالم الاسلامي الذين إن غفلنا عن إعدادهم ضاع المستقبل .

4- خلاصة:

إن أزمتنا هي قبل كل شيء أزمة نظرة ناتجة عن عدم وجود مشروع جماعي، وغياب فئة مسيرة قادرة وكفأة، ونخبة من المفكرين النيرين بحيث أن أغلب هؤلاء هم مغترون ثقافيا، ويمارسون نوعا من الرقابة الذاتية على أقوالهم وكتاباتهم، كما يذهب البعض منهم إلى حد بيع نفسه لمن يقدم له المزيد.

إنها كذلك أزمة روحية وأخلاقية ناتجة عن حيرة من حيث الانتماء إلى قيم متنافية ، تتأرجح بين نظام قيم جامد، لم يعرف كيف يتطور لمواجهة التحديات الجديدة من جهة، ونظام قيم مستورد في شكله الخام يتلاءم مع واقع صانعيه ومشاكلهم الحقيقية لا مع واقع ناقليه من جهة ثانية، ولعل هذا ما يفسر فقدان الثقة لدى الشباب.

والحصيلة أن هناك فراغا كبيرا تحاول عدة تيارات غير إسلامية سده، ومنها الدين الجديد المسمى

بالفرنكوفونية في منطقتنا المغاربية، الذي يريد أن ينسخ لغتنا وحضارتنا ويفرض عليها لغة لا ينطقها سوى أربعة بالمائة من سكان العالم، مما يدعونا للمبادرة بعلاج أوضاعنا التفكير بإمعان وحزم في مستقبلنا، فالطبيعة كما يقال تكره الفراغ، والامر كذلك بالنسبة للمسلمين غربا وشرقا وللإنسانية أجمع .

الجزائر: 7 شوال 1410، موافق 3 مايو 1990

التيارات الروحية الكبرى

التيارات الروحية	1980	2000	2025	2100	2125
اليهودية - المسيحية	31	28	25	20	15
الصينية	23	21	18	14	15
تيارات آخرى	28	28	26	26	27
الإسلام	18	23	31	40	43
المجموع:	100	100	100	100	100

المرجع: Jean Bourgeois - Pichat. Les Scientifiques Parlent, Hachette, Paris, 1987.

عدد المسلمين حسب المناطق
(1987: المجموع 965 مليون)

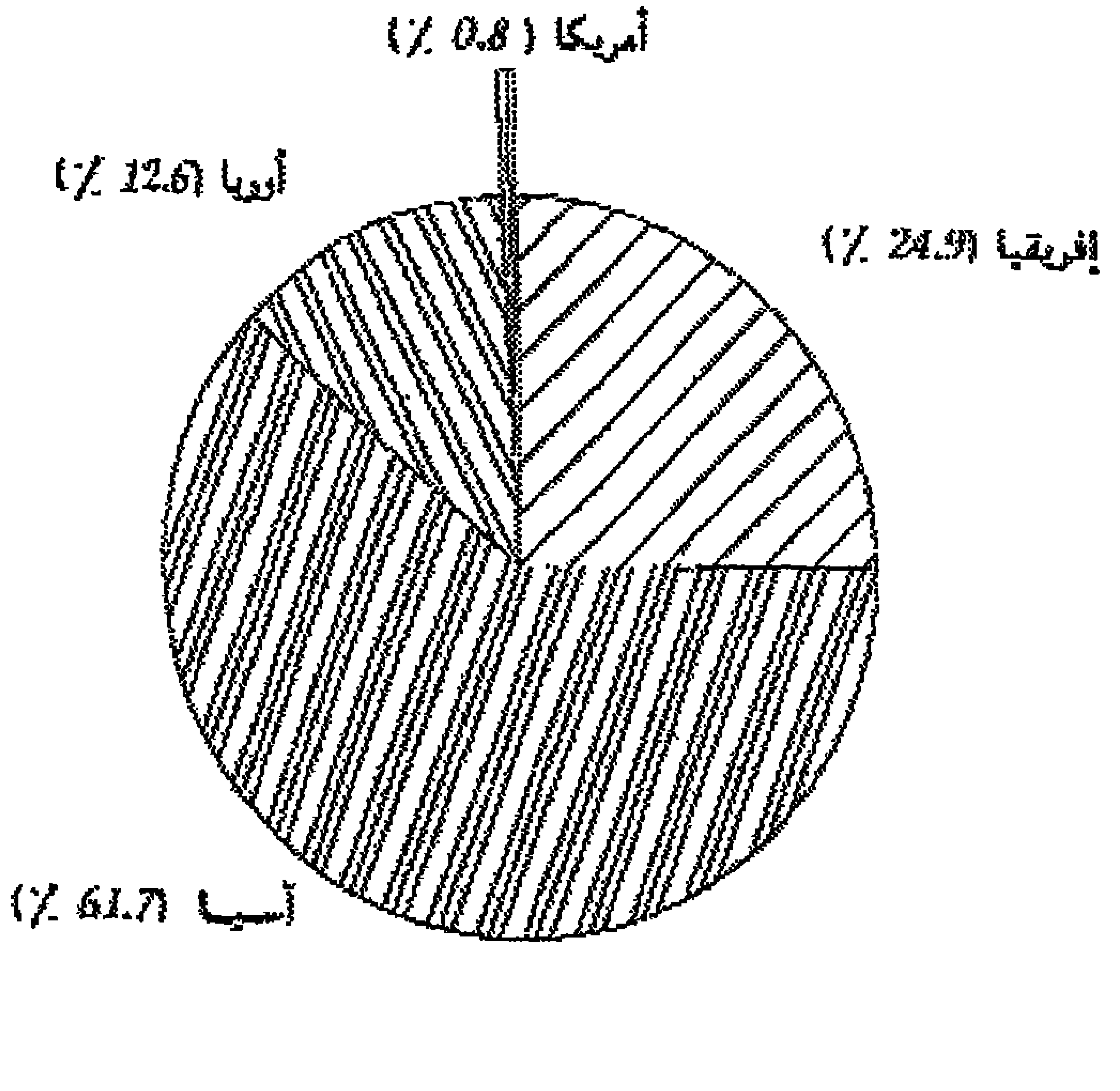

عدد المسلمين حسب المناطق

(1987 وتقديرات لعام 2000)

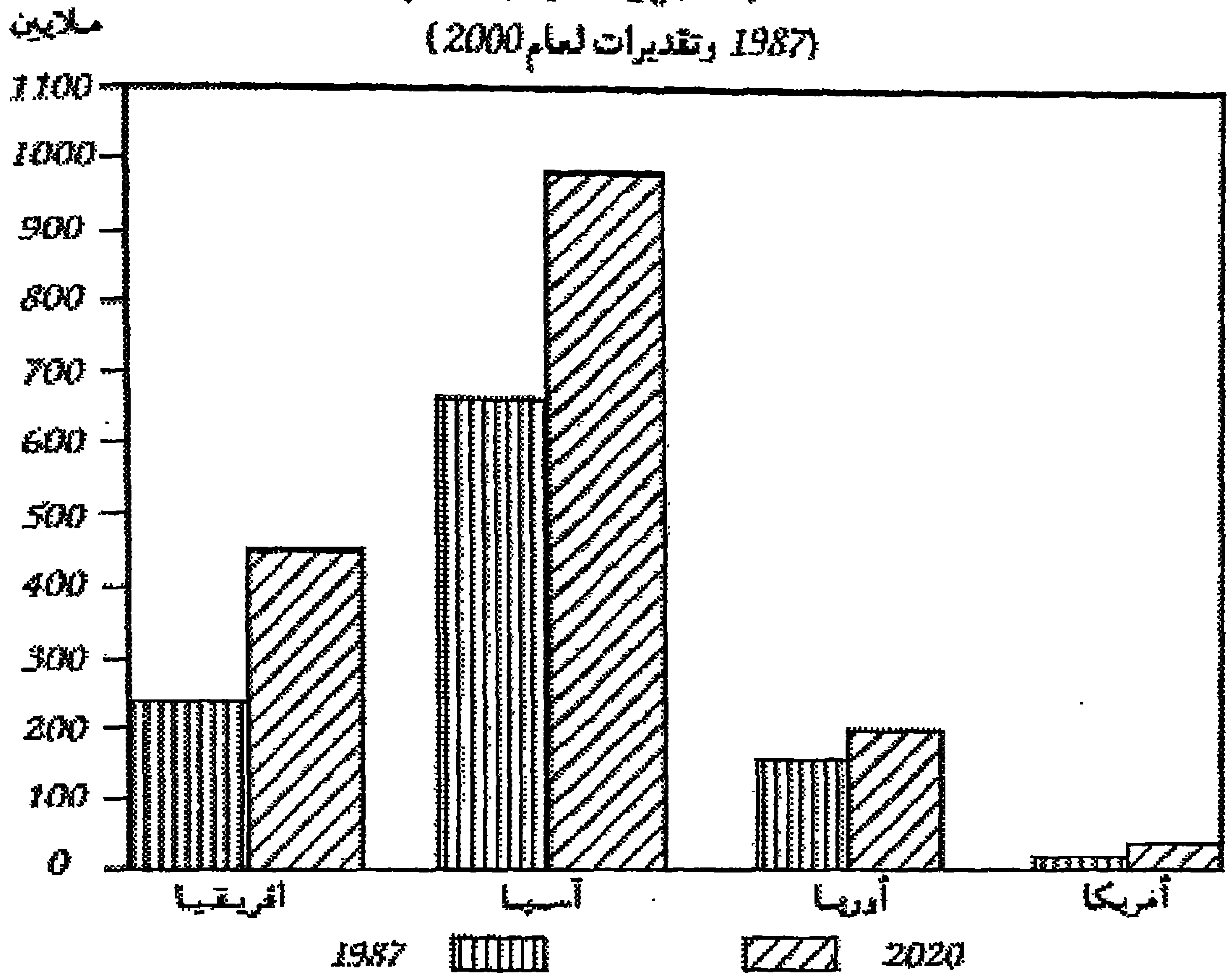

إسقاطات حول التيارات الروحية

(1980 - 2125)

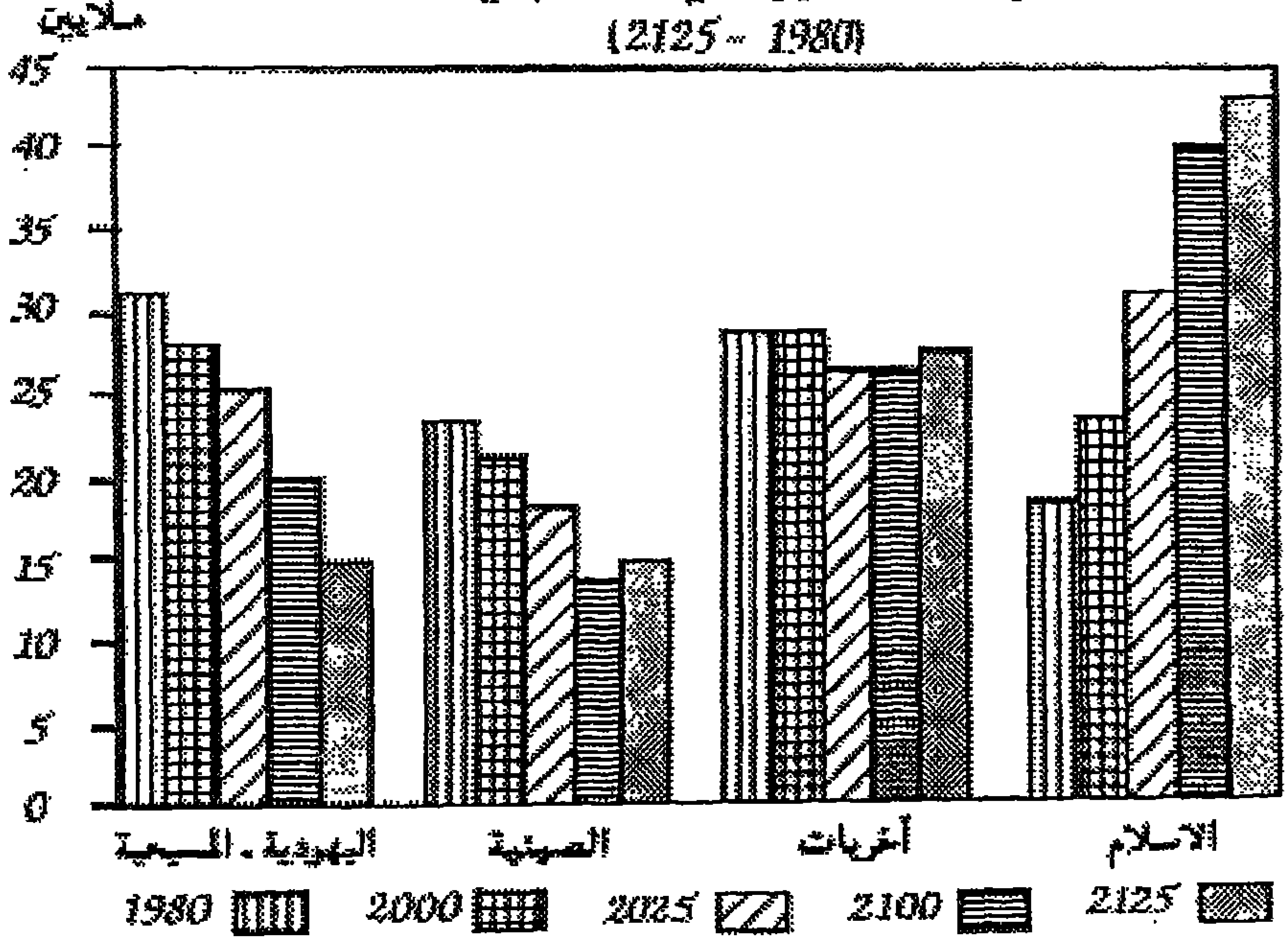

المسلمون العرب و المسلمون غير العرب في العالم
(1987 : مجموع 965 مليون)

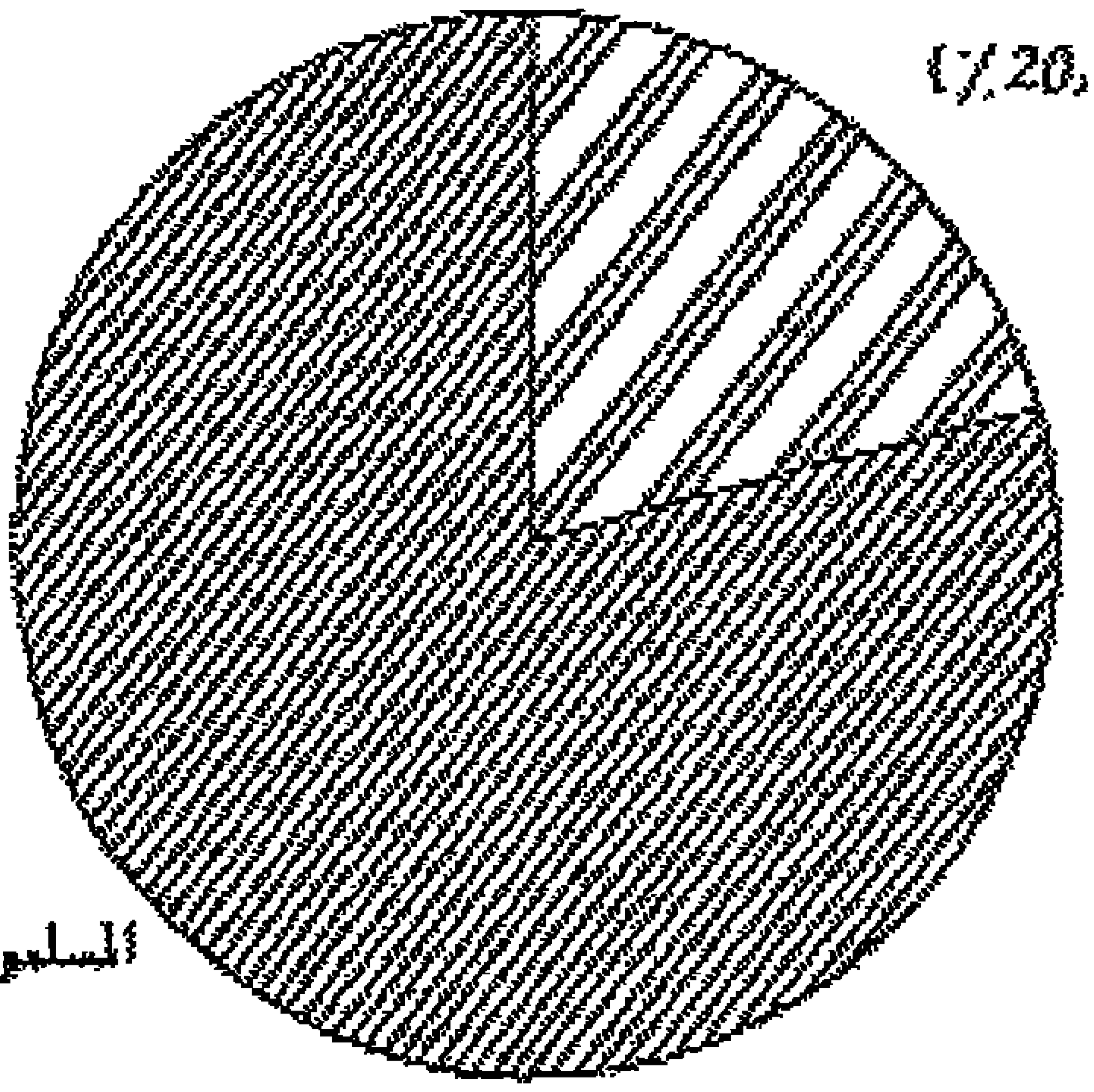

إحصائيات : الإسلام دين الكتاب

1987	الشمال	الإسلام	النسبة
الكتب المنشورة لكل مليون نسمة	510	50	من 1 إلى 10
عدد عناوين الكتب المنشورة	612 ألف	25 آلف	من 1 إلى 25
استهلاك الورق لكل ساكن	40 كيلوغرام	2,5 كلغ	من 1 إلى 18

دراسات للمستقبل

	العالم	الإسلام	النسبة
منظمات	500	13	من 1 إلى 40
باحثين	2500	40	من 1 إلى 60
مشاريع	750	15	من 1 إلى 50
كتب و تقارير	1100	25	من 1 إلى 45
مجلات ودوريات	160	4	من 1 إلى 40
أفلام	650	0	–
دروس جامعية	350	0	–

السكان المسلمون في العالم (1987) و التوقعات لسنه 2000

المناطق	عدد المسلمين سنة 1987	عدد المسلمين سنة 1000 (بالملايين)
شمال إفريقيا	110	220
افريقيا الغربية	80	140
افريقيا الوسطى	8	15
افريقيا الشرقية	40	80
اقريقيا الجنوبية	2	5
(أفريفيا) المجموع	240	260
آسيا الوسطى	315	500
جنوب شرق أسيا	150	240
الشرق الأقصى	50	80
آسيا الوسطى	80	140
(آسيا) المجموع :	595	960
تركيا	50	80
أوروبا الغربية	8	15
أوروبا الشرقية	9	15
الاتحاد السوفياتي	55	90
(أوروبا) المجموع	122	200
(أمريكا) المجموع	8	15
العالم : المجموع	965	1635
نسبة المسلمين من سكان العالم	%19	% 20,5
العرب المسلمين	(% 20) 200	(% 23) 380
المسلمون غير العرب	(% 80) 765	(% 77° 1255

INDICATIONS SOCIO-ECONOMIQUES DES PAYS MENBRES DE L'ORGANISATION DES PAYS ISLAMIQUES

PAYS	Population 1989 (miliers)	PNB/Capita 1989 ($USA)	Taux (1989) Mortalite (par 100)infantile	Taux analphabetisme adultes + 15 ans TOTAL	FEMMES
Afranistan	19800	500	300	75%	90%
Algeria	24500	2170	107	50%	63%
Bahrain	400	6400	31	36%	36%
Bangladesh	112000	200	188	66%	78%
Brunei	400	-		22%	
Burkina faso	9500	310	233	86%	94%
Cameron	11200	1010	153	44%	55%
Chad	5500	190	223	75%	89%
Comoros	450	460	129	-	-
Djibouti	400	900	169	-	-
Egypt	54000	630	125	56%	69%
Gabon	1300	2770	169	39%	47%
Gambia	900	230	245	75%	85%
Guinea	6800	430	248	72%	83%
Guine-Bissau	1100	180	223	69%	83%
Indonesia	175000	490	100	26%	35%
Iran	54000	4500	72	49%	61%
Iraq	17500	3000	94	10%	12%
Jordan	4100	1730	57	25%	37%
Kuwait	2100	16400	22	30%	37%
Lebanon	2800	2500	51	23%	-
Libya	4500	5400	119	33%	50%
Malaysia	17000	2130	32	27%	34%
Maldives	250	420	71	-	-
Mali	9000	260	292	83%	89%
Mauritania	2000	490	220	66%	-
Morocco	24700	900	119	86%	78%
Niger	7000	300	228	48%	91%
Nigeria	111000	290	174	-	69%
Oman	1400	5100	64	70%	-
Pakistan	115000	350	83	-	81%
Palestine	-	-	-	-	-
Gaza	-	-	-	-	-
West Bank	-	-	-	49%	-
Qatar	350	10000	39	49%	-
Saudi Arabia	13000	6230	98	72%	-
Senegal	7500	650	135	71%	81%
Sierra Leone	4000	220	266	88%	78%
Somalia	7000	170	221	-	93%
Sudan	24000	340	181	40%	-
Syria	12000	1550	64		57%
Tunisia	8000	1260	83	46%	59%
Turkey	45000	1360	93	26%	38%
Uganda	17000	260	169	43%	55%
United arab emirates	150	18430	32	-	-
Yemen (1990)	10400	550	190	80%	91%
TOTal/Moyenne	953000	($ 1000)	(130/1000)	(53%)	(61%)

Source: "Social Indicators of Development 1989", Banque Mondiale

التقرير الختامي للندوة

تدارس المشاركون في ندوة قضايا المستقبل الإسلامي البحوث المقدمة خلال ثلاث عشرة جلسة، وكانت أهم التوجهات التي أفرزتها البحوث وما جرى حولها من مداولات ما يلي :

1 – هناك حاجة ماسة الى تعميق المفاهيم المستقبلية خاصة لدى القيادات العلمية والإدارية كما أن هناك حاجة ماسة الى العناية بالدراسات المستقبلية وتطويرها في المؤسسات العلمية لفي المجتمعات الإسلامية، وغني عن القول أن الدراسات المستقبلية الإسلامية لا يمكن أن تتم بصورتها المثلى إلا إذا تمت من خلال مراكز البحوث العلمية المتخصصة، ولذلك فإن الحاجة ملحة الى العناية بالبحث العلمي والباحثين المتخصصين وتوفير جميع الامكانات والوسائل التي تضمن للبحث العلمي الإسلامي مكانته اللائقة ضمن النشاط العلمي العالمي.

2 – مستقبل الأمة الإسلامية مرهون إلى درجة كبيرة بمدى قدرة المسلمين من خلال مؤسساتهم وهيئاتهم وحركاتهم على جعل الإسلام المحور والمرتكز لوجودهم بكل جوانبه، ومدى قدرتهم عل إحياء قيم الاسلام الكبرى وبثها في حياتهم بكل أوجهها.

3 – من أخطر ما تعاني منه بعض المجتمعات الإسلامية ويهدد مستقبلها، غياب العدالة وتفشي مظاهر الطلم والاستبداد السياسي والإداري والاقتصادي، ولذلك فإن أهم وأول مطلب إسلامي هو إقامة العدل في المجتمعات الإسلامية ومحاربة الظلم والاستبداد بكل أصنافهما وجميع مستوياتهما.

4 – من أهم ما تبينت عليه الرسالة الإسلامية القيم والمثل الأخلاقية التي ينبغي أن تسود الحياة البشرية. ومن أهم ما أصيبت به البشرية هو غياب أو ضعف هذه القيم، ولذلك فإن على أمة الإسلام تطبيق هذه القيم في مجتمعاتها والسعي لتأصيلها في المجتمعات الإنسانية بكل ما هو متوافر لها من إمكانيات ووسائل.

5 ـ إن حماية حرية الإنسان وصيانة الكرامة الإنسانية من أهم المطالب الشرعية، ومن الشروط

الكونية التي لا يمكن أن تستقيم الحياة البشرية بدونها، وان مستقبل المجتمعات الإسلامية مرهون بمدى قدرتها على تحقيق واجبها الشرعي في صيانة كرامة الإنسان ورعاية حريته.

6 - إن من اهم ما تعاني منه الأمة ويعوق مسيرتها المستقبلية تخلفها في معظم جوانب الحياة وعلى رأسها التخلف الفكري. ولكي يكون المستقبل خيرا من الحاضر فإن على الأمة مواجهة هذا التخلف بجميع مستوياته الفكرية والمعرفية والسياسية والاقتصادية والصناعية والتقنية والاجتماعية.

7- إن واقع المرأة المسلمة بوجه عام لا يزال دون ما يرتضيه الاسلام لها بكثير، وعلى المسلمين عامة والحركات الاسلامية بوجه خاص إعادة الاعتبار للمرأة المسلمة ورفع ما وقع عليها من مظالم بسبب الجهل وسوء فهم الاسلام، والتيقن أن مستقبل أجيال الأمة مرهون بضمان ممارسة المرأة لدورها الكامل في الحياة شقيقة للرجل وشريكا له في الاستخلاف ومسؤولية عمارة الكون، والأمل معقود في المرأة المسلمة على أن تعي دورها وتشمل مسؤوليتها وتتصدى لكل أنواع التحديات التي تواجهها.

8- إن الخطر الصهيوني على الأمة لا يقتصر على اقتطاع جزء غال من بلاد الاسلام، وإنما يتعدى ذلك إلى تهديد الوجود العربي الاسلامي كله، بل الانسانية بوجه عام وأنه أعظم تحد خارجي تواجهه الأمة في حاضرها ومستقبلها، ولن تتجاوزه إلا بالارتقاء بمستوى مواجهتها له وجعل هذه المواجهة عقائدية وعلى مستوى الامة كلها.

9- إن من أعظم التحديات المعاصرة والمستقبلية التي تواجهها الأمة الهجرة اليهودية إلى فلسطين التي تشكل مرحلة متقدمة من التآمر على الأمة وحلقة جديدة من حلقات المخططات الاستعمارية للمنطقة الاسلامية بأسرها، ومن المؤسف آن رد الفعل العربي والاسلامي لم يتجاوز الشجب اللفظي والمواقف الشكلية المكررة وعلى جميع القيادات الفكرية والحركات الاسلامية توعية الشعوب الاسلامية بخطورة هذا الغزو وحجم تهديده لمستقبل الامة، وبذل كل إمكانتها للتصدي له على جميع المستويات وبكل السبل.

10- هناك حاجة ماسة لان تقف الامة الاسلامية موقفا حازما تجاه ما تلاقيه المناطق والأقليات الاسلامية في الغرب والشرق من اضطهاد ومصادرة للحريات وحرمان من الحقوق الانسانية الاساسية وحرية ممارسة الشعائر وإعلان المعتقد، كما أن هناك حاجة إلى تضافر جهود المؤسسات الاعلامية في العالم الاسلامي لفضح المؤامرات التي تحاك ضد هذه المناطق والأقليات وتعرية مواقف النفاق التي يقفها الغرب من قضاياهم.

11- ما يواجهه جنوب السودان من غزو حضاري لا يقتصر على تهديد السودان وحده، وإنما يهدد الوجود العربي الاسلامي شعوبا وحكومات ان يهبوا لمواجهة هذا الخطر الداهم والتحدي الكبير قبل أن

يفوت الاوان.

12- إن الوحدة الاسلامية مطلب مستقبلي للأمة، وهي واجب يفرضه الاسلام، ورصيد ضخم لن تتمكن الامة من مواجهة ما يكتنفها من أخطار إلا به، وعلى الأمة بجميع فئاتها ان تجعله من أهم مرتكزات مشروعها الحضاري المستقبلي وإن العناية باللغة العربية والسعي لجعلها لغة العالم الاسلامي من جديد واجب مستقبلي لن تتحقق الوحدة الفكرية والثقافية ولن تتحدد الهوية الحضارية للأمة إلا به.

13. إن من أهم واجبات المجتمعات الاسلامية والتيارات الاسلامية فيها بوجه خاص التصدي لمشاريع التغريب والعلمنة التي تواجهها معظم البلاد الاسلامية، وتشكل تحديا حضاريا لمستقبلنا، ومن أهم سبل مواجهتها تخليص مشاريع وخطط التنمية في البلاد الاسلامية من كل أشكال التغريب والتبعية بجميع مستوياتها.

14. إن التغيرات التي تشهدها الساحة الدولية خاصة في الكتلة الشرقية وأوربا الغربية وما تنبئ به من تحولات في مراكز القوى والتكتلات العالمية يوجب على المجتمعات الاسلامية والانظمة الحاكمة فيها بوجه خاص إعادة النظر في مواقفها والسعي الحثيث لمواجهة هذه التحولات سواء باستثمار ما تهيؤه من فرص وإمكانات جديدة، أم بالاستعداد لما تبعته من أخطار جديدة.

15. على الرغم من الإيمان الكامل بضرورة حماية البشرية من جميع أنواع الأسلحة الفتاكة التي تهدد مستقبل الانسانية والإيمان الكامل بأن الاسلام دين سلام ورحمة للبشرية: إلا ان الواقع العالمي وما يتوقع أن يحمله المستقبل من تحديات عسكرية للأمة الاسلامية يفرض على المجتمعات الاسلامية امتلاك مقدمات الدفاع عن نفسها وحماية وجودها المهدد، والواجب على الدول الاسلامية التعاون الوثيق في هذا الجانب درءا لتكرار الجهود وبتبديد الطاقات.

16. إن الفجوة المتعاظمة في المعارف والتقنيات الصناعية الحديثة بين المجتمعات الاسلامية والمجتمعات الصناعية وام تنبئ به التوقعات المستقبلية عن ذلك ، خطر مستقبلي شديد لا بد أن تتضافر جهود جميع فئات الأمة الرسمية وغير الرسمية لمواجهته بما يليق به من استعدادات وإمكانات، ولا بد من استنبات التقنية في المجتمعات الاسلامية وبناء استراتيجيات التنمية في هذه المجالات على ذلك، لا يمكن ان تحقق المجتمعات الاسلامية طموحاتها في الحياة إلا بالتحرير الكامل من كل هيمنة أجنبية مهما كان نوعها ومهما كان مستواها، وبدون هذا الاستقلال فلن يكون هنا ك مستقبل حقيقي للأمة.

17. من أعظم ما يهدد مستقبل الامة الاسلامية هجرة العقول العلمية، والواجب على جميع الدول في البلاد الاسلامية اتخاذ الاسلامية وتهيئة الظروف التي تحول دون هذا النزيف لطاقات الامة، كما أن عليها

العمل على استعادة ما يمكن استعادته من العقول المهاجرة.

18. إن هناك حاجة ماسة إلى العناية بفقه الوحدة وفقه الاختلاف وتطويرهما ونشرهما في جميع أوساطها المجتمعات الاسلامية، كما أن هناك حاجة ماسة إلى فتح أبواب الحوار بين جميع الفئات سواء بين المسلمين بعضهم بعضا، أم بين المسلمين وغيرهم، وإن هذا الحوار ليس ضرورة يفرضها الواقع ويتأثر بها المستقبل فقط، وإنما هو قبل كل ذلك واجب شرعي ينبع من رسالة الاسلام وعدالته.

19. إن هناك حاجة ماسة إلى تطوير العلاقة بين القوى الشعبية والأنظمة الحاكمة في البلاد الإسلامية، وإلى تطوير وسائل الحوار وأساليبه بينها، ويتجاوز مرحلة التجاهل والتصادم والصراع التي لم يتسفد ولن يستفيد منها إلا أعداد الأمة.

الجزائر - شوال 1410 مايو - 1990

اختلال موازين الغرب في ميدان حقوق الإنسان (*)

إذا نظر الإنسان إلى الأحداث التي وقعت في أوربا الشرقية في نهاية 1989 ولاتزال تطوراتها جارية، من زاوية إنسانية، لا يمكن له إلا أن يعرب عن ارتياحه لكل ما من شأنه أن يجسم حقوق الإنسان وكرامته ويزيد في حريته وإمكانياته الخلاقة وهو جانب إيجابي لتلك الأحداث فإذا أردنا أن نحلل بدقة ما وقع وحدث في أوربا الشرقية فإن ذلك يتطلب منا بداية أن نتساءل :

أولا - ما هي درجة المفاجأة فيما حدث بأوربا الشرقية ؟

لقد كانت الأحداث مفاجأة للذين يتابعون الأحداث يوميا وينظرون للأمور بنظرة قصيرة المدى أما بالنسبة للذين يحللون التطورات برؤية مستقبلية وبالانطلاق من معطيات الماضي والتاريخ، فقد كانت هنالك مفاجأة، ولكنها ليست بنفس الدرجة. ففي يونيو (حزيران) من عام 1980 وأثناء مقابلة لي مع برنامج تلفزيوني فرنسي مشهور «ملفات الشاشة» طرح آنذاك عقد الثمانينات للتأمل والتوقع قلت إن هذا العقد سيكون عقد الانقطاعات وان تسارع الأحداث التاريخية سيؤدي الى بعض التغييرات الجذرية، ولا أقول هذا للإدعاء بأنني توقعت ما حدث الآن، فليس هذا هو المهم. إن المهم، هو أننا نعيش عصر المعرفة والعلم والتكنولوجيا وهي أشياء تؤثر على التطورات العالمية، ولكن «الانقطاعات» التي حدثت بأوربا الشرقية حصلت بوتيرة أسرع، وهو ما يجعلنا نتساءل أيضا : لماذا بدأت في أوربا الشرقية بالذات؟

بعدما أشرنا للسلبيات ضمنيا من خلال التطورات والدفاع عن حقوق الإنسان وغيرها، ينبغي أن لا ننسى أن الأنظمة الشيوعية في أوربا الشرقية بقطع النظر عن النواحي السلبية وهو أمر أكرره، كانت لها عوامل إيجابية، هي التي هيأت المناخ الملائم للتطور الذي عشناه أخيرا.

ويمكن تحديد تلك العوامل فيما يلي :

1 - منطقة أوروبا الشرقية تغلبت على البؤس والفقر، وليس هناك فيها أي نوع من الفقر أو البؤس كما نعرفه في أغلب دول العالم الثالث.

2 - ان أنظمة دول أوروبا الشرقية نجحت في ميدان محو الأمية، حيث نجد نسبتها لا تتجاوز

(*) فبراير 2000

الخمسة بالمائة من السكان وهذا يعني أن مستوى المعرفة مرتفع، إذن مستوى معين من المسؤولية.

3 – هذه منطقة نشرت المعرفة والثقافة بوسائلها وشجعت أيضا البحث العلمي.

4- من الناحية الصحية وفقت الدولة في سياستها في مجال الصحة، الى درجة معينة، حققت بها معدلا لمتوسط الأعمار تجاوز السبعين عاما، وهو رقم يعادل الأرقام المسجلة في البلدان الصناعية الأخرى.

إن السلبيات التي عانت منها أوربا الشرقية تضاف اليها الإيجابيات التي ذكرناها دفعت وأعطت للشعوب في هذه المنطقة قدرة وقوة، لتواجه بمعرفة وبوعي سياسي مشاكل الضغط الناتجة عن الأنظمة الشيوعية، لكن ينبغي أن نسجل في الوقت نفسه أن تلك الأنظمة واجهت «الانقطاعات» والتحولات بطريقة، يمكن القول عنها أنها سليمة أو شبه سليمة، لأن الأرواح والدماء التي سالت أثناء أحداث أوربا الشرقية، قليلة بالقياس لما تعرفه في الثورات الحقيقية تاريخيا...

ثانيا : كيف يمكن أن ننظر لهذه التطورات من الناحية العالمية ؟

أعتقد أن التغيرات التي وقعت بأوربا الشرقية، أصبحت الآن جزءا من الحضارة المعاصرة، وينبغي أن نفهم أنه مع تطور الزمن فإن أمرا طبيعيا سيطفو، وهو أن كرامة الانسان هي الأساس.

ويعتبر موضوع حقوق الإنسان حاليا عاملا اساسيا في التحركات الدولية، ويكفي أن نذكر بأن المنطقة الأولى من جدول أعمال أولى الإتصالات بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الامريكية في السنوات الأربع الأخيرة، كانت موضوع حقوق وكرامة الانسان، ويمكن القول بأن هذا تيار عالمي. وقد رأينا بعض نتائجه بطريقة درامية في أوربا الشرقية، وهي بداية سنرى تطورات مماثلة لها في العالم وبالخصوص في العالم الثالث في عقد التسعينات.

ثالثا : ما هي الخصوصية في أحداث أوربا الشرقية ؟

إن كون التطورات الحاصلة في أوربا الشرقية لها طابع عالمي ينفي عنها خصوصيتها. فبالإضافة الى العوامل التي ذكرتها سلفا، والمتصلة بأوربا الشرقية، ينبغي أن لا ننسى دور القيم وبالخصوص القيم الدينية، التي كان لها تأثير دائم، وهو التأثير الذي فشل النظام الشيوعي في محوه.

وينبغي أن لا ننسى كذلك بأن الأحداث والتغيرات التي حصلت بأوربا الشرقية، انطلقت منذ زمن، بالمشاكل مع الكنيسة وخاصة الكاثوليكية ببولونيا، وما وقع مع لاش فاليسا، بالإضافة الى دور البابا فيما حدث. كما ينبغي أن نتذكر أن أول ما وقع بألمانيا الشرقية انطلق عندما خرجت عشرات الآلاف من المواطنين متظاهرين من الكنيسة البروتستانية في مدينة براست، ووقعت أحداث مشابهة فيما تبقى من دول

أوربا الشرقية التي بدأت فيها مظاهرات ذات طابع ديني وهو ما وقع في براغ وصوفيا..

وهو أمر ينبغي التركيز عليه، لأن القيم الروحية والدينية هي التي دفعت المنطقة الى هذا الانقلاب، وأدت الى مساعدة وتفهم وعطف كبير من بقية دول العالم والغربي بالخصوص. من ناحية ثانية يكفي أن نقول بأننا رأينا من الميز ما يؤلم كل من ينظر لتطور الإنسانية بكيفية عالمية حقيقية!.

رابعا : كيف تفاعل الغرب مع الأحداث ؟

لقد عشنا الأحداث... دقيقة بدقيقة في رومانيا وألمانيا الشرقية وجدار برلين.. وتتبعنا تفهم وتعاطف الغرب لما يقع فماذا حدث عندما انفجرت أحداث مشابهة في المنطقة نفسها، أعني ما وقع بأذربيجان ؟

لقد كان رد الفعل من نوع ثان.. حيث انحسر العطف، وأصبح تحليل الغرب لأحداث اذربيجان أنها «مسألة انفصالية» وكعمليات دينية محض قام بها متطرفون كما أشير الى «خطر الاسلام».

والحقيقة أن المراقب للتطورات في العالم وبالخصوص في مجال حقوق الإنسان ومن زاوية إنسانية وعالمية، يصعب عليه أن يفهم التحيز الذي اتسم به الغرب في تناوله لهذا الموضوع. فمثلا لاحظنا أن غورباتشوف صرح إبان ثورات بلدان أوربا الشرقية، أنه لا يتوقع استعمال الاتحاد السوفياتي للقوة أو الجيش ضد إرادة أي شعب ومهما كان.

وفعلا لم يتدخل الجيش السوفياتي عندما انفجرت الأحداث في جمهوريات ليتوانيا واسطونيا، رغم أقدام تلك الشعوب على اتخاذ قرارات خطيرة، مثل انفصال الأحزاب الشيوعية لتلك البلدان عن الحزب الشيوعي السوفياتي.

ولكن عندما وقعت أحداث اذربيجان لاحظنا أولا تعاطفا عالميا من قبل رئيس الولايات المتحدة ووزراء السوق الأوربية المشتركة بالإضافة الى وسائل إعلام الغرب، وقدمت مشكلة اذربيجان كقضية دينية بمفهوم ضيق والمقصود من ذلك تخويف الرأي العام من التيار الإسلامي ولكي أبرهن على هذه النقطة، التي اعتبرها أساسية، وتتمثل في تمييز الغرب عند دفاعه عن حقوق الإنسان، لمناطق عن أخرى آخذ مثالا رمزيا على ذلك : «جاك دولور» لما أعرفه عنه منذ وقت طويل عندما كان أستاذا في جامعة باريس، وهو الرجل الذي أقدره كثيرا، ولكنني اعتقد أنه وتحت تأثير الرأي العام، وقع في نوع من التناقض في هذا الموضوع.

ففي برنامج تلفزيوني فرنسي مشهور «ساعة الحقيقة» بث يوم 23 يناير (كانون الثاني) تحدث «دولور» عن الأحداث في أذربيجان.

وتجدر الملاحظة في هذا السياق بأن هذا البرنامج يتلقى أسئلة مباشرة من النظارة وتبين بالأرقام أن أهم سؤال كان يشغل بال النظارة، يتعلق بأذربيجان. وقد رد «دولور» على الأسئلة بطريقة ركز فيها على

موقف وزراء السوق الأوربية المشتركة المؤيد لغورباتشوف مستعملا عبارة تعجبت منها شخصيا، حين قال : ما يقلقني في مرتبة ثانية هو عدم التسامح الاسلامي بأذربيجان، والذي هو في نفس الوقت مشكل يهمنا جميعا، ينبغي التفكير فيه».

تطرق أيضا الى مسألة الحجاب التي شغلت الفرنسيين لمدة أسابيع وأعتقد أنه قال ذلك الكلام، نظرا لموقعه لدى الرأي العام الفرنسي، ومن المعلوم أن «جاك دولور» هو الشخصية التي تتمتع بشعبية كبيرة، ولكي يحافظ على شعبيته كان من اللازم بالنسبة له أن يشير الى كلمتي «الاسلام غير المتسامح «ومسألة الحجاب» رغم تراجعه عن هذا الموقف في نهاية البرنامج ليقول كلاما واقعيا، عندما أشار لضرورة تحديد المقصود من الإسلام، إذ قال بأنه يوجد إسلام متسامح، وينبغي تشجيع الدراسات لفهم هذا الإسلام، كما أشار الى أن نجاح الاسلام والحركات الاسلامية أمر ناتج عن الأوضاع الاجتماعية في البلدان الاسلامية.

«وجاك دولور» الذي تحدث يوم 24 يناير (كانون الثاني) 1990 عن الروح اللامتسامحة في الإسلام» كان يوم 17 أكتوبر (تشرين الأول) 1989 أي قبل تسعة وثمانين يوما فقط قد حضر اجتماعا دينيا هاما عقده في «لورد» بفرنسا القساوسة الكاثوليك الفرنسيون حيث صرح مركزا على مسألة القيم فبعد أن رأينا «أوربا التجار» ها نحن الآن نرى «أوربا القيم». وأضاف: «ان الكنيسة تضع أوربا موضع سؤال ولها مبررات، إن أوربا لا يمكن لها أن تكون مادية فقط»، ويضيف دولور متوجها للكنيسة بأن «تدفع» أوربا في هذا الاتجاه.

ثم قال «دولور» ولقد جئت الى لورد - بلد الروحانيات - لأن أوربا محتاجة الى مزيد من الروحانيات.

وفيما يتعلق بالاسلام قال كلاما مشرفا، ينسينا كل ما قاله أخيرا في البرنامج التلفزي المشار اليه، ولكنني أريد التركيز على بعض النقاط التي أشار اليها «دولور» في خطابه بلورد في الخريف الماضي، خاصة قوله : ان المؤمنين بالاسلام حركيون أكثر، وأكثر جرأة، إنهم لا يخجلون من إعلان إيمانهم ولا يخشون رفع «رايتهم».

وهنا لا نرى «جاك دولور» المتفهم فقط بل الذي يقدم للأوروبيين الاسلام كمثال ولو قال مسلم هذا الرأي لاتهم «بالأصولية» أو «التطرف»!!

خامسا : بقي أن نشير الى صلة أحداث أوربا الشرقية بالغرب : من الناحية الاستراتيجية، ان ما نسميه بالغرب والعالم المنتمي حضاريا الى المسيحية واليهودية، يبلغ مجموع سكانه اليوم مليار نسمة موزعة على ثلاثة اجزاء متساوية تقريبا : ثلث في امريكا الشمالية والولايات المتحدة وكندا وثلث في أوربا الغربية وثلث في أوربا الشرقية التي يبلغ عدد سكانها 4000 مليون نسمة تقريبا، يمثل الاتحاد السوفياتي الثلثين.

ومن الناحية الجيوسياسية وبعدما حدث في أوربا الشرقية، سيصبح وزن المجموعة الأوربية 700 مليون نسمة تقريبا فهل سيصبح الصراع بين أوربا وأمريكا؟ ام ان استراتيجية العلاقات بين موسكوا وواشنطن ستبقى هي المؤثرة في مجرى الصراع. وبالتالي سيستمر نوع من التوازن بين الدول الأكبر وتبقى أوربا أقل شأنا؟

لقد بدأنا نلاحظ بعض المظاهر التي تدفع الى التأويل الثاني، كنت أشرت الى طلابي في العلاقات الدولية منذ سنوات، الى أن احسن مثال أعرفه في تاريخ العلاقات الدولية، كمثال ونوع من «شهر العسل» هو ما يقع بين موسكو وواشنطن منذ عقد ونيف، بصرف النظر عما كنا نلاحظه في الصحف والتصريحات الرسمية فقد كان الاتصال الحقيقي هو بين قوتين عظميين تتصرفان في العالم كما تشاءان، يؤكد أن هناك اتفاقا ضمنيا ولو كانت الأزمة قائمة فعليا على مستوى شرق - غرب لما وقع ما نلاحظه الآن بين حلفي وارسو والأطلسي.

والعجيب فيما حصل أخيرا بعدما بدأت بعض دول أوربا الشرقية بجلاء الجيوش السوفياتية أن أول تخوف لم يأت من موسكو ولكن جاء من «الناتو» وجاء من الولايات المتحدة، ومرجع هذا التخوف هو أن سرعة إجلاء القوات السوفياتية ستخلق مشاكل كبيرة بالنسبة للتوازن ومفاوضات نزع السلاح بين واشنطن وموسكو.

ومن جهة أخرى نلاحظ أن المانيا التي تتمتع بوزن كبير داخل أوربا الغربية، تتجه الأمور فيها الى التوحد بين «الشرقية» و«الغربية» بل إنها أصبحت مسألة واقعية وأتوقع ان لا يتجاوز تاريخ إعلان الوحدة أربع سنوات أو خمسا على الأكثر.

وعلى عكس التوقعات التي ذهبت الى أن توحد الألمانيتين سيدعم موقع «الناتو» عالميا، فإن تصريحات مسؤولي البلدين توضح أن المانيا اذا توحدت ستنسحب من «الناتو» وهذا أمر له تأثير كبير على المشاكل الاستراتيجية في أوربا والغرب.

ويمكن أن نتساءل في هذا السياق عما إذا كانت الأحداث التي شهدتها أوربا الشرقية أخيرا، هي نتيجة ما يسمى بالحرب الإيديولوجية بين الشيوعية والرأسمالية؟ وهل ما تقدمه لنا وسائل الإعلام الغربية من أن نتائج هذه الحرب كانت لصالح الإيديولوجية الرأسمالية، أمر مقنع أم لا؟

إن تحليل الأمور من الوجهة الغربية، يجعلنا نقول إن هنالك نوعا من الغلبة لنموذج على آخر. ولكن إذا حاولنا فهم ما وقع، من بعيد وبرؤية موضوعية، فماذا سنجد؟

بالنظر للتاريخ الحديث من الناحية الحضارية والثقافية، فإن القيم والإنتاج الفني والثقافي للنمطين من الأنظمة، تؤكد أنه لا يوجد فرق بينهما، وانهما نتاج لمصدر واحد هو ما يمكن أن نسميه بالحضارة

اليهودية - المسيحية، وهي عبارة استعملها بكل احترام واعتراف لما قدمته هذه الحضارة من تطور للانسانية وبالخصوص خلال القرنين الماضيين، وهو أمر لا يمكن تجاهله، ولكن ينبغي التأكد في ذات الوقت على أن النظامين سليلان لأسرة واحدة.

وإذا كان الغربيون يعتبرون أن ما يقع في أوربا هو «نزاع عائلي» داخل «العائلة الغربية» فماذا يعتبره الانسان من خارج هذه العائلة؟

إن النظامين مبنيان على المادة، والنموذج الغربي الرأسمالي والشيوعي هو نموذج مادي أدى الى سلبيات كبيرة تتمثل في نموذج اقتصادي مبني على درجة من الانتاج ادت الى ما نشاهده من تلوث وحياة مبنية على الضياع والتبذير. وتسجل الأرقام أن مليار من سكان العالم، وهو الغرب: العالم اليهودي والمسيحي الذي لا يمثل سوى الخمس من سكان الكرة الأرضية، يستهلك أكثر من 80 بالمائة من المنتوجات والموارد الطبيعية والمادية لهذه الكرة الأرضية!!

سادسا : بقي أن نتساءل أخيرا عن انعكاسات أحداث أوربا الشرقية على العالم الثالث والعالم الإسلامي؟

ينبغي الرجوع كذلك الى الأرقام التي تسجل بأن بقية سكان العالم يبلغون أربعة ملايير. فما هو مستقبل علاقات هذا المجموع مع المجموعة الغربية التي تشكل المليار الخامس ؟

إن أهم نقطة بقيت أعيرها أهمية خاصة منذ سنة 1979 عندما عقدت أول مائدة مستديرة في إطار حوار شمال - جنوب، قلت آنذاك «ليس هنالك أي أمل في أي نوع من الحوار شمال - جنوب إلا إذا تجاوز الشمال ما أسميته بالعراقيل الثقافية والحضارية» لأن أكبر مشكلة نواجهها الآن في العالم - وأعتقد أن مسألة بقاء الانسانية فوق الأرض لها علاقة بهذه المشكلة - هي التي أسميتها بالتأصل الثقافي.

لقد وصل الغرب الى درجة من العجرفة حضاريا وثقافيا، نظرا لما حققه من رقي وتقدم تكنولوجي الأمر الذي جعله يشعر بأنه القوي دائما. والعجرفة ملازمة للقوة.

ويمكن القول بأن عراقيل التعاون بين الشمال والجنوب مستقبلا، هي ثقافية وحضارية، وإذا كان العالم الاسلامي وحده يعادل وزنه مجموعة العالم الغربي اليهودي والمسيحي، فكل واحد منهما يساوي مليارا، فالمليار الغربي يستولي على 80 بالمائة من مقدرات العالم كله، بينما لا يتجاوز نصيب العالم الإسلامي الخمسة بالمائة منها.

إن العنصر الديمغرافي يبرر تخوفات الغرب، ويمكن أن نتناول مثالا بسيطا، يؤكد أهم الاختصاصيين الديمغرافيين بإجماع بما فيهم الغربيون أن المليار الغربي سوف لا يتغير كثيرا خلال المائة

سنة القادمة، وبالعكس سيتجه العالم الغربي ديمغرافيا الى مرحلة الشيخوخة، لأن معدل الاعمار في تلك البلدان سيرتفع وبالتالي سيكون شعبا كهولا.

ويشير «جان بورشوا» الديمغرافي الشهير ضمن ارتساماته الاسقاطية بشأن التيارت الروحية والدينية، خلال الفترة 1980 ـ 2025 «ان التيار المسيحي اليهودي الذي مثل 21 بالمائة سنة 1980 سينزل الى نسبة 20 بالمائة عام 2025، بينما سوف لا تتجاوز هذه النسبة 15 بالمائة في حدود سنة 2125».

أما الإسلام الذي كان يمثل 18 بالمائة في عام 1980 فإن نسبته في عام 2025 ستصبح 21 بالمائة من سكان العالم، وسترتفع الى 43 بالمائة في حدود سنة 2125. في ظرف الثلاثين سنه القادمة سيصبح الاسلام اذن اهم تيار ديني في العالم وسيكون الاسلام عقيدة ثلث سكان العالم في أفق هذه المرحلة.

إنها مسألة ينبغي التفكير فيها، ومن خلالها نفهم ردود الفعل الأخيرة ضد الإسلام من قبل الغرب الذي قالت مصادره الدينية (الكنيسة) في عام 1985، أن عدد المسلمين أصبح يتجاوز الكاثوليك!

في الأخير، ينبغي أن نؤكد على أهمية تناول الاحداث التي تقع في العالم، من منظور المنطقة التي تقع فيها الأحداث في محيطها، ومن زاوية ذاتية وداخلية. كما ينبغي تناولها شموليا وعالميا من زاوية مصالحنا. وفي هذا السياق، أعتقد ـ من خلال ما نعيشه في معظم بلدان العالم الثالث ـ أن المسؤولين لم يبرهنوا عن اية إرادة لتغيير جذري بخصوص هذا التيار العالمي المتعلق بحقوق وكرامة الإنسان، الامر الذي يجعلنا نتخوف من حجم الثمن الذي سيدفعه العالم الثالث خلال السنوات القليلة القادمة، وأعني بذلك الثمن الذي لا يمكن تفاديه.

والمسألة المطروحة للتساؤل هل سيأتي هذا التغيير بروح سليمة، وروح مشاركة، أم سيكون بعنف وبمعارك دامية؟

إن الأمر المقلق هو أن العالم الثالث الذي كان مقصد الحركات التحريرية التي كانت تدافع عن كرامة الانسان وحقوقه ضد الاستعمار اصبح اليوم يتلقى دروسا في حقوق الانسان من الغرب المجرم الأول في هذا الميدان. لقد «حققت» الثلاثون سنة الماضية من استقلال دول العالم الثالث سجلا طويلا خرقت فيه كرامة الانسان فهل انقلبت الآية؟

(الرباط فبراير 1990)

- "الشرق الأوسط» 17 فبراير 1990
- «العقيدة»، الجزائر ـ 3 بريل 1990

الديمقراطية وحقوق الانسان في مواجهة الفرنكفونية(x)

س – تعمل أستاذا في الجامعة - عملت في اليونسكو، أيهما تفضل؟

ج – منذ بداية حياتي المهنية، وبعدما أنهيت تهييء رسالة الدكتوراه بجامعة لندن بدأت كأستاذ في كلية الحقوق بجامعة محمد الخامس، وكان لي الشرف بأن أكون أول أستاذ مغربي بهذه الكلية، أما المرحلة التي كنت فيها باليونسكو،هي في الواقع نوع من المتابعة في ميدان التربية والعلم والثقافة، لكنها كانت تجربة مفيدة على المستوى العالمي من خلال متابعة الأبحاث وبالخصوص المقارنة بين التطورات في هذه الميادين على مستوى دولي، ولكن بعد هذه التجربة فضلت أولا العودة الى وطني ثم التحقت بهذه الجامعة نفسها، وأتابع أشغالي، ولهذا فإنه ليس لدي أي انقطاع، بل هناك تكامل بين التجربتين.

س – لو عرض عليك منصب وزاري، أي المنصب ترى نفسك قادرا على الإفادة فيه؟

ج – في الواقع إن هذا السؤال لا أساس له في حياتي، لأن من وصايا الوالد رحمه الله، شيئين اثنين : أولا أن نبتعد كل البعد عن أي مجموعة ضيقة كيفما كانت، وثانيا أن نبتعد كلما كان ممكنا عن أي منصب من مناصب السلطة، وبما أنني أقدر رضى الوالدين، فإنه لحد الآن لا يتصور ببالي أن أكون وزيرا في أي يوم من الأيام، وفي الواقع كانت عندي عدة مناسبات في الماضي ولم أقبل هذا المنصب ولا منصب سفير. لعدة أسباب أهمها وصية الوالد، وثانيا كان لي الشرف بأن أتحمل مسؤوليات كبرى وأنا صغير سواء في تجربتي الوطنية وتجربتي الدولية وفهمت ما هو مرض السلطة، وحتى في اليونسكو كنت الرقم الثاني وفهمت أيضا أن القرار الحقيقي ليس بيد المسؤول الرسمي أوالشكلي لأن كل جهده ينصرف الى البقاء في هذه السلطة، ولهذا فإني قررت مع نفسي منذ الصغر ألا أتحمل أية مسؤولية من هذا القبيل، فالسؤال نفسه لو سمحت هو خيالي فقط.

س – المستقبلية تشغل بالك من خلال عضويتك كأحد المؤسسين لنادي روما، ما هي الظروف التاريخية والواقعية التي تدفعك لاعتناق المستقبلية والدفاع عن الفكر المستقبلي؟

(*) 1989

ج – إن الاهتمام بالمستقبل هو نتيجة للسرعة التي صارت في التاريخ، وبالخصوص بعد الحرب العالمية الثانية وتطورات العلوم، حيث أصبح شيئا طبيعيا وبخاصة في القطاع العسكري، حيث أصبحت تتطلب بعض التصورات رؤية بعيدة المدى وعلى الأقل على مدى ثلاثين سنة، وهذه هي الدراسة المستقبلية، ثم هناك القطاع الخاص في الدول المتقدمة الذي كان منذ بدايته بتصور المستقبل، وهذا من عوامل نجاحه الاقتصادي، وأظن أيضا أن كل شخص يهتم بالتربية والتعليم يفهم بأن التكوين هو شيء على أمد طويل، وبالتالي فعندما يبدأ الطفل دراسته في سن السادسة أو السابعة خلال الطور الابتدائي، يجب تصور نظام على مدى جيل على الأقل، وفهمت خلال تجربتي باليونسكو بأن أي إصلاح في مجال التربية والتعليم لا يمكنه أن يتصور إلا إذا خطط له على أمد طويل، وهذه من الأسباب التي جعلتني أكون من الأولين، أولا في اليونسكو حيث كان لي الشرف بأن أصبح نائب المدير العام للدراسات المستقبلية لبرامج اليونسكو نفسها، وكان هذا أول منصب على المستوى الدولي أسس في اليونسكو عام 1970، وكان لي الشرف مع نادي روما، وترأست الاتحاد العالمي للدراسات المستقبلية، ثم رئيسا للمنظمة الدولية للدراسات المستقبلية وأيضا كان لي شرف أفتخر به سنة 1979 حين أسست الجمعية المغربية للدراسات المستقبلية التي تحتفل هذه السنة بذكراها العاشرة.

والمستقبل شيء أساسي، وهنالك نوع من النكتة حول إنشتاين الذي سئل عن رأيه في المستقبل فقال : «إنني مهتم جدا بالمستقبل لأني سأقضي فيه بقية حياتي»، والحقيقة أن التطورات التي صارت الآن في العالم، أصبحت تفرض على كل من أراد دراسة أي مشكل كيفما كان اقتصاديا أو اجتماعيا أو حضاريا، وضعه في زاوية المستقبل.

س – تهتم كثيرا بالأرقام والإحصائيات في تفكيرك العلمي، إلى أي حد تصدق الرقم والإحصاء في الوصول الى الحقائق العلمية؟ ألا يشكك بحثك العلمي في صدق الإحصاء الذي كثيرا ما يصدر عن هيئة رسمية؟

ج – أنا لست إحصائيا، ولكني كأي شخص يهتم بالبحث سواء في الميدان الاقتصادي أو الاجتماعي، يحتاج بعد تحليل الكيف، الى تكميم المعلومات لتحليل الأفكار وتطبيقها، ولكن الإحصاء ليس إلا وسيلة فقط وليس غاية، والأرقام تساعد في التحليل بينما الحقيقة العلمية في الواقع ليست موجودة. وقد قال أحد كبار العلماء، بأن الحقيقة الوحيدة في البحث العلمي التي تتحقق هي حقيقة اليوم (أي الحقيقة الآنية)، لأن هنالك حقائق دائمة وهي الأشياء الروحية التي نزلت من السماء ولا نقاش فيها بين المؤمنين، ثم هناك كل ما يدخل في مجال البحث، أو مجال الاجتهاد، هي حقائق نسبية متطورة، ومن ثم فإن اهتمامي

بالارقام ليس غاية، ولكنها طريقة بيداغوجية أيضا لتنظيم بعض الأفكار وجعلها قابلة للفهم والتبسيط. إذن فالأرقام للمراجع وليست مقدسة في حد ذاتها، أما مصداقية هذه الأرقام فهذا أمر ثاني، لكن وجود أرقام ولو شبه صحيحة أفضل من عدم وجودها.

س – كيف يرى الأستاذ مستقبل المغرب الاقتصادي والعلمي والاجتماعي من خلال الإحصائيات؟

ج – هذا في الحقيقة سؤال صعب، لا يمكن لأي كان الجواب عليه بساطة، ثم إننا في الدراسات المستقبلية لم نتحدث عن المستقبل. ،لكنا نتحدث عن المستقبليات، لأن المستقبل مفتوح، وهناك فرق ما بين الغيب ولا يعلم له إلا الله، وبين المستقبل المفتوح في مجالاته الاقتصادية والصناعية والعلمية بما في ذلك الابتكارات، وهي كلها مفتوحة، وممكنة التطور بطوق مختلفة، والدراسة المستقبلية ليست دراسة خطية تأتي بحل واحد، بل هي تسهل الاختيارات، ونقول مثلا إذا أردنا أن يمكن للمغرب بعد 20 سنة أن يحصل على نتائج معينة في مجال التربية يجب أن يتبع الطريق كذا أو كذا، وإذا أراد أن يكون اقتصاديا كذاو فهناك اختيارات متعددة .،نتعامل في هذا المجال بعدة سيناريوهات، وهي عادة تصنف في سيناريو أعلى وسيناريو متوسط وسيناريو أقصى.

فنحن نتعامل عبر هذه الطرق. ويمكن من الناحية الإحصائية أن يتصور الانسان أيضا النمو الديمغرافي وفي ميدان التعليم، حيث يمكن انطلاقا من الأرقام التي لدينا حول عدد التلاميذ في أول سنة في الابتدائي أن نتصور الإمكانيات الممكنة في التعليم العالي بعد 12 سنة مثلا، إذن فالتساؤل عن مستقبل المغرب ليس سؤالا فنيا وليس سؤالا خاصا بالمستقبليات بل هو مبني على رؤية شاملة، وبالتالي فيمكننا أن نتساءل عن الرؤى المحتملة بخصوص المستقبل. ولا يمكن لأحد احتكار هذه الرؤية، وأن يقرر باسم الآخرين كيف سيكون هذا المستقبل لأن هذا المستقبل هو بيد المغاربة أنفسهم، وما يمكن للباحث أن يعمل هو أن يقول بأن هناك إمكانيات متعددة فيما يخص هذا المستقبل. إذن فأنا لي رؤية خاصةبي كشخص مغربي وليس كباحث وهو رأي يساوي نفس آراء مغاربة آخرين وليست له أية قيمة خاصة.

والمهم أن هناك ظروفا لا يمكن أن نجهلها وهي ناتجة عن تطورات علمية، فقبل 50 سنة كان يمكن لشخص أن يقول هذا هو المستقبل الذي أريد وهذه هي إمكانيات هذاالمستقبل حيث كانت العناصر التي تؤثر على هذا المستقبل تقريبا كلها داخلية، أي أنه كان بإمكان إنسان أن يتخذ قرارات داخل بلاد معينة، وهذه القرارات تكيف هذاالمستقبل. الآن أصبحت أغلب العناصر الأساسية التي تكيف المستقبل ليست داخلية وليست بيد القرار على المستوى الوطني، لكن أصبحت هناك مشاكل شمولية عالمية، فإذا أخذنا أشياء مثل الطقس، فهناك منذ بداية هذا القرن مثلا حصلت تغيرات أساسية في الطقس، تغيرات في البحار

ومستوياتها، وفي مشاكل من التلوث، وهي مشاكل تهم البقاء على الكرة الأرضية، ولن يمكن لأي أحد داخل البلاد كما كانت أن يقرر ماذا سيكون مستقبل هذا الطقس، ولكن إذا كان هنالك اتفاق على مستوى عالمي لاتخاذ بعض التدابير يمكننا آنذاك التغلب على بعض هذه المشاكل وبالخصوص في ميدان التلوث.

ثم هناك ثانيا الثورة الإعلامية التي حصلت في العالم، والتبادل الاعلامي الذي يحصل الآن، 80٪ منه أصبح مباشرا ما بين جميع الدول بدون أي إمكانية للتدخل من طرف المسؤولين في هذه الميادين، والتطور الذي حصل في التلفزة والإذاعة والتلكس والتليفاكس وبالإعلاميات جعل الإنسان يدخل شبكة عالمية من الاتصال. وهذه التطورات أصبحت تفرض نفسها على مستقبل البلدان، وليس البلدان هي التي تفرض على المستقبل غاياتها، وإذن فالنتيجة الحقيقية هي أن القرارات الكبرى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، أصبح القرار فيها خارجا عن السلطة المحلية، والمهم أنه يجب أن نفهم بإن هناك تطورا وهو الذي يجب أن نركز عليه، فبين هذه التطورات الخاصة بالمستقبل هناك شيء الآن أصبح يقينيا، وهو أن لا مستقبل ولا إمكانية للدخول في القرن الواحد والعشرين لمجموعة اقتصادية تقل عن 150 مليون من السكان أو على الأقل 100 مليون. وهذا شيء معروف ومفهوم.

إذن هنالك تحديات تطالب بتأسيس تجمعات اقتصادية لأن التكنولوجيات الجديدة تطالب بأسواق كبرى واستثمارات كبرى، ولا يمكن لدولة لها خمسة ملايين أو 10 ملايين أو 20 أو 50 مليون نسمة من السكان أن تواجه هذا المستقبل وحدها، هذا مثال من الأمثلة. أما ما هو المستقبل الذي نريده للمغرب؛ أظن أساسا أن المغرب إذا تغلب على مشاكله خلال السنين المقبلة، وإذا كان ممكنا قبل الدخول الى القرن الواحد والعشرين، فإنه سيتغلب على الفقر، ثم الجهل؛ فهنالك حوالي ثلثي سكان المغرب أميون، ونحن في بلاد إسلامية وأول آية نزلت في القرآن الكريم هي : «إقرأ باسم ربك...».

ثم هناك في المقام الثالث الوضعية الصحية، أما القطاع الرابع فهو الأشياء البسيطة مثل السكن والملبس ولهذه الأشياء كلها أيضا شروط، وأظن بأن الشرط الأساسي هو تحقيق نوع من الحرية متلائم مع البيئة الحضارية الموجودة اليوم، وبالخصوص نوع من الحرية لتحقيق هذا المستقبل، لأن الحرية هي التي تسمح بالابتكار والاختراع الضروري للتغلب على الأشياء الأخرى التي ذكرتها إلى حد الآن، ولو طلبت تلخيص كل هذا في كلمة واحدة سأقول أن مستقبل المغرب كما أراه وكما سيتحقق إنشاء الله هو مستقبل لكل مغربي يجد فيه نوعا من الكرامة الإنسانية، ولما نقول كرامة الانسان فإننا نعني بها كرامة مادية وروحية ومعنوية، وهي غير ممكنة اليوم في كل مكان بدون نوع من الحرية.

نفس الحرية التي كنا نطالب بها عند محاربة الاستعمار، لكن الظروف تطورت في العالم بأسره،

وظروف الأربعينات والخمسينات ليست هي ظروف التسعينات وبداية القرن 21، ولذلك فإننا ملزمون بأن نتطور فكريا وسياسيا بالنسبة لهذا التحدي. وأن نواجه بنفس الطريقة التي واجه بها المغاربة نفس المشكل في إطار مغاير أيام الاستعمار، فهنالك نوع من الاستعمار الجديد، هنالك هيمنة حضارية، وهنالك هيمنة اقتصادية. فإن المستقبل الذي نريده له شرط، وأركز عليه كل التركيز، وهو الحرية بمفهومها المعاصر.

س – عرف عنك أنك ضد الفرانكفونية، مع أن دراستك الأولى كانت بالفرنسية لماذا؟ وما صلة خصومتك مع الفرانكفونية بإيمانك بتعريب التعليم والحياة العامة في المغرب؟

ج – أنا ضد الفرانكفونية، هذا لا يعني أن هناك نزاعا بين شخص ولغة، لأن هناك فرقا ما بين لغة - سواء كانت العربية أوالفرنسية أو الانجليزية أو الاسبانية - وبين فهم آخر للغة كالفرنسية مثلا؛ عندما نقول الفرانكفونية فليس هناك مثلا من يتحدث عن الانجلوفنية ولوأن اللغة الانجليزية الآن هي اللغة الأولي على الأقل في المجال الثقافي والحضاري المعاصر، وليس هنالك من أحد يتكلم عن «الاسبانوفينة» ولو أن اللغة الاسبانية لها دور اليوم في العالم أكثر من الفرنسية، ليس هنالك من يتكلم عن «العربوفونية» إلا في المغرب، في محطة إذاعة مدي طنجة التي تتحدث صباح مساء عن النشرة الفرانكفونية والنشرة العربوفونية.

فموقفي في هذا الميدان موقف واضح، ذلك أن اللغة والحضارة لهما قيمة خاصة، وأنا لست ضد اللغة الفرنسية، ولكنى أحارب أية لغة تريد استعمال نفسها واستعمال التعاون الثقافي لأشياء أخرى خارجة عن نطاق الحضارة والفكر، والذي نجده بخصوص الفرنكفونية أردنا أم لم نرد، هو أن قوة فرنسا ووجودها تعرف تناقصا يوما بعد يوم على مستوى عالمي، وبالتالي فإن اختراع فكرة الفرانكفونية جاء كوسيلة استعمارية ثقافية، واستغلال الدول التي كانت تحت الاستعمار الفرنسي قبل كل شيء كأسواق، والذي أحارب هو هذا الاستعمارالضمني الفكري باستغلال لغة، إنه ليس لي مع اللغة الفرنسية في حد ذاتها أي مشكل، أتكلم بها وأكتب بها مثلما أكتب وأتكلم باللغة العربية أو باللغة الانجليزية، فالذي أحارب هو استغلال هذه اللغة لأغراض أخرى، فمثلا لم أفهم ما هي الألعاب الفرانكفونية؟ صعب علي فهم بعض الأشياء مثلما نأخذ مباراة في الجري لخمسة آلاف متر، ونقول هذه 5000 متر فرانكفونية وهذه عربفونية وهذه أنجلوفونية؛ فليس لذلك أي معنى؛ أو نأخذ رياضة من الرياضات ككرة القدم ونقول نفس الشيء، إذ ما الفرق بين كرة القدم الفرانكفونية وكرة القدم الانجلوفونية أو الإسبانوفونية؟

لذلك هناك نوع من الاستغلال، وهو استغلال سياسي، وهو في الحقيقة نوع من الدفاع عن دور معين كان لفرنسا. الفرنسية لها مستقبلها خاصة في الميدان الثقافي والحضاري ولكن لنا ماضي كنا فيه مستعمرين من طرف فرنسا، وهذا الاستعمار لم يكن هدفه تطور اللغة الفرنسية فقط، بل كان في الواقع

محاربة اللغات المحلية، والاستعمار الفرنسي حارب اللغة العربية وهو أمر لا نقاش فيه في المغرب وفي الجزائر وفي تونس وفي مجموعة الدول العربية، كما حارب اللغات الافريقية واللغات الأم مثل «الولوف» و«الغامبلا» و«الهاوزا».

وإذن فالتطور في المستقبل هو التعددية فمثلها هنالك تعددية سياسية في الأحزاب وتعددية في الميدان الثقافي وأيضا تعددية في ميدان اللغات، وأنا أشاطر الذين يقولون أنه في المستقبل غير ممكن أن نتعامل بلغة واحدة، لكن لا يمكن لأي أحد أن يتقن لغة أجنبية إلا إذا أتقن أولا لغته الأساسية، وأنا أظن بأن التعريب أساسي جدا وهو شرط لتفهم ودراسة اللغات الأخرى، ولكن إذا كان اختيار بين مختلف اللغات، فأنا أقول بأن الفرنسية لم يعد لها اليوم الوزن الكافي ولا أريد أن أستعرض بعض الإحصائيات، وقد كتبت عدة مرات في هذا الموضوع، فثلثان من الباحثين الفرنسين في مجالات العلوم ينشرون أبحاثهم بالأنجليزية؛ أهم مجلة علمية بفرنسا «مجلة باستور» أصبحت تصدر بالأنجليزية منذ سنة تقريبا في فرنسا نفسها.

ولما نرى التوقعات المحتملة فيما يخص استعمال اللغة الفرنسية داخل المجموعة الأوروبية، ونرى خبراء مثل العالم الفرنسي المشهور «منك» يعتبر بأن الحل الوحيد للمجموعة الأوروبية هو استعمال الانجليزية كلغة، ولما نرى تطورات اللغة الاسبانية وفي هذا الظرف الراهن الذي عرفت فيه إسبانيا زيارة صاحب الجلالة، ولما نتفهم تاريخ اتصالنا بإسبانيا حضاريا، أقول بأن هناك نوعا من النسبية وأن الاختيار أولا للغة الوطنية، وهنا أعود الى تجربة اليابان وأسباب نجاحها، التي تبدو جد بسيطة، ذلك أنها قبل آخر القرن الماضي تغلبت على الأمية تماما، ثم أهتمت بأقصى درجة باللغة اليابانية وترجمت إليها كل ما يكتب خارج اليابان في الميادين العلمية، وهذا هو سر نجاح اليابان.

أنا أستغرب لحالة المغرب، فنحن في حاجة الى مثل هذا النقاش، لكنه وبكل صراحة غير موجود: وأكبر استعمار يواجهه المغرب الآن هو الاستعمار الثقافي والحضاري، وجود نخبة معينة درست في فرنسا وهي الآن تستولي على القرار في كل مكان، ولكن مع التطور الموجود ولله الحمد، الآن، فقد اتسع عدد المغاربة المتكونين في دول أخرى وبلغات أخرى مثل الاسبانية والانجليزية والألمانية والروسية، بل إن لنا طلبة في الصين، وهذه التعددية ستعطي نتائج في المستقبل، وأملي الوحيد هو أن نقاشا مثل هذا لا يجب أن يكون له مكان عندنا بعد عشرة أو خمسة عشر سنة، لأنه مشكل يدخل في ماضينا الاستعماري، ولذلك فموقفي من الفرانكفونية هو أني أعتبرها رمزا لمتابعة الاستعمار بطرق أخرى، وبما أني حاربت الاستعمار منذ بداية حياتي في أي مكان كان وليس في المغرب فقط، لهذا أتابع نشاطي الفكري والعلمي لمحاربة كل العناصر شبه الاستعمارية، لأن العلم نضال ولأن النضال علم هو أيضا.

س – كتبت كثيرا من الأبحاث التي صدرت في شكل كراسات، وهي في الغالب أبحاث قدمت لهيئات علمية، ألا تتوفر على كتابة كتب عن بعض الموضوعات التي تهتم بها؟

ج – لي كتب منشورة، وبعضها نشر بأكثر من خمسة عشر لغة، فأنا بحثت عن مشاكل الوحدة العربية، وعن مفهوم الوحدة الاسلامية.. وهو بحث تطلب مني مدة طويلة ونشر في أكثر من 600 صفحة، وبعد تجربة 17 سنة بالأمم المتحدة، أخذت سنة كاملة لدراسة نظام الأمم المتحدة وقد صدر كتاب مهم بالانجليزية، وهو يستعمل الآن في جميع الجامعات والكليات، وفي نادي روما، كلفت لمدة ثلاث سنوات ببحث، فألفت كتابا حول التعليم والتربية، وقد ترجم إلى 15 لغة، وتوزعت منه أكثر من مليون نسخة في العالم، فهناك فرق كما قلت ما بين دراسة عمودية تتطلب من صاحبها وقتا طويلا واختصاصا، وبينما ينجزه الباحث خلال نشاطه العلمي المستمر. فأنا مثلا أشارك في أكثر من 50 ندوة أو مؤتمر دولي سنويا، ولكنني أكون ملزما خلال كل اجتماع من هذه الندوات بتقديم وثيقة أو بحث للعمل، وهذه الوثائق والدراسات تنشر بعد ذلك في مجلة متخصصة ـ وهذا نوع من البحث غير العمودي ولكنه أفقي ـ وهناك تكامل بين الاثنين، وهنالك ظروف خاصة أكثر فيها دراسات مطولة وتصدر ككتب، وهنالك في أغلب الأوقات، أبحاث ظرفية ضرورية، وتتطلب وقتا أقل، ولكن المهم هو تكامل هذه الأبحاث ومتابعة التطورات العالمية الموجودة.

س – أنت عضو في أكاديمية المملكة المغربية. ما تقييمك للأكاديمية سلبا أو إيجابا ؟

ج – إيجابا، أظن بأن وجود أكاديمية هو في حد ذاته شيء مهم وتاريخي في تطور العمل العلمي والثقافي بالمغرب بوجود أعضاء بارزين في الحياة الفكرية في المغرب داخلها ووجود أعضاء من الخارج أيضا – مما يجعلها مكانا للنقاش ولتبادل الأفكار بحرية لن يجدها الانسان، بكل أسف، في مجالات أخرى، ولو في الكليات والجامعات المغربية الأخرى. فبالنسبة لي الأكاديمية مركز للحرية الفكرية داخل المغرب ولم نجد في عدد من البلدان من العالم الثالث نوعا من هذه المؤسسة التي لها الحرية المطلقة في النقاش، ويمكن أن أقول بأن أحاديث الخميس الداخلية للأكاديمية، وهي لقاءات مغلقة وخاصة بالأعضاء المغاربة فقط، أجد متعة خاصة بالنقاش الذي يتخللها، ومن جهة أخرى هناك لقاءات دورية مرتين كل سنة، دورة في الخريف ودورة في الربيع، ولحد الآن دائما تكون المواضيع التي يختارها جلالة الملك باعتباره الراعي لهذه الأكاديمية مهمة جدا ليس بالنسبة للمغرب فقط، بل للتطورات العالمية عامة، وقد أعطت للمغرب مجالا خاصا في مجال الثقافة والعلوم، إذن فهي من الناحية الإيجابية مفيدة جدا؛ ومن ناحية السلبيات، فطبعا هناك سلبية في كل مكان لكنها نسبية بالنسبة للأكاديمية، ولو أنني معروف بالنقد دائما، فإنه في هذا المجال أقول بأن وجود أكاديمية في حد ذاته إيجابي جدا، ومع تطور الوقت سيتسع مجال نشاطها واهتمامها لتحقيق الأهداف الحضارية التي أسست من أجلها.

س – لو لم تكن أنت المهدي المنجرة، ودخلت مكتبتك الخاصة في منزلك فما هي الصورة التي تأخذها عن المهدي المنجرة من خلال مكتبتك؟

ج – أقول أولا التنوع ما بين الفلسفة والآداب والبحث والعلوم والإعلاميات والدراسات الدينية والاهتمام بالفن والموسيقى... وأيضا التنوع في اللغات ما بين الفرنسية والاسبانية والعربية والإنجليزية وبعض اللغات الأخرى، هذا هو الإنطباع الأول الذي ستأخذه لو لم أكن أنا.

س – عملت فترة ما في الميدان السياسي حينما كنت عضوا في مكتب الحركة الوطنية - بالمناسبة ما اسمه الحقيقي - في نيويورك، لماذا ابتعدت عن العمل السياسي بعد الاستقلال؟

– صحيح أنني كنت أعمل في مكتب للحركة الوطنية داخل الولايات المتحدة، لكن أعتقد أن عمل كل مغربي كيفما كان، كان في المجال السياسي والذي تغير بعد الاستقلال إنني كنت قد رفضت المنصب ولا أعتبر ذلك نوعا من الخيانة، وأستعمل كلمة خيانة بمبرر أن بلادي في حاجة إلي، ولكني على العكس من ذلك أعتبر الخيانة هي أن أقبل هذا المنصب أو ما شابهه لأن نضالي لم يكن وسيلة للوصول الى أي منصب، بل كان لتحقيق فكرة تحققت سنة 1956، وبعد ذلك ركزت حياتي كلها في الميدان العلمي حتى خلال الفترة البسيطة والتي لم تتعد سنتين لما طلب مني جلالة المغفور له محمد الخامس أن أتكلف بالإذاعة، كان سبب هذا التعيين هو تكويني القانوني، وبالتالي لوضع قانون أساسي لهذا القطاع، فأنا لم أمارس مرة السياسة في حياتي ولا أتخيل أني سأمارسها في أي وقت آخر، لكني طبعا أحترم السياسيين لما يقومون به من أدوار، وفعلا فإن تحقيق الأفكار والطموحات تقتضي وسيلة عملية للوصول الى ذلك، وهي العمل السياسي وهو ليس اختصاصي لأنني بطبعي أهتم بالغايات والأهداف أكثر من الوسائل.

س – أنت عضو مؤسس في المنظمة المغربية للدفاع عن حقوق الإنسان، وعلمنا أخيرا أنك استقلت منها، لماذا؟

ج – في البداية أعتبر هذا المشكل بمثابة مسألة داخلية في المنظمة، ثم إنني لم أستقل من المنظمة كرئيس مؤسس لأن انتخابي كرئيس مؤسس صدر عن اجتماع الأعضاء المؤسسين خلال الجمع العام، وهي مسؤولية أحتفظ بها لحد الآن، وهو نوع من الثقة وضعها في الأعضاء المؤسسون ويلزم أن أقوم بهذا من جهتي، ولكن الواقع أني قدمت استقالتي من المكتب الوطني للمنظمة، وهو مكتب يضم ٢٠عضوا، وأنا لست إلا عضوا واحدا ضمنهم، وهناك رئيس حقيقي للمنظمة، والحقيقة أنه يصعب علي الحديث الآن للصحافة عنها بما أن هنالك اجتماع طارئ سيعقده المجلس الوطني لتدارس طلب استقالتي من المكتب

الوطني بعدما أصبح عندي عدم اتفاق بيني وبين أغلبية أعضاء المكتب، وبما أني ديمقراطي، وبما أني وجدت نفسي أقلية بخصوص أشياء أعتبرها خطيرة للغاية في هذا الميدان، فضلت أن أقدم استقالتي من هذا المكتب، والواقع أن أساس هذا النزاع يمكن تلخيصه في فكرة لها علاقة بالقيم، ولها علاقة بمفاهيم «حقوق الإنسان» نفسها.

كما أنني أحارب كل هيمنة استعمارية وبخاصة في المجال الثقافي، وإني أرفض شخصيا أية هيمنة حضارية أجنبية عن مفاهيم حقوق الانسان نفسها، وأعتبر أن كرامة الانسان وحقوق الانسان شيء يمنحه الالاه، وكل شخص على وجه الكرة الارضية، له من حيثيات بيولوجية، داخل تركيبه نوع من «الجينات» تحافظ على الكرامة، ولذلك لم أقبل أن تفرض علينا مفاهيم تطورت في بيئة معينة وفي تاريخ معين، جزء منها صار عالميا - ولا خلاف عليه - كحرية الشخص وحرية التعبير... وهذا ليس هو موضوع حديثي أو خلافي، لكن المفاهيم الحضارية والثقافية لحقوق الإنسان بمفهومها الحضاري ذاته، مادامت لكل حضارة حق الاحتفاظ بحضارتها المختلفة في كثير من الأشياء عن غيرها، خاصة وأن أساس البقاء سواء بالنسبة للإنسان أو الحيوان أو النبات هو التنوع والاختلاف، وبالتالي فإن كنز الحضارة البيشرية للإنسان هو هذا التنوع (التنوع الحضاري واللغوي - وفي البيئة وفي الألوان وعموما التنوع في كل شيء.. وهذا هو سر الخلق الإلاهي.

ولذلك فإن خلافي مع أعضاء المكتب الوطني له علاقة وثيقة بهذه النقطة الأساسية التي تتعلق بمفهوم حقوق الانسان، ومن جهة أخرى، ونظرا لسني، ونظرا لنضالي السابق، فإن تجربتي كعضو في الوفد المغربي في الأمم المتحدة سنة 1957 و 1958 و 1959 كا لي الشرف بأن أجلس في مجلس اللجنة الثالث، وكان في ذلك الوقت نقاش حول الاتفاقية الدولية الخاصة بحقوق الإنسان، فوجدت أمامي في داخل الأمم المتحدة في اجتماعات دورات الجمعية العامة للأمم المتحدة، أن واجهني في هذا الميدان وبخاصة في الدفاع عن حقوق الانسان، وعن الحرية والتعبير... أفراد من الوفد الفرنسي نفسه، وكان نقاشي معهم في ظروف ما بعد استقلال المغرب مباشرة، وكانت هنالك مشاكل الجزائر، واستقلال بقية افريقيا، فوجدت معارضة فيما يخص منطقتنا و«دارت الأيام» - كما تقول أم كلثوم - وأصبح بعض هؤلاء الأشخاص الذين كان لي معهم نزاع في الدفاع عن حقوق الانسان،

صاروا هم الاساتذة الذين نسوا الماضي، وأصبحوا يعطوننا دروسا فيما يخص حقوق الانسان، وهذا تناقض لم أقبله، ونفس هؤلاء الاشخاص الذين هم من فرنسا يريدون الآن تلقيننا دروسا في حقوق الانسان، مع العلم أن مواقفهم غير مشرفة فيما يخص النزاعات التي تهم العالم حاليا، مثل ما يجري في

فلسطين يوميا، وما نراه في جنوب افريقيا و... ولم يتكلموا... فأصبح لديهم فهم ضيق لحقوق الانسان.

وباختصار، فإن أهم رمز لهذا التيار الضيق هي منظمة تسمى الاتحاد الدولي لحقوق الانسان، وقد بينت في دراسة طويلة ـ ستنشر قريبا ـ أن هذا الاتحاد الدولي ليست له من الدولية أي شيء وإنما هو منظمة فرنسية أساسا، لها شكليا نوع من المشاركة الدولية بل حتى المنظمات المشاركة فيه من بعض دول العالم الثالث والعالم العربي لا مصداقية لها داخل بلدانها.

لما اتخذت هذا الموقف داخل المكتب الوطني للمنظمة المغربية لحقوق الإنسان، وعارضت انتماءها في هذا الاتحاد الدولي، وجدت رأيا آخر داخل المكتب الوطني فيما يخص الاهتمام بالانتماء لهذا الاتحاد الدولي الذي ليس دوليا.

من هنا بدأ النزاع، ولكن المهم في كل ذلك ليس فقط مسألة الانخراط في منظمة «دولية» ليست بدولية فعلا، ولكن الحدث كان رمزيا، وكان بداية لعدم اتفاق حول حقوق الانسان نفسها، وقد قضيت حياتي كلها بعيدا عن السياسة، ولما تحملت هاته المسؤولية تحملتها بمفهوم معين على حسب بيئتنا المغاربية، وعلى حسب مشاكلنا وانشغالاتنا. وحتى في مجال التعاون الدولي الذي اشتغلت فيه طويلا وهو أشمل ـ فيما يخصه ـ نلاحظ محاولات فرنسا للضغط، ولكن أن تحاول الضغط علينا حتى في مجال حقوق الانسان؟؟ وهذا هو في الواقع أساس نزاعي مع بعض أعضاء المكتب الوطني. ومن جهة أخرى لنا في المكتب الوطني بعض الاعضاء العاملين في ميدان حقوق الإنسان، لكنهم تخرجوا من مدارس الأحزاب السياسية، وليس لي أي شيء ضد مدارس الأحزاب السياسية، لكن هناك فرق بين النضال داخل حزب سياسي والنضال في مجال حقوق الانسان يهم البلاد كلها، والتي لا يمكن لأي حزب سياسي كيفما كان نوعه أن يغلب أفكاره عليه، لأن الشيء المنتظر من المنظمة المغربية لحقوق الإنسان أنها من الذين يعانون يوميا من خرق هذه الحقوق. وبالتالي يجب أن يكون الانصاف، وأن تكون المعاملة على نفس المستوى مع كل مغربي، كيفما كان بدون اعتبار لانتمائه السياسي.

لهذا نزاعي مع المكتب الوطني مبني على قضية فلسفية أساسية بالنسبة لي، وهي: ما هو مفهوم حقوق الانسان؟ ثانيا. رفض أي هيمنة استعمارية، وبوجه خاص الفرنسية، وثالثا فإن العمل في مجال النضال من أجل حقوق الانسان من بعض الدين يساهمون في نفس الوقت في حركة سياسية ما، يجب التفريق فيه بين العمل السياسي داخل احزابهم وبين العمل في إطار حقوق الانسان، واستقالتي هي الآن معروضة أمام اللقاء المقبل للمجلس الوطني الذي سينعقد قريبا. (ملاحظة من التحرير: أجرينا هذا اللقاء مع الدكتور المنجرة قبل يوم 30 سبتمبر تاريخ انعقاد المجلس الوطني للمنظمة، وقد انعقد فعلا وقبلت خلاله استقالة الدكتور المنجرة).

س – هل يمكنك أن تحدثنا عن طريقة عملك في إنجاز أبحاثك أو دراساتك؟

ج – يمكنني أن أقول بأنني منظم بعدم التنظيم، لأن التنظيم شيء أساسي كمسطرة عمل وكوسيلة، لكن يجب على الانسان أن يستعمله كوسيلة دون أن يصبح مسجونا لهذا التنظيم، ولكل فرد أسلوبه في التنظيم، ولكل فرد أسلوبه في التنظيم خلال العمل، والواقع أنه منذ سنين، أي منذ غادرت اليونسكو سنة 1979، لما كنت موظفا ساميا هناك، ومسؤولا عن حوالي 2000 أو 3000 موظف في جميع أنحاء العالم، فرضت علي هذه المهمة الإدارية نوعا من النظام كما فرضت علي ساعات محددة من العمل، لكن منذ أن تفرغت للبحث من جديد، وجدت نوعا من الحرية أسميها حرية في المكان وفي الزمان، تصلني الآن عدة استدعاءات لمؤتمرات دولية، ويمكنني الآن أن أرفض حوالي 90٪ منها وأكتفي باختيار الحضور لـ 10٪ على حسب المشاركين، إذ ما يهمني في أي مؤتمر أو أية ندوة هي لائحة المشاركين، فإذا كان في لائحة المشاركين ثلاثة أو أربعة شخصيات مهمة وأحترمها في ميادينها أحضر المؤتمر، للتعرف عليهم أكثر وعما يفكرون فيه حول بعض القضايا. إذن كما أشرت فقد تحررت على مستوى المكان، وبذلك يمكنني أن أكون اليوم هنا، ثم أكون غدا بطوكيو كما تحررت أيضا من مفهوم الزمان، ويمكنني الآن أن أشتغل حتى الثالثة صباحا، كما يمكنني أن أبدأ مع السادسة صباحا. صحيح أن مسؤوليتي في مجال التعليم تأخذ بعض الوقت لكنني استطعت ضبطها وتنظيمها، وبالتالي يبقى كل الوقت حرا لمجالي لدرجة أني لم أعد أفرق بين الاثنين والأربعاء والأحد، وأصبحت كل الأيام بالنسبة لي وقت عطلة، مادام الإنسان يعمل خلال العطلة الأشياء التي يحب، وأنا أحب عملي، إذن فالعطلة لا أساس لها عندي. فأنا في عطلة مستمرة.

هذا ما أسميه بالتحرر من الزمان والمكان وبذلك لا يهمني أن أكون في داكار أو في الرباط أوفي دلهي أو ديجاديرو، ولكني الشيء الوحيد الذي يفرض النظام هو عندما يتحمل الإنسان مسؤولية المشاركة في ندوة أو مؤتمر لما يفرضه ذلك من تهييء لأوراق عمل وأبحاث. ولهذا أقوم باستغلال كل الوقت، وأستعين في هذا الإطار ببعض التكنولوجيات الجديدة خاصة وأني الآن وحدي، وليس لي مساعدون، ولهذا أجدني مضطرا لاستعمال التليفون المسجل، والتليفاكس كما أنني مضطر لاستعمال حاسوب داخل البيت وحاسوب آخر أتنقل به خلال أسفاري، ولهذا أقول بإيجاز بأن التنظيم هو قبل كل شيء نتيجة للاعتماد على النفس، والاعتماد على النفس يوحي بالتنظيم من جراء نفسه، وهي فكرة لا تصدق على الفرد فقط بل تصدق أيضا على المجتمع.

وأيضا من أزمات العالم الثالث بما في ذلك المغرب، عدم الاهتمام بالاعتماد على النفس، سواء عند الأفراد أو عند الجماعات وهذا شيء طبيعي في النمو، لأن الاعتماد على النفس له شرط أساسي هو التغلب

على أي مركب نقص، ولما يتعلم الإنسان التغلب على مركبات النقص، يتعلم ما هو الاعتماد على النفس، باستعمال الطاقات التي تتوفر عليها كاملة.

س – تكتب في الغالب بالفرنسية والإنجليزية، أيهما تفضل في كتابة أبحاثك؟ وما حظ اللغة العربية معك؟

ج – عندي إحصائيات حول ما نشرت، وتقدر بأكثر من 500 دراسة منشورة بـ 15 لغة، واللغة الأولى التي أستعمل في الكتابة هي الإنجليزية، وبعدها باللغة الفرنسية وبعدها باللغة العربية، والسبب بسيط جدا، فلما أكتب بحثا باللغة الإنجليزية وينشر بالإنجليزية، يترجم الى الفرنسية، وليس لي دراسة واحدة كتبتها بالإنجليزية ولم تترجم وتنشر بالفرنسية، لأن اللغة الإنجليزية في مجال البحث العلمي هي مرجع. ولما تترجم الى الفرنسية غالبا ما تترجم إلى العربية، واستعمال اللغات بالنسبة لي مسألة عملية، فأن أكتب مقالا مباشرة باللغة العربية ينشر في العالم العربي وهذا هو حده، لأنه من النادر أن يترجم مقال من العربية الى الفرنسية، أو من الفرنسية الى الانجليزية ولذلك فاللغة الانجليزية. هي أكثر اللغات انتشارا في مجال العلوم، خاصة بالنسبة لمن يهمهم التبليغ والتواصل بالأساس، وفي الوقت الراهن ليس هناك أفضل للتواصل العلمي من الإنجليزية، دون أن يكون لذلك أية علاقة بالإحساسات اللغوية أو الحضارية أو الثقافية.

س – تتتبع "العلم"؟ ما ملاحظاتك الإيجابية والسلبية عليها؟

ج – أقرأ العلم وأتتبعها منذ الصغر، ملاحظاتي الإيجابية عليها هي الاستمرارية كما أن هناك روح من الناس من جيلي، وبالرغم من أنني غير منتم سياسيا، فإنني من جيل ساهم وناضل جله في الحركة الوطنية، تشدنا للعلم، وهنالك اسم محترم جدا، وهو الزعيم علال الفاسي الذي كان أستاذنا، وبغض النظر عن الاتجاه السياسي، فإن جيلنا يعتبره رائدا في الحركة التحريرية وفي النضال من أجل وحدة التراب، وفي الدفاع عن المؤسسات المغربية، وفي مواقفه ضد الاستعمار بما في ذلك الدفاع عن المغفور له محمد الخامس رحمه الله وعائلته خلال المنفى.

ولهذا وبغض النظر عن التحليل اليومي وعن المواقف السياسية التي من الممكن أن أختلف معها لجريدة العلم، أجد فيها نوعا من الحنين ونوعا من الذكريات، فهنالك روح لاتزال موجودة ولله الحمد، ليس في العلم وحدها ولكن في بعض الجرائد الوطنية الأخرى، ويمكنني أن أقول بأن علاقتي بالعلم فيها نوع من العاطفة، أما فيما يخص السلبيات فلا يمكن أن توجه لجريدة معينة، أظن بأنه من الناحية المهنية فالعلم جريدة محترمة بالنسبة لإمكانيات بلد مثل المغرب، لكن هنالك طبعا أزمة إعلامية في جل بلدان العالم الثالث، وهي أزمة لها علاقة بالعمل الإعلامي، إذ نجد للصحافة في دول العالم الصناعي دور مؤثر ومباشر على التطورات الإجتماعية والاقتصادية والسياسية، وهذا ناتج عن الأنظمة السياسية الموجودة في هذه البلدان.

وفي العالم الثالث، نظرا لتجربتنا القصيرة في هذه الميادين، ولسنا الى حد الآن في طريق التنمية ليس الاقتصادية فقط، وإنما التنمية الديموقراطية، فإن هذه الصحف ليس لها نفس التأثير، ولهذا فإن مهنة الصحافي لم تحترم بالدرجة التي تحترم بها في دول أخرى، وحتى من الناحية المادية فإن الأجور التي تدفع للصحفيين بسيطة جدا، وليس هناك محرك لجلب المزيد من الطاقات الموجودة الآن مثلا بالمغرب لأنه أولا ليس هناك تشجيع كاف، كما أنه ليس هنالك حرية حقيقية للصحافة، وأي واحد يعمل في الصحافة بدول العالم الثالث يطبق على نفسه نوعا من الرقابة الذاتية، فمن قبل كانت الرقابة تأتي من الاستعمار، والآن أصبحت تأتي من ذات الصحفي نفسه وهذه سلبية لا تمس جريدة العلم فقط ولكنها تنسحب على جميع صحف العالم الثالث، وهي لها علاقة بمفهوم الحرية الذي تحدثت عنه من قبل، وإذا ما تحققت هذه الحرية، يمكن للصحافة أن تتطور بما يعنيه هذا المفهوم من معاني الإبداع والابتكار، وهذا تعليق ليس سياسيا وإنما هو أدبي لأن الخلق والإبداع ضروري في كل الميادين كيفما كانت، أما الوجه الثاني للجانب السلبي فيتعلق بالأمية، خاصة وأن عدد الذين يمكنهم الاطلاع على الصحف محدود، وهم لا يمثلون إلا أقلية، وبذلك فليس هنالك ديناميكية كافية ما بين الصحف والمجتمع ككل، ونجد أحيانا أن هذه الصحف تشجع نوعا من المفاهيم النخبوية، لأن الذين يقرأون ويكتبون داخل بلاد مثل المغرب هم في الواقع نخبة مادامت هنالك بيئة ومناخ محدود بعدد الذين يقرأون ويكتبون، وهنالك طبعا مع هذا انفصام بين التكفير ومستوى المفاهيم وبين نخبة الذين يقرأون ويكتبون، والطبقة التي تمثل الأكثرية التي لا تقرأ الصحف، وهذا هو الخطر، لأنه لو كنا جميعا نقرأ الصحف لكان تأثير التلفزات الخارجية والإذاعات أقل ضررا علينا، لأنه سيكون للمواطنين على الأقل حق الاختيار والمقارنة بين ما هو مكتوب في الصحف وبين ما تنقله الشاشة، ولكن لما تكون الأغلبية محدودة في اتصالها بالعالم على الشاشة فإن ذلك يمثل خطرا لهيمنة حضارية، ولا أريد أن يفهم من هذا أنني ضد تجول المعلومات كيفما كانت، فأنا مؤمن بأهمية حرية نقل الإعلام بالإذاعة وبالصورة وبالحروف، لكن هذا هو التحدي الحقيقي، فالهيمنة الحضارية والثقافية لا تحارب بقرارات حكومية، بمنع هذا البرنامج أو ذاك لأنه أصبح غير ممكن اليوم أمام تطور الإعلام - ولكن المحاربة الوحيدة الممكنة هي الاهتمام بالتربية، وإعطاء المواطن الوسائل للتفهم الكافي حتى يمكنه الاختيار ما بين كل البرامج الموجودة في العالم، لكن يجب أن تكون له وسائل محلية للتطلع على الأفكار ومفاهيم لها علاقة ببيئته الخاصة.

أجرى الحوار : المصطفى الرزرازي

العلم - الأحد 8 أكتوبر 1989.

الموارد البشرية: أهمية العلم و التقنية(x)

لم تصبح أهمية الموارد البشرية كعامل مساعد للتنمية فكرة شائعة على نطاق واسع إلا منذ فترة وجيزة. في سنة 1958 اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة بعد مناقشات مطولة (في اللجنة الثالثة) على قرار يعترف «بالاعتماد المتبادل بين النواحي الاقتصادية والاجتماعية للتنمية»[1]، وحتى مطلع السبعينات، كانت الاستثمارات في مجال التعليم غالبا ما تعتبر انفاقا «اجتماعيا» بمعنى أنها دخل «غير إنتاجي» لا يصلح إلا للقروض الميسرة أو المعونات الفنية.

وكان أول قرض من البنك الدولي في قطاع التعليم قد تمت الموافقة عليه سنة 1962 بواسطة الاتحاد الدولي للتنمية (IDA) الذي كان قد أنشأ حديثا، كما صدر أول بحث عن سياسة البنك بشأن التعليم سنة 1971(2).

وكذلك أصر برنامج الأمم المتحدة للتنمية على عدم الاعتراف بأهمية القضاء على الأمية في المساعدة على التنمية. ومنذ عقدين من الزمن كانت « اقتصاديات التعليم» لاتزال حقلا جديدا نسبيا. وكانت الدراسات التي أجرتها منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو)، واقتصاديين مثل شولتز وفايزي اللذين كانا من رواد هذه المجالات، ينظر اليها بكثير من الحذر من جانب صناع القرار والعديد من الأكاديميين.

ولم يتخذ البنك الدولي موقفا رسميا ثابتا في تقاريره السنوية إزاء أهمية الموارد البشرية للتنمية إلا اعتبارا من سنة 1985، وفي العام التالي ركز تقرير المدير التنفيذي بمنظمة اليونيسيف الضوء على مكانة «العامل البشري» في التنمية الاجتماعية ـ الاقتصادية، وفي نفس عام 1986 أيضا، قرر برنامج الأمم المتحدة للتنمية بدء العمل في برنامج جديد لتنمية الموارد البشرية، وذكر مدير البرنامج «أن الوقت قد حان لكي تسهم أفكار جديدة وجريئة في تحسين استخدام العامل البشري في التنمية وفي صياغة خطط عملية لتحرك عملي...»(3).

(*) 1987

ولقد عانيت صعوبة شديدة عندما حاولت منذ عشر سنوات مضت بصفتي مسؤولا بمنظمة اليونيسكو أن أقنع صناديق الإنماء العربية بشأن الأولوية التي تستحقها «الموارد البشرية». والحقيقة أن الدول الأعضاء بهذه المؤسسات كانت (ولاتزال) تحصر كل اهتمامها تقريبا في الاستثمارات الرأسمالية والآن هناك واحد من موظفي برنامج الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي ممن كنت قد تحدثت اليهم، يشغل حاليا منصب وزير التربية والتعليم في بلده وهو من أكثر المتضلعين في الآثار الاجتماعية ـ الاقتصادية للاستثمارات في الموارد البشرية. وقد أصبح السيد عبد اللطيف الحمد ـ الذي عمل في ذلك الحين مديرا عاما للصندوق الكويتي ومديرا تنفيذيا للصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والإجتماعي خبيرا على دراية واسعة بالموارد البشرية بحيث أعطى هذا المفهوم منظورا أكثر شمولية واتساعا.

«الهدف هو استكشاف وتقييم العوامل الثقافية التي تؤثر في تنمية الموارد البشرية العربية والتي تعتبر بدورها عوامل رئيسية في عملية التنمية الشاملة، فإن للعالم البشري في هذه العملية أهمية لا غنى عنها»[4].

والحاجة الى تأكيد مكانة ودور الموارد البشرية أصبحت، الآن، مقبولة على نطاق واسع، إلا أنها مازالت لم تترجم الى سياسات فعالة ومناسبة. ومما يثير الاهتمام أن نلاحظ بأن ما لا يقل عن خمس لقاءات دولية هامة ـ بما فيها هذه الندوة ـ عقدت على مدى الشهرين الأخيرين وحدهما في موضوع «الموارد البشرية» مع التركيز على المستقبل(5).

وإنني بصفتي قد شاركت في صوغ قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة لسنة ١٩٥٨ المنوه عنه أعلاه، وقضيت سبعة عشر عاما من عمري في خدمة اليونيسكو، وكنت أحد ثلاثة مؤلفين اشتركوا في كتابة تقرير «لا حدود للتعليم» الى نادي روما(6). كما أنني من كثيرين آمنوا دوما بالدور الحيوي للتعليم، فإنني بكل الرضا والغبطة أتشرف بحضور هذا المؤتمر الذي يقام برعاية ثلاثة مؤسسات تنموية رفيعة المستوى بالإضافة الى برنامج الأمم المتحدة للتنمية. إنه جزء من اتجاه لا رجعة فيه وإن كان مازال لم يجد بعد إجابات شافية في أي مكان من العالم، ولاسيما في البلدان النامية.

ما الذي أدى الى تحقيق مثل هذا التغيير الجوهري في المواقف في أنحاء العالم؟ يمكن أن نرجع ذلك الى ثلاثة أسباب هامة على الأقل :

أولا : إخفاق نماذج التنمية التي اتبعت في الأقطار النامية في الخمسة والعشرين سنة التي خلت،

والتي لم تأخذ بالأبعاد «البشرية» و«الاجتماعية ـ الثقافية» في حسبانها بصورة كافية.

ثانيا : تطور العلم والتقنية بمعدل لم يسبق له مثيل أدى الى خلق فجوة بشرية بين المعرفة المتراكمة وقدرتنا على استخدامها في حل المشاكل المرتبطة وبالتالي الى الحاجة لموارد بشرية أكثر «تأهيلا» تدرك تمام الإدراك طبيعة المعضلة والتحديات التي تفرضها التقنيات الجديدة.

ثالثا : بزوغ فجر مجتمع التعلم الذي يحل تدريجيا محل مجتمع الإنتاج، والذي تصبح فيه الموارد البشرية المؤهلة والمعلومات وثيقة الصلة أشد أهمية من الموارد الطبيعية ورأس المال.

تشير جميع هذه الأسباب بوضوح الى الارتباط الاساسي الجديد المتبادل بين الموارد البشرية من ناحية، وبين العلم والتقنية من ناحية أخرى، وقد أضحى هذا التكامل جليا في البلدان الصناعية، وفي العدد الضئيل جدا من البلدان «الصناعية المستجدة» في العالم الثالث، خلال فترة الخمس الى عشرة سنوات الأخيرة فقط. وليس مرجحا أن يصبح مقبولا على نطاق واسع في المستقبل القريب من قبل غالبية صناع القرار في البلدان النامية أو من مديري مصادر التمويل الثنائي أو متعددة الأطراف(7).

وإن الوعي المتعلق بأهمية بالعلم والتقنية، وخاصة البحث والتطوير، في عملية التنمية باعتباره جزءا عضويا من استراتيجيات الموارد البشرية، لا يزال ضعيفا جدا في الغالبية العظمى من البلدان النامية وفي جميع البلدان العربية بلا استثناء وسنعود لمناقشة هذا التوكيد في موضع آخر.

نظمت الأمم المتحدة " المؤتمر العالمي الأول للعلم والتقنية" في جنيف سنة 1963 UNCSATحيث أوصى بوضع "خطة عمل" وإيجاد "وسيلة تمويل" خاصة ضمن نظام الأمم المتحدة، ولم يبق الآن من هذه التوصيات سوى مكتب ضئيل للعلوم والتقنية ملحق بالأمانة العامة للأمم المتحدة ولجنة حكومية مشتركة، ولجنة استشارية تعمل جميعها بدون برنامج حقيقي وتعتبر عملا بدون تمويل.

وليست أزمة تعددية الأطراف هي التفسير الوحيد لنقص البرامج الدولية الراسخة والقوية في مجال العلم والتقنية مع توفير التمويل شبه الكافي كيفما اتفق، بل إنه نتيجة أسلوب عدم الجدية الذي تتعامل به العديد من البلدان النامية مع العلم والتقنية وكذا الموقف العنيد الذي يبديه العالم الصناعي.

في أغسطس 1976، نظمت اليونيسكو في الرباط المؤتمر الأول للوزراء العرب المسؤولين عن تطبيق العلم والتقنية (CASTARAB). وقد أصدر المؤتمر توصيتين رئيسيتين: إنشاء صندوق وعقد المؤتمر

الوزاري الثاني قبل سنة 1979 للنظر في الاجراءات التي اتخذت وتحديث البرنامج الذي تمت الموافقة عليه سنة 1976 وتم تشكيل لجنة توجيهية من الوزراء لمتابعة قرارات المؤتمر الأول (CASTARAB).

وقد أجرى الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية دراسة الجدوى حول إنشاء صندوق عربي للتنمية العلمية والتقنية، اللجنة التوجيهية المنبثقة عن المؤتمر الوزاري الاول (CASTARAB)، مرات عديدة ومن ثم وافقت في 1984 على تأجيل كلا الموضوعين إنشاء الصندوق وعقد مؤتمر وزاري ثان إلى أجل غير محدد، ومع هذا ، فإنه في فترة ما، بدا أن كل شيء يعمل في اتجاه انشاء الصندوق، وان بعض الصناديق العربية كانت تنظر إلى الأمر نظرة جدية، واليوم، وبعد أحد عشر عاما من انعقاد المؤتمر الاول للوزراء العرب (CASTARAB) لم يتحقق الا أقل القليل لدعم التعاون العربي في العالم والتقنية بوسائل مالية ذات أهمية لا تذكر.

كما ذكرنا آنفا، فإن أهمية العلم والتقنية لتنمية الموارد البشرية لم تصبح بعد فكرة شائعة على نطاق واسع في العالم العربي، يتطلب العلم والتقنية توفر "كتلة حرجة" قادرة على استيعاب التفاعل واقتصادا قويا وهائلا لا تملكها أي من البلدان العربية (ولا حتى مصر التي يبلغ عدد سكانها 50 مليونا)، فلا يمكن وضع استراتيجية صحيحة لتنمية الموارد البشرية بدون القضاء على الأمية، وإيجاد سياسات علمية والحد الأدنى من نفقات البحث والتطوير (1 بالمائة من الناتج القومي الاجمالي) كذلك سوق لا يقل عن 100 إلى 150 مليون نسمة، ثم تقبل التحولات الاجتماعية والمؤسسية، وتطوير بيئة تحترم الحقوق الانسانية وتشجع الابتكار والابداع.

لا يمكن بحث تنمية الموارد البشرية في فراغ كما لو كانت ممارسة " تكنوقراطية" محصورة في التحليل الاحصائي وتخطيط القوى العاملة في محاولة لإيجاد الارتباط بين ناتج كل من نظم التدريب واحتياجات العمالة، تلك طريقة ساكنة لا تضع نصب عينيها تلك التحولات الكيفية التي يحققها العلم والتقنية، ولا تقدر دور القيم الاجتماعية، الثقافية حق قدره بل وتتجاهل حقيقة أن الاحساس "

بالغرض" شرط أساسي مسبق لأي نظام اجتماعي، وفي التحليل النهائي، نجد ان تنمية الموارد البشرية أحوج ما تكون إلى "التعلم" باعتباره عملية شاملة تستهدف تغيير " البنيات العقلية" لتسخير "تفويض القوة" بحيث يتمكن المواطنون والمجموعات السكانية غير المسيطرة من أن يتعلموا كيفية المشاركة في مصادر القوة، ولقد أصبح مصدر القوة الجديد هو القدرة على تطوير واستخدام العلم والتقنية من أجل

تحسين الظروف المعيشية دون أن تغيب عن أبصارنا القيم المطلوبة للحفاظ على الهوية الثقافية وتشجيع الابتكار والتوقع وتدعيم المشاركة، وحماية الحريات، وتعزيز الكرامة الانسانية .

من هذا المنطلق تحدد النماذج التنموية وتبرز رؤيا المجتمعات، وقد قطع العالم العربي بضع خطوات هامة في هذا الاتجاه حسبما يمكن ان نحكم عليه من مجرد عقد هذه الندوة، ومن العدد المتزايد من المبادرات الحكومية وغير الحكومية التي تشكك في نظم التعليم القائمة، وتستثير إحساس صناع السياسة بأهمية التقنيات الجديدة، وتحاول تشجيع وجهات النظر البديلة الشاملة الموجهة نحو الرؤية المستقبلية كمطلب أساسي لصنع القرار في أي حقل قطاعي

وتصبح العلاقة بين تنمية الموارد البشرية، وبين العلم والتقنية أقرب ما تكون عندما نتبنى منظورا بعيد المدى، وفي كتب جوزيف م. مارشيللو : "يرى المستقبليون: التنمية باتجاهين رئيسين في البنية الاقتصادية للمجتمع وهما الاقتصاد الصناعي العملاق القائم على التصنيع والخدمات الممكنة، او الاقتصاد القائم في معظمه بصورة أساسية على التقنية باعتبارها سلعة كمالية، وإذا كان نظام التعليم ينتج عمالا مدربين تدريبا عاليا قادرين على اتخاذ القرارات والعمل مع التقنية المتغيرة ، فإن بمقدور المؤسسات ان تتبنى الاقتصاد القائم على التقنية، ومن ناحية أخرى تستطيع أمة من العاملين المدربين تدريبا سيئا ان تجبر المؤسسات على الدخول في الاقتصاد الصناعي العملاق، وهكذا فإن مستقبل اقتصادنا وتعليمنا يتلاحمان بصورة حتمية.

إن الفحص السريع لبعض المؤشرات الاجتماعية – الاقتصادية في العالم العربي تبين لنا أنه يتجه – في الخمس عشرة إلى العشرين سنة القادمة – إلى اقتصاد "قائم في معظمه بصورة أساسية على التقنية باعتبارها سلعة كمالية" وذلك لأنه ليس لديه " العمال المدربين تدريبا عاليا" من أجل العمل مع " التقنية المتغيرة" .

يوجد في هذه المنطقة من العالم أعلى معدلات الأمية (57 بالمائة) بينما لا يتجاوز إجمالي المسجلين بالتعليم العالي نسبة 10٪ من فئة العمر بين ٢٠ إلى 24 سنة (مقابل 37٪ في اقتصادات السوق الصناعية). ويبلغ إجمالي عدد سكان البلدان العربية ٤٪ من سكان العالم، غير أن عدد علماء ومهندسي البحث والتطوير) لسنة 1980، كان الأدنى بين بلدان العالم أي 27.0٪، وورد الرقم الأعلى هو 31.0٪ في سنة 1970 بسبب الشكل الهرمي للعمر في العالم العربي، فإن نسبة السكان الذين هم في سن العمل منخفضة

نسبيا (53٪) ونسبة القوى العاملة إلى مجموع السكان 28٪ بالمقارنة إلى 67٪ في البلدان الصناعية، فإذا أضفنا لذلك أن معدلات متوسط العمر تقل حوالي 20عاما عن متوسط عمر سكان الشمال، لبدأنا نفهم مقدار الجهود الاضافية التي يجب على العالم العربي ان يبذلها للتعويض عن سكانه صغار السن، وعن أوجه النقص في القطاع الصحي، وكذلك يتبين ان البنيات الاساسية العلمية والتقنية الضعيفة في العالم العربي في مجالات التدريب والبحث تنعكس أيضا على مستوى مؤشرات المعلومات والاتصالات، وليس في وسع المرء ان يعثر حتى على إحصائيات نصف موثوقة بخصوص مجالات المعلوماتية والاتصالات البعيدة، ناهيك عن التقنيات الحديثة الاخرى مثل تقنيات الانسان الآلي (الروبوت) وتقنيات الفضاء، التقنيات الاحيائية (البيولوجية)، والموارد الجديدة والطاقة إما لإنها لا تزال في مرحلة النشأ الاولى، أو ببساطة لأنها لا وجود لها.

لقد أصبحت التقنيات الحديثة أقسى امتحان تتعرض له التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، إذ أن لها شروطا أساسية لا غنى عنها، أحدها هو حجم الاقتصاد، ولما كانت المنطقة العربية من أكثر مناطق العالم تقسيما إلى دول صغيرة يبلغ متوسط السكان بكل منها ٩ مليون نسمة، بينما متوسط الدول الاعضاء في الامم المتحدة أكثر من 30 مليونا، لذا فإنه يستحيل عليها أن تدخل عالم التقنيات الحديثة، او حتى عالم "البلدان الصناعية حديثة العهد" ما لم يكن هناك أولا تكامل اقتصادي إقليمي أو شبه إقليمي، وحتى أولئك الاعضاء "العظماء" في المجموعة الاقتصادية الاوروبية (من الذين يزيد عدد سكانهم عن 55 مليون نسمة) وجدوا أنه يستحيل عليهم التعامل مع هذه التقنيات بدون إقامة المشروعات المشتركة التي تنفذ حاليا بموجب برنامج أطلق عليه إسم "يوريكا" تشارك فيه كل البلدان الأعضاء في المجموعة الاقتصادية الاوروبية وحوالي ستة بلدان اوربية أخرى.

وكما نلاحظ من الجدول رقم (أ)، فإن جمهورية ألمانيا الاتحادية التي يصل عدد سكانها إلى أقل من ثلث مجموع سكان البلدان العربية، كان ناتجها القومي الاجمالي في سنة 1984 (أي قبل هبوط أسعار النفط) يبلغ ضعف الناتج القومي الاجمالي لكل البلدان العربية لإحدى والعشرين المجتمعة.

جدول رقم 1

اختبار المؤشرات الاجتماعية الاقتصادية للعالم العربي

البلد	المساحة (ألف كم²)	عدد السكان (ألف كم²)	الناتج القومي الاجمالي (ملايين الدولار)	الناتج القومي الاجمالي للفرد بالدولارات 1984	العمر عام 1983	نسبة المترقع السنة	نسبة الأمية
الجزائر	2380	23.00	50680	2390	57	1985	50
البحرين	1	0.50	4260	10480	68	1985	27
مصر	1001	46.50	33340	720	58	1985	56
العراق	438	15.00	غير متوفر	غير متوفر	59	1985	11
الأردن	98	3.60	4340	1710	64	1985	25
الكويت	18	1.60	27570	15410	71	1985	30
لبنان	10	3.00	غير متوفر	غير متوفر		1985	23
ليبيا	1760	3.50	29790	8230	58	1985	23
موريتانيا	1031	1.70	750	450	46	1976	83
المغرب	713	24.00	14340	670	52	1985	67
عمان	310	1.00	7380	6230	53	-	غير متوفر
فلسطي	غير متوفر	2.00	غير متوفر	غير متوفر		-	غير متوفر
قطر	11	0.30	6020	20600	71	1981	49
السعودية	2150	10.00	116380	10740	56	-	غير متوفر
الصومال	638	5.00	1360	260	44	1985	88
السودان	2506	22.00	7360	260	48	-	غير متوفر
سوريا	185	10.00	18540	1870	67	1985	40
تونس	164	7.00	8840	1250	62	1985	46
الامارات العربية المتحدة	84	0.10	28480	22300	71	1975	47
اليمن (الجمهورية العربية)	195	8.00	3940	510	44	1985	86
اليمن الديمقراطي	288	2.20	1130	560	46	-	
مجموع ١٢ بلدا	13981	190.00	364500	-	-	-	-
المتوسط لكل بلد	666	9.05	17500		54	-	57

بيانات مقارنة	المساحة (ألف كم2)	عدد السكان (بالمليون)	الناتج القومي الاجمالي (ملايين الدولارات)	نسبة إلى مجموع الناتج القومي في العالم العربي	الناتج القومي الاجمالي للفرد
جمهورية ألمانيا الاتحادية	249	61	378900	مرتين	11100
فرنسا	547	55	542950	مرة ونصف	9900
المملكة المتحدة	244	56	480700	مرة وثلث	8500
إيطاليا	301	57	367050	مساوي	6500
إسبانيا	505	39	172350	نصف	4500
مجموع د بلدان	19846	224	2241950	ستة أضعاف مجموع الناتج القومي العربي	
متوسط د بلدان	370	45	448390		

التجارة بين البلدان العربية سنة 1984

- 90 ٪ من الصادرات بين الأقطار العربية مكونة من مواد خام
- أكثر من 70٪ من التجارة العربية وجهت إلى أسواق البلدان الصناعية
- الصادرات بين الأقطار العربية: 8,5 بليون دولار أو 6.6 من إجمالي الصادرات العربية
- الواردات بين الأقطار العربية: 8,8 بليون دولار أو 8,4 من إجمالي الوادرات العربية

جدول رقم 2
البحث و التطوير

البحث و التطوير (1980 م)	في العالم	في العالم العربي	النسبة المئوية للعالم العربي
علماء ومهندسو البحث والتطوير	3756100	34000	0.9%
نفقات البحث و التطوير (مليون دولار)	207801	1039	1.8 %

نفقات البحث و التطوير كنسبة مئوية من الناتج القومي الاجمالي	الشمال	الجنوب	العالم العربي
1970	2.36 %	0.32 %	0.27 %
1980	2.23%	0.45 %	0.31 %

المصدر: الكتاب السنوي الاحصائي لليونسكو (1986)

جدول رقم 3
مقارنة بين مؤشرات كل من الشمال و العالم العربي

توزيع السكان و الناتج القومي الاجمالي (×)	الشمال	العالم العربي
سكان في سن العمل / اجمالي عدد السكان	67 %	53%
مجموع القوى العاملة / اجمالي عدد السكان	46 %	28 %
القطاع الزراعي أ ٪ من الناتج القومي الاجمالي	6 %	50 %
القطاع الزراعي ٪ أ من الناتج القومي الاجمالي	44 %	22 %
الخدمات ٪أ من الناتج القومي الاجمالي	56 %	30 %

المصدر:

(×) هذه الارقام مأخوذة عن تقرير عبد اللطيف الحمد "القضايا الرئيسية لتنمية الموارد البشرية في العالم العربي" وهي عن سنة 1985.

الاتصالات و المعلومات (×)	الشمال	العالم العربي
الصحافة (عدد النسخ / لكل آلف نسمة)	320	20
استخدام ورق الصحف (كيلوجرام لكل نسمة)	14	0.5
الاذاعة (لكل آلف نسمة)	800	170
التليفزيون (لكل آلف نسمة)	350	45
إنتاج الكتاب (لكل مليون نسمة)	500	40
إنتاج الأفلام (الفيلم الطويل سنويا)	1200	65
مقاعد السينما (لكل ألف نسمة)	30	6

(×) تنطبق أغلب هذه البيانات الاحصائية على عامي 1981 و 1982 وهي مأخوذة عن مسودة تقرير منظمة "اليسكو" بشأن الاتصالات في العالم العربي (لجنة برئاسة مصطفى مصمودي) تونس (1985)، ويوفر الكتاب الاحصائي السنوي لليونسكو لسنة 1986 بعض بيانات أحداث في هذه المجالات ولكنها ذكرت لكل بلد على حدة ولا تتعلق جميعها بنفس السنة.

(مجموع أغلب الناتج القومي الاجمالي العربي يقل عن مثيله في إيطاليا وحدها)

ويستطيع العالم العربي "استيراد" التقنية كمنتج، ولكنه لن يستطيع "نقل" التقنية بدون أن يتقنها أولا علميا وفنيا واجتماعيا وثقافيا، ولا بدون بحث محلي مكثف وجوهري، من هنا يأتي الفرق بين "إنتاج التقنية" و "تطبيق التقنية"، يجب ان نحرص على التمييز بين "إنتاج" التقنية من ناحية وبين "تطبيقها" من ناحية أخرى، في الثورة التقنية، لا يقل التطبيق أهمية عن الإنتاج العالمي للأجهزة الالكترونية، ويجرى بصورة حثيثة تقوية الحواجز التي تحول دون تمكين هذه الاقطار من التغلغل في القطاعات المعقدة تقنيا نظرا لان الحد الادنى من النطاق الذي يكنون فيه الانتاج مقبولا سيصبح أوسع مدى"(14).

وقد تفهمت المجموعة الاقتصادية الاوروبية هذا الفرق جيدا عندما شرعت في برامجها مثل يؤإشىع و ESPRIT (البرنامج الاوروبي الخاص للبحث في تقنيات المعلومات) و EUREKA . فقد شعرت بالحاجة إلى : " التغلب على الطبيعة الجزئية للمبادرات التي جرت حتى الآن في الأقطار كل على انفراد وذلك من أجل الوصول إلى اقتصاديات واسعة النطاق تجعل من اليسير على أوروبا أن تنافس القوى التي تسيطر الآن على السوق العالمية وأن تستعيد الأرض التي فقدتها " (15).

بدون تكامل اقتصادي لن يستطيع العالم العربي حتى استخدام قواه العاملة المدربة، وبالتالي سيعاني بصورة متزايدة من "هجرة الادمغة" التي ترجع اصلا إلى نقص البنى الاساسية التقنية ومرافق البحث المناسبة، هذا التكامل الاقتصادي أو على الاقل إيجاد مجموعات اقتصادية أكثر جدوى، سيستدعي بالضرورة مزيدا من العاملين المؤهلين بدلا من مواجهة ما يعرف الآن خطأ "بالتدريب المفرط" أو "بطالة خريجي الجامعات ، وتدين الولايات المتحدة بتنميتها التقنية إلى اقتصاد واسع النطاق وطاقتها العالية لاستيعاب "المادة الرمادية أي الأدمغة". وفي سنة 1983، كان 51٪ من المهندسين الذي يحملون درجة الدكتوراه ممن دخلوا سوق العمل في الولايات المتحدة غير امريكيين (1226 من مجموع 2391مهندسا)(16).

وعلى عكس الرأي السائد والمتعارف عليه، فإن التقنيات المتقدمة بما فيها الأتمنة تؤدي إلى خلق وظائف " جيديدة" تتطلب مؤهلات مختلفة وأعلى يمكنها أن تقدم أكثر من مجرد تعويض تلك التي ألغيت إذا توفرت استراتيجية حقيقية لتنمية الموارد البشرية وكتلة حرجة (17).

أضف لذلك أن الحاجة إلى التقنيات الحديثة تتناسب عكسيا مع مستوى التنمية، إنها ليست ترفا، وإنما هي شرط لا غنى عنه للتغلب على الفقر وتأمين الكرامة الانسانية.

توجد بعض إشارات تبين ان بعض صناع القرار في العالم العربي بدأوا يفهمون أهمية "الوحدة الاقتصادية" باعتبارها إحدى ضرورات العصر الحالي. في فبراير 1987، في افتتاح الدورة الثانية والأربعين

للمجلس الاجتماعي والاقتصادي للجامعة العربية ذكر النائب الثاني لرئيس الوزراء السعودي سمو الأمير سلطان بن عبد العزيز أنه يجب "استغلال" الموارد البشرية للعالم العربي " بطريقة صحيحة" ، وأضاف قوله أن "العصر الحاضر هو عصر الكيانات الاقتصادية الكبيرة حيث الكيانات الصغيرة لا مكان لها" (18).

الجديد في التصريح المذكور اعلاه بالنسبة للعالم العربي هو النظرة الى تنمية الموارد البشرية والاقتصادات واسعة النطاق، باعتبارها عناصر تكميلية ناتجة عن حقائق "العصر الحاضر" التي هي حقائق العالم والتقنية، وهذا أيضا أحد تفسيرات الديون الهائلة المتراكمة على الأقطار النامية.

وحقيقي أن التقنية منتج فرعي وأساسي أفرزه الذكاء البشري والقدرة على تكييف واستخدام الموارد الطبيعية بشكل أمثل لكنه حقيقي بنفس القدر أن معظم الناس ليسوا في وضع يمكنهم من خلق تقنيتهم الخاصة استجابة لاحتياجاتهم الخاصة وان انتاجا جديدا وأنماطا استهلاكية جديدة تقدم إلى جماهير عريضة من الناس الذين لا يمكنهم اقتناؤها على المدى القصير ما لم يتم تدعيمها اصطناعيا بوسائل نقدية تؤدي إلى التضخم المالي وبتحميل ديون لن يكونوا قادرين على سدادها (19).

حتى الدول المنتجة لنفط في العالم العربي، لن تعود في السنوات القادمة قادرة على تمويل أنماط الاستهلاك التي وجدت بها، وستحتاج إلى الاعتماد على مزيد من التكامل الاقتصادي من خلال تحسين الموارد البشرية والانفاق بصورة أكبر على البحث، لقد اصبحت الوحدة الاقتصادية بالنسبة للاقطار العربية مسألة بقاء على قيد الحياة"، وليست مجرد روابط اجتماعية وثقافية أو تاريخ مشترك.

سيرتفع عدد سكان العالم العربي إلى 215 مليون نسمة بعد أقل من ثلاث سنوات وإلى حوالي ٢٨٠ مليونا في غضون 12 سنة، ومع نهاية هذا العام، سيكون العام العربي قد استورد منتجات زراعية بقيمة تزيد على 30 بليون دولار، وما لم يتحقق تغير جذري في سياساته التنموية سريعا، فإنه لن يكون قادرا حتى على توفير تكلفة إطعام شعوبه، هناك أمر واحد مؤكد ألا وهو أن العالم العربي لن يستطيع دخول القرن الحادي والعشرين وهو مقسم إلى 21 كيانا "اقتصاديا"، وقد نشهد "إفلاس" عدة "دول" ما لم تتبع استراتيجيات أكثر تطلعا الى الامام من أجل تنمية عقلانية للموارد البشرية وسياسات للبحث والتطوير أشد فعالية على أساس إقليمي، وان الاخوة العرب الذين استضافوا هذا اللقاء، يمكنهم أن يلعبوا دورا رئيسيا في مثل هذا التوجه الجديد نظرا للمعرفة الموضوعة تحت تصرفهم، والتقدير الذي تكنه لهم كافة الاقطار العربية الاخرى، وكذا لانه كانت لديهم الشجاعة لعقد ندوة حول "تنمية الموارد البشرية" في الوقت المناسب تماما.

وحتى نكسب المعركة الاقتصادية، يجب ان نسعى لايجاد الانسجام بين تنمية الكائن البشري وتنمية التقنيات التي يعتمد عليها بروح ملؤها الاحترام الكامل لحقه في تحقيق ذاته.

ان الشكل الجديد للموارد البشرية وعلاقاتها بالعلم والتقنية يحتاج إلى ان ننظر إليه على أساس عالمي وكذا على أساس إقليمي، والتحديد الحقيقي يكمن في إعادة تعريف الغرض من العلم والتقنية، هذا شرط أساسي لقيام الديمقراطية في عهد ما بعد الصناعي، لقد أدى غياب المبادئ العادلة والمستويات الاخلاقية إلى التحيز في استخدام العلم والتقنية، ونحن بحاجة إلى عمل دولي عاجل لكبحهما وتسخيرهما من أجل أهداف بناءة ومثمرة.

وأخيرا، فإنه لن يمكننا أن نهرب من مسائل القيم بمجرد ان نذكر بان العلم والتقنية امر "عالمي وموضوعي"، فكثير من كبار العلماء بما فيهم علماء حاصلون على جائزة نوبل، يتخذون موقفا أكثر ارتباطا نسبيا بالاصرار على الروابط الحميمية التي توجد بين العالم والثقافة، وقد كتب "إيليا بريجوجين" بصورة واضحة عن هذا الوضع في كتابه " التحالف الجديد: (20)، وكذلك فعل الكاتب "جاك روفي" في كتابه "من الاحيائية (البيولوجيا) إلى الثقافة" (21) وهذين مجرد مثالين.

أحد العناصر الرئيسية في معضلة العلم والتقنية الجديدة، هو أنهما كلاهما من المكونات العضوية في الثقافة، وهما لا يصبحان مرتبطين اجتماعيا ومنتخبين اقتصاديا إلا أذا تم دمجهما في البيئة الثقافية التي يعملان بها وبذلك يصيران ظاهرة ديناميكية تستحث التجديد والإبداع.

المراجع

المنظمة العربية للتربية والعلوم، نحو نظام جديد للمعلومات والاتصالات، تونس والثقافة (اليسكو) 1985.

عبد اللطيف الحمد، نحو إنشاء صندوق عربي للتنمية العلمية، مطبوعات الصندوق الكويتي، فبراير 1987.

– قضايا رئيسية" لتنمية الموارد البشرية في العالم العربي" حلقة نقاشية برعاية صندوق الامم المتحدة الانمائي، طوكيو، ابريل 1986.

المنابر، ملق عن مستقبل التعليم في العالم العربي، المنابر، ص30-65، نوفمبر 1987 بيروت

منتدى الفكر العربي، التقنيات المتقدمة والعالم العربي، ندوة عقدت في يناير 1986، عمان

ج. بوتكين، م. المنجرة، لا حدود للتعليم، سد الفجوة البشرية، الناشر برجمامون م. مالتيزا، بريس، اكسفورد، نيويورك 1979)

م. بلوج، اقتصاديات التعليم: ببليوجرافيا شارحة مختارة، الناشر: برجامون بريس، اكفسورد (1966)

فلييس هـ. كومبرز، الازمة التعليمية العالمية، تحليل النظم ، مطبعة إكسفورد ، نيويورك (1968).

مهدي المنجرة : "احتياجات التعليم في عالم متغير" ، دور الموارد البشرية في حضارة المعرفة، في Futuresd ، 1986 لندن

الاتصال والمعلومات والتنمية، في التنمية، العدد رقم 1/84 طقإ ، روما (1985).

المعلوماتية ومستقبل العالم العربي " في كل العرب، العدد رقم 120 في 12 ديسمبر 1984، باريس

– غزو الفضاء: بعض الاعتبارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية" في فصلية العالم الثالث، يوليو 1984، لندن

– التنمية والاتمنة: الفرص والمخاطر" مركز الدراسات التطبيقية في التفاوض الدولي، جنيف (1985).
– الدعم المالي للبحث والتطوير في أقطار العالم الثالث" سجل الندوة الإفتتاحية للاكاديمية الافريقية للعلوم، نيروبي 1986، و Futuribles نوفمبر 1986، باريس.
لويس أيميريج، "التعليم والتدريب في مواجهة التغيير التقني السريع: اقتراح الدائرة المستديرة حول إدارة التنمية البشرية" ، بودابست SID/UNDP، سبتمبر 1987.
ادجار فور وآخرون، " التعليم اليوم: عالم التعليم اليوم وغدا" اليونسكو، باريس (1982).
بول مارك هنري، " العامل البشري كمفتاح للتقدم"، المائدة المستديرة حول "إدارة التنمية البشرية، المائدة المستديرة للشمال ، الجنوب، SID/UNDP بودابست من 6-9 سبتمبر 1987.
الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية، "اقتراح لإنشاء صندوق عربي للتنمية العلمية والتقنية" ز.أ. نصر، الكويت، يوليو 1987.
ج.ك. مارشيللو، التعليم في العصر التقني، في مجلةFutures ، المجلد 19، العدد 5 أكتوبر 1987، لندن.
مركز التنمية بمنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD)، "سياسات التنمية وأزمة الثمانينات" ، بإدارة لويس إيميريج، "سياسات التنمية وأزمة الثمانينات"، بإدارة لويس إيميريج، منظمة (OECD)، باريس (1987).
إيليا بريجوجين و ا. ستنجرز ، " التحالف الجديد" الناشر جاليمار – باريس (1979).
انطوان ريبود، التحديث، طريقة الاستعمال ا ـغـ المجموعة 10/18، باريس 1987.
جاك روفي، من الاحيائية (البيولوجيا) إلى الثقافة الناشر فلاماريون، باريس (1976).
تيودور و. شولتز، القيمة الاقتصادية للتعليم، الناشر مطبعة جامعة كولومبيا، نيويورك (1963).
عدنان شهاب الدين، "هجرة الادمغة العربية إلى الغرب، لماذا وكيف نوقف هذا الاتجاه"، معهد الكويت للأبحاث العلمية، الكويت (1984).
المائدة المستديرة حول الشمال/الجنوب ۆ " إدارة التنمية البشرية" بودابست (سبتمبر 1987).
جون فايزي، "اقتصاديات التعليم" الناشر فابر وفابر، لندن (1962).
– التعليم في العالم المعاصر، الجامعة العالمية، المكتبة ، لندن (1967).
ثامبيون وارد (محرر)، إعادة النظر في التعليم والتنمية ، أبحاث مؤتمر بلاجيو) برايجر/ نيويورك (1974).
انطوان زحلان، "هجرة الادمغة" نسخة مصورة ، لندن (1985).

الهوامش

١. انظر تقرير اللجنة الثالثة إلى الدورة الثالثة عشرة للجمعية العامة للأمم المتحدة (وثيقة رقم 3954 / ش، بتاريخ 23 اكتوبر، 1958).

٢. أوصى البحث بإجراء "دراسة منهجية لكامل قطاع التعليم في أي قطر كشرط مسبق للتمويل" ثم صدر بحث السياسة الثاني سنة 1974 والثالث سنة 1980.

٣. من خطاب الدعوة إلى حلقة نقاشية عن الموارد البشرية عقدت في طوكيو (أبريل 1986) برعاية برنامج الأمم المتحدة للتنمية والحكومة اليابانية.

٤. أنظر "القضايا الرئيسية للموارد البشرية في العالم العربي"، حلقة نقاشية برعاية وزارة الخارجية اليابانية وبرنامج الامم المتحدة للتنمية، طوكيو (أبريل 1986)، يحوي هذا البحث مجموعة كبيرة من المؤشرات الاجتماعية والاقتصادية القيمة والحديثة المتعلقة بالدول العربية، ويلاحظ التركيز على "العامل الثقافي".

٥. المائدة المستديرة حول "إدارة التنمية البشرية" برعاية (SID/UNDP) بودابست (سبتمبر 1987) " التعليم العربي في القرن

(×) تنمية الموارد البشرية بحوث ومناقشات الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية الكويت نوفمبر

Humain resources: the weight of science and technology
symposium on human ressources, arab fund for economie & Social Development, Kuwait, 28/11/87

الحادي والعشرين" منتدى الفكر العربي، البحرين (اكتوبر 1987)، الموارد البشرية والتنمية"، منتدى التنمية برلين أكتوبر (1987) ، التعليم في القرن الواحد والعشرين"، جمعية مستقبل العالم، كامبردج، ماساشوستس (اكتوبر 1987)

٦. الناشر: برجامون بريس، لندس ، نيويورك 1979، وترجم هذا التقرير إلى إحدى عشرة لغة منها العربية (القاهرة والرباط).

٧. انظر بيان مدير العلوم والتقنية بالمجموعة الاقتصادية الاوروبية الذي قال أنه: بينما لا ننكر خشية المجموعة الاقتصادية الأوروبية من مناقشة العالم الثالث في بعض مجالات التقنية المتقدمة، إلا أن مسؤولي المجموعة الاقتصادية الأوربية يصرون على أن تلك الدول تفتقر إلى القدرة العلمية لاستيعاب التقنيات الجديدة (انتربريس رفيس، قسم الخدمات الخاصة للأمم المتحدة، عدد رقم 1524 في 19 يوليو 1986 صفحة 11.

٨. انظر المهدي المنجرة: "الدعم المالي للبحث العلمي والتطوير في اقطار العالم الثالث" ، سجل الحلقة النقاشية الافتتاحية للأكاديمية الافريقية للعلوم، نيروبي (1986)، وجمعية المستقبلين، نوفمبر 1986، باريس .

٩. انظر : عبد اللطيف احمد، "نحو إنشاء صندوق عربي للتنمية العلمية"، منشورات الصندوق الكويتي، فبراير 1978، وكذا الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية" اقتراح لإنشاء صندوق عربي للتنمية العلمية والتقنية " ز.أ. نصر، الصندوق الكويتي، الكويت، يوليو 1978.

١٠. من بين هذه الاتجاهات يمكننا أن نذكر مجموعة كبيرة من اللقاءات والمطبوعات التي أفرزها "منتدى الفكر العربي (عمان)" و "مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت)" الذي ينشر مجلة شهرية ممتازة " المستقبل العربي" (صدر منها أكثر من ١٠٠ عدد حتى الآن)، وكذا تقارير المؤتمرات والحلقات النقاشية (حوالي 50 كتابا). كذلك يمكن ذكر العمل الذي قام به " منتدى العالم الثالث" (القاهرة) ضمن إطار مشروعات عن "البدائل المستقبلية العربية" ، وهذه المؤسسات تعمل بتعاون وثيق وتقوم ببرامج مشتركة كتلك التي أقيمت في البحرين مؤخرا (2-4 أكتوبر 1987) حول " التعليم العربي في القرن الحادي والعشرين" وفي تونس (16-19 اكتوبر ١٩٨٧) حول "المستقبل العربي" والذي اشتمل على عرض نموذج رياضي متقن.

١١. " التعليم للعصر التقني" ، مجلة فيوتشرز، صفحة 355، اكتوبر 1987، لندن .

١٢. انظر الجدول 1-3 أدناه، مصدر معدل التسجيل بالتعليم العالي هو البنك الدولي (ورد في تقرير عبد اللطيف الحمد، المرجع المتقدم).

١٣. في يوليو 1986 وافقت الحكومات الاوربية على 62 مشروعا ضمن برنامج "يوريكا" تمثل قيمتها ما يزيد على ٢ بليون دولار أمريكي، وكان "يوريكا" قد سبقه برنامج آخر استمر العمل به منذ 1979، باسم " وإشعـ " وهي أنشطته على ثلاثة مجالات رئيسية: العمل والعمالة، ومجتمع المعلومات، ومجتمع الاحيائية (البيولوجي).

١٤. لويس إيميريج، " التعليم والتدريب أمام التغير التقني السريع": اقتراح إدارة التنمية البشرية (المائدة المستديرة للشمال / الجنوب برعاية SID/UNDP ، بودابست من 6-9 سبتمبر 1987 (نسخة مصورة).

١٥. انطوان زحلان: "هجرة الادمغة" نسخة مصورة ، لندن (1985).

١٦. المهدي المنجرة: "التنمية والاتمتة: الفرص والمخاطر"، مركز الدراسات التطبيقية في المفاوضات العالمية، جنيف (1985).

١٧. انظر شطعق. إهالا العدد رقم 1653 في 14 فبراير 1987، روما

١٨. بول مارك هنري: العامل البشري كمفتاح في المائدة المستديرة حول "إدارة التنمية البشرية" مذكور آنفا.

١٩. الناشر جاليمار، باريس (1979)

٢٠. الناشر فلاماريون، باريس (1976)

انصهار العلم و الثقافة: مفتاح القرن الحادي و العشرين (x)

يشترط البقاء تضامنا مكانيا - «المشاركة» - وتضامنا زمانيا - الإبتسار(أ) -، وأهم العقبات أمام تحقيق هذين الشرطين هي :

1 - التفاوتات الاقتصادية الكبرى داخل الدول وفيما بينها، والظلم الاجتماعي الناتج عنها.

2 - هيمنة نظام القيم الثقافية - الاجتماعية الغربية أو اليهودية - المسيحية منذ قرنين من الزمان.

3 - البنيات العقلانية ومناهج التعليم غير الملائمة لمسايرة تسارع حركة التاريخ الحثيثة التي لم يشهد مثلها والتواتر السريع للتطور، والملزمين بصحوة كبيرة واتصال ثقافي أكثر توازنا.

والفرضية الأساسية في هذا المقال هي عدم ضمان البقاء دون «تحالف جديد» يذهب الى حدود انصهار العلم والثقافة فلقد تغذت الثورة الصناعية من خلال إبراز صورة لمجتمع يملك ثقافتين : الأولى علمية، والثانية غير علمية. والمجتمع ما بعد الصناعي، المتنقل من حضارة مواد خام وإنتاج ورؤوس أموال، الى حضارة معرفة وإعلام ولامادية، سيلغي حتما هذا التقسيم.

إن انصهارا كهذا سيثير عديدا من القضايا أذكر منهاعلى الخصوص، مراجعة تلك القاعدة القديمة القائلة بـ «عالمية» و «محايدة» العلم. أتذكر هنا ردود الفعل الحية التي أثرتها من ربع قرن. في كل مرة كنت أضع فيها هذه «العقيدة» محل نقاش، كان لا بد لي من الاعتراض عليها للوصول إلى تصفية تلك «المعادلة» التي ما قبلت بها قط، والمدعية أن «الحداثة» مرادفها «التغريب».

إن رفض هذا الادعاء هو ما قادني إلى تركيز بحوثي على المستقبلية، والتكنولوجيات المتقدمة، والتغيير الثقافي، ومثال اليابان.

معادلة الحداثة / التغريب

إني لم أفهم قط التفسيرات المفرطة في التبسيط، والمتغطرسة ثقافيا، والمختزلة للتقدم الاقتصادي والعلمي والتكنولوجي والثقافي لليابان في مجرد «تقليد» للغرب، وكنت دوما أدين، ومازلت، هذا الشكل البدائي من الانتقاص.

ويسرني أن تغيرت الأحوال اليوم، حيث يحلل باضطراد تقدم اليابان بصيرورة داخلية ذات ارتباط

(*) 1989

مباشر مع قيم ثقافية مضبوطة. مع الإشارة إلى أنه ليست هناك ظاهرة أخرى معاصرة تستطيع مدّنا بمزيد من الإبانة عن العلاقة المتينة بين العلم والثقافة أكثر من النموذج التنموي الياباني، والذي - كأي نموذج حقيقي للتنمية - بديهي استحالة تقليده.

وحتى نزداد إدراكا للعلاقة بين العلم والثقافة، يجدر بنا أن نقرأ الدراسة التي نشرها «المعهد الياباني لتقدم البحث» سنة 1988 تحت عنوان : «تقرير حول البحث : البرنامج الياباني للتسعينات»(2)، والتي تنص مقدمتها على تعدد الحضارات كأساس للمجتمع ما بعد الصناعي:

«من الآن فصاعدا، ينبغي النظر الى العالم بشكل مغاير، وذلك بأن نضع جانبا ذلك الحكم العديم الاستدلال، والقاضي بوجود نظام عالمي منضّد (مفرع الى طبقات)تحت ظل الامبراطورية الأمريكية. إن النظام العالمي الجديد، والذي يمكن نعته بعصر تنوع الحضارات، يرتكز على تعايش عديد من الحضارات. فإذا كان التغريب قد ساهم في تنمية العالم على الصعيد المادي، فإن حداثة اليابان تشهد على الفرق بين الحداثة والتغريب...»

وحتى نقدرالعالم حق قدره، يلزمنا فحص البنية الداخلية للعالم المتعدد الأقطاب... فلعل العالم يبحث عن أشكال لتنمية حضارات تعددية في عالم متعدد الأقطاب، وحتى يكون اليابان في مستوى ذلك، فإن عليه توسيع الأبعاد المكانية والزمانية لمفهوم الفائدة أو المنفعة الشخصية».

تلخص الفقرة المذكورة العناصر الأساسية لإشكالية القرن الواحد والعشرين، إنها تجلي القطيعة الجيو- سياسية مع الماضي، مبرزة دور التنوع الثقافي في عالم تعددي يتطلب فيه البقاء تصفية كل أشكال الهيمنة. والنقطة الوحيدة التي أغفلتها الدراسة، هي طرح ومعالجة ذلك السؤال الدقيق حول «إعادة التوزيع». وهو إغفال خطير في حق بلد تجاوز حاصل رواجه سنة 1988 حاصل الولايات المتحدة.

ويعد الرجوع إلى المصادر اليابانية خير سند ثقافي بالنسبة للقادم من العالم الثالث،والذي سبق له الدفاع عن نفس الأطروحات في وقت كان قليل من اليابانيين من يجرأ على الكلام بمثل ذلك الوضوح والثقة. ذلك أنه (أي الرجوع إلى المصادر اليابانية) يساهم في خلق إطار داخلي يتم فيه فحص العلاقة بين العلم والثقافة في فجر القرن الواحد والعشرين(3).

«التحالف الجديد» علم - ثقافة

لقد أضحى العالم والثقافة من الآن فصاعدا المحددين الأساسيين للنظام الدولي. ودون الرجوع إلى السياق الثقافي، الذي هو قبل كل شيء إنتاج ثانوي للقيم الثقافية، لا يمكننا بتاتا فهم العلم والتكنولوجية.

لقد ولى زمن «العلم من أجل العلم» و«الفن من أجل الفن». والقرن الواحد والعشرون يفرض صيغة ثقافية واجتماعية أحسن تحديدا، لا تستطيع البقاء تحت وهم «العالمية» و «الحياد» للعلم والتكنولوجية. لذلك يتوجب إعادة تحديد هذين المصطلحين حسب المفهوم الواسع والعالمي حقا لمعنى «العالمية».

شرح «إيليا بريغوجين»Ilya Prigogine في كتابه « التحالف الجديد»)زنفخضعمش زععزيوقه خه(إحدى أطروحاته المركزية والمتجلية في «أن قضايا ثقافية يمكن أن تؤثر على تطور النظريات العلمية»، بل ذهب أبعد من ذلك فقال «أضحى من العاجل أن يتعرف على العلم كجزء لا يتجزأ من الثقافة التي تطور بين أحضانها»(4).

وإن لبريغوجين لتواضعا وأمانة بنصه على القضية المتجلية في «أن العلم سينفتح على العالمية عندما ينتهي من نكران اهتمامات المجتمع ويعدل عن اعتبار نفسه غريبا عنها، فيصبح بالتالي، قادرا على محاورة الناس من جميع الثقافات واحترام تساؤلاتهم. ولن تجد توضيحا أحسن من هذا لإبراز تفاهة «عالمية» عصبية، وللنص على ضرورة الكشف عن عالمية للعلم، جديدة وعالمية، يستحيل الوصول اليها دون المرور بادئ ذي بدء عبر بوابة الثقافة والقيم الثقافية، فذاك هو الثمن الحقيقي للبقاء.

وليس «بريغوجين» وحده المدافع عن هذه الأطروحة بالغرب، فلقد كتب فيها «ميشيل سيريس» (Michel Serres) حول ما سماه «المتعدد». ففي كتابة «التكوين»(5)، يوجه «سيريس» النداء التالي : «لتنسلخ تلك المعرفة العلمية من غطرستها، ولتتعرى من فستان عظمتها الكنسي المزين، ولتدع عدوانيتها الحربية، وادعاءها الحاقد في أنها دوما على صواب ولا تقول الا صدقا! فلتنزل (من برج كبريائها)، مسالمة، نحو الاعتراف المشترك».

وتفسيرنا الخاص لما ذهب اليه «سيريس»، هو أن على العلم عقد الصلح مع الثقافة والقيم الإنسانية، فالمشكلة أن الغطرسة لا تكمن في العلم، بل في النسيج الثقافي الذي يرعى ذلك العلم. وبالفعل، ترتبط مشكلة الغطرسة بإدراكات الزمان والمكان. فالنظرة الى العالم ومستقبله تختلف حسب الزمن الثقافي الذي وضعنا أنفسنا فيه. وحينما نعتقد أن الحضارة الإنسانية يمكنها أن تعود تاريخيا الى قرنين من الزمان بالنسبة للفترة المعاصرة، ومن قرنين الى خمسة ألف سنة على الاكثر بالنسبة لمجموع تاريخها، فإنه علينا أن نعيش مع الاسطورة المولدة للغطرسة عبر الانتقاص الثقافي.

ومشكلة الثقافة «الغربية» أن مدتها محدودة نسبيا، وأنها تحاول بوعي أو بدون وعي، أن تعوض هذا الحد بانتقاص قدر زمان ومكان الثقافات الأخرى، إنها مغترة بنفسها وبنجاحاتها المادية الى درجة أنها لم تجد السبيل للتفكير أو للشعور بكيفية تفكير وشعور الآخرين. وتبادل بين «طاغور(Tagor) (6) و«أنشتاين»

(Einstein) (7) خلال حوار جرى ببرلين بتاريخ 14 يوليوز (تموز) 1930 يبرز تلك القطيعة في الاتصال الثقافي :

ـ طاغور : «إنه من الصعب تحليل الأثر الروحي للموسيقى الشرقية والغربية عندنا . إنني متأثر بعمق الموسيقى الغربية. إني أراها خارقة، فبنيتها واسعة، ومحتواها عظيم. إن النداء الغنائي الأساسي لموسيقانا يؤثر علي بعمق أكثر. وللموسيقى الأوروبية خاصية ملحمية، إنها ترتكز على ثقافة واسعة ولها بنية قوطية (Gothique) ».

ـ أنشتاين : «إنها مسألة لا نستطيع نحن الأوروبيين الإجابة عنها بدقة. فنحن شديدو الألفة بموسيقانا، إننا متطلعون لمعرفة هل موسيقانا اتفاق أم شعور إنساني أساسي؟ هل من الطبيعي الشعور بتوافق الأنغام وتنافرها أم أنه اتفاق نقبل به؟»(8).

فلا يمكن أن نتوقع تبادلا كهذا في القرن الحادي والعشرين. إن صراحة أنشتاين تدل بوضوح على أن الباحث «الشرقي» يمكنه بذل المجهود لفهم التعابير الثقافية بـ «الغرب» بكيفية مقارنة وبمرجعية مفتوحة، لكن «الأوروبي» عاجز عن القيام بنفس المسعى لأنه منكمش على ذاته ثقافيا، وقاصر عن كل فهم ثقافي مقابل. من هنا بزغ مشكل الاتصال الذي يهيمن على العالم المعاصر، عالم النهضة والعلم والحساسية الجمالية.

احترام التعدد الثقافي :

لن تهتم الأجيال المقبلة في العالم الثالث بالاتصال الثقافي ذي الاتجاه الواحد، فهي غير مصابة بمركبات النقص التي كانت في الأجيال السالفة، والتي كانت تظن أنها لن تستطيع أن تفرض نفسها ثقافيا إلا بالتمكن أولا من ثقافة «الآخرين». لقد تولد عن هذا المسعى أشكال مختلفة من الاستلاب الثقافي، والتي هي من أسباب التخلف الاقتصادي والعلمي في العالم الثالث. ولا يمكن للغرب أن يستمر في الاعتماد على التمتع «بشيك على بياض Cheque en blanc في ميدان الاتصال الثقافي دون مقابل، يتطلب على الأقل، مهما صغر، انتقالا حقيقيا. ربما سنكون عندئذ في مستوى تقليص ما سماه البروفيسور «ناكامورا» (Nakamura)«السلبية الثقافية».

لهذا كان وصل العلم بالثقافة وانصهارهما شرطا للاتصال والبقاء. إنها ضرورة نسقية. خاصة وأن أزيد من 50٪ من اليد العاملة ذات التكوين العالي بمستوى الدكتوراه ستكون من هنا الى آخر القرن من أصل غير غربي. إنه اتجاه لا رجعة له، يعزى الى الديموغرافية والى عوامل ابتدائية أخرى. بل في الولايات

المتحدة، أكثر من نصف الوافدين على سوق العمل سنة 1988، والمتوفرين على تكوين في مستوى الدكتوراه أو أعلى من ذلك، لم يكونوا من أصل أمريكي. والخاصية الأساسية للقرن الواحد والعشرين هي زوال أوروبية العلم والثقافة، انطلاقا من الولايات المتحدة الأمريكية.

فمنذ أزيد من عشرين سنة، وبمناسبة افتتاح مؤتمر الأمم المتحدة حول تطبيق العلم والتكنولوجية في التنمية، أدلى «روني ماهو» (Ren Maheu) ، المدير العام وقتئذ لمنظمة اليونسكو، بتصريح هو أشد تبريرا اليوم من ساعتئذ(9)، قال فيه : «لا علمية للمعرفة إلا بالروح التي هي (أي المعرفة) من نتائجها، والتي وحدها تعطيها معنى لدى الإنسان، ومغزى حين تطبيقها على الأشياء. فالعلم ليس شكلا من الصيغ والوصفات التي من تلقاء ذاتها، تمنح الإنسان سلطات مجانية على المخلوقات... ومشكلة التقدم التكنولوجي للجهات التي مازالت تشكو من نقص في التنمية لا يمكن حلها جذريا باستيراد التقنيات الأجنبية أو الإدخال على عجل للعلوم التطبيقية الجاهزة بشكل من الأشكال. فلا يمكن للتقدم أن يتحقق بصورة جذرية إلا بالخلق والدعم، حسب سياق ينمو داخليا في قلب الحقيقة الإنسانية للمجتمعات المعنية من الوجهتين الثقافية والإجتماعية للعلم»،(10). ويضيف «روني ماهو» قائلا :

«إن العلم في حد ذاته مجتمع، مجتمع يحتوي على شيء رائع : هو امتلاكه موهبة عالمية، وبذلك فهو يعد ويشكل إنسانية الغد، لكن لا يستطيع هذا المجتمع البزوغ والازدهار في أي سياق كان».

ليسمح لنا بالرجوع الى «ماهو» مرة أخرى : ففي مقدمته لـ «تاريخ التنمية العلمية والثقافية للإنسانية» المنشور من طرف اليونسكو تحت إشراف الأستاذ «پ. ب. كرنييرو(P.B. Carneiro) من البرازيل، كتب «ماهو» في غشت 1962 :

«كل فعل للثقافة والعلم، أيا كانت مادته أو وسائله أو دوافعه، أو حججه أو ظروفه، هو أساسا فكرة من الإنسان حول الإنسان».

لم يُفهم «ماهو» بصفته مديرا عاما لليونسكو من طرف المديرية البيروقراطية لمنظومة الأمم المتحدة، سواء تعلق الأمر بالكتابة الدولية أو بممثلي الدول الأعضاء. لو فُهم، لتمكنا من ربح سنوات من الجهد، ومئات الملايين من الدولارات، بتخلينا ببساطة عن الوهم الذي يدعى «نقل التكنولوجية». لقد كان «ماهو» فيما نعتقد، أول من استعمل مفهوم التنمية «الذاتية» (endogène) في سياق اجتماعي - ثقافي، خصوصا حينما يتكلم عن العلم.

ودون أن نبخس مبدأ المفعول الرجعي بين العلم والثقافة حقه، فإن العلم لا يمكن نقله لأنه نتاج نسق ثقافي، فالقيم الثقافية هي التي تحدد الفكر العلمي والإبداع والابتكار، فلا يمكنك شراء ولا نقل مثل هذه

المخرجات (outputs) دون أن تتوفر لديك المدخلات (inputs) الثقافية التي تمكن من الفهم والهضم والإضافة في القيم الذاتية للمنقولات، وإلا فلن تشتري إلا لعبا! لهذا فإننا نرى أن أحسن تحديد للتنمية هو ذاك الذي قدمه «ماهو» حين كتب : «التنمية هي العلم حين يصبح ثقافة» وهذا ما أريد قوله بانصهار العلم والثقافة. فالعلم والتكنولوجية ليسا المحرك الأول للتغيير الاجتماعي، فهما لا يعدوان أن يكونا الخميرة فقط أو المعجل لمثل هذه التغييرات الحاصلة بواسطة الجينات الوراثية للتغيير : القيم الثقافية.

إن القيم الثقافية تجعل التغيير يسيرا من خلال تمكين الأفراد من استيعاب العلم والتكنولوجيا واجتناب أن يدعما الجور الحاصل في تقسيم العمل. ذلك الجور الذي يمكن أن يتولد عنه نظام من الطبقات، مع تكنوقراطيين يعرفون «ماذا» ويجهلون «كيف» و«لماذا»، وجموع من الأميين العلميين عاجزة عن المشاركة ديموقراطيا في نسق القرارات الحاكمة في تطور وتمويل العلم والتكنولوجيا، وهو الشيء الحاصل بالفعل.

فلعل تطور هذا النظام من الطبقات يشجع على قطيعة ما بين وجهات النظر الفزيائية والإنسانية الممزقة لثقافتنا، لأن وجهة النظر الإنسانية هي في عجز متزايد لفهم العالم الفزيائي. وليس ذلك خطأ العلم ولا التكنولوجيا، ولكنه حصيلة تقصير في نظم التعلم عندنا ناتج عن نقص في مؤسساتنا التربوية.

عدم توافق المؤسسات ونظم التعلم :

لم يعد لدينا الوقت ولا المناهج البيداغوجية اللازمة لهضم وإدماج مراحل السبق العلمي والتكنولوجي، ومن تم اتساع الفجوة بين التقدم العلمي والتكنولوجي وتطبيق نتائج هذا التقدم بشكل توافقي اجتماعيا وثقافيا. جزء كبير من هذه الفجوة نابع من وثيرة التغيير العلمي والتكنولوجي بالنسبة لفتور المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ـ الثقافية في مواجهة مثل هذا التطور.

فكيف يمكننا أن نقتحم القرن الواحد والعشرين بفلسفة سياسية ترجع للقرن الثامن عشر، ومؤسسات سياسية ترجع للقرن التاسع عشر، من ضمنها «الدولة ـ الوطن». وأسطورة «السيادة»، ونسق القرارات قد يبدو ديمقراطيا ولكنه صمم لعالم لم يعد موجودا إلا في كراسات القانون الدستوري والقانون الدولي، هذا دون الكلام عن ميثاق الأمم المتحدة؟

تلك هي بعض الأسباب لتخلف بنياتنا وأنساقنا العقلية، ولعجزنا عن مواجهة التحديات التي تقابلنا منذ عقد أو اثنين من الزمن، والمزداد خطورة شيئا فشيئا. والمقلق للغاية هو أننا نلاحظ استثناءين للتحليل السابق : القطاع العسكري للدول العظمى والشركات عابرة القومية. فالعسكريون يشجعون ويترجمون التطورات العلمية والتكنولوجية الى واقع ملموس ومخرّب عمليا، إنهم يستنفرون ويديرون أكبر الموارد

البشرية والمالية المخصصة للعلم والتكنولوجية (أزيد من 60٪).

فبفضل مفاهيم «الأمن القومي»، على الشكل الصريح التصنع لمقاولاتها، وللأمية العلمية لأغلب أصحاب القرار المنتخبين، فإن المؤسسات العسكرية للدول «العظمى» خالية بالفعل من مراقبة ديموقراطية حقيقية، ومن مراقبة وتقييم خليقين بالثقة. ولعل هذا ما يفسر جزئيا الابتكار والإبداع اللذان ينعشهما البحث العلمي والتكنولوجي في القطاع العسكري، وتوظيف العدد الهائل من العلماء الذين لا يجدون نفس الحرية، ولا نفس التجهيزات ولا نفس الإمكانيات المالية في المؤسسات الجامعية.

أما الشركات عابرة القومية، التي تعمل بارتباط متين مع القطاع العسكري في بعض الحالات، والتامة الإدراك لأهمية البحث والتقدم من أجل إنتاج وتسويق منتجاتها واكتساح الأسواق، والملمة بقيمة الموارد البشرية الكفأة والمرتفعة التكوين، فإنها تمكنت من تطوير مناهج للتدبير وأنساق للتعلم جد ملائمة، مع تدخل ضئيل لـ «الدولة ـ الوطن».

والإشارة لهذين الاستثناءين هي مجرد ملاحظة بسيطة وليست حكما ذا قيمة. إنها تظهر أن التغيير والتعلم المتلائمين ممكنين، ولكن ليس في القطاعات التي هي في أمس الحاجة لذلك. كما أنها (أي الإشارة) تمكن من تسجيل الرفض من طرف أصحاب القرار القوميين والدوليين «المرخص» لهم بالتطرق لـ «الاشكالية» الجديدة للبشرية بكيفية عامة مصحوبا بالتفكير في رغد الإنسانية جمعاء.

أزمة نظم الضبط:

مشكل القيم الثقافية يطرح حينما نرى أنه في الوقت بالضبط الذي يجتاز فيه العالم أزمة «الحاكمية» الناتجة عن النقص في «المعايير والمسطرات» الدولية الملائمة من الوجهة الفزيائية والأدبية، وعن النقص في الوظائف الضابطة الهادفة لقصد معين، تشجع الدول الاقتصادية الكبرى، وتفرض المؤسسات المالية الدولية ـ من جانب واحد ـ اختلال من النوع التحرري الجديد.

والاهتمام الذي نوليه لمشكل المعايير والوظائف الضابطة هو اهتمام مجرد من كل حكم إيديولوجي مسبق، بل هو ببساطة مشروط بقلق لتوضيح المساعي كعلة وجود لأي نظام، وقلق فلسفي وعملي لمعرفة من ينبغي أن يشارك في تحديد هذه المساعي والإشراف على النظام المجتمعاتي. فكل مفتون بالقيم التي تقتضيها «الحرية» ضمنيا لا يمكنه أن يستمر في عدم اكتراثه بنسق الاختلال الذي يعرض الحرية للخطر بتشويه مفهومها الأكثر تبسيطا. إنها مشاكل قيم ثقافية أكثر مما هي مشاكل اقتصاد. فكيف يمكننا الوصول لـ «تنمية دائمة» دون إجماع حول الحد الأدنى من المعايير والقواعد.

إننا ها هنا أمام إشكالية لأزمة أخلاقية. لنأخذ مثلا موضوع المديونية في بلدان العالم الثالث : كيف يمكننا ليس فقط القبول بأن تكون مديونية الولايات المتحدة نحو الخارج أزيد من نصف بليون دولار، ولكن أن نفسر عقلانيا بأن هذا الحجم الضخم من الدين الخارجي، والعجز المالي القومي الفاحش، هما اللذان يجلبان رؤوس الأموال الأجنبية الى الولايات المتحدة، ويحافظان على إثبات مستوى قيمة الدولار، ثم نقيم المشاكل الاقتصادية والمالية لدول أخرى انطلاقا من مقاييس مختلفة تماما؟

إن الحجج المتعلقة بالنشاط الاقتصادي والمالي والفلاحي والصناعي للولايات المتحدة، والصالحة لعشر سنوات مضت، لم تعد كذلك. ففي سنة 1988، كان لليابان نشاط إجمالي متجاوز لمثيله في الولايات المتحدة، وبتعداد سكاني يصل الى نصف سكان الولايات المتحدة، والعشرة أبناك الأولى في العالم هي يابانية في بلد لا يتجاوز هذا النوع من المؤسسات فيه 58 بنكا، مع وجود 14000 بنك في الولايات المتحدة! والثلاثة عشر بنكا الأولى في اليابان مجتمعة تكون رأس مال إجمالي يفوق نصف بليون من الدولارات (نفس حجم الدين الخارجي للولايات المتحدة)، بيد أن الخمسين بنكا الأولى بالولايات المتحدة يقل رأسمالها مجتمعة عن مائة مليار من الدولارات(11)!

هذه الإحصائيات تسعى ببساطة الى البرهنة على أنه لم تعد هناك مقاييس «عقلانية» لتقييم الحالة الاقتصادية والمالية العالمية. ونتمسك بقولنا أن المشكل أخلاقي ومعياري، أي أنه مشكل قيم ثقافية أكثر مما هو مشكل قيم اقتصادية.

غياب إجماع حول القيم :

يمكننا أن نجد إيضاحا بليغا للأزمة الثقافية التي نعيشها مع العلاقة الوثيقة بتطورات العلم في ميدان الطاقة الذرية في تقرير «الندوة حول إنعاش التعاون الدولي للاستعمالات السلمية للطاقة الذرية» المنعقدة بجنيف (مارس ـ أبريل 1987). وهذه الفقرة المقتبسة عنه تثبت ذلك :

«لقد بذلت الندوة مجهودات جبارة للوصول الى اتفاق حول مبادئ مقبولة عالميا للتعاون الدولي حول الاستعمالات للطاقة الذرية... ورغم مجهوداتها، لم تستطع الندوة أن تصل الى اتفاق حول مبادئ مقبولة عالميا للتعاون الدولي حول الاستعمالات السلمية للطاقة الذرية».

إنه (أي الإيضاح البليغ للفقرة) لذو مغزى على سوء التفاهم حول «مقاصد الغايات» في عالم خضع لتغيير جذري بفضل العلم والتكنولوجية. لكنه يبدو عاجزا عن القيام بالتسويات القانونية والمعيارية التي يفرضها ذلك التغيير.

فلعلها إحدى الأزمات الكبرى للعلم والتكنولوجية والثقافة : أزمة مقاصد، أزمة قيم، أزمة معايير، أزمة قوانين. إنها أزمة لا العلم مسؤول عنها ولا التكنولوجية، لكنها تعزز الظلم داخل الدول وفيما بينها، والمؤدي الى تهميش أغلبية كبيرة من الناس داخل الفجوة بين الشمال والجنوب، ذلك الجنوب الذي لا يمثل سوى أقل من 10٪ من النشاطات العلمية والتكنولوجية في العالم، و5٪ فقط من نفقات البحث والتطوير. فحسب إحصائيات «منظمة التعاون والتنمية الاقتصاديين» (OECD)(12)، ثلاثة أرباع التبادل التكنولوجي الدولي هي فيما بين دول المنظمة(13)، وتهيمن عليها الشركات العابرة للقوميات.

وإعادة تحديد الغاية من العلم والتكنولوجية على مستوى المعمور أضحى من الضروريات الأساسية للديموقراطية الجديدة اللازم إقرارها لمواجهة تحديات القرن الحادي والعشرين. ففي غياب إجماع عالمي حول القيم الثقافية، تشجع المعايير والقوانين على استعمال العلم والتكنولوجية في الإنتاجية والربح دون اكتراث كبير لاستغلال أدوات التغيير الضخمة هذه لصالح عمليات أكثر تعبيرا وأحسن إلهاما. فمثل هذا الاكتراث لا يبرز ضمن قائمة أولويات أصحاب القرار لا شمالا ولا جنوبا.

ونتيجة للنقص الصارخ في بعد النظر، فإن نماذج التنمية المشجعة في العالم - مباشرة وبـ «المساعدة» الدولية فيما يخص بلدان العالم الثلاث - تركز على النمو والإنتاجية، والوسائل المستعملة لبلوغ تلك الأهداف تعامل المواطنين كغير مؤهلين بإقصائهم من المعادلة، فهم ليسوا في منظورها سوى عناصر لسلسلة إنتاج.

والإشكالية الجديدة المطروحة في وجه العلم والتكنولوجية، وفي وجه الثقافة أيضا، هي النظر في كيفية استعمال معارفنا المكتسبة لتأهيل البشر لمحاربة الفقر، والبؤس، والظلم الاجتماعي، والتهميش، وكراهية الكرامة والحقوق الإنسانية، والاستعمال المفرط للطبيعة ومواردها المحدودة.

وإحدى النتائج الثقافية للتقدم العلمي هي أنه جعل «التخصصات» منسوخة، خاصة حين نفكر في النظريات الأخيرة التي تمس «النظام» و«الفوضى» في العالم الفزيائي، والمؤدية لتخصص شمولي métadiscipline المدعو «فوضوي» (chaotique)، والذي لا يترك مكانا لإقطاع وإمبريالية التخصصات الجامعية المجزئة للمعرفة داخل حدود مصطنعة تماما. إنها (أي إحدى النتائج) الأصل في الأزمة الإبستيمولوجية التي علينا أن نجد لها الحلول القابلة للحياة قبل منعطف هذا القرن.

علينا أن نبيد الحدود الشوفينية ما بين العلوم «الحقة والأساسية» من جهة، و«العلوم الاجتماعية والإنسانية» من جهة أخرى، علينا أن نعقد الصلح بين الفلسفة التي لم تعد تدعي أنها العلم الأول"primus inter pares" والمهيمن داخل حقول المعرفة. علينا أن نحاول صياغة اتفاق جديد

متعدد التخصص مبني على أساس تكامل مختلف ميادين الفهم والإدراك والحدس بشكل يتجاوز بوعي وفي اتجاه متسع حدود «العقلانية» التي سجنت العقل الإنساني في نظام مغلق ومتراص ، monolithique وهمشت الى الحد الخطير الدور الإيجابي للتعدد الثقافي. فمشكل التعددية الذي تجليه للعيان النماذج البيولوجية والبيئوية اليوم ليس بأقل أهمية على المستوى الثقافي، إنه الضرورة اللازمة لعالمية حقيقية، إنه مشكل اقتصادي - أخلاقي éco-éthique يهم الإنسان والطبيعة و«التحالف الجديد» بينهما، والذي هو الشرط الأساسي للبقاء.

شروط البقاء :

إن انصهار العلم والثقافة هو السبيل الوحيد الذي يقدم ضمانا للبقاء بكرامة، وليس بأي ثمن يحدده آخرون. إنه الكيفية لإعادة اكتشاف الانسجام داخل النظام والفوضى سواء في الميدان الفزيائي أو الروحي. إنه ليس فقط مفتاح القرن الحادي والعشرين. بل هو أيضا سلام الإنسان مع نفسه وبيئته إنه الطريق الكبرى نحو ازدهار العقل والقلب. ازدهار المعرفة والحب، والخشوع والتواضع، والفكاهة، التي قد تمنعنا من أن نأخذ الأمر بجد الى درجة ننسى معها الغاية من وجودنا وهدفنا على هذه الأرض.

وبما أننا دوما في مرحلة «السلبية الثقافية» Négativité culturelle والتي تدعوني للتعبير بالرجوع باستمرار الى المفكرين «الغربيين» حتى أستطيع أن أفهم - ولو أنني واع تماما بحدود فهمي لنظم القيم الثقافية للاخرين - فإني أرجو أن تسمحوا لي بأن أختم هذه المقالة بذكر مقولة لرجل بذل مجهودا لتجاوز تخوم الحدود الثقافية الضيقة. ففي مقال عنوانه «رثاء عدم الاستقرار» L'éloge de l'instabilité، يعرض «إليا بريغوجين» الخطوط العريضة لمحاولة ممكنة ومتفائلة نحو الوحدة الثقافية العالمية في الكلمات التالية :

«ومن تم النتيجة الأساسية التي أود استخلاصها من هذا العرض، وهي أن القرن العشرين يحمل الأمل في وحدة ثقافية، ونظرة غير منتقصة، وأكثر شمولية. إن العلوم لا تعكس الشكل السكوني لعقل ينبغي الخضوع له أو مقاومته، إنها تساهم في خلق الاتجاه في نفس مستوى مجموع التطبيقات الإنسانية. فلا يمكنها لوحدها أن تقول لنا من هو الإنسان، أو الطبيعة، أو المجتمع. إنها تستكشف حقيقة معقدة، تجمع بشكل يتعذر فصله ما نعارض بين مكوناته تحت سجلات الكائن واللازم أن يكون»(14).

أما آخر كلماتي فتأخذ شكل تحذير أخوي وصيحة حب للذين ينتمون للثقافة المغربية، والتي ما أكثر ما شاركت في التطورات المعاصرة الإيجابية والسلبية للعلم والتكنولوجية، مشكلة إنجازا متميزا في تاريخ

الانسانية. ويسرني بكل تواضع وبشكل لا يمسني شخصيا، أن أوكد أنني أنتمي لنوع عالم - ثالثي في طريق الانقراض، نوع ظل دائما في عنت الى درجة المخاطرة بفقد ذاتيته وقانون تكوينه الثقافي حتى يَفهم ويُخاطِب «الآخر»، ولكنه قلما وجد صدى مسموعا ورد فعل ملموس.

وحظوظ الأجيال الصاعدة قليلة في الاستمرار ببذل جهد فظ وسافل غالبا ثقافيا وروحيا، لأن لإنكار الذات ثقافيا وللماسوشية (Masochisme) [15] الثقافية حدودا يمكن أن تؤدي الى الاستلاب. ولم يعد لدى هذه الأجيال سبب في بذل ذلك الجهد، لأنها ربما أكثر تأكدا من نفسها بالنسبة للأجيال السالفة، ولأنها نمت ومازالت تنمو وتنمي بشكل أسِّي سلطانها على المعرفة في العالم. فمهما يكن المكان الجغرافي الذي تعيش أو ستعيش فيه، فإنها تجرف معها بوعي أو بدون وعي نظاما للقيم الثقافية سيكون له لا محالة تأثير قاطع على تطوير العلم والتكنولوجية في القرن الحادي والعشرين.

ولم يبق من الوقت إلا القليل لإنجاز سلام ثقافي بمعية العلم والتكنولوجية وليس بمعية سياسيين أميين علميا، فكل ثانية من التأخير لعقد هذا السلام تزيد تلقائيا في التكلفة الاجتماعية للتغيير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي على مستوى المعمور. فذلك نقطة هامة في «برنامج البقاء».

بحث قدم لندوة فانكوفر Vancouver بكندا حول موضوع :

«العلم والثقافة في القرن الحادي والعشرين . برنامج للبقاء» ما بين 10 و15 شتنبر 1989.

FUSION OF SCIENCE AND CULTURE: KEY TO THE 21 st CENTRY
UNESCO Symposium "Science and culture in the 21st Century: Agenda for Survival", Vaancouver, Canada, 11-14 / 09/1989.
English, French, Arabic, Greek
ICIS FORUM, 98/10, NEW YORK, USA; FUTURIBLES, #138,89/12 PARIS, ALMAGHREB, 89/10/12, RABAT, MAROC; REALITES, # 238, 90/03/09, TUNIS; FUTURES, 90/04; LONDON, OIKONOMIKOS, 90/08, ATHENS, GREECE; IFDA#77; 90/05; AL MUSTAKBAL,#136, 90/06, Beyrouth; ACADEMIA, #6, 89/10, Rabat, DISCOVERY AND INNOVATION, 30/90, NAIROBI, KENYA; IDIC INTERNAZIONALE, Vol. 21,#6, 11/90, Rome, Italy.

الهوامش

(١) الابتسار كلمة عربية أصلية تعني القيام بالشيء قبل أوانه، وهو المراد بكلمة anticipation الفرنسية، ولقد كان ميلنا الى كلمة «الابتسار» بدل كلمات «تقديم» و«تسبيق» و«سبق» و«توقع» التي تقترحها المعاجم لأنها أقرب إلى الدلالة على المراد بالكلمة المرادفة لها بالفرنسية. جاء هذا في «لسان العرب» لابن منظور «والبَسْر الإعجال، وبسرت الدمل إذا عصرته قبل أن يتقيح) وهذا هو الهدف من ابتسار الزمن القادم، أي التفكير في أزماته المحتملة قبل أن تقع، والمبادرة بعلاج أسبابها قبل أن تستفحل)، وبسر حاجته يبسرها بسرا وبسارا، وابتسرها وتبسرها : طلبها في غير أوانها (والمراد فعلا في علوم المستقبل والإعداد للغد، التفكير في مشاكل للمستقبل محتملة الوقوع قبل وقوعها بالفعل). وتبسر طلب النبات أي حفر عنه قبل أن يخرج، وبسر النخلة لقحها قبل أوان التلقيح». ومما يزيد من تمسكنا بهذه المقابلة للكلمة الغربية «anticipation» أن علوم المستقبل تريد نورا في ظلمات الزمن القاهر، وتبحث عن ضمانات الإرتواء وسبل ذلك في أودية الغد المحتملة الجفاف، والابتسار يترجم تلك الارادة وذلك البحث. يضيف ابن منظور : «وبسر النهر إذا حفر فيه بئرا وهو جاف، وأبسر إذا حفر في أرض مظلومة، وابتسر الشيء أخذه غضا طريا، وفي الحديث عن أنس قال : لم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر قط إلا قال حين ينهض من جلوسه : اللهم بك ابتسرت، وإليك توجهت، وبك اعتصمت، أنت ربي ورجائي، اللهم اكفني ما أهمني، وما لم أهتم به، وما أنت أعلم به معي، وزودني بالتقوى، واغفر لي ذنبي ووجهني للخير أين توجهت». (انظر «لسان العرب» لابن منظور، دار صادر - بيروت - المجلد 4. ص: 57 - 59). وبما أن البسر والبسار والابتسار والتبسر كلمات مترادفة، وبما أن معاني البسر معنى آخر مخالف لإبتسار، وهو النظر بكراهية شديدة، فإننا نفضل استعمال كلمة «ابتسار» لكونها علاوة على ما تقدم، توحي بمجيئها على وزن «افتعال» بإرادة ذاتية مقصودة للفعل من طرف الفاعل، والابتسار في البعد الزماني إرادي ومقصود كذلك. (المترجم).

(2) Research Output : Agenda for Japan in the 1990's, NIRA, Tokyo, 1988.

(3) لمعرفة المزيد عن هذه المرجعية التي يشير اليها الكاتب بخصوص مثال اليابان، يمكن مراجعة الأبحاث التالية (المترجم) :

1- Jiten : Nippon no Kadia 880 ك (يابان الغد)
Tokyo, Gakuyo Shobo Publishing Co.

(استرتيجية لليابان نحوالقرن الواحد والعشرين)

2 - 21 seiki e no Senrgaku 330p. Tokyo Keizai Shimposha Pubishing Co.

اليابان نحو القرن الحادي والعشرين

3- Le Japon vers le XXIe siècle Masahiro Sakamoto, Futuribles, N° 23 Mai 1979; PP. 3 -23

4- La stratégie internationale du Japon: à l'aube de la 3e révolution technologique et industrielle

(الاستراتيجية الدولية لليابان في فجر الثورة التكنولوجية والصناعية الثالثة)

Futuribles, N° 69, 1983; pp. 13 -26
5- La stratégie Japonaise de R et D

(الاستراتيجية اليابانية للبحث والتنمية)

Futuribles, N° 69, 1983; pp. 59-68

(البحث والتنمية في اليابان)

6- Recherche et développement au Japon, Futuribles, N° 127, 1988, pp. 63-73

(4) يمكن الاستفادة لمعرفة الآراء المطروحة في كتاب «بريغوجين» المذكور، من مطالعة ترجمة لمقال له حول «العالم والحضارة والديمقراطية : القيم والنظم، البنى والأواصر»، والمنشور بمجلة «الثقافة العالمية»،العدد 44، يناير 1989، ص ص 7-26، وخاصة الفصل المتعلق بالمفهوم الجديد للعلم (المترجم).

5- Serres Michel - Gènèse, Paris, Grasset, 1982

(6) هو السير رابندرانات طاغور (1861-1941)، شاعر هنديو منح جائزة نوبل في الآداب لعام 1913، (المترجم).

(7) هو الفيزيائي الأمريكي، الالماني الأصل، ألبرت أنشتاين (1879 - 1955)و صاحب نظرية النسبية، والمحصل علي جائزة نوبل في الفيزياء عام 1921، (المترجم).

(8) A Tagore Reader, Mac Millan Company - New york, 1961

(9) في جنيف، بتاريخ 4 فبراير 1963.

(13) الدول الأعضاء في المنظمة هي : المانيا الغربية، بلجيكا، فرنسا، الدانمارك، إسبانيا، اليونان، إيرلندا، إيطاليا،

10- Maheu, René, - La civilisation de l'Universel - Paris: Laffont, 1966

11- "Wall Street Journal" بتاريخ 11 شتنبر 1989 ص 1

12- "STI Review" الصادرة عن المنظمة، خريف 1986

اللوكسمبورغ، النرويج، هولاندا، البرتغال، انجلترا، السويد، سويسرا، تركيا، فنلندة، النمسا، إيسلندا، استراليا، كندا، اليابان، الولايات المتحدة، زيلاندا الجديدة. (المترجم).

(14) جريدة «ليبراسيون» الفرنسية، بتاريخ 25 يناير 1989، ص. 6.

(15) انحراف جنسي يلتمس فيه المرء اللذة بالعذاب، والاسم منسوب الى اسم روائي نمسوي (المترجم).

استراتيجية تطوير العلوم والتقانة في الوطن العربي (*)

عقدت هذه الندوة في القاهرة لمناقشة تقرير اللجنة التي شكلتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لإعداد استراتيجية لتطوير العلوم والتقانة في الوطن العربي. وهو التقرير الذي نشره مؤخرا مركز دراسات الوحدة العربية. وشارك في الندوة وبحسب الحروف الهجائية :

- أسامة أمين الخولي : المدير العام المساعد للعلوم والتكنولوجيا ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
- حسام عيسى : أستاذ في كلية الحقوق في جامعة عين شمس ـ مصر.
- انطوان زحلان : باحث ومستشار في السياسة العلمية والتقانية.
- عادل ثابت : وكيل وزارة البحث العلمي في مصر سابقا.
- المهدي المنجرة : أستاذ في جامعة محمد الخامس ـ الرباط ـ المغرب ؛ ورئيس جمعية المستقبليات ـ باريس.

أدار الحوار وأعد تقرير الندوة : أسامة أمين الخولي.

الخولي : باسم مركز دراسات الوحدة العربية، أرحب بالزملاء، وألاحظ بداية أن اثنين منا قد شاركا في إعداد التقرير الذي نحن بصدد مناقشته، وأن أحدنا قد قدم عرضا مستفيضا ونقدا للتقرير صدرا مؤخرا في «المستقبل العربي»(1)، واقترح أن نبدأ بالزملاء الذين لم يشاركوا في إعداد التقرير أو التعليق عليه.

المنجرة : أريد أن أؤكد بداية على ما تحقق في الوطن العربي في العشر سنوات الأخيرة، لقد نشر حوالي 25 الى 30 ألف صفحة تناولت بشكل أو بآخر أوضاع العلم والتقانة في الوطن العربي، وهذا إنجاز طيب لم يتحقق من قبل ولم يكن متاحا مثلا عندما انعقد مؤتمر كاستعرب في الرباط عام 1976. وعلينا الآن أن ننكب على تحليل هذا الكم الهائل من الدراسات والتعرف على البيئة والمناخ اللذين تشكل فيهما منظور

(x) 1990

(1) المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، لجنة استراتيجية تطوير العلوم و ا لتقانة في الوطن العربي، " استراتيجية تطوير العلوم و التقانة في الوطن العربي- التقرير العام و الاستراتيجيات الفرعية". مراجعة عادل احمد ثابت " المستقبل العربي" السنة12، العدد 123 (شباط / فبراير 1990).

المستقبل العربي والرؤى والمشاهد الذاتية للوطن العربي كما صاغها مفكروه. لقد قرأت شخصيا الاستراتيجية وقمت بتحليلها ـ وكان السؤال الذي ألح على خاطري هو : من سيقرأ هذه الدراسة الهامة التي تقع في أكثر من ستمائة صفحة؟ هل كانت هناك ردود أفعال لنشرها؟ هل كاتب أحد المنظمة العربية أو المركز في شأنها؟ هل عقدت ندوات محلية للتعريف بها ومناقشتها؟ هل اهتمت الصحف بالموضوع، وصدرت حوله مقالات فيها؟ إن هذا أمر لا علاقة له بالدراسة نفسها، ولكن بوسائل التبليغ داخل بلداننا. وقد يتساءل البعض ماذا نريد من مثل هذا التقويم؟ أظن أن الذي نحتاجه أكثر من أي شيء هو أن تصل الرسالة الى متخذي القرار في القطاعين الخاص والعام.

إذا علينا أن نفكر في صدور نوع من التلخيص لهذا الجهد ولأمثاله، تلخيصا لا يشوه النتائج العلمية للدراسة ولكنه يعرضها في إيجاز ووضوح. فنحن نستطيع أن نقول اليوم ما لم يكن من حقنا أن نقوله منذ عشر سنوات مضت في شأن وصول الانتاج العلمي العربي إلى مستوى لائق، وفي شأن قيام شبكة حقيقية من الاتصالات بين أعداد غير قليلة من العرب يعرفون بعضهم بعضا. ولكن هناك مأزقا في شأن الاستفادة من كل هذه الدراسات. وهنا علينا أن نتذكر مثلا أن ٨٥ بالمائة من البحث العلمي المصري ممول من أربع هيئات أجنبية، ويداخلني الشك في شأن دوافع هذا الانفاق الأجنبي على البحث العلمي في هذه الدولة الكريمة. لا أريد أن يداخلني الشك في أن الباحثين في مصر يخدمون أجهزة المخابرات الأجنبية. مرحبا بهم لو كانوا في خدمة المخابرات المصرية. أقول هذا لأن مصر تهمنا جميعا وهذا موضوع استراتيجي. وقد أذهب إلى حد القول بأنني أفضل ألا يكون لدينا بحث علمي مادامت أجهزة الدولة لا تعطي المصداقية والأولوية له، ومادامت لا تعتبره ضرورة استراتيجية. وإذا كان لا حياء في الدين، فالأولى ألا يكون هناك حياء في العلم. وإذا كنا نتحدث عن الاستراتيجية، فلابد من أن نعرف أولا ماذا نفعل بمثل هذه الاستراتيجية ولمن نوجه الحديث.

الخولي : إن لدى كل منا فكرة واضحة عن هذه الوثيقة، وأقترح أن تدور مناقشتنا حول عدد من الموضوعات الرئيسية. وقد اقترح، على سبيل المثال، أن يدور النقاش حول تساؤلات مثل: هل هذه الوثيقة كاملة، أم تنقصها أشياء؟ وما الذي ينقصها؟ وهل الطريقة التي أعدت بها مناسبة، أم أن لنا عليها ملاحظات؟ وماهي الخطوات التالية لصدور هذه الوثيقة؟ وكيف يتم التبليغ بها؟

المنجرة : ليس هناك وزير أو كاتب دولة أو مدير في أي جهاز حكومي في بلادنا قد قرأ هذه الوثيقة، وربما قرأوا عنها مقالات بسيطة في أحسن الأحوال.

الخولي : كانت اللجنة قد أعدت ملخصا للكتاب بقصد الإعلام بالاستراتيجية ولكنه لم ينشر.

على مشاركة الأجهزة العلمية المسؤولة في هذه البلدان. بالتأكيد هذا سيخلق دراسة أفضل كثيرا، وذات أبعاد واقعية قائمة على التجربة أو الممارسة الفعلية، من ناحية، كما سيولد وعيا عاما لدى الأجهزة المسؤولة والمجتمع العلمي على امتداد الوطن العربي بالمشروع، من ناحية أخرى. والنتيجة الآن هي أن الاهتمام بهذا الموضوع مفتقد نهائيا في الوطن العربي، لدرجة أننا كثيرا ما نتساءل في لقاءات علمية عربية عن هذا الذي يحدث ولا أحد يستطيع أن يجيب إلا إذا تصادف وجود أحد أعضاء اللجنة أو ممثل لاليسكو. شكليات إرسال المسودات الى اللجان الوطنية للتعليق عليها لا قيمة لها، وغياب المشاركة المؤسسية والفردية على أوسع نطاق هو السبب في الوضع الراهن.

زحلان: وجهة نظر عادل أساسية وقد فكرت كثيرا - وأنا لا أدافع هنا عن اللجنة - ولكن كما تعرفون كانت هناك عدة أعمال جماعية سابقة أعدتها المؤسسات الوطنية، ومن أهمها التقارير الوطنية التي أعدتها كل دولة تمهيدا لعقد مؤتمر كاستعرب الثاني، وكان هناك اجتهادان سابقان لاتحاد مجالس البحث العلمي العربية واجتهادات لمركز البحوث الجامعية في دمشق، وغير ذلك كثير. لقد جمعنا حصيلة كل هذه الجهود والاجتهادات، ولكن المشكلة التي لاحظناها هي أن ممثلي المؤسسات يعبرون عن وجهات نظرهم الشخصية، والنتيجة هي أن الموسسة العلمية العربية نفسها كانت تعبر عن مواقف متناقضة في الاجتماعات المختلفة طبقا لوجهة نظر من يمثلها في كل اجتماع، ومن سوء الحظ أنه في أحوال كثيرة لا تتوافر لدى المندوب معرفة كافية بالقرارات والاجتهادات السابقة، ولا حتى بمواضيع البحث في الاجتماع الذي يمثل بلده أو مؤسسته فيه. أنا شخصيا أحبذ أسلوب العمل المؤسسي، وهو مريح لمثل هذه اللجنه. ولكن لسوء الحظ فإن الوضع الحالي الذي وصفته هو أهم الأسباب في أنه لا توجد لدينا حتى الآن استراتيجية معتمدة ومنفذة، وفي أنه لا يوجد تطور علمي راسخ.

الخولي: سؤالي لعادل هو: ما تقديرك لما كان سيحدث لو اتبع الأسلوب الذي تقترحه؟ أنت لك باع طويل في العمل العربي.

ثابت: أذكّر زحلان بتجربته في إعداد دراسة المركز العربي لنقل التقانة في السبعينات، والذي اتبع هذا الأسلوب، إذ نوقشت الدراسة التي أعدها زحلان مع عشرات المؤسسات الوطنية.

الخولي: لقد عرضت الدراسة من قبل وفود فنية على 220 مسؤولا عربيا، وتكلف هذا عشرات الألوف من الدولارات، فماذا كانت النتيجة؟

ثابت: لم أكمل كلامي. لقد عرضت الدراسة على مؤتمرين عربيين حضرتهما الهيئات العوبية والدولية. والتناقضات التي أشار إليها زحلان ليست نتيجة مواقف فردية بل مواقف مؤسسية. والدول هي

الخـولي : أنت يا حسام من رجال العلوم الإجتماعية وبعيد عن ممارسات العلم «الجامد»، فما هو تقويمك كرجل له نظرة في الأبعاد الاجتماعية لهذه الظواهر؟

عيسى : لأن هذا نوع من التقييد لا تقبله سياسة الانفتاح بشكلها الفج. ولقد قال لي مسؤول كبير في هيئة الاستثمار، هاك مشروع القانون، أدرسه كشيء نظري، لكن إياك أن تعتقد أنه سيصدر. نقطة البداية هي تغيير استراتيجيات التنمية القائمة. ليس هناك اليوم بلد عربي واحد لديه ذرة من هذه التوجهات. لا أحد مستعد أن يتحدث عن تغيير سياسات التصدير مثلا وسياسات التنمية للتصدير كما يروج لها تقول إنها وثيقة الصلة بنقل التقانة، مع أنها في الحقيقة ليس فيها أي نقل حقيقي للتقانة. الرأي السائد كان أنه مادام الإنتاج من أجل التصدير، فليس من المهم استخدام مكونات محلية. إن هذا يهدم السياسة القومية للتقانة من أساسها، بينما الكتاب يتحدث في صفحة 76 عن فك الحزمة التقانية وعن سياسة التصدير واستخدام المكونات المحلية. وقضية الدواء الشهيرة كان فيها سبعة مكونات لدواء الكبد ليس فيها سوى واحد فقط لقيمة علاجية. والكوريون يقولون إن فك الجزمة التقانية كان عنصرا أساسيا في عملية التجديد. باختصار، صعب جدا قراءة هذه الوثيقة، وسيعتبرها الناس كلام «مثقفين»، وعندما استفسر أحد المسؤولين عن الفترة التي يستغرقها تنفيذ السياسة التقانية المقترحة في مصر، وقيل له إنها حوالي خمس وعشرين سنة، كان رده : نحن نريد أن نطعم الشعب غدا، فهذه هي مشكلتنا الملحة.

الخـولي : لي سؤال مباشر : هل يمكن أن تساعد هذه الوثيقة إذا ما صيغت بشكل مناسب، أو اختصرت، في تغيير المواقف، فكما قال المنجرة : نحن لدينا - وربما لأول مرة - حصيلة جهد منهجي منظم لم تتوفر من قبل.

المنجرة : أقترح أن نبدأ بـ «اجتماع رؤساء» خاص بالعلم والتقانة في الوطن العربي فقط، ولو ليوم واحد، لتأكيد أن هذا موضوع هام وله أولوية، ولدينا في تجربة الدول الصناعية السبع الكبرى سابقة. أليس من الممكن على تقدير أن نجند مفكرين وسياسيين حتى نصل الى قناعة حقيقية بأن مشكل العلم والتقانة يستحق أن يناقش على هذا المستوى باعتباره أمرا استراتيجيا هاما يجب أن تكون له مصداقية. فكما نعلم فإن مصداقية الأشياء عندنا لا تتحقق إلا بقرارات رؤساء الدول.

ثابت : في الواقع هذا موضوع أثير عدة مرات. ولقد كانت قمة الرباط عام 1974 هي أول مرة يذكر فيها العلم والتقانة، وأحاديث الرؤساء والوثائق المختلفة كلها تتحدث في هذا. ولكن المشاهد الآن هو تحجيم جامعة الدول العربية ومنظماتها، وأظن أن مصير قمة عربية للعلم والتقانة لن يختلف كثيرا عن مصداقية قمة عمان للعمل الاقتصادي المشترك. ولكن هناك ظاهرة جديدة هي تواتر الحديث في الوطن العربي عن تكتلات

ثابت : الكتاب بالغ الإرهاق والتعقيد حينا، وبالغ التبسيط أحيانا أخرى.

عيسى : أسلوب الكتاب بالغ الصعوبة ولغته العربية ليست سلسة وفيه تكرار، فالصفحات الخمسون الأولى كان يمكن اختزالها الى حوالي خمس عشرة صفحة على الأكثر. وأهم جانب في قضية العلم والتقانة هو كيفية طرحها، والكتاب لا يعتبر نموذجا جيدا للعرض.

الخولي : لا شك في أنكم لاحظتم أن في الكتاب قدرا من الإحصاءات المحدثة لم يتوفر منذ زمن طويل في أي مرجع، وهذا جهد لا بد من أن يتواصل ويستمر حتى لا تفقد هذه الإحصاءات الهامة قيمتها.

المنجرة : دعونا نناقش العملية نفسها قبل مناقشة النتيجة. لقد كان هناك فرص عمل، وجهد منظم لجمع المعلومات وتمحيصها وحشد لعدد كبير من الخبراء، وتقسيم منطقي للعمل، وهذه كلها أمور جديدة وجيدة، ويجب أن يعرف المسؤولون أننا وصلنا إلى درجة يمكن معها الاعتماد على هذاالمستوى، ولو أن الكتاب صدر عن مؤسسة كارنيجي أو فورد لتهافت الجميع على قراءته.

ثابت : هذا الوضع يرتبط أساسا بأسلوب عمل اللجنة وطريقتها في إعداد التقرير. فلو أن العمل سار بأسلوب مختلف لكان حل كثيرا من المشاكل المتعلقة بالإعلام بنتائجه، ولكان له تأثير واضح على الصعيد العربي. وأكرر هنا بعض ما ذكرته في مراجعتي لهذا العمل الضخم والتي نشرت في «المستقبل العربي». لقد كان أسلوب عمل اللجنة هو أولى النقاط التي أثارت اهتمامي. لا شك في أن المجموعة التي قامت به في منتهى الكفاءة وجيدة التمثيل للقطاعات المختلفة من العلم والمعرفة، جيدة التمثيل للأقطار العربية المختلفة، ولا شك في أن لأعضائها خبرة عميقة في موضوعات العلم والتقانة، ممارسة وعلما، إذ قاموا بدراسات كثيرة بلغت حوالي سبعين أو ثمانين دراسة اشترك فيها كثيرون. ولقد كانت هناك أيضا بعض الندوات والكفاءات شارك فيها عدد لا بأس به، وذلك إضافة إلى المراجع التي استفادت منها اللجنة. وكان لا بد من أن ينتهي هذا كله إلى شيء هام. ،فعلا،فإن صلب العمل شيء قيم جدا.

في تقديري أنه لا يمكن أن تكون هناك نتيجة جدية حقيقية للوطن العربي ما لم تتحقق أوسع مشاركة من جميع المختصين. هذا الخطأ لم تقع فيه «اليسكو» في هذه الاستراتيجية وحدها، وإنما وقعت فيه أيضا في الاستراتيجيات السابقة، وإن كانت الخطة الشاملة للثقافة حظيت بتمويل سخي أعطى فرصة لمشاركة أكبر، ولكنها كانت على مستوى فردي، بينما يجب أن تكون المشاركة علي مستوى مؤسسي ومستوى قطري. فمن غيرالممكن ألا تدعى أجهزة العلم والتقانة في البلاد العربية المختلفة للمشاركة منذ البداية في هذه الدراسة، أو على الأقل، أن تعرض على تجمع علمي في كل قطر عربي، وعلى مستوى قومي عربي للتدارس. وغير مقبول ألا يرتكز تقويم التجربة المصرية أو السورية أو السودانية أو العراقية أو المغربية

---

(2) انطوان زحلان، العرب و التقانة، سلسلة الثقافة القومية: 19 (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1988).

فيه. وحتى عندما نتحدث عن بعض الإنجازات المحلية، فإننا نفعل هذا بطريقة غوغائية لا تربط هذه الإنجازات بحركة المجتمع وتوجهاته. وإذا ما استطعنا إيجاد نوع من الإعلام العلمي يقوم على أساس غير الانبهار بما يجري في الخارج، فسنكون قادرين على إيصال الرسالة. وربما كان كتاب زحلان الصغير الذي أصدره مركز دراسات الوحدة العربية(2) والذي يناقش القضية بأسلوب سهل الفهم يستعرض أبعادها التاريخية على مستوى المثقف المتوسط نموذجا لما يمكن أن يكون عليه الإعلام العلمي الفاعل والمستنير.

عيسى : هل من الصعب أن نبدأ بالمؤسسات العسكرية في الوطن العربي، إذ أنها تقوم فعلا بإحداث تطوير تقاني بقدر ما بحكم ظروفها، كما يحدث الآن في العراق وكما حدث في مصر؟ هل يمكن أن يكون لها تأثير في تكوين مجموعة ضغط تناصر قضية العلم والتقانة؟

الخولي : لقد حدث هذا بالفعل في مصر في الأيام الأخيرة، ففي اجتماع عقد في إطار المنظمة العسكرية كانت هناك مطالبة بإعادة النظر في التنظيمات العلمية في مصر بأسرها. ولا شك في أن نظرة المواطن العراقي للعلم اليوم مختلفة تماما عنها منذ عشرين عاما بفعل الحرب، فدور العلم في الدفاع عنه جعله أمرا ليس غريبا عنه.

ثابت : كما قال حسام، المؤسسات العسكرية بحاجة الى تطوير الأسلحة، ولقد حدثت بالفعل تطويرات كثيرة في المؤسسة العسكرية المصرية لأنها أكثر انضباطا ودقة في تحديد الأهداف وفي أسلوب الإدارة ويسرا في التمويل. ولاشك في أن البحث العلمي العسكري يفيد القطاع المدني، ولكنني مازلت أرى أن القطاع المدني أهم. ففي المنطقة العربية مشكلة غذاء حقيقية لابد من أن يساهم العلم العربي في حلها.

عيسى : أنا لا أقول إنهم وحدهم القادرون، وإنما هم أقوى إحساسا بالمشكلة وحساسية للاعتماد على الذات، وهم لن يستعينوا بإسرائيل مثلا في حل مشاكل الزراعة في مصر.

المنجرة : هل هناك حل آخر ، إذا ما كان هذا الأسلوب في التوعية غير ميسر أو مقبول؟ أليس من الضروري قبل هذا أن نتوجه الى العلميين العرب أنفسهم؟ أليس عليهم أن يناقشوا سلبيات الدراسة وإيجابياتها وأن يعتبروها حلقة في سلسلة عمل مستمر، وأن يساهموا في جهد التوعية الأقل داخل نطاق عملهم؟ لماذا لا نناقش هذه الدراسات في جامعاتنا مع طلبتنا وزملائنا؟ فليس من الممكن الآن تغيير الأمور عن طريق العلم في الوطن العربي. هذه هي الخطوة السابقة لإحداث التغيير من الشارع. إذا ما أردنا الآن أن يحدث التغيير بطريقة علمية موضوعية هادئة وبتخطيط على امتداد 20-25 سنة، فليستمر الباحثون على الأقل والدارسون في المختبرات وحلقات الدرس في هذا الجهد، ولتكن هذه الدراسة موجهة اليهم.

ثابت : من المهم طبعا أن يعرف المشتغلون بالعلم الموقف بالضبط، ولكن المشتغل بالعلم في بلادنا

التي قالت في النهاية لا نريد هذا المركز. وكان هذا قرارا سياسيا للمجلس الاجتماعي والاقتصادي لجامعة الدول العربية. واليوم يطالب كل تجتمع علمي عربي بإحياء الموضوع، ولم أحضر أجتماعا إلا وأثير فيه الموضوع.

الخولي : ممثلو الدول هم الذين أقروا مشروع المركز في المؤتمر الثاني، والدول هي نفسها التي عارضت تنفيذ المشروع في المجلس الاقتصادي والاجتماعي لاختلافات لا علاقة لها بصلب الموضوع، ولكن بمقر المركز وجنسية من يتولون المسؤولية فيه. ولي هنا ملاحظتان : نحن نتكلم الآن عن وثيقة ليس مطلوبا بشأنها قرار سياسي بإقامة كيان مؤسسي جديد. ثم إن الهدف الأساسي منها هو التوعية والتثقيف وتوفير نوع من الخطوط الارشادية، والفرق كبير بين الأمرين. ومن واقع خبرتي الشخصية المباشرة في أعمال اللجنة، فإن محاولات استدعاء مشاركة المؤسسات العلمية الوطنية لم تنجح، وكانت الاستجابة ضعيفة جدا، فعندما أرسلت مسودة التقرير مباشرة، وليس عن طريق اللجان الوطنية، إلى جميع هذه المؤسسات وإلى كبار المسؤولين في كل قطر، لم تتلق اللجنة سوى إجابة واحدة فقط من الوطن العربي كله. ودون الإقلال من أهمية المشاركة على أوسع نطاق، تبقى هذه كلها ظواهر لا يمكن تجاهلها ويجب أن تؤخذ في الحسبان.

المنجرة : هذا في جوهره عمل سياسي، ولكنه لا يحتاج إلى قرار سياسي جماعي يبدأ، كما أكدت اللجنة من أسلوب التنفيذ الذي تقترحه.

زحلان : هذا العمل هو مجرد دليل إرشادي.

الخولي : عندما نواجه مثل هذه الظواهر، فليس من المفيد إصدار أحكام عليها. إنما الأهم هو فهم الأسباب التي أدت إليها. لماذا لا تنفذ مثلا السياسة التقانية في مصر مع أنها نوقشت على أوسع نطاق واعتمدت من أعلى السلطات؟ لاشك في أنها قد أغفلت عوامل معينة مؤثرة وقوى معينة لها وزنها، أي أنها لم تفهم الواقع الذي تسعى الى تغييره فهما كاملا.

المنجرة : يذكرني هذا بقرار إنشاء الصندوق العربي للتنمية العلمية التقانية الذي صدر عن مؤتمر كاستعرب الأول. لقد كان قرارا سياسيا، ولكن أين كانت المشكلة؟ لقد تعثر المشروع لأسباب تافهة جدا مثل مقر الصندوق أو شخصية من سيكون أمينا له. وهذا هو التخلف بعينه. لقد كانت الأموال موجودة، والسعودية والكويت كانتا مستعدتين لتوفير 300 مليون دولار فورا دون قيد أو شرط. هذا هو الواقع الذي يجب أن نأخذه بعين الاعتبار، ولكن، لنكن إيجابيين، فما هي وسائل التغلب على هذه المشاكل التافهة التي تواجهنا؟

ـ خصوصا في مصر ـ مشحون بمشاكله الشخصية، لا مختبرات، ولا منح للسفر الى الخارج، ولا توجهات بحثية واضحة مرتبطة بالتنمية الوطنية ـ دع عنك صعوبة تدبير احتياجاته الشخصية هو ومن يعول.

الخولي : إذا لم يدرك المشتغلون بالعلم أن السبب الرئيسي لمشاكلهم هو أن المجتمع غير مقتنع بأنهم يقومون بدور هام في تلبية احتياجات التنمية، فسيظل الوضع على ما هو عليه. عليهم أن يساهموا في تنوير مجتمعاتهم بما يمكن أن يقدموه. وباحتياجاتهم للقيام بدروهم. لقد سميت هذا التقاعس «الفريضة الغائبة». لا يكفي أو ينفع أن يتقوقع العلميون ويتشاكوا من أن المجتمع لايهتم بهم ولا يوفر لهم احتياجاتهم، فهم خدام مجتمعهم لا أسياده، ولابد من أن يقوم بينهم وبين المجتمع حوار بناء لتحقيق تفاهم ضروري.

عيسى : القطيعة من الجانبين :

زحلان : ثلاثة منا هنا أمضوا حياتهم منذ الخمسينات يخاطبون المجتمعات العربية، في قضية العلم ودوره في التنمية. نحن رافضون للنظام القائم، ولكننا نعمل داخله من أجل تغييره.

المنجرة : ما خلصت إليه شخصيا بعد أن تعرفت إلى هذا العمل، هو أن نعتبره، بسلبياته وإيجابياته، بداية لمشاركة أوسع وأوسع للمشتغلين بالعلم، وأن ننظر اليه على أنه مشروع مستمر لتبادل الأفكار والآراء والمعلومات ولتحسين أبحاث أخرى مكملة دون الحاجة الى مؤسسة أو تنظيم. ويهمني بالذات أمر تجديد هذا الكنز من المعلومات الذي لم يتوافر مثله من قبل. الحوار يجب أن يتوافر كله الى كيفية إحداث التغيير فكريا بطريقة سليمة موضوعية علمية. إن لم يتم هذا فسيأتي التغيير من الشارع. والسؤال هو : هل نحن أفضل حالا عم كنا عليه منذ عشرين عاما من حيث انتشار الوعي العلمي؟

الخولي : وضعنا الاقتصادي التنموي قد لا يكون أفضل، ولكننا أعمق فهما ووعيا بإشكالاتنا، وربما قلت إن لهذه الوثيقة شيئا من الفضل في هذا.

ثابت : نحن نعيش اليوم في عالم بالغ التعقيد، ولابد لنا من صدمة تخرجنا من الحديث المتكرر عن ربط البحث باحتياجات المجتمع وما تعلمناه من أساتذتنا الأجلاء عن أن العلم للعلم، والعالم يعمل في مختبره ولابد من أن تدخل نتائج عمله حيز التطبيق بشكل تلقائي، وعليه أن يستمر في نشر أبحاثه العلمية لكي يتقدم في السلك العلمي. في أي مركز للبحوث يجري البحث من أجل الترقية، لا من أجل التنمية.

عيسى : دون قيادة سياسية تتبنى هذه القضية، لا أمل، فنهرو كان رئيس المجلس الأعلى للعلوم والتقانة ووزير العلم في الهند.

ثابت : هذا تقليد قائم في الهند حتى الآن، فرئيس الوزراء هو وزير العلم ووزير البيئة ووزير الطاقة الذرية. هكذا كانت أنديرا غاندي، وكان راجيف غاندي، والهند أول دولة نامية سنت قانونا للسياسة التقانية.

الدول الصناعية، وعن التغير العالمي المقبل وأثاره في الوطن العربي، وعن دور التقدم العلمي ـ التقاني المذهل في تشكيل هذا العالم الجديد. إن احتمالات تحول البلاد العربية الى كيان هامشي لا مكان لها فيه وسط هذه التغيرات قد بدأت تثير لأول مرة الدول ذات قواعد علمية ـ تقانية صغيرة بأن تتقدم في بعض المجالات بسرعة وكفاءة.

زحلان : دراسة خبرات أوروبا وكوريا واليابان تدل على أنه كان هناك دائما دافع للتقدم العلمي، وأن المؤسسة العامة أو الخاصة لا وجود لهما أبدا في الوطن العربي. لقد أمضيت خمسة وعشرين عاما وأنا أكتب وأتحدث عن السياسة العلمية، ولا أحد يسمعني أنا وزملائي. خذ مثلا قطاع الإنشاءات الذي هو أكبر قطاع تنجزه شركات أجنبية بينما نحن نملك الكفاءات الأساسية، وإن كان ينقصنا التدريب وحسن الإدارة والتمويل المنظم. اتحاد المقاولين العرب طلب مني إعداد دراسة عن طرق تطوير إمكانات القطاع وزيادة حصة أعضائه في السوق، وأنجزت الدراسة، ولكن لمشكلة هي أن الاتحاد ضعيف بينما أمثاله في الخارج تضم خبرة العاملين في القطاع. أما لاتحاد العربي فلا يحضر اجتماعاته المقاولون القياديون مكتفين بإرسال أشخاص ليسوا أصحاب المصلحة أو القرار.

المنجرة : الأرقام التي جمعها زحلان تدل على أن لدينا في الوطن العربي 500 ألف مهندس، منهم 250 ألف مهندس عربي خارج الوطن العربي، أي أن عدد المهندسين العرب أكثر من عدد لمهندسين في ألمانيا أو فرنسا. ولكن الحضارة تقوم على الانتاجية والمعرفة والمعلومات والعقل البشري. إن العجز عن استغلال هذه الطاقات هو التخلف الحقيقي وهو نوع من الانتحار الاقتصادي. وإذا ما كان الأمر مغتفرا منذ خمس عشرة سنة مضت، فأن أحد الأخطار المحدقة بنا الآن هو خطرنا نحن على أنفسنا، وليس الخطر الخارجي وحده. ولدي سؤال استراتيجي لأسامة له علاقة بهذه الدراسة : في إطار الأوضاع العربية الراهنة، ألا يوجد أمل عن طريق أساليب تربوية وبالتوعية في أن تغير بعض الأوضاع فيما يتعلق باتخاذ القرار؟ هل يمكن أن نغير الرأي العام؟ مسؤولية العلماء اليوم أن يقولوا صراحة أن لا أمل ما لم تتغير الوضعية السياسية، فما هي وسائل التغيير بالاعتماد على التقانة؟ هل هناك أمل في أن يفسح لنا مجال للتأثير في الرأي العام حتى يسمع الحكام صوت الرأي العام، وليس صوت العلميين وحدهم؟ أما إذا لم تكن هناك وسيلة سوى فرض سيناريو التغيير من بين سيناريوهات الدراسات المستقبلية الثلاث المعروفة، الا وهي سيناريو اللا أمل، وسيناريو حشد الرأي العام، وأخيرا سيناريو التغيير.

الخولي : أغلب ما يكتب للرأي العام عن العلم والتقانة يساعد تماما على تغريبهما وتأكيد أن لا دور لنا في تطويرهما، ولا فرصة لدخول هذا المجال لأن الآخرين وحدهم هم المؤهلون لتحقيق الانجازات

المنجرة : ليس الأمر أمر تشاؤم أو تفاؤل. ونحن لو كنا متشائمين لما اجتمعنا هنا اليوم، إذ إننا مؤمنون بالتغيير وضرورته ولأننا متفائلون على الأمد البعيد، فإننا متشائمون في المرحلة الراهنة لأن قضية العلم والتقانة صارت مسألة بقاء أو فناء. هل سنكون مهمشين في المستقبل، أم سنبقى مجموعة حضارية إنسانية فاعلة؟ لو أن المجتمع العربي بكل رؤسائه أو وزرائه قرر أن يحدث التغيير، فسيستغرق هذا ما لا يقل عن خمس عشرة سنة، وعلينا نحن معشر الباحثين والعلماء أن نتحمل مسؤوليتنا إزاء مجتمعاتنا وعملنا وأن يتحمل الآخرون مسؤولياتهم. الدراسات المستقبلية تتحدث عن مستقبل مرغوب فيه، ومستقبل ممكن، ونحن نريد للمستقبل المرغوب فيه أن يكون هو الممكن، أي أن يكون لنا الطموح الكافي لتحقيق هذا.

ثابت : أقترح أن يشترك مركز دراسات الوحدة العربية واليونسكو في الدعوة الى مؤتمر موسع على شكل تظاهرة تشد الانتباه الى مناقشة القضية، فهذا أكثر تأثيرا من المطبوعات. وحتى الدراسات الكثيرة التي جرت في إطار الإعداد للاستراتيجية لم تنشر حتى الآن لأنها مكلفة، ولذا، فلم يطلع عليها أحد.

الخولي : نحن في حاجة الى مختصر قصير سهل القراءة يكون واسع الانتشار ليخاطب الجماهير العربية والمجتمعات العلمية، ويدعو إلى التفاعل بينها. لقد كتبت إلى رئيس اللجنة في الأيام الأولى لأعمالها لأقول إن الواقع المنقوص والمستقبل المرغوب فيه كليهما معروف بقدر كبير من الدقة، وأن التحدي الحقيقي أمام اللجنة هو كيف تتحرك من الأول صوب الثاني. لقد جرى البحث والنقاش كله على مستوى أجيال متقدمة في السن ولم تشترك فيه الأجيال الشابة أبدا مع أنها صاحبة المستقبل وصانعته. فلماذا لا يكون هناك أيضا نشاط واسع النطاق على مستوى الشباب في الجامعة ومراكز البحث ومواقع الانتاج، بل حتى المدارس الثانوية ومنظمات الشباب؟

المنجرة : لماذا لاتقوم جمعية أو هيئة عربية لإصدار تقرير سنوي عن حالة العلم والتقانة في الوطن العربي يكون بمثابة صرخة تشد الانتباه إلى الموضوع؟

الخولي : اليسكو كانت تصدر حتى أواخر السبعينات حولية للعلوم تحقق هذا الهدف بالذات، ولكن هذا النشاط توقف الآن.

المنجرة : هناك أمران متميزان حدثا في الأعوام الخمسة عشر الماضية. هناك إدراك أعمق بتعقد عملية نقل التقانة، ولم نعد نقول إنها موجودة، وما علينا إلا أن نأتي بها وينتهي الأمر، إذ أن النتائج التي وصلنا إليها سيئة، ونحن الآن نواجه مأزق حقيقية. والأمر الثاني هو ما أشار إليه عادل من بداية الإحساس بأن العالم من حولنا قد تغيّر وأننا على أبواب عصر جديد. هذان عنصران ممكن البناء عليهما. فعندما بدأ إعداد هذه الاستراتيجية عام 1981 أو 1982 لم تكن قضية التغيرات العالمية واضحة، كما أن العنصر الثالث

الجديد هو بروز مشاكل البيئة.

زحلان : لا يوجد بلد عربي واحد - بما في ذلك مصر - يستطيع أن يدخل أحد مجالات التقانة المتقدمة. وحتى مجرد التعاون في هذا المجال يتطلب نوعا من الاندماج لأسباب اقتصادية محضة، لا لأسباب عاطفية.

ثابت : سيظل السؤال معلقا :لمن نوجه مثل هذا الحوار؟ أقول : لا بد من توجيهه إلى من يصدر القرار، سواء على المستوى السياسي أو المستوى المهني، وليكن هذا اجتماع رؤساء استثنائي.

المنجرة : عادل، اسمح ليبأن أذكرك بأن القيادة السياسية الحقيقية موجودة خارج بلدانا، وأن فصل الخطاب في مسألة العلم والتقانة يأتي من الخارج. هل ترى أن نوجه الخطاب إلى الدول الكبرى والعلميين والتقانيين فيها؟

الخولي : في ختام هذا الحوار الثري يبدو أننا مجمعون على أن الأولوية الآن هي للإعلام بهذا التقرير ولأثارة النقاش والحوار حوله على أوسع نطاق وعلى كل المستويات، ثم لمواصلة هذا الجهد وتحديثه ليتواكب مع التغيرات المتسارعة في العالم من حولنا ومع التطورات داخل مجتمعاتنا.

"المستقبل العربي" - بيروت - العدد 143 - 1/ 1991 .

الموقع الحضاري للعالم العربي في عالم الغد (*)

قبل الدخول في صلب الموضوع أود أن أشير أن العالم العربي بدأ يهتم بمستقبله وتحرره، بعد أن كان أمر هذا المستقبل بيد غير العرب. إن ماضينا القريب مازال مستعمرا، وتفسيره تفسيرا حقيقيا يتطلب قرنا أو قرنين من الزمان، ما دام قد كتب بطريقة تعكس أغراض الأجنبي بل سقط بعض العلماء المتخصصين في تاريخ أوربا، وأغلبهم كانوا جواسيس، في استغلال العلم لأغراض تنم عن مطامع الأوربيين في المنطقة.

ليست هذه الحقائق تخص الماضي وحده، بل أن حاضرنا هو كذلك ليس بأيدينا، فلا يحق لنا أن نكذب على أنفسنا، بل يجب أن تكون لنا الشجاعة لنقول بصراحة : إن الاستقلالات التي حصلنا عليها ليست سوى استقلالات شكلية رمزية شبه سياسية، أما في الميادين الاقتصادية والاعلامية والحضارية فإننا غير مستقلين، ناهيكم بما يجري في مجال التلفزة مثلا، حيث تسود التبعية والتقليد الأعمى.

ترجع أسباب هذه الوضعية الاستلابية إلى الاستعمار، ليس بمفهومه الإيديولوجي السياسي ولكن بمفهومه التاريخي العريق القائم على حقيقة أن الجماعة الأقوى تتجه دائما الى قهر الجماعة الأضعف والهيمنة عليها. ليتبين لكم الموقف سأورد مثالا دالا، فمن أهم الدراسات التي قامت بها (منظمة التعاون الاقتصادي بين الدول المصنعة دراسة أطلق عليها اسم (أنتير- فتور)(3)، صرفت عليها ميزانية تفوق ستة ملايين من الدولارات، وتتضمن «سيناريوهات» خاصة بالعالم الثالث بما فيه العالم العربي والخليج كدول منتجة للنفط، لم يسهم في هذه الدراسة أي عربي، ولم يطلب أي قطر عربي من تلك المنظمة أن تقوم بالدراسة، بل لم يطرح حتى السؤال على المعنيين بالأمر ليعربوا عن آمالهم المستقبلية، هذا مثال سقته لأبين أن مستقبل العالم العربي مدروس من الخارج، وعندما تفد بعثة من البنك الدولي أو من صندوق النقد الدولي الى بلد عربي ما فإنها لا تهتم إلا برؤيتها الخاصة لتفرض علينا إرادتها فيما يتعلق بالإنتاج وخطط التنمية المجتمعية. والمصيبة الأعظم أن المسؤولين في البلدان العربية يعتمدون هذه الدراسات وكأنها منزلة بحيث يبنون عليها المخططات والبرامج، فيرهنون بذلك المستقبل بتواطؤ من الداخل.

لكل هذه الاعتبارات أرى أن الاهتمام بالمستقبل بداية للتحرر من الهيمنة الأجنبية وقيم الآخرين

(*) 1988

وعجرفتهم، عملا بالمنهج التحرري سأتناول الموضوع بكل صراحة وموضوعية ليكون تشخيص الأوضاع دقيقا وافيا بالمقصود.

إن أكبر مشكلة تواجه الأمة العربية الآن هي أنها أمة بدون «رؤيا» وإني أتحدى أي عربي، وباستثناء الفلسطينيين بعد انتفاضة الحجارة، أن يعبر عن رؤيا أو يصفها أو يذكر عند من هي؟! كانت هناك رؤيا عربية قبل الاستقلالات العربية، هي رؤيا التحرر من الأجنبي انطلاقا منها انتظمت الحركة النضالية والكفاح الوطني وتأطرت المشاركة الشعبية. غياب الرؤيا العربية حاضرا بعد الاستقلال يقابله حضور الرؤيا الواضحة عند العدو الصهيوني لمجتمع ودولة يهوديين، رؤيا تدرس وتجدد وتفسر للشعب اليهودي في كل مكان.

الجانب الأساسي الذي سأركز عليه الحديث الآن هو «نموذج التنمية في العالم العربي». لا أنكر أن هناك نموذجا للتنمية عندنا، ولكنه نموذج برهن عن فشله المطلق، كيفما كانت طبيعة النظام السياسي ليبراليا أو اشتراكيا، فشل النموذج التنموي في الجزائر وفي تونس وفي المغرب وفي الخليج وفي مصر....، في كل بلد عربي بلا استثناء. قد يقول قائل: إن فشل النموذج التنموي في بعض الأقطار العربية تغطي عليه وفرة الأموال، لكن أين هذه الأموال؟!

جانب آخر يؤكد فشل النموذج التنموي العربي ألا وهو «انتشار الأمية» إن العالم العربي يأتي في رأس قائمة الدول التي تنتشر فيها الأمية بنسب مرتفعة جدا. في إحصائيات اليونسكو تبلغ الأمية المنتشرة ضمن فئة العمر (15 سنة) نسبة 56٪ باستثناء فلسطين (نسبة المتعلمين فيها 95٪) وسوريا ولبنان (نسبة المتعلمين فيهما 80٪). تقول نفس الإحصائيات، لتكون المقارنة واضحة، إن نسبة الأمية في إفريقيا 54٪وفي آسيا 35٪ وفي أمريكا اللاتينية 20٪.

السؤال كيف يحدث هذا في مجتمع إسلامي، والحال أن أول آية أنزلت في القرآن الكريم هي «اقرأ باسم ربك»؟ أول أمر صدر للعرب هو القراءة وأكثرية العرب لا يقرأون ولا يكتبون!

ننتقل الآن الى مجال البحث العلمي، فنجد أن معدل ما تصرف الدول «المتقدمة» في هذا المجال هو 3٪ من الدخل القومي، في حين أنه بالنسبة للعالم العربي لا يتجاوز معدل ما يصرف عن البحث العلمي 0,27 من الدخل القومي، وهي أقل نسبة تصرف على البحث العلمي في العالم، فهي أقل من إفريقيا وآسيا.

لا أمل، إذن، في نهضة للعالم العربي إلا بالقضاء على الأمية وتركيز مكانة البحث العلمي الذي أنظر اليه كاجتهاد لابد من فتح بابه. إنه أمر مشروع مادمت لا أتدخل في ثوابت العقيدة الاسلامية من شهادة وصلاة... الخ. لقد جاء الاسلام كرؤيا لتغيير مجتمع معين في وقت معين، وجاء بوسائل للتغيير على رأسها القرآن والسنة كنصين صالحين لكل زمان ومكان، مما يعطي لديننا الحنيف ديناميكية تدرأ عنه الجمود

والسكون. المشكلة هي في وجود طبقة من المتزمتين الرجعيين تسلطوا على المسلمين منذ الفقهاء الذين أقفلوا باب الاجتهاد.

لقد تغيرت أحوال المعرفة في العالم تغيرا جذريا، فإذا كان العلم في الماضي لا يتجدد إلا بعد قرون وقرون فإن المعرفة المعاصرة تزداد بالضعف كل سبع سنوات، هذا ما أثبته تقرير صادر عن أكاديميتي العلوم في الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية، إنه تسارع مذهل يكفي للتدليل عليه أنه سنويا يوضع 40 ألف مصطلح جديد في مختلف ميادين العلوم، والحالة أن القاموسين الكبيرين، الفرنسي والإنجليزي، لا يحتويان إلا على عدد يتراوح بين 40 و50 ألف كلمة، وأن أعظم قاموس في العالم لا يحتوي إلا على 100 ألف كلمة. هذا يعني أن إبداع المصطلحات العلمية يفوق ما هو موجود في القواميس من كلمات.

من المؤشرات التي تدل على الأوضاع المزرية في الوطن العربي أن الأقطار العربية تصرف أكثر من 30٪ من ميزانيتها على قطاع التعليم، ومع ذلك لم يصل عدد الطلاب في الجامعات العربية، الى أكثر من 10٪ ممن تتراوح أعمارهم بن 20 و24 سنة. (4٪ من 10٪ المذكورة ينهون دراساتهم بالحصول على شهادات عليا. إنه ضياع كبير للأموال والطاقات البشرية.

بخصوص توزيع السن داخل المجتمع نورد أرقاما مخيفة : فالوطن العربي الذي يمثل 4٪ من سكان الكرة الأرضية تبلغ فيه نسبة القوى العاملة ضمن من يتراوح سنهن بين 17 و60 سنة 53٪ فقط بالنسبة لمجموع السكان. ما النسبة الإجمالية للقوى العاملة في العالم فلا تزيد عن 28٪ بالمقارنة مع الدول المتقدمة التي تبلغ نسبة القوى العاملة فيها 67٪ بمعنى أن ثلثي السكان في هذه الدول منتجة، ولها دور في الحياة الاقتصادية.

الى جانب هذه الأرقام هناك عوامل تعمق عدم الثقة في النفس، وبالتالي الجهل بالإمكانيات الذاتية الحقيقية التي يتوفر عليها العالم العربي. إن الاعلام الغربي مجند للدعاية المغرضة. حول أمتنا ، فهو ينشر أن العرب أغنياء وأن الأموال العربية يمكنها أن تغير العالم، يستنتج من هذه الأقاويل أن المشاكل الاقتصادية في العالم وراءها الأموال العربية. إنه لبهتان عظيم، فليس هناك أفقر من العرب، بحيث أن دخل الدول العربية مجتمعة هو أقل من نصف مدخول فرنسا. الغريب أن هذا البهتان ترسخ في أذهان العرب أنفسهم.

عدم الثقة في النفس والاعتماد على الغير ينجم أيضا عن كون العالم العربي يعتمد كثيرا على المساعدات الفنية الأجنبية والميل الشديد الى الاستهلاك بدل الانتاج نحن ننتج ما لا نستهلك، ونستهلك ما لا ننتج. أعطيكم مثالا واحدا يتعلق بالمغرب، إنه بلد يهتم بإنتاج الفراولة لتصديرها الى أوربا، إنه إنتاج غير اساسي من الأفيد الاتجاه الى إنتاج القمح الذي يعتبر مادة ضرورية. قد يقال أن إنتاج الفراولة مفيد

لاستجلاب العملة الصعبة، لكن المأساة أن كل ما يحصل عليه من هذه العملة لا يكفي لشراء المقادير الضرورية من القمح، علما بأن الحاجة للتغذية في العالم العربي تزداد كل سنة. إن بلدا عربيا واحدا هو السوادان بإمكانه، لو تكاثفت الجهود، ان يلبي حاجيات العالم العربي مرتين بل وحاجيات أكثر من نصف إفريقيا من المواد الغذائية الضرورية، ولكن الحقيقة المرة أن بلداننا عالة على إنتاج الدول المتقدمة من القمح والمواد الضرورية.

إذن، مسألة النموذج التنموي قضية أساسية بالنسبة للتفكير المستقبلي وكذا بالنسبة للقيم مادام الاقتصاد هو قبل كل شيء قيم ومفهوم مجتمع ورؤية بدونها تستحيل التنمية ونحن في مرحلة انتقالية حاسمة بين القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين، بين حضارة الثورة الصناعية (التي انطلقت من انجلترا) ومجتمع الانتاج.

إن النموذج التنموي المعروف لحد الآن ينبني على ثلاثة قواعد : رأس المال والمواد الخام والقوى العاملة، وهي مجتمعة تشكل قوام الإنتاج، هذا النموذج أصبح متجاوزا عند الدول المتقدمة التي انتقلت الى ما يمكن أن نطلق عليه «المجتمع الإعلامي» أو «المجتمع المبني على المعرفة». لماذا أصبح نموذج التنمية الانتاجي متجاوزا؟ لأن العناصر المتكون منها لا مستقبل لها، فالمواد الخام، بما فيها النفط ستعوضها الموارد البشرية المكونة والمعتمدة على المعرفة. أما رأس المال فأصبح أمرا ثانويا، لأن كبرى المشاريع أصبحت تتطور بسرعة لاعتمادها على المعلومات أكثر من اعتمادها على أموال باهظة، بل قد يكون رأس المال متواضعا جدا كما و الحال بالنسبة لشركة الحواسيب «آبل» أن المعلومات أصبحت أهم من المال.

دليل آخر على أهمية المعلومات في عصرنا أن الجاسوسية لم تعد هي معرفة الأسرار الإدارية ومضامين الملفات السياسية. اليوم بفضل الأقمار الاصطناعية (السواتل) أصبحت جميع المعلومات والاتصالات معروفة، لا توجد مكالمة هاتفية ولا تلكس ولا ثغرة إلا والدول الكبرى تطلع عليها وفي لحظة بثها. من العبث الاعتقاد حاليا بأن هناك أسرارا يمكن أن نعزز تحليلنا أيضا بالنزاع العربي الإسرائيلي إنه نزاع الأهمية فيه ليس للجيوش وإنما تعود إلى العقلنة والبرامج والتكنولوجيات المتجددة.

مشكلة الوطن العربي هي في كونه لا يستطيع أن يستغل الأرقام والاحصائيات والدراسات الميدانية، سواء على مستوى الباحث أو المسؤول. العرب (وكل الثالثيين) كرماء بالمعلومات والاحصائيات مع البعثات الاجنبية أو بعثات صندوق النقد الدولي. ولكن عندما يتعلق الأمر بتخطيط وطني فلا يحسن أحد منا استغلال المعطيات والأرقام. ويزيد من خطورة هذا الوضع عيب متفش عندنا وهو عدم الاستمرار في السياسات والتخطيطات، بل إن كل مسؤول اقتصادي ينقل من وظيفة الى أخرى يحتفظ لنفسه بملفاته وأرقامه، وعلى

خلفه أن يبدأ العمل من جديد يحدث أنه في الظرف الانتقالي بين مغادرة مسؤول لوظيفة وتعيين آخر بدله تأتي مكاتب للدراسات أو مؤسسات اقتصادية كبرى بحلول للمشاكل، مستغلة ظرف الفراغ فتبيع سلعتها بأبهظ الأثمان، وبشكل لا يتناسب والمطامح الوطنية، وتكون النتيجة هي تركيز عقدة النقص فينا، والادعاء بأن خبراتنا الوطنية لا تقوى على إنتاج الدراسات واقتراح الحلول ووضع المشاريع أي أن الحاجة ماسة الى المستشارين الأجانب.

القضية، في حقيقة الأمر، لا تتعلق بتنافس الدول علينا، بل لا تتجاوز المتاجرة المستهدفة لتحقيق أكبر قدر ممكن من الأرباح. فدول الشمال، بما في ذلك الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتي ودول أوربا لا تعرف أن الوضع الدولي لن يستمر على ما هو عليه حاله. العالم يعيش راهنا ما أسميه «شهر العسل في العلاقات الدولية» وخاصة في العلاقات السوفياتية الأمريكية: بين البلدين اتفاقيات في مجالات العلوم والتكنولوجيا المتقدمة، فلا تتحقق منجزة ولا تقام تجربة أو بحث في الولايات المتحدة الا ويصل خبرها الى الاتحاد السوفياتي خلال مدة وجيزة جدا، والعكس صحيح أيضا. في حين أن دول أوربا الغربية السابحة في فلك الولايات المتحدة ودول أوربا الشرقية السابحة في فلك الاتحاد السوفياتي فلا يصلها خبر تلك المنجزات والتجارب والابحاث إلا بعد سنتين بالنسبة للدول الأولى ومن خمس الى سبع سنوات بالنسبة للدول الثانية. لذا فإن القول بوجود خلاف بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي هو قول زائف، الواقع أن هناك قوى كبرى لها مصالح متكاملة وتفاهم مطلق، أما مظهر النزاع والخلاف فهو مظهر للخداع.

من تجربتي الخاصة في المؤتمرات الدولية يهيمن مندوبو أمريكا والاتحاد السوفياتي على المداولات، ويصبح وجود المندوبين الأوربيين، أو العرب أو الأسيويين ثانويا يكاد لا يتجاوز وضع الملاحظ. فالكبير مع كبير آخر يتكلمان نفس اللغة ويرميان الى نفس الأهداف.

إن التقارب الأمريكي السوفياتي تتحكم فيه أيضا عوامل روحية وثقافية. ان الحضارة السوفياتية سواء من حيث الانتاج الفكري أو الفني أو العلمي حضارة أساسها المسيحية والتراث الإغريقي الروماني، وذلك أمر مشترك مع الحضارة الأمريكية مما يدعم التقارب والتفاهم في إطار التعاون الثنائي والإجهاز على بقية العالم، بحيث تستغل الدولتان وحدهما خيرات العالم مما يوجب توزيعا جديدا لهاته الخيرات. إن التحليل الديمغرافي لسكان العالم يتوقع أن نسبة سكان الغرب بالمقارنة مع مجموع سكان المعمور ستكون سنة 2040 : 10٪ فهل يعقل أن تستولي نسبة 10٪ من سكان المعمور على 80٪ من منتوجات الكرة الأرضية؟

إن إعادة توزيع استغلال خيرات الكرة الأرضية سيكون أمرا ضروريا اذا أخذنا بعين الاعتبار متغيرا مستقبليا آخر وهو أن حظ العالم الثالث من العلماء سيكون أهم عدديا في السنوات القليلة المقبلة،

ستبلغ نسبة حاملي الشهادات العليا ما فوق الدكتوراه في العالم الثالث أكثر من 55٪ من حاملي نفس الشهادات في العالم. وأغلب أفراد تلك النسبة سيكون من العاملين في الجامعات الغربية. وقد بدأنا نلاحظ اليوم أن إنتاج التجهيزات المتوسطة الأحجام ينجزها أشخاص من العالم الثالث (كوريا - الهند - البرازيل - العرب...) أي أن 80٪من الإعلاميات في أمريكا ينتجها خبراء من خارج الولايات المتحدة. ولعلمكم فإن وزارة العمل الامريكية اشارت في تقرير لها صدر سنة 1986 أن نسبة 51٪ من حملة الشهادات الجامعية العليا (PHD) هم من غير الأمريكيين، بمعنى أن أقل من نصف طلبة الشهادات العليا يتابعون دراساتهم على نفقة الحكومة الامريكية وأكثر من النصف تصرف عليهم دولهم مثل الإمارات العربية والمغرب وإيران وتركيا والهند.. ولا تحتاج الحكومة الأمريكية الا الى 60٪ من الأطباء الأمريكيين لأنها متيقنة بأن نسبة 40٪ الباقية من الاطباء سيأتون من خارج البلاد (من البرازيل والمكسيك والهند وإيران...إلخ).

أما في البلاد العربية فنتحدث بلغة الأزمة، أي بطالة الخريجين، فلماذا التكوين والحالة أن مناصب الشغل محدودة ان لم تكن منعدمة. مرد ذلك الى عيب في النظام الاقتصادي، فالنظام الذي لا يستطيع تشغيل خريجيه هو نظام متخلف أي أنه عاجز عن استخدام خبراته.

حصيلة هذا التحليل أن الغرب بدأ يستشعر بدوره بالأزمة، فمن جهة يكبر عدد المتخرجين من دول العالم الثالث، ومن جهة أخرى يكبر عدد الجاليات الأجنبية من العالم الثالث في الغرب، وهي جاليات تحمل معها عوائدها وقيمها وأنماط عيشها مما يؤثر على المجتمع الغربي في المدى القريب والبعيد. حصل مثل هذا عندما استقر الاسكندنافيون والانجليز بأمريكا في المراحل الأولى.

مفيد، إذن، أن نقوم بدراسات مستقبلية حول أوضاع الدول الكبرى. وقد بينت بعض هذه الدراسات المنجزة بالفعل أنه في سنة 2045 سوف تصبح اللغة الإسبانية هي أكثر اللغات استعمالا في الولايات المتحدة الامريكية، مما سيلزم الحكومة الامريكية بأن تحرر الوثاق الإدارية باللغتين الانجليزية والاسبانية. ومما يعزز هذه التوقعات أن النمو الديمغرافي للإسبان والمكسيكيين والبورتوريكيين سيزداد في الولايات المتحدة بنسبة تقرب من 3، في حين أن النمو الديمغرافي للأمريكين لن يتعدى 1.4.إنها أرقام تبين أن الغرب دخل مرحلة تحولات جذرية، وهذا يدفعهم الى ابتداع آلية دفاع لتأخير المحظور بتولي أمور مستقبل دول العالم الثالث، بل وأصبح هذا التدخل عنصرا في الاستراتيجيات الدولية.

دورنا نحن كثالثيين أن ننتبه لخطورة هذا التدخل فنتدارك الموقف ونأخذ أمورنا بأيدينا. إذا إردنا المحافظة على ثقافتنا وذاتيتنا وهويتنا، يجب أن تكون الرؤية رؤيتنا، الحلم حلمنا والخلق خلقنا والإبداع إبداعنا، علينا أن نتغلب على مركب النقص. أستخلص من خبرتي الطويلة أنه ليس هناك ميدان تقني إلا وفيه

خبير عربي بنفس المستوى الجيد للخبير غير العربي إن لم يفقه. خبراؤنا العرب معروفون ومع ذلك مازلنا نستعين بالأجانب. هناك خبير دولي تربطني به صداقة متينة وهو الأستاذ (توفولور)، فجزء هام من الدراسات التي يعهد بها اليه يقوم بها خبراء محليون على دراية وتكوين كبيرين ويحسنون المنهجية والعمل الحسابي والقيام بمقاربة المعلومات واستخراج الاحصائيات الدالة التي تطلب الرجوع الى ٢٠ سنة وراء و١٥سنة أماما، مما يتيح تركيب (سيناريوهات) لما يحتمل وقوعه من تطورات. إنها مهام تستوجب تكوينا متينا وعاليا، وما يقال عن الدراسات المستقبلية يقال عن ميادين التكنولوجيات المتقدمة مثل : البيوتكنولوجيا والطاقات الجديدة والإعلاميات وتقنيات التواصل ..الخ.

أعود فأؤكد مرة أخرى أن الخبرة العربية موجودة في كل مجالات العلوم والتكنولوجيا، والواجب الآن هو الاستفادة منها في الإعداد لمستقبلنا. وأرى أن هذه الندوة الدبلوماسية المنعقدة بـ «أبو ضبي» والمتخصصة في المستقبليات العربية جد هامة ويجب أن تتحول إلى تقليد من شأنه أن يراكم المحصلات فيحدث التغيير النظري تغيير الرؤية من عفوية التحليل إلى المعالجة المعمقة النافذة الى جوهر الموضوع أي المستقبل المأمول.

أنتقل الآن الى موضوع آخر له أهميته القصوى لتحقيق التقدم ألا وهو المشاركة السياسية للمواطنين ففي غياب الديمقراطية والتربية السياسية من غير الممكن أن ندخل القرن الواحد والعشرين وحالتنا جيدة. الحقيقة المرة أن وطننا العربي - أقررنا بذلك أم لا - يعتبر من أكثر المناطق تأخرا في ميدان احترام الحريات الأساسية وحقوق الإنسان بما فيها حقوق المرأة. إن غياب المرأة العربية أو تهميشها أمر ملحوظ، ويكفي أن نلقي نظرة على هذه القاعة، فبين الحضور سيدة أو سيدتان، علما بأن نصف البشرية من النساء. إنها ظاهرة منتشرة في دول المشرق العربي والمغرب العربي، ويحتاج تغييرها الى وقت ليس بالقصير. من الخطإ القول بأن السبب في ذلك مرده الإسلام، إن هذا الدين الحنيف أولى للمرأة من الواجبات والحقوق مما جعلها شقيقة الرجل في الأحكام وأتاح لها الفرصة للقيام بأدوار مشرفة. ناهيكم بالدور الذي قامت به نساء النبي صلى الله عليه وسلم. لابد إذن من أن تتاح الفرصة لجميع المواطنين والمواطنات للمشاركة في كل الأعمال فلا يترك أمر اتخاذ القرارات الى فئة محدودة جدا من السكان لا تتجاوز على الأكثر 5٪. إذ كيف تعطى هذه الفئة لنفسها الحق في تقرير مصير أمة بأكملها؟

من الفئات المهملة في مجتمعاتنا العربية : الشباب، الجيل الصاعد. إنني أتحدى أي زعيم سياسي اليوم في العالم العربي ممن يبلغ عمره أكثر من 40 سنة أن يجلس مع الطلبة ولو لساعة واحدة بهدف التعرف على أوضاعهم وآرائهم ومواقفهم وفتح النقاش معهم، علما بأن 50٪ من سكان العالم العربي من

الشباب الذين تقل أعمارهم عن 20 سنة، وأن نسبة 70٪ تقل أعمارهم عن 30 سنة. هذه النسبة الهائلة لا حق لها في الكلام ولا المشاركة في الانتخابات أو الاستفتاءات. إن الزعماء والحكام العرب يسيرون أمور الدول وكأنها شركة دون اهتمام بأكثرية المساهمين. فلمن نهيء المستقبل؟ وبأي حق نقرر مستقبل الأجيال الصاعدة نيابة عنها؟ لماذا نحتج على الغرب عندما ينوب عنا في اتخاذ القرارات المتعلقة بنا وبسيادتنا ونحن ننكر على الشباب الحق في التعبير عن آرائه والاهتمام بمستقبله؟ من زاوية النظر هاته أرى أن أهم الدراسات المستقبلية التي أجريت في العالم العربي كانت حول القيم التي تخص الشباب الذين تقل أعمارهم عن 30 سنة.

لا أدعي أن هذه الظاهرة خاصة بالعالم العربي بل هي عامة بالنسبة لكل دول المعمور. يرجع البعض أسباب ذلك إلى طغيان المادة وتأثير الالة. الواجب إذن هو الإصغاء إلى الجيل الصاعد في اتجاه التطلع الي المستقبل الأفضل، بل صياغة هذا المستقبل في تنبؤات وتوقعات. ليس هناك ما يمنع ذلك في عالمنا العربي الإسلامي، إن الإسلام كدين يمنعنا عن الرجم بالغيب، ولكن لا يمنعنا عن التطلع الى المستقبل. إن الغيب مفهوم ديني لا يعلمه إلا الله، ولكن التفكير في المستقبل أمر مشروع، بل وهبنا الله الوسائل لكي نبني المجتمع وفق الصورة التي نريد وبما يتماشى ومنطق التقدم. أنا لا أقلل من دور الرجعيين الذين يقفون في وجه كل إرادة في التغيير، ولكن الإسلام يتضمن قيما تحض على العمل والاجتهاد والتقدم بما هو كفيل بمواجهة كل تفكير يعاكس حركة التاريخ.

إن مشكلة الجيل الصاعد أنه لا يملك روحا نضالية في العمل، باستثناء ما يحدث الآن داخل الأراضي المغتصبة من فلسطين، من خلال انتفاضة الحجارة، إن الجيل الصاعد يعيش في فراغ روحي وقيمي وأخلاقي، ولا يمكن لجيل الناضجين الكبار أن يجعل من نفسه نموذجا يحتذى، لأن منطق العصر هو منطق التغيير والتجدد. ولا بديل عن هذا المنطق في حدود احترام قيم الاسلام وتعاليمه السمحاء،

أنتقل الآن إلى الحديث عن التكنولوجيات الجديدة أو العالية أو المتقدمة، وهي تغطي ميادين خمسة:

1 - الإعلاميات (بما فيها الكمبيوتر)

2 - التكنولوجيا الخاصة بدراسة الحياة

3 - علوم الفضاء

4 - التجارب الخاصة بالمواد الجديدة

5 - الثورة الإعلامية.

ومفيد هنا أن نستشير لغة الأرقام لنتمثل أهمية القطاعات الجديدة. ففي سنة 1980 بلغ مجموع

الانتاج الصناعي والتجاري في قطاع المعلوميات (Informatique) 200 مليار دولار، وفي سنة 1987 بلغ المجموع 400 مليار دولار، وتقول التقديرات بالنسبة لسنة 2000 بأن المجموع سيصل الى ألف مليار دولار حسب توقعات المنظمة الدولية للتجارة والإنماء لسنة 1999. في أمريكا وحدها 60٪ من الدخل القومي يأتي من قطاع المعلوميات ووسائل الاتصال والإعلام وقطاع الخدمات، وهي قطاعات تشغل في أمريكا وفي أوربا من الوظائف ما يناهز 55٪.

ونظرا لحداثة وظائف القطاعات الجديدة لم تجد المجتمعات الغربية الأطر الكافية للقيام بها رغم انتشار البطالة، لدرجة أن مدير شركة (سيمنس) صرح مؤخرا في واحد من اجتماعات المجلس الإداري للشركة «ان 80٪ من المواد التي ستروجها الشركة ابتداء من سنة 1990 لم تخرج بعد من المختبرات» هذا يعني أن هذه الشركة ملزمة خلال السنتين المقبلتين أن تجدد 80٪ من البضائع الموجودة في السوق، بما فيها بضائع القطاع الإعلامي. إنها إشارة واضحة إلى تسارع التغير في زماننا هذا.

وفي إسبانيا التي التحقت بركب الدول المتقدمة قامت وزارة التعليم فيها بدراسة خاصة بالتعليم العالي تبين من خلالها أن 70٪ من الوظائف التي ستعرفها سوق سنة 2000 لا توجد لها جامعة أو معهد تدريب لتكوين أطرها. إنها حالة قابلة للتعميم بالنسبة لكل دول العالم، أي أنه في سنة 2000 (أي بعد 12 سنة) ستنشأ وظائف جديدة مما سيجر الى فجوة بين التقدم العلمي والتكنولوجي من جهة وإمكانيات المجتمع لاستيعاب هذه التطورات من جهة أخرى. هذا الأمر يستلزم تخطيطا للسنوات العشر المقبلة. عندما أحس الرئيس كيندي أن الاتحاد السوفياتي يحقق تقدما في مجال غزو الفضاء اتخذ قراره السياسي بأنه بعد عشر سنوات يجب أن يمشي أمريكي فوق سطح القمر، مع العلم أن كيندي لا يملك خبرة في علم الفضاء. وبالفعل درس العلماء القرار وأعدوا خططا علمية لتحقيقه خلال مدد مختلفة وقدروا لكل مدة تكاليفها وترك اختيار الخطة الأنسب الى الرئيس. ولم تمر عشر سنوات حتى نزل رائد الفضاء (نيل أرمسترونغ) على سطح القمر فتحقق الحلم.

هذا المثال يعني أن موضوع المستقبل ليس حكرا على الخبراء والعلماء والفنانين، ولكنه موضوع يتعلق أولا وقبل كل شيء بأصحاب القرار السياسي الذين يمتلكون رؤيا، ويريدون للوطن أن يكون سباقا في المجالات الحضارية. أما في وطننا العربي فنحن تحت رحمة الظروف، قصارى ما يأمله بعض المسؤولين عندنا أن يضمن لهم خمس سنوات من الاستقرار ولتؤخذ خيرات البلاد كلها، لكن من حسن الحظ أن لدينا مسؤولين يحبون بلدانهم ويغارون عليها، وهم الذين يشكلون اليوم نواة الفريق المبادر للقيام بدراسات مستقبلية في ظل تكتل عربي شامل على غرار المبادرة التاريخية للرئيس (فرانسوا ميتران) عندما دعا الى

اجتماع فرساي، لسنة 1987، فكان منطلق المشروع الوحدوي لأوربا في ميادين التكنولوجيا الجديدة (مشروع أوريكا) وفي الميادين الاقتصادية والسياسية، ويغطي مجموع 19 دولة.

ربما يتساءل البعض لماذا أقحمت موضوع الوحدة في مجال الدراسات المستقبلية؟ لأن التكنولوجيات الجديدة تستوجب سوقا استهلاكية كبرى لا يقل عدد سكانها عن 100 مليون شخص، بدون سوق من هذا الحجم ليس بالمستطاع إنتاج شبه كمبيوتر ولا ترويج هذا المنتوج بما يضمن تسديد النفقات وتحقيق الأرباح.

إن كل ما أؤكد عليه أن الدخول في عصر التكنولوجيات الجديدة كمبدعين ومنتجين لا مستهلكين فقط يحتم الاندماج الاقتصادي في عالمنا العربي، لدينا في «مجلس التعاون الخليجي» النموذج الذي يجب أن يحتذى مرحليا في مناطق عربية أخرى مثل المغرب العربي ووادي النيل والهلال الخصيب. إن الإندماج الاقتصادي للدخول في مجتمع التكنولوجيات الجديدة يجعل العمل الوحدوي ضرورة للبقاء والاستمرار وليس عاطفة جياشة كما كان عليه الأمر في الخمسينات. عناصر الوحدة لم تعد اللغة ولا الماضي المشترك ولا القيم والعقيدة فقط، وإنما أصبحت قضية حتمية اقتصادية أيضا. فإما أن نواجه تحديات العصر وإما أن نتحول إلى لعبة في يد (البيت الأبيض) أو (الصين) أو (روسيا) أو (الكرملين)...

ما أظن أن أحدا يستطيع أن يخالف هذا التحليل أو يرفضه، فضعفنا الآن هو في تشتتنا، فلنبدأ في تحقيق الاندماج ولو بواسطة تكتلات جهوية بإبداع النماذج الأنسب للمعطيات الموضوعية والبشرية.

أستطيع أن أصرح أمامكم، وقد بلغ بي تحليل الأوضاع العربية الى ما عرضته عليكم من معطيات وحقائق وأرقام. إني متفائل جدا على المدى البعيد (نهاية القرن الحالي)، لأن العالم العربي بدأ يتحرك منذ 1985 في الاتجاه الأصوب. هذا لا يعني أنه لم يرتكب أخطاء في الماضي ولا ترتكب في الحاضر، وسوف يأتي وقت لمحاسبة مرتكبي هذه الأخطاء، إلا أن الواجب الآن هو محاولة تجاوز الأخطاء وبذر الوعي بضرورة التغيير في الأذهان أولا ثم في الواقع ثانيا اعتمادا على =رؤيا واضحة وتخطيط محكم يكفل تحقيق الاحلام والمطامح.

نريد لعالمنا العربي أن يدخل القرن الواحد والعشرين في حالة جيدة، ولن يكون ذلك ممكنا إلا بفتح باب الاجتهاد وتجاوز التقليد الأعمى وعبادة النصوص والأوراق الصفراء. إن التغني بأمجاد الماضي لا يكفي، بل لا بد من مواجهة الحقائق والأوضاع الراهنة وما هي عليه، لتكون الوثبة ممكنة وواقعية.

لا ينبغي أن تتعلق هممنا بالأوهام التي تدفع بنا الى الاتكال على الغير لتحقيق إقلاعتنا الحضارية، ولا حتى على خداع الحوار الحضاري بين الشمال الجنوب الذي أرفضه وأقاطع اجتماعاته، بل وقاطعت

حتى الصياغة الجديدة التي أدخلها (جيسكار ديستانغ) على الحوار فجعل منه حوارا ثلاثيا (تريلوج) عندما قال «يمتلك الغرب الأفكار والعرب الأموال والأفارقة المواد الخام» لقد حاربت هذه الأفكار في عقر دارها وأنا أقيم آنئذ بباريس.

إن الشمال يهدف إلى استغلال خيرات الجنوب والحالة أن الدراسات الاستطلاعية تؤكد أنه في سنة 2050 سوف يشكل سكان الشمال 10٪ من مجموع سكان العالم، بل قد تنزل هذه النسبة إلى 8٪. في ظل هذا التعداد لن يكون الحوار متكافئا، وبالتالي سنسقط في استغلال الاقلية لخيرات الأغلبية مهما حسنت النيات.

كمؤشر على مواقف الشمال المتخاذلة يكفي أن نلاحظ ما يجري بالنسبة للقضية الفلسطينية : تبث محطات التلفزيون يوميا صور الانتفاضة وما يعاني الفلسطينيون فيها من التنكيل والتعذيب والتقتيل، ومع ذلك لا يحرك الشمال ساكنا سوى تحريك الكاميرا للفرجة، أنا على يقين أنه في عمق النفوس تحدث أشياء وتتفاعل مواقف، ولكن لا يجرؤ الشمالي على الإفصاح عنها، وسيأتي يوم تستيقظ فيه الضمائر، ستكون مواقف من هذا القبيل امتحانا عسيرا للاحتفال الذي تنوي فرنسا القيام به سنة 1989 بمناسبة مرور قرنين على «إعلان حقوق الإنسان»، وقد دعيت للمشاركة في هذا الاحتفال من خارج فرنسا، حيث طلبت مني المساهمة في دراسة مستقبل حقوق الإنسان.

أريد أن أنهي حديثي بملاحظة أعتبرها على جانب كبير من الأهمية وهي أن من شروط نهوضنا العربي التشبث بديننا الحنيف لندرأ السقوط في ما وقع فيه الغرب من أزمات روحية وقيمية، فالإنسان لا يعيش بالمال وحده بل هو في حاجة إلى المادة والروح معا، إن التشبث بالإسلام أمر يفرضه تعداد المسلمين في سنة 1988 مليار نسمة وسيصل هذا التعداد سنة 2000 إلى مليار ونصف وسنة 1015 مليارين وفي سنة 2050 : 5 مليارات، أليست هذه أرقام دالة على القوة التي ستكون للإسلام في آفاق القرن الواحد والعشرين؟.

إن المستقبل الإسلامي والعربي لا يمكنه أن يكون في مستوى ما تنشده الشعوب الرسلامية إلا بتحقيق ديمقراطية مبنية على التوزيع العادل للثروات وعلى المشاركة في تسيير هذه الثروات وترشيدها لصالح الأمة، وهو أمر لا يمكن تحقيقه من جهة إلا بتعزيز قيم حقوق الانسان باحترام الحريات الفردية والجماعية وبنبذ الإقليمية التي لا يمكنها إلا أن تعوق دخولنا للقرن 21 الذي لا يمكنه بأي حال من الأحوال السماح لنا بفرض أنفسنا كقوة بمجموعات بشرية متفرقة، إن الانغلاق على العرب وحدهم كمجموعة لا يمكنه أن يكون إلا اجترارا لما خلفه الاستعمار بتعزيز الفرقة والضعف في القوة البشرية، ولعل واقع البلقنة

الذي تعيشه أمتنا أكبر دليل على ما تشكو منه شعوبنا فيما بينها أو في علاقتها مع الغرب.

أما الجانب الثاني فهو ضرورة تطوير قدراتنا العلمية والتكنولوجية. إن النفط لا يمكنه إلا أن يكون سلاحا ضدنا ما لم نجعله سبيلا لبناء سياسة علمية وإعلامية مستقلة الذات، لأننا دون ذلك نظل في تبعية مقننة للغرب الاستعماري، ولعل استجلاب أقمار صناعية دون فهم أهدافها أو دون تهييء شروط العمل بها لا يختلف عن استجلاب لعبة للأطفال، ويظهر نفس المشكل على مستوى التسلح الذي تطعمه وتدعمه الدول الغربية داخل منطقتنا، بإذكاء النزاعات المسلحة قصد ضمان وجودها وحماية مصالحها، وكذا لتحويل مجتمعاتنا الى حقل للتجارب كما حدث فعلا خلال حرب الخليج العراقية الإيرانية التي لم تكن إلا محاولة لتجريب بعض المخترعات العسكرية وتطويرها، كما هو شأن صواريخ "سكود" التي استجلبت خلال هذه الحرب قصد قياس قدرتها على التطور في سرعتها وفي طول امتداداتها حسب قيم الأوزان التي تقلص منها، لكن لم يكن يسمح مصدرو هذه الصواريخ باستعمالها إلا طبقا لتعليماتهم هم أو من طرف عسكريين تقنيين غربيين تابعين لهم، حتى لا تتوجه يوما نحو إسرائيل بدل طهران. وتأكدوا أنه في اليوم الذي سيدرك فيه الغرب تعطل رقابته على سير أهدافه، فإنه سيعمل كل الوسائل لحماية تفوقه وقوته ومصالحه، لأن الغرب يدرك مخاطر وحدتنا، ولذلك نراه يسخر كل شيء للحيلولة دون ذلك.

(*) محاضرة ألقيت بـ" أبوظبي" في 1988/3/14 في إطار الموسم الثقافي السنوي لوزارة خارجية الإمارت العربية المتحدة.

SITUATION CULTURELLE DU MONDE ARABE DANS LE MONDE DE DEMAIN,
United Arab Emirates,Ministry of Foreign Affairs,
Annual Cycle of Conferences, Abu Dhabi, 88/03/14
Arabic

GULF NEWS, 03/05/1988.

- الخليج. أبو ظبي، 1988/03/15. و 1988/03/16.
- أبعاد فكرية، عدد 1، يناير 1989، الرباط.
- الإتحاد، أبو ظبي، 1988/03/15.

الاعلام الى اين ؟

قبل كل شيء ماذا يشمل مفهوم الإعلام؟

إنه يشمل كل وسائل المعرفة: الصوت، والكلمة ، والصورة ، والمعلومات، والإشارات الإلكترونية ... وحتى الادراكات الحسية، فالاعلام هو المادة الاولية للمعرفة باعتبار أن المعرفة إعلام قد تم تركيبه وتأليفه حسب تصور معين.

فالتقدم العلمي المسجل في مجالي فيزيولوجيا الجهاز العصبي وعلم الوراثة الاحيائي يبين لنا أن الحياة ذاتها تشكل (أساسا) حاصلة معالجة مجموعة من المعلومات طبق برامج أعدت بكامل الدقة.

ومن جهة أخرى، نلاحظ وجود ترابط وثيق بين عمليتي امتصاص الطاقة وتحويلها وإنتاج الاعلام وتحويله أيضا.

فالاعلام هو ثروة الثروات، بل هو الثروة التي ترتبط بها كل الثروات الأخرى، لأنه هو الذي يمكن من تحديد نوعها وتقييمها واستغلالها، إن الاعلام -كما أفصح عن ذلك "غريغوري باتسن" GREGORY BATESON هو "التباين الذي يصنع التباين"، فليس من العجيب إذن أن يكون في نفس الوقت معين السلطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وأداتها، وذلك على المستوى الوطني الدولي.

والجدير بالملاحظة أن الاعلام كان دائما وفي كل عصر كذلك، لأن المحيط الذي يعمل فيه هذا الاعلام هو الذي غير الحياة كلها وبدلها في هذا الكوكب.

إلى أين يتجه الإعلام؟ إنه يتجه حاليا إلى تحويل مجتمع الانتاج الصناعي إلى مجتمع إعلام ومعرفة، وقد أخذ جزء من العالم يقطع هذه المرحلة الجديدة من تطور الجنس البشري، وهي مرحلة سماها "تفلر" ؤظمعععيئ بالموجة الثالثة أو الجيل الثالث، بينما لا تزال الأغلبية الساحقة من الناس تتخبط في المرحلة الثانية أو الجيل الثاني، جيل التصنيع.

إن بداية تاريخ مجتمع الاعلام تعود إلى عام 1956، عندما تجاوز في الولايات المتحدة الأمريكية عدد الأشخاص المستخدمين في قطاع الخدمات المهتم بالاعلام عدد المستخدمين في قطاعات الانتاج .

(*) 1983

وقد فتح إطلاق "سبوتنيك" (القمر الصناعي السوفياتي) عهد الاتصال الشامل عن طريق الأقمار الصناعية، وهو لعمري حدث أهم بكثير من غزو الفضاء.

إلى أين يتجه الإعلام ؟ إنه يمثل في الفترة الراهنة السبب الرئيسي في التفاوت المتزايد القائم بين الشمال والجنوب، والملاحظ هنا هو أن التباينات لم تبلغ في أي قطاع آخر ما بلغته من عمق في هذا القطاع بالذات، والأدلة متوفرة لتشهد على ذلك، نذكر منها المكتبات العمومية والمجلدات الموجودة بها، وعدد العناوين المنشورة ، ومراكز التوثيق، وبنوك المعلومات، وأجهزة الهاتف والإذاعة والتلفزيون، والعقول الإلكترونية، والأقمار الصناعية ... وغيرها .

ولعل غياب الاستراتيجيات والسياسات ببلدان العالم الثالث في مجال الإعلام باعتباره ثورة اقتصادية واجتماعية وثقافية يمثل سببا من أهم أسباب أزمة النمو وهشاشتها بالنظر إلى البلدان المصنعة، وعلى هذا الأساس أصبح الإعلام مصدر تفاوت وتسلط سياسي وتفوق عسكري وهيمنة اقتصادية وثقافية.

وتقدر مردودية الاستثمار في المجال الإعلامي حاليا بحوالي 15٪ بينما لم تكن قبل ثلاثين عاما (خلت) إلا حوالي 4 أو 5٪، وبالمقابل فإن مردودية رأس المال قد حل محل الموارد الطبيعية قبل مائتي عام من هذا التاريخ، على أنه للأسف، يجب ألا نقتصر في هذا الإطار على ذكر الجوانب الايجابية فقط، فللثورة الاعلامية خطيئتها الاصلية، ذلك أنها مدينة إلى حد كبير للبحوث المجراة في المجالات الحربية، وهي مسألة تثير مشاكل من نوع جديد قد يعسر بحثها بوجه ملائم في حدود الظرف الذي تفرضه علينا طبيعة هذه الندوة الضيقة، ولذا فليس بإمكاننا الآن إلا أن نستعرض بعض المظاهر التي تستحق عناية متواصلة، إذا أردنا أن تساهم هذه الثورة في ازدهار الانسان وتفتحه وتحريره لا في اختناقه وكبته، وفي هذا الاتجاه نذكر:

- المشاكل الاخلاقية (حقوق الانسان)
- المشاكل المتعلقة بالواجبات الزوجية (الحياة الخاصة)
- المشاكل القانونية (تدفق المعلومات عبر الحدود)
- المشاكل الثقافية (التنوع الثقافي والذاتية الثقافية)
- المشاكل السياسية (ديمقرطة الإعلام)
- المشاكل الاجتماعية (ملاءمة الاعلام للمجتمع)

ويتضح من كل ما سبق أن الاعلام يشكل عنصرا أساسيا في عملية للتغيير لان التغيير ليس إلا

تحولا ناجما عن إسهام جديد في مجال المعلومات أو متولد عن معالجة مغايرة للمعلومات المتوفرة، وهكذا فإن الاعلام هو السلاح الذي يمكن من حصر رقعة الجهل وتبرير إعادة طرح معارفنا على بساط البحث، إلى جانب تسريع معدل البطلان.

ولهذا فإن الاعلام يشكل عنصرا اساسيا في عملية التغير، لان التغير ليس إلا تحولا ناجما عن إسهام جديد في مجال المعلومات أو متولدا عن معالجة مغايرة للمعلومات المتوفرة، وهكذا فإن الاعلام هو السلاح الذي يمكن من حصر رقعة الجهل وتبرير إعادة طرح معارفنا على بساط البحث، إلى جانب تسريع معدل البطلان.

وفضلا عن ذلك كله فإن للإعلام خاصية ينفرد بها وهي أن إبلاغه أو تبليغه لا يشكو من أي ضغط على الصعيدين الزمني والمكاني، ثم إنه الثروة الوحيدة التي تنمو بالاستغلال المشترك.

وخلاصة القول فإن التخلف قد لا يكون إلا نتيجة العجز عن ابتكار الاعلام المنتج وحاصلة العجز عن معالجته بوجه محكم وتحديثه وتغييره بانتظام وتوزيعه بعدالة.

فالإعلام -وهو أبعد من ان يمثل مشكلا بسيطا في نظر التقنيين والخبراء - صار يشكل - وسوف يكون كذلك مستقبلا - مسألة سياسية هامة، كما أنه سوف يحتل طليعة المحددات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي يقوم عليها كل تصور يتعلق برسم مشروع إقامة أي مجتمع جديد.

فإلى أين يتجه الاعلام ؟ - إلى حيث تقوده الادارة السياسية، وفي هذا المستوى يتراوح معدل الفوارق بين البلدان المتقدمة وبلدان العام الثالث من 20 إلى 1 وهو معدل يمكن أن يصل - حسب الاتجاهات الحالية - إلى خمسين مقابل واحد في موفى هذا القرن (عام 2000).

ويمثل الانفجار الاعلامي ظاهرة استدلالية ليست بيسيرة الادراك، واستدلالا على ذلك يكفي أن نتناول مثال الاعلام العالمي، ففي هذا الصدد يرى الاستاذ نيل مظظه الحاصل على جائزة نوبل مظصيه أن حجم المنشورات العلمية سوف يفوق في سنة 1985 وحدها كل ما نشر أثناء الفترة الممتدة بين عصر النهضة وعام 1976، في حين يذهب سكرايب إلى القول بأن طاقة استيعاب الاعلام العادية للفرد الواحد تقدر بحوالي ثمانين (80) ألف معلومة يوميا.

وفي هذا السياق يجب ان نشير إلى ان الاشخاص في البلدان المصنعة معرضون لاستقبال مائتي ألف معلومة في اليوم الواحد، وفضلا عن ذلك فقد ارتفعت طاقة معالجة الاعلام بالنسبة للسنتمتر المكعب

الواحد في اجهزة تسجيل الحاسبات الالكترونية، بمليار مرة 30 عاما، بينما انخفضت تكلفة معالجة الاعلام ومدتها بصورة مذهلة، ذلك ان معالجة مليون عملية إعلامية أصبحت تكلف 06.0 دولار، وتستغرق نصف ثانية، بعدما كانت تستغرق عشر دقائق بتكلفة تقدر بثلاثمائة (300) دولار، وهكذا فإن سعر التكلفة قد انخفض بـ 30 ألف مرة عما كان عليه في السابق، وأصبحت مدة المعالجة أقل بـ 12000 مرة.

وفي هذا الاطار يجدر أن نشير إلى أن الولايات المتحدة الامريكية تنتج أكثر من مليون ناظم آلي صغير في اليوم الواحد، وقد ساعد تظافر العوامل الثلاثة الآتية المتمثلة في الزيادة الكمية للإعلام والنمو النوعي للمعلومات والتطور المذهل لطاقة معالجة الاعلام على توزيع جديد أثرى الأثرياء وأفقر الفقراء بصورة أكثر إضرارا وأشد تعقيدا من توزيع رأس المال توزيعا متفاوتا.

وبخصوص جغرافية الاعلام فإنه يحتم علينا أن نعمل الكثير بشكل كلي وشامل، إذ بإمكانها أن توضح لنا بصورة أفضل من الاحصائيات الوطنية ودلائل المنظمات العالمية شكلية العلاقات بين الشمال والجنوب وتفاوت النمو بينهما.

OU VA L'INFORMATION?
Table Ronde, Société Marocaine de Philisophie, Rabat, 83/02/02
Français, Arabic
ALMAGHRIB, 83/02/11; L'OPINION, 83/02/18; SINDIBAD, #10; 83/02/15; JEUNE AFRIQUE, # 1160, 83/30/30, France, DEMOCRATIE, Tunis, 63/04; LAMALIF, 83/10, Maroc; IFDA, # 36; 83 /07; Suisse; FUTURIBLES, #74, 84/02, Paris

– الميثاق الوطني" ، 13 - 11 - 1983

الإعلام وسقوط مفهوم السيادة" (*)

تشهد المجموعة البشرية اليوم بداية أكبر تطور في تاريخها، إذ صارت الحضارة الصناعية تتحول بسرعة الى حضارة معرفة وإعلام. وهو تحول جذري لاحت تباشيره بكل وضوح في البلدان العالية التصنيع، التي تولي أهمية استراتيجية لتطوير البحث العلمي والتقنيات الريادية : إعلامية، تنقيل المعلومات، بربوتيكا، تقنلوجيا احيائية، هندسة جينية، كيمياء جزئية، الخ.. وهي البلدان التي تخصص لتلك الأنشطة نسبة 3٪ من إجمالي الناتج القومي... وفيما يجري هذا نجد بلدان العالم الثالث - التي مايزال بها ألف مليون شخص من الأميين، والتي لا تنفق على البحث والانماء من إجمالي ناتجها القومي الهزيل سوى نسبة 0,3٪. آخذة في تلقي ضربات ثورة الإعلام هذه.

الهوة... في تزايد

ويقدر مدى الهوة التي تفصل البلدان النامية عن البلدان المصنعة بنسبة 1 الى 20 تقريبا، ويعتقد أن هذه النسبة يمكن أن تزداد الى نسبة 1 الى 50 بحلول سنة 2000 وذلك بسبب التغيرات البنيوية التي سيذرأ على النظام الدولي والتي ستنتج عن المفاعيل السياسية والاقتصادية والاجتماعية - اتفاقية للتقنلوجيات جديدة ، وخاصة منها تقنلوجيا الاعلام.

هذا الانقلاب الإعلامي ينعكس حتميا على مضمون المفاهيم التي نفحصها هنا : «القدرات الاقتصادية والسيادة». فلن تصبح القدرة الاقتصادية بعد اليوم مقصورة على التعريفات التي تجدها الآن في مصنفات الجغرافيا أو الاقتصادي السياسي. وإذا كانت الموارد الطبيعية ستبقى عاملا أساسيا فإن الموارد البشرية والاعلام والبحث العلمي صارت الآن تكتسي أهمية أكبر. وبدون هاته الأخيرة يستحيل تثمين القدرة الاقتصادية واستخدامها لانجاز نمو حقيقي. وذلك أن نمو البلد لا يتم بنفس الصورة التي يتم بها نمو فدان قمح، وبات النمو، أكثر من أي وقت مضى، يمتد على النمو البشري وعلى التحكم الاجتماعي باختراعات الانسان، وهذا يتطابق تمام التطابق مع أنضمة القيم للمجتمع الاسلامي ومع غائيات الاسلام. فهي الأنظمة التي تولي الشخصية الانسانية مرتبة عناية كبرى.

(*) 1984

إن القدرة الاقتصادية لبلد ما ترتكز قبل كل شيء على الطاقة العقلية للسكان... الله ميز الجنس البشري عن الحيوان والنبات، بأن زوده بجهاز داخلي للاعلام كبير التعقيد يمكنه من الخلق والتفكير، والتحول، وتطرق الارادة، والحكم. وفي آخر التحليل ينحصر هذا العطاء في القدرة على معالجة المعلومات المعقدة على عنصرية جوهريين : المعلومة والنظام الحسابي الذي يعطي هذه المعلومة شكلها ومعناها... ومصادر المعلومة هي : الملاحظة، والاحساس، والبحث، والذاكرتان : الطبيعية والاصطناعية.

أما النظام الحاسبي فهو نتيجة : التفكير، والتجربة، والالهام، والابداع، والخيال والإيمان. وبالنسبة لذوي الارادة الدينية تعتبر النصوص المقدسة تراكمات أنظمة حاسبية. وفي الوقت الراهن لا يتوقف النمو الاقتصادي على استثمار الموارد المادية فحسب بل على التعرفة ومعالجة المعلومة بصورة متزايدة... والا كانت اليابان الحديثة مدينة بقدرتها الاقتصادية على موارد ثرواتها الطبيعية، وفي العالم الثالث العديد من البلدان الغنية بمواردها الطبيعية لكن الفقيرة في العلم، وهي بسبب هذا الفقر، متخلفة النمور وفي قيمنا القارة الافريقية اعتبارا من موادها الخام لعددناها ذات قدرة اقتصادية هائلة، لكن الواقع هو أنها هي القارة الأفقر في العالم.

وإذا حللنا بعمق أكبر مدى الانعكاسات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لثورة الاعلام هذه أدركنا بصورة أفضل كيف أن مفهوم السيادة أصبح في حاجة الى تمويل جديد. وفي البلدان المصنعة يمثل اليوم هذا القطاع الجديد للاعلام والمعرفة والخدمات نسبة 56٪ من إجمالي الناتج القومي لأوروبا العشر، ويشغل نسبة 54٪ من السكان القادرين على الشغل للولايات المتحدة الأمريكية.

إن الإحصائيات التقليدية لحجم نشاط التجارة الخارجية تفسد الصورة التحليلية لحجم التجارة الدولية، وذلك بسبب عدم انسحاب هذه الاحصائيات على ما يدعى ب : «التصديرات غير المرئية». فهذه الاحصائيات تقول أن الميزان التجاري للولايات المتحدة الأمريكية هو عجزي تجاه اليابان، وهو ما ليس صحيحا، إذ أن اليابان كانت لديها تجاه الولايات المتحدة الأمريكية السنة المنصرمة، عجزا مقدراه 18 مليار دولار ناتجا عن «التصديرات غير المرئية» التي تختفي شكليا في صورة خدمات مستوردة من الولايات المتحدة الأمريكية على الخصوص.

النظريات الاقتصادية أصبحت الآن في أزمة، والتحليل الاقتصادي فقد اتجاهه. ولم تعد بنياتنا الذهنية

تحيط في صورة كاملة بمضاعفات ثورة الاعلام هذه.. كم هو عدد الذين يعرفون الآن أن واحدة من تقنلوجيات الاعلام (تلك التي تستخدم الألياف البصرية) ستقلص وحدها، في ميدان الاتصالات البعدية، حجم تصديرات النحاس بنسبة 40٪ قبل حلول سنة 1990؟ وإن منجزات علم هندسة الجينات، والتقنلوجيات الحياتية ستتيح للبلدان المصنعة الاستغناء عن قائمة واسعة من الموارد النباتية التي تستوردها اليوم من بلدان العالم الثالث؟

ونترك الحديث عن الموارد البحرية، كل ذلك يتم نتيجة لضخامة ثورة الاعلام.

ولولا تقنلوجية الاعلام لما ظهرت التقنلوجيات الريادية الأخرى، ولو أننا تركناها جانبا لاستنظمت بقية التقنلوجيات، على أن البلدان المصنعة لا تشكل مجموعة واحدة أمام هذا التغير الجذري الجاري. ويقول السيد ريكاردو بيتريلا، وهو موظف سام لسوق الرابطة الاقتصادية الأوروبية.

«لو حاولنا نحن الأوروبيين رؤية الصورة التي سيكون عليها العالم خلال العقود القادمة، معتمدين في ذلك على تحليل مضاعفات ونتائج التقنلوجيات الجديدة للاعلام فقط، فإننا سنرى صورة مجتمع عالمي توشك فيه بلدان الرابطة خلال العشرين سنة القادمة. على فقدان استمرارها الحياتي بوصفها قوة اقتصادية صناعية ذات استقلال ذاتي».

والعالم الثالث..؟؟

وإذا كان هذا الاحتمال واردا بالنسبة لبلدان أوروبا العشر نفسها فماذا يا ترى سيحل ببلدان العالم الثالث التي ماتزال في واقع الأمر غير مستقلة لا اقتصاديا ولا صناعيا؟ هل ستتعاظم تبعيتها؟ تجاه من؟... إن هذه ليست مجاهيل نظرية، بل هي بؤرة بحثنا هذا.

لم يعد بإمكاننا ـ ونحن في عالم تنمو فيه المعرفة العلمية بوتيرة آسية (مرفوعة القوة).. فحجم كل ما نشر منذ عصر النهضة حتى سنة 1976... لم يعد بإمكاننا الحديث عن قدرة اقتصادية مقتصرين في التقييم على أطنان احتياطي الثروات المنجمية، وضخامة المياه الطبيعية ولاسدود، ومساحة الأراضي المزروعة، وعدد رؤوس الماشية، وكثافة حجم السياح، ونسبة النمو الديمقرافي.

الحاجة الى نماذج نمو أصيلة

وقد أوضحنا أن مفهوم القدرة الاقتصادية لا يجوز أن يحصر في العناصر المادية، فهو يتضمن بدءا عاملا معياريا وثيق الارتباط بنوع التصور الواقع على المجتمعية وبالنمو الذي يراد إنجازه.. وهنا تنكشف

النتائج الكارثية لمنهج المحاكاة الذي تتبعه بلدان العالم الثالث والذي يحول بينها وبين تحديد نماذج نمو أصيلة واعتقاد هذه النماذج يجعل الحديث عن «القدرة الاقتصادية» كلاما مبهما عديم الارتكازات الاجتماعية والأبعاد الثقافية. ويكفي بهذا الصدد ملاحظة الكيفية التي تعمل بها هذه البلدان على تثمين تلك القدرة ضمن النظام الدولي.

فحوار «شمال ـ جنوب» الذي طالما أشيد به هو حوار سجل فشلا على جميع المحاور، وانهار أمام الفروقات التناسقية المشينة التي تميز حاليا نظاما دوليا يتوفر فيه ربع سكان العالم على أزيد من ثلاثة أربا ع الخيرات المادية للكرة الأرضية.

وسواء تعلق الأمر «بالنظام الاقتصادي الدولي الجديد» أو بالمفاوضات الشمولية» أو بالتنمية المشتركة» أو بأي صيغة أخرى من الصيغ التي يروج لها بين الحين والحين. فإن المشكلة باقية هيه هي لأنها مشكلة بنيوية وتصورية، تتجاوز ثمن الموارد الأولية والحواجز الجمركية، والنظام الدولي للنقد، وحتى المديونية العمومية. فالقضية هي بالدرجة الأولى قضية نظام حاسبي أي «سلسلة منطقة وعمليات ترسل الى حل بعض المسائل».

فبحكم فقدان بلدان العالم الثالث المعرفة والعلم والاعلام تحاول هذه البلدان التفاوض مع الشمال مستخدمة النظامات الحاسبية للشمال نفسها، وفي بعض الأحيان تستخدم إعلام الشمال أيضا (إذا وجدته في متناول يدها) وبطبيعة الحال فإن النتيجة ما كانت لتكون سوى وسيلة.

بداية الوعي

على أن مما يثلج الصدر، بعض الاثلاج، أن قمة بلدان حركة عدم الانجياز، لشهر مارس سنة 1983 بدلهي الجديدة، اتفقت في فصل من بيانها الختامي خصص للاعلام وتقنياته على أن :دور الاعلام، بوصفه قدرة اقتصادية، يتجلى بصورة كافية الوضوح إذا اعتبرت الحقائق التالي:

ـ أزيد من نسبة 95٪ من مجموع الاستثمارات في تقنيات علوم الإعلام تتم في بلدان الشمال، والباقي أي 5٪ يتم في بلدان الجنوب.

ـ نفقات البحث والتنمية للشمال في ميدان تقنلوجيات الاعلام تمثل نسبة 98٪ من مجموع النفقات العالمية، بينما تمثل نفقات الجنوب نسبة 2٪ فقط!

ـ تقرير لجنة الأونيسكو ـ التي يرأسها السيد سين ماك برايد ـ شمل إحصائيات مثرية حول تصدير الأمتعة الثقافية مثل النصوص والكتب المطبوعة والتلفزات، والمذياعات، ومسجلات الصوت، ومعدات التصوير الشمسي، ومعدات تسجيل الصور المتحركة ـ وتعتبر أمتعة ثقافية كل من المعلومات وحاملاتها ـ

وأبرز التقرير أن :البلدان النامية تصدر قرابة نسبة 93٪ من المجموع العالمي لهذه الأمتعة، بينما لا تصدر بلدان العالم الثالث سوى نسبة 7٪.

- مردودية رأس المال لا تبلغ اليوم نسبة 5٪، أما الاستثمارات في الاعلام فتعود بأرباح تتراوح نسبتها بين 12 و15٪، وأما المردودية، فيما يخص المواد الخام والمنتجات الأساسية، فهي سالبة، من حيث أن أثمانها الحقيقية يطرد اخفاضها بانتظام ومنهجية.

- أتاح اختراع السفن البخارية وقطار سكة الحديد، في القرن التاسع عشر تنقيل الأمتعة المادية، وإتمام للتجارة والصناعة، أما الآن فبفضل تقنيات الاعلام وتنقيل المعلومات يجري تنقيل الخدمات، وصارت هذه تتصف بالشمولية الدولية وتجاوز حدود الدولة الواحدة بسرعة كبيرة، وتتضمن تعاملات تجارية تنسحب على ملايين الدولارات، وقبل أن يختتم هذا القرن ستبلغ الأحجام المالية لهذه التعاملات مئات ملايين الدولارات.

- إن نمو حجم المعلومات المفرط السرعة، وتزايد المعقدات صار يقلصان الزمن المتوفر لاتخاذ القرارات... ومن هنا تنبع الأهمية الدينامية والاقتصادية للإعلام.

- تحول الاعلام الى عامل انتاجي وقد أوصت لجنة التنمية الاقتصادية لليابان بإدماج تكاليف الاعلام في تكاليف الانتاج الصناعي.

إن تقنيات الاعلام تتيح فرصا هائلة لكل من نمو الذكاء البشري وتحسين الذكاء الاصطناعي. وتزداد يوما بعد يوم أهمية المفاعيل الاقتصادية للتقدمات الحاصلة في هذين المجالين.

وتشكل هذه المعطيات المذكورة بعض المؤشرات الأوضح على تبعية الجنوب للشمال، ولا يمكن إغفال هذه المعطيات أبدا عندما يتعلق الأمر بالحديث عن القدرة الاقتصادية.

وباتت شبكات الاتصال العابرة للحدود تشكل القدرة الاقتصادية الأكثر أهمية والأكثر قيمة بالنسبة للبلدان المصنعة، ذلك أن هذه الشبكات تقوم بدور نقل المعلومات.

وهذه التقنلوجيات الجديدة لم تخرج الإعلام الى نطاق التدويل فقط، بل أخرجته الى نطاق انفلات المعلومات الوطنية الخاصة. وبدأ هذا الانفلات يتخطى القانون الدولي (ملكية المعلومات) وذلك بسبب التخلف الذي أصبح فيه هذا القانون تجاه تسارع ظهور حالات جديدة تفرض نفسها على أرض الواقع. وبالإضافة الى ذلك فإن الأطراف التي تستفيد من وجود هذه الحالات تسعى جهدها لزيادة الفاصل التخلفي بين التقنلوجيا الجارفة. وأبرز صورة لهذه الوضعية المتطرفة هي ضخامة المعطيات العابرة للحدود وتركز السلطة الاعلامية - بفضل توافر بنوك المعطيات - في عدد محصور من البلدان... ولم يستطع بعد حق

السيادة إيجاد وسائل قانونية تنسحب على ظاهرة انفلات المعلومات الوطنية عبر الحدود.

إن أكثر من ثلث حجم تصديرات بلد مثل فرنسا يشتق من أنشطة قطاع الاعلام ومعالجة المعرفة. أما بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية واليابان فإن هذا القطاع يناهز نسبة 50٪.

أبعاد تدفق المعطيات عبر الحدود

وهنا تتجلى بوضوح الأبعاد الخطيرة السياسية والاقتصادية لظاهرة تدفق المعطيات عبر الحدود الترابية الدولية. وإذا كانت السيادة، من الوجهة القانونية، تشمل التحكم بنطاق حركة المعلومات فإن تطبيق هذه السيادة يصطدم بمشكلات هائلة تصورية وقانونية واقتصادية وسياسية... فهناك، بدء، خلط بين ثلاثة مظاهر للقضية شديدة التباين :

1) حرية الاعلام من حيث كونها حقا إنسانيا وحرية عمومية،

2) حق السرية وحماية الحياة الشخصية للمواطنين من تدخل مراكز أرشيفات تقوم بمعالجة معطيات شخصية أو تتجاوز الحد في هذه المعالجة.

3) التقاط وبرمجة وتنقيل معطيات عن طريق ناظمات آلية أو حاملات معلوماتية الى ما وراء الحدود الترابية الوطنية.

أما رجال القانون فلا يتم تدخلهم، بشكل عام، إلا بعد أن تكون الوقائع قد حصلت، اذ ذاك فقط يقومون باستخلاص دروس ينطلقون منها الى تحضير قوانين وطنية ودولية... بينما يتطلب تسارع النمو التقنلوجي وانعكاساته الاقتصادية والاجتماعية - الثقافية، وخاصة في ميدان الاعلام، يتطلب وجود قانون ذي أبعاد آفاقية بحيث يتيح لأية دولة كانت حماية نفسها من بعض عواقب هذا النمو الذي تحتكره قلة من البلدان (بل قلة من الشركات متعددة الجنسة) وفي غياب هذا القانون يكون الواقع السائد هو قانون «الاصطدام مع الأمر الواقع» وقانون «الحق للأقوى».

حتمية الادماج الاقتصادي في منظومات كبرى

الأمر الأكبر صعوبة (والبالغ الاهمية) - الذي لم يلمسه بعد الجنوب لمسا فعليا - هو ان السيادة الوطنية لدولة تتطلب في هذا المجال حدا أدنى من الادماج الاقتصادي. فبدون حد أدنى من الكتلة البشرية - وهو ما ينقص حاليا معظم بلدان العالم الثالث - لا يمكن الاستفادة من ثورة الاعلام هذه. وكل منظومة بشرية يكون مطلوبا لها أن تضم 100 مليون شخص على الاقل. ومن جهة أخرى يكون ضروريا إقامة تعاون جنوب - جنوب حقيقي، وبدون هذا التعاون لا يمكن تصور قيام أي تعاون مشرف بين الشمال والجنوب.

ومما يبشر بالخير قراءة البيان الاقتصادي للمؤتمر السابع لرؤساء دول وحكومات حركة البلدان غير المنحازة، الذي صودق عليه يوم 13 مارس 1983 بدلهي الجديدة، والذي عبر فيه محرروه عن اقتناعهم بـ «لا جدوى محاولة بلد أو مجموعة بلدان بصورة منفردة إيجاد حلول للقضايا الاقتصادية الشاملة الراهنة القائمة بين بلدان نامية وبلدان مصنعة».ان تبادل التبعية داخل المجموعة الكبيرة، على الصعيد الاقتصادي، وهو الآن الضامن الوحيد للسيادة الوطنية لبلدان العالم الثالث.

سقوط مفهوم السيادة التقليدي

إن الفصل الثاني لميثاق هيئة الأمم المتحدة ينص على أن المنظمة تتأسس على مبدأ جوهري للقانون الدولي، ويعتقد السيد «بول روتر»، مثله في ذلك مثل معظم رجال القانون، أن: «السيادة هي التعبير عن حالة محسوسة موصوفة وحيدة هي عدم الوقوع تحت سلسلة من نفس الطبيعة»

لكن عددا من الدول تجد نفسها، بصورة طارئة، مجبرة على التخلي، بشكل اختياري وجماعي، عن بعض صفات سيادتها، تخليا يهدف الى اتاحة حصول تناظم جهوي ودولي يفيد مصلحة تلك السيادة نفسها.

وهناك أمثلة متعددة في هذا المجال : البريد، الهاتف، الطيران المدني، الحماية الصحية، البيئة الطبيعية، العملات الصعبة، الخ... فاتفاقيات الادماج الاقتصادي، مثل تلك السارية بين دول أوروبا العشر - تحد من مجالصسيادة الدول الأعضاء باسم المصلحة الجماعية، وذلك فيما يخص بعض قطاعات النشاط. وفي جميع هذه الحالات ليس هناك مجرد عمل إرادي تقوم به تلك الدول فقط، بل هناك معاملة بالمثل أيضا وتبادل امتيازات وتعريضات.

ما تطرح ثورة الاعلام

والمشاكل التي تطرحها ثورة الاعلام على مسألة تمام السيادة هي مشاكل تتطلب تناظما دولية، الا أن التفاوتات بين البلدان في هذه الحالة، هي من الحدة بحيث تصير مبادىء المعاملة بالمثل والاتفاق الإداري مفرغة من معناهابصورة تامة. بالإضافة الى هذا فإن تقنلوجيات الإعلام الجديدة تغير إحدى أهم ركائز السيادة، وهي التحكم الكامل في أراضي وأجواء التراب الوطني.

إن استخدام الأقمار الاصطناعية غير مدى شمول السيادة للمجال الجوي. فهذه الأقمار تلتقط عددا من المعلومات أكبر بكثير من التي تظهرها خرائط الارصاد الجوية على شاشات التلفزة. وبقطع النظر عن الأهداف العسكرية فإن الأقمار الاصطناعية تنجز عمليات الاستكشاف عن بعد، أي استكشاف الثروات الطبيعية، وتقدير المحاصيل الزراعية اللاحقة. وتسمح هذه الأقمار بالاستفادة من أبناك المعلومات، وترصد

حركات الأشياء والأشخاص بدقة حتى أن بعضها تستطيع أن تلتقط ليلا صورة للوحة تسجيل سيارة... وليست هذه سوى بعض تطبيقات خصائص الأقمار الاصطناعية، فهناك تطبيقات عديدة أخرى قادمة، منها تطبيق سيمكننا ابتداء من سنة 1985 من التقاط جميع المحطات الإذاعية التلفزية للعالم - عن طريق جهاز التقاط (هوائي) بسيط نصف كروي الشكل.

وهل يتسطيع أحد اليوم نفي أن عددا كبيرا من البلدان ذات السيادة واقعة، في ساحة الإعلام، تحت سيطرة قوى أجنبية؟ وأن مراقبة هذه البلدان لسيطرة تلك القوى هي مراقبة ضئيلة المدى قصيرة الفعالية؟ فأين يتم، إذن، تطبيق المعايير القانونية الدولية ومبدأ المعاملة بالمثل والاتفاقيات المتبادلة؟

إن العالم الثالث يمثل مستهلكا خاملا لمنتجات تقنلوجية الاعلام الجديد. ومثل هذا الوضع يتجاوز السيادة الداخلية والخارجية للبلدان، فهو يتعلق بقضية دقيقة وأساسية معا، الا وهي الاستقلال الذاتي والهوية الثقافية للأشخاص.

ولا يتعلق الأمر هنا بكبح التقدم التقنلوجي ولا بإقامة حواجز تعوق حرية مرور المعلومات، فإن ممارسة السيادة لصلاحياتها تجد ميدانا مناسبا على مستوى التحكم بالشؤون الاجتماعية والإدماج الثقافي للتقدمات العلمية التقنلوجية وهو التحكم الذي يجب الاضطلاع به والاحتفاظ به والذي لا يجوز التساهل فيه، بشكل وحيد الجانب، تحت ضغط وتسلط سيادات أخرى.

وسبب السعي الى إبقاء الخلط بين المظاهر الثلاثة المذكورة للقضية يسهل تبيانه، والتفريق بينها هو هين نسبيا : فالمظهران الأولان (حرية الاعلام وحق الاحتفاظ بالأسرار الشخصية) يحملان صبغة سياسية، ثم أن تجاوز الحد في استخدام بطاقيات المعطيات الشخصية المبرمجة يمثل كذلك بعدا اقتصاديا (دراسة الأسواق) واستفهامات...، أما طبيعة المظهر الثالث (تدفق المعطيات عبر الحدود الترابية) فهي اقتصادية في معظم أوجهها، وتنسحب أحيانا على قضايا الأمن الوطني.

بعض الدول تشهر مبدأ السيادة الوطنية، من أجل الإبقاء على تحكمها في حرية الإعلام. بينما تلجأ دول أخرى الى القانون الدولي من أجل محاربة إقامة الحواجز المخصصة لوقف تدفق المعلومات الصحافية والبرامج الإذاعية والتلفزية، وهو التدفق الذي تعتبره الدول الأولى المذكور بمثابة عنوان ثقافي. وهذا هو أساس الجدال الجاري حول مسألة إقامة «نظام دولي جديد للاتصال» وهو جدال مزدوج الحد، اذ يتعلق الأمر، أولا، بالسيادة، ثم بالعلاقات الاقتصادية الدولية، وهي علاقات شديدة بطء التطور القانوني - إن لم نقل أن هذا التطور تجاوزه تسارع الانقلاب التقنلوجي.

وفيما يخص تدفق المعطيات عبر الحدود، فإن الدول المصنعة تسن بالتدريج تشريعات وطنية تهدف الى حماية سيادته الاقتصادية، لكنها (أي هاته الدول) تقاوم أية محاولة لتقنين تلك التدفقات على مستوى دولي، لأنها تخشى إلحاق أضرار بمصالح الشركات غير الوطنية التي تعمل نشاطاتها في كثير من الأحيان على اختراق حواجز أية سيادة.

ومن بين بلدان العالم الثالث تميزت بلدان أمركيا اللاتينية بممارسة أكبر دينامية بصدد هذه القضية. ففي البرازيل يفرض ترخيص رسمي على حركة المعطيات - دخولا وخروجا - الجارية عبر تقنيات تنقيل المعلومات (ناظمات آلية واتصالات ذات مدى بعيد). وخلال اجتماع نظم بعاصمة الأرجنتين «بوينوس إيريس» شهر أكتوبر من سنة 1979 أوضح «مؤتمر المسؤولين اللاتينيين الأمريكيين لعلوم الإعلام» أنه :

«واقع اختلال التدفقات الدولية للمعطيات الراهنة، وبواقع كون الحدود الوطنية والفواصل الجغرافية فقدت صفة الحواجز الحامية، فإن عدة بلدان بدأت تخطط لاستعادة أمنها وتسن تشريعات وطنية من أجل حماية المعطيات».

إن البلدان النامية أدركت أهمية مفهوم «السيادة الدائمة» - في مجال الثروات الطبيعية الوطنية - وذلك قبل ٢٥ سنة من الآن. والمطلوب أن تدرك هذه الدول أيضا الرهان الذي يمثله الإعلام ليس بالنسبة للسيادة الوطنية فحسب بل بالنسبة لحرية التحرك الاقتصادي والاجتماعي أيضا بصورة أكبر.

وهناك مبررات جد كافية للاعتقاد بأن الاعلام سيدفع واجهة خلفية، قبل أن يكتمل هذا القرن بكثير، المصادر الراهنة للتنازعات الاقتصادية بين الشمال والجنوب... هذا الجنوب يدفع الآن وسيدفع في القريب العاجل ثمن ركوديته أمام جري النشاط الإعلامي بوصف هذا النشاط وسيلة الى النمو الاقتصادي. حتى الشمال سيدفع الثمن، إن عاجلا وإن آجلا، على كونه لم يتخذ الحيطة من التحولات الحتمية التي ستجرها ثورة المعرفة هذه، وكونه لم يتخذ الحيطة، على الخصوص، من الاختلالات الكبيرة في ميزان التساري الذي سيسفر عنها المفعول المترادف المتولد من استرخائية الجنوب وهيمنة الشمال الاقتصادية والثقافية.

الحاجة الى معايير جديدة

الاقتصاد والسيادة حدان مترابطان بمعادلة تاريخية هي معادلة الحفاظ على قيام السلم، وهو سلم تحول فيه الإعلام الى عوامل شتى في ذات الوقت : عنصر تفاهم دولي، عامل نمو، خطر قمع، سلاح اقتصادي، مصدر تحرير اجتماعي، عامل مكبر للذكاء البشري، ومبرر أمل في ازدهار الجنس البشري. وسيكون على السيادة للتأقلم مع هذه التحولات الناتجة عن تقليص كل من المكاني والزماني... مضت حقبة كان كل من

الناس والأفكار يتحرك فيها بنفس السرعة، أما بعد اختراع التلغراف والتلكس والناظمة الآلية والقمر الاصطناعي، فلم يعد الأمر كذلك، لم تعد الحدود الترابية الآن تحمل نفس المعنى (الذي كانت تحمله قبلا) بالنسبة للبشرية. كذلك قوانين العهد القديم لم تعد تحمل نفس المعنى بالنسبة لظاهرة انتشار الإعلام. على السيادة أن تحدد حقوقها الجديدة، آخذة في الاعتبار وضعية ما كان لقانوني القرون الثلاثة الأخيرة التحسب لها. أما التكييف مع الأوضاع المستجدة بعد أن يكون مضى زمن على ظهورها فلن يشكل تحركا كافيا ولن ينتج سوى زيادة في اتساع الهوة بين الحقوق والوقائع. والذي يجب انجازه هو تصور تحسبي معتمد على الاستباق والابتكار حتى يتم رسم معايير قانونية تتيح الاستفادة القصوى من التقدمات التقنلوجية فيما يعود بالخير الاجتماعي. الثقافي للشعوب، وتحافظ على كل من التوازن السياسي والاقتصادي بين جميع بلدان الأسرة الدولية.

هذا هو التحدي الذي تطرحه إشكالية ثنائي الحد : إعلام/ سيادة. فأما الإعلام هو ذو سيادة بالتعريف، وأما السيادة فمن حقها ومن واجبها أن تقونن هذا الإعلام، حتى تتمكن من التطور ومن مواصلة الوجود.

21 مارس 1984

«العلم السياسي»، الرباط 1984/4

«الرأي»، تونس 1984/5/23

Information et souveraintet
s, Maroc 84/04` Academie du Royaume du Maroc, F
ais, Arabic,¨Fran
English, Espagnol
; L'Opinion 84/06/26 ; Academia 2, Rabat, 85/02 ; Yamoussk, 85/03.
83/05 ; Er Rai, Tunis, 83/05/23 ; Maroc futur, 83/8/05 ; Cali, 84/05
84/07 ; Le Matin, 83/04/28 ; Al Maghreb, Al Mithaq, 83/04/29: Democratie,
Al Bayane, 83/04/27 ; Al Alam Assyassi

غزو الفضاء، بعض الإعتبارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ـ الثقافية (*)

كان لا بد للإنسان منذ أن خُلِق، أن يضمن لنفسه البقاء، فيحتمي من قساوة الطبيعة، ويقاتل بعض أصناف الحيوانات الضارية، ويصطاد منها ما يؤمن غذاءه. وكان الإنسان بذلك، منذ خلقه، مجبولا على مقاومة الطبيعة. ومع ما أنجزه في آلاف السنين من «تدجين» للطبيعة وهيمنة عليها، فقد ظل يختزن في عقله الباطن سلوك الفاتحين حيال محيطه الأقرب، فمحيط غيره بعد ذلك، فالمحيط الكوني اليوم.

والحديث عن غزو الفضاء واستعماره[1] ينطوي على مشكلة أخلاقية فلسفية تدعو إلى مدارسة مقاصد هذا الغزو بالقياس إلى أولويات الإنسان على الأرض؛

إن العلم يتحول اليوم تحولا عظيما في المفاهيم وفي أنماط القيم التي يرتكز عليها. والاستكشافات العلمية والإنجازات التقنولوجية ـ كيفما كان شأنها ـ لا تستكمل معناها إلا إذا وضعت في صميم هذا التحول. ويربط «إيليا بريكوجين» Ilya Prigogine ـ الحاصل على جائزة نوبل في الفيزياء ـ هذه الطفرة بمحاولات نبذ «الترهة النيوتونية» ويرى فيها التقاء ثلاثة عناصر أساسية هي «الزمان» و«النشاط الإبداعي» و«التمايز النوعي». ولهذه المباحث فائدة قصوى في تحليل إشكالية الفضاء، لاسيما إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى ما وصل إليه بريكوجين : «ان ليس للعلم بعد الآن أن ينكر حصافة وجدوى وجهات النظر الأخرى، وأن يتجاهل على وجه الخصوص وجهات نظر العلوم الإنسانية والفلسفة والفن».[2].

لكن هموم الذين يضعون الاستراتيجيات، ويموّلون الاستكشاف الفضائي، هي من نوع آخر، إن الوازع الأكثر تنشيطا لبرامج الفضاء هو وازع الغزو وأبعاده الهيمنية، وما فيها من القدرات العسكرية والسياسية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية ـ الثقافية. ونقول ـ دفعا لسوء الظن ـ أن ليس في هذا إنكار لما في تلك الأعمال من روح خلاقة، وصرامة علمية، وإقدام، وتفان، وشغف من لدن العلماء والتقنيين. ولولاهم لما وصلنا إلى هذا التقدم الهائل في العلم والتقنولوجيا ومعرفة الكون.

إن ثنائية الفضاء ـ كأداة للقوة والتدمير، وكعامل من عوامل الرقي هي التي تجعل الموضوع صعب الدراسة. ولن نطرقه إلا بتواضع وحذر، لا لشساعته من حيث المحسوس والملموس فقط، لكن كذلك للمشكلات الأخلاقية التي تحيط به، ولاتزال صياغتها في خطواتها الأولى. إننا لم نصل بعدُ إلى طور الأجوبة

(*) 1984

لأننا لم نعرف الأسئلة بعد. لكن هذه الحيرة المتجلية في الأفكار والغايات لم يمنع غزو الفضاء من متابعة طريقه! فللسياسة أعذار لا تتوافق دائما مع العلم بله الفلسفة والأخلاق!

1 - الاعتبارات السياسية

إن استكشاف الفضاء من خلال المخيلة، والبحث الفلسفي والعلمي الذي يدفع إليه كل ما يتصل بالفضاء، وإن «تدويل» الكون بالمعنى الروحي، ودراسة النجوم من قبل المنجمين والفلكيين والرياضيين والفيزيائيين، لمن مقومات الحضارة ونتاج حب الاستطلاع والإبداع المجبول عليهما الإنسان. إن التطورات الجاهزة للإستعمال تعود بنا في الحقيقة إلى ما يقرب من أربعين سنة خلت، حين أنشأت ألمانيا صواريخ ٢ب (٣) في الحرب العالمية الثانية.

أ) أولوية القوة والغايات العسكرية

إن أول اعتبار ذي سمة سياسية، هو أن غزو الفضاء وليد البحث العلمي المسخر للإرادة السياسية، والمصروف الى غايات عسكرية، لتكريس القوة. إنها قاعدة، وهي قاعدة أحدث من التي تحدثنا عنها آنفا، وبدونها لا يمكننا تحليل الأبعاد الاقتصادية والعلمية والاجتماعية ـ الثقافية لغزوالفضاء. وبذلك ندرك لماذا كان أخذ صواريخ ٢ب والعاملين على إنشائها من أولى أهداف الحلفاء إبان احتلالهم ألمانيا. وكان ذلك مما مكن العلماء السوفياتيين والامريكين من التقدم في أعمالهم، فوضع الاتحاد السوفياتي يوم 4 أكتوبر 1957 «سبوتنيك 1 Spotnik 1å في المدار الأرضي، ثم أطلقت الولايات المتحدة بعد ذلك «إكسبلورر ا، 1 Explorer, فأصبحت هي كذلك قوة فضائية.

لقد عد نجاح سبوتنيك 1 في العالم، ولاسيما في الولايات المتحدة، إظهارا للقوة السياسية والعلمية والعسكرية. وفي أقل من عام بعد ذلك، في فاتح أكتوبر 1958، أنشئت إحدى المؤسسات التي كان لها أعظم الأثر على التطورات اللاحقة في البحث الفضائي، وهي «النازا» شابشه (الإدارة الوطنية للملاحة الجوية والفضاء). وكان إنشاء هذه المؤسسة وليد الإرادة السياسية[4]، القصد منها منافسة إرادة سياسية غيرها[5]، وسيظل التسابق إلى غزو الفضاء سنوات أخرى، بل عقودا أخرى، الشغل الشاغل للقوات العظمى.

إن الاعتبارات السياسية في غزو الفضاء كثيرة، إنها القوة، والتفوق العسكري، والاستطلاع (التجسس) والسيطرة على الإعلام والتواصل البعدي والإشعاع الثقافي والبحث العلمي والتطبيقات المدنية للتقنيات. وحتى مفهوم ما هو «سياسي» أصبحت له اليوم معان أخرى مختلفة عن المعاني التقليدية المعروفة في السياسة. وليس في نيتنا في هذا المقام أن نطرق هذه المفاهيم كلها، فذلك يستلزم كفاءة لا نزعم أننا من أصحابها، ويستلزم كذلك النفاذ

إلى معطيات لا نملكها، ثم إنني أمام رجال أكثر كفاءة سيتحدثون عن بعض هذه القضايا في بحوثهم.

ب) «الكتلة الحرجة»، شرط عضوية نادي الفضاء

التسابق الى غزو الفضاء لا ينفصل اليوم عن التسابق الى الأسلحة المستجدة، المنوطة بالتطورات التقنية لعلوم الفضاء، وكما قلنا فيما سبق، فإن هذا هو الحد الفاصل بين قدرات الدول العظمى. إن عدد أعضاء نادي الفضاء لن يتعدى خمسة عشر عضوا في الفترة بين يومنا هذا وآخر هذا القرن، لأن عضوية هذا النادي تستلزم الإمكانات العلمية والتقنية والعسكرية والمالية الهائلة، أي ما يسمى «بالكتلة الحرجة» وهي أولى الفوائد التي نستخلصها من التحليل السياسي للفضاء. وليس في الفضاء مكان لمجموعات بشرية يقل تعدادها عن 200 مليون نسمة[6]. ذلك ما أدركته أوروبا في الستينات، فأنشأت مؤسسات جهوية تقنية للبحث الفضائي «إسرو يؤإظ» وإطلاق التوابع «ألدو» يطمظ وكانت تمهيدا لإنشاء الوكالة الفضائية الأوروبية في سنة 1975 وعدتها أحد عشر عضوا.

يشتمل نادي الفضاء على فريقين : فريق القوتين العظميين ذات الاستقلال الكامل في العلم والتقنولوجيا، وتصرف وحدها 95٪ من الموارد المالية والبشرية العاملة في هذا الميدان. ولهذا الفريق قواعده «الأصولية» المستحدثة في سنة 1962 عندما أبرم العضوان اتفاق التعاون وتبادل المعارف في مجالات البحث الفضائي. وتلى ذلك اتفاقات أخرى كاتفاق «صالت 1 SALT 1» في سنة 1972، و«صالت 2 SALT 2» في سنة 1979 التي تضبط استعمال توابع الاستطلاع[7]. والحق يقال أن هذا التعاون لم يتأثر بما لحق الأوضاع العالمية من تحسن أو ترد[8].

أما الفريق الثاني في النادي فهو فريق الذين لهم القدرات العلمية والتقنولوجية الكافية للإحاطة بالبرامج الفضائية، ويستطيعون إطلاق التوابع بوسائلهم الخاصة، لكن حجم نشاطهم الفضائي ضئيل بالقياس الى نشاط القوتين العظميين. وأعضاء هذا الفريق هم أوروبا الغربية واليابان والصين والهند. ونجحت هذه البلدان في صنع صواريخ الإطلاق ووضع توابع في المدار الأرضي. والملاحظ أنها تملك السلاح النووي كذلك. وسيلتحق بهذا الفريق الثاني - في أواخر هذا العقد - الباكستان وأندونيسيا والبرازيل والأرجنتين. هذا وإذا كان عدد أعضاء النادي قليلا - إذ يمثل ست دول فضائية فقط، فإن سكان هذه الدول يفوقون نصف سكان الأرض عددا.

ثم ماذا عن الآخرين ؟ وماذا عن آفاق عملهم لغزو الفضاء ؟ هل ستكون قسمتهم في الفضاء جائرة كما كانت في الأرض ؟ هنا تكمن المناقشة السياسية التي تعني الإنسانية في مجموعها. ويبدو واضحا من الأن على كل حال أن سلطان الفضاء الذي اكتسبه الأقوياء لا يوازيه إلا تبعية سواهم سياسيا وعسكريا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا. وكان ذلك مما زاد في عمق الهوة الفاصلة بين الأغنياء والفقراء.

ج) الإعلام ـ موضوع النشاطات الفضائية ووسيلتها وهدفها

أبرز غزو الفضاء أحدالعوامل السياسية الهامة : فتقدم البحث العلمي واستحداث تقنيات جديدة، ووضع استراتيجية عسكرية، واختراع أسلحة فضائية للإستطلاع، والرصد العلمي، والتواصل البعدي، وأي تطبيق عسكري أو مدني ذي التأثير الثقافي أو المصالح السياسية والاقتصادية، كل أولئك، في ميدان الفضاء، يتلخصون في كلمة واحدة : الإعلام.

إن غزو الفضاء للإعلام يسخر كل القدرات لجمع الأخبار، ومعالجتها، واستعمالها، والحرص على حداثتها، وإشاعتها بسرعة وفعالية. وإن أكثر من نصف الجهد التقنولوجي المتصل بالمشاريع الفضائية ينتمي إلى الإعلام. فكما قال «أندري لوبو» A. Lebeau :

«إن التابع الفضائي، كيفما كانت مهمته، موصل أساسا، إنه يتلقى الأخبار ثم يبثها إلى محطة واحدة أو إلى محطات عدة في الأرض. وتزايد الصفقات الإعلامية لمن الخصائص الأساسية في التطور التقني الاقتصادي، المتمثلة في تقنيتين إثنتين : الإعلام والتواصل اللاسلكي»[9].

تتلخص الاعتبارات السياسية إذن في الإرادة السياسية المسخرة لغايات التفوق العسكري، وفي الكتلة الحرجة الديمغرافية والاقتصادية، وفي الكفاءة العلمية والتقنولوجية العالية،وفي الاستراتيجية المتقنة في ميدان الإعلام والتواصل.

2 - البعد الإقتصادي

يمكن دراسة البعد الاقتصادي لغزو الفضاء من ثلاثة وجوه :

- التكاليف المالية
- تأثيرها على التطبيقات المدنية/
- والتحولات الطارئة على البنيات الاقتصادية.

أ) التكاليف المالية :

إن دراسة التكاليف المالية والميزانيات الفضائية أمر صعب، لأن المعلومات المتصلة بهذه القضايا قليلة، بل منعدمة أحيانا وتلك التي لدينا لا تفي بالحاجة، وغالبا ما تكون دون الحقيقة، أو تخفي الحقيقة لذرائع أمنية. ولا مناص ـ والحالة هذه ـ من القيام باستكمالات للوصول إلى فكرة تقريبية يكون الغلط فيها قليلا. والأهم عندنا هو معرفة رتبة الكبر التي يمكن استخراجها من الإحصائيات الرسمية المتفرقة التي للولايات المتحدة وأوروبا الغربية. أما فيما يتعلق بالاتحاد السوفياتي، فينبغي

الاستعانة بدراسات الكونغريس الأمريكي وبالتحاليل التقريبية للباحثين، وقد آثرنا منهجا بسيطا وسطا يعتمد الإحصاءات الرسمية الموجودة ويفترض أن ما يصرفه الاتحاد السوفياتي من مال يعادل ما تصرفه الولايات المتحدة.

والميزانيات الفضائية للولايات المتحدة مرآة للتوظيفات المالية في غزو الفضاء، والتغيرات التي تطرأ عليها تمثل التوترات والتسابقات التي تقع بين القوتين العظميين من حين لآخر. وفي الجدول رقم ١ سردنا مبالغ الميزانيات الرسمية (المدنية والعسكرية) للولايات المتحدة بين 1959 و 1982. ويصل مجموع السنوات الأربع والعشرين هذه الى 133 مليار و 210 مليون دولار.

ويبرز الرسم البياني رقم 1 ارتفاعا كبيرا في الميزانية المدنية بين 1961 و 1964. وكان قد طرأ هذا الإرتفاع بعد أن التزم الرئيس كينيدي،في مايو 1961، بإرسال إنسان إلى القمر، قبل نهاية العقد، في برنامج فضائي أمريكي، فكان الشروع في برنامج «أبولو» Appollo الذي بلغت تكاليفه 25 مليار دولار، ثم إن «أبولو 11» مكن أثناء ذلك زميلنا الفاضل نيل أرمسترونك من النزول إلى القمر يوم 20 يوليوز سنة 1969، ومكث فيه 21 ساعة و 36 دقية، ومشى على أديم القمر مسافة 400 متر، في ساعتين اثنتين و 13 دقيقة !

وركدت بعد ذلك الميزانية الفضائية الأمريكية في مجملها، بل انخفضت ابتداء من 1967. ولم ترتفع إلا فيما بعد، في سنة 1978، فجاوزت 6 مليارات دولار في كل سنة. ثم تضاعفت مرتين في أربع سنوات، من 1978 الى 1982، فبلغت 11.5 مليار دولار. واتسمت الميزانيتان - المدنية والعسكرية - بالتباين في العشرين سنة الأخيرة، (انظر الرسم البياني رقم 2)، فانخفضت الميزانية المدنية بانتظام ابتداء من 1965، ولم تعد إلى الصعود إلا ابتداء من سنة 1976، بعد وضع برنامج المركبة الفضائية. ولم تتعد الميزانية المدنية ذورتها (سنة 1965) إلا في سنة 1982. ومع كل ذلك فإن الميزانية العسكرية مازالت تفوقها.

إن تصاعد الميزانية العسكرية لمن خصائص الميزانيات الفضائية في أمريكا وفي غيرها من بلاد العالم.

إن من السهل تحليل المعطيات عندما تكون موجودة، كما هو الأمر في الميزانيات الأمريكية، لكن دراسة النفقات السوفياتية لمن الصعوبة بمكان. ولانعدام المعطيات الرسمية السوفياتية، سنضطر الى مقارنة بعض المؤشرات والدلائل، كإطلاقات الصواريخ، وإطلاق «الشحن المفيدة» (الجدول رقم 2)، والتقنولوجيات المستحدثة، والطاقات البشرية المسخرة في الميدان الفضائي. ولهذا المؤشر الأخير فائدته لأنه يرينا أن الاتحاد السوفياتي يستخدم 600.000 شخص في الأنشطة الفضائية، ولا تستخدم الولايات المتحدة إلا 150.000 شخص. زد على ذلك أن البرامج السوفياتية موجهة كلها تقريبا إلى الأغراض العسكرية والعلمية، دون الاهتمام بالجانب التجاري.

أ - الميزانية الامريكية الرسمية المخصصة لأبحاث الفضاء بين 1959 و 1982

(بملايير الدولارات)

السنة	المدنية	العسكرية	الإجمالي
1959	0.261	0.489	0.750
1960	0.461	0.560	1.021
1961	0.926	0.813	1.739
1962	1.796	1.298	3.094
1963	3.626	0.349	3.175
1964	5.016	1.599	6.615
1965	5.137	1.573	6.710
1966	5.064	1.688	6.752
1967	4.830	1.663	6.493
1968	4.430	1.921	6.351
1969	3.822	2.013	5.835
1970	3.547	1.678	5.225
1971	3.101	1.512	4.613
1972	3.071	1.407	4.478
1973	3.093	1.623	4.716
1974	2.758	1.766	4.524
1975	2.915	1.892	4.807
1976	3.225	1.983	5.208
1977	3.440	2.411	5.851
1978	3.622	2.728	6.350
1979	4.032	2.250	7.282
1980	4.386	4.023	8.409
1981	4.989	4.669	9.658
1982	5.730	5.824	11.554
الاجمالي 1959-1982	83.278	49.932	133.210

(الميزانية المدنية – نازا ، الميزانية العسكرية بوزارة الدفاع)

المصدر : مكتبة الكونغديس، تقرير رقم 5. 27 - 81 مقتبسا عن مجلة Les enjeux de l'espace

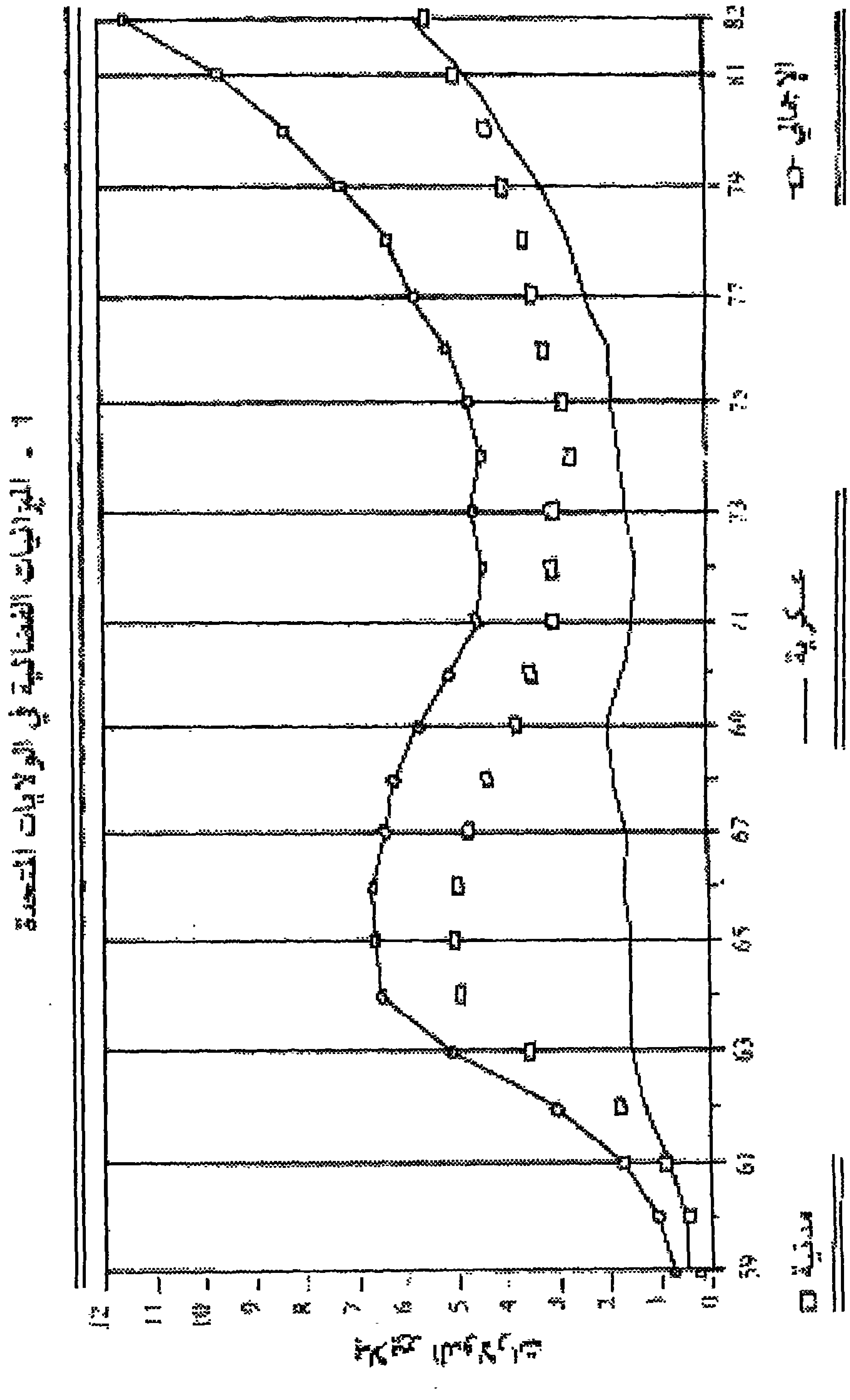

إن استكمال كل هذه المؤشرات يتيح لنا أن نستنتج أن الجهد المالي السوفياتي المبذول في الفضاء يعادل مجهود الولايات المتحدة على وجه التقريب. وحتى ميزانية الولايات المتحدة يجب مراجعتها لأن ميزانية وزارة الدفاع خفضت بالثلث على الأقل[10]. وإذا عملنا بهذه الترتيبات، فإن الأرقام هي 15 مليار دولار للولايات المتحدة في سنة 1982، و15 مليار دولار للاتحاد السوفياتي، و2 مليار دولار لباقي دول العالم[11]. ويكون المجموع 32 مليار دولار. أما في سنة 1984، فسيكون مجموع النفقات الفضائية قريبا من 45 مليار دولار.

إن غزو الفضاء غال، وليس في متناول أغلب دول العالم، وإن وضع أي من البرامج الضخمة، كبرنامج «أبولو» والمحطة السوفياتية «ساليوت» Saliout والمركبة الامريكية، يستلزم 8 أو 10 سنوات من العمل، وتوظيفات مالية تبلغ 20 مليار دولار لكل برنامج. وقد كلف المخبر الفضائي الأوروبي «سبايس لاب» Space Lab مليارا واحد من الدولارات، وكلف برنامج «أريان» Ariane نفس الثمن. وتبلغ تكاليف إطلاق المركبة الامريكية 75 مليون دولار وإطلاق «أريان» 300 مليون فرنك فرنسي، وسيكلف تابع التواصل «أنتلسات 5» بـ Intelsat 36 مليون دولار، «وعربسات» Arabsat أكثر من 200 مليون دولار. منها 140 مليون لشراء ثلاثة توابع.

2- الشحنات المفيدة المطلقة بنجاح من 1957 إلى اخر 1982

البلد	عدد الاطلاقات الناجحة	٪ من المجموع العالمي	عدد العمليات في آخر 1892	٪ من المجموع العالمي
الاتحاد السوفياتي	2069	% 66	102	% 35
الولايات المتحدة	997	% 32	183	% 63
آخرون (×)	59	% 2	7	% 2
المجموع	3125	% 100	(**) 292	% 100

(×) هي فرنسا (19)، واليابان (18)، والصين (9)، وإيطاليا (9)، والهند (2)، وأندونيسيا (1)، وأستراليا.

(××) : من 14.000 جم أطلق الى الفضاء منذ 1957، لم يبق في المدار الأرضي في شهر غشت 1983 إلا 4914، أي ما يفوق قليلا الثلث، وفي هذا الـ 4914، لم يبق صالحا إلا 290.

المصدر:

Les enjeux de l'espace, Documentation française, 1982 National Geographic Magazine, Sept. 1982

2 ـ الميزانيات الفضائية للولايات المتحدة (1959 ـ 1982)

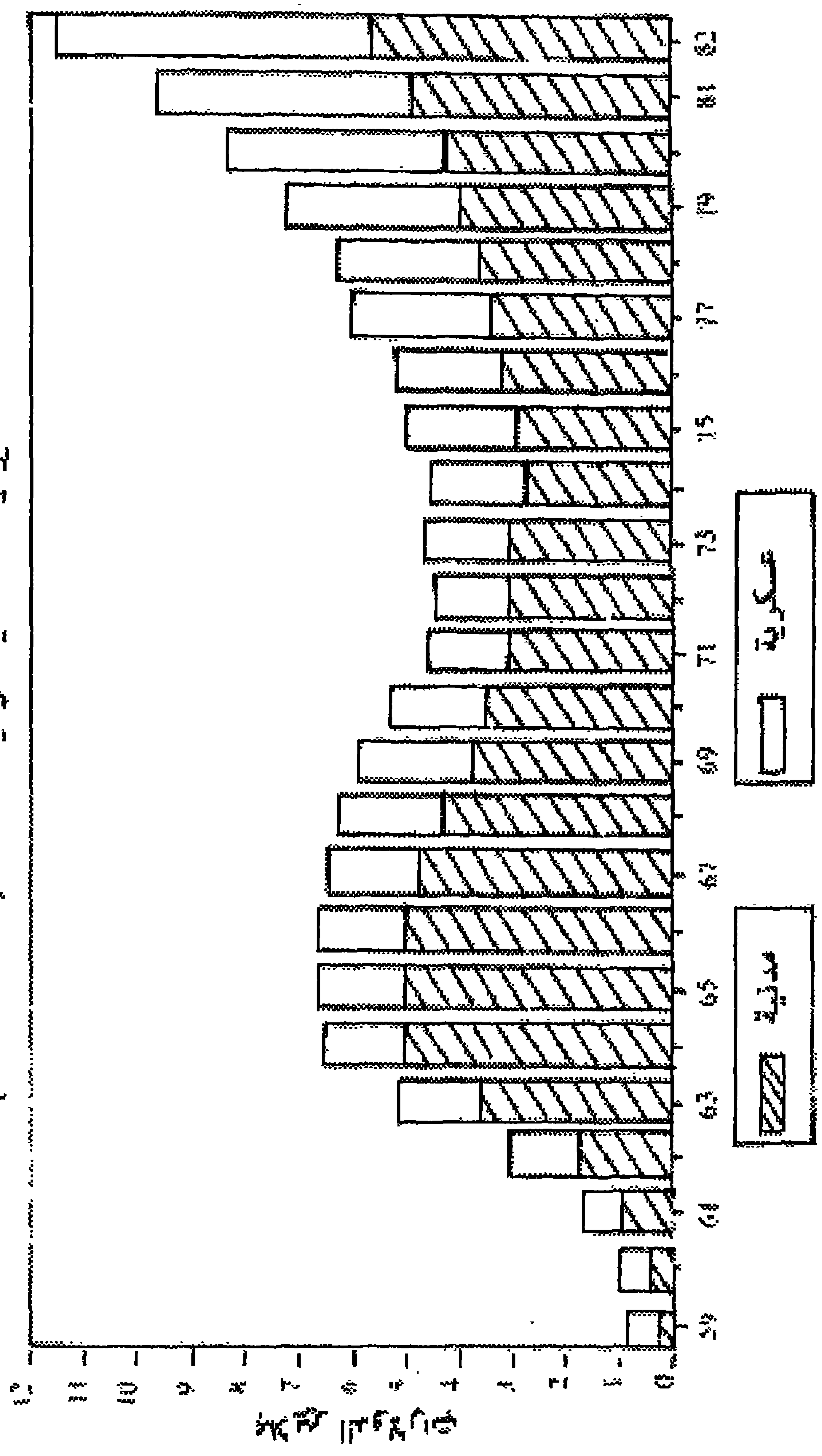

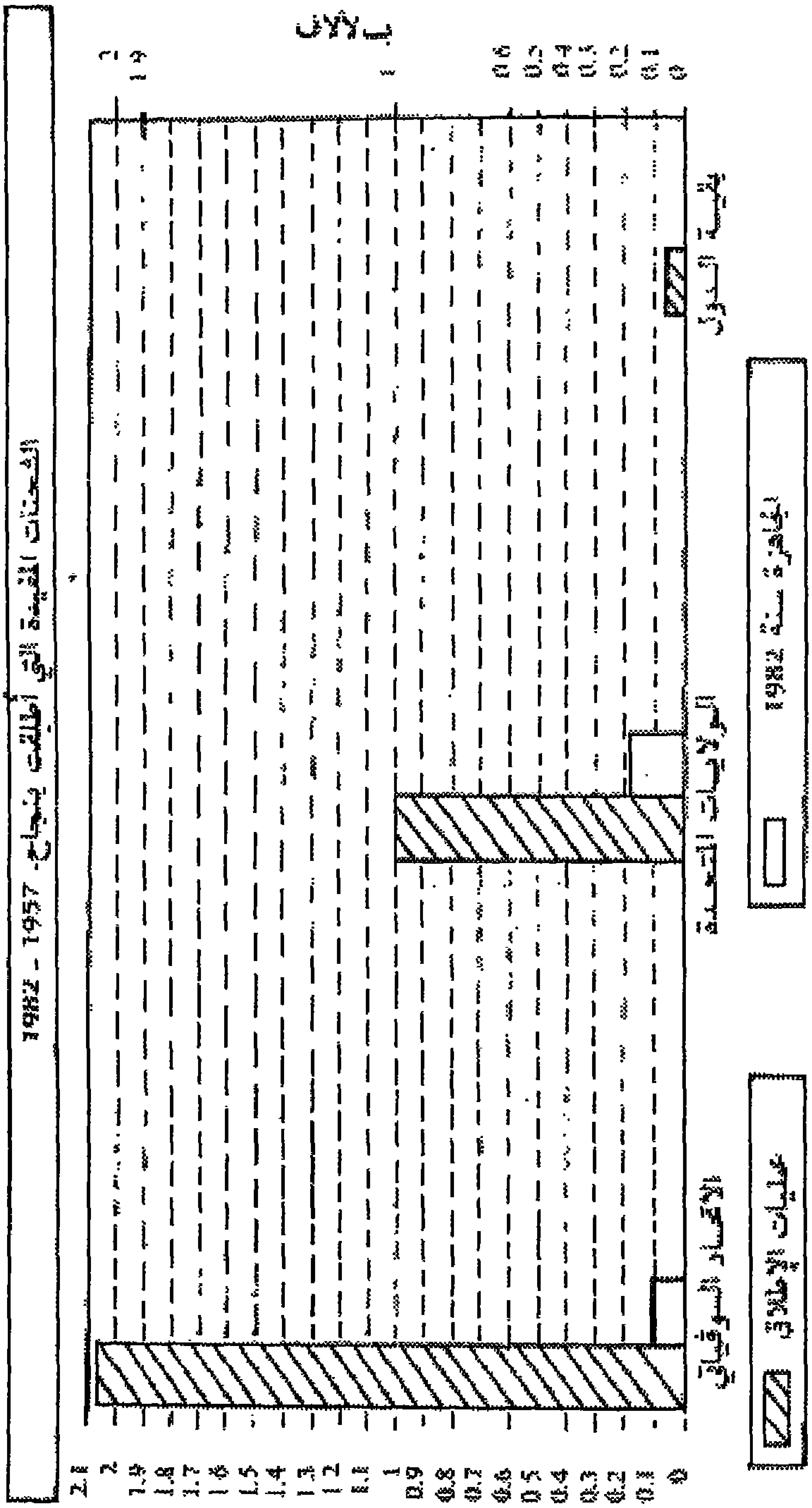
المحطات الفضائية التي أطلقت بنجاح 1957 - 1982
بالآلاف
الاتحاد السوفيتي
الولايات المتحدة
بقية الدول
عمليات الإطلاق
خلال سنة 1982

في السنة الجارية، سينفق الاتحاد السوفياتي والولايات التحدة وحدهما أكثر من 4 مليون دولار في كل ساعة، أي 100 مليون دولار في كل يوم لأغراض فضائية، أي ما يعادل 95٪ من النفقات العالمية. وهذا المستوى من النفقات ليس دليلا ماليا فحسب، إنه دليل سياسي عسكري تقنولوجي على القدرات الإبداعية التي تتيحها بنيات البحث عندهم، والكفاءة العلمية التي لعلمائهم وخبرائهم.

وتؤدي بنا دراسة هذه التكاليف المالية الى خلاصة بسيطة، هي أن غزو الفضاء ليس أمرا متاحا للناس جميعا. إنه يشترط الرصيد البشري والبحث العلمي والكفاءة التقنولوجية والاقتصاد الموازي والوسائل المالية والقدرة العسكرية، وكلهات لا تتوفر مجتمعة إلا لدى دول قليلة. وسيبقي العالم، طوال عدة عقود لاحقة، بين غزاة الفضاء ومستهلكي فوائد غزو الفضاء. وسيكون فيه ملاك ومكترون! وليس الفضاء يشترى بالمال. لقد اشترت بعض الدول توابع فضائية، واكترت صواريخ الإطلاق لوضع التوابع في مداراتها، لكن هذه الطريقة، طريقة امتلاك «الفضاء الجاهز» ليست حلا مرضيا. إن الحل في توظيف الإمكانات البشرية والبحث العلمي القومي، وفي إقامة سياسة تعاون جهوي يهدف الى اكتساب «الكتلة الحرجة»

ب) التأثيرات والمردودية

إن دراسة الجانب الاقتصادي للنشاطات الفضائية ظاهرة حديثة، ولما كان غزو الفضاء من قبل ذا سمة استراتيجية لا غير، فإن المردودية الاقتصادية والمقتضيات التجارية لم تكن في الحسبان. ثم ظهر أن لتوابع التواصل والرصد منافع اقتصادية، فكان ذلك عنصرا جديدا يحسب له ألف حساب. ثم جاءت المركبة الأمريكية المستعملة مرات عديدة، فاقتصدت بها أموال كثيرة[12]، وقوي بها جانب الاقتصاد في العمل الفضائي، وكانت فتحا جديدا في الصناعة الفضائية.

وأُعمِل الفكر والجهد في تقليل النفقات، وفي وضع استراتيجيات تجارية حقة، وجاء على لسان أندري لوبو وكارل إيكون رويتر :

«لم يبق ثمة ما يدعو الى إنجاز التطبيقات الاقتصادية، بل إن وضع الأهداف الاقتصادية كمنطلق، هو القوة المحركة الأساسية لأي جهد يبذل في الميدان الفضائي».

وإذا أصبح الهدف الاقتصادي قوة محركة، فإن الهدف الاستراتيجي العسكري لايزال بمثابة الروح والقلب في ثلثي الأنشطة الفضائية.

ورغم التفاوت الكبير (من 7 إلى 15 سنة) الحاصل بين الاكتشافات التقنولوجية الفضائية، وبين إخراجها من حيزها الفضائي وإدخالها في الاستعمالات المدنية، فإن الاعتبار الاقتصادي دخل الفضاء

اليوم، وسيقوى شأنه في المستقبل. ومن أدلة البعد الاقتصادي في الأنشطة الفضائية، توزيع التوابع ذات الأغراض المدنية، بحسب مجالات عملها :

- التواصل : 60٪.
- رصد الأرض : 30٪.
- التجارب العلمية : 10٪.

إن تكاثر توابع التواصل لمن الدلائل التي جعلتنا نعد الإعلام ظاهرة سياسية في غزو الفضاء، قبل أن نعدها ظاهرة اقتصادية[14]. لقد كانت إحدى المبادرات الفضائية الأولى ذات طابع تجاري في سنة 1962 عندما مولت الشركة الأمريكية «أ.ت.ت.» A. T. T. أول تابع للتواصل «تلستار I الذي أتاح بث البرامج التلفزيونية عبر القارات. وكان هذا التابع ملكا لإحدى الشركات الخاصة، إلا أن إطلاقه في الفضاء كان على عاتق الدولة.

وتتفق كل التحاليل والدراسات والإسقاطات على أن الإعلام أصبح - وسيبقى في الثلاثين أو الأربعين سنة القادمة - أهم مورد مالي في استعمال الفضاء. فالصناعة الإعلامية تمثل اليوم سوقا سنوية مقدارها 150 مليار دولار. وستكون في سنة 2000، 40٪ من القيمة المضافة في الصناعة العالمية كلها. وأبرزت دراسة أقيمت في الولايات المتحدة عن المداخيل المرتقبة من تصنيع الفضاء، أن هذه المداخيل ستبلغ 10 ملايير دولار في سنة 1990، و40 مليار دولار في سنة 2000، و 150 مليار دولار في سنة 2010 وربما سيظل الإعلام المورد الوحيد الى سنة 1995، وربما سيمثل 50٪ في سنة 2010، حتى بعد أن تساهم الطاقة الشمسية وصناعة بعض المواد بـ 35٪ و 10٪ على التوالي من مجموع موارد العالم(15).

لقد أخذت توابع الاتصال تذر أموالا كثيرة على أصحابها، بلغت إلى الآن 2 أو 3 مليارات من الدولارات في كل سنة. وقد وضع أكثر من 120 تابعا للتواصل في مداراتها في السنوات العشر الأخيرة، لاتزال ثلاثة أرباعها صالحة حتى اليوم. بل إن من الناس من يقول باكتضاض الفضاء، وصار الاتحاد الدولي للتواصل يرى أن ذبذبات الراديو والمدار الأرضي الثابت محدودا الفائدة(16). أما «أريان سبايس» Ariane Space ، فينتظر أن تصل قيمة مبيعاتها مليارا واحدا و600 مليون فرنك فرنسي في سنة 1984، ولاتزال طلبات الشراء الواردة عليها كثيرة. أصبح الفضاء إذن صفقة تجارية، وسيكون عما قريب محور التطورات الصناعية الكبرى، ومصدرا لا يستهان به فيما تحتاج إليه الأرض من الطاقة.

وشرح جيسكو ڤون پوتماكر Jesco Von Puttmaker - وهو مسؤول في النازا شاوشه عن برنامج تصنيع الفضاء والبرمجة في المدى البعيد - أهداف هذا التصنيع في العبارات التالية :

«إن القصد من تصنيع الفضاء في المدى البعيد توسيع آفاق الإنسانيةـ أعني البقاء ـ أما القصد في المدى القريب، فإنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

1- توفير الخدمات المستخلصة من الفضاء التي تتبارى الوكالات والصناعات والجمهور كذلك ـ لأداء تكاليفها.

2- توفير المنتجات المستخلصة من الفضاء التي تباع بربح.

3 - توفير الطاقة الفضائية»[17].

ومن الآن إلى سنة 1990، سيوضع في المدار الأرضي أكثر من 200 تابع آخر، وإذا لم يذهب الاتحاد السوفياتي إلى تأجير صواريخ الإطلاق التي يملكها، فليس ثمة سوى الولايات المتحدة وأوروبا واليابان (ابتداء من سنة 1988، عندما يكون صاروخه ٤ف جاهزا) للإستجابة لمتطلبات السوق، وهي سوق هائلة.

أما اهتمام القطاع الخاص بشؤون الفضاء، فقد بدأ ببرنامج تيلستار 1، واستمر في الولايات المتحدة وأوروبا، لكنه لايزال في بداية الطريق، إلا أن شركة «أريان سبايس» الجامعة للمركز الوطني الفرنسي للدراسات الفضائية، و36 مؤسسة فضائية أوروبية و 13 بنكا أوروبيا «أصبحت منذ سنة 1983 المؤسسة الوحيدة في العالم المتحملة أجسم المسؤوليات في مجال الصواريخ الضخمة، لأن الشركات الخاصة، في الولايات المتحدة بوجه خاص، إن صنعت الصواريخ، فإنها لم تستطع إطلاقها إلى الآن»(١٨)، ونشير إلى أن صناعة الفضاء تستخدم 7.500 منصب عمل بفرنسا (= 2 امليار فرنك فرنسي تقريبا).

ويستعد القطاع الخاص في الولايات المتحدة للدخول بقوة في تجارة الخدمات والمنتجات الفضائية، وفي مارس 1983، طلب الرئيس الأمريكي ريگان من وزارة التجارة (وهي المسؤولة عن تدبير التوابع الأمريكية المعنية بالأرصاد الجوية ورصد الأرض بحث إمكانية وضعها في السوق للبيع. وقد تقدم لشرائها 18 ا شركة، ولايزال المشروع قيد الدرس[19].

وانعقد في العام الماضي في نيويورك اجتماع حضره ممثلو 17 ا من أكبر الشركات العالمية العاملة في شؤون الفضاء، وكان موضوع المؤتمر «الفحص العملي للمشاريع التجارية بدل الاهتمام بالبحث والتطوير المحجرين للموضوع»[20].

وفي شتنبر من سنة 1983، أبرمت المؤسسة الأمريكية «فيرتشايلد سبايس أند إلكترونكس» Fairchild Space and Electronics اتفاقا مع النازا شإشه لتجهيز «ليزكارافت» Leasecraft في سنة 1987، وهو أول مربض فضائي قابل للاسترجاع تعرض خدماته للتجارة. وسيوضع هذا المربض في

مداره بواسطة المركبة، ووعدت النازا بتحمل بعض نفقات المؤسسات الصناعية الفضائية بإطلاقها التوابع مجانا، إذا ظهر لها أنها رابحة فيما عُرض عليها.

ومما يلاحظ في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، أن النفقات العمومية المخصصة للفضاء تشجع تطوير التقنيات المتقدمة في القطاع الخاص، وتمهد لها الطريق للمساهمة النشيطة في الاستعمال التجاري لهذه التقنيات الجديدة. ولاتزال التطبيقات المدنية الناتجة عن البحث العلمي الفضائي محدودة نسبيا، لكن آثارها على القطاعات الاقتصادية الأخرى مهمة (صناعة السيارات، والملاحة الجوية، والبحرية، والنقل، والتليفون، والتلفزيون، والتغذية، والطب، وعلوم الإعلام، والتليماتيك، والصيد البحري، والصناعة النفطية، وإدارة المدن...).

وآثار الثورة الإعلامية، مضافة إلى تطور البحث العلمي، تشكل صلب التحولات التي ستطرأ على المجتمع في المستقبل، إنها تحولات نوعية، أصلها الإبداع العلمي والاستحداث التقنولوجي، تؤثر تدريجيا على البنيات الذهنية، وتعمل في المجال العسكري عند بعض الدول، ثم تنعكس على أنشطة الشركات المتعددة الجنسيات، وهي معروفة بقدرتها الفائقة على التكيف، وقد أخذت بالفعل في تغيير البنيات الاقتصادية والصناعية وفي سير التجارة العالمية.

ويُشترى الفضاء في البورصة منذ عشرين سنة»[21]، لكن عدد المنشآت الصناعية التي ولجت ميدانها لايزال ضئيلا، وهي في الغالب منشآت كثيرا ما تعمل مع إدارات الدفاع والجيش (والمجالان العسكري والفضائي توأمان دائما)، وعدّتها اليوم عشرون شركة في الولايات المتحدة، وما يقرب من عشر في أوروبا على الأكثر.

وتجمعت الصناعة الفضائية في مجموعات ثلاثة»[22]، مما يزيد نظرية «الكتلة الحرجة» دلالة، وذات ثقل في اعتبار الشركات والبلدان على السواء.

أما التطبيقات المدنية المستخرجة من تقنيات الفضاء فإنها ستؤدي سريعا إلى تحولات في البنيات الاقتصادية، لاسيما في متم هذا العقد، وجدول تلك التطبيقات طويل، ويزداد طولا كل يوم، ولا يمكننا سرده كله في هذه الدراسة. أما ما تشملها من ميادين فلا حصر لها، فمنها التواصل من بُعد، والأرصاد الجوية، والفلاحة، ورسم الخرائط، ورصد الموارد الطبيعية، والبحث الطبي، وصناعة المنتجات والمواد في الفضاء، وبث الطاقة. أما المردودية الاقتصادية للتوظيفات المالية في الأنشطة الفضائية فلا شك فيها، لأنها واضحة جلية في التواصل، وصحة التنبؤ بأحوال الطقس وجودة الصور الفضائية (الصورة الفضائية الواحدة تعادل 4000 صورة جوية).

وبلغت تكاليف المخبر العلمي الفضائي «سبايس لاب» ما يقرب من مليار دولار، وكان عمله أثناء رحلته في ديسمبر سنة 1983 في غاية الإتقان، ولو وُضعت معطيات تجاربه العلمية الأثنتي والسبعين كتابة الواحدة تلو الأخرى كلمة كلمة لصارت خطا واحدا يساوي طوله مسافة ما بين الأرض والقمر! وفي ذلك ما يشغل الباحثين سنين عديدة. وسيكون «سبايس لاب» مشروعا تجاريا، لأن الحكومات والشركات الخاصة ستتطلع إلى تأجير خدماته بمبلغ 7.000 دولار تقريبا لكل كيلوغرام محمول(22).

وصار الفضاء بضاعة رابحة لأصحابه، ولولا الربح لما أرسل في كل شهر تقريبا تابع إلى الفضاء، ليستقر في مداره الثابت البعيد عن الأرض بـ 36.000 كلم، ولَمَّـا وظفت صناعة الأدوية ملايين الدولارات في الفرز الإلكتروفوري لما يقرب من ثلاثين مادة في مصانعها المدارية، بقيمة شرائية ستبلغ 30 مليار دولار في سنة 2000 (24)

3 - الجوانب الاجتماعية ـ الثقافية

ليست مردودية الفضاء اقتصادية فقط، إنها سياسية كذلك(25)، لما للفضاء من صيت لدى الجمهور. لكن هل للفضاء مردودية اجتماعية ـ ثقافية؟ إنها مسألة صعبة الدرس، لأن غزو الفضاء لا يأبه بالجانب الاجتماعي، ولا يهتم بنوعية الحياة ولا بتأثيره على هياكل القيم.

أ) انعدام الإبداع الإجتماعي ـ الثقافي

ثمة هوة سحيقة بين ثقل الجانب العسكري والاقتصادي في السياسات الفضائية، وضعف الجانب الاجتماعي ـ الثقافي. إنها صورة لعجز المجتمعات المعنية عن التكيف مع التحولات الاجتماعية ـ الثقافية الجارية، وعن توجيهها الوجهة المناسبة لمجموعة من القيم ولضوابط الأخلاق ولمقاصد أخرى يكون فيها الرغد وازدهار الإنسان والظروف المؤدية إلى السلام الدائم.

وهذه الهوة تزيد عمقا يوما بعد يوم، لأن الإنسانية في معظمها لم تأت بعد بالإبداع الاجتماعي ـ الثقافي الموازي لما أنجز في العالم والتقنولوجيا(26). لقد علمنا علم النفس أن شساعة الصعيد سبب من أسباب قلة الصراع بين أفراد الجماعة، لكن يبدو أن شساعة فضائنا ـ وهي نتاج تقدم العلم ـ زادت صراعاتنا حدة. فالتوابع الأصلية تبعتها توابع مضادة ستتلوها توابع أخرى مضادة لها وهكذا... والمدار الثابت أحسن شيء بالنسبة لتوابع التواصل، لكنه أصبح السبب في خصومات كثيرة.

ومع ما أتى به غزو الفضاء من حسنات، فمن الإنصاف القول بأن مستقبل الإنسان لم يكن من اهتماماته. إننا لم نخطط بعيدا لوضع البرامج الفضائية الجبارة، والتثبث من الأجرام السابحة في

الفضاء(27)، لكننا نغفل ما لهذه الأعمال من آثار اجتماعية ـ ثقافية، إننا لا نملك المعطيات العلمية التي بها سنتنبأ بأثر التطورات التقنولوجية الراهنة على الحياة التي سنحياها، وعلى القيم التي سنتحلى بها بعد ١٥ أو 20 سنة. ومن حسن الحظ أن الإبداع الفني والثقافي، والعلم التخيلي والأفلام الخيالية، ما زالت لدينا لتملأ بعض الفراغ الذي نعيشه.

إن الدراسات الفلسفية والاجتماعية كثيرة وجيدة. ومن المفيد أن نستأنس بها لدراسة الآثار الاجتماعية ـ الثقافية لغزو الفضاء، علما بأن العلاقات القائمة بين المعايير الزمنية والأنساق الثقافية متينة، فقد لاحظ جان لادريير:

«ينبغي أن يدخل عامل الزمن في النسق الثقافي فيهدم بنيانه. ثم يعمل جنبا بجنب مع المشروع ـ كدأبه في البحث العلمي والمنشآت التقنولوجية ـ لإفراغ البنيات الثقافية التقليدية من محتواها، وهي بنيات موافقة لعوامل زمنية أخرى»(28).

إن غزو الفضاء ـ بتغييره للمفاهيم الفضائية ـ يساهم في هدم المفاهيم الزمنية وأنساق القيم التي تناسبها. فمشكلات قانون الفضاء مثلا ليست فضائية إلا بصفة ثانوية، فهي مشكلات ترجع في الأساس إلى انعدام المقاييس في هذا الميدان الحديث العهد، وتطرح قضايا تتعلق بالقيم الاجتماعية ـ الثقافية أكثر من تعلقها بأركان القانون.

إن غزو الفضاء أصل الإبداع التقنولوجي ونتاجه معا. وكل إبداع له عواقبه، تتمثل في الانقطاع عن الماضي وفي التصدعات اللاحقة. وإذا علمنا ما يواكب هذه التصدعات علميا واستراتيجيا واقتصاديا، فإننا لا نعلم ما يواكبها اجتماعيا وثقافيا. ولا نجد البحوث المتعلقة بهذا الأمر. وذلك مرده إلى أن الإنسان لم يكن أبدا الشغل الشاغل لواضعي البرامج والأنشطة الفضائية. إن مكان الإنسان في الفضاء الآن لا يوجد إلا في العائدات التقنولوجية.

إنها حقائق يجب على الإنسان تدبرها، لاسيما إذا كان على بينة من الإنجازات العلمية والتقنولوجية التي أتاحها غزو الفضاء ـ لئلا يذهب إلى ذلك الانبهار الذي لا حد له ـ والتي تبثها وسائل الإعلام لأغراض شتى. أما الذي لا شك فيه، هو أن على الأرض مشكلات كثيرة بسيطة يمكن حل كثير منها لو أعطيت من الاهتمام ما أعطي الفضاء.

ب) العالم الثالث : تابع، لكن في أي مدار ؟

أين مكان العالم الثالث في غزو الفضاء ؟ لقد ألمحنا إلى هذه المسألة في ظروفها السياسية(29)، لكنها في الميدان الاجتماعي ـ الثقافي تتسم بالحدة. لقد تأخرت جل دول العالم الثالث في التطور العلمي والتقنولوجي لافتقارها لسياسة اجتماعية ثقافية، واستهانتها بالقيم الروحية أكثر منها لانعدام الموارد المالية. إن الإبداع العلمي والاستحداث التقنولوجي لا يولدان من العدم، ولا في اتفاقيات التعاون. إنهما يقتضيان نماذج تطور قومية مطابقة للقيم وصالحة للمجتمع.

وماعدا الصين والهند وثلاث أو أربع دول أخرى، فإن العالم الثالث لا يقدر على خوض معركة

غزوالفضاء، مع أنه هو الذي سيتحمل أوخم العواقب الاجتماعية ـ الثقافية في الإعلام وإذاعة البرامج التلفزيونية والتطبيقات الأخرى. فالعالم الثالث أصبح تابعا في ميدان الفضاء، وليس له «مداره» الخاص به. إن حق التصرف في مداره لن يتم له إلا بامتلاك أنساقه القيمية الخاصة به، ورفع شأن البحث العلمي، وإقامة تعاون جهوي يستطيع به الوصول الى «الكتلة الحرجة» التي بدونها لن يزيد إلا تقهقرا.

إن إحدى المشكلات الأخلاقية الحادة في علاقات الشمال بالجنوب، في الميدان الفضائي، ليست في تصريف عشرات الملايير من الدولارات في المجرات ـ وقد تصلح لإزالة المجاعة والمرض والجهل والفقر، إلا أن التصدق لم يكن أبدا ليحل هذه المشكلات. المشكلة هي أن العالم الثالث أصبح لأسباب عدة يشتري السلاح بكثرة من البلدان المصنعة، وهذه المشتريات لا توفر له أي سبب من أسباب الرقي في البحث العلمي والتقنولوجي، كما هو الأمر في البلاد البائعة. إن العالم الثالث هو الممول الحقيقي غير المباشر لجزء من البحث العلمي في الدول الراقية، وهي مساهمة لم تكن في الحسبان، وتقدر بأكثر من ربع تكاليف برامج الدول الفضائية.

لقد أنفق العالم الثالث، بين 1973 و 1972، 78.3 مليار دولار لشراء الأسلحة، واشترى ثلاثة أربا ع هذه الأسلحة (74.8٪) من ست دول فضائية بما يبلغ 50 مليار دولار (بأثمان 1975) في عشرين سنة، أي أنه صرف 6 ملايير في كل سنة، وإذا رجعنا إلى الجدول رقم 1 نرى أن المعدل السنوي للمصاريف الفضائية للولايات المتحدة مثلا في هذه السنوات العشر ذاتها، كانت 6،8 مليار دولار تقريبا. وبلغت مشتريات دول العالم الثالث من الأسلحة 50٪ على الأقل من المجموع العالمي للأنشطة الفضائية، وإذا علمنا مدى الإرتباط الاستراتيجي والاقتصادي والمالي الواقع بين صناعة السلاح وصناعة الفضاء، فإن ال 25٪ المقدرة آنفا ليس مبالغا فيها.

والنقطة الأخيرة التي سنعالجها في هذا الباب الاجتماعي ـ الثقافي تتعلق بظاهرة قد تتفاحش في المستقبل، إنها الغطرسة التي أصبحت من أخلاق غزاة الفضاء، وهي مشكلة تفوق الاعتبارات الاجتماعية ـ الثقافية والأخلاق المهنية، وتتنافى مع موقفنا من خلق الكون وتواضعنا حياله، لاسيما بعد الاطلاع على بعض أسراره، كل هذا يعود إلى عالم العقيدة وما بعد الطبيعة. إن هذه المسألة وجه من وجوه غزو الفضاء ـ وهو الأصعب ـ ويُعنَى بالفضاء الداخلي للإنسان وبروحه.

ولا يمكن أن يكون لهذه الدراسة ولا لمثيلاتها خلاصة، فإذا أفلحت في إثارة مسألتين أو ثلاث مسائل كبرى للبحث والمناقشة، فذلك ما كنت أتمناه.وسأكتفي بهذه الأسئلة : لماذا غزو الفضاء ؟ ولأية غاية ؟ وكيف سيسهم هذا الغزو في الحفاظ على كرامة الإنسان وازدهاره، وعلى دوام السلم في الأرض وفي الفضاء

إن هذا هو بيت القصيد، وليس في المفاخر التقنولوجية التي قد تسخر لهذه الغايات السامية، أو تسخر للدمار. وليس للتقنولوجية، في حقيقة الأمر أي ضلع في ذلك. إن الإنسان وحده هو المسؤول، سواء كان سيدا أو كان مسودا.

الهوامش

(1) يحتوي مسرد المواد بمكتبة الكونغريس الامريكي على 13 مدخل في باب «الفضاء»، وفيها مداخل «كالمستعمرات الفضائية» و «استعمار الفضاء».

(2) إيليا بريكوجين، التحالف الجديد، مع إيزابيل ستنكرس، ض 24، كاليمار 1979.

(3) كان تطوير الصواريخ من وصايا الرياضي الروسي قسطنطين تسيو كولفسكس في أواخد القرن الماضي، للرحلة إلى الفضاء. وأخذ فريق من العلماء الألمان بقيادة هرمان أوبيرث يعمل لتلك الغاية في العشرينات من هذا القرن. وفي نفس الوقت، كان الفيزيائي الأمريكي روبيرت كودارد يعمل لإرسال أدوات للقياس إلى الفضاء. لكن إنشاء القذائف الألمانية ٢ب كان لأغراض أخرى...

(4) أنظر جوهن لوكدسن، «تطورالسياسة الفضائية الأمريكية من 1975 الى 1980»، في مجلة فوتوريبل، العدد 38، نونبر 1980.

(5) انظر ألان دوبا «السياسة الفضائية للإتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية»، نفس المصدر.

(6) ربما كان اليابان الاستثناء الوحيد، لإمكاناته العلمية والتقنولوجية والاقتصادية، لكنه يأتي في المرتبة السابعة من حيث تعداد سكانه، والاستثناءان الآخران هما أندونيسيا (160 مليون) والبرازيل (130 مليون)، وهما في المرتبة الرابعة والخامسة. بعد الصين والهند والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة.

(7) تحتكر القوتان العظميان هذه التوابع، فأطلق منها الاتحاد السوفيتي 500، والولايات المتحدة ٢٥٠، والصين هو البلد الوحيد الآخر الذي أطلق بعضا منها (5 أو 6).

(8) Jean Pierre Clerk, Les sentinelles de la frontière d'en haut- le Monde, 2-4 août 1983

(9) L'espace, Enjeux et Perspectives, dans Les enjeux de L'espace. Cahiers Français, N° 206 - 207, Mai - Sept . 1982 , Documentation Française.

(10) ألان دوبا، ص 84. ويقدرالمؤلف أن 60٪ من البرامج الفضائية الأمريكية لها طابع عسكري، وثلثي البرامج السوفياتية لها نفس الطابع، ويرى أن الروس يخصصون جهودا ووسائل للأنشطة الفضائية أكثر مما يفعله الأمريكيون.

(11) أوروبا الغربية (مليار دولار)، اليابان (نصف مليار دولار)، الصين والهند (نصف مليار).

(12) في نهاية برنامج «أبولو»، قدرت قيمة المعدات التي تركها الأمريكيون على سطح القمر بمليار دولار.

(13) دور الفضاء في التنمية الإقتصادية، مجلة فوتوريبل، عدد 38، نوفمبر 1980.

(14) المهدي المنجرة، الإعلام والسيادة، أكاديمية المملكة المغربية، مارس 1983.

(15) دراسة أنجزتها مؤسسة «ساينس أبلكيشن» لتستعملها «النازا»، ونشرتها جسكو ڤون پوتماكر في مجلة «فيوترست، عدد يونيو 1979، ص 93.

(16) طوماس أوتول، في صحيفة هيرالد تريبيون، 26 يناير 1984.

(17) انظر الهامش 15.

(18) Langereaux, 25 ans de Fuses dans le monde, dans : les enjeux de l'espac"

(19) نيويورك تايمز، 28 غشت 1986.

(20) «التصنيع يدخل عصر الفضاء» .the Space, P. 4, Futuribles, 11 Nov. 1983 Industry Enters

(21) لقد أسست كوزمات (مؤسسة توابع التواصل) بمساعدة الحكومة الأمريكية في سنة 1964، وهي تؤدي دائما أقساط المساهمين فيها.

(22) وهي : كوسموس، ميش، ستار، انظر جيرار دوسيني في «الفضاء والصناعة» مجلة فوتوريبل، نوفبر 1980. ص 89.

(23) هذه التعريفة (3000 دولار) كان متفقا عليها مع وكالة النازا، انظر تايم ماكازين، ص 49، 28 نوفمبر 1983.

(24) صناعة المنتجات كالأنسولين والمضادات للجراثيم في ظروف اللاجاذبية أحسن بـ 700 مرة منها في ظروف الأرض، انظر ألبيرت دوكرو «الأدوية القادمة من الفضاء» في مجلة «العلم والمستقبل»، عدد ٤٣٩، سبتمبر 1983.

(25) أحدث دليل على هذا ما ورد في خطاب الرئيس ريگان عن «أوضاع الاتحاد» في 25 مارس 1984، والذي أكد فيه أن الهدف الأساسي للولايات المتحدة هو إقامة حدود جديدة، في الفضاء، بإنشاء مدينة مدارية في مطلع العقد القادم. وكان لهذا الخطاب نفس الأثر الذي كان لخطاب الرئيس كينيدي عن إنزال رجل أمريكي في القمر.

(26) المهدي المنجرة، الابتكار التقنولوجي وتأثيره على القيم الإنسانية، طوكيو 1983.

(27) يستطيع المرصد الأمريكي «نوارد» التثبت من جسم في حجم كرة التنس من علو 30.0000 كلم،

(28) Les Enjeux de la rationalit, Aubier 1977

(29) انظر أعلاه.

الملحق الأول

بعض المعلومات المهمة عن تاريخ غزو الفضاء

1957 - سبوتنيك (1) - الاتحاد السوفياتي : أطلق أول قمر اصطناعي في الفضاء 21 يوما.

- سبوتنيك (2) - الاتحاد السوفياتي : أول قمر اصطناعي مأهول (الكلبة لايكا)

1958 - اكسيلورار (1) ـ الولايات المتحدة : اشتكشاف الحزام الإشعاعي حول كوكب الأرض

- اكسيلورار (3) - الاتحاد السوفياتي أول معمل فضائي.

- سكدر - الولايات المتحدة : نقل المعلومات وبثها.

1959 - ليونيك (2) - الاتحاد السوفياتي : أول قمر اصطناعي يصل القمر.

1960 - تايك س - الولايات المتحدة : أول قمر اصطناعي للأرصاد الفضائية، (أرسل حوالي 23,000 صورة).

1961 - فوستوك (1) - الاتحاد السوفياتي : أول صيران مأهول (يوري غاغارين).

1962 - كوزموس (1) - الاتحاد السوفياتي : دراسة الحالات الناجمة عن بقاء طويل المدى في الفضاء (من مجموع 1600 قمر اصطناعي أطلق الاتحاد السوفياتي 1360، كانت من طراز كوزموس).

تيلستار (1) - الولايات المتحدة : أول نقل للإشارات التلفزيونية من الفضاء.

هاريز (2) - الولايات المتحدة : «دراسات الجيوفيزيائية كوكب (فينوس).

مارس (1) - الاتحاد السوفياتي : دراسة كوكب المريخ (تعوق الإرسال على بعد 110 مليون كيلومتر من الأرض).

1964 - سان ماركو - إيطاليا ـ الاتحاد السوفياتي : أول قمر صناعي تطلقه دولة غير الاتحاد السوفياتي أو الولايات المتحدة.

زوند (3) - الاتحاد السوفياتي : أرسل صورا عن الجانب المعتم والمخفي لكوكب الأرض.

ساينكوم (3) - الولايات المتحدة : أول محطة فضائية مدارية للإتصالات.

1965 - فوزفود (2) - الاتحاد السوفياتي : مركبة مأهولة ـ اليكس سياروف ـ أول من سبح في الفضاء مدة عشر دقائق، على بعد 170 كيلومتر من سطح الأرض.

- جيميني (4) - الولايات المتحدة : يقودها رائدان فضائيان بقيا 48 ساعة في الفضاء ويسبح أحدهما (ادوارد وايت) لمدة 22 دقيقة خارج كبسولة على بعد 160 كيلومتر من سطح الأرض.

- إيرلي بيرد : أول قمر اصطناعي أطلق بواسطة انتيلسات.

1966 - لونا (4) - الاتحاد السوفياتي : أول هبوط على سطح القمر (غير مأهولة).

1967 - سيدفايار (3) الولايات المتحدة . يرسل 6.315 صورة من سطح القمر.

- فينيرا (4) - الاتحاد السوفياتي · أول هبوط (غير مأهول) على سطح فينوس

- سيوز (1) - الاتحاد السوفياتي : مركبة فضائية مأهولة.

- كوزموس 186 كوزموس 188 - الاتحاد السوفياتي : التحام وانفصال أوتوماتيكي.

- (3) A. T. S. - الولايات المتحدة : أول صورة ملونة عن الأرض.

1969 - أبولو 2 - الولايات المتحدة : أول هبوط بشري على سطح القمر ـ نيل أرمسترونغ و إ. الدرين.

- مارتيز6 - الولايات المتحدة : صور لكوكب المريخ.

- ميتيور - الاتحاد السوفياتي : قمر اصطناعي للأرصاد والأبحاث الجوية.

1970 - لونغ مارش - الصين : صاروخ استعمل لإطلاق أول قمرين اصطناعيين صينيين يزن الواحد منهما 172 كيلو غراما.

1971 - بيغ بيرد - الولايات المتحدة : قمر اصطناعي استطلاعي يزن ثلاثة عشر طنا.

- ساليوت (1) - الاتحاد السوفياتي : محطة فضائية مدارية تضم مساحة سكنية تبلغ 100 متر مربع.

- أنتيليسلت (4) (دولثي المشاركة) : للنقل التلفزيوني والتليفوني (حوالي 30 ألف اتصال هاتفي).

إضافة الى نقل وبث برامج تلفزيونية حية.

1972 - لاندسات (1) الولايات المتحدة : أرسلت الأقمار الإصطناعية من هذا الطراز حوالي مليون وأربعمائة ألف صورة لكوكب الأرض بين 1972-1979.

1973 - مارينر (10) - الولايات المتحدة : بقيت 16 شهرا في الفضاء، طارت فوق كوكب فينوس وزحل وأرسلت 8000 صورة.

1974 - S. M. S. (1) - الولايات المتحدة : أول محطة فضائية مدارية ميترولجية (تدارست البيئة والأرصاد الجوي).

1975 - تيجيست - الصين : صاروخ فضائي يزن 160 طنا، استعمل لإطلاق 6 أقمار اصطناعية تزن ما بين 2-3 أطنان، بين عامي 1975-1978.

1977 - G. M. S. - اليابان : قمر اصطناعي للأرصاد الجوية.

- ميتوسات - أوروبا : قمر اصطناعي للأرصاد الجوية.

- ساليوت (6) - الاتحاد السوفياتي : مركبة جهزت بجزء إضافي يسمح بالتحام أي مركبة مأهولة من طراز ساليوت.

1981 - ايريان (1) - أوروبا الغربية : قاعدة ضخمة للإطلاق.

- كولومبيا - الولايات المتحدة : مركبة فضائية عديدة الأغراض.

1983 - وندسات (4) - الولايات المتحدة : للمسح الأرضي (الجيولوجيا ـ الزراعية ـ البيئة، تخطيط المدن).

1983 - سبيس لاب (1) - أوربا الغربية : محمل فضائي أطلق بواسطة المركبة الأمريكية شتل (كولومبيا) وحققت حوالي 72 تجربة علمية.

- T. O. R. S. : قمر اصطناعي مركزي ينقل المعلومات بين الأقمار الإصطناعية الأخرى والأرض بمعدل 200 مليون وحدة في الثانية.

الملحق الثاني

أمثلة لنقل تكنولوجيا الفضاء و توظيفها

مصادر هذا الملحق : مجلة فبيوتشريلز، رقم 39 ـ الصادرة في نونبر 1980.

هذه الأمثلة مقتبسة من إحصائية حول الصناعات الفضائية، وضعتها مجموعة من مكتب المقتضيات

القطاعات التي تستفيد من نقل التكنولوجيا	أشكال التطبيقات الفضائية	المشتقات المبتكرة
صناعة السيارات	استقرار الاقمار الإصطناعية	عجلات خاصة لتقليل استهلاك الطاقة في السيارات
	تشكيل المواد المستعملة في صناعة الاقمار الاصطناعية	تشكيل أجزاء السيارات بواسطة تكنولوجيا إذابة المعادن
	الالكترونيات الفضائية معادن ومواد واستعمالات الأقمار الاصطناعية، وصواريخ الاطلاق	شاشة من الأجهزة الالكترونية العلمية تبين وتحدد أجزاء السيارة المعطوبة إمكانية صناعية
الرجال الآليون	الاليكترونيات الفضائية	السيطرة الالكترونية على أنظمة الانتاج الصناعي
صناعة السفن	الدفع والتسيير الالكترونيات الفضائية الدفع والتسيير	تسيير وتحريك الغواصات معدات العرض نظام إفراغ شحنات الغواصات
الملاحة الجوية	الالكترونيات الفضائية ايريان معادن تستعمل في صناعة الاقمار الاصطناعية	كتل الكترونية للطائرات إمكانية استعمال سوائل صاروخية تستعمل في دفع محركات ايريان تشكيل هياكل الطائرات في شرائح كاربونية
الطاقة	تجميع الطاقة الشمسية وتوظيفها معادن تستعمل في صناعة الاقمار الاصطناعية إدارة المشاريع	خلايا شمسية ومحطات شمسية تطلق طاقة كهربائية شرائح لاستعمالات الغواصين الهوائية محطات للسيطرة على الطاقة النووية
الاعلاميات	الاعلاميات الفضائية ميتيوسات	مقاطع جديدة، مبردات كمبيوترية أنظمة برمجة علمية جديدة
المصارف والبنوك	الالكترونيات الفضائية النظرية	أنظمة وتوزيع وصرف بنكية أوتوماتيكية

مصائد الأسماك	الالكترونيات الفضائية النظرية	تحري أماكن ومأوي تجمعات الأسماك
المرور	السيطرة على الأقمار الصناعية من علو مرتفع أو من البعد	السيطرة على أنظمة المرور المدنية
التخزين الالكتروني	تخزين الطاقة	
البناء والتشييد	الالكترونيات الفضائية النظرية	مراقبة التسرب المائي عبر الجدران والشقق
الطب البشري	مواد لصناعة الاقمار الاصطناعية الاعلاميات الفضائية الالكترونيات الفضائية	صناعة أعضاء إنسانية بشرية إعلاميات طبية للكشف والمراقبة الصحية أنظمة راديوغرافية إشعاعية قليلة العواقب الجانبية
تشييد الجسور والطرق	سيطرة فضائية مرارية	تسخين الطرق بواسطة أنظمة حرارية
التيلماتيك	نقل المعلومات من الفضاء	شبكات نقل معلومات عبر الفضاء، أكثر تطورا ومقدرة علمية
صناعة البترول	المواد المستعملة في صناعة الاقمار الاصطناعية اليكترونيات فضائية	هياكل مخروطية في تركيبة الحديد الالمنيومي المستعمل لمصافي النفط توصيلات للأجسام البعيدة عن الساحل
المواصلات العامة	السيطرة على الاقمار الصناعية مواد لصناعة الاقمار الاصطناعية	تصنيع انفاق أوتوماتيكية مواد للاستعمال في صناعة القطارات
الادارة المدنية	تنظيم المشاريع الفضائية	إدارة المدن الكبيرة
السيطرة على التلوث	الالكترونيات الفضائية	السيطرة على المناطق الملوثة في بحر الشمال
الامن	الاعلاميات الفضائية الالكترونيات الفضائية	أنظمة إعلامية للسيطرة على بعض أوجه النشاط التكنولوجي (كيمياء، بحار، حرائق) أنظمة للحماية ضد السطو والكسر القسري
أنشطة للتسلية	مواد فضائية	التزحلق، التنس ، في شرائح سينتيسية
صناعة الالات الدقيقة	الآلات الفضائية الدقيقة أنظمة اليكترونية لعرض المعلومات تلفزيونيا عناصر لمنع التبخر	إشارات سلكية لقياس مستوى السوائل في ناقلات النفط
المواد الغذائية	مواد تستعمل في إطلاق الاقمار الاصطناعية	أغطية غير قابلة للصدأ، لحماية بعض المواد الاستهلاكية
التلفزيون	الالكترونيات الفضائية	مخازن وحاملات اليكترونية، وأنابيب
الهاتف	استقرار وثبات الاقمار الاصطناعية	طاقة اضطرارية لتبادل الخدمات التلفونية

B I B L I O G R A P H I E

ARNAUD, Jean Francois, "les Moissons de l'Espace", Plon 1982
BARTUSIAK , Marcia, « Satelliites Watch over the Word », Science Digest, Mrch 1983
BELL, Larry, « Designing a Village in Space », The Futurist, Octobre 1981
CAHIERS FRANÇAIS, « Les Enjeux de l'Espace », N° 206-207, Mai-Septembre 1982, documentation Français
CANBY ? Y., « Those Satellites that Serve us », Naational Géographic Magazine, Vol. 143, N° 3, Septembre
CLEERC? Jean-Pierre, "La revolution des satellites", Lamalif, Octobre-Novembre 1983
DUCROCO, Albert, « Les médicaments venus de l'espace », Science et Avenir, N° 439, Septembre 1983
DUPAS, Alain, La llutte pour l'Espace, Editions du Seuil,1977
ELMANDJRA, Mahdi, « Information et Souveraineté », Académie du Royaume du Maroc, Mai 1983
EL MANDJRA, Mahdi, « Technologicall Innovation : its Impact on Guman Values », Tokyo, 1983
FUTURIBLES, "La conquête spaciale, ses retombées technologiques, économiques et socials, N° 38 (spacial), Novembre 1980
CATLANS, Kenneth, Illustrated Encyclopedia of Space Technology, Harmony Books, 1981
KAPP, Bernard, "Espace : le regard embouteillage", les Nouvelles Litteraires, 1-7 Décembre 1983
LADRIERE, Jean, Les Enjeux de la Rationalité, le Défi de la Science et dee la Technologiee aux Cultures, Aubier, 1977
LAMBERT, D., La Trre et l'Espace, Gamma, 1982
LOGSDON, John, The Decision to go to the Moon, Science Digest, September 1983
PRIGOGINE, Ilya, - STENGERS, I. La Nouvelle Alliancee, Gallimard, 1979
TOFFLER, Alvin, The Third Wave, William Morrow, 1980
PRINGEARD, Gisèle, Les Astronautes et le Droit de l'Espace, P.U.F., 1977.LA

CONQUETE DE L'ESPACE : QUELQUES CONSIDERATIONS D'ORDRE POLITIQUE ? ECONOMIQUE ET SOCIO-CULTUREL.

Première Session de 1984 de l'Academie du Royume du Maroc, Casa, 1 – 4/03/1984
Français, English, Espagnol, Arabic.
LE MONDE 22/06/84, Paris ; THIRD WORD QUARTERLY, 07/84, UK ; AGORA, IBI, 11,1984;
ALIDAA ALARABIA, 4, 19984, Tunisie ; ACADEMIE DU MAROC, 03//84 ; SEMINAR, 06/85, New Delhi, India.

الفضاء الإعلامي المغربي (*)

النظرية والاقتصادية التابع لجامعة ستراسبورغ. وهي تقدم لمحة عن الثروات الموجودة حاليا، أو التي يمكن استخراجها مستقبلا من التكنولوجيا الفضائية وتوظيفها في قطاعات اقتصادية أخرى.

س – في البداية نود أن نتعرف عن نظرة الأستاذ المهدي المنجرة الى وسائل الاتصال السمعية والبصرية باعتباره له اهتمامات علمية بالاتصال الى جانب مساهمة سابقة في العمل الاتصالي بالمغرب؟

ج - أعتقد أنه لم يعد ممكنا الحديث عن الإعلام ووسائل الاتصال بصفة جزئية، وذلك بفعل التشابك الحاصل بين مختلف وسائل الاتصال، فالمطبعة تغيرت بتأثير من التقنيات التكنولوجية الجديدة. عالم النشر تغير، التلفزات أصبحت في ظل الأقمار الاصطناعية شبيهة بموجات الراديو القصيرة، يمكن لأي كان أن يلتقط البرامج والإذاعات من أي مكان في العالم. وعرفت السينما أيضا تطورا أصبح لها معه دور في منافسة التلفزات، كما أنه أصبح للاشهار دور اساسي في التمويل وخاصة في ظل تطورات صناعة الإشهار، وأصبح لمواصلات الاتصال البريدي ارتباط بالوسائل الاعلامية السمعية والبصرية، ففي البريد نجد وسائل الاتصال الالكتروني والبريد الالكتروني «المينيتيل» والاتصال البريدي بالتلفاكس الذي أصبح معه التيلكس أسلوبا، متخلفا في الاتصال. ومع الثورة الإعلامية في ميدان المعلوميات أصبح عدد كبير من الأشخاص يملكون أجهزة معلوميات توفر لهم عدة أساليب للاتصال داخل بيوتهم كما أصبح اليوم لأبناك المعطيات وتطور مراكز التوثيق دور مهم في الدفع بوسائل الاتصال الى مستويات جد متطورة والى توسيع حقل اهتمامها.

فكل هذه الميادين الاعلامية، لا يمكن ممارستها بطريقة علمية أو سياسية الا اذا كانت لديه فكرة شمولية عن ماهو الاتصال. ولذلك فإن ما نراه في دول الشمال بما يسمى بالسياسات الاعلامية تلعب أدوارا سياسية وإعلامية حساسة لما لها من أهمية في تطور الاقتصاد العالمي. كما يرى مثل ما حدث منذ ستة أشهر أو سبعة أشهر رئيس دولة مثل «فرانسوا ميتران» استطاع أن يعقد اجتماعا على مستوى السوق الأوروبية المشتركة لرؤساء دول أوربا لكي يتدارسوا آفاق التطورات الأخيرة في ميدان الاتصال ولتهيء

(*) 1990

استراتيجية وسياسة إعلامية موحدة على مستوى أوروبا.

س - انطلاقا من هذا التصور الشامل للأهمية التي أصبح الاتصال يتمتع بها في مختلف المجالات الحيوية وفي مختلف أنحاء العالم، كيف يقوم الاستاذ المهدي المنجرة دور الإعلام ببلادنا وبوجه خاص بدايات تأسيسه خاصة وأن الأستاذ المنجرة كان من أوائل من أشرف على مؤسسة التلفزة الوطنية بالمغرب؟

ج - أعتقد أنه بعد الحديث العام المقتضب الذي تناولت فيه الحساسية الراهنة الموكولة للإعلام، يمكننا أن نعود الى الوقائع المرتبطة ببلاد معينة كالمغرب لما له من درو تاريخي وحضاري واستراتيجي جيوسياسي أيضا، فللمغرب تاريخ مهم في ميدان الإعلام، وأظن أن إذاعة الرباط أو ما كان يسمى «بإذاعة الرباط» في حينه، كانت من أول الإذاعات الافريقية وفي العالم العربي.

ويجهل عدد كبير من الناس بأن أول تجربة في التلفزة على مستوى افريقيا كانت بالمغرب في اوائل الخمسينات من خلال مشروع «تيلما» (التلفزة المغربية) الذي لم ينجح بسبب «الأزمة المغربية» آنذاك ونفي جلالة الملك محمد الخامس رحمه الله، وقاطع الشعب المغربي هذا التلفزيون التابع لشركة فرنيسة، وتوقفت ولم يعد بإمكانها ان تستأنف عملها خاصة بعد مجئ الاستقلال، والحكاية طويلة قد أعود اليها في مناسبات أخرى ان شاء الله، المهم أننا حين نعود الى البدايات الأولى لتجربة التلفزيون بالمغرب. يفرض ذلك العودة لتاريخ التجربة تبعا للتسلسل الذي قطعه الاعلام والاتصال بالمغرب، وسأعود هنا بالخصوص الى السنين الأولى التي مارست خلالها مهمة الإدارة بالتلفزة والإذاعة المغربية. والتي تركتها منذ ما يزيد عن ثلاثين سنة. والى الآن ولأسباب خلقية امتنعت عن أن أتكلم عن اي وثيقة وعن أي عمل أو قرار تم خلال تلك المرحلة احتراما للمسؤولية التي كانت على عاتقي. ولكن أظن أنه بعد مرور ثلاثين سنة لم يعد لتلك الأفكار ولتلك المعلومات نفس التأثير السابق نظرا للتقادم في الزمن.

أصبحت اليوم مقيدة بالظهير المنظم للإذاعات والتلفزات على أرض المغرب. بما يعني أن شركة فرنسية لن تجد جدوى بعد الظهير من هذه التلفزة، كما أنها لن تستفيد كثيرا بنقل أجهزة التلفزة الى فرنسا، وبعد أن اقنعت الأستاذ عبد الله إبراهيم وآخرين من أعضاء حكومته استطعت أن أشتري للمغرب هذه التلفزة ب 100 مليون سنتيم فقط بدل 600 مليون سنتيم، كما أننا استرجعنا 10 ملايين من المائة مليون كمستحقات للمغرب، وهكذا كلفتنا التلفزة المغربية التي تحولت فيما بعد الى التلفزة الوطنية الحالية 90 مليون سنتيم فقط.

وتابعنا العمل داخل هذه التلفزة التي حرصنا على مغربيتها وإعطائها نفسها الوطني والمغربي الصرف، سواء على مستوى الأطر أو على مستوى المواد التي تبث أو تذاع، وقد خلق لدي ذلك عدة مشاكل

خاصة عندما اضطررت للتخلي عن «أوركسترا فرنسية» وفرقة مسرحية فرنسية، بسبب التكلفة العالية التي كانت تكلفنا في ظروف إمكانياتنا الضئيلة، ورغم معارضة عدد كبير من المسؤولين لهذا القرار الذي اتخذته فإن مبرري كان واضحا من حيث توفير نفس التكلفة لإدماج أطر مغربية وتشجيع البرامج والإبداعات الفنية والموسيقية والثقافية المغربية، وكان لذلك فضل في تأسيس جوق وطني للموسيقى والغناء، مد يد المساعدة لعدد من الملحنين والفنانين.

والواقع أنها كانت تجربة شاقة ولكنها ممتعة بالحماس الوطني لبناء المغرب الجديد.

أذكر أيضا أنه خلال صدور الظهير الشريف الذي يخول للدولة المغربية حق احتكار قنوات الإعلام الإذاعية والتلفزية الموجودة بالمغرب، قمت آنذاك بمحاولة تطبيق هذا القرار في حق إذاعة «صوت أمريكا» التي كانت موجودة بطنجة، وتم الاتفاق فعلا على تحويلها لاحتكارات الدولة المغربية في بداية 1963 ولكن في انتظار 1963 قررنا استفادة المغرب من 80 ساعة في الأسبوع من البث لبرامج مغربية من داخل «صوت أمريكا»، وقمت بخلق برنامجين «صوت الجزائر» الذي دعوت له أحد أعضاء جبهة التحرير الجزائرية، و«صوت الصحراء» الذي تكفل بمناهضة الاستعمار الاسباني، في حين تكفل صوت الجزائر بمناهضة الاستعمار الفرنسي، كما اشترطنا على إذاعة «صوت أمريكا» منع بث أية برامج تمس بمشاعر المواطنين المغاربة والعرب وكذا كل الدول التي لها علاقات صداقة مع المغرب، وقد نتج عن ذلك أن قامت السفارتان الاسبانية والفرنسية بالاحتجاج ضد «صوت أمريكا» وضد السلطات الأمريكية.

لقد حرصت خلال هذه التجربة على القيام بمهمتي بما يليق بها في خدمة المغرب وفي انسجام وتتبع لأحدث الأساليب الاعلامية في الدول المتقدمة، وربما كان لذلك متاعب شخصية مما جعلني أقدم على تقديم استقالتي ثلاث مرات، الى أن قدمت استقالتي نهائيا بعد أن أنجزت العمل الذي كان موكلا لي من طرف جلالة الملك محمد الخامس رحمه الله، وأعفيت مباشرة من هذه المهمة قبيل استقالة عبد الله إبراهيم من الحكومة.

س – خلال المرحلة التي كنت تعمل بها مديرا للتلفزة والإذاعة، كان جلالة الملك محمد الخامس رحمه الله، قد دعا الى احترام مبدإ «الخبر مقدس والتعليق حر»، كيف كنت تفهم آنذاك هذا الشعار؟

ج - قدسية الخبر كانت واضحة بالنسبة لنا في حرصنا على الخبر الخالي من عناصر التشويش والاختلاق والمبالغة أو الاستهانة، أي أننا كنا حذرين تجاه ما نتلقاه من الوكالات الأجنبية وكنا نتبع كذلك مبدأ التوازن بإعطاء الخبر حقه الذي يستحقه، مع فتح باب التعليق الحر المتوازن غير المخل بأي جهة أو طرف أو أي رأي ملتصق بالخبر دون آخر، وأذكر في هذا الإطار واقعة حدثت لي حين استغرق الأستاذ المرحوم المهدي بنبركة في خطاب له أمام المجلس الاستشاري لحكومة عبد الله إبراهيم حوالي 40 دقيقة

فوقع بيننا في هيئة التحرير خلال اجتماعنا خلاف حول طريقة نقل الخبر، وعارضت لاعتبارات إعلامية فنية مبدأ افتتاح نشرة الأخبار بهذا الخطاب الطويل لا لشيء إلا لأنه لرئيس المجلس الاستشاري واقترحت أن تقدم لقطة من 10 دقائق من الخطاب مع خمس دقائق تلخص فيها مضامين الخطاب على أن يشار الى بثه بعد نهاية الأخبار، وأثار ذلك قلق الكثيرين حتى في أوساط الحكومة وغيرها مع العلم أن هذه الطريقة الاعلامية الحديثة استعملت في عدة مناسبات لأنشطة ملكية لجلالة الملك محمد الخامس رحمه الله الذي دعاني جلالته يوم 13 أبريل 1959 في لقاء معه على انفراد، حيث أخبرني رحمه الله بما سمع عن ذلك، أبدى قلقه أما الثقة التي وضعها في معقبا على هذا التصرف. لكني لما وضحت لجلالته أسباب هذه الخطة الإعلامية السياسية التي هي طريقة عصرية إعلامية وفي مصلحة التبليغ وتقريب الخبر للمشاهدين والمستمعين، وبعد نهاية المقابلة التي دامت حوالي نصف ساعة أي الى حدود الواحدة إلا ربع بعد الزوال، عدت الى الإذاعة فإذا بي أسمع في نشرة الأخبار بلاغا صادرا عن الديوان الملكي يقول أن جلالة الملك استقبل الدكتور المهدي المنجرة وهنأه على البرامج التي كانت خلال شهر رمضان، ولكي يبرهن عن الثقة للذين توقعوا أن جلالته سيوبخني، لكن العكس هو الذي حدث بعد أن تفهم جلالته الخطة التي كنت أدير بها البرامج والأخبار.

وقد أعطاني ذلك قوة جديدة لمتابعة عملي، قدمت هذا المثال لأشير الى أننا كنا نعاني خلال هذه المدة من وكالات الأنباء نفسها، ومن الضغط الإعلامي الذي كان موجودا هنالك سواء من طرف وكالة الأنباء الفرنسية أو من وكالة «لاسيبي» أو من «رويتر». وهنا دور المهدي بنونة في الدفع بإنشاء وكالة المغرب العربي للأنباء، لقد كنا نواجه مشكلة صحة الخبر نفسه الذي كان من الضروري بالنسبة لنا التحقق من صدقه أو عدمه، وكذا من مصدره، والواقع أن طاقم الصحفيين خلال ذلك الوقت كان جله من الشباب المتحمسين للعمل وللتضحية، حيث كانوا يقضون أحيانا ما يزيد عن 14 ساعة من العمل في اليوم، كما كنا نواجه مشكلات متعددة من جهات مغربية. وكم من مرة كان بعض الوزراء يتصلون بي ويقولون لي : «لقد كنا في البلد الفلاني ومررنا بالبلد الفلاني والبلد الفلاني، لكنكم لم تخبروا بذلك»، كنت أجيبهم «إن الإذاعة ليست معمولة لتتحدث عن أسفار الوزراء، لكن إذا كان هنالك نتائج مهمة من زيارتك لذلك البلد أو ذاك فبلغها لنا، وسنستعملها إما داخل نشرة الأخبار أو داخل برامج تتعلق بالمجال الذي يرتبط بزيارتك، فلاحيا كان أو صناعيا أو أي شيء آخر».

ومع مرور الوقت، أصبح الوزراء أنفسهم يتفهمون هذه الخطة، وكان لذلك منفعة كبيرة للإعلام ببلادنا، وبإيجاز أظن أن هذا الشعار لم يكن بالنسبة لنا شعارا رمزيا وإنما كانت هنالك محاولة لتطبيقه

داخل الإذاعة، ومن يرجع لذلك الوقت يكفي أن يتتبع مختلف المشاكل التي واجهتها أنا شخصيا سواء مع النقابات أو الأحزاب أو مع السفارات أو مع عدد من الاوساط المختلفة، وأعتقد أنه عندما يكون النقد من جميع الأطراف فمعنى ذلك أن هنالك نوعا من الموضوعية. فالإنسان مضطر لأن يعطي للخبر قيمته الكبرى كخبر، كما أنه ملزم بأن يترك مجالا هاما للتعليق الحر والموازن في نفس الآن بتقريب مختلف الآراء المتباينة حول الخبر الواحد، وبدون تعليق أيضا لن تكون للخبر أية قيمة.

س- الآن كيف ينظر الأستاذ المهدي المنجرة الى مستقبل الاتصال بالنسبة للمغرب المعاصر ؟

ج - لا يمكن الحديث عن المستقبل هكذا، فمستقبل الاتصال هو البارحة وهو الان، وما سنعيشه خلال العشر سنوات المقبلة سواء في المغرب أو خارج المغرب، سيكون نتيجة للسياسة التي اتبعت خلال الثمانينات، وبالنسبة لعدد من الدول مثل المغرب، يمكن أن نقول أن غياب تخطيط وغياب الاستراتيجيات المضبوطة في هذه السياسات التي طبعها الارتجال، سنؤدي ضريبتها في المستقبل، بل من الآن نؤدي عليها من عدة نواحي اقتصادية وعلمية وتربوية وثقافية وحضارية ومن ناحية التنشيط الثقافي ومن ناحية الفكر والإبداع بما في ذلك الفنون من تلحين وغناء ومسرح.. لأن وسائل الاتصال تمس المجتمع بكامله.

ولهذا فالوقت الوحيد، وهو أمر يعلمه العديدون، الذي حاولت المساهمة فيه بصفة شخصية، منذ تركت الإذاعة قبل حوالي ثلاثين سنة، كان حين طلب وزير الإعلام السابق السيد عبد اللطيف الفلالي بصفة شخصية فقط، من بعض الشخصيات آراءهم فيما يخص بداية قناة تلفزية ثانية، وكان الاجتماع المخصص لذلك خلال شهر فبراير من سنة ١٩٨٤، اقترحت حينئذ على السيد الوزير قبل التقرير في بداية قناة ثانية ضرورة تنظيم أيام إعلامية ، اتصالية فرصة لتبادل الآراء والأفكار والمقترحات بين مختلف الأوساط المهنية والمعنية بهذا المجال من مختلف الزوايا السياسية والاقتصادية والثقافية والابداعية والاعلامية والسينمائية وغيرها، لأنه قبل ولوج أية تجربة ضخمة كهذه وجب تحقيق تصور شامل لما نحن في حاجة اليه ولما نريده، فكان رأيي ضرورة تحديد الأهداف الاستراتيجية قبل أن نحسم فيما إذا كنا في حاجة الى قناة ثانية أم لا؟ وكان يجب أيضا في رأيي، قبل أن نفكر في الانطلاق في بناء قناة ثانية، ضرورة تقييم الأعمال التي تقوم بها القناة الأولى وبالتالي رصد مواطن ضعفها، وكيف يمكننا أيضا تحسين برامج القناة الأولى، ثم نفكر في قناة ثانية كقناة تكميلية، إما من ناحية عمودية أي أنها تكون خاصة بالثقافة أو بالتربية أو بالإبداع أو تكميلية بالمعنى الذي تتكامل فيه مع القناة الأولى في نفس الآن، أي حين يكون بالقناة الأولى برنامج ترفيهي، يكون في القناة الثانية برنامج ثقافي أو تربوي أو علمي. وهذه بعجالة بعض ملاحظاتي ساعتها حين كان

العالم يعيش خلال هذه المرحلة (1984) أزمة من أكبر الأزمات التي كانت تسمى : أزمة النظام الإعلامي الجديد.

وعموما أعتقد أنه من أسباب التخلف في العالم الثالث، بعد مشكلة الأمن الغذائي، هنالك الأمن الاتصالي، أو الاعلامي بما في ذلك الحاجة الى أقمار اصطناعية، ودور الإعلام الذي أصبح نقطة حساسة في حياة المجتمعات، إذ أصبحت الحروب نفسها تلعب دورا أهم من الاسلحة، كما هو الشأن اليوم بالخليج الذي تتأرجح أحداثه أكثر في اتجاه الانفجار لا قدر الله، وأصبح للإعلام دور أساسي في الاطلاع على المعلومات السياسية والعسكرية والاقتصادية وغيرها، ويكفينا أن نرى اليوم خلال الأزمة الحالية كيف أن الإعلام الغربي يلعب أدوارا خطيرة باختلاق أخبار لا أساس لها من الصحة، وينقلنا الى حالة من ردود الفعل والانفعالات التي يتحكم فيها هذا الإعلام الغربي الذي وضعنا في جو مشحون من الحرب السيكولوجية والنفسية التي لا أساس لها على ساحة الواقع، ونرى كذلك قناة مثل س.ن.ن. الأمريكية التي لها من الوسائل الإعلامية والإخبارية ما يجعل كل رؤساء الدول يتتبعونها لدرجة أتساءل معها عن جدوى دور السفراء اليوم؟

ومن زاوية ثانية فإننا حين نتحدث عن الأمن الإعلامي فلأنه يشمل أيضا ما يسمى الأمن الثقافي والحضاري لأمة من الأمم أو لدولة من الدول.

س - بهذا المعنى هل أنتم غير راضين اليوم على واقع الاتصال والاعلام ببلادنا؟

ج - بكل صراحة، أنا كنت ضد فكرة إحداث قناة ثانية وذلك لسببين : السبب الأول شرعي - قانوني، وأتساءل الى حد الآن عن شرعية القناة الثانية. أعلم أنه كان هنالك نقاش في البرلمان، وفيما أعلم أن هنالك ظهيرا شريفا لماي 1959 يعطي الاحتكار التام للدولة في هذا المجال، وأي تغيير لهذه السياسة أي لاحتكار الدولة. كان يجب أن يأتي بطريقة شرعية بتغيير هذا الظهير، أو بإحداث ظهير جديد شمولي يخص الاعلام بصفة عامة، وأتساءل أيضا عن الأساس الشرعي لإذاعة ميدي آن؟ ومن نفس الوجهة القانونية الشرعية هو الأساس الشرعي لقناة دوزيم. فهناك أمران : إما أن هنالك احتكارا للدولة، فهل يمكن للدولة نفسها، وأعني هنا الحكومة - أن تخرق القانون بتغيير هذا القانون؟ وهل يكفي إحداث مرسوم تطبيقي لتغيير ظهير شريف؟.

أما السبب الثاني فيتعلق بتساؤلي عن أسباب غياب مبادئ واضحة ومعايير مضبوطة حتى في حالة تغيير هذا القانون؟ فلماذا يسمح لشركة فرنسية مثل صوفيراد التابعة للحكومة الفرنسية ووزارة الخارجية الفرنسية، وفيها تأثير صهيوني يعاني منه كل من يسمعون «ميدي آن»، لماذا إذن يسمح لهذه

الشركة باحتكار جزء كبير جدا من هذه الإذاعة على أرض دولة المغرب؟ ولماذا تساهم الميزانية المغربية في العجز المالي لإذاعة مثل هذه؟ ولماذا لم يسمح لمبادرات أخرى ولإذاعات أخرى مستقلة، كما أعطي هذا الحق لإذاعة «ميدي آن»!!.

نتحدث عن ليبرالية الاقتصاد، وعن المحدودية في دور الدولة فلماذا في ميدان مثل الاعلام لم يسمح لطرف آخر أن يبدأ؟ أما والحالة هذه فإن الدولة تحافظ على احتكارها وتعطي لأطراف دون أخرى حق هذا الاحتكار، فأظن أن في ذلك خرقا للقانون وللشرعية القانونية.

وهذا الواقع يمثل في مقام آخر مسا بالتوازن العام، وهو مس بمبدإ الخبر المقدس وأيضا بحرية التعليق والتعبير الحر.

فالتعليق ليس حرا حين يعطى الحق في الإحتكار لمؤسسة أو مجموعة كيفما كانت دون أخرى، وهو نفس وضع القناة الثانية للتلفزة، فأنا الى الآن لا أفهم قانونيا شرعية وجود «ميدي آن» وحتى إذا كان الأمر كذلك فأنا لا أفهم في الزمن الذي نتحدث فيه عن الليبرالية وعن الحرية وعن الديموقراطية، لماذا لم يسمح لمبادرات اخرى في هذه الميادين على أساس تجاري وبنفس إمكانيات الأخبار وإمكانيات المنافسة، والمبادرتان اللتان تحدثت عنهما أعطيت لهما بعض وسائل الدولة.

وبالإضافة الى كل هذا، فإن الدول الأوروبية، مثل فرنسا، حين فتحت الباب للقطاع الخاص في مجال الاعلام والاتصال فإنها أحدثت هيئات وطنية تشرف على قواعد ومبادئ الإعلام بالبلاد.

ويوجد في فرنسا المجلس الأعلى للوسائل السمعية البصرية وكذلك الشأن بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية التي لها «لجنة فيدرالية تشرف على التلفزات.. أما نحن فليس لنا أي تخطيط ولا أية سياسة ولا نملك أية مفاهيم قانونية تقنن إعلامنا وتحمي له سيادته وأهدافه، من خطط الغرب الذي يمهد مشروع توسيع هيمنته الإعلامية، ويساهم بكل الوسائل في غزوه الإعلامي، ومنذ بضعة أيام قرأت أن وزير الفرنكوفونية كان في القاهرة ووقع مع وزير الإعلام المصري اتفاقية لإرسال ساعة يوميا على الأقل من البرامج الفرنسية من مشروع يسمى «بنك الصور» وهناك اتفاقيات أخرى مع عدد من الدول الافريقية لبث برامج الإذاعة والتلفزات الفرنسية، ويعمل الأمريكان نفس الشيء بتخطيط محكم لإنجاح الغزو الاقتصادي والثقافي والاعلامي والحضاري، ونحن لا نملك في العالم الثالث أية خطة لمواجهة هذا الغزو، لأنه لا يمكن تحقيق المواجهة بدون استراتيجية وبدون سياسة إعلامية وبدون تعاون إعلامي لا على مستوى المغرب العربي أو مع الدول الإفريقية أو الدول العربية أو غيرها من دول الجنوب، لأنه لا يمكننا وحدنا بوسائلنا مواجهة هذا الميدان.

ففي أوربا، ومنذ بضعة شهور، كما قلت سابقا أشرف الرئيس الفرنسي على اجتماع لقادة دول السوق الأوروبية لدراسة مشروع خطة إعلامية أوروبية موحدة، وأصبح أكبر نزاع اليوم ما بين الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا حول ميدان الإعلام لأن الأوروبيين اختاروا أن يحدد عدد البرامج غير الأوروبية التي ترسل على الشاشات الأوروبية، بينما تعارض أمريكا ذلك بمبرر حرية الاتصال والتقاء المعلومات وأن مبادرة الأوروبيين هي ضد الاتفاقيات الدولية.

فإذا كانت الدول الأوروبية على أعلى مستوى وهو مستوى رؤساء الدول تعاني من غزو ثقافي وإعلامي، وبذلك فإن فرنسا التي تمتلك خطة في الإعلام وفي الغزو الإعلامي والتبشير لأفكار في أوسع رقعة جغرافية ممكنة وبخاصة في المناطق التي كانت تملكها، لما كانت دولة استعمارية، إذا كان هذا على مستوى المجموعة الأوروبية كيف بنا نحن؟

لذا فإن ردود فعلي ليست فقط اقتصادية أو قانونية أو تنموية، ولكن هنالك خطر قادم ويؤلمني كمغربي، وبكل صراحة - أن أسمع «ميدي آن» ثم أعلم أنها إذاعة تنطلق من المغرب وبحكم اهتمامي بميدان الإعلام اضطر لسماع قنوات أجنبية - بكل تفتح - ولكني لما أستمع لـ ب. ب. س. أعرف كل المعرفة ما هي ب. ب. س؟ ومن أين تبث؟ ولما أسمع «راديو فرانس انترناسيونال أعلم أنها فرنسية ،أقرأها بنظارات مغايرة، ولما استمع الى إذاعة أمريكية أكون عارفا بأصل المصدر وأهدافه، فيتحقق لدي الاستعداد والحذر النقدي الكافي لقبول هذا الرأي دون ذاك، لكن لما يكون إنسان داخل وطنه يستمع لإذاعة تنطلق من جهة معينة داخل وطنه، فإن ذلك يمثل خطرا ويحدث نوعا من التشويش في الخبر والتعليق.

وعموما أعتقد أن المغرب يعاني الى جانب مشاكله الفلاحية والاقتصادية والتربوية، مشكلة الإعلام بسبب عدم الاهتمام بالتخطيط الاستراتيجي للإعلام، ونرى مثلا في تونس أن من أول الأشياء التي حققها السيد زين العابدين بن علي لما جاء للحكم كرئيس دولة، انه عين لجنة ترأسها السيد الحبيب بولعراس، اشتغلت مدة ستة أشهر أو سنة، لتحديد خطة إعلامية، ونجد الجزائر أيضا كما في تونس، كل الناس الذين تهمهم الأقمار الصناعية الاستراتيجية يقتنونها مادام ليس هنالك قانون يمنع حق المواطن في استعمالها، عكس المغرب الذي لا نجد فيه قانونا يسمح باستعمالها أو بمنعها، رغم أهميتها اليوم من ناحية تسهيل التواصل التكنولوجي - وتمنيت لو وضع قانون يوضح لماذا لا يسمح للناس باستعمال هذه الوسيلة التكنولوجية؟

فنحن لنا في هذا الميدان حالة من عدم الوضوح. هل عدم الوضوح مقصود لمصالح معينة أم أنه

فقط يرتبط بعدم توفر الوقت الكافي لدراسة هذه المسألة؟ وأظن أن المسؤولية هنا تتحملها جميع المؤسسات، ترجع للبرلمان الذي لم يقم بدوره في هذا الميدان، وترجع للصحافة المغربية التي لا تعطي لهذا الموضوع ما يكفيه من الاهتمام، ويرجع للمسؤولين في الجامعات وللمفكرين والمثقفين والسينمائيين والمنتجين.

نتساءل عن دور التلفزات إذن في بلدان العالم الثالث؟ فلماذا ترى ميزانيات التلفزات مثل التلفزة اليابانية أو الأمريكية أو ب.ب.س. أو غيرها، وترى أن إنتاج ساعة محترمة في اليوم تكلف ما بين 20 و 50 ألف دولار إلى حوالي 100 ألف دولار. ثم ترى في غياب سياسة إعلامية، تلفزتنا تستعمل أفلاما تأتينا للدعاية والإشهار أو أفلاما من الدرجة الثالثة أو الرابعة التي ليست لها سوق في أي مكان. أو نملأ البرامج بالرياضة والكرة لمدة ساعات وساعات، وليس لي أي شيء ضد الرياضة، بل إني أحب كرة القدم وأحضر لعدد من مبارياتها. ولكن كل هذه الأشياء مترابطة ومرتبطة بشيء أساسي هو الاهتمام بقطاع أصبح اليوم هو أهم قطاع أساسي للتنمية، وهذا كلام قلته منذ أكثر من عشر سنوات، ولكننا الآن أمام أزمة تمس أمننا الإعلامي وأمننا الحضاري عامة.

فأنا متفتح وأقبل الحوار وأدافع عنه، بل إني قضيت حياتي كلها متنقلا من دولة إلى أخرى، ولكن لن أقبل أن يكون مبرر الحوار غير الحقيقي يستهدف تدمير شخصيتنا وهويتنا، وقد قلت مرة في برنامج للتلفزة اليابانية موجه إلى أكثر من خمسين مليون مشاهد أن الحروب المقبلة ستكون مبنية على الحرب الإعلامية والحضارية، وأزمة الخليج أعتبرها بداية لحرب حضارية فلا أعتقد أن أسبابها اقتصادية أو نفطية فحسب، بل هي كذلك حضارية، فمسألة النفط تعني أن منطقة واحدة تستفيد من 80٪ أو 75٪ مما ينتجه العالم كله، ولهذه المنطقة نمط معين ولها مفهوم خاص في الحياة، ومن تم تخوف الغرب من أن تستمر مدى الحياة هذه المنطقة مستغلة لهذه المادة الحيوية، بما يجعلها تتحكم في السلام العالمي وهذه في عمقها فكرة حضارية، ولذلك فوراء مبرر النفط، نجد قيما ونموذجا تنمويا وعلاقات شمال - جنوب، وهنالك مفهوم لعلاقة القوة، وقلت خلال هذا البرنامج الياباني أن أول حرب من هذا النوع ستنشب ما بين أمريكا واليابان وقد بدأت، وهي حرب لا اقتصادية ولا عسكرية ولكنها حضارية ترتبط بقيم ثقافية.

وقد بدأ اليابان نفسه يتساءل عن مصير الهيمنة الأمريكية، وهو أمر بات يكتب من طرف مسؤولين في مختلف القطاعات العامة والخاصة اليابانية ومن طرف أصحاب الشركات الكبرى.

س – ما رأي المهدي المنجرة كمواطن، كمغربي، ثم كمثقف، في برامج التلفزة المغربية. القناة الأولى، بطبيعة الحال؟

ج – والله، بكل صراحة، ليس لي مع التلفزة سواء بالمغرب أو خارجه سوى موعد نصف ساعة في اليوم لأنني منشغل كثيرا، بمطالعاتي وأبحاثي وطلبتي وبعملي. وفي أحيان قليلة أتابع برنامجا معينا يكون لي به علم من قبل سواء تعلق الأمر بالقناة المغربية الأولى أم بتلفزات أجنبية كقناة ت ف ٥، أو غيرها.

إذن، فمبدئيا عدد الساعات التي أتابع فيها الشاشات أو الفيديو ضئيلة جدا، وبكل صراحة وكغيري، أرى الأخبار بقناة ت. ف. ٥. ولما أرى بالصحف الوطنية أن هنالك أخبارا مهمة ألجأ أحيانا للتلفزة المغربية وأكتفي بتتبع جزء بسيط من نشرة أخبار القناة الأولى أما القناة الثانية فلا تدخل بيتي ولا أراها.

وأظن أننا نجد مستوى من الانحطاط بهذه التلفزة وإن كنت أعتقد أني في غير حاجة لتتبع التلفزة لأقوم مستواها، فيكفيني في مخالطتي للأوساط الفكرية والعلمية والفنية والأبداعية من رسامين وفنانين وشعراء ومغنيين وملحنين، أن نرى هذا الانفصام التام بين جهاز التلفزة والإذاعة وهذه المجموعة التي تمثل النبض الحقيقي للبلاد وطاقتها الحقيقية، ونرى أن درجة الانفصال بلغت حد جدار مثل جدار برلين يفصل مؤسسة التلفزة والإذاعة عن هذه الطاقات، يكفيني هذا عن رؤية التلفزة والإذاعة وللأسف حتى عندما تتناول التلفزة موضوعا نجد المرجعية تعود دائما للأجنبي أو لبرامج أجنبية أو لنقاش أجنبي وكأن هذه البلاد المسكينة ليست لها أية وسائل وأي فكر وأي إبداع.

وأقول بكل الصراحة التي عهدت في، أن درجة الانحطاط بلغت مستوى كبيرا، لا فيما يخص التلفزة ولا فيما يخص الإذاعة.

اجرى الحوار: المصطفى الرزرازي

«العلم» الاثنين 16 اكتوبر 1990 و22 اكتوبر 1990

مستقبل المنظمات الدولية
وسائل إعادة تنشيطها

أود بادئ ذي بدء، أن أهنئ منظمي هذه المائدة المستديرة على اختيارهم موضوعها "مستقبل التعاون الدولي: مشارف القرن الحادي والعشرين"، فهذا أكثر المواضيع قبولا بعد احتفالات الذكرى الأربعين لتأسيس الأمم المتحدة التي مالت إلى تأكيد الماضي بشيء من الرسمية، ككل الاحتفالات من هذا القبيل.

وعلى هذا لم تلق المشاكل التي تواجه العالم اليوم، بل تلك التي ستواجهه في المستقبل ، نصيبها اللائق من العناية، وإن كانت لم تهمل بالمرة، إن الحنين جزء ضروري من الحياة لأنه يرعى الذكريات، ولكن البصيرة أكثر أهمية لأنها تعطي الماضي معنى ديناميا كجزء من تصورها للمستقبل.

إن بعد المستقبل مهم جدا لأنه ينبذ المنظور الطولي، ويقر بظاهرة الانقطاع كعامل إيجابي، ويشجع التفكير الابداعي من إدراك أن البشر لم يكن لهم مثل هذه القوة، فكريا وماديا، على صنع المستقبل، لقد أصبحت منظمات الأمم المتحدة في نظر الكثير، وأنا منهم مدافعين، عن غير قصد، عن الوضع الراهن، وما لم تتغير تلك المنظمات تغيرا جدريا فقد تغدو عائقا في سبيل بلوغ المستقبل المنشود والممكن ، وغير مقدر لمثل هذا المستقبل أن يرى الحياة من دون منظمة دولية أقوى.

لقد طلب مني أن أتحدث في الموضوع المعنون: "منظمات الأمم المتحدة: وسائل تجديد نشاطها، وهذه المنظمات، التي يطلق على مجموعتها منظومة الأمم المتحدة، هي وسائل لغاية ومن هذا المنطلق، ومع أنني قضيت سبعة عشر عاما من حياتي كخادم مدني دولي في نطاق تلك المنظومة، فإنني أعتقد أن الاهتمام بمصير التعاون يجب أن يسبق الاعتبارات التنظيمية.

إن السؤال المهم هو : لماذا منظومة الأمم المتحدة؟ " ، إن الجواب عن هذا السؤال يحدد الغاية من هذه المنظمات، ومن ثم يقود إلى فحص مردودها كوسيلة لتحقيق تلك الغاية، وما لم نعتمد هذا المنطلق

(*)1987

فهناك احتمال كبير بأن ننتهي بقائمة طويلة من الوصفات التي تعالج الوسيلة والأسلوب من دون أن تؤثر على جوهر المشكلة.

ولا أعتقد، من جانبي أن الأزمة هي أزمة منظمات، إن الأزمة أكثر خطورة من ذلك، إنها أزمة تؤثر على مفهوم التعاون الدولي ذاته وعلى جوهره. إنها عرض جماعي لاختلافات عميقة بين أعضاء المجموعة الدولية بشأن ذلك التعاون وأدواته، إن الداء يكمن في دخيلة ما يسمى بصورة عامة "النظام الدولي"، ويجب البحث عن الحلول على هذا المستوى وليس على مستوى آلية المنظمات نفسها لأن هذه بدورها، ناتج ثانوي للمحيط الدولي الذي تدور في نطاقه.

إن غايات منظومة الأمم المتحدة محددة في ميثاق الأمم المتحدة وفي دساتير الوكالات المتخصصة، والصعوبة الرئيسية التي تواجه مستقبل التعاون الدولي ذات حدين، الأول هو الاتفاق الذي تم بين واضعي تلك النصوص عندما أقرت، وهذا ليس في قيد الوجود الآن، والثاني هو أن طبيعة المشاكل التي تواجه الإنسانية قبيل القرن الحادي والعشرين وتعقيداتها ليست هي نفسها التي كانت سائدة قبل أربعين سنة.

دعونا إذن نعالج هذين الجانبين قبل ان نحاول وضع مخطط للتوجهات القليلة التي قد تساعد على استعادة حيوية منظمات الأمم المتحدة، إن تعبير " استعادة الحيوية" ليس من وضعي، لقد جاء في عنوان الموضوع الذي دعيت إلى معالجته، وهو يتضمن أنها قد "حبطت" من قبل من ؟ ولماذا ؟

غياب الاتفاق على الغاية:

لقد تغير تكوين النظام الدولي تغيرا كبيرا منذ عام 1954 بسبب زيادة عدد الدول المسقلة نتيجة عملية تصفية الاستعمار، كما أن التطورات السياسية الأخرى قد أثرت على علاقات القوة وعلى مفاهيم المنظمة الدولية، ومع أننا مازلنا نجد اتفاقا شكليا على الأهداف الكبرى لمنظومة الامم المتحدة فليس هناك قبولا مطلقا لتحقيق تلك الاهداف عن طريق المنظمات الدولية.

لقد تغيرت طبيعة مشاكل الامن بين الدول العظمى، ولم تعد هذه تعتبر الامم المتحدة حلبة مناسبة للتفاوض بشأن القضايا الحيوية التي تفصل بين تلك الدول، مثل نزع السلاح، والنزاعات المسلحة المحلية في أرجاء شتى من العالم، والتي يطلق عليها " الحروب بالوكالة" وكذلك التطورات الرئيسية في العلم والتكنولوجيا،وهذا غيض من فيض، لقد اكتشفت تلك الدول طرائق أخرى لمعالجتها.

وقد خطت الاقطار الصناعية الاخرى خطوات واسعة في ميدان التعاون الاقليمي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا – ثقافيا، عن طريق الجماعة الاقتصادية الاوروبية، ومنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية

والكوميكون، وهذه المؤسسات الآن تحقق، كلا في نطاقها الاقليمي المحدد اطر التعاون المحسوس.

وهكذا تقلص دور منظمات الأمم المتحدة بالنسبة للأقطار المتقدمة،ولا سيما خلال العشرين سنة الأخيرة إلى درجة أصبحت معها ذات منفعة محدودة الجدوى لحاجات تلك الاقطار، والحجة التي تطرح في هذا المجال هي ان الاولوية تعطى، ولا شك، إلى الاقطار النامية، ومع أن أعضاء العالم المصنع متلهفة لمناقشة قضايا التطور الاقتصادي والاجتماعي في أقطار العالم الثالث، فإنها لم تكن متحمسة حماس تلك الأقطار لمناقشة المسائل التي تخصها في نطاق منظومة الامم المتحدة.

وعلى هذا استحال الهدف الشامل الرئيسي لمنظمات الامم المتحدة في ميدان التعاون الدولي إلى مفهوم جديد يعرف بعبارة " مساعدة التنمية" الذي هو ليس مجرد تعاطف لا نتيجة تعاطف مع العالم الثالث بل كوسيلة لتنمية منظومة الامم المتحدة عن الصورة بالنسبة لما يحدث الآن ضمن الاقطار الصناعية، وبصراحة، فإن الذين أسسوا الامم المتحدة قد غيروا رأيهم الآن بشأن غايات الامم المتحدة بمجرد تغير تشكيل تلك المنظومة تغيرا جذريا بات متعذرا معه على تلك الاقطار فرض اسلوبها في التفكير.

ومن المفارقات الساخرة أن الاعضاء الجدد كان لديهم سبب أقوى للتذمر من واقع خطط له في غيابهم عندما اتفق على تلك الغايات في " سان فرانسيسكو"، وعلى الرغم من البعد الانساني السخي الذي عكسته تلك الغايات، فمن الواضح ان هناك تغيرا في الاستقطاب العرقي بالنسبة للقيم الاجتماعية، الثقافية التي تحدد النظرة إلى العالم، وهذا التنازل الكريم من جانب الاقطار النامية قليلا ما يراعى ، بل ويفهم بدرجة أقل.

ودعوني، ختاما لهذه النقطة عن انتفاء الاتفاق بشأن الغاية ، ان اقتبس من الأمين العام لرابطة الكومنويلث، السيد سيرادات راميال، الذي كتب ما يلي عام 1984:

إن ما بدأ كعهد جديد للمفاوضات بعد انتهاء فترة ما بعد الحرب قد استحال إلى فترة من الخمول المدروس ومن المقاومة الثابتة للتغير... ولم نعد نستطيع، بأي درجة من الثقة، الادعاء بوجود إجماع أساسي ضمن المجموعة الدولية بدعم التعاون الدولي، ولا نستطيع الادعاء الآن بوجود أساس خلقي للتعددية" (مقتبسة من " هل ستكون التسعينات تكرارا ل (1984).

إن ما يحتاج إلى تنشيط ملح الآن ليس المنظمات بل الاحساس بالغاية والاتفاق على تلك الغاية والالتزام بها من جانب الدول الاعضاء في النظام الدولي، وأي مبادرة أخرى سوف لا تتعدى محاولة عابثة لتغيير الجداول والاساليب والحسابات المنظمة قد تعطي الانطباع الواهم بأنها خطوة إلى أمام من دون أن تساعد تلك المنظمات على مجابهة تحديات اليوم، بل تحديات القرن الحادي والعشرين.

تسريع التاريخ وزيادة التعقيد.

إننا كلنا مدركون لمعدل سرعة التغيير الذي حدث ولا سيما خلال عشرين سنة الاخيرة، إن مجموع المعرفة البشرية يتضاعف اليوم كل ثماني سنوات، والآثار العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية – الثقافية لهذه التطورات تؤدي إلى ظهور مشاكل جديدة، وإلى تزايد التعقيد الذي عجزنا إلى الآن عن تحليله بدقة، وإلى تغير اجتماعي سريع يثير أنواعا من النزاع والخلاف بالنظر إلى تغير القيم الاجتماعية – الثقافية، وإلى عجز عن معالجة القضايا العالمية ذات الحيوية الاساسياة لاتسمرار الجنس البشري.

وتختلف المشاكل التي طرأت خلال النصف الاول من هذا القرن عن تلك التي نواجهها اليوم، وعلينا إذن أن نقبل خصوصية العصر الذي نعيشه الآن، العصر الذي نعيشه الآن، وذلك الذي نتهيأ له، وأن نتأكد من أن تلك الخصوصية تنعكس على مواجهة الوكالات الدولية للمشاكل المثارة كي نتمكن من الاضطلاع بواجبات تنظيمية، ولقد تعرف اتحاد المنظمات الدولية إلى الآن على 333.10 مشكلة دولية (دائرة معارف المشاكل الدولية).

إن خصائص عصرنا، ونحن ننتقل من مجتمع إنتاج إلى مجتمع معرفة، هي التغير والإبداع والإبتكار والمساهمة والتوقع والعلاقة الاجتماعية الثقافية وإعادة التوزيع ونوعية العيش والاعلام والاتصال والكرامة الانسانية والسلم، ونادرا ما تم التطرق أعضاء الامم المتحدة لمثل هذه المواضيع و الاهتمامات داخل منظمات الامم المتحدة.

إلا أن هناك شيئا واحدا مؤكدا، وهو أن المنظمات الدولية في النصف الأول من القرن الحادي والعشرين، لا تستطيع أن تكون، ولن تكون، كتلك التي وجدته في النصف الاول من القرن العشرين، لقد تغير العالم، وعلى المنظمات الدولية إما أن تستوعب هذا التغير وإما أن تتفسخ ولهذا السبب علنا أن نحاذر اتخاذ موقف يرمي إلى العودة بنا إلى "منابع" و "الاهداف الاصلية" وإلى "إنجيل" المؤسسين، إن العودة إلى الأصول قد لا تكون أفضل نهج تسلكه المنظمات الدولية التي تروم ولوج القرن القادم.

إن التغير من طبيعة الأشياء، وهو آت بطريق أو بأخرى ولقد كانت المرونة أعظم قوة تمتعت بها المنظمات الدولية خلال العقود الثلاثة الاولى من عمرها، وكذلك قابليتها على التكيف وعلى استرداد القوة، لقد استهلكت تلك المرونة لو أرادت البقاء، هو التغير الناتج عن استيعاب أكثر من كونه نتيجة الاقتباس الذي لم يعد يجدي بتاتا.

يبقى السؤال : ما كلفة التغير اوالتحول الذي نحتاجه بشدة؟ إن كلفة التغير دائما تتناسب عكسيا

مع درجة توقعها، وكلما زاد انتظار المرء كلما زادت الكلفة، إن التغير هنا ليس في أساليب عمل المنظمات فحسب، إنه أولا وآخرا و أخيرا تكمن في النظام الدولي الذي يقرر أسلوب تصرفها، هذا التبدل يتعلق بالانصاف والعدالة الاجتماعية.

كيف؟

لقد بدأ "احباط" منظومة الامم المتحدة من قبل عدد من الاقطار الصناعية منذ أواخر الستينات، وأعلن إطلاق عدد من التقارير حول أداء المنظمات، مثل ذلك تقرير دراسة قدرة منظومة الأمم المتحدة للتنمية (1969)، والعديد من التقارير التي تبعته.

عند قراءتي لتلك الدراسة أحسست أن شيئا ما قد تغير، فقررت أن أترك عملي كمدير عام مساعد لليونيسكو، وأن أعود إلى التدريس في الجامعة وإخراج كتاب عن غياب نظام الامم المتحدة ، منبها إلى بعض المخاطر التي تنطوي عليها دراسة (الفاعلية) و (التنموية). وقد أنهيت كتابته عام 1971 ونشر عام 1973، ولقد قرأه بعضكم، بل إن البعض قد علق على مسودته، أما أولئك الذين لم يروه فسوف يجدون في ذيل هذه الورقة ثلاثة مقتطفات منه ذات علاقة بموضوعنا وتبرهن على أن "أزمة " النظام كانت قد أينعت منذ عام 1970.

يعتبر تخصيص الموارد مؤشرا مقبولا على صحة وعافية النظام، وفي الواقع بدأت "أزمة " في منظومة الأمم المتحدة المالية منذ النصف الثاني من الستينات، وبلغت أوجها مع الدورة الخاصة الأولى للجمعية العامة في نيسان / أبريل 1986، التي خصصت لدراسة الموارد المالية، ولا تعود المصاعب المالية التي يعانيها النظام إلى عجز الدول الاعضاء عن دفع ما بذمتها بقدر ما تعود إلى انعدام رغبتها في دفع ما عليها ... إن مجموع التخصيصات المالية لمنظومة الامم المتحدة أقل بكثير من ٪1 من مجموع الدخل القومي للدول الاعضاء، ولهذا ، فإن دوره في تخصيص الموارد هو دور هامشي في الواقع.

ما هي الاجراءات التي يمكن تصورها لجعل تلك المنظمات أكثر صلة بحاجات العالم ؟ إن المسألة في الواقع شاسعة جدا، وسيكون من قبيل العبث إيجاد حل لها بشيء من الدقة ويستهدف "إعادة فاعليتها" كما طلب مني أن أفعل. وماعلى المرء إلا أن يضع خطوطا لتوجهات قليلة لإحداث تغيير مبتكر ومنسجم. وهذه الخطوط موجهة بالضرورة نحو الدول الاعضاء والذين هم الممثلون الفاعلون في مجال منظمات الامم المتحدة.

أ- يجب وضع حد لرسالة " معونة التنمية" التي تتولاها المنظمات الآن وإنهائها بنهاية عام 1990، وباستثناء فاعليات اليونسيف وإسعاف آثار الكوارث. إن فشل منظومة الأمم المتحدة في هذا المجال والأذى، الغير المقصود، الذي أحدثته نماذج التنمية التي ساعدت تلك المنظومة الأمم المتحدة في هذا المجال الأعضاء

والذين هم الممثلون الفاعلون في مجال منظمات الأمم المتحدة.

ب- يجب بالتالي إنهاء البرامج الطوعية، أو على الاقل تقليصها بشدة، إن مجموع ثقل هذه البرامج على موارد المنظومة المالية يجب ألا يزيد عن ٪ 20 في عام 1990 أو ٪10 لغاية عام 2000 (وهي تمثل الآن 50 بالمائة من إجمالي النفقات).

ج- يجب أن تعتمد المنظمات على ميزانيات مضمونة لإزالة كل مظهر من مظاهر الصدقة او الاستجداء. ويجب ألا يكلف أي عضو بأكثر من ٪10 من الموازنات ولا بأقل من ٪ 1 منها. أما من لا يملك موارد كافية لدفع الواحد بالمائة فعليهم تكوين تكتلات من أعضاء في وضع مماثل. وهذه التكتلات لا تتجاوز حدود التصويت وغاياته، وينبغي ان يفهم ان المقصود بهذا ليس في إيجاد تكتلات ترجيحية في التصويت، بل القصد تكوين تجمعات متضامنة، وفي هذه الحال حتى لو اقتضى الأمر تخفيض بعض الموازنات، فإن منافع هذا الأسلوب سوف تعوض عن الخسارة المؤقتة.

يجب أن تشمل برامج هذه المنظمات كل الدول الاعضاء، من الشمال والجنوب على السواء وفي جميع القطاعات، والهدف من هذا ليس " معونة " فنية بل تعاونا دوليا حقيقيا مبني على تبادل التجارب و الأفكار والمعلومات والأشخاص، وإذا لم يكن برنامج منظمة ما موثوقا لدولة متقدمة او نافعا لها فكيف يمكن أن يكون كذلك لدولة نامية؟

هـ - يجب أن تركز هذه البرامج على تحقيق هذه الرسالات الأساسية:

1. حفظ السلام
2. إنشاء معايير وقواعد وأنظمة دولية
3. إعادة التوزيع والتغيير الاجتماعي لضمان نوعية أفضل للحياة وصون الكرامة الانسانية
4. الاتصال الدولي وتبادل المعلومات
5. البحوث والتنمية من أجل تقليص الهوة بين الشمال والجنوب
6. التكامل الاقليمي والدولي، إذ لا جدوى من التجميع الاقتصادي لأقل من مائة او مائة وخمسين مليونا من البشر، ولا حظ لمثل هذا التجمع في دخول القرن الحادي والعشرين مدخلا محترما
7. التعددية الثقافية اتقاء للتجانس وللسيطرة
8. حقوق الانسان

وفي الختام ، أود أن أوكد ثانية حقيقة أن الازمة لا تكمن في دخيلة المنظمات ولكن في دخيلة النظام الدولي الذي يتبع الآن أسلوب "التسبب" إن المسألة الآن ليست استمرار هذه المنظمة الدولية أو تلك بل الإنسانية

نفسها.

إن استمرار سيناريو الوضع الراهن غير معقول لاكثر من بعض سنوات على الأكثر لان التغير هو سنة الحياة وسنة جميع الانظمة، إن سيناريو الاقتباس والاصلاحات المعتدلة غير متوقع أن يستمر ايضا لان الامور قد تجاوزت حدها. إن السيناريو الوحيد المتبقي للمستقبل، في نظري، هو ذلك التحول السلمي إذا رغب المرء في أن يتفادى، في المنظور البعيد، سيناريو المجابهة الذي قد يكون باهظا جدا.

لقد تيسر لي وقت كاف لقراءة التقرير الجديد لـ " مجموعة الخبراء الحكوميين ذوي المستوى العالي المكلفين باستعراض كفاءة الفاعلية الادارية والمالية للأمم المتحدة" الذي قدم إلى الدورة الحادية والاربعين للجمعية العامة للأمم المتحدة (الوثيقة 49/41/1). وهي وثيقة معدة إعدادا جيدا واحترمت تماما حدود تفويض المجموعة بالتقيد بحدود الجوانب الادارية والمالية لإدارة منظمة الامم المتحدة . ولم أعلق على ذلك التقرير لان اهتمامي، فيما يتعلق بمستقبل الامم المتحدة، في مستوى آخر، ومهما كانت توصيات التقرير حكيمة، فأنا لا أعتقد ان جوهر الموضوع متعلق بالاعتبارات الإدارية والمالية حتى وإن كان من الواجب عدم إهمالها. إن هذه الاعتبارات لا يمكن ان تدخل في الاعتبار قبل حسم المشاكل الأولية والحيوية.

إن المشكلة في التحليل النهائي لا تخص بنى المنظومة الدولية فقط، ولكنها في الغالب مشكلة بني صانعي القرار، وهذه تأخذ وقتا أطول في التكون، ولا تتعلم مع الأسف إلا من الصدمات ، إن التعاون الدولي مسيرة معرفة حقيقية بهذا الاعتبار في حاجة إلى الابداع والابتكار، إنه تربية مستمرة.

وعلى الرغم من كل الاسباب الموضوعية التي تدعو إلى التشاؤم بشأن التعاون الدولي في المدى القريب، فإن هناك أسبابا تدعو إلى التفاؤل في المدى البعيد إذا آمن المرء بعبقرية الانسان كل هذا لو آمنا أن المدى البعيد يبدأ اليوم.

هوامش :
المستقبل العربي 1- 1987

بروز نظام عالمي جديد وتحديات الانتقال(×)

بروز نظام عالمي جديد وتحديات الانتقال : إن هذا الموضوع يشكل تحديا في حد ذاته. وأبتدئ بمقولة الكاتب الفرنسي مونتسكيو، وهي واحدة من الجمل التي أحبها كثيرا لديه وهي قوية وملائمة لنقاشنا:

«إن الفرد يبحث عن عصر جميل يكون فيه حرا الى النهاية ويحظى فيه بأكبر مساعدة، وهو مجدها قريبا من بداية نهاية نظام اجتماعي : إذ ذلك، بين النظام والفوضى تسود لحظة لذيذة».

اسمحوا لي بأن أبدأ بجرد للوضعية الراهنة بأسلوب وجيز.

1 - لأول مرة في تاريخ البشرية، يستطيع الإنسان أن يدمر ذاته، ويدمر نوعه، إما بواسطة القوى التدميرية للأسلحة المطورة وإما بواسطة الاختلالات البيئية للتصنيع السائب. إن التحولات البيئية التي حصلت خلال المائتي سنة الأخيرة، أي العصر الذهبي للثقافة والحضارة الغربية، وذلك منذ تحرير الطاقة انطلاقا من المتحجرات قد أحدثت أضرارا أكثر من كل التحولات الأخرى منذ بداية الحياة على الأرض والتي تعود الى أكثر من ٤ ملايير سنة.

إن النموذج الصناعي ونمط الحياة المرتبط به اللذين نحاول تقليدهما في بلداننا كالقردة قد أحدثا خسائر فوق هذا الكوكب تفوق كل تلك التي حدثت خلال أربعة ملايير سنة، ولإعطائكم فكرة أدق عن ذلك، فإن الإستخدام المفرط لإنتاجية المحيط الحيوي قد بلغت 40٪ حسب التقديرات الراهنة، فلا يمكن ولا يتصور أن نستطيع التفكير في استمرار حياة كوكبنا حتى خلال 25 أو 30 سنة المقبلة إذا لم يتم تقليص مباشر لاستهلاك البترول والفحم خلال نفس الفترة ب 25 أو 30٪. إن هذه تقديرات اختصاصيين في الموضوع، فاستمرار الحياة لم يعد أمرا مفروغا منه.

2 - تسارع التاريخ الناتج عن انفجار المعرفة في لحظة تتضاعف فيها المعرفة الكلية للبشرية حاليا (عشرة آلاف سنة من التاريخ) كل سبعة أعوام أو ثمانية، يتم نشر أكثر من ألفي كتاب في اليوم، ومليوني مقال علمي في السنة وذلك على صفحات 60000 مجلة متخصصة، أي ما يعادل مقالا في كل خمس عشرة دقيقة. وإذا نحن أردنا استعمال خطاب الفيزياء النووية فسنقول أن «نصف حياة» المعرفة العلمية يقدر بسبع سنوات. هذا يعني أن كل شخص (كيفما كان) لا يجدد معارفه خلال سبع سنوات يسقط في شبه أمية علمية.

(×) 1990

لم يعد من الممكن الركون أبد الدهر إلى حصيلة علمية غير مجددة على نحو منهجي.

3 - العنصر الثالث في هذا الجرد هو «التعقيد» المتصاعد الذي ينتج عن ارتفاع عدد المشاكل والمفعول المضخم الناتج عن ارتباطاتها في تطور هندسي، فدراسة «التعقيد» قد أصبحت اليوم علما وميدانا واسعا لبحث يغطى أيضا «الفوضى» (La chaotique) حيث يدرس النظام والاختلال. وقد بلغ هذا التعقيد اليوم درجة لم تعد معه أي حكومة في العالم قادرة على تسيير كوكبنا، إن أكبر أزمة تواجهها البشرية تتمثل في الفهم. يجب أولا فهم هذه المشاكل في المكان والزمان ولا تفكر كل الحكومات عبر العالم (وبهذا الصدد يجب وضعها جميعها في نفس السلة) إلا في المدى القصير والانتخابات المقبلة. وهي بالتالي عاجزة عن أن ترى ما هو أبعد من أنفها، إن التفكير في المشاكل الحقيقية للبشرية يجري انطلاقا من مصالح جد ضيقة وعلى مدى قصير دون أن تؤخذ بعين الاعتبار النتائج الخطيرة طويلة الأمد التي تعلن عنها «بعدي الطوفان» بهذا المعنى تكون البشرية حاليا متخلفة.

4 - العنصر الرابع في الجرد، يتعلق بالهوة المتعاظمة بين مستوى معارفنا من جهة، وقدراتنا على تطبيقها لتجاوز مشاكل أولية مثل البؤس والفقر والجوع والجهل والمرض والظلم الاجتماعي والحرية والسلم من جهة أخرى، وذلك لكي نضمن على المستوى العملي حياة تكون في مستوى هذه المعرفة وهذه الطاقات لصالح البشرية كلها، فهناك تبذير هائل واستعمال للعلم والتكنولوجيا لغايات تخريبية عبر صنع أسلحة فتاكة أكثر فأكثر، ومن ثم العجز عن توفير الضبط الاجتماعي للمعرفة، لا يكفي فقط معرفة الأشياء، يجب أيضا أن نعرف كيف توظف هذه المعرفة لخدمة بعض الغايات. والغاية الأساسية من بينها هي نوعية الحياة التي يمكن توفيرها لكل كوكبنا سواء بلغ عدد سكانه خمسة مليارات أو حتى عشرة إذا أخذنا الوسائل التي تتوفر عليها البشرية بعين الاعتبار.

5- هناك عدم تكافؤ في موازين القوى داخل النظام الدولي وهذه بعض الأرقام التي تبرهن على ذلك بقوة : إن الشمال الذي يمثل أقل من 20٪ من سكان العالم يستفيد من 80٪من الخيرات المادية لكوكبنا ومن 85٪ من النفقات على التربية ويتوفر على 95٪ من النفقات العالمية على البحث العلمي.

6- يلاحظ نوع من الإعياء على النموذج التنموي للبلدان المصنعة، ويلاحظ فشل تام لنقل هذا النموذج إلى بلدان العالم الثالث حيث لا يفعل شيئا آخر غير تفقير السكان، يصاب هذا النموذج بالإعياء في البلدان التي ولد فيها. وإن أحداث أوروبا الشرقية تشكل عمليا علامة عياء الإيديولوجيات الغربية أكانت اشتراكية أو رأسمالية، والاثنتان بنتان لنفس الحضارة؛ حضارة العالم اليهودي - المسيحي. إنها تحيا بنفس الرموز ولها نفس المرجعيات الاجتماعية - الثقافية وباتجاه من يقولون أن النموذج الشيوعي قد أفلس

يمكن موضوعيا تقديم الرد التالي : إنه في مدة سبعين عاما قد قضى على الأمية على الأقل، ورفع المستوى الثقافي والعلمي للسكان وضمن صحة أفضل للجميع، وحياة أطول وحد أدنى من إعادة التوزيع الاقتصادي. بقيت الحرية، إنها تكتسب الآن بسعر اجتماعي منخفض نسبيا بسبب كل هذه الاستثمارات، وبالنظر للفقر والأمية والمرض والفروق الكبيرة السائدة في بلداننا سيكون الثمن الذي يتعين دفعه أكثر ارتفاعا.

إن فشل أوروبا الشرقية هو في نفس الوقت فشل لأوروبا الغربية لأن هذه الأخيرة لن تستطيع الحفاظ على نموذجها التنموي الراهن خلال العشر أو العشرين سنة المقبلة، إن ذلك لا يتصور إذا كان المرء يشتغل قليلا بالمستقبليات، لقد دخلنا منذ بداية الثمانينات في عهد من القطائع والصراعات التي ستستمر خلال عقد آخر على الأقل. هناك ميول ثقيلة وعتبات انقطاع واضحة، اللهم إذا كان المرء في نفس الوقت أصم وأعمى فاقدا للذاكرة والشعور.

7 – هناك انتقال في نظام القيم وتراجع في الروحيات، لا يجب اختزال كل شيء في الأصولية لأن ذلك من باب النزعة الاختزالية، وفي الدين كما في السياسة أقول إن أكبر «الأصوليين» بالمعنى «الاختزالي» هم المسؤولون الحكوميون في بلدان العالم الثالث الذين يدعمونهم في الخارج إنهم عاجزون عن فهم ما يجري أمام أنظارهم. هكذا يلجأون الى تبسيط مفرط يريح أفقهم المحدود ويقوي أوهامهم. بعد هذا الجرد التمهيدي ما هي بعض الميول الثقيلة التي يسفر عنها.

II - الميول الثقيلة :

1 ـ النمو الديموغرافي للعالم الثالث : هذه أول وساوس الغرب. كان عدد سكان العالم يبلغ سنة 1950 مليارين ونصف، ثلاثة أرباعها من القرويين، وتم الانتقال سنة 1980 الى 3.2 ملايير. واليوم في سنة 1990 يناهز عدد سكان العالم 5.3 ملايير يمثل القرويين منها 55٪ وفي عام 2000 أي بعد تسع سنوات، سيبلغ عدد سكان العالم 6.3 ملايير ولن يمثل القرويون منها سوى 49٪. إن هذه لواحدة من أهم ثورات نهاية القرن العشرين، فلأول مرة في التاريخ ستكون أغلبية سكان العالم حضرية، والوسط الحضري هو الأكثر قابلية للتسييس بالمعنى الإيجابي للكلمة ولتحرر كائنات «البشرية» إن المراكز الحضرية الكبرى هي التي تتجسم فيها التحولات العميقة للمجتمعات وهي التي تنشأ فيها النضالات ضد اللامساواة وضد الظلم الاجتماعي.

العنصر الثاني في توزيع سكان العالم هو أن 76٪ منهم يعيشون في سنة 1990 في الجنوب. وفي عام 2000 ستمر هذه النسبة الى أزيد من 85٪ فما هي يا ترى الاستراتيجيات التي يتعين ابتداعها في الشمال؟ كيف سيستمر هؤلاء الـ 15٪ في الاستفادة مما يفوق 80٪ من موارد كوكبنا. ولا واحدة من هذه

الاستراتيجيات تستطيع أن تحصر على نحو دائم تغير النظام الدولي وتحوله على المدى المتوسط أو البعيد.

إن التغيير جزء من الحياة، إما التغيير أو الموت. إما إعادة التوزيع أو الانفجار.

في عام 2000 أي في أقل من عشر سنوات سيكون للصين وحدها 1250 مليون من السكان أي ما يفوق بكثير مجموع سكان المجموعة الغربية كلها.

معطى ديموغرافي آخر ومهم يتمثل في شيخوخة السكان في بلدان الشمال. فبعد ١٥ سنة، سيكون لألمانيا الفدرالية عدد يقل من الألمان المزدادين بألمانيا يقل بـ 15 مليون، وسيكون عدد سكان ألمانيا الموحدة مساويا لعدد سكان ألمانيا الفدرالية حاليا. إن شيخوخة السكان ظاهرة دولية جديدة تنتج عن السياسات الناجعة في الميدان الطبي والاجتماعي لبلدان الشمال. ومع ذلك سيزداد ثقل التحملات الاجتماعية وسيتناقص عدد الأشخاص النشطين الكفيلين بتمويلها وستتقلص أيضا عروض الشغل خاصة منها المناصب الجديدة.

2 - أصبح الجنوب المورد الرئيسي للرأسمال البشري والمورد الرئيسي للعقول.

رغم التقدم الكبير في النظام الآلي(automation) وفي الروبوتيك فلن تستطيع أوربا الاثني عشر أو حتى أوربا بأسرها لن تستطيع أن تلج القرن الواحد والعشرين وتضمن عيشها فيه بدون مورد سكاني يأتي من جهة ما. وأن الموارد البشرية هي الرأسمال الحقيقي لمجتمع المعرفة الذي يتجه العالم نحوه بطريقة غير متكافئة.

قبل 30 عاما كان أقل من 10٪ من مجموع العقول (الأشخاص بمستوى الإجازة أو الدكتوراه) يأتون من الجنوب. وحسب تقديرات لعام 2000، فإن أكثر من 50٪ من العقول في العالم ستأتي من بلدان الجنوب. وهذه ثورة حضارية أخرى.

إن آخر تقرير وضع على طاولة الرئيس ريغان كان يتعلق بالخطر الذي يمثله على أمن الولايات المتحدة كون 53٪ من أولئك الذين توفروا على الشغل وعلى مستوى الدكتوراه في الميادين التكنولوجية قد ازدادوا كلهم خارج الولايات المتحدة. إن أمريكا الشمالية تفقد طابعها الأوروبي. لقد أعلنت ولايتين داخل الولايات المتحدة : ولاية نيويورك وكاليفورنيا سيكون السكان البيض أقلية من الآن الى حدود نهاية القرن. وستصبح الإسبانية أول لغة في الولايات المتحدة حولي عام 2040.

إن تقرير "CNUCED" الصادر في الأسبوع الأخير يعلن أن ثلاثة ملايين من العقول قد غادرت الجنوب نحو الشمال، وكل الدراسات حول هجرة العقول منذ تلك التي أجرتها اليونسكو سنة 1968 (وتوجد عشرات الدراسات حاليا) تبين أن الجانب المادي ليس هو السبب الرئيسي لهذه الهجرة. إن العقول تهاجر

الى الشمال لسببين أساسيين :

- حرية الرأي والتعبير والنشر غير المتوفرة لحد الآن في معظم بلدان الجنوب.

- غياب الحد الأدنى الحيوي على مستوى الوسائل والبنيات التحتية للبحث العلمي. ويتم تخصيص أقل من 0،3٪ من الناتج الداخلي الخام للبحث في البلدان العربية والإفريقية إذا اقتصرنا على هذه الأمثلة التي تعنينا كمغاربة.

وحسب ال "CNUCED"، فإن الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا قد حققت لوحدها ربحا صافيا يبلغ 50 مليار دولار بفضل هجرة هذه العقول. وقبل عشر سنوات أنجزت دراسة بينت فيها أن إحدى أكبر أساطير التاريخ المعاصر تتمثل أن أبسط الحسابات يبين بدون أي لبس أن الجنوب إجمالا هو الذي ساعد الشمال على نحو ثابت، إن المساعدة لا توجد. إن الرئيس فرانسوا ميتران قد أمر بإنجاز دراسة (وهي الأولى في فترة حكمه الأولى) حول المخلفات الاقتصادية للمساعدة. ومن تم تقرير ايفبرثلو الذي قال سنة 1981، بأن فرنسا تتسلم نمقابل كل فرنك مخصص للمساعدة 4 الى 6 فرنكات في ميدان الأسواق، وقد كان كلود شيسون يدافع عن المساعدة مصرا على أن العالم الثالث يمثل 40٪ من أسواق أوروبا. نعم إن المساعدة عملية مربحة جدا بالنسبة لبلدان الشمال.

وفي الحقيقة لم يكن أي شيء بأكثر كارثية. فمن بين الأسباب الرئيسية للمديونية والرشوة والنمو غير المتوازن والحفاظ على حكومات غير ديمقراطية، لا يمكن أن نستبعد مساوئ المساعدة ومساوئ تعاون دولي يتمثل هدفه المبطن دائما في تغذية عدم التكافؤ بين الشمال والجنوب وفي الحفاظ عليه.

وفي يوم ما سيدرك أن التكنولوجيا (تشترى ولا تنقل، فهي لا تتطور ولا يسيطر عليها إلا بطريقة داخلية (endogene) كان روني ماهو المدير العام السابق لليونسكو يقول : «إن النمو هو العلم وقد أصبح ثقافة».

إن التكنولوجيا لا تنمي بتوقيع صفقات دولية كبيرة بواسطة القروض الدولية هذا دون الحديث عن الرشوة التي تصاحبها. إن التكنولوجيا تتطلب بنيات ذهنية جديدة ومزاجا آخر يكون في مستوى التحديات المعاصرة والمقبلة.

III - عودة اللامادي :

يعالج الجزء الأخير من هذا البحث ما أسميه عودة اللامادي، هذه العودة التي ترتبط بعاملين أساسيين :

أ ـ رد فعل أكثر سلبية بالنسبة للقيم المادية الخالصة والمرتبطة بالنموذج التنموي الغربي.

ب ـ التطورات المهمة التي شهدتها العلوم الحقة، خاصة علوم فيزياء الذرة.

1 ـ ردود فعل ضد القيم المفرطة في المادية :

هنالك عبر العالم، وفي أوساط الشباب بوجه خاص، حالة عدم انسجام كبرى مع القيم المادية الموروثة عن الأجيال الأكبر منهم، وهو ما يفسر تجدد البعد الروحي في كل مناطق العالم.

أ) العالم الإسلامي :

في حالة العالم الإسلامي، كان التحرر من الاستعمار الغربي الطويل الذي تحقق بفضل الارتباط بقيم الإسلام في جزء كبير منه قد عوض من طرف جيل ابتعد عن أصول ثقافته ولم يتردد في قطع الحبل السري مع الأصول القديمة، ولعل فشل نموذج التنمية المستورد إلى الدول الإسلامية شجع العودة إلى الأصول كنقطة انطلاق وكتطور مستقل غير مستلب تسمح بتحقيق مستقبل المجتمعات الإسلامية ولمكانة مشروع مجتمع جديد في مستوى التحديات العالمية المقبلة.

وإذا كانت الدول الإسلامية لا تعطي اهتماما كافيا بالبحث المرتبط بتطورها ومستقبلها، فإننا نجد في الفاتيكان واحدا من أكبر المعاهد المتخصصة في الإسلام، والذي أصدر سنة 1985 تقريرا مفصلا عن عدد المسلمين في العالم، إنجز خلال عدة سنوات عن 200 دولة وقد أظهر هذا التقرير قلقا لدى الغرب من جراء الأرقام التي كشفت عنها هذه الدراسة المنجزة من طرف الفاتكان، فلأول مرة في التاريخ يتجاوز عدد المسلمين عدد الكاثوليكيين : 865 مليون مقابل 850، ومنذ ذلك الحين أعلنت الصحافة الغربية حملة مكشوفة ضد الإسلام والمسلمين، ولنسمي الأشياء بمسمياتها : «فبعد الديمغرافية المتزايدة في العالم الثالث، أصبح الخوف من الإسلام (يدخل في هذا الإطار العالم العربي) المصدر الثاني لهوس الغرب.

إن الإسلام يمثل اليوم حوالي 12 ألف مليون مسلم وسيتجاوز عددهم عند نهاية هذا القرن عدد سكان العالم في بداية هذا القرن، وقبل عام 2050 حسب الاسقاطات الديمغرافية خاصة إسقاطات جون بورجوة بينا وغيرهم من الاخصائيين الغربيين ـ سيمثل عدد المسلمين أكثر من 40٪ من سكان العالم، وإذا أضفنا إلى هاته المعطيات الكمية معطيات نوعية عن تطلعات الشباب المسلم بفكر جديد يستند إلى الجدية والمعرفة الدقيقة بواقعهم نفهم بصورة أوضح القلق والرعب الذي لا يصيب الغرب وحده، ولكن يصيب حكومات عدد من الدول الإسلامية.

ب) اليابان

منذ زمن كانت كل المحاولات التي تتناول تقدم اليابان، تربط حداثة اليابان بتقليده للنموذج الغربي، رافضة أن تكون هنالك طرقا لتحقيق الحداثة والمعاصرة خارج نظم القيم الغربية لكن هذه الأسطورة تلاشت وماتت منذ أن أظهر اليابان أن ما وصل إليه يعود إلى سيرورة سوسيو ـ ثقافية داخلية أو إلى اللغة والقيم المحددة لهم، وبهذا المعنى عمل النجاح الاقتصادي والعلمي والثقافي على تدمير أطروحة النمط الواحد لتحقيق الحداثة، وكان لذلك لأول مرة في التاريخ المعاصر أثرا على تصدع هيمنة الغرب وبرهن في المقابل أن الحداثة تتحقق حسب الجهد الخاص بكل شعب أو بلد.

إن الحداثة والعلم والتكنولوجيا والإبداع والخلق والتقدم الاجتماعي والديمقراطية والكرامة واحترام حقوق الإنسان ليست مواد قابلة للإستيراد أو التصدير أو للبيع. هي تكون ويجب أن يكون المجال المفضل «للتجارة» الدولية للأفكار التي نأخذ منها ونعطي في إطار احترام للآخر دون عقدة التفوق، ودون غياب لكل إرادة سياسية متوازنة. ففي الغرب يظهر اليابان مرعبا على المدى البعيد لما حققه على المستوى الثقافي والعلمي والاقتصادي والتجاري من كفاءة وتفوق عاليين خاصة وأن التفوق التجاري مثلا الذي عرفه اليابان، ليس إلا نتيجة لاختيار ثقافي خاص ومستقل.

ولا يمكننا بهذا المعنى التنكر للقوة المتزايدة للمعطيات اللامادية في مستقبل العلاقات الدولية. لهذه الأسباب تكون الصراعات المقبلة ذات أساس ثقافي وذات استراتيجيات غير مادية، لا يمثل المظهر المادي ضمنها إلا جزءا ضعيفا.

في ندوة مع جان جون سيرفان شريبري في التلفزة اليابانية سنة 1986 توقعت أن صراعا جديدا بين اليابان والولايات المتحدة الأمريكية سيبرز عند نهاية هذا القرن». وفي سنة 1988 في مقدمة تقرير المعهد الياباني لتقدم البحث العلمي (نيرا NIRA) تقرأ ما يلي: «يجب بكل أسف رؤية الالم بشكل مختلف وترى الحكم المسبق القديم لنظام عالمي مسطر تحت سلطة الامبراطورية الأمريكية... إن النظام العالمي الجديد الذي يمكن أن ندعوه بعصر التعددية الحضارية يستند علي تعايش الحضارات المختلفة.. وإذا كانت النزعة الغربية قد طورت الأحاديث على المستوى المادي، فإن حداثة اليابان تشهد على الاختلاف بين الحداثة والغربنة».

إن هذه الفقرة تبرهن الدور المتنامي للجانب اللامادي في إشكاليات مستقبل الإنسانية مما يعني الإنتقال من مجتمع الإنتاج والإنتاجية المادية الى مجتمع المعرفة والإعلام، حيث تحظى الموارد البشرية

ويشهد النشاط الاقتصادي تحولا يمكن أن نسميه : بلامادية الإقتصاد.

2 - العلوم الجديدة وآفاق اللامادية :

أ) سيرورة «لامادية» الاقتصاد :

يشهد الاقتصاد تحولا من «المادي» إلى اللامادية لأن المواد الأساسية تتناقض شيئا فشيئا بفضل تقدم التكنولوجيا الدقيقة، حيث نشهد اليوم حاسوبا مثل قق ثشؤضد يقوم بمليار و 300 مليون في الدقيقة، وعلى مستوى التخزين في مجال المعلومات يمكننا من تخزين ما يوازن ٢٧٥ ألف صفحة على سنتيمتر أو سنتيمترين. أما على مستوى تحويل ونقل المعطيات عن بعد عبر التليماتيك، فيمكن نقل مكتبة من حجم ستة ملايين مجلد، وعشرة ملايين وثيقة إضافية في أقل من نصف ساعة من بلد لآخر.

ولعل الرأسمال الحقيقي في هذا المعطى هو تكوين الأشخاص والبحث وهو يبرز سيرورة «لامادية» الاقتصاد وبفضل العلوم الجديدة (des particules, genie genetique, Sciences de l'espace Physique) سيتضح كيف أن اللامادي سيتحول ماديا أيضا.

ب) تحول اللامادي إلى مادي :

خلال شتنبر الماضي «بفانكوفر» بكندا انعقد مؤتمر متعدد الاختصاصات حضره ثلاثون عالما لهم الاهتمام بهذه العلوم الجديدة التي تضع اهتماما كبيرا للدور المتزايد للاتجاه «اللامادي» وبوجه خاص هذا التنافر الخاطئ أو المضاد بين المادي واللامادي الذي أصبح اليوم لا ماديا.

إن أكبر قفزة نحو الأمام في عالم المعرفة تتمثل أساسا في نبذ النظرة الميكانيكية للكون التي تركها لنا نيوتن، وكذلك الشأن بالنسبة لضرورة تناول «العقلانية» التي أتى بها ديكارت تناولا نسبيا. ان هذين العالمين قدما للإنسانية تقدما هائلا، لكنه تقدم في حاجة لأن يتجدد في أسسه وفي معارفه وحقائقه العلمية. ولعل اليقين الوحيد هو أن حقيقة اليوم لا يمكنها أن تكون حقيقة الغد.

إن الإنطلاق من العقلانية يمكن أن ينتهي بنا إلى لاعقلانية، كما أن اندماج عدد من المعطيات التي تظهر على أنها لاعقلانية تصبح ضرورية لفهم أفضل للكون، وقد كانت نتائج هذا المؤتمر ملخصة في إعلان فانكوفر (شتنبر 1989) الذي كان لي شرف المساهمة في تحريره، فيما يلي فقرات منه تسلط الضوء على غياب الحدود والفواصل بين المادي واللامادي.

إن إعلان «فانكوفر» هو في نفس الآن شهادة إثبات على فشل النموذج المادي الغربي، وتعبير عن طموح من أجل تحولات في البنيات العقلية الموروثة عن هذا النموذج والتي بدونها لن يستطيع الكائن البشري

حفظ حياتهم.

ولاختتام هذا الموضوع أعود إلى فقرة من إعلان «فانكوفر» تطرح جملة من الأهداف وكما تطرح نظما حديثا لهذه النقاة نحو القرن 21 ونحو نظام عالمي جديد.

«إن هذه الأفكار تعدل من التصور لمكانة الإنسان في الطبيعة وتدعو إلى تحولات جذرية لنماذج التنمية : القضاء على الفقر والجهل والبؤس ونهاية تصدير الأسلحة وتبني طرق جديدة في التعلم ونظما تربوية جديدة واتجاهات عقلية جديدة، وتطبيق متطور لإعادة توزيع من شأنه ضمان العدالة الاجتماعية، ونظرة جديدة لنصف الحياة مبنية على تقليص التبذير واحترام التعددية البيولوجية السوسيوثقافية أو الثقافية التي ترتفع بمفاهيم تفتقر إلى السادة والعلم والتكنولوجيا كضرورات لتحقيق الأهداف، إن إدماج العلم ،الثقافة يعطي مبررا للعيش عبر مقاربة للإدماج مبنية علي رفع التجزيئ الذي يعترض التواصل الثقافي.

نعم، إن المشكل العميق هنا هو مشكل التواصل الثقافي الذي ينتفي فيه التعالي، ويتميز بتسامح النظم القيمة مع الآخر، والدفاع عن التعدد الثقافي كمصدر للإغناء والدفاع عن العربية، إذا كنا نريد فعلا تأمين الكرامة المادية واللامادية للإنسان.

هوامش :

- جريدة «السلام»، الجزائر، 28 أبريل 1991.

L'EMERGENCE D'UN NOUVEL ORDRE INTERNATIONAL : LES DEFIS DE LA TRANSITION.
re Conference Debat, Hautes Etudes de Management, HEM, Casablanca, 90/03/09. 1
ais, Arabe. Fran

LIBERATION, Casablanca, Maroc, 12 et 19 /04/ 1991.

النظام العالمي ومستقبل التعاون الدولي ثلاثة سيناريوهات (×)

بعض أسباب أزمة التعاون الدولي :

يخترق التعاون الدولي أزمة حقيقية. تعود الى الانطلاق الذي سار عليه بعد الحرب العالمية الثانية، والى ما اكتسبه خلال العقود الاخيرة منذ تأسيس هيئة الأمم المتحدة سنة 1945 التي تعرف تفككا يوما بعد يوم.

ولعل هذا التراجع يعود بوجه خاص الى النصف الثاني من السبعينات، حيث تتظافر عدة أسباب مختلفة من بينها :

1 – التغيير الحاصل في النظام العالمي نتيجة تحرر عدد من الدول المستعمرة قديما، مما طرح توزيع القوى داخل المنظمات العالمية موضع تساؤل.

2 – مقاومة القوى العظمى لإعادة هيكلة عادلة للنظام العالمي ولاستعمال التعاون الدولي كوسيلة ـ بفضل سياسات مساعدة التنمية ـ للتحكم في الوضع الراهن.

3 – بلقنة العالم الثالث، وبوجه خاص افريقيا، الى أكثر من 130 دولة، تخوض صراعات محلية تؤدي الى حروب حدودية باسم القوى العظمى.

4 – غياب اتفاق على المقاصد التي هيمنت عند نهاية الحرب، وعلى الأنساق القيمية التي تدعم ذلك، التي هي عاجزة عن تحديد غايات متوافقة مع تحديات زمننا وعن التحرر من التمركز البدائي عن الذات.

5- إفلاس النماذج التنموية، المدعومة من طرف الدول المصنعة والمؤسسات الدولية والمبنية على التطبيع والتبعية دون إعطاء أي اعتبار للبعد الإنساني أو للسياق السوسيوثقافي أو للحاجات الحقيقية للسكان مثل الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان كشروط أساسية للتنمية.

6 – سيرورة «الاختلال» الذي دفعت به عدد من الدول المصنعة المتقدمة على المستويين الوطني والدولي ـ مما تسبب في تعطل بالمعنى النسقي و«السيبيرنتيكي» في الوقت الذي يعرف فيه العالم سرعة فائقة في التاريخ وثورة في الإعلام، وتعقدا في التطور، إلى جانب التحديات المطروحة من أجل بقاء النوع البشري والتي تفرض إعادة تشكيل نظم عالمية جديدة وقيما أدبية أخرى لقيادة الكون.

(×) 1988

7- غياب الابتكار والتجديد، الأمر الذي كشف عن عجز المجموعة الدولية عن تملك وتشخيص الخصاص على ضوء المستقبل، وكذا عن حيرة ومأزق يعترضان التعاون الدولي.

دروس من الماضي :

إن الخطاب الذي نجده في أغلب التقارير المنشورة، خلال السنوات العشر الأخيرة، من طرف المنظمات العالمية والجهوية القطرية خطاب ينصب حول التعاون الدولي الذي يعيش تطورا بما يحمله من حيرة تواجه الجنوب ومن عدم ثقة تتمايل بين الفعل والتعطل لدى الشمال.

وقد برز ذلك واضحا بوجه خاص منذ نشر تقرير لجنة براند سنة 1980.. ولعل ما يميز هذه الدراسات هي الفترة التي كان يغطيها التقرير وبالتالي لأجل تقييم عملية إفساد كانت أسبابها البنيوية كامنة واضحة منذ 1970، والتي كان يجب أن تتفاقم حتى يدرك أبعادها.

من بين الفقرات المثيرة في تقرير لجنة «براند» - والتي لا تذكر إلا نادرا - الفقرة التالية : وبذلك فالصراع يستمر لأجل بنية جديدة في العلاقات الدولية، ولاعتبارات غير اقتصادية وإنما اعتبارات جدية مثل العوامل الدينية والعرقية والتربوية، والرأي العام. السلم هدف لكل الأديان والمعتقدات والفلسفات فهل يمكن انطلاقا من هذه الرغبة جعل الرغبة في السلام قوة انفعالية وأخلاقية لمقاولاتنا «الصفحة 12 من التقرير).

ومنذ عشر سنوات، خلال المائدة المستديرة الأولى عن «الشمال - الجنوب» المنظمة من طرف الجمعية العالمية للتنمية بروما خلال ماي 1978، أكدت على أن المظهر الذي يبدو الأكثر «سياسيا» والأكثر تحديدا لعلاقات الشمال بالجنوب هو الطبيعة الثقافية، لأنه كانت هناك أهداف قيمية : «يجب إعطاء أولوية للانساق القيمية حتى نؤكد أنه لا يمكن رفع الأزمة الحالية بين الشمال والجنوب بمجرد تكيف بسيط، لأنها أزمة في النظام عموما. وكل حل يجب أن يمر عبر تعريف جديد للأهداف، والوظائف والبنيات وإعادة توزيع السلطة والثروات حسب تدرج للقيم المختلفة عن تلك التي تسببت في ولادة النظام الحالي».

كما كتبت قبيل افتتاح قمة كانسن بالمكسيك يوم 22 أكتوبر 1981 مقالا نشر بجريدة «لوموند» الفرنسية، عرضت خلاله تحليلا لنوعية الروابط بين الشمال والجنوب كما بدت لي، وللأسف لايزال التحليل يحظى الى اليوم بنفس الفعالية على فهم نفس الروابط القائمة الى اليوم بين الشمال والجنوب المبنية على «الأبوية» الظلم، عدم المساواة، الاستغلال والكبرياء والدفاع المتشدد عن نوعية الروابط القائمة بين الشمال والجنوب... الجنوب الذي يشكو من غياب إرادة سياسية مدعومة بالثقة بالنفس ومن تبعية اقتصادية ومن استيلاب ثقافي، ومن حالة البلقنة الموروثة عن الاستعمار، ومن حركة وطنية فتية، ومن فلسفة قصيرة المدى،

ومن الارتجال ومن موروث الضعف والتبذير في الثروات البشرية والخروقات المنتظمة لحقوق الإنسان، ومن تكريس منظم للا مساواة الداخلية وللتسول المقنع والدفاع عن «الاستقرار» بأي ثمن كان.

إن شهادات السلطات المؤهلة في الشمال كما في الجنوب، للاعتراف العلني بفشل سياسات التعاون الدولي المتبعة منذ الستينات، كثيرة الى درجة أصبحت تمثل القاعدة، نذكر من بينها ثلاثة أمثلة :

* كتب السيد ستيفان هيسل ـ السفير المنتدب الوزاري للتعاون والتنمية في الحكومة الفرنسية ـ سنة 1981 يقول : «إن شيئا أكيدا، هو أننا لم نعرف كيف نساعد العالم الثالث للخروج من التخلف، لقد جرب الغرب كل نماذجه، تغلغلت الى العمق جاذبيتها حتى داخل القارات «المحمية» فحضورها التجاري والاقتصادي والعسكري والسياسي كان يؤخذ بكل حرارة من طرف المسؤولين في كل الدول، والاختلالات التي أدت اليه بدت عكسية رغم أن الربح الذي ناله السكان بقوتهم المتكاثرة لم يظهر أبدا».

«إننا نحس على العكس من ذلك أنهم يخضعون تحت وطأة القمع والبؤس والعنف ولا مساواة غير متوافقة مع مستوى العيش ولا مع خصوبة التزايد داخل النسيج الاجتماعي، والتي تتعرض أحيانا لايديولوجيات قاتلة، وغير قادرة على الدفاع عن حريتهم وطموحاتهم».

* الشهادة الثانية هي للحكومات الافريقية من خلال تقرير المؤتمر الاقتصادي لوزراء الدول الأعضاء في منظمة الوحدة الافريقية الذي سلم لرؤساء الدول المجتمعين في أول قمة اقتصادية لمنظة الوحدة الافريقية بلاغوس سنة 1980.

نقرأ في هذه الشهادة : «بتحليل نتائج استراتيجيات التنمية المتبعة الى الآن من طرف الدول الإفريقية، أوضح المندوبون أن كل هذه الاستراتيجيات لم تعمل الا على شد إفريقيا الى حالة التخلف والتبعية للخارج».

خلال فبراير 1988 نشرت الفاتيكان موسوعة لجون بول الثاني تحت عنوان :"قمشقضيإ قظؤ قطا-يقضقميإ"خصصت لمسألة التنمية.

نعرض من بين نصوصها فقرتين : «لا يمكننا إنكار الوضعية الراهنة للعالم فيما يتعلق بالتنمية ، والتي تعطي انطباعا سلبيا.. «وبخصوص المديونية : «الأداة المستعملة لتحقيق التنمية بدأت تتحول الى آلية ذات نتائج مضادة.. وتفاؤل ميكانيكي ساذج، واستبدلت القلق المبرر الى قدر للبشرية..»

المثال الرابع والأخير يوجد ضمن إحدى تصريحات السيد هالس هانسن مستشار لدى وزارة التنمية النرويجية، حيث يصنف سنوات الثمانينات «كعقود للفشل» مضيفا بأن «الفقراء في البلدان الفقيرة عانوا من الوصفات والتوجيهات السياسية للدول الغربية... إن هؤلاء الفقراء هم الذين يؤدون ثمن الفقر

الدائم لدولهم، واللامساواة لا تعمل هنا الا على تعميق ذلك بفقدان أغلبهم لوظائفهم أو أجورهم التي تتقلص وتتجمد كنتيجة للحضور المكثف للخوصصة التي يشيعها الغرب».

إننا سقنا شهادات، هي في معظمها ذات أصل غربي، باستثناء شهادة الحكومات الافريقية، لنوضح الى أي حد بلغ حجم فشل التعاون الدولي الذي لا يلبي إلا طموحات موجهي وممولي هذا التعاون، بدون أن نعود الى التحليلات التي نجدها بالجنوب، والتي لاتزال آنية وظرفية، ننتهي الى البرهنة على اختيار محاكمة تجربة الثلاثين سنة الأخيرة - كفضاء لجيل كامل - قبل الانطلاق في عرض عينة لتمرين مستقبلي بسيط عن مستقبل التعاون الدولي.

ثلاثة سيناريوهات لمستقبل التعاون الدولي في أفق عام 2000 :

إن اختيار الماضي ضروري لفهم الحاضر واستشراف المستقبل، وبخصوص ما هو حاضر، نجد الجنوب يشكو درجة عالية من الحيرة، من شأنها أن تكون مصدر قلق على المدى المتوسط والبعيد، في حين نجدها في الشمال ليست مصدرا لتضامن إنساني ولكن أيضا حالة تضاد بسبب ما قد تؤدى اليه اللامساواة كنتيجة لمايلحق بعض الأبعاد.

إن تحليلنا المستقبلي ينحصر هنا على نظرة مخطط إجمالي لسيناريوهات أولية تحاول استخراج بعض عناصر إشكالية التعاون الدولي والتطورات الممكنة لهذا الأخير. إن الموضوع جد معقد ويستحق دراسة عميقة لفريق دولي متعدد الاختصاصات وبكل الوسائل المكتسبة قصد تأمين النزاهة العلمية والمنهاجية التي يستحقها.

إن مجرد عدم مباشرة نشاط مماثل بعد، يمثل مؤشرا للخلل الذي يصيب التعاون الدولي المعاصر، لقد فكرت كل من جامعة الأمم المتحدة واليونسكو في ذلك لكن المشكلات الكبيرة التي تعترض التعاون عدم اتفاق عن الغايات والأهداف وكذا حدة أزمة التحويلات المتعددة الجوانب كل ذلك لم يسمح بتحقيق مشروع من تلك المشاريع.

إن تقديم ثلاثة سيناريوهات مقاربة كلاسيكية في علم المستقبليات، حيث نجد سيناريو محافظ (أ) - وسيناريو إصلاحي (ب) - وسيناريو التغير وإعادة التوزيع (س).

لقد اقتصرنا على عشرين ثابتا لأجل استشراف تطبيقات كل واحد من السيناريوهات الثلاثة في أفق عام 2000، وهو ما يرتبط بالمستقبليات على المدى القصير مادامت هنالك دائما بعض المتغيرات التي تكون وازنة في اتجاهها ولا يمكن قلبها بسهولة على مدى 15 أو 20 سنة على الأقل.

- سيناريو (أ) :

يمثل سيناريو الاستقرار إسقاطا - يكاد يكون خطيا - للوضعية الراهنة ويتعلق الأمر بسيناريو محافظ

لا يقبل التغيير الا في إطار التكيف وبخطى بطيئة... لا يكون دونما أي مخرج، ويستمر الجنوب في متابعة اختيار نموذج التنمية المنفتحة على منطق التكيف والتبعية المتزايدة، وبوجه خاص في مجال التغذية. والذي يمكن أن تضاعف ديونها ضعف ما هي عليه اليوم خلال السنوات العشرة القادمة لتتجاوز 2000 مليار دولار، وهو مبلغ مقابل للذي يصرف عالميا على التسلح. وإن انخفاض أسعار المواد الأولية التي انتقلت من المعامل، 116 سنة 1957 الى المعامل، 60 سنة 1987، لا يمكنها أن تتسع الا باستمرار المواد المصنعة في الشمال في الارتفاع.

وكما نرى في الجدول المتعلق «بسيناريوهات مستقبل التعاون الدولي - فإن عدد الأشخاص الذين يعيشون دون مستوى العيش العادي وفي أمية واسعة يتجاوزون مليار شخص. ويبقى الاندماج الاقتصادي والتنمية العلمية والتكنولوجية، ذات استثناءات، وممنوعة على دول الجنوب.

إن العالم الثالث سيكون مسرحا شبه «شامل لحوالي 25 نزاع عسكري في السنة في عالم سيخلف حوالي 2مليون و500 ألف ضحية ويستمر في دفع ضريبة تطور الأسلحة المصنوعة في الشمال، وقد شهدت سنة 1987 حوالي 22 حربا ونزاعا مسلحا سقط خلالها 2200000 قتيل من بينهم : 700000 من العسكريين و 1500000 من المدنيين و95٪ من مجموع الضحايا هم من العالم الثالث.

إن هذا السيناريو هو المسؤول أيضا عن بطء سيرورة الدمقرطة وخرق حقوق الإنسان وتضييق التسامح الديني في الجنوب وتركيز العنصرية والتطرف والتمركز حول الذات في الشمال.

إن السيناريو «أ» لا يعمل إلا على تكريس الظلم واللامساواة المميزة للنظام العالمي الحالي. ويزيد في الهوة الاقتصادية والسوسيو ثقافية التي تفصل بين الدول المصنعة والدول النامية وهو الاتجاه السائد منذ 1960 فخلال هذه السنة كان متوسط الدخل للدول السالفة الذكر يصل الى حوالي 20 مرة ضعف ما كان للدول النامية وفي سنة 1990 بلغت نسبة الفارق في المداخيل ما بين 1.50 بدل الفارق الذي كانت عليه سنة 1960 ما بين 1.20.

فمنذ 1960 كلما اغتنى العالم الثالث بدولار واحد اغتنت دول الشمال بحوالي 300 دولار. وقد تميزت العقود الثلاثة الأخيرة من «تنمية الأمم المتحدة» (1960-1990) بتزايد الفارق ما بين الشمال والجنوب بـ 250٪، ولكي نتلافى أي مدخل سوريالي في دراسة العلاقات الدولية لم نعرض أي إسقاط خطي لهذا الاتجاه في أفق عام 2000.

في إطار هذا السيناريو نجد كلا من البنك العالمي وصندوق النقد الدولي والغات تستمر في احتواء المشهد الدولي لأن نظمها في امتلاك القرار هي لحماية تفوق الدول المصنعة الكبرى. إن نظام الأمم المتحدة يسير شيئا فشيئا نحو الاقصاء الى برنامج من درجة ثانية يصطدم بابتزاز مستمر من طرف الفاعلين الأساسيين.

ويتم تقديم بعض التنقيحات على مخطط الأمم المتحدة الإجرائي والإداري والمالي لأجل الحد من «تسييسها» وتشكيل بيروقراطيتها وستفقد جزءا كبيرا من مصداقيتها أمام الرأي العام الدولي وتصبح بالتالي مجرد مدافع لا شعوري عن الوضع الراهن.

ومن بين التجليات الأساسية لهذا السيناريو دعم المساعدات وتشجيع التسول وستعرف المساعدات للتنمية ركودا لكنها ستستمر في مستوى كافي يسمح لعدد من الأنظمة المحتضرة أن تستعيد الحياة وتستمر، كما تعمل على تعزيز التبعية السياسية والاقتصادية والاستيلاب الثقافي داخل باقي دول العالم الثالث.

ولعل الإشكال المطروح هو معرفة مدى قدرة الشمال عن التنازل عن برنامج المساعدة ـ الذي وصفه «جان بييركو» سنة 1981 عندما كان وزيرا للتعاون والتنمية بفرنسا وكان مكلفا بتقرير بيرتلو Berthelot Rapport du الذي يجلب للدول المانحة، عبر أشكال مختلفة حوالي ست مرات مما تحصل عليه الدول الممنوحة، ويبرر «كلود شيسون» ـ المندوب بالمجموعة الاقتصادية الأوربية ـ ضرورة رفع المساعدات للعالم الثالث باعتبار هذا الأخير يمثل 40٪ من تجارة السوق الأوروبية المشتركة، وليس صعبا البرهنة على أن مفهوم «مساعدة» تبرير لغوي مضلل لأن الجنوب هو الذي يساعد الشمال في الواقع.

وفي نهاية التحليل يمكننا القول وبدون أي تردد يدعونا للخوف من الخطأ، على الأقل بالنسبة للمدى المتوسط أن هذا السيناريو لا يمكن تصور استمراره في حدود السنوات الخمس أو العشر القادمة لأنه يركز اللامساواة والظلم ويمثل مسا بكرامة الكائن البشري. ويبقى السؤال الذي طرحه «أوريليوبيكي PECCEI AURELIO -المؤسس لنادي روما قائما باستمرار : هل يمكن تصور عدد من الناس يمكنهم العيش في سلام داخل عالم صغير جدا على جوانب متعارضة بهوة عميقة.

وقد أجاب «رونيه ماهو» وَيڤـيـپاظفشد ـ المدير العام السابق لليونسكو، عن هذا السؤال سنة 1972 بالطريقة التالية : «إن أكبر خطر يهدد الإنسانية يتمثل بدرجة أقل في الفقر داخل بعض البلدان، من اللامساواة بين بلد وآخر، لأنه إذا كانت للانسانية قدرة لا محدودة على المعاناة من تجربة قاسية في الفقر وصبر مفرط من شدة احتمالها فإنه لا يمكن التسامح عندما يتعلق الأمر باللامساواة.

سيناريو الإصلاح ـ «سيناريو «ب»

عندما لا يكون الانضباط كافيا لمنع نظام ما من الفساد والاتلاف أو من ضمان استمرار. في الحياة، فإننا نضطر الى الاصلاح ـ والذي فيه يتجلى السيناريو «ب» كما يظهر ذلك في الرسم البياني رقم ٩ ولعل أهم الإصلاحات المستعجلة والمطلوبة تلك التي تتعلق بالنظام المالي الذي شهد احتلالا أحادي الجانب من

طرف الولايات المتحدة، وخلق حالة لا تسهل لا التنمية الاقطاعية ولا التعاون الدولي، ان البيان «٩» الذي يوضح عجز الميزانيات الأمريكية، تكشف كيف أن بلدا من الشمال، يعتبر أول قوة اقتصادية عالمية، لا يمكنه الحياة بالاعتماد على إمكانياته الخاصة وإنما على ثروات الآخرين، كما جاء في «واشنطن بوست» في افتتاحيتها ليوم 29 شتنبر 1987.

“Supporting American socety in the manner to which it has become accustomed currently nearly 150 dollars a year of foreign support

إن هذه الإعانة المالية الأجنبية المقدرة بـ 150 مليار دولار سنويا، للمجتمع الأمريكي تمثل أربعة أضعاف المبلغ المخصص لمجموع المساعدة العمومية للتنمية الممنوحة من طرف 24 دولة مصنعة عضو في مجلس التعاون والتنمية الاقتصادية لمجموع دول الجنوب، كما تمثل 15 مرة من مجموع ما تساهم به الولايات المتحدة «للمساعدة العمومية للتنمية».

إن اللجوء الى عجز الميزانيات كمرجع ليس حكرا على الولايات المتحدة الأمريكية، فالبيان رقم 10 يقدم أيضا عجز ميزانيات فرنسا خلال الفترة ما بين 1978 و1987، حيث بلغ عجزها سنة 1985 مجموعا لـ 153 مليار فرنك فرنسي أي حوالي 27 مليار دولار، وهو مبلغ يمثل حوالي ثمان مرات من مساهمة فرنسا السنوية للمساعدة العمومية لتنمية الجنوب (حوالي 3.5 مليار دولار سنة 1986).

وفي حالة الولايات المتحدة الأمريكية، نجد سياسة العجز في الميزانيات تؤثر مباشرة في معدل الفائدة الأمريكية وكذلك الشأن بالنسبة لتغيرات سعر الصرف التي لها آثار جدية على مجموع الاقتصاد العالمي على الدول الأكثر فقرا والتي تتلقى الضرر الأكبر من جراء هذا الاضطراب الذاتي.

هل مازال ممكنا التأشير بإصلاحات لأجل ضمان حد أدنى من النزاهة داخل القيم المصرفية والمالية والتجارية الدولية؟ أم أن هذه المرحلة أصبحت متجاوزة بالمعنى الذي أصبح التفكير يتجه نحو إعادة بناء مجموع النظام الاقتصادي لحل المشاكل وبوجه خاص المديونية الواقعة على العالم الثالث؟

أضطر الى تضييق نظري للتعبير من غير شك عن جدوى الاصلاحات الجزئية تبعا لخطورة الأزمة.

والى جانب المشاكل الناتجة عن اتساع جوانب الاشكالية، يجب على مساعدة التنمية كشف الأوهام لما لها من أهمية نوعية بالنسبة للمشاكل المطروحة في التنمية والتي لم تتجاوز - أي مساعدات التنمية. في مجموعها سنة 1986 أقل من 40 مليار دولار سنويا، لا تتجاوز ضمنها مساهمة الدول المصنعة إلا ب 0.35٪ من مدخولها القومي، في حين بلغت مساهمة الدول المنتجة للبترول. الأعضاء في الأوبيك حوالي 1٪ متوسط وليس هناك سوى أربع دول بلغت مساهمتها (1٪) من مدخولها القومي -4.5٪) بالنسبة للسعودية (3٪) بالنسبة للكويت (1.20٪) بالنسبة للنرويج و1٪ بالنسبة للدول المنخفضة.

في السيناريو «ب» يتجه الجنوب نحو تنمية متمركزة على الذات مع انخفاض يصل حوالي 25٪ من مساعدات التنمية، كما سيتعزز التعاون بين الجنوب، وستصبح الأسبقية في التعاون على مستوى الموارد البشرية والتواصل بما في ذلك الإعلام، أما ديون العالم الثالث فيمكن أن تتقلص الى حوالي 400 مليار دولار، أي حوالي ثلث المجموع الحالي.

وسيسمح هذا السيناريو بتقويم وضعية التبادلات المالية المحصلة منذ سنوات، بتحويل سلبي بين الشمال والجنوب، ولعل البيان رقم 12 يعطي الأرقام بالنسبة لأمريكا اللاتينية خلال الفترة ما بين 1981 و1982، إذ نلاحظ أن هذه المنطقة من العالم الثالث ذات تحويل خالص سلبي في المجموع خلال الفترة ما بين 1982-1986 والذي يمثل حسب البنك الأمريكي الداخلي، 133 مليار دولار، وخلال 1987 كان التحويل الخالص لدول الجنوب الى أبناك الشمال يقدر بحوالي 29 مليار دولار، ولم تعمل الالتزامات الجديدة للثروات الخاصة بالدول النامية الا على المزيد من التقليص بلغ 36 مليار دولار سنة 1984 مقابل 64 مليار دولار سنة 1981.

ويحسن بشكل محسوس مجموع المقاييس لكنه سيجعل دخول العالم الى القرن 21 بحوالي 700 مليون إنسان على عتبة الفقر المطلق، و600 مليون أمي، مع إعادة توجيه التعاون الدولي نحو أنشطة تطبيعية.

ودون تمييز بين الشمال والجنوب - مع تبطيء سرعة تزايد الهوة بين الشمال والجنوب، وسيدفع الى احترام أفضل لحقوق الإنسان والى دمقرطة بطيئة بالجنوب والى استعادة مصداقية نظام الأمم المتحدة، لكن النزاعات المسلحة تستمر في تخليف أكثر من 500 ألف ضحية سنويا وبالتالي استمرار المصاريف العسكرية خلال عام 2000 في نفس مستواها الحالي. إن محاولة تقييم شاملة لهذا السيناريو ليست بالسهلة تبعا للوضعية التي يوجد عليها اليوم التعاون العالمي، إنه سيناريو يدخل ضمن مجال الممكن إذا ما بدأ تطبيقه منذ غد، لكن هل يمكنه المقاومة والاستمرار أمام حدة الإستياء ونفاذ الصبر اللذان اخترقا الجنوب بكامله؟ إن مرحلة الاصلاحات تبدو لنا نفسها متجاوزة لأننا تأخرنا كثيرا في ذلك، ولأن اللامساوات بلغت مستوى لم يعد ينفع معه غير التغيير الذي يسمح بإعادة توزيع عادل داخل كل بلد وبين بلد وآخر مما يسمح بشق طريق جديد وشكل جديد للتعاون الدولي ولسلم دائم.

ففي الوقت الذي تتجاوز فيه ديون الولايات المتحدة الأمريكية 500 مليار دولار خلال سنة 1988، نلاحظ أن العالم الثالث يؤدي خلال الفترة ما بين 1983 - 1987 حوالي 100 مليار دولار، أي أكثر مما تلقاه كسلفات. وفي وضعية مثل هذه كما يبدو من خلال الأرقام السابقة، يساعد العالم الثالث في إنعاش اقتصاديات الوفرة، بينما لا يجد نصف مليار كائن بشري ما يسد به الرمق، ويبقى التغيير هو الأفق الوحيد لمسيرة العالم الثالث.

سيناريو التغيير، سيناريو «س».

في نظري، يبقى سيناريو التغيير أو إعادة التوزيع الحد الأدنى المكتسب لتأمين مستقبل أفضل للتعاون الدولي وتقليص ثمن وكلفة التغير الاجتماعي بشريا وماديا، وهو الذي يعطي بعض الحظوظ للجنوب للقدرة على الانتقال من مجتمع إنتاجي الى مجتمع للمعرفة التي دخل فيها الشمال قبله، وهو مجتمع ناتج عن الوثيرة المتسارعة للتاريخ ولتعقد متزايد وتطور سريع في نظم القيم، إنه أيضا مجتمع أصبحت الموارد البشرية الرأسمال الحيوي لمسيرة أي تقدم.

ومن بين إحدى تحديات سيناريو «س» مسألة تحقيق الجنوب لنموذج داخليا، وفي الدول مثل الصين والهند وباكستان والبرازيل وبنغلاديش والمكسيك، حيث يتجاوز عدد السكان عام 2000 حوالي 100 مليون نسمة، يصبح الوصول الى نموذج تنموي داخل متحققا تقريبا (الصين والهند)، أو يصبح أكثر حظا على التحقق خلال بداية القرن المقبل.

ويكتسب هذا النموذج اقتصادا متراتبا مع قوة فاعلة، وسوق لا يقل سكانها عن ما بين 100 و150 مليون ساكن.

والشمال لا يصطدم بنفس درجة البلقنة التي في الجنوب، وذلك بفضل مجهوده في الاندماج الاقتصادي بأمريكا الشمالية وأوربا الغربية وبأروبا الشرقية، فالمجموعة الدولية تتكون من 25 دولة يرتفع عدد سكانها الى 4 ملايير ساكن، أي حوالي 80٪ من مجموع سكان العالم، مقابل 40 دولة لا يتجاوز عدد سكانها 20٪ من مجموع سكان العالم، لكن المنطقة التي تعاني التقطيع أكثر هي إفريقيا التي لايبلغ معدل الدول الأعضاء بهيئة الأمم المتحدة أكثر من 30 مليون نسمة.

وكما أشرنا سابقا، فإن السينايو «س» في إطار حدود استعماله، وفي إطار الشروط الممكنة والمتوخاة، هو السبيل الأقل كارثية بالنسبة للإنسانية في مجموعها، لأنه سيمكن من خلال إعادة توزيع - متأخرة - من تسهيل عملية التواصل الثقافي غير المتجانس، والتي ستكون السبيل لنمط جديد من التعاون الدولي.

ويفرض السيناريو «س» إعادة تجديد للمنظمات الدولية، وبين الحكومية بدءا من صندوق النقد العالمي والبنك الدولي ومجموع نظام الأمم المتحدة، ولأجل ذلك يجب تجديد المقاصد المتعددة الأبعاد ومجموع النظرة لمسألة التنمية التي كانت سببا في الهوة الفاصلة بين حاجيات دول الشمال وحاجيات دول الجنوب، ومن هذا المعطى يجب على نظام الأمم المتحدة الانشغال أساسا بوضع مؤسسات أخرى لمناقشة هذه المشاكل.

إن شمولية المشكل الكبرى لا تسمح أبدا «بأبارتيد» أم نظام عنصري، لا في التصور ولا في الممارسة. إن الكونية الإنسانية التي يتحدث عنها الجميع تمر من كونية الأماني إلى كونية العمل المشترك والنظر باحترام وتبني للتعددية.

إن مهمة الحاضر هي إعداد المستقبل لتعاون دولي في خدمة سعادة الأفراد واحترام حقوق الإنسان وتشجيع الإبداع والانفتاح وبناء ديمقراطية ما بعد صناعية وبناء السلام. إن الدفاع من أجل البقاء بالنسبة للإنسانية يفرض تنمية البنيات العقلية الجديدة وقيما لبلوغ هذه الأهداف.

ولعله من الإشارات المشجعة داخل التعاون «جنوب / جنوب» هو الاتفاق الجديد بين 45 دولة من العالم الثالث في إطار النظام الشمولي للأولويات التجارية المجتمع ببلغراد يوم 12 غشت 1988، هذا الاتفاق الذي أنجز 100 اجتماع ثنائي بين الدول الجنوبية المعنية، ويغطي حوالي 1500 منتوج كما يمثل تبادلا تجاريا لأكثر من 100 مليار دولار بين دول العالم الثالث.

إن التعاون «جنوب - جنوب» يسهل تحول النظام العالمي، ويمكن من تعاون دولي جديد يكون أقل تركيزا على المساعدة، لكن على التبادلات المتعادلة والأكثر توازنا في المجالات الاقتصادية والعلمية والثقافية. وعندما سيبرهن الجنوب حديثه، يتردد الشمال في التعامل مع ذلك بجدية.

إن السينايو «س» يتوقع انخفاضا قويا للمساعدة العمومية للتنمية، هذا الانخفاض الذي سيصل الى مستوى 15 مليار دولار، الجزء الأكبر منها سيتحول إلى تعاون متعدد الزوايا المجدية والمعقولة، كما أن ديون العالم الثالث تتقلص إلى 200 مليار دولار، وسيتم كذلك الدخول الى القرن 21 بـ 200 مليون شخص على عتبة الفقر المطلق، وأكثر من 300 مليون شخص أمي، وسنرى بالرغم من ذلك تقدما كبيرا في مجال حقوق الانسان مع تطور متوسط، لكن غير طويل لعملية الدمقرطة، أما النزاعات المسلحة فستستمر رغم التقلص الملحوظ الذي سيحدث في عددها وكذلك الشأن في عدد الضحايا التي كانت تخلف والتي ستصل إلى 100 ألف ضحية بدل مليونين و 200 الف ضحية، وبذلك ستتقلص المصاريف العسكرية الخاصة بالتسلح إلى 500 مليار دولار بدل 2000 مليار دولار.

بدأ الناس يفهمون أن مشكلة الاندماج الاقتصادي المحلي ليست مشكلة ذات مقاصد تاريخية إنما أصبحت ضرورة لأجل البقاء.

في مجال العلم والتكنولوجيا المتقدمة، لا تحتاج دول الجنوب إلى إدماج اقتصادي، لمسألة اقتصاد التدرج فحسب، وإنما أيضا هي في حاجة الى القدرة على التعاون في هذه المجالات، في إطار علاقات جنوب - جنوب مادام الشمال يبدو متحفظا تجاه التعاون مع الجنوب في هذه الميادين.

يسجل السيد «هاري آرتس» عضو نيرلندي بالبرلمان الأوروبي في تقرير حديث له (1988)، على أن هذا الشكل من التعاون عند المجموعة الأوروبية هو نادر جدا مع دول الجنوب بالمقارنة مع ما للمجموعة الأوروبية من برامج متعددة في مجال التعاون مع دول الجنوب، إلا أن هذه المجالات من التعاون تبقى مقتصرة على العلاقة بين الدول الغربية فيما بينها... وغالبا ما كانت الصناعات الغربية الخاصة تعيش أخطارا ومنافسة في تنمية التكنولوجيا داخل العالم الثالث، لكن يظهر على المدى البعيد أن تحويل التكنولوجيا لا يمكنه إلا أن يزيد من قوة النشاط الاقتصادي داخل مجموع العالم.

إن مسألة التعاون الدولي على مستوى التكنولوجيات المتقدمة هو ما يبرر أكثر، ومنذ الآن، تعززا داخل التعاون «جنوب - جنوب» عكس ما كانت عليه من ضعف قياسا لمستوى التبادلات التجارية (البيان رقم 13)، ففي الوقت الذي تمثل فيه التجارة بين الجنوب والشمال 18٪ لا تتجاوز على مستوى «الجنوب/ الجنوب» سوى 8٪.

إن واحدا من الخطوات التحولية التي قطعها العالم الثالث كانت سنة 1987، من طرف «هيئة الجنوب» التي تضم 28 شخصية من مستوى أول داخل العالم الثالث، وعلى رأسها السيد جوليوس نيريري، الرئيس الطانزاني السابق.

البيان رقم 1 : شمال - جنوب
السكان (1988 : 5 ملايير)

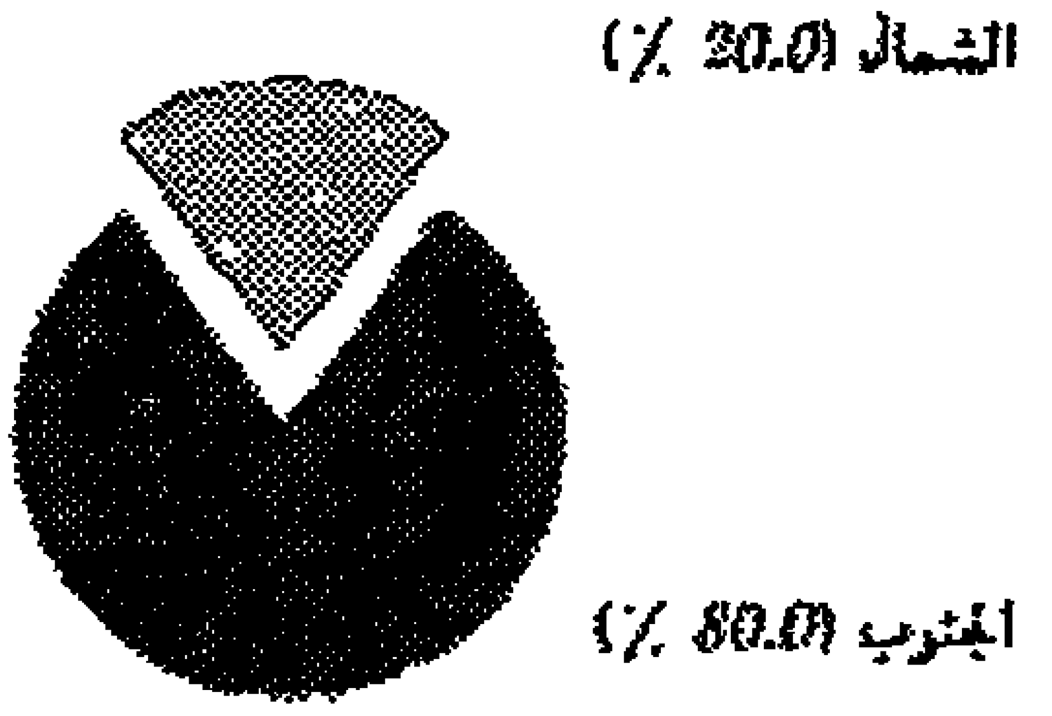

البيان رقم 2 : شمال - جنوب
المدخول القومي (1985)

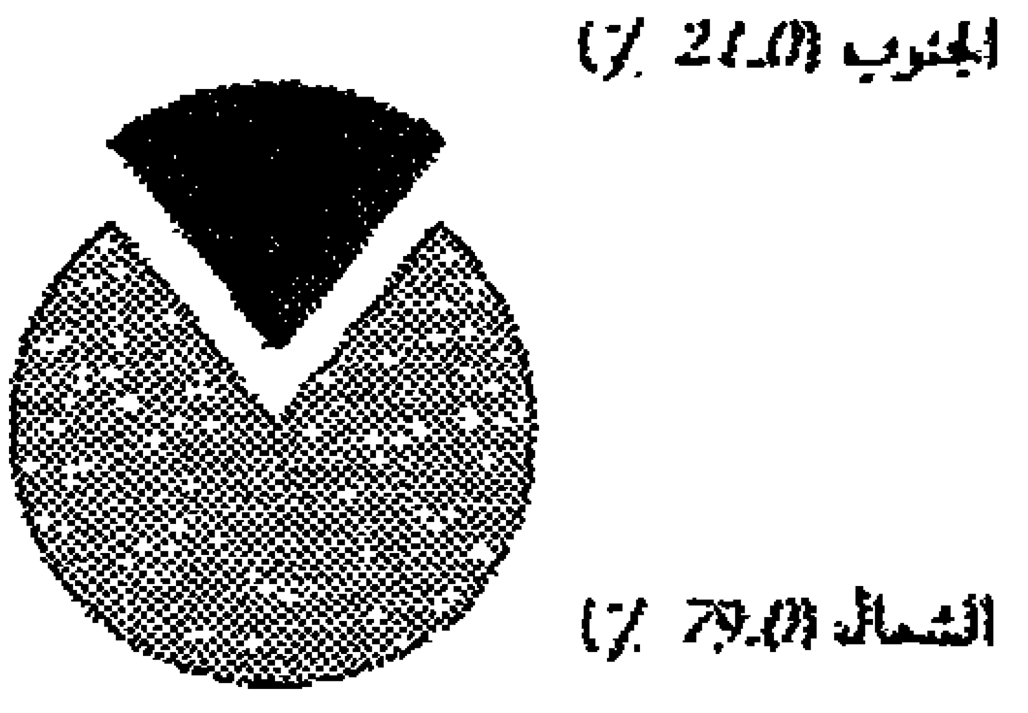

البيان رقم 3 : شمال - جنوب
(مصاريف الصحة)

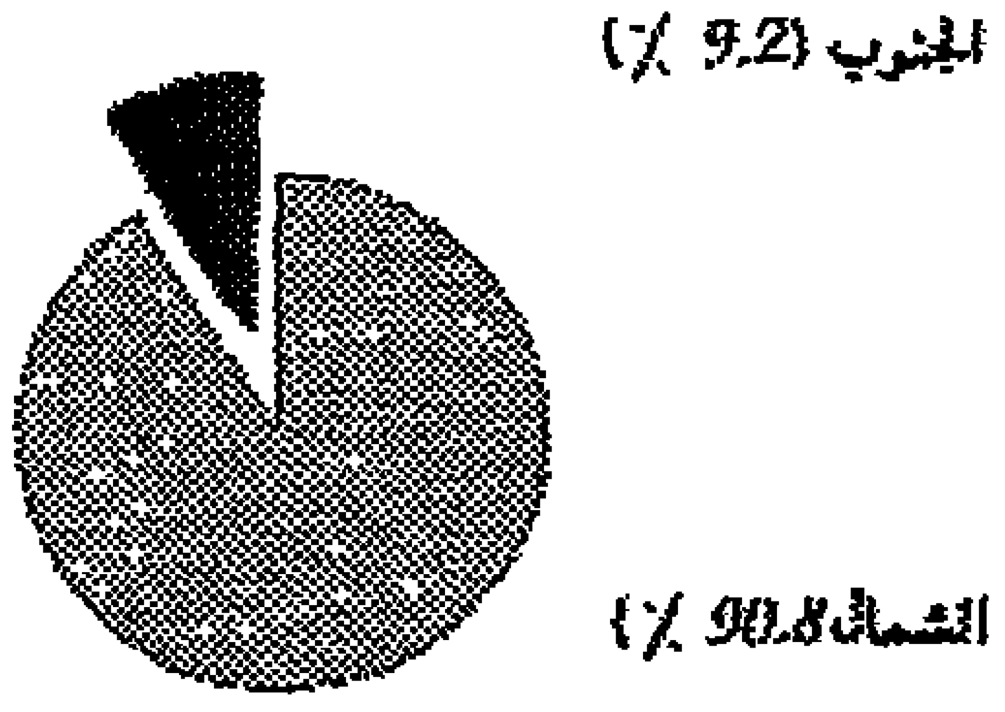

البيان رقم 4 : شمال - جنوب
(مصاريف التعليم)

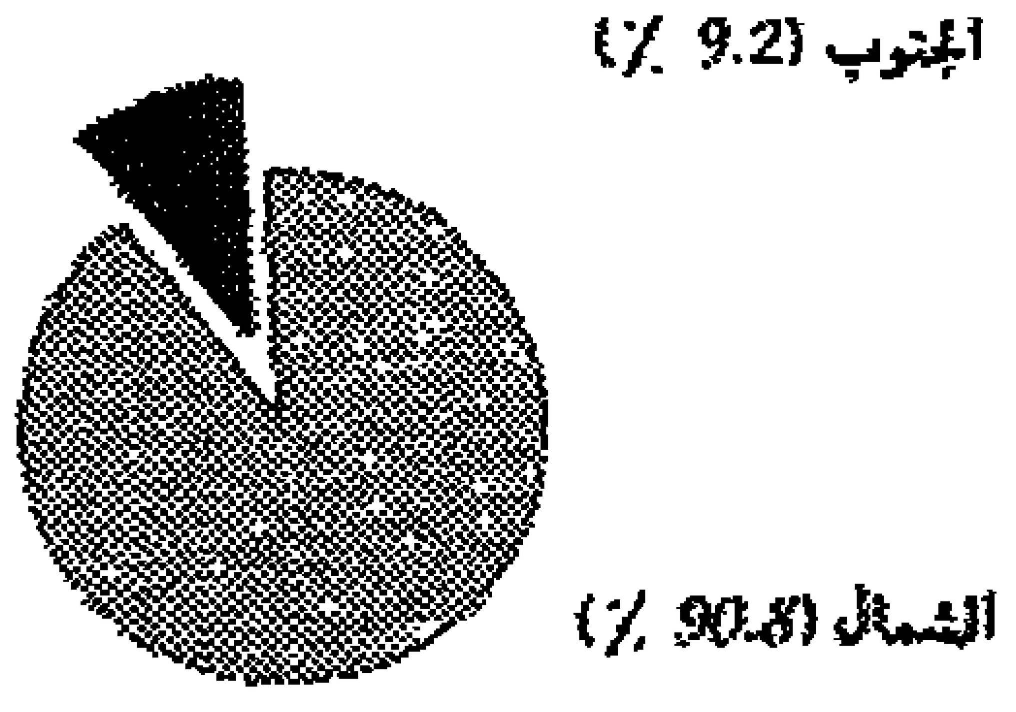

البيان رقم 6 : شمال - جنوب
مصاريف عسكرية (1987 : مجموع 930 مليار)

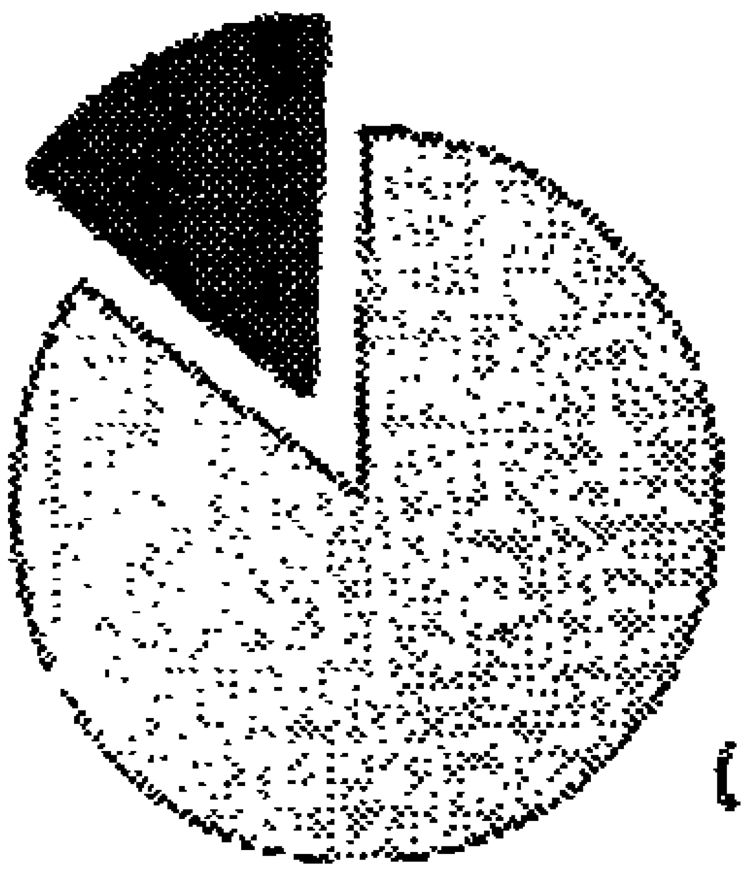

البيان رقم 5 : شمال - جنوب
(مصاريف البحث والتنمية)

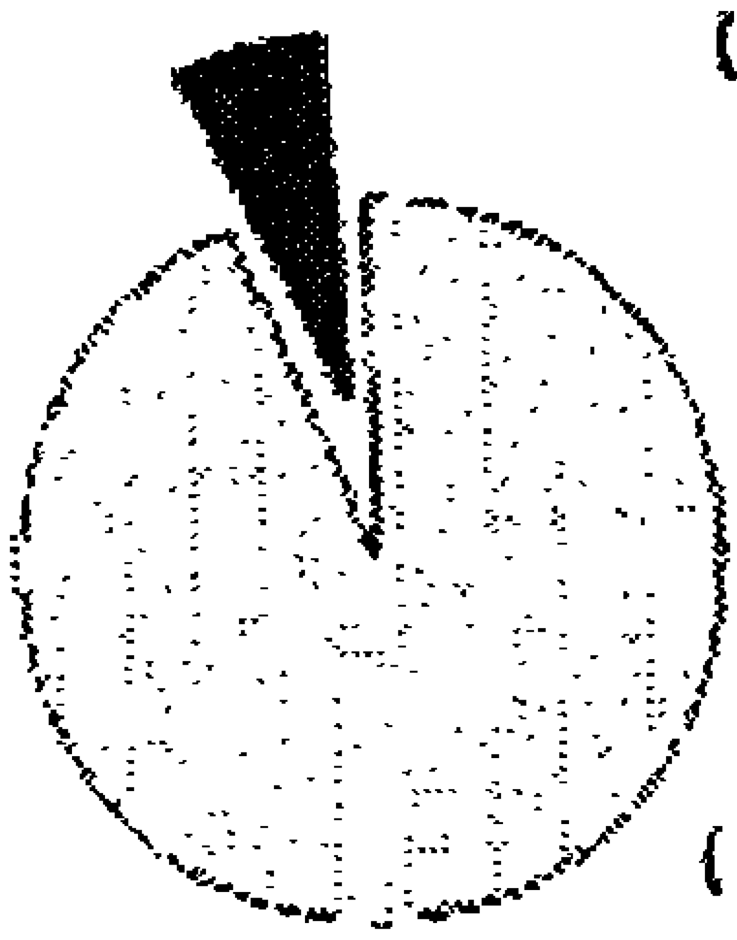

البيان 7 : شمال - جنوب (مؤشرات التواصل)

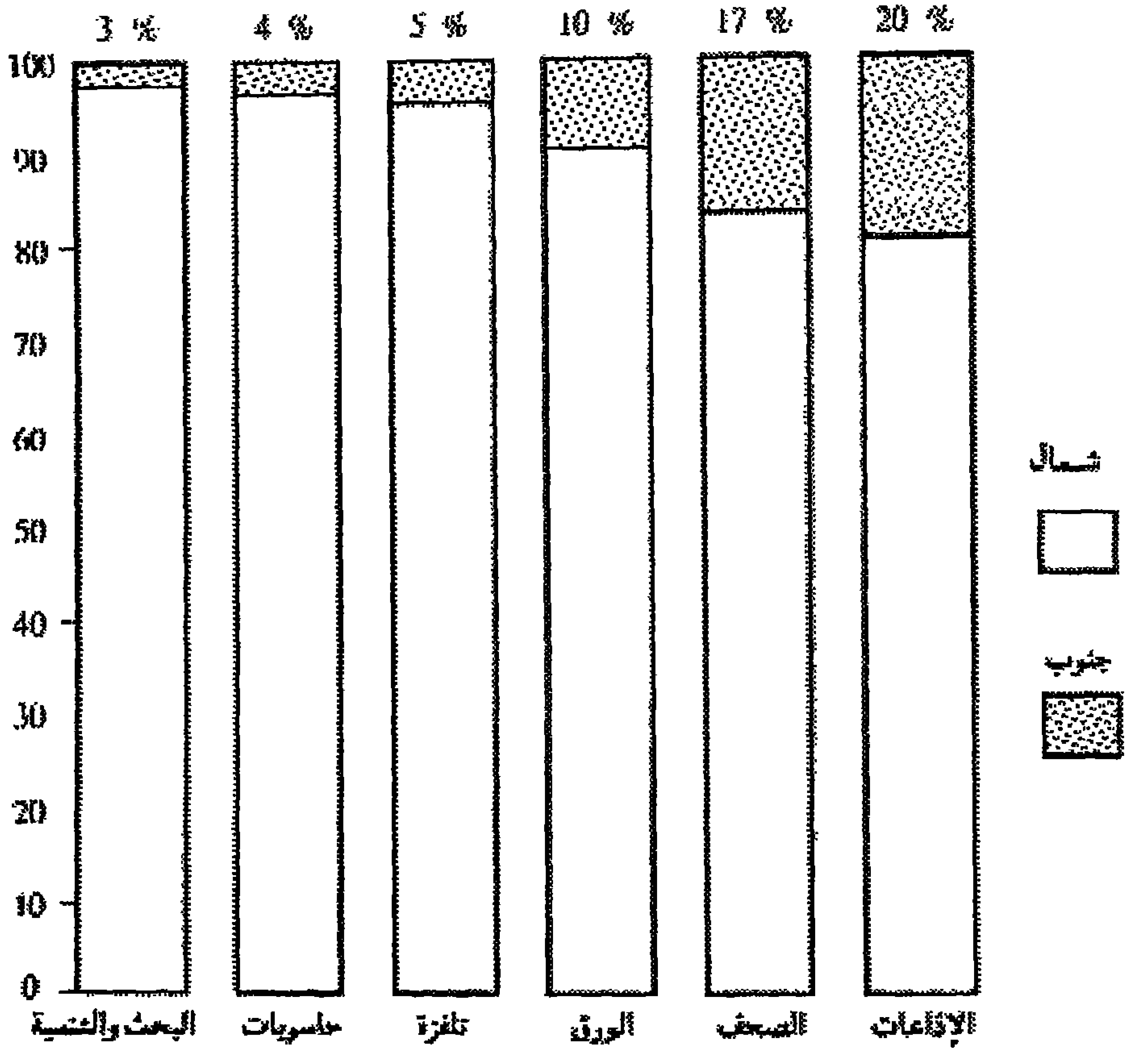

النظام العالمي ومستقبل التعاون الدولي : ثلاثة سيناريوهات ....

البيان 8 : الديون الخارجية للعالم الثالث (1980 - 1988) (مليارات الدولارات)

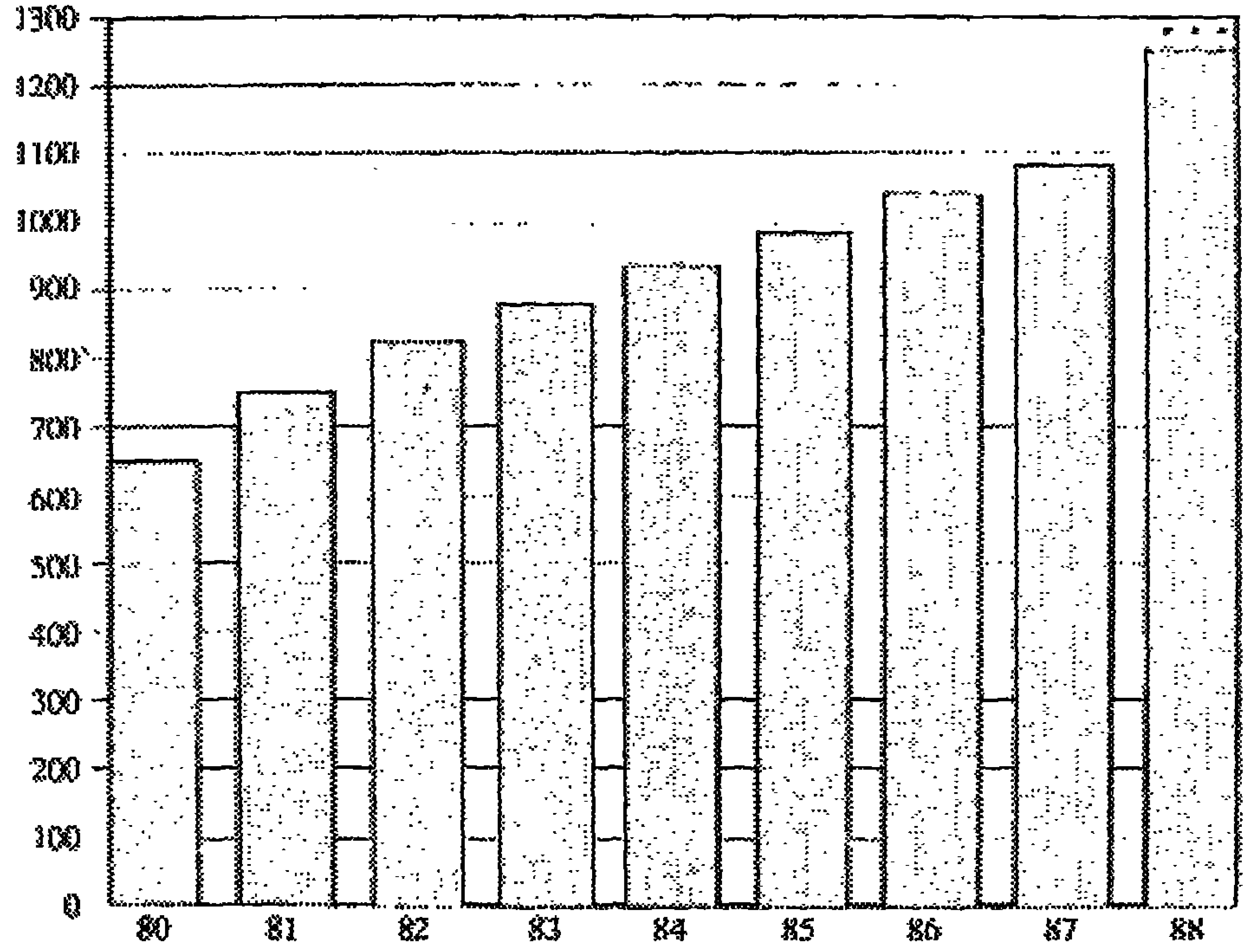

البيان 9 : إفلاس الميزانيات الامريكية (1980 - 1988) مليارات الدولارات

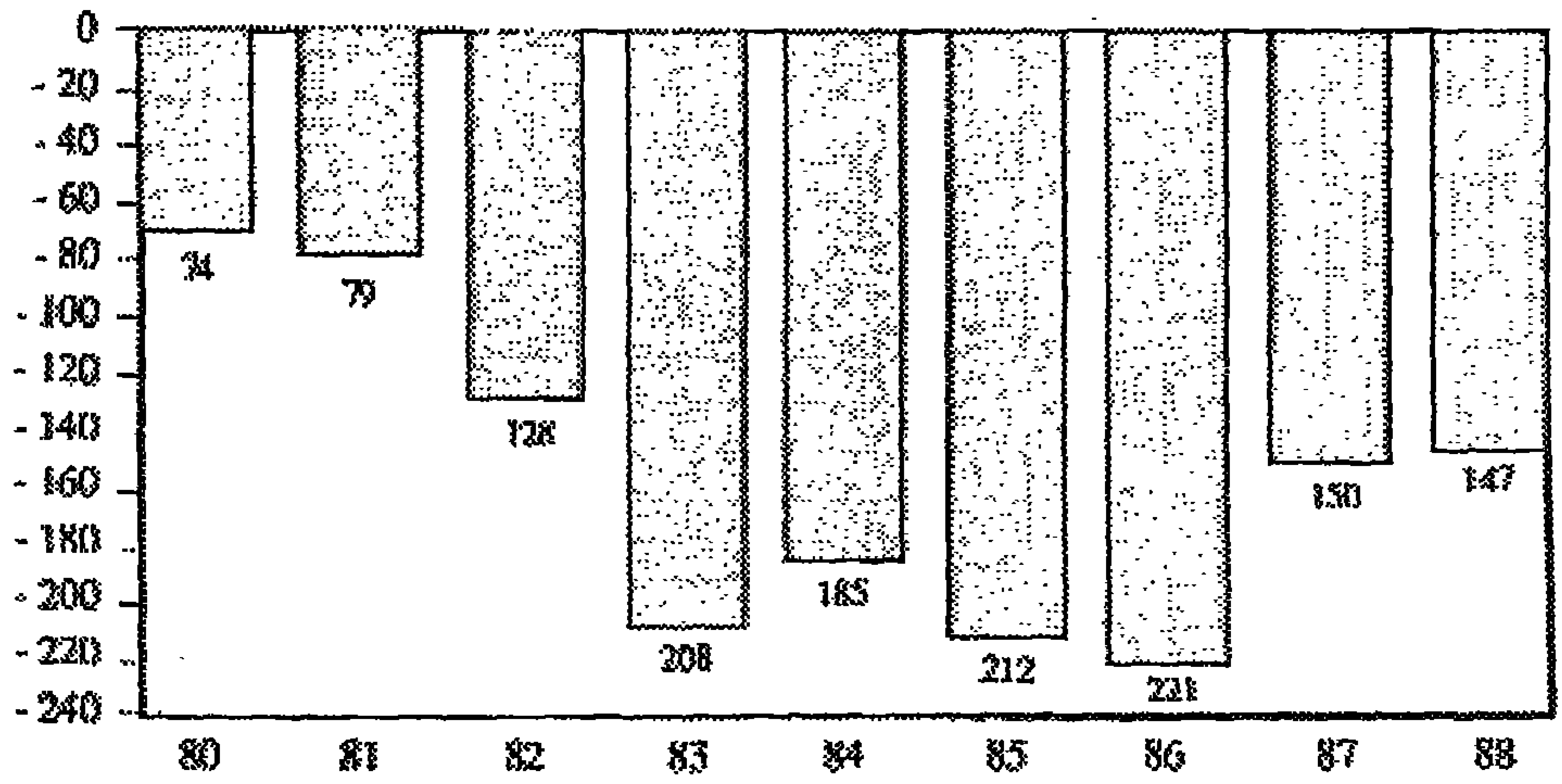

البيان 10 : إفلاس الميزانية بفرنسا

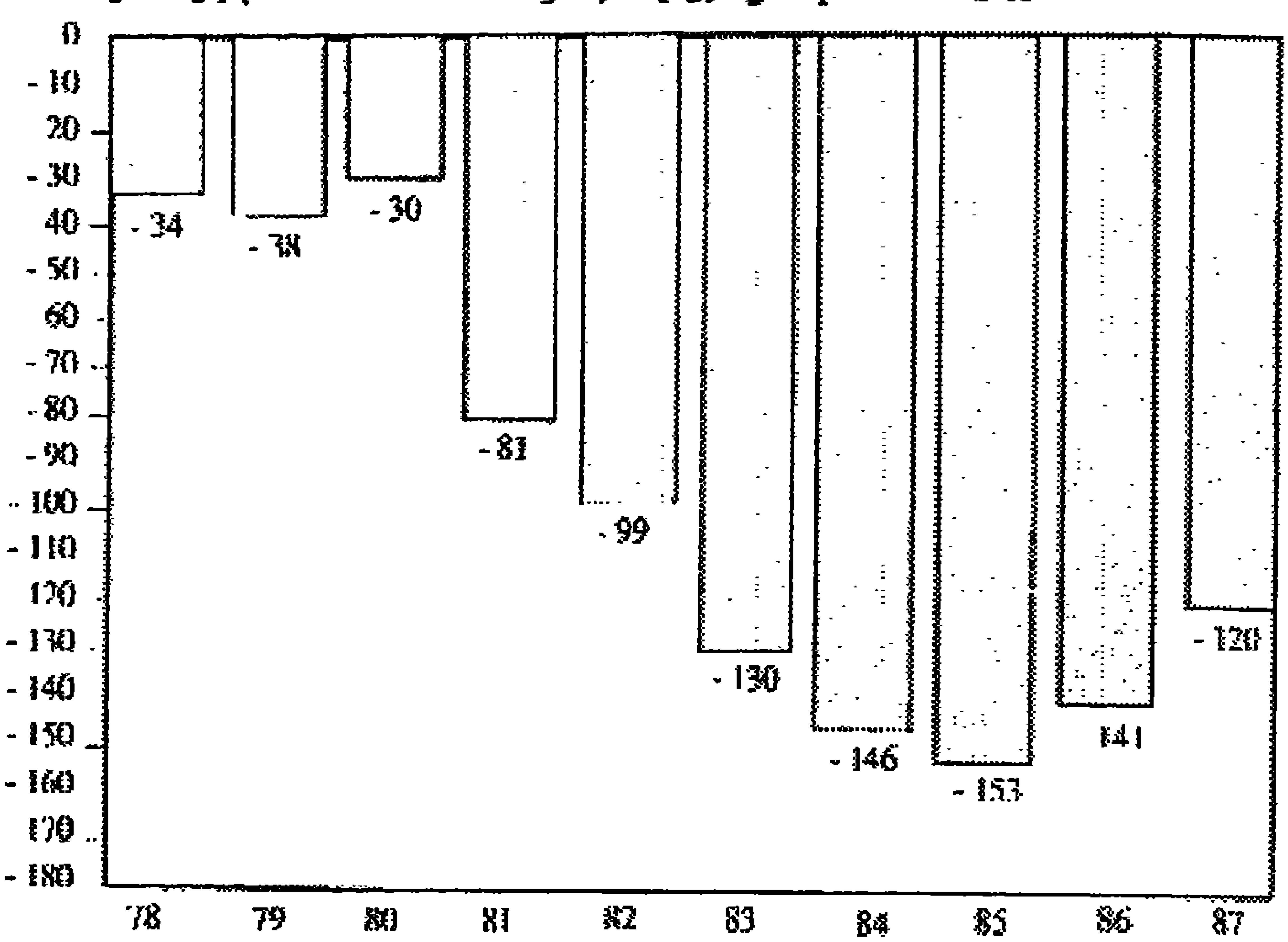

البيان رقم 11 : التحويل الخالص للثروات
(أمريكا اللاتينية 1981 - 1986)

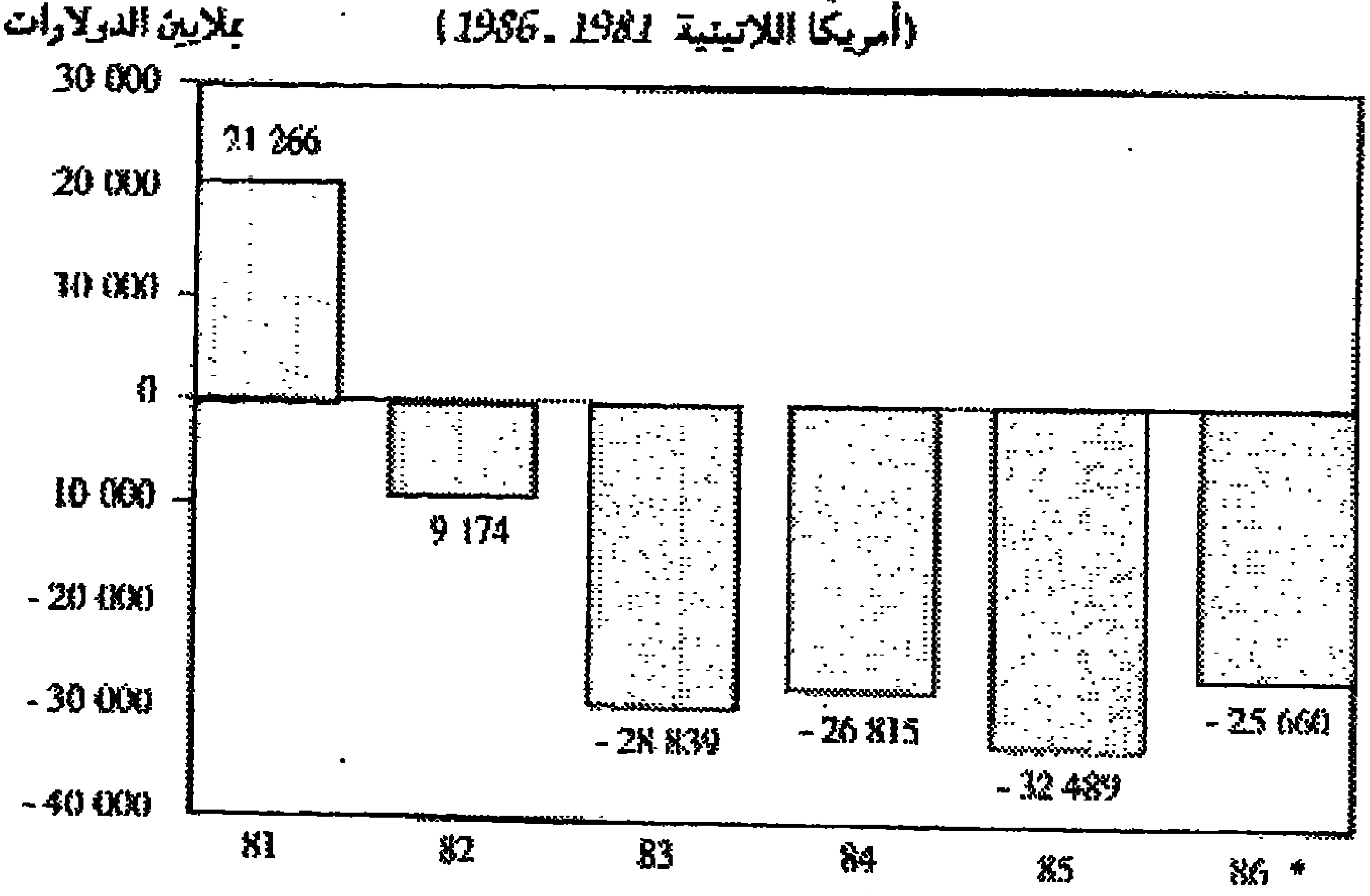

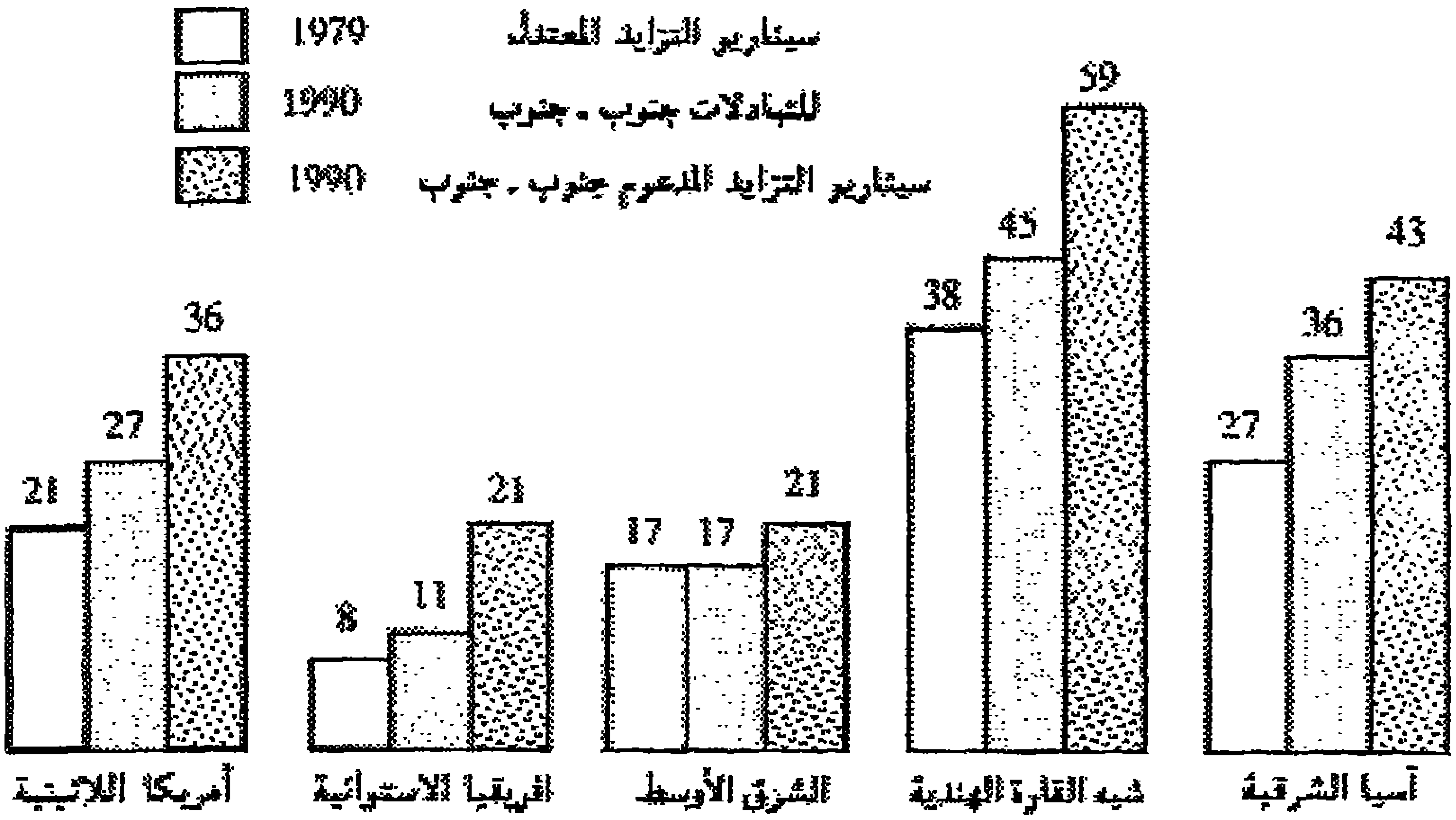

نسب الواردات الإجمالية القادمة من الجنوب (حسب المناطق)

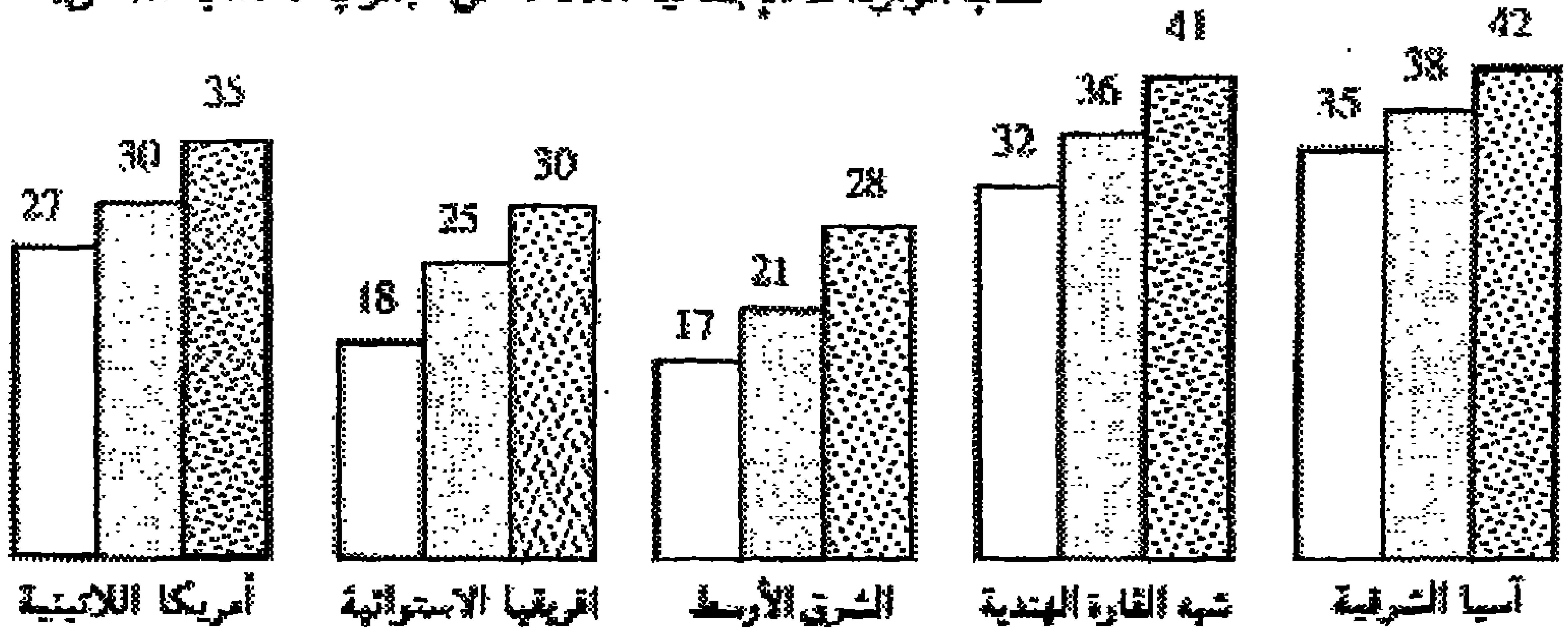

- الأرقام موافقة لنسب مئوية

هوامش

AVERNIR DE LA COOPERATION INTERNATIONALE TROIS SCENARIOS POUR L Session Academie du Royaume de Maroc, Tanger 11/04/88 - 13/04/88. Casablanca, FUTURIBLES, #121, 88/05, Paris.Penurie au Sud, Incertitude au Nord; AL ALAM 88/04/13, LE MATIN 88/04/15, 88/05/05, 88/05/11; 88/05/12; 88/05/14, Academie du Royaume du Maroc, Rabat 1988;

إشكالية الديمقراطية في العالم العربي (×)

إسمحوا لي أن أتحدث كفصامي، أي كجامعي وكباحث قضى أكثر من ثلاثين سنة في التعليم، من جهة، حيث أجد نفسي مندهشا مهتما ومتعلما مع معرفة هؤلاء الذين تحدثوا طيلة اليوم كما اغتنيت وتوضحت لي الأمور وفهمت أكثر بعض الإشكاليات.

كفصامي أنتقل الى الجهة الأخرى من ذاتي ترتبط بجزء من حياتي، قضيتها كمدير عام للإذاعة والتلفزة وكرئيس مؤسس لإحدى منظمات حقوق الإنسان بالمغرب. لكن لماذا يا ترى هناك فصامية بين الإثنين؟ لأنه حين كان هنالك متدخلون يتكلمون سواء هذا الصباح أو في جلسة هذا الزوال، كنت أقول لنفسي : لو أني أخذت شريطا مسجلا لما قيل، وأقوم ببثه عبر كل إذاعات الدول العربية ماذا كان يكون؟

ليس من وجهة نظر علمية ولكن من وجهة نظر نفسية تربوية، أو من منظور «خطاب مرسل» وبأية لغة؟ هل سنستمر في الاختفاء وراء لغة الخشب؟ بالإحالة إلى فيبر وكانط وهيجل و..... إنني لست ضد ذلك...

لكن حين نتناول موضوعا مثل الديمقراطية في العالم العربي، فإني أضع نفسي ضد الذين يقولون إن النخبة يجب أن تساعد الشعوب على «تحقيق» الديمقراطية. قالوا لنا اليوم أن السكان ليسوا مطالبين بالديمقراطية وأن النخبة هي المرشد. وكان المستعمر يقول لنا نفس الشيء قبل بضع سنوات أن السكان غير متأهلين لنيل الاستقلال.

فعن أية نخبة يتحدثون؟ نخبة في جزئها الأكبر غير قادرة إلا عن الإحالة عن غيرها وتقوم برقابة ذاتية بدافع الخوف من أن تفقد امتيازاتها. إني أؤكد لكم أنه بالنسبة لشخص يناضل من أجل حقوق الإنسان، وهذا استنتاج محزن من الميدان أن عددا من هذه النخبة التي تتحدثون عنها هي التي تعقد معركة الدفاع عن الديمقراطية. وقبل أن أستعمل مصطلح «الديمقراطية» أقول أن هنالك شيئا بسيطا ومعروفا جدا في كل الحضارات والثقافات منذ بداية الانسانية هو الكرامة، وبالنظر إلى التقدم الكبير الذي حدث في علم الوراثة لا أستبعد أن نجد يوما «جينة» ـ ش فو"ج"زف ـ داخل نظام الشفرة الوراثية.

إن الكائن البشري كيفما كان يحتوي داخل نفسه ضمن «كروموزوماته» عنصرا منظما يحمي

(×) يناير 1990

كرامته، إذ لسنا في حاجة الى مئوية الثورة الفرنسية لتفسير ما هي التجاوزات في حقوق الانسان. لا يجب أن نكون معقدين الى الحد الذي نقلد فيه بشكل أعمى «كونية» شكلية، لأن الكوني لا يوجد إلا في إطار التعدد والإغناء المستمر. الكوني هو في احترام بعض النظم دون إقصاء لأي منها، والمعركة الوحيدة هي معركة الكرامة لكل الأفراد دون انتقاء أو تفاضل، فلا نكون في آخر الطريق، لأن لنا سكانا يعانون صباح مساء.

ما هو العالم العربي اليوم؟ إنه 220 مليون ساكن، فهل تعلمون أن 53٪ لهم أقل من 18 سنة، وأن 65٪ منهم لا تتجاوز أعمارهم 25 سنة، وأن النخبة المدبرة من بيروقراطية أشبه ما تكون بالمافيا ملتصقة بمناصبها منذ سنين عديدة.

تحدثوا لنا عن انتخابات حرة في دولة من دول منطقتنا، بينما الانتخابات ليست حرة في أي بلد من بلدان العالم العربي. يجب على عدد من أفراد النخبة الثقافية العربية التخلص من كثير من عقدهم ورفع استيلابهم الثقافي الموروث منذ العهد الاستعماري إذا كانوا يتمنون فعلا الانخراط في تنمية الديمقراطية وتطورها في بلدانهم.

تدخل رئيس الجلسة : جاك بيرك (J. BERQUE)

صديقي العزيز، ربما ليس من واجبي الرد على خطاب فصيح مثل الذي تحدثتم به، ولكن لأقول أنه ليس هنالك أي خصم للكرامة الإنسانية، وأنني لم أسمع منذ بداية الجلسة أي أحد تحدث مباشرة أو بشكل غير مباشر ـ كيفما كان ـ معتديا على هذه الكرامة الإنسانية.

المهدي المنجرة :

عندما تحدثت عن «الوراثة البيولوجية» لم أهاجم أحدا، وإنما هاجمت مفهوما للتبعية والذي من خلاله يقال لنا أن الديمقراطية بدأت في الغرب، وأن دورنا سيأتي إذا ما كنا تلامذة مجدين، وقلت أن هنالك ظاهرة كونية لها أساس بيولوجي أيضا، لأن الكرامة هي الجلد البشري، دون أن نتلقى خطابات أو دروس لا من باريس أو فرسوفيا أو بوخارست أو من أي مكان آخر. وأؤكد أن الذين لايزالون يحملون تصورا جيو ثقافيا محدودا للحرية والكرامة اللتان بدأتا من هذه الزاوية من العالم الذي يجب اتباعه هم في خطإ، لخطإ التصور نفسه.

إنني هاجمت تصورا بالتأكيد على الطبيعة الكونية للكرامة، فإذا كانت كونية، لماذا الاتباع؟

معهد العالم العربي بباريس

ندوة إشكالية الديمقراطية في العالم العربي، 10 يناير 1990

ملاحق

أ رسائل مفتوحة

ب سيرة ذاتية للمؤلف

ج مراجع وبحوث مختارة للمؤلف

رسالة الى الأمين العام للأمم المتحدة
(1 يناير 1991)

«سيدي الأمين العام،

أتوجه إليكم في هذا اليوم الأول من السنة، كمواطن من العالم، ارتبط عن قرب بمنظمة الأمم المتحدة منذ 40 سنة خلت، وذلك في تخصصات مختلفة منها : أحد الأعضاء الممثلين لبلادي لدى الأمم المتحدة، قبل وبعد الاستقلال، ومتمرن بالأمانة العامة بالأمم المتحدة، وموظف دولي سام (خلال 18 سنة) وأستاذ في العلاقات الدولية، ومدافع عن حقوق الإنسان والسلم.

ولقد انصتت باهتمام، عشية السنة الجديدة وكذا اليوم الأول منها، عبر الصحافة وإذاعات مختلف الدول لبعض الكلمات أو لبرقية. بعث بها الأمين العام خلال هذه الفترة العصيبة حقا، التي لم يبد فيها السلم الدولي مهددا أكثر طيلة تاريخ الأمم المتحدة، وهذه الرغبة التي لم تتحق إلى يومنا هذا، هي موضوع هذه الرسالة المفتوحة.

لقد كان تقريركم لسنة 1990، حول أنشطة الأمم المتحدة (في شتنبر) وكذا تصريحكم ليوم 29 نونبر 1990، بعد تبني قرار مجلس الأمن الذي يسمح باستخدام كل «الوسائل الضرورية» لإجبار العراق على الخضوع لقراراته (قرار 678)و منبع أمل، بالرغم من حدة التوترات الدولية المهيمنة.

وكان الغياب شبه المطلق للرجرع إلى نصوص الأمم المتحدة، أو لأمينها العام، منذ تبني قرار مجلس الأمن ليوم 29 نونبر، في تصريحات قادة الدول والموظفين السامين بحكومات الدول المتورطة مباشرة في أزمة الخليج، يعد أمرا مقلقا، خاصة حينما نقارن هذا الغياب بالاضطراب الدبلوماسي لبعض القوى العظمى، وهيستيريا وسائلها الإعلامية بها والتي جاءت قبل تبني القرار.

وقد مر 33 يوما، دون أدنى تصريح علني مهم للأمين العام، الذي أصر يوم 29 نونبر 1990 على أن «مهلة 45 يوما من الجهود المكثفة كافية لإيجاد حل للأزمة» قبل أن يضيف «وعيا مني بالمسؤولية التي تمليها علي وظيفتي، يجب علي التعبير عن الأمل على أن هذه الفترة ستخصص من أجل هدف بناء»، هذا دون الحديث عن أمين عام كانت له الشجاعة بأن يصرح قبل شهرين، أن الفصل 51 المتعلق بحق الدفاع الشرعي الجماعي أو الفردي لم يعد صالحا.

أعلم أنكم واعون جيدا بمسؤولياتكم، كما هي محددة في ميثاق الأمم المتحدة وخاصة الفصل 99 الذي يسمح للأمين العام «بأثارة انتباه مجلس الأمن حول كل قضية تهدد، حسب رأيه، حفظ الأمن وكذا السلم الدولي».

فالفصول 22 و 23 من القانون الداخلي لمجلس الأمن، وكذا لجوءكم الدائم، أنتم وسابقوكم، إلى هذه الإجراءات لا يترك أي مجال للشك، حول حق المبادرة للأمين العام، زيادة على «الاختصاصات الأخرى المخولة له» من طرف أعضاء المنظمة (الفصل 98).

والكل يعلم، بقراءة بسيطة للصحف، أن الأمين العام قد خضع لضغوط قوية، بما في ذلك تلك التي لها طابع مادي ومالي، عرقلت الإنجاز الحقيقي لواجبه خلال الأزمة، وذلك منذ البداية، بما في ذلك دوره التقليدي «كوسيط» على الساحة الدولية. فقد استعملتم شخصيا هذه الصلاحية بصورة إيجابية وناجحة جدا، في حل عدة أزمات أخرى بالماضي.

لكن ما هو مهدد اليوم، سيدي الأمين العام، وتعرفون ذلك، أفضل من أي كان، هو لا أقل ولا أكثر من مصداقية الأمم المتحدة، وهي المنظمة الدولية الوحيدة الموجودة التي تختص في حفظ السلم. وهكذا فإن قرار 678 لمجلس الأمن، باستعماله تعابير مبهمة «كل الوسائل الضرورية» وغياب أي مرجع إلى الفصول 46 و47 من الميثاق التي تحدد وتضع شروطا لتطبيق الفصل 48، يمكن أن يؤدوا الى الحرب، وتشكيل عائق للسلم إلا إذا ما تم احترام هذه الشروط بكل دقة.

إن «للدبلوماسية الصامتة» فضائلها الكبيرة خاصة حينما يتعلق الأمر بالأمين العام للأمم المتحدة. إلا أن هذا الأخير، له كذلك مسؤوليات سياسية ومتعلقة بالأخلاق، فيما يخص الاحترام الكامل لدولة القانون، على الصعيد الدولي، إذ في مثل هذه الحالات لا يعد الصمت بالضرورة أفضل مساهم في حفظ السلم، خاصة في مواجهة حرب نفسانية بلغت ذروتها.

وبما أن أجل 15 يناير المحدد من طرف مجلس الأمن لا يفصل بيننا وبينه إلا أسبوعان فقط، فإن الرأي العام الدولي، من الناحية المعنوية والتقنية، في حاجة الى معرفة أن اللجوء إلى «كل الوسائل الضرورية» يجب أن يحدد من طرف مجلس الأمن ذاته، بعد 15 يناير، وان لمجلس الأمن فقط، وليس لأحد غيره، تحديد طبيعة هذه «الوسائل» بما فيها استخدام القوة. وكذا الشروط التي ينبغي احترامهما، كما تحددها الفصول 46 و47 من الميثاق، والمتعلق بالعمل العسكري تحت إشراف الأمم المتحدة.

إن السلطة المعنوية والشرعية للإتيان بمثل هذه التصريحات، ترجع للأمين العام وحده فقط، حتى يتم تنوير الرأي العام الدولي، والتقليص من مخاطر اعتداء شبه أحادي، يعد كارثة مدمرة ألف مرة من تلك

التي ينبغي إصلاحها.

سيدي الأمين العام، إن هذا النداء موجه الى مواطن أكثر مسؤولية في العالم، من أجل أن يصرح بصوت عال بالمظاهر المشروعة، وان يتدخل بانفتاح تام لأجل أن يساهم في تحقيق الهدف ذاته لميثاق الأمم المتحدة، ألا وهو : الحفاظ على السلم.

لقد قام خلال العشرة أيام الأخيرة بحملة من أجل السلم، أعضاء لهم تأثير داخل الكونغريس الأمريكي، وممثلو عدة أعضاء «للإئتلاف» الغربي الجديد، والمجموعة الاقتصادية الأوروبية، ورئيس حركة عدم الانحياز، وسلطات دينية لمختلف العقائد، وجمعيات غير حكومية وطنية ودولية تنتمي الى عدة دول وعدة قطاعات..

أن العالم بأسره يتطلع إلى مبادرة من الأمين العام، حتى أن السيد بريزنسكي كتب في صحيفة «واشنطن بوست» يوم 31 دجنبر يقول :

«... أفضل من ذلك ان على الأوروبيين والأمم المتحدة أن يتدخلوا، لأن ذلك لا يجب أن يكون قضية عراقية أمريكية صرفة؛ أيضا من واجب الأمين العام للأمم المتحدة أن يبذل مجهودا أخيرا للتأكد ما إذا كان بالإمكان أم لا، إيجاد صيغة غير عدوانية ومرتكزة على قرارات الأمم المتحدة.

إن صمتكم يمكن تفسيره كعمل مشرف إزاء الطريقة التي لم يعترف فيها قط بمسؤولياتكم الكبيرة. إذا لم تكن متجاهلة من طرف الأعضاء الأقوياء لمنظمتكم، فإذا كان الأمر كذلك، أعتقد أن المسألة قد تم تفهمها من طرف أغلبية الملاحظين بالأمم المتحدة. لقد حصلتم على قدر من الاحترام وحققتم نجاحات لا جدال فيها، في إطار تأدية مسؤولياتكم خلال السنوات الأخيرة، وذلك بصفتكم أمينا عاما، الشيء الذي جعلكم في المستوى العالمي لآمال كل محبي السلم، وهو الأغلبية الساحقة للإنسانية التي تتطلع بشغف إلى صوت الحكمة والعقل والمحبة الذي يدين أزمة الوصاية والأخلاق.

المهدي المنجرة

مساعد المدير العام سابقا لمنظمة اليونسكو

الرباط - في 1 يناير 1991.

(ترجمة قسم التحرير بجريدة الصحراء المغربية)

هوامش

- الصحراء، المغرب ، 7 يناير 1991.
- الاتحاد الاشتراكي، 8 يناير 1991.

- EL WATAN, Alger, 9 - 01 - 1991.
- LIBERATION, Casablanca, 11 - 01 - 1991.
- REUTRES, Depêche, 5-01-1991

رسالة الى الأمين العام للأمم المتحدة
(13 فبراير 1991)

وضح الدكتور المهدي المنجرة في رسالته : «إن الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة له أيضا مسؤوليات أدبية وتربوية في تفسير واحترام المصداقية الدولية للقانون. وفي نفس الإطار ليس الصمت بالضرورة الصفة المثلى لتحقيق السلام في وقت تصل فيه الحرب النفسية قمتها.

وبعد تجاوز خط الموت بإعلان قرار 15 يناير الصادر عن مجلس الأمن فإن الرأي العام الدولي يحتاج لمعرفة وجهات النظر أخلاقيا وشرعيا وتقنيا، وهو اللحاق بكل المعاني التي يجب على مجلس الأمن تحديدها بنفسه بعد 15 يناير.

فللأمين العام وحده السلطة القانونية والتقديرية لتقديم كافة التوضيحات وتنوير الرأي العام العالمي وتقليص مخاطر العدوان الأحادي الجانب والذي بلغ آلاف المرات في وحشيته ما كان يستهدف «إصلاحه...». وينبه الدكتور المهدي المنجرة بهذا الصدد الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة إلى دوره في حماية ميثاق الأمم المتحدة لحفظ السلام والذي أصبح مدارا للخرق في حرب الخليج. ويتساءل الدكتور المهدي المنجرة : «ما السبب الذي ترك الأمين العام للأمم المتحدة صامتا إلى ما بعد 15 يناير ليقول متأخرا أن حرب الخليج ليست حربا لهيئة الأمم المتحدة»!؟

«لو تحقق ذلك قبل 17 يناير لما كان العالم اليوم مختلفا عن ما هو عليه الآن، قد صدمت سيادة الأمين العام باستعمالك مصطلحي «سليمة» و«شرعية» في حديثك عن هذه الحرب. فبإقرارك أن هذه الحرب هي حرب شرعية ليست فقط رهيبة وإنما خرقا للقيم التي من أجلها وجدت الأمم المتحدة لحفظ السلام.

وخلال قراءتي للتقرير المتعلق بلقائك مع الرئيس العراقي يوم 13 يناير 1991، فوجئت برغبتك التي عبرت عنها في زيارة العراق كسائح لمعناها الحضاري والثقافي القديم.

فهذا هو منتهى العبث، خاصة وحسب علمي إلى الآن لم تتحدثوا إطلاقا عن تدمير جزء من هذا التراث والذي هو المتحف الوطني لبغداد ولا عن المظاهر الاركيولوجية والدينية الفريدة التي دمرت هناك، رغم مسؤولياتك مثلك مثل المدير العام لليونسكو على احترام تطبيق معاهدة «هاج» لسنة 1954 والمتعلقة بحماية التراث الثقافي والممتلكات الثقافية في حالة نزاع مسلح.

لقد سمعت تصريحك في الراديو حول تدمير ملجأ مدني بالعراق بقنابل متفجرة خلفت 800 بريء من السكان الذين استشهدوا، وعبرت عن ذلك بـ «خيبة الأمل»، فكيف تشعرون ودولة عضو في الأمم المتحدة

تقوم بتدمير شامل يتم أمام أعينكم ويخرق سافر لإتفاق دولي آخر مصادق عليه من طرف الأمم المتحدة وهو الميثاق المتعلق بحماية المدنيين (ملحق الجمعية العامة، القرار 260 - شد (3) ليوم 9 ديسمبر 1948).

والظاهر أنكم لا تريدون أن تخدموا لمدة أخرى، وتنتظرون بشوق تقاعدكم مع نهاية هذه السنة. فيا سيدي ألا ترون أنكم ستقدمون خدمة كبيرة للإنسانسة بأن تنسحبوا من مهامكم الحالية قبل عشرة أشهر من الموعد الذي كنتم تنتظرونه، ومهما يكن، فإن أمرا يقينيا، هو أن لا شيء سيبقى كما كان بعد 17 يناير 1991، والمسؤول الأول عن كل هذه الجرائم التي تنفذ ضد السلام العالمي وضد سكان العراق هي هيئة الأمم المتحدة التي افتقدت جزءا هاما من مصداقيتها.

لقد دخلت خطأ إلى التاريخ كأحد المسؤولين عن أول حرب عالمية حقيقية... حرب بين الشمال والجنوب، وحرب بين ثقافة الغرب وضد كل القيم المختلفة الأخرى.

حرب ستمتد عبر جيل آخر ليس عسكريا فحسب.

لقد فتحتم الطريق لولادة عالم جديد لكنه مختلف عن الذي يمثل فيه رؤساؤك أعضاء دائمون في مجلس الأمن.

الرباط في 13 فبراير 1991

المهدي المنجرة

نائب المدير العام سابقا لليونسكو

هوامش

الخضراء، 15 فبراير 1991.

العلم، 16 فبراير 1991

الخبر، 18 فبراير 1991.

- Le Matin, 17 - 20 - 1991
- Rueters, Dépèche , 19-02-91

رسالة الى المدير العام لليونسكو (23 يناير 1991)

بعث الدكتور المهدي المنجرة - رئيس الجمعية الدولية للمستقبلية - برسالة الى المدير العام لليونسكو يدعوه فيها الى التدخل ضد تدمير التراث الثقافي والحضاري للعراق، وجاء في الرسالة:

«سيدي المدير العام،

أشكرك بكل إخلاص لإرسالك لي النصوص الكاملة لتصريحاتك منذ بداية أزمة الخليج، والتي تشهد على تشبثك بالسلم كهدف لكل أنشطة اليونسكو، وكذا مجموع نظام الأمم المتحدة. وقد قدرت بكل إكبار تصريحك ليوم 21 يناير الجاري المتعلق بالمخاطر التي يمكن أن تنتج عن استعمال الأسلحة الكيماوية والبيولوجية. ولعل لهذه الدعوة صداها الكبير سواء على المستوى العلمي أو المعنوي.

وانطلاقا من الأخبار الأخيرة المتعلقة بتدمير المتحف الوطني لبغداد الذي ساهمت اليونسكو فيه منذ الزمن الذي كنت فيه نائبا للمدير العام للثقافة والذي يضم تحفا فريدة في العالم من التراث الثقافي للإنسانية لمختلف العصور.. لا يساورني أدنى شك في أنك ستدعو في المستقبل العاجل الى الضغط على القوى المحاربة من أجل احترام حماية الممتلكات الثقافية في حالة النزاع المسلح. (لاهاي - 1954) المصادق عليه من طرف 76 دولة. إنه من المؤسف الا يتم تمثيل الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا ضمن الدول المصادقة على هذه الاتفاقية لكونهما ليسا الآن عضوين في اليونسكو، ولكن ذلك لا يعفيهما من احترام القانون العالمي. ومعلوم أن الاتفاقية ترخص لليونسكو بالتدخل والدعوة - بمبادرة من المدير العام - الى اجتماعات تعقد على أراض محايدة بين ممثلي أطراف النزاع، والمنطقة التي تجري فوقها الحرب التي لا مثيل لها، قد تدفقت عليها أطنان المتفجرات المعادلة بخمس مرات القنبلة النووية التي دمرت هيروشيما.

أعتقد أن اليونسكو هي المنظمة الوحيدة المؤهلة للقيام بالمبادرة لحفظ تراث وممتلكات تنتمي للإنسانية جمعاء.

مع تحياتي الصادقة

23 يناير 1991

المهدي المنجرة - نائب المدير العام لليونسكو سابقا

العلم 25 يناير 1991

رسالة الأمة 25 يناير 1991

الصحراء 26 يناير 1991

- AFP et REUTERS, 23-01-1991
- L'OPINION, Rabat, 25-01-1991
- LE MATIN, 25-01-1991
- LIBERATION, Casablanca, 12-01-1991
- EL WATAN, Alger, 25-01-1991
- LA MANANA, Casablanca, 26-01-1991
- AL MOUDJAHID, Alger, 27-01-1991
- ALGER REPUBLICAIN, 28-01-1991

رسالة الى المدير العام لليونسكو
(29 يناير 1991)

وجه الدكتور المهدي المنجرة يوم الإثنين رسالة الى السيد فديريكو مايور المدير العام لمنظمة اليونسكو، جاء فيها :

السيد المدير العام.

عقب رسالتي المؤرخة في 25 يناير 1991 التي لم أخبر بتوصلكم بها بسبب زيارتكم للولايات المتحدة، سررت بأن علمت من السيد هنري لويس مساعد المديرالعام أنكم بعثتم برسائل الى البلدان الأطراف في نزاع الخليج، بشأن معاهدة لاهاي (1954) حول حماية الممتلكات الثقافية في حالة النزاع المسلح.

وستجدون رفقته النداء الذي نشرته جريدة «العلم» هذا الصباح، والذي ستتوصلون به لاحقا من قبل المثقفين المغاربة والمغاربيين.

وسيكون كل خبر من جانبكم الى الصحافة العالمية، محل تقدير كبير من رجال ونساء الثقافة عبر العالم، المنشغلين بمصير أحد أغنى ثروات الإنسانية جمعاء،

العلم، 31 يناير 1991

رسالة الى السيد إدغار بيزاني مدير معهد العالم العربي بباريس (23 فبراير 1991)

عزيزي إدغار

كم من الساعات قضينا معا في الملتقيات والإجتماعات في مختلف المؤسسات عبر العالم منذ أن امتزت بالتعرف إليك قبل أكثر من عشرين عاما في نادي روما بفضل المرحوم «أوريليو بيشي» و«مستقبليات»، وبفضل المرحوم «برتراند دي جوفنال»، هذا النموذج للأرواح الإنسانية الكريمة المتفتحة على الإشكالية الكونية للإنسان الذي صار عملة نادرة جدا في الغرب، والذي تبقى أنت مثالا غير مطابق تماما له في هذه الساعات الصعبة. كم من الوثائق، والكتابات الشخصية والرسائل تبادلنا طيلة هذه المدة؟ كم من الأزمات والاختلافات توصلنا دوما إلى تجاوزها في صلات مليئة بالتسامح والاحترام المتبادل لنظم قيم الآخر؟

إن رسالتك الأخيرة المؤرخة في 24 يناير 1991 بالنسبة لي تألق للعلاقة الودية الأخوية جدا ولرباط فكري كان هدفه الوحيد دائما إنشغال بالحق في الكرامة والحرية لكل الكائنات على هذه الأرض.

وفي وقت استنفذت فيه القطيعة تماما بين الشمال والجنوب، بين أوربا والعالم العربي، بين ضفتي المتوسط الشمالية والجنوبية، بين فرنسا والمغرب العربي، دون إمكان العودة الى أشكال الهيمنة السياسية والإقتصادية وعجرفة الأمس الثقافية، أحرص على أن أؤكد لك صداقة خالصة عزيزة علي جدا، ولا شيء يقدر على الإضرار بها.

إنني ما أزال متأثرا بالنزاهة الحادة وصيحة الفؤاد في حوارك مع إذاعة فرنسا الدولية يوم 22 يناير 1991 التي ستبقى إلى الأبد راسخة في قلوب أصدقائك ومعجبيك الكثيرين عبر العالم العربي

إن التلفاكس المفتوح لا يتوجه إلى الصديق ولا إلى الأخ، ولكن إلى رئيس معهد العالم العربي بباريس الذي قبلت دعوته لأن أكون عضوا في مجلسه الإستشاري الثقافي في جانفي 1991. هذا المجلس الذي شرفني بانتخابه عضوا إياي في لجنته المضيقة.

وأثناء هذا الاجتماع الذي تم منذ ثلاثة عشر شهرا، كنت قد ألححت - كما فعلت منذ سنوات عديدة ، في نادي روما، و«مستقبليات»، وجمعية التنمية الدولية التي رأستها أنت بكفاءة وتفان - على الخطر الذي يمثله غياب الإتصال الثقافي بين الشمال والجنوب بسبب رفض الشمال سماع بل حتى فهم «الآخر»، وفي التقرير العلني لأول دورة للجنة الثقافية الإستشارية لمعهد العالم العربي (باريس، 8-10 يناير 1990) يمكننا أن نقرأ في الصفحة الرابعة : «يعبر المهدي المنجرة عن اعتقاده بأن النزاعات القادمة لن تكون سياسية ولا اقتصادية ولكن ثقافية، وأنه يجب إذن التهيء لمواجهة ذلك بالتسامح وإحترام قيم الآخرين، آملا بذلك الوصول الى علاقات بالنهاية متزنة».

وفي وقت نعيش النزاع الأكثر بربرية في تاريخ الإنسانية والذي يشكل في الوقت نفسه مذبحة ثقافية

وإنسانية أرادها الغرب بأي ثمن باستسلامه للإنذار النهائي الأمريكي الموجه الى العراق، فإنك تفهم كم هو صعب جدا علي إن لم يكن مستحيلا مواصلة الإنتماء إلى معهد ثقافي «عربي»، في بلد عضو في «التحالف» الذي يشن حربا صليبية شعواء ضد التنوع الثقافي.

وكما كتبت ذلك منذ الثاني عشر من سبتمبر في مقال نشر في عدد أكتوبر 1990 من «مستقبليات» التي أنا وأنت وكلانا عضو في مجلس إدارتها، فإن هذا النزاع هو نزاع بين الشمال والجنوب، رهانه ثقافي ويمثل بداية عهد ما بعد الاستعمار. إن الأمر يتعلق بالحرب العالمية الأولى حقا، إذ أن حربي 1914-1918 و 1939-1945 قد ولدتهما أسباب أوربية بحتة في وقت كان العالم الثالث كله تقريبا مستعمرا ولم يكن له حق الحديث.

وعلى النقيض من ذلك، فإن الحرب التي شنها الغرب عمدا يوم 17 يناير 1991 (والتي توقعتها في حوار مع إذاعة فرنسا الدولية يوم 27 سبتمبر 1990) هي حرب لن تفعل سوى أن تبدأ بوسائل أخرى غير العسكرية، حين يكون ما أسماه الحلفاء بعد بـ : «ما بعد الحرب» قد بدأ.

إنه لمسلسل طويل سيشغل على الأقل جيلا من أدنى كوكبنا إلى أقصاه، وسيتطلب كثيرا من التسامح والتفاهم لتمكين أجيال القرن الحادية والعشرين من البقاء في سلام واحترام وكرامة. وبإنتظار هذه الأوقات الأفضل التي ستجيئ حتما - إذ أني أومن بالفضائل اللصيقة بالإنسان من حيث يجيء - وداعا لحوار الشمال والجنوب، وداعا للحوار الأوربي العربي، وداعا للتعاون المتوسطي، وداعا للفرنكوفونية، وداعا لحميمية العلاقات الفرنسية المغاربية، ووداعا «للتنمية المشتركة»، هذا رغم ما تريد بعض الحكومات المقطوعة تماما عن حقائق شعوبها وأحاسيسها العميقة إفهامه في لقاءات دولية أثناء الأشهر المقبلة أو حتى السنوات القادمة. وبالعكس، فإن حوار الناس الأحرار - وهم لحسن الحظ كثيرون - أبدي ولا أحد يقدر على قطعه. وإنطلاقا من هذه الإنسانية العالمية فإن على الرجال والنساء ذوي الإرادة الطيبة والحب، أن يقاتلوا الحقد ويعيدوا بناء المستقبل.

إن الله مع الصابرين

صديق يفتح قلبه لرجل قلب ليس طفل كورال. أخويا جدا حتى آخر ذرة.

23 فبراير 1991

العلم، 27 فبراير 1991

الخبر، 28 فبريار 1991

الخضراء، 1 مارس 1991

Agence Espagnole EFE, 25 - 02 - 1991.

سيرة ذاتية للمؤلف

الدكتور المهدي المنجرة، من مواليد 13 مارس 1933 بالرباط، تابع دراسته الثانوية بثانوية ليوطي، وذهب للولايات المتحدة سنة 1948 لمتابعة دراسته، حيث التحق بجامعة كورنيل بنيويورك خلال الفترة ما بين 1950 ، 1954، وحصل على دبلوم الإجازة في العلوم السياسية، وانتقل بعد ذلك الى مدرسة لندن للإقتصاديات والعلوم السياسية التابعة لجامعة لندن خلال الفترة ما بين 1954 و 1957، حيث حصل على الدكتوراه في العلوم الاقتصادية والعلاقات الدولية، التحق على إثرها إلى جامعة محمد الخامس كأستاذ محاضر بكلية الحقوق.

وشغل بعد ذلك عدة مناصب دولية نذكر من بينها :

- مستشار أول في الوفد الدائم للمغرب بهيئة الأمم المتحدة خلال الفترة ما بين (1958-1959).
- مدير عام للإذاعة والتلفزة المغربية (1959-1960).
- أستاذ محاضر وباحث بمركز الدراسات الدولية التابع لجامعة لندن (1970).

كما شغل الدكتور المنجرة عدة مناصب دولية عليا بمنظمة «اليونسكو» وبهيئة الأمم المتحدة، حيث شغل باليونسكو:

- رئيس مصلحة إفريقيا (1961-1963).
- مدير ديوان المدير العام (1963-1966)
- نائب المدير العام للعلوم الإنسانية والاجتماعيات والثقافة (1966-1969).
- نائب المدير العام للبرمجة والمستقبليات (1971-1975).
- مستشار خاص للمدير العام (1975-1976).

وشغل الى جانب ذلك أيضا منصب :

- منسق لمؤتمر التعاون التقني بين الدول الافريقية (نيروبي 1980)، خلال الفترة ما بين 1979-1980.
- خبير خاص للأمم المتحدة للسنة الدولية للمعوقين (1980-1981).
- مستشار مدير مكتب العلاقات بين الحكومات للمعلوميات (بروما 1981-1985).
- مستشار الأمين العام للأمم المتحدة لمحاربة استهلاك المخدرات (1990).

وللدكتور المهدي المنجرة دراسات وأبحاث منشوورة تصل إلى أكثر من خمسين مؤلفا، علاوة على مئات المقالات والمحاضرات والاستجوابات.

أما الجمعيات الدولية أو الإقليمية أو القطرية التي شغل فيها المنجرة مناصب علمية فهي متعددة ومتنوعة يذكر من بينها:

- رئيس الفدرالية العالمية للدراسات المستقبلية (1976-1981).
  ثم عضوا في لجنتها التنفيذية.
- رئيس الجمعية الدولية للمستقبليات «فوتوريبل»
- عضو نادي روما (استقال منه سنة 1988)
- الرئيس المؤسس للمنظمة المغربية لحقوق الإنسان.
- الرئيس المؤسس للجمعية المغربية للمستقبليات.
- عضو المجلس التنفيذي للجمعية العالمية للتنمية (1985-1988).
- أكاديمية المملكة المغربية.
- الأكاديمية العالمية للفنون والعلوم.

- الأكاديمية الافريقية للعلوم.
- الأكاديمية الأوروبية للعلوم والفنون والآداب.
- الجمعية العالمية للمستقبل.
- الاتحاد العالمي للمهندسين المعماريين.
- منتدى العالم الثالث.
- نائب رئيس جمعية الصداقة بين المغرب واليابان.
- جمعية الاقتصاديين المغاربة.
- الجمعية المغربية للفلسفة.
- الجمعية المغربية للتاريخ.
- فريق البحث الإنساني التكاملي للباحثين الشباب بإفريقيا (عضو شرفي) 1990.
- عضو هيئة تحرير مجلة «فيوتشرز»، بلندن.
- عضو هيئة تحرير مجلة «فوتوريبل» بفرنسا.
- عضو هيئة تحرير مجلة «أغورا» بروما.
- عضو هيئة تحرير مجلة الجمعية المغربية للفلسفة.
- عضو هيئة تحرير مجلة «المالية العمومية والاقتصاد».

وللدكتور المنجرة عدة جوائز وأوسمة حصل عليها أهمها :

- جائزة الأدب الفرنسي في جامعة كورنيل (1953).
- جائزة العلاقات الدولية عن مدرسة لندن للإقتصاديات (1955).
- وسام الاستقلال بالأردن (1960).
- وسام ضابط للفنون والآداب بفرنسا (1976).
- جائزة «الحياة الاقتصادية»، فرنسا (1981).
- الجائزة الفضية الكبرى للأكاديمية المعمارية بباريس (1984).
- وسام الشمس المشرقة باليابان (1986).
- جائزة السلام لسنة 1990 عن معهد ألبرت إنشتاين الدولي.

وتجدرالإشار هنا إلى أن الدكتورالمهدي المنجرة وهب حياته من شبابه للنضال الى جانب دول العالم الثالث من أجل تحرر الجنوب من هيمنة الشمال ولأجل تحرر الجنوب من أسباب تخلفه نفسها.

فكان صوتا متكررا لا يمل، ضد خرافة التعاون الدولي وضد الديكتاتوريات وضد خرق حقوق الانسان وضد كل مظاهر التعصب والتزمت سواء داخل دول العالم الثالث أو لدى الدول الغربية.

ناضل الدكتور المهدي المنجرة بوجه خاص لأجل بناء مغرب عربي موحد، فكان صوتا تحرريا كلما حل، لا تحده الجنسيات فمثل الحركة التحررية المغربية كما مثل جبهة التحرير الجزائرية كما نسق وتعاون مع الحركة الوطنية خلال مراحل الاستعمار.

وعبر باسمها مرات عديدة عن أهدافها بالولايات المتحدة الامريكية وانجلترا وفرنسا وغيرهما من المنتديات التي كان يحجها الوطنيون لأجل إقناع الرأي العام الدولي بضرورة دعم طموحات شعوب المغرب العربي من أجل التحرر والاستقلال.

و قد برز من جديد الدكتور المنجرة شعلة حارقة ضد الأضاليل التي روجها الغرب وحلفاؤه خلال حرب الخليج، فكتب عشرات المقالات وأنجز عشرات الحوارات والأحاديث ووجه عشرات البرقيات لمنظمات وهيئات دولية، كما قدم استقالته من عدة هيئات احتجاجا عن مواقفها من حرب الإبادة التي تقودها أمريكا وحلفاؤها ضد العراق، كانت آخرها استقالته من معهد العالم العربي بباريس.

مراجع وبحوث مختارة للمؤلف

Administration in The 21st Century
88/1/05 Arabic
AL ALAM, 88/11/11

AFRIQUE: LE GRAND CHAMBARDEMENT
90/03/12 – Français
SUD-OUEST, 90/03/12,Bordeaux, France

ARAB UNITY KEY TO ECONOMIC SUCCESS
80/10/20 English
8 DAYS MIDDLE EAST BUSINESS, VOL2 N° 38, London, UK, 800/10/20

ARABES ET AFRICAINS A LA RECHERCHE D'UNE NOUVELLE VOIE 88/01/25 Arabic, Français, RISSALAT AL OUMMA, 88/01/29, Casablanca, LE MATIN ? 88/01/29 ; AL BAYAN, 88/01/30 ; AL MTTHAQ, 88/01/30, Rabat, Maroc.

ARABO NORDIC COOPERATION
83/10/25 Français
AL BAYANE, Casablanca, 83/10/28
L'OPINION, 83/10/28, Rabat, Maroc

ATTAALLUM WA TAHADDIYAT AL MUSTAKBAL
79/09/15 Arabic
ESDUCK, AL MAKTAB AL MASRI AL HADITH, CAIRO, EGYPT, 1981, Arabic translation of NO LIMITS TO LEARNING, RISALAT AL KHALEEJ AL ARABI; 5 &6, 1982, 6-8, 1983, 10-11, 1984, Riyadh, Saudi Arabia.

AVENIR DES ARABES ET DE LA CULTURE
79/08/12, Arabic
AL QABAS, 79/11/12, Kuwait

COOPERATION AFRO ARABE
97/08/25, Français
LE MATIN DU SAHARA, Casablanca, 80/08/25, L'opinion rabat, 80/08/25 ; AL BAYANE, Casablanca 80/08/25, AL MITHAQ 80/08/25 ; AL MAGHRIB, Maroc, 80/08/26.

COOPERATION AFRO ARABE
80/08/19 English, Arabic, Français
LE FORUM CULTUREL AFRO ARABE, N°1, Asilah, Maroc
1980; édition trilingue, rabat 85/07; Presse marocaine, 80/08/28 & 80/08/29

CULTURES ET IDENTITE MEDITERRANNEENNES,LA MEDITERRANEE PROVOQUEE 79/04/29 Français
JEUNE AFRIQUE, N° 1037, 80/11/19, " MEDITERRRANEE : LA MER NOURRICIERE ", Paris, France

DEVELOPMENT AID AS AN OBSTACLE TO DEVELOPEMENT
87/14/13 English, Français, Arabic
DEVELOPMENT, SID, 97/03, Rome, Italy, JEUNE AFRIQUE
ECONOMIE N° 99, 87/08, Paris, France; AL MITHAQ 87/08/02 , Rabat ; LE MATIN , 87/08/05, Maroc ; AL ALAM,
87/08/26 ; FUTIRIBLES, 115, 87/11, TANSNATIONAL DATA REPORTS, 88/07, USA

DROIT DE L'HOMME ET DEVELOPPEMENT
89/03/23, Arabic
ALITTIHAD AL ISHTIRAKI ; 89/25/03
89/04/08, 89/04/15, Casablanca, Maroc.

EN FINIR AVEC LES GOULOTS D'ETRANGLEMENTS 86/08/28 Français
LE MATIN DU SAHARA MAGAZINE, 86/09/14, Casablanca, Maroc.
ET DANS VINGT ANS ? L'AFRIQUE L'AN 2000 80/09/10
Français, English, Arabic

ANNUAIRE DE L'AFRIQUE ET DU MOYEN-ORIENT, 81/01,
JEUNE AFRIQUE, Paris, France ; AL ALAM ASSIASSI ;
82/08/02, Rabat Maroc, FUTURIBLES, 42, 81/02, FUTURES
London, UK, 86/04

EUROPA MONDE ARABO MEDITERRANEO IL PONTE
ITALIA 77/09/77 English, Italian
STRUTTURE AMBIENTALI, 34-35, 1977, Rimini, Italy.

INFORMATIQUE ET AVENIR ARABE
84/12/12 Arabic
KOL AL ARAB N° 120, 84/12/12 Paris, France.

JE REFUSE QUE L'AVENIR DES ARABES SOIT LE PASSE DES AUTRES.
84/07/04 Arabic
KOL AL ARAB N° 120, 84/12/12 Paris, France.
JE REVE D'UNE AFRIQUE AFRICOPHONE
90/04/12 Français
SUD-HEBDO , 90/05/03, Dakar, Senegal

LA DIGNITE DE LA PERSONNE HUMAINE EST LE MOYEN ET LA FIN DU DEVELOPPEMENT
88/12/04 Arabic
ALITTIHAD AL ISHTIRAKI ; 88/12/04; Rabat, Maroc.

LA FRANCOPHONIE:UN SURREALISME
98/07/01 Français
LE LIBERAL, 89/07, Casablanca, Maroc

LA MEDITERRRANEE A L'HEURE DE L'ELARGISSEMENT DE LA COMMUNAUTE EUROPENNE
80/06/30 Français, English
LA MEDITERRANEE a l'heure de l'élargissement de l'Europe
CFPI, PARIS, France, 1980.
JEUNE AFRIQUE N° 1037, 80/11/19

LA MORT DES REVES ET DE L'ESPOIR MENACENT LE MONDE ARABE
86/09/12 Arabic
AD DASTOUR, 86/11/10, London UK.

LA PRESENTE DECENNIE SERA CELLE DE LA DECOPERATION CULTURELLE
80/08/27 Français
AL MAGHRIB, Rabat, Maroc, 81/08/27 Français

LA COOPERATION EURO ARABE
82/12/03 Français
COOPERATION EURO ARABE, Diagnostic et Prospective, V. III, Actes du Colloque, Univ. Catholique de Louvain, 1983, Belgique, AL ALAM ASSIYASSI, Rabat, Maroc, 83/04 ; AL MAGHRIB, 83/05/02.

LA PROSPECTIVE : DIALOGUE AVEC MADHI EL MANDJRA 86/08/22 Arabic
" AL ARBI 'A " N° 173, 86/08/22, supplément
" AL MANDINA " Jeddah, Saudi Arabia.

L'AFRIQUE 20 ANS APRES, DES CRISES PROEVISIBLES AVANT L'AN 2000.
80/12/05 Français
JUENE AFRIQUE , N° 1043, 80/12/31.
Paris, France, DEMOCRATIE ;
Tunis, Tunisie, 81/01

L'AUTORITE QUI COMBAT LES DROITS DE L'HOMME NE COMBAT QU'ELLE MEME 89/03/10 Arabic
AL WATAN AL ARABI, 89/03/10, Paris, France.

L'AVEIR DE LA PAUVRETE
79/09/17 Français
JEUNE AFRIQUE, N° 979, 79/10/10, Paris, France.

L'AVENIR DES RELATIONS NORD-SUD
90/003/19 Français
Journées du Futur, Comite d'Expansion de l'Aquitaine, Bordeaux, France, 1991
FUTURIBLES, n° 154, mai 1991 Paris.

LA CAUSE REELLE DE NOTRE TRAGEDIE EST L'ABSENCE D'UNE VERITABLE DEMOCRATIE 90/11/02 Français
REALITES, N° 271, 90/11/02 Tunis, Tunisie

LATIN AMERICAN AND ARAB COOPERATION WITHIN THE SOUTH- SOUTH CONTEXT 90/04/02 English
AL ALAM, 90/04/19, Rabat, Maroc

LE DEVELOPPEMENT PASSE PAR LA RECHENRCHE SCIENTIFIQUE
79/06/03 Français

JEUNE AFRIQUE, N° 963, 79/06/20, Paris, France ;
ANALYSIS UND PROGNOSEN, N° 61, BERLIN 1989
LIBERATION , 89/05/05,Casablanca, Maroc

LE MONDE ARABE EN L'an 2000
80/06/18 Français
JEUNE AFRIQUE, 1015, 80/06/18, Paris, France

LE MONDE ARABE N'A PAS DE VISION
88/12/12 Arabic
ECHAHID, 88/12, Tunis, Tunisie ;
AL HAYAT, 88/12/15, Kuwait
LE PLUS GRAND COLONIALISME QUE CONFRONTE LE MAROC EST LE COLONIALISME CULTUREL
89/10/08 Arabic
AL ALAM, 89/10/08, Rabat, Maroc

LE RAPPORT DE LA COMMISSION BRANDT OU DES SOLUTIONS... SANS CHANGEMENT DU SYSTEME INTERNATIONAL
08/04/02 Français, English, Espagnol
JEUNE AFRIQUE, 1021, 80/07/300, Paris, France, TOWARDS ONE WORLD, Temple Smith, London UK, 1981; BALANCE CRITICO Y PERSPECTIVAS, DIALOGO NORTE-SUR, Nueva Sociedad, Mexico, 1982, FUTURIBLES, 34, 80/06.

LE SPORT ET LA PAIX 83/03/18 Français
JEUX MEDITERRANEENS 9, Casablanca, 83/04 ; AL BAYANE, 12/04/83 ; LE MATIN,18/4/83, Maroc ; Revue Officielle des JEUX MEDITERANENNS 1ère &D. 08/83 & 4e éd. 10/83

L'HUMOUR : RETROSPECTIVE ET PROSPECTIVE
12/07/82, Français, Le MONDE DIMANCHE, 82/1/07
(Rires au futur) ; JEUNE AFRIQUE, N° 1147 -1184, 82/12/29, " L'Islam entre le rire et l'humour ", Paris, France,
Bulletin de l'AMP, N° 7 -8, 82/ 06-09, Rabat, Maroc.

LES ENFANTS DE L'AN 2000
79/05/22 Français
JEUNE AFRIQUE, N° 966, 79/07/11, Paris, France, ALMOUHARRIR, 79/008/07, Casablanca, Maroc.

LES SOLUTIONS DE NOS PROBLEMES NE PEUVENT VENIR QUE DE NOUS -MEMES
90/11/09 Arabic
AL MAWQUIF, N° 156, 90/11/15 & 90/11/22, Tunis.

Les IXe JEUX MEDITERRANEENS, UNE ANALYSE SOCIO-ECONOMIQUE
83/09/19 Français, L'OPINION, Rabat, 83/09/22 ; AL MAGHRIB, 83/09/22
LE MATIN, 83/09/22 ; MAP, Paris 83/12/21, SINDIBAD,
83/04/01, Maroc, REVUE DES IXemes JEUX MEDITERRANEENS, Casablanca, 83/11 ; JEUNE AFRIQUE,
1193, 83/11/16, France
LIAISONS INTER AFRICAINES
79/05/17 Français
JEUNE AFRIQUE, N°° 960, 79/05/30, Paris, France

LITERACY, HUMAIN RIGHTS AND TECHNOLOGY
88/07/06 Arabic
ASHARQ AL AWSAT, 88/07/07; London, UK
AL MAJALLA, 440, 88/07/12, London

L'AVENIR DU MONDE ARABE N'INSPIRE PAS CONFIANCE DANS LE COURT TERME 86/12/12 Arabic
AL YOM ESSABAH, Paris, France 86/12/22; ALITTIHAD AL ISHTIRAKI, 87/12/08, Casablanca, Maroc.

L'OUA EN MUTATION - ATTENTION A L'ECONOIE
79/07/31 Français
JEUNE AFRIQUE, N° 973 , 79/08/29,Paris, France

L'ECONOMIE DU MONDE ARABE : VISION PROSPECTIVE 90/05/18 Arabic
AL AHRAM AL IQTISSADI, N° 1119, 90/06/25, Cairo, Egypte; AL ALAM , 90/06/29 & 90/08/29, Rabat , Maroc
L'UMA A DECRISPE L'ATMOSPHERE POLITIQUE 90/11/10 Français
L'ECONOMISTE MAGHREBIN, N° 16, 90/12/12, Tunis

LES ARABES SONT LES PREMIERS COBAYES POUR LE MAINTIEN DE LA SUPREMATIE OCCIDENTALE 90/11/15 Espagnol, Arabic.
EUSKADI, 90/11/16, Bilbao, Spain ; AL

ALAM, 90/11/20, Rabat, Maroc

LES MUSULMANS, ET JESUS
90/12/30 Français
LE MONDE, 91/01/04 Paris, France.

L'UNIVERSITE DOIT CONCOURIR A LA QUALITE DE LA VIE
76/07/02 Français
JEUNE AFRIQUE, Paris, France 76/07/02
MAGHREB ET FRANCOPHONIE,
Le premier Sommet Francophone : Instrument des Relations Internationales?
87/08/30 Français, Arabic
Economica, Paris, France, 1988

LES SOMMETS FRANCOPHONES " Choix " 88/111, CORI, Quebec, Canada, LE MATIN, 87/09/15-21 ; 89/01/08, Casa;
AL ALAM, 88/12/16, Rabat
ASHARQ AL AWSAT, 88/12/28 London, UK

NOUS N'AVONS PAS DE VISION PROSPECTIVE
88/12/15 Arabic
AL HAYAT , 88/12/15, London UK

NEW FRONTIERS IN SCIENCE AND TECHNOLOGY
81/04/08 English, Arabic.
DEVELOPMENT THROUGH COOPERATION, Seminar organized by OAPEC & South Europeen Countries, 2 Vol., 1981, Rome, Italy, Arabic text, OAPEC, Kuwait, 1984.

NOTRE PRESENT EST EN CRISE A CAUSE DE NOTRE ABSENCE DE PREOCCUPATION POUR LE FUTUR
90/10/06 Arabic
AL ALAM, 90/10/06 Arabic
AL ALAM, 90/1086, London , UK,

NOUS CONFRONTONS LE COLONIALISME DU FUTUR
84/04/27 Arabic
AL WATAN AL ARABI, 376, 84/04/27, Paris, France.

NOUS NOUS NE PREPARONS PAS POUR LE FUTUR
89/02/06 Français, Arabic
ASHARQ AL AWSAT, 89/06/10, London , UK

NON AU MODEL NEOCOLONIAL
88/02/06 Français, Arabic
JEUNE AFRIQUE N° 1424, 88/04/20, Paris, France, AL ITTIHAD AL ISHTIRAKI, 88/04/21, Casablanca, AL ALAM, 88/05/01, Rabat, Maroc.

NORTH AFRICA :
INTERNATIONAL OR DOMESTICISSUE?
52/10/23 English
CORNELL DAILY SUN, 52/10/24 Ithaca, New York, USA

NOUVEL ORDRE CULTUREL & HUMANITAIRE MONDIAL
82/08/22 Français
LE CONTINENT, Paris, France, 81/03/19

PANARABISME ET PANISLAMISME
58/12/02 Arabic
DA'WAT AL HAQ, Vol. I, 12, 58/12, Rabat, Maroc

PERSPECTIVES MACRO-ECONOMIQUES DES PAYS DE LA MEDITERRANEE: CONTRAINTES & PERSPECTIVES
89/10/25 Français
EPARGHE SANS FRONTIERE, N° 17, 89/12 Paris, France (ISSN 0765 – 7455)

PROBLEMATIQUES DU MONDE DE L'ISLAM
ETUDES DUFUTUR : NECESSITE, REALITES ET HORIZONS
90/05/06, Rabat, Maroc , AL MASA ? 90/04/05 –06-08 , Alger,
ALGERIE ACTUALITE, 90/05/10, diffusion integrale par télévision Algérienne;
AL MUSTAQBAL AL ISLAMI, 90/12 ; L'EVEIL, N° 0, Alger, 04/91.

PROSPECTIVE DES VALEURS SOCIO-CULTURELLES MEDITERRANNEENS
77/11/18 Français
LE MATIN DU SAHARA, Casablanca, 79/05/26 ; MAROC SOIR, 79/05/26 ; AL BAYANE, 79/05/27

QUEL ROLE POUR LA REVOLUTION NATURELLE DANS LE MONDE ?
81/03/19 Arabic
AL MOSTAKBAL, Paris, France, 81/104/18

REALITES ET PERSPECTIVES DE COOPERATION ENTRE LES PAYS MEDITTERRANEENS 88/02/25 Français
JEUNE AFRIQUE , N° 1424, 88/04/02, Paris, France, AL ALAM, 88/05/01, Rabat ; LIBERATION, 89/06/16, Maroc

REHABILITATION DE LA CULTURE BERBERE AU MAROC 80/04/010 Français
JEUNE AFRIQUE , 1007 , 80/04/23, Paris, France
ROLE DE LA JEUNESSE MAROCAINE DANS LA SOCIETE ARABE
89/03/19 ARABIC
AL ALAM, 89/03/28,
Rabat, Maroc

SITUATION CULTURELLE DU MONDE ARABE DANS LE MONDE DE DEMAIN
88/03/14 Arabic
Abu Dhabi, United Arab Emirates, 1989
ABAAD FIKRIA, vol. I, N°1 , 89/01,
Rabat, Maroc
AL KHALIJ, Abu Dhabi, 88/03/15 & 88/03/16; GULF NEWS,
88/15/03; AL ITTIHAD, 88/03/15,
Abu Dhabi, UAE

SOUTH SOUTH COOPERATION:
A PEACEFUL DECOLONIZATION OF THE FUTURE
83/08/19 English, Arabic
Français
IFDA DOSSIER 38, 83/11, Nyon, Suisse, AL ITTIHAD AL ISHTIRAKI, 83/10/08, Casa; ALMAGHRIB, 83/10/16, Rabat, Maroc, INTERNATIONAL PEACE RESEARCH NEWSLETTER, vol. XXII, 2, 1984, Hanover, N.H., USA

TERMS OF REFERENCE AND MANDATE OF THE ECA,
THE FORMATIVE YEARS 1958-1960
82/11/30 English, Français
25 YEARS OF SERVICE TO AFRICAN DEVELOPMENT & INTEGRATION, UN, New York, USA, 1983 ; JEUNE AFRIQUE, N° 1168 (Special), 83/05/25, Paris, France.
THE EUROPEAN COMMUNITY:
PAST, PRESENT AND FUTURE
82/03/28 English
THE EUROPEAN COMMUNITY, Past, Present & Future,
L. TSOUKALIS ed., Blackwell, Oxford, UK, 1983;
Journal of Common Market Studies,
Vol. XXI, N° 1 & 2, 1982.

THE LEAGUE OF ARAB STATES
1945-1950.
Ph. D thesis, London School of Economics (1957) 57/11/13
English
Faber & Faber, 1973, London, UK; Archon Booki, 1973,
Connecticut, USA, chapter in "Mathematical Approaches to international Organizations", 1979, Bucharest, Romanis

TRANSITION D'UNE CIVILISATION DE PRODUCTION A UNE SOCIETE DE SAVOIR
88/05/28 Arabic
AL MAWKEF, 88/05/28, Tunis, Tunisie

UN DESTIN LIE A LA COMMUNICATION
79/07/11 Français
JEUNE AFRIQUE, N° 1025, 79/08/27, Paris, France

YES, THERE SHALL BE A MILITARY
MILITARY CONFRONTATION IN THE GULF
900/09/27 English, Arabic
Broadeast by RFI, Paris, France, 90/10/06
AL ALAM, 90/10/18, Rabat, Maroc

المحتوى

إهداء 7
كلمة شكر 9
تقديم عام.. 10

الفصل الأول: 2 غشت 1990- أزمة الخليج بداية عهد ما بعد الاستعمار،
أسبابها وآفاقها المحتومة 11
1 - الحوار العربي الأوربي والانتفاضة الفلسطينية 13
2 - أزمة الخليج: بداية لعهد ما بعد الاستعمار 20
3- ستقوم الحرب 27
4- واقع ومستقبل التخلف العربي على ضوء التحولات العالمية 33
5- العالم الإسلامي والمستقبل 41
6- حوار حول أفق الأزمة 64
7- في ندوة " النوفل أوبسيرفاتور" 53
8- عن أزمة الخليج وأزمة التخلف العربي 59
9- مستقبل الوطن العربي: ثلاث مشاهد 67
الفصل الثاني: 18 يناير 1991- بداية لأول حرب عالمية حضارية 74
10 - حرب الخليج وسقوط أقنعة الديمقراطية الغربية 76
11 - السلام يمر عبر احترام ميثاق الأمم المتحدة 80
12- مع " الخضراء" المغربية: حديث شامل عن أسباب الحرب ونتائجها.. 82
13- الحرب التي بدأت ولن تنتهي 94
14- الوجه البشع للنظام العالمي الجديد 100
15 - مسلمو فرنسا وحرب الخليج 103
16- ماذا بعد أسبوعين من القتال؟ 105

17– سيناريو الكابوس: سيناريو السلام 108
18 – المظاهر الحضارية لحرب الخليج 113
19 – العلاقات المغاربية – الأوروبية 119
20 – تصريح لإذاعة بغداد (24 فبراير 1991) 123
21 – الأسباب الخمسة لحرب الخليج 125
22– الأبعاد العلمية والتكنولوجية 128
23– أول حرب عالمية حقيقية 143
24– رفض أمريكا مبدئي 147
25 – من مؤشرات نظام الظلم العالمي الجديد 149
26– تكلفة الحرب 150
27 – رقم زمني قياسي للثقافة الغربية 157
28 – تشيرنوبيل الخليجية 155
29– انحرافنا قبل انحراف القانون 157
30– حرب الخليج وآفاقها 160
31 – الفرنكوفونية تعد لمرحلة جديدة لتمديد هيمنتها على المغرب العربي 167
32– الذاكرة والنسيان 172
33 – عندما تهجرنا الكفاءات:الهجرة إلى الخارج وهجرة إلى الداخل 185

الفصل الثالث: مستقبلنا بعد الحرب

قراءة مستقبلية حول تحديات الواقع وضرورات المستقبل 190
34 – الجزائر وفرنسا والأمم المتحدة 191
35– مستقبليات العهود البائدة 193
36 – الدراسات المستقبلية ، حبر المستقبل 200
37 – الدعم المالي للبحث والتنمية في بلدان العالم الثالث 203
38– مظاهر سياسية للحوار بين الشمال والجنوب 212
39 – تضامن البلدان الغربية مع البلدان النامية هو مجرد رياء 216
40– الفرنكوفونية: أداة للعلاقات الدولية ؟........................ 221
41 – الفرنكوفونية والعلاقات الدولية 226
42– مؤتمر قمة الناطقين بالفرنسية (1989) 242
43– إفريقيا على عتبة القرن 21 (1980) 248
44 – المغرب الكبير عام 2000 (1982) 259

45- الجزائر لم تعد كما كانت 275
46 - لا وحدة مغربية بدون حقوق الإنسانية 279
47 - عن العلاقة بين السوق الأوربية والمغرب العربي 283
48- حق الاختلاف وواقع الهيمنة: عن التعددية والاختلاف الثقافيين (1979)............ 287
49- قضايا المستقبل الإسلامي: الدراسات المستقبلية الضرورة والواقع والآفاق.......... 292
50- اختلال موازين الغرب في ميدان حقوق الانسان 318
51- الديمقراطية وحقوق الانسان في مواجهة الفرنكوفونية 325
52- الموارد البشرية: أهمية العلم والتقنية 338
53- انصهار العلم والثقافة: مفتاح القرن الحادي والعشرون 352
54- استراتيجية تطور العلوم والتقانة في الوطن العربي 265
55- الموقف الحضاري للعالم العربي في عالم الغد 376
56- الإعلام إلى أين ؟ 388
57- الإعلام وسقوط مفهوم "السيادة" (1984) 392
58- غزو الفضاء: بعض الاعتبارات السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية 402
59- الفضاء الإعلامي المغربي 426
60- مستقبل المنظمات الدولية : وسائل إعادة تنشيطها 436
61- بروز نظام عالمي جديد وتحديات الانتقال (1990) 443
62- النظام العالمي ومستقبل التعاون الدولي: ثلاثة سيناريوهات 452
63- إشكالية الديمقراطية في العالم العربي 467

ملاحق

أ)- رسائل مفتوحة:

- رسالة إلى الأمين العام للأمم المتحدة (1 يناير 1991) 470
- رسالة إلى الأمين العام للأمم المتحدة (13 فبراير 1991) 473
- رسالة إلى الأمين العام لليونسكو (23 يناير 1991) 475
- رسالة إلى الأمين العام لليونسكو (29 يناير 1991) 456
- رسالة إلى السيد إدكار بيزاني مدير معهد العالم العربي بباريس (23 فبراير 1991) 457
ب) سيرة ذاتية للمؤلف 479
ج) مراجع وبحوث مختارة للمؤلف لها صلة بمواضيع الكتاب 481

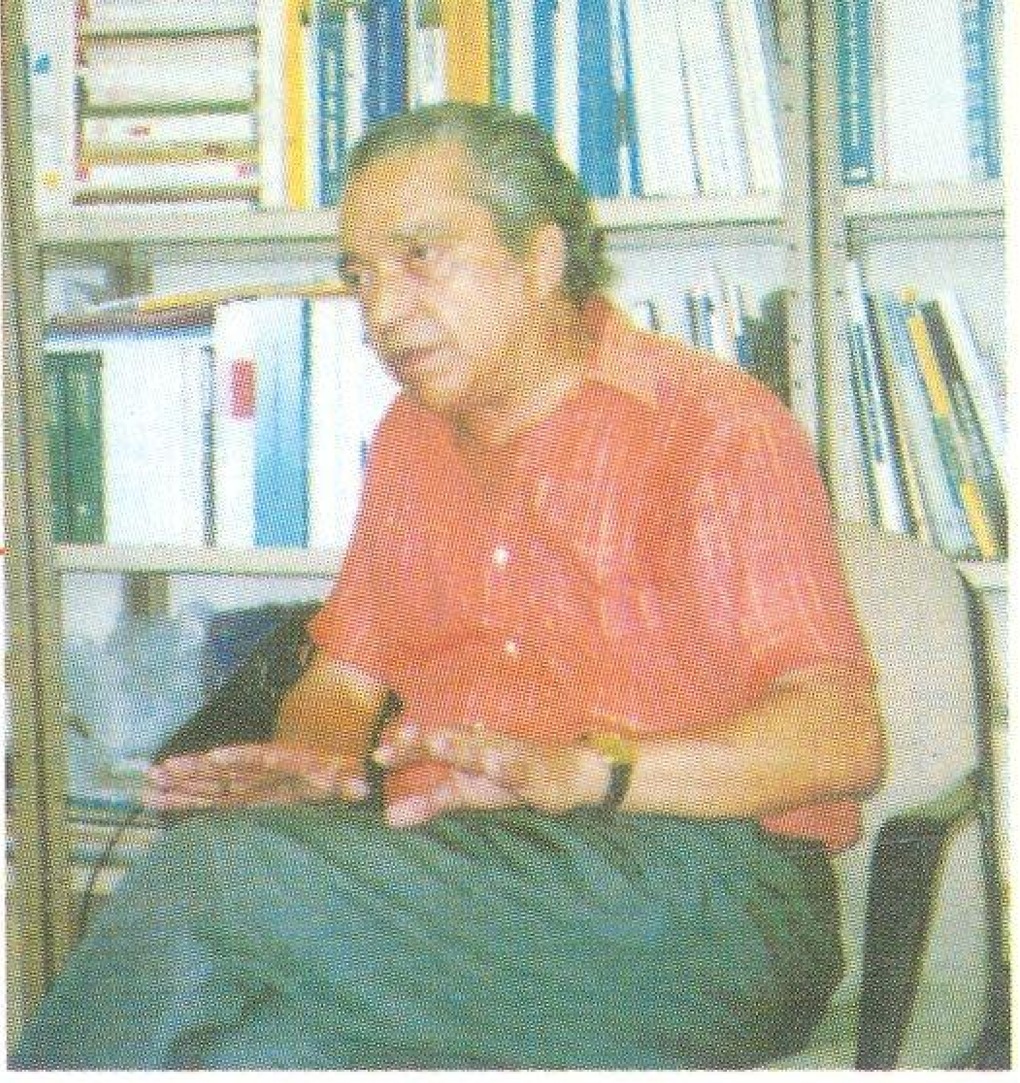

المهدي المنجرة

الحرب الحضارية الأولى

يأتي هذا الكتاب مساهمة من الدكتور المهدي المنجرة لتسليط الضوء على ما جرى ويجري داخل منطقة الخليج والعالم العربي والإسلامي والعالم الثالث. ويتميز بتنوع الزوايا التي كتب فيها المؤلف عن هذه الحرب في أبعادها الأربعة : العسكرية والحضارية والسياسية الاقتصادية و الاستراتيجية. و يربط بين كل هذه الزوايا، الرغبة الملحة في استشراف المستقبل استشرافا علميا يستند إلى أدق مناهج وآليات البحث المستقبلي. يتكون هذا الكتاب من ثلاثة فصول وملاحق :

الفصل الأول : ينطلق من 2 غشت 90 إلى حدود 17 يناير 91 تاريخ اندلاع العدوان على العراق وهي المرحلة التي يسميها المؤلف بمرحلة " ما بعد عهد الاستعمار"

الفصل الثاني: ويؤرخ لمرحلة ما بعد 17 يناير إثر اندلاع العدوان ضد العراق، كانطلاق لأول حرب عالمية حقيقية، وكبداية لأول صراع حضاري واضح بين الشمال والجنوب.

أما الفصل الثالث : فهو عبارة عن مجموعة من الدراسات كتبت خلال فترات متباينة، يكشف فيها المؤلف بوعي مستقبلي عن حجم الأخطار المسلطة على دول الجنوب.

... ويبقى هذا الكتاب مرجعا لا غنى عنه لفهم الأبعاد العميقة لهذه الحرب، ومرجعا نظريا وتطبيقيا في نفس الآن للدراسات المستقبلية.

تتزامن هذه الطبعة ونشوب الحرب الحضارية الثانية، التي ستُوقع عمليا على بداية نه
الأحادية. ويعد هذا نتيجة طبيعية لتبني منطق القوة بدل المنطق التحاوري مع الشعوب والأمم،
في ظل ما يسمى بالنظام الدولي الجديد من اختلال هذا الأخير، وكمنهجيته وسعيه للحفاظ على
امتصاص دماء الضعفاء. هؤلاء الذين أذيقوا ويلات الحروب العسكرية الدولية والأهلية والإقل
الحروب الاقتصادية والمحاصرة والتفاوتات المجتمعية الصارخة، وغياب الديمقراطية وحقوق
وانتشار "الذلقراطية".

المركز الثقافي العربي ص.ب 4006 - الدار البيضاء - المغرب